أدب المهجر

" دراسة تأصيلية تحليلية لأبعاد التجربة
التأملية ، فى الأدب المهجرى"

تاليف
الدكتور صابر عبد الدايم
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر
ووكيل كلية اللغة العربية بالزقازيق

الطبعة الأولى
١٩٩٣



تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعـارف - ١١١٩ كورنيش النيـل - القـاهرة - ج.م.ع

الإهــداء

قال الله تعالى :-

بسم الله الرحمن الرحيم

" إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب "

صدق الله العظيم

إلى أستاذى ..... العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خليف :
أهدى فـرْحة النشـوة بميـلاد هذا الكتـاب فـإنه ثمـرة من ثمـار ريادته العلميـة ، وإخلاصه وتفانيه فى توجيه أبْنائه الباحثين إلى المنهج السديد .

" إلى كل من يجد فى البحث عن الحقيقة"

(الظمآن) *

وأعرف أنك بالحب تزخرْ   وموجك عطر وشهد وكوثرْ

ويمتد خلف المدى شاطئاكَ   وفى راحتيك الأغاريد تُنثرْ

وحولك تضْوى ظلال الحياة   وكل الفصول انبعاث معطرٌ

وفى قاعك الخصب كل الكنوز   وأنْتَ من الكنز أسخى وأكْبَرْ

ويسكب فيك الضحى ضوءه   وفى ضفتيك الأصائل تَسْهرْ

ولكن : برغم الذى تحتويه   وليل الشواطىء حولك مُقمِرْ

لماذا بعينيك أفق الشرود   وخطوك فى قيده يتَعَثُرْ ؟

أكل الزوارق فيك تُغنِّى   وأنت بكل الموانىء تُكْسَرْ ؟

أترحل لكن بلا غايةٍ   وأنت لكل النهايات مَعْبَرْ ؟

أتظمأ والأفْق منك ارتْوَى   ووجه الليالى بفيضك أخْضَرْ

أجبنى فإن الرياح بقلبى   تشب العواصف والأفق أغْبَرْ

وأبصر خلف جفونك سراً   بكل التفاسير والظنُّ يَسْخَرْ

* *

" صابر عبد الدايم "

---

* نشرت هذه القصيدة بمجلة الأديب اللبنانية ١٩٧٨ .
* ونشرت بمجلة الهلال

" بسم الله الرحمن الرحيم "

((وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب))

مقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذى أودع الانسان قلبا ينبض وروحا تشتاق إلى الكمال، والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانا وأصفاهم جنانا ، وأرشدهم عقلا ، وأوضحهم بيانا .. أوتى جوامع الكلم .. وقرأ باسم ربه أسرار الكون وهتف فى محبة وصفاء .

" أدبنى ربى فأحسن تأديبى "

وبعـــــد

فمما لاشك فيه أن المؤرخ للأدب العربى الحديث لا يستطيع إغفال صورة هذا الوجه الجديد الذى أطل به هؤلاء الأدباء المهاجرون إلى الشمال وراء البحار .

وتتداعى ملامح هذا الوجه وتتجاذب لتكون فى النهاية الصورة العامة للأدب المهجرى وهذا الأدب بصورته الجديدة لم ينفصل عن الأدب العربى العريق ؛ وإنما كان لبنة أضيفت إلى صرح أدبنا الشامخ فشاركت فى إعلاء البناء وشُموخ التشييد .

واذا كانت الطبيعة الكونية لا توجب أن يجىء الابن على كامل هيئة أبيه بكل ما لديه من مواصفات ومنازع وأهواء ، وهذه سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنَّة (١) الله تبديلا " فإنه لا يستغرب أن يجىء الأدب المهجرى بصورته الجديدة فهذا هو المنطق الصحيح لطبائع الأشياء ، وإلا لما كان أدبا قويا يملأ فراغا فى الوجدان والكون .

وليس معنى هذا أنه منفصل تماما عن جذوره ومنابعه التى تتمثل فى المسيرة الطويلة العريقة لأدبنا العربى ، وإنما هو يرتبط به بأوثق الصلات ارتباط الانتماء والروح والبقاء .

ولا يضيره أن يكون مصبوغا بلون الآداب الأوروبية أو غيرها من الآداب الأجنبية فالتأثير والتأثر هما رئتا الحياة لكل من تداعبه أحلام الاستمرار.

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٦٢) .

ولهذا..........

رأيتنى اتجه إلى التنقيب فى هذا الأدب مدفوعا باستمتاعى الذاتى به ، ورغبة الباحث فى إظهار ماكمن من كنوزه الثمينة.

وأطلتُ النظر فيه ، وعايشتُ نصوصه ، وطالعت سيرة أدبائه ، وتأملت حياتهم الشخصية محاولا الربط بين حياتهم ونتاجهم ما أمكننى ذلك فى حدود الموضوع الذى أدرسه.

ورأيت أن ظاهرة التأمل تسيطر على روح الأدب ، وتسرى فى عروقه ، وتكاد تكون وجها مميزا له يضعه فى قائمة خاصة حينما تتفاضل الآداب وتتنازع حق البقاء.

ورأيت أن هذه الظاهرة يجب أن تحتل مكان الصدارة فى حقها من الاهتمام الذى يوليه الدارسون لهذا الأدب . لأنها طفرة فى عالم الفكر والإحساس بعثت من جديد لغة الإشراق والتأمل الباطنى ، والبحث عن الأسرار وما خلف الأشياء من عوالم مبهمة لا يلج غموضها إلا من أوتى حظا غير ضئيل من اللغة الكونية وأعارته الروح جناحيها المحلقين فى عالم الغيب والشهادة.

– ومن تتبعى للدراسات التى تعرضت لإبراز قيمة هذا الأدب.رأيت أنها تدرسه من الوجهة الكلية ، مما يعطى لها صفة التعميم وبعدها عن دائرة المعالجة الجزئية الفنية.

– وفى مقدمة هذه الدراسات يأتى كتاب ((أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية)) وهو رصْد يكاد يكون شاملا لمسيرة هذا الأدب فى الغربة القاسية المبدعة وكان جهدا فعالا أعطى دوره فى وقته .

وكتاب " الشعر العربى فى المهجر " لمحمد عبد الغنى حسن " وهو لمحات نقدية ثم ترجمات لأشهر أدباء المهجر اعتمدت على الذاتية النقدية والهوى الشخصى بدافع من صلته الحميمة بهؤلاء الأدباء.

وكتاب "أدب المهجر" للناعورى . وهو دراسة مستفيضة اتسمت بالوجهة النقدية التحليلية والتنويه بروائع هذا الأدب .

وكتاب "التجديد فى شعر المهجر " للدكتور محمد مصطفى هداوة . وهو متسم بالروح العلمية والاتجاه الرأسى فى البحث . حيث عالج موضوع التجديد فى شعر المهجريين و يلاحظ

انه اقتصر على الشعر وعلى موضوع محدد . وكان باكورة طيبة وسّع دائرتها وإن لم يضف جديدا د/ أنس داود فى كتابه " التجديد فى شعر المهجر " الذى نال به درجة الماجستير.

وكتاب "الأدب العربى فى المهجر " للدكتور حسن جاد . وهو اضافة جادة لما سبق من الدراسات حول هذا الأدب . وهو دراسة شاملة فيها ملامح تاريخية ونقدية مع دقة فى البحث وجمال فى الأسلوب ، ورصانة فى العبارة ، وولع ذاتى بهذا الأدب .

وكتاب " قصة الأدب المهجرى " للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى . وهو يتكون من جزأين ويسير فى الاتجاه نفسه . وإن كان قد اعتمد فى كثير من مباحثه على المقابلات الشخصية وهذه وجهة جديدة أضافها د/ خفاجى فى كتابه .

وكتاب " الشعر العربى فى المهجر " أميركا الشمالية " للدكتور احسان عباس ومحمد يوسف نجم ، والمؤلفان فتحا آفاقا جديدة في مجال البحث فى هذا الأدب حيث عالجا بعمق الاحساس الباطنى لدى شعراء أميركا الشمالية وغاصا فى نفوسهم واستبطنا ذواتهم . وقامت دراستهما على الاستبطان والاستقراء وتحليل النموذج من الداخل للنفاذ منه إلى القاعدة .

وأشهد أننى استفدت من منهج هذا الكتاب فى هذه الدراسة استفادة بالغة مثمرة ، وكتاب "النثر المهجرى" أدباء أميركا الشمالية . للدكتور عبد الكريم الأشتر وهذا الكتاب يقف موازيا للكتاب السابق فى منهجه وطريقته فى التحليل حيث بحث اتجاهات المهجريين فى فنون النثر من قصة ورواية وسير ذاتية وتراجم غيرية ومقالة فنية . ودرس الأدوات التعبيرية عندهم وهو إضافة مبدعة إلى رصيد هذا الأدب من الدراسات .

– وبعد إستقراء هذه الدراسات السابقة وغيرها من الدراسات الجزئية الأخرى . لاحظت ان ، نزعة التأمل لم تحظ باهتمام الدارسين بصفتها اتجاها مستقلا . مكانه فى الأدب المهجرى مكانة القلب من الجسم . أثره يسرى فى كل الأعضاء وكلها تنتمى إليه وتحيا به ولا يمنع من أن تكون له خواصه ووظائفه المستقلة.

كذلك " التأمل " يتغلغل فى كيان هذا الأدب وتكاد تنتمى إليه كل لمحة من لمحاته.

وإن ذلك لا يمنع من تفرده بخصوصيات تعطى له مدلولا خاصا وبواعث أنتجتها الظروف ، وموضوعات وأدوات فنية وطرائق تعبيرية .

ومن هنا تأتى أهمية دراسة الموضوع " النزعة التأملية فى أدب المهجر " وهو لبنة تضاف إلى الصرح الشامخ الذى شاده الباحثون قبلى وأعلوا به مكانة هذا الفن وما زال الباب مفتوحا فطوبى للداخلين .

ولهذا وجهت جهدى ووجدانى إلى خوض غمار ذلك الموضوع .

ووجدت أمامى عقبات كثيرة ترجع إلى ما يلى :

أ - البحث فى مثل هذا الموضوع يحتاج إلى بعض الدراسات النفسية التى تفسر علي ضوئها آثار هؤلاء الأدباء .

ب - لابد من معرفة المؤثرات التى تأثر بها هؤلاء الأدباء والمنابع التى استقوا منها أفكارهم وهى تتمثل فى :

١ - مؤثرات أدبية :

فهم تأثروا باتجاهات كثيرة وخاصة بالأدب الأوروبى والحركة الرومانسية والاتجاه الرمزى فى أوربا خلال القرنين التاسع عشر والثامن عشر .

٢ - مؤثرات فلسفية :

حيث قرأوا فلسفات الشرق مثل فلسفة الهند وفارس واطلعوا على الفلسفة الإسلامية وتأثروا بها وبروادها .

وكذلك الفلسفة اليونانية ، وإن كانت هذه مؤثرات عامة إلا أن بصماتها التى ظهرت فى أدبهم تكسبها شيئا من الخصوصية في التأثير فى نتاجهم ومعتقدهم .

٣ - مؤثرات دينية :

حيث تفتحت عيونهم على حضارة الشرق ودياناته وحضارة العرب التى تحمل السمات الإسلامية والمسيحية وبعض آثار اليهودية إلى جانب ملامح باهتة من معتقدات قديمة تسربت من بقايا بابل وآشور وآمون .

ومن هنا كان لزاما على أن أمزج اطلاعى على آثارهم ونتاجهم بمطالعتى للمراجع التى تعالج هذه الاتجاهات وهى متعددة ومتنوعة .

- وقد تعرفت على سيرة بعض المتصوفين مثل ابن الفارض والحلاج ، ومحيى الدين بن عربى وقرأت أشعارهم الصوفية وخاصة " التائية الكبرى " لابن الفارض وعشت فترات مع بعض نصوص الانجيل . وأتيح لى ان أطالع بعض النصوص التوراتية حتى أفهم عن قرب اتجاهاتهم العقائدية .

ورأيت فى القرآن سندا قويا أدافع به عن رأيى الذى أخالف به بعض آرائهم إن كانت تمس العقيدة الصحيحة . وليس هذا حجرا عليهم بل إظهارا للحقيقة التى يجب أن تكون.

- وقمت بمطالعة نصوص من الشعر الأجنبى للمقارنة بينها وبين نتاج بعض المهجريين والوقوف على مدى التأثير أو التأثر.

- وكتاب : " ثورة الشعر الحديث " للدكتور عبد الغفار مكاوى كان معينا قويا فى هذا المجال . حيث اشتمل على جزأين : الأول دراسة والثانى نصوص مترجمة إلى جانب البحوث والمقالات وتراجم الأدباء التى ترد تباعا بالمجلات الأدبية المنتظمة.

ورأيتنى أنهل من المصادر الأساسية والينابيع المثمرة المتمثلة فى دواوين المهجرين وكتبهم وقصصهم وروايتهم .

وقمت بمراسلة الشاعر المهجرى : رياض المعلوف " وتعددت الرسائل العلمية بينى وبينه. وانتزعت منه اعترافات صريحة مباشرة عن رأيه فى الموضوعات التى تتضمنها الرسالة ووافانى بمعلومات قيمة عن أخويه فوزى المعلوف وشفيق المعلوف .

وعثرت منه على مخطوطة لملحمة فوزى المعلوف " على بساط الريح" .

وأرسل إلى بعض القصائد المخطوطة من نتاجه والتى لم تنشر بعد .

- ومنهجى فى دراستى يقوم على الرؤيا الداخلية للنصوص التى أبدعها هؤلاء الأدباء من قصيدة وقصة ومقالة ورواية ، والرجوع بالفكرة الفلسفية إلى مصادرها التى استقوها منها إن لم تكن من ابداعهم .

وتفسير بعض مواقفهم وآرائهم فى ضوء النظريات النفسية الحديثة ما أمكننى ذلك.

- وفى دراسة مواقفهم من مظاهر التأمل كان منهجى دراسة موقف كل شاعر على حده

ثم موازنته بالآخرين وبيان مدى اتفاقه معهم أو اختلافه .

وقد يختلف موقف الشاعر نفسه من المظهر الواحد تبعا لتطور الزمن ونضوج الفكرة عنده ، وقد يتفق بعضهم حول رأى واحد ، وقد يقلد بعضهم البعض الآخر ، أو يعيش فى ظل آراء الآخرين ، وبعد ذلك استخلصت النتائج التى تمخضت عنها دراسة كل مظهر وكان اختيارى للشعراء على أساس تفوق الشاعر فى المظهر الذى أدرسه .

ويلاحظ أننى كررت الشوامخ كثيرا من أمثال جبران ونعيمة وأبى ماضى وليس هذا بمستغرب فهم بلا شك لهم فى كل مظهر الباع الطويل .

وذلك لا يعنى أننى غمطت الاخرين حقهم . طالما لهم رأى منفرد يستحق التنويه به . وقد بنيت بحثى على مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة.

وذكرت فى المقدمة أسباب اختيار الموضوع والدراسات السابقة المتعلقة به ، ومصادره ووضحت فى التمهيد الخطوط الأولى لنشأة هذا الأدب التى تتمثل فى الهجرة وزمنها وظروفها ثم بيان بواعثها المختلفة .

ودرست فى الباب الأول : التأمل مدلوله وبواعثه " وهو يتكون من فصلين .

والفصل الأول : يتكون من أربعة مباحث :

أ - المدلول اللغوى للتأمل وتطوره .

ب - المدلول الفنى وبيان كنهه ، وكيف ينشأ .

جـ - التأمل والشاعر العربى .

د - بين الفلسفة والتأمل .

وفى الفصل الثانى درست بواعث التأمل وراعيت فيها دراسة هذه البواعث على ضوء الظروف التى مر بها أدباء المهجر من النواحى المختلفة النفسية والثقافية والاجتماعية والسياسية.

وخصصت الباب الثانى لدراسة مكانة التأمل بين الاتجاهات الأدبية الأخرى ، وطرق التعبير عنه ، وبيان خصائصه عند المهجريين وأهم المؤثرات التى أثرت فى أدبهم .

وهويتكون من فصلين ، بينت فى الفصل الأول الاتجاهات المتعددة فى الأدب المهجرى فى إجمال . وأوضحت فى الفصل الثانى طرق التعبير عن التأمل فى الشعر وفى النثر . وأبرزت فى الفصل الثالث أهم الخصائص والمؤثرات .

وفى الباب الثالث :

درست مظاهر التأمل ، وراعيت فى هذه الدراسة التحليل والموازنة بين مواقف الأدباء ، والاستنتاج المبنى على مقدمات صادقة ، وربط موقف الأديب بالظروف المتباينة التى عايشها وأثرت فيه .

ويتكون هذا الباب من سبعة فصول :

الفصـــــل الأول : أبعاد الرؤية الدينية .

الفصـــل الثانى : الوجود

الفصـــل الثالث : النفس الإنسانية

الفصـــل الرابع : الحب

الفصل الخامس : الطبيعة

الفصل السادس : الموت

الفصـل السابع : الحياة

وفى الخاتمة ، ذكرت أهم النتائج التى توصلت إليها بعون الله وتوفيقه .

وبعــــــد :

فهذا الأدب العريق الصافى الضارب بجذوره فى أعماق التربة الإنسانية ، والمحتضن بفروعه المثمرة سماء الأحلام التى تعرج إليها الأرواح الظمأى إلى الحقيقة والخلاص . حرىّ بالدراسات الجادة المتعددة التى تجلو وجهه الحقيقى الذى يزداد جلاء جيلا بعد جيل .

وأمل أن تكون دراستى أدت دورا فى هذا المجال . « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

دكتور : صابر عبد الدايم
الزقازيق – غرّة شعبان المبارك ١٤١٢هـ
٥ من فبراير سنة ١٩٩٢

تـمـهـيـد

(١) النشأة (أ) الجذور والمنابع :

إن الجذور الأساسية لأدب المهجر تضرب بأصالة فى أعماق الأرض التى احتضنت البذور الفطرية الأولى لهذا الأدب . والتى آتت أكلها بعد ذلك طيبا حينما وطئت أقدامهم أرض العالم الجديد حيث تعددت الروافد التى غذت أدب هؤلاء المهاجرين فى مهاجرهم ، والأرض هى ســوريا ولبنان . وكانتا خاضعتين فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للحكم العثمانى ، " ورأت الدولة العثمانية أن خير وسيلة لإضعاف لبنان ، واخضاعه لسيطرتها ، هى إثارة الفتن بين سكانه . وقد بدأت نيران هذه الفتن تندلع منذ سنة ١٨٤١ م حتى بلغت ذروتها فى فتنة الستين ، التى اشتركت فى تأجيجها الدولة العلية ، والدول الأوروبية ذات المصالح المتعددة فى لبنان والشرق ، ومنح الجبل على أثر ذلك نوعا من الاستقلال الذاتى ، وضعت أسسه سنة١٨٦١ م ونقحت بعد ثلاث سنوات وحمته الدول السبع التى اشتركت فى إعداده وهى الدولة العلية وانجلترا وفرنسة وبروسية والنمسة ثم إيطاليا التى إنضممت إليها سنة ١٨٦٤ .

وقد هيأ هذا النظام للبنان نوعا من الاستقرار ، إلا أنه ... أتاح للأجانب أن ينقضوا على اقتصاديات البلاد ، فى حماية القانون .

ولذا اضطر كثير من أبناء البلاد إلى تركها إلى المهاجر فى مصر واستراليا والأمريكتين (١) " وكانت الهجرة فرارا من واقع أليم جثم على صدر الأحرار ، والتماسا لواقع جديد يتنفسون فيه بحرية ويجسمون أحلامهم التى وئدت فى غياهب الجور والطغيان السياسى .

يقول نسيب عريضة من قصيدته " حكاية مهاجر سورى "

غريبــا مــن بــلاد الشــرق جئتُ	بعيــدا عــن حمــى الأحبـاب عشتُ
تَخِـذْتُ أميركا وطنــاً عــزيــزا	فكــانت لــى كأحســن ما اتخــذتُ
أتاهــا للغنـــى غيـــرى وإنـــى	كمــا جــاءوا مــع الإقــدام جئتُ
ولكنـــى طلــبت بهـــا حيـــاة	مــع الحــرية المثلـــى فنِلْــتُ (٢)

(١) الشعر العربى فى المهجر " أميركا الشمالية ص ١٨ - ١٩ د / أحسان عباس ، د / محمد يوسف نجم.
(٢) ديوان الأرواح الحائرة ص ٢٦٧ ، نسيب عريضه .

... وحين نتتبع مسيرة الهجرة، ومواكب المهاجرين فى شىء من الإيجاز نرى أن الهجرة بدأت أولا إلى أمريكا الشمالية ، ولم يتجه المهاجرون إلى جنوبها إلا بعد وصولهم إلى الشمال بنحو عشرين عاما . وكانت لهم أول الأمر مراكز للتجمع يلتقون فيها ثم يتداحون بعد ذلك فى المدن والضواحى والقرى الأخرى (١) .

أوائل المهاجرين :

وإذا حاولنا أن نتقصى المهاجرين الأول لنعثر على البذور التى غرسوها فى حقل هذا الأدب وشاركت فى نموه ، نرى أن أول مهاجر هو اللبنانى " أنطون البشعلانى " سنة ١٨٥٤ م كما يذكر د / حسن جاد فى كتابه " أدب المهجر " ص ٢٧ ويوافقه د / خفاجى فى كتابه قصة الأدب المهجرى وقد نقلا هذا الرأى عن " فيليب حتى " ولكن د / محمد مصطفى هدارة يقول معقبا على رأى فيليب حتى " والواقع أنه الخورى إلياس الموصلى الذى دخل أمريكا سنة ١٦٨٨ ثم تبعه فلابيانوس كفورى سنة ١٨٤٩ م(٢) " وقد نقل هذا الرأى كما يذكر عن كتاب الشدياق " نثار الأفكار " .

ويذكر محمد عبد الغنى حسن أن ، أول عربى وطئت قدماه أرض كولمبس " هو الدكتور لويس صابونجى " ويذكر د / حسن جاد أن هجرته كانت عام ١٨٧٢ م ويذكر أنه هاجر بعد الأديب " ميخائيل رستم " وهو بذلك ينفى رأى " محمد عبد الغنى حسن " ويوافقه على هذا د / خفاجى .

ويتضح من عرض الآراء السابقة أن الهجرة بدأت مقدماتها تظهر منذ أواخر القرن التاسع عشر ما عدا هجرة : الخورى إلياس الموصلى سنة ١٦٨٨ م كما يقول الشدياق . ولم يكن لها أثر أدبى . ويلاحظ أن الهجرة كانت إلى الشمال أولا كما أوضحت سابقا . أما الهجرة إلى الجنوب فترجع إلى عام ١٨٧٤ م حيث كان أقدم المهاجرين شقيقين لبنانيين من عائلة " زخريا "

ثم تكاثرت الهجرة فى عام ١٨٨٠ م . حيث وصل أول مهاجر فلسطينى إلى تشيكى وهو " إلياس جبرائيل دعيق " .

---

(١) الأدب العربى فى المهجر ، ص ٢٦ ، د / حسن جاد .
(٢) التجديد فى شعر المهجر ، ص ٤٩ ، د / محمد مصطفى هدارة .

ثم وصلت طلائع المهاجرين إلى البير وكولومبيا عام ١٨٨٢ م وكان " سانتياغو " أول مهاجر الى المكسيك ١٨٨٢ (١) وجل المهاجرين كانوا من سوريا ولبنان والقليل من أبناء فلسطين ، والهجرة من مصر إلى أمريكا كانت قليلة .

ومن الأدباء المهاجرين إلى البرازيل من مصر " محمود الشريف " وله كتاب بعنوان " ساعة مع قازان " وإلى الأرجنتين " يوسف الدين الرحال " الذى ولد فى بولاق عام ١٨٦٣ م وهاجر إلى الأرجنتين عام ١٩١٠ م وقد ترجم معانى القرآن الكريم إلى الأسبانية .

وأشهر المهاجرين المصريين " أحمد زكى أبو شادى " وقد أقام فى الولايات المتحدة تسعة أعوام " ١٩٤٦ - ١٩٥٥ " .

ومن أوائل الدواوين التى ظهرت فى المهجر الأمريكى :

(أ) ديوان " الغريب فى الغرب " لميخائيل رستم الشويرى سنة ١٨٩٥ م .

(ب) ديوان " النحلة فى الغرب " للدكتور لويس صابونجى سنة ١٩٠١م .

(ج) ديوان " نسمات الغصون " لسليمان داود سلامة سنة ١٩٠٥ م .

(د) ديوان " نفحات الرياض " لرزق حداد . وقد أصدره بعد الديوان السابق .

وهذه الدواوين وغيرها من بواكير الشعر المهجرى فى طوره التقليدى الذى لا يخرج عن التجارب القديمة مثل المدح للسلطان والرثاء والمعارضة لقصائد الأقدمين . إلا أن ذلك لم يمنع أن تكون هناك بنور جديدة أثمرت بعد ذلك وظهرت جلية فى نتاج كبار أدباء المهجر أمثال جبران وأبى ماضى ونعيمة ، والقروى ، وشفيق المعلوف وفوزى المعلوف .

ورجوعا إلى بيئة لبنان خاصة فى القرن التاسع عشر نرى أن المهجريين سبقوا بإرهاصات أدبية مهدت الطريق لهم . وكونت مزاجهم الثقافى ورحلوا والبدايات الأولى تتأهب لتشق تربة أعماقهم وتخرج للنور الجديد فى العالم الجديد .

---

(١) الشعر العربى فى المهجر - محمد عبد الغنى حسن ، ص ٢٥ . عن كتاب " الناطقون بالضاد فى أمريكا " ص ١٩ .

وتمثلت هذه الإرهاصات فى المعالم التالية :

(أ) الترجمات :

والترجمة هى أول درجة فى سلم الارتقاء الثقافى

١ - وتمثلت الترجمة فى قصة " روبنسون كروزو " لدانيال ديفو " التى ترجمها بطرس البستانى وطبعت بمطبعة المبشرين الأنجيليين بمالطة سنة ١٨٣٥ م ، باسم التحفة البستانية فى الأسفار الكروزية " "وروبنسون كروزو " بطل القصة يمثل فى القصة الفتى البورجوازى برغبته الشديدة فى المعرفة وإيمانه بالتجربة العلمية وركوب متن المخاطر وفى علاقاته بالطبيعة التى تكتنفه وبالخالق الذى برأه وبرأ الكون " (١) وهو نموذج للفتى المغامر الذى تستطيع أن تقول إنه تكرر فى صورة كثيرة من شخصيات المهجريين وتصرفاتهم ، فهو لم يكتف بالرحلة إلى البرازيل برغم تحطم سفينته فى البحر ، بل حمل نفسه إلى مجاهل أفريقيا ، حيث قذفت به الأمواج إلى سواحل جزيرة مجهولة عاش فيها مدة تزيد عن عشرين سنة قضاها فى التجربة والاختبار فى شئون الحياة العملية السهلة . " وعاش حياة نقية عكف فيها على قراءة الكتاب المقدس فعرف خالقه دون واسطة وحافظ على السبت وعلى النظافة الروحية والجسدية " (٢)

والقصة كانت خير تعبير عن أحوال الطبقة الوسطى الإنجليزية التى كانت آخذة فى النمو فى القرن الثامن عشر وهى من ناحية أخرى تحتوى على إرهاص بما يؤول إليه حال المجتمع البدائى عند ما تطرأ عليه عوامل التمدين .

٢ - **كتاب : سياحة المسيحى " لجون بنيان "**

وترجم إلى العربية مرادا به أن يقدم بين يدى نصارى البلاد صورة واضحة لمجاهدة النفس والغلبة عليها واكتشاف طريق السعادة بواسطة قراءة الكتاب المقدس وتطبيق تعاليمه " (٣) . ولم تقتصر الترجمة على التوجيه الخاص بل قفزت خارج دائرة التوجيه لتلعب دورها فى المناخ العام ، واتجهت الترجمة إلى القصص" الرومانتيكية

(١) الشعر العربى فى المهجر " أمريكا الشمالية " ص ٢١ ، إحسان عباس ، محمد يوسف نجم .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

" نظرا لما فيها من معانى التحرر والانطلاق . وحب المغامرة والبحث عن المجهول حيث اتجه الكتاب إلى ترجمة قصص " جورج أوهنه ، وهنرى بوردو ، وأدولف دنرى ، واسكندر دوماس ، " الأب والإبن " وأوغست شنيجل ، وينسون دى تيراى ، وبرنارد ان دى سان بيير ، وأوجيه سو ، وشاتو بريان ، وفرانسوا كوبه ، وموريس لبلان . وغيرهم من الكتاب الرومانتيكين ، ومؤلفى قصص المغامرات .(١)

(ب) التأليف :

ويلاحظ أن التأليف اتجه إلى المسرح والقصة وهى بواكير نهضة أدبيه آتت ثمارها فيما بعد ، وأول ما يقابلنا مسرحيات ، مارون النقاش وهى " أبو الحسن المغفل " ١٨٤٩ م ، و"البخيل " ١٨٤٧ م و " السليط الحسود " ١٨٥١ م وفى سنة ١٨٥٥ م أصدر فارس الشدياق كتابه الساق على الساق فيما هو الفارياق . وقد أبدع سليم البستانى فى عدة قصص . ويلاحظ أن أبطال قصصه تضم ملامح من شخصية " روبنسون كروزو " ، وشخصيات قصص دوماس وشاتوبريان واوجين سو ن وبرنارد ان دى سان بيير . ويظهر ذلك واضحا فى قصصه " الهيام فى جنان الشام " و " أسماء " و " بنت العصر " وفرح أنطون يأتى بمقالاته وقصصه ومسرحياته .

وقد كان للقضية الدينية ، وللسلطة الاجتماعية والسياسية والثقافية للكنيسة فى لبنان أثر فى أدبه . شأنه فى ذلك شأن الشدياق من قبل وجبران والريحانى ونعيمة من بعده (٢)

– وإذا كانت الملامح السابقة تكون لنا الجذور التى تمثل المنابع الثقافية والاجتماعية والسياسية لتكوين عقلية المهجريين على مستوى بيئتهم إضافة إلى العوامل التى أثرت فيهم فيما بعد وتلقوها خارج بيئتهم فكيف يا ترى شقت هذه الجذور ظلمة الجماد وفتتت جمود الأرض لترى نور الحياة وتثمر وتؤتى أكلها . وكيف شقت هذه المنابع مجراها بين الصخور لتفيض بالكوثر المعسول على شفاه المغتربين فتغذى مشاعرهم وتزيد من شحنات أرواحهم المتدفقة وتدفعهم إلى التأمل المركز ..؟

إن المهجريين أمنوا بأنه لا بد من روابط تجمع شملهم وعنها تصدر أعمالهم الإبداعية

---

(١) انظر كتاب : فن القصة : د محمد يوسف نجم

(٢) الشعر العربى فى المهجر – أحسان عباس ومحمد يوسف نجم ص ٣١ ، ٣٢ .

فكونوا الروابط الأدبية وأشهرها رابطتان :

(أ) " الرابطة القلمية فى الشمال " (ب) العصبة الأندلسية فى الجنوب .

الرابطة القلمية :

فى أبريل عام ١٩٢٠ التقت آراء جماعة من أدباء المهجر فى أمريكا الشمالية حول فكرة واحدة هى ضرورة إنشاء رابطة توحد جهودهم وتكتل قواهم ، وقد أطلقوا عليها اسم الرابطة القلمية . واتضح اتجاهها الأدبى الذى يبحث فيما وراء الأشياء ولا يكتفى بالقشور فى الشعار الذى قام بتصميمه جبران خليل جبران ووضع معه هذه العبارة :((لله كنوز تحت العرش مفاتيحها ألسنة الشعراء)) وأعلنوا رأيهم فى الأدب حينما قالوا : الأدب هو الذى يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها (١) ، والأديب هو الذى خص برقة الحس ودقة التفكير وبعد النظر فى تموجات الحياة وتقلباتها ، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة فى نفسه من التأثير(٢) ولقد أحدثت الرابطة القلمية تأثيراً كبيرا فى نهضة الشعر العربى بالمهجر كما أحدثت ثورة عارمة من أنصار القديم عليها . ولكنها شقت طريقها فى عزم وإصرار حتى أصبح لها أنصار فى كل مكان (٣) . وعن الرابطة القلمية صدرت الأعمال الأدبية التى توضح إلى حد بعيد مدى إغراق المهجريين فى التأمل فى كل مجالات الوجود وما وراءه والنفس الإنسانية والطبيعة وما وراءها ، وقيم الحياة من خير وشر وحب وبغض . وكان للشماليين فى هذه النزعة الباع الطويل وفى مقدمتهم ميخائيل نعيمه بشعره ونثره ومنهجه النقدى الذى عبد به الطريق أمام الأدباء الآخرين وفى كتابه الغربال يقول : إذن فالأدب الذى هو أدب ، ليس إلا رسولا بين نفس الكاتب ونفس سواه والأديب الذى يستحق أن يدعى أديبا هو من يزود رسوله من قلبه ولبه .

إن " الرابطة القلمية " ما كانت لتقدم هذه المجموعة إلى قراء العربية لولا اعتقادها بأنها قد اتخذت من الأدب رسولا لا معرضا للأزياء اللغوية والبهرجة العروضية ، وقد تكون مخطئة فيما تعتقد . لكن إخلاصها فى الأقل يشفع بخطئها . فهى لا تدعى لهذه المجموعة أكثر مما تستحق . فإن لم يكن لها الا تشويق بعض الأرواح الناشئة إلى طرق الأدب عن سبيل المعجمات فحسبها ثوابا (٤) .

(١) " جبران " لميخائيل نعيمة ص ١٧٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ، ص ٦٣ .
(٤) ميخائيل نعيمة – الغربال ص ٢٧ – ٢٨ .

وقد ظلت الرابطة إلى عام ١٩٣١ ثم تبعثرت بوفاة جبران ثم رشيد ونسيب وندرة وغيرهم ثم بعودة ميخائيل نعيمة إلى لبنان .

العصبة الأندلسية :

وما إن آذنت شمس الرابطة القلمية بالمغيب حتى سطع هلال العصبة الأندلسية فى الجنوب . وكان قيام العصبة الأندلسية فى " سان باولو " سنة ١٩٣٣ م وكان صاحب فكرتها : شكر الله الجر الذى وجد عند ميشال معلوف الاستعداد للتنفيذ لتقوم العصبة مقام الرابطة التى انفضت من الشمال .

وقامت هذه العصبة : لتجدد طبيعة الشعر العربى ولكن فى هدوء وفى غير ما عنف أو ثورة . كما أنها لم تجعل من أهدافها قطع الصلة تماما بين الشعر الحديث والشعر العربى القديم بل كانت على العكس من ذلك راغبة فى بقاء شىء من القديم يصل الماضى بالحاضر ولا يقطع العرب المحدثين عن التراث الفكرى لآبائهم الأقدمين (١)

ومن أعضاء العصبة البارزين : فوزى المعلوف ورياض المعلوف وشفيق المعلوف والياس فرحات والقروى وشكر الله الجر . وكان لهذه العصبة دور فى التأمل وإن يكن مخالفا لمنهج الرابطة القلمية . فبينما كان طابع الشماليين التأمل والحيرة . كان طابع الجنوبيين الدعوة إلى تهذيب الواقع وتعميق الإحساس القومى والحنين إلى أرض الوطن والتفاخر بالمآثر العربية والأمجاد القديمة . ولا يمكن أن نُغْفل مطولتى فوزى المعلوف " على بساط الريح " و " شعلة العذاب " (٢) والأخيرة لم تتم ومطولة شفيق المعلوف " عبقر و أحلام " ومطولة الياس فرحات " أحلام الراعى ووقفة "شكر الله الجر" عند " شلال تيجوكا " والربيع الأخير للقروى ورباعياته الموجودة بديوانه وغيرها من القصائد التى تزخر باثارة مشكلات الحياة وهموم الإنسان .

ويمكن أن نقول : إن موقف الشماليين هو الهروب من الواقع وعدم القدرة علي مجابهته أو الثورة عليه وتحديه .. والرغبة فى التغيير وغالبا ما تنأى عنهم أمانيهم . أما موقف الجنوبيين فهو دائما المواجهة والتصدى ومحاولة التغيير فى هدوء والتسليم أحيانا بالواقع المفروض .

– فنعيمة يقول فى حيرة وقلق :

---

(١) د / محمد مصطفى هدارة : التجديد فى شعر المهجر ص ٥٢ .

(٢) وصلتنى مخطوطة لهذة المطولة بخط يد شقيق الشاعر وهو الشاعر رياض ملعوف .

أطلقت قلبي عند الغروب
ليتسلى مع القلوب
فعاد قلبي بعد الغروب
يشكو إلى ثقل كروبي

* *

أرسلت طرفي بين النجوم
وقلت علي أنسى همومي
فطاف طرفي بين النجوم
ولم يشاهد سوى غيومي (١)

وهذا الشعر كثيرا ما يسيطر علي نعيمة وهو من أبرز أدباء الرابطة القلمية – وقد قال الأبيات السابقة في سنة ١٩٢٢ " ألف وتسعمائة واثنتين وعشرين ، ويلازمه هذا الشعور ويتكثف حتى يتخيل الحياة قبوراً تدور يقول من قصيدته " قبور تدور وقد كتبها في سنة ١٩٢٨ ألف وتسعمائة وثمان وعشرين :

فخلي جمالا يراه الغرور وليست تراه عيون الدهورْ
وخلي الجهاد ، وخلي الطموح وخلي القصور ، وحيّ القبورْ
ودوري مع الكون جيلا فجيلا فهل نحن الا قبور تدور (٢)

ويقول أبو ماضي :

أسير في الروضة عند الضحى حيران كالمدلج في فد فد
أمامي الماء ولا أرتوي وحولي النور ولا أهتدي

* *

ياسائلي عن أمسي كيف انقضى دعه وسلني ياأخي عَنْ غد
أرْوح للنفس وأهْنا لها أن تحسب الماضي لم يولد (٣)

---

(١) ميخائيل نعيمه همس الجفون ص ٦٥ .
(٢) ميخائيل نعيمة همس الجفون ص ٧٠ .
(٣) إيليا أبو ماضي تبر وتراب ص ٣٠ .

ويقول بدافع من الشعور نفسه :

جُعْــت والخُبــز وفيــرٌ في وطابــي والسنـا حـولي وروحـي في ضبـاب
وشــربت المــاء عذبــا سائغــا وكأنـي لـم أذق غيــر ســراب
حيــرة ليـس لهـا مثـل سـوى حيـرة الـزورق فـي طاغي العباب (١)

ويثور جبران على المجتمع وتقاليده ، وقد كانت ثورته انفعالات صارخة كثيرا ما ضاع صداها ، وفي قصة " يوحنا المجنون " يتجسد هذا الشعور حينما يقول على لسان يوحنا مهاجما رجال الدين المسيحي " تعال ثانية يايسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك فقد جعلوها مغائر تتلوى فيها أفاعي زيفهم واحتيالهم ، تعال وحاسب هؤلاء القياصرة فقد اغتصبوا من الضعفاء مالهم ومال الله .(٢)

وشفيق معلوف وهو من أدباء الجنوب : العصبة الأندلسية يقول وهو يقابل الحياة متحديا همومها :

وحَجَبْت عن أهـل الحيـاة دموعهـم وذرت عليهـم بالرحـيق المـبردُ
أقـول لنفســي إن تنهدت فازفـري رويدا على جـمـر العـذاب المرمَّـد
وغَضّي يسن البشـر ثـغرك وانحري علـى شفتيـه زفـرة المتنهـد (٣)

وقد يخضع أدباء الجنوب ويستسلمون بل ويرحبون بمأسي الحياة وقلوبهم تطفح بالمرارة فنرى زكي قنصل يقول :

وَيْـح قلبـي قسـت عليه الليالـي وهـو راضٍ بمـا يلا قـي ، سعيـدُ
ألف النـار فَهْـي بَـرْدٌ عليـه كلما مات وقـدُهـا يستعيـدُ
يحتفـي بالهمـوم ..ما انجـاب هـم عنـه إلا تلاه هـم جـد يـدُ (٤)

ولا شك أن مثل هذا التصور للحياة لا يعمق مفهومها ولا يساعد موكبها على الاستمرار فما معنى أن يسعد الإنسان بقسوة الليالي ؟ . وما جدوى أن يستعيد نار العذاب ؟ وهل من السائغ أن يحتفي الإنسان بالهم ؟ اللهم إلا في لحظات اليأس القاتلة . وكان رئيس العصبة "ميشال معلوف" و نائبه " داود شكري " و" أمين السر " " نظير زيتون " وأمين الصندوق "

---

(١) إيليا أبو ماضي تبر وتراب ص ٧٤ ، ٧٥ .
(٢) جبران خليل جبران : عرائس المروج ص ٣٩ .
(٣) شفيق معلوف : نداء المجاديف ص ٧٤ .
(٤) مجلة الأديب ص ١٦ من قصيدة : الطور الشامخ لزكي قنصل .

يوسف البعيني " وخطيبها " جورج حسون معلوف ". وأصدرت العصبة مجلة باسمها وكان يرأس تحريرها : " حبيب مسعود " . وكما انتهت الرابطة القلمية ، انتهت وتوقفت العصبة الأندلسية بعد أن تفرقت مجلتها . ولم يبق منها سوى آثارها وروائعها الناطقة .

– وأسوةً بالرابطة القلمية والعصبة الأندلسية ظهرت جماعات وأندية أخرى لكنها لم تحدث الدوى الذى أحدثته السابقتان ومن هذه الجماعات :

(أ) رابطة منيرفا – أسسها أحمد زكى ابو شادى ونعمة الحاج .

(ب) رواق المعرى – وهى حلقة أدبية تكونت فى سان باولو برئاسة نعوم لبكى .

(جـ) الرابطة الأدبية – تأسست فى الأرجنتين عام ١٩٤٩ وصاحبها جورج صيدح .

(د) جمعية الإخاء العربى – تأسست فى فنزويلا وكان اتجاهها وطنيا (١).

وأظهرت هذه الروابط مواهب المهجريين وعبرت عن آرائهم ونقلت أصواتهم النائية المشوبة بأنين الغربة وأصداء الحنين إلى بلادهم وبلاد العالم كله .

الهجرةُ بواعث وظروف :

ومما يتصل بالتمهيد الذى أقدمه صلة عضوية هو التعرف على البواعث التى أدت إلى الهجرة للوصول إلى العوامل التى حركت فى المهجريين هذه المواهب وتلك الاتجاهات الجديدة في الأد ب وفي مقدمتها :التأمل الذى كشف عن ثراء أرواحهم وأصالة فنهم ، وعمق تجاربهم ".

ووضعت أمامى ثلاث ملاحظات وأنا أتقصى بواعث الهجرة وهى :

أولا : أن الهجرة كانت فى الأغلب الأعم من سوريا ولبنان .

ثانيا : أن المهاجرين اتجهوا إلى أمريكا فى ذلك الوقت ، فلماذا أمريكا بالذات ؟

ثالثا : أن أغلب المهاجرين كانوا من المسيحيين .

أولا : هناك أكثر من باعث دفع السوريين واللبنانيين إلى الهجرة وبتوضيح هذه البواعث أستطيع أن أفسرلماذا كانت الهجرة من سوريا ولبنان .

(١) أنظر كتاب : الأدب العربى فى المهجر د / حسن جاد . ص ٦٦٠

(أ) باعث سياسى :

ظل الشرق رازحا تحت حكم العثمانين أمدا طويلا وكان الحال فى الشام وسوريا ولبنان، أسوأ من غيره فى باقى البلاد العربية . وذلك فى المرحلة الأخيرة من الحكم العثمانى ويصف الخورى باسيليوس حال الشام أنذاك فيقول :((كأن ملائكة بيت لحم لما ترنمت فوق روابى اليهودية يوم ميلاد المخلص بتلك الترنيمة الشجية)) . ((المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام)) وقد استثنت البلاد التركية عموما وسوريا خصوصا من ((وعلى الأرض السلام)) فلم يحل السلام فى ربوع وطننا الحبيب ولا استتب الأمن فيه وما سبب تلك الشحناء بين أولاد الوطن الواحد سوى التعصب الذميم وعمال الحكومة التركية الذين تمشوا على سياسة " فرق تملك " (١) . والهجرة لم تبدأ بشكل جماعى إلا فى زمن الثورة العرابية . اذ أن فريقا من السوريين واللبنانيين كانوا قد هاجروا إلى مصر وسكنوا فى القاهرة والأسكندرية وبعض المدن الأخرى وقد اضطرهم الانذار البريطانى إلى مغادرة القطر المصرى الى أمريكا وأستراليا .

وتلك كانت بدء الهجرة على نطاق واسع وأول هجرة شبه جماعية وكانت مقدمة للسيل الذى تدفق فيما بعد(٢) .

والحكم السياسى وجوره وعصبيته والضرائب الباهظة التى كان يفرضها على المواطنين العرب والأعمال الوحشية التى كان يرتكبها المواطنون الأتراك بدون رحمة أو إنسانية أو شفقة مما دفع النفوس التواقة إلى الحرية أن تلتمس لأصواتها الحبيسة وأفكارها السجينة منبرا حرا تعلن من فوقه ثورتها على الظالم والظالمين . وذلك يتضح فيما بعد فى ثورة المهجريين على نظام الاستبداد الفاسد وسيطرة رجال الدين المسيحى واستغلال الإقطاعيين والدعوة إلى الوحدة الوطنية والقومية العربية ونبذ العصبيات الإقليمية والدينية والسياسية وإلغاء الفوارق الطبقية . ويقول شكر الله الجر :

إيـــه لبنـــان يشهـــد اللـــــه أنــــا   مــا هجرنـــاكَ عــن قلـــى وصلابـــه

انمــــا أصبـــح المقـــام بـــأرض الأرْز للحـــر ذلــــة ومعابـــــة

كيــف لا يهجـــر الأبــــيّ مكانـــا   مــــلأ اليــأسُ جــوُه ورحــابــــه(٣)

(١) الخورى باسيلوس : تاريخ الولايات المتحدة والمهاجرة السورية : نقلا عن محمد مصطفى هدّارة فى كتابه : التجديد فى شعر المهاجر .
(٢) د / محمد عبد المنعم خفاجى قصة الأدب المهجرى ص ٢٠ .
(٣) شكر الله الجر ديوان الروافد ص ١٨ .

(ب) باعث اقتصادى :

((كان لبنان فى القرن الماضى مجتمعا زراعيا ألمّ بحظّ ضئيل من الصناعات اليدوية البدائية التى يحتاج اليها أبناؤه فى حياتهم السانجة . وكان فلاحوه يعتمدون على الأساليب البدائية فى البذور والجنى ، وعلى طرق الرى الطبيعى أو على ماتبقى من مشروعات الرى التى قام بها الرومان ، مما أدى الى تناقص الأرض الصالحة للزراعة بفعل العوامل الطبيعية وتكرار المحاصيل واستنفاد المواد الطبيعية فى التربة وإلى ضعف نتاج ما تبقى منها - وقد تعاون الاقطاع وحلفاؤه من المؤسسات الدينية والحكومية في البلاد على إرهاق الفلاح بضروب العسف والطغيان ، وعلى محاربته فى عيشه ، فكان السيد الإقطاعى يتصرف فى هذه القطعان البشرية تصرف المالك ، وتأتى الضرائب الفادحة " كالويركو " والميرى لتقضى على بقية ماله من أمل ، وفى حياة بسيطة يكتفى فيها بخبز الكفاف "(١) .

وهناك عامل آخر كان له أثر كبير فى إضعاف مركز الصانع والفلاح . هو الاستدانة من المصارف الأجنبية التى انتشرت فى البلاد بعد الستين ، بربا فاحش ، كان كثيرا ما يؤدى إلى تراكم الديون على المستدينين ، فيضطرون إلى بيع أراضيهم أو تصفية مصانعهم ، فتتلاشى بذلك تدريجيا موارد الرزق ورؤس الأموال ، فيضطر اللبنانى إلى أن يولى وجهه شطر المهجر المصرى أو الأمريكى ، انتجاعا للرزق وسدًا للعوز ودفعا للفاقة (٢).

ويقول الأستاذ أنيس المقدسى : وكان الباعث الأكبر على المهاجرة هواختلال الأحوال الاقتصادية فى السلطنة العثمانية بفساد الحكومة الاستبدادية حتى تضعضع الزمن وسادت الفوضى ، ودرس العلم ، وثقلت المعيشة .(٣)

(جـ) باعث تاريخى قديم :

ليس النزوح عن الوطن بجديد على السوريين واللبنانيين ، فهم ورثة الفينيقيين الذين كان دأبهم الحل والترحال والتجوال فى آفاق الأرض (٤).

(١) أنظركتاب : الشعر العربى فى المهجر ص ١٤ أحسان عباس . د محمد يوسف نجم " بتصرف .
(٢) المرجع السابق ص ١٩ - ٢٧ .
(٣) أنيس المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث جـ٢ ص ٦٨ .
(٤) د/ محمد مصطفى هدارة : التجديد فى شعر المهجر ص ٣٠ .

ويفسر الأستاذ صروف هذا الباعث بحب الشاميين للهجرة والتجارة فيقول : إن الغريزة التجارية التى ورثها السورى عن أسلافه الفينيقيين ، وفقر بلاده ، والأحوال السياسية فيها فى أثناء الحكم العثمانى ، حملته إلى أربعة أقطار المعمورة (١) . ولا يضير السورى أو اللبنانى أن يهاجر إلى أى مكان يستطيع أن يجد فيه اليسر والرخاء والاطمئنان الحيوى والأمن على النفس والمال لأن حب الهجرة والاغتراب وحب السعى فى الأرض وحب التجارة والعمل من أجل الحياة كله كالغرائز المتأصلة فى نفسه العميقة فى مسارب دمه (٢).

ثانيا : لماذا كانت الهجرة الى أمريكا :

وكيف نشأت العلاقة بين هؤلاء المهاجرين وبين أمريكا حتي يتوجهوا اليها ؟ .

ولا شك " أن الإرساليات التبشيرية والمنشآت التى أنشأها الأمريكيون فى سوريا ولبنان والمدارس التى بنوها لتعليم الصغار والكبار كانت من أهم العوامل التى وثقت الصلة بين أهل سوريا ولبنان وأمريكا . ومما يقوى من هذا العامل روح التسامح الذى كانت تتسم به أمريكا وجو العصبية الدينية الذى كان يخيم على العثمانين .

وانتشار الثقافة الأمريكية عن طريق الإرساليات الخاصة من أهم الأسباب التى جعلت أهل الشام ينزحون عن وطنهم متجهين إلى أمريكا ينشدون الحرية ويتوقون إلى العدل والمساواة .

وإلى جانب التأثير الثقافى وجو الحرية الذى أغرى الشاميين نرى هناك عاملا آخر مهما رغبهم فى الهجرة إلى أمريكا وهو : سهولة الهجرة إلى هذه البلاد النائية :

فلم تكن هناك قيود على الهجرة والمهاجرين اليها وليس فى قوانينها ما يقيد حرية المهاجر فى اختيار العمل الذى يريده وفى شق طريق الحياة بالوسائل التى يختارها ، وفرص الغنى والثراء كانت كثيرة ومواتية . فأراضيها فسيحة والسكان قليلون وشتى مرافق الصناعة والزراعة والتجارة فيها فى حاجة شديدة إلى الأيدى العاملة .

---

(١) فؤاد صروف : مشاهد العالم الجديد نقلا عن محمد مصطفى هدارة فى كتابه التجديد فى شعر المهجرص ٣٠

(٢) د / خفاجي : قصة الأدب المهجرى ص ١٦ .

والقرن الماضى فى لبنان شهد ظهور الطبقة البرجوازية المستضعفة من صغار الملاك والتجار والصناع والموظفين والفلاحين . وأن مصالح الطبقة المثقفة التى نشأت فى مدارس البعثات التبشيرية ارتبطت بمصالح هذه الطبقة فكان أدبها تعبيرا عن البرجوازية " اللبنانية الناشئة وما يقوم عليه من الفردية والمنافسة والتزاحم بالمناكب (١) .

ثالثا : وأما الظاهرة التى تدعو إلى التساؤل وهى : أن أغلب المهاجرين كانوا من المسيحيين .فنضيف باعثا آخر للهجرة وهو :

الباعث الدينى :

وهذا أمر طبيعى نظراً للحوادث الدامية التى أحدثها التعصب ضدهم والتى أشعل نارها وما يزال إلى الآن النزاع الطائفى المرير والصراع حول السلطة . وإلى جانب النزاع الطائفى ، يضيف د / خفاجى مشاركا فى تفسيرهذه الظاهرة فيقول : " ولا نستطيع أن نغفل العقيدة الدينية وأثرها الفعّال فى التشجيع على الهجرة . إذ أن بعض المتدينين الأوروبيين الذين كانوا يؤمون بيت المقدس كانوا يعودون إلى بلادهم ببعض الأصواف المصنوعة فى فلسطين وبكثير من الأيقونات والمسابح والشارات الدينية المختلفة ، وقد أحذق أولئك الأتقياء الأوروبيون بعض ذوى النباهة والحذق فى فلسطين للاتجار بتلك الأشياء ونقلها إلى أوروبا وبيعها للمؤمنين فيها(٢).

رابعاً - " باعث الصدفة "

والشاعر رياض المعلوف يرجع أسباب هجرته إلى " الصدف " وذلك فى رسالة أرسلها إلى مجيبا عن سؤال وجهته إليه حول البواعث التى دفعته إلى الهجرة والثمرات الأدبية والروحية التى أنضجتها تجربة الغربة : ورد قائلا " هى الصدف ليس إلا .. وزرتُ صيف ١٩٣٩ باريس وبعدها اتجهت إلى معرض نيويورك العالمى حيث شهدت عظائم الحضارة والمبتكرات الحديثة واجتمعت بأعضاء الرابطة القلمية ايلياأبو ماضى ، وليم كاتسفليس ، رشيد أيوب ، عبد المسيح وندره الحداد واسكندر اليازجى وغيرهم ...وشاء القدر أن تعلن الحرب العالمية الثانية وأنا فى نيويورك فذهبت إلى البرازيل لزيارة إخوتي فيها اسكندر وشفيق وأدمون وأختى أفليته وأخوالى وأعمامى فوصلتها فى منتصف شهر أكتوبر ١٩٣٩ ومن الصدف أيضا أننى تركت البرازيل

---

(١) د / أحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم ، الشعر العربى فى المهجر ص ٣٤ .
(٢) مسعود سماحه : الديوان ص ٤٧ .

إلي لبنان عائدا بالتاريخ نفسه ١٩٤٦ (١) ولعل تأخر هجرة الشاعر رياض المعلوف وما هو فيه من رغد العيش وظروف نفسية مستقرة جعلت الهجرة لديه صدفة ليس إلا ... والبواعث التى فصلتُها سابقا بواعث عامة تشتمل على الظروف التى أحاطت بهذه الحركة الأدبية الجديدة ولا يمنع أن تكون هناك ظروف خاصة تحكمت فى بعض الأدباء.

(١) من رسالة أرسالها الشاعر رياض المعلوف إلى بتاريخ ٢٠ من يناير سنة ١٩٧٨ .

الباب الأول

التأمل : مدلوله وبواعثه

ويتكون من :

الفصل الأول : .... مدلول التامل

أ - المدلول اللغوى وتطوره

ب - المدلول الفنى وبيان كنهه وكيف ينشأ...

جـ - التأمل والشاعر العربى

د - بين الفلسفة والتأمل

الفصل الثانى : بواعث التامل

[التأمل : مدلوله اللغوى والفنى]

ويتكون من أربعة مباحث :

(أ) المدلول اللغوى وتطوره .

(ب) المدلول الفنى وبيان كنهه . وكيف ينشأ .

(ج) التأمل والشاعر العربى .

(د) بين الفسلفة والتأمل .

(أ) المدلول اللغوى وتطوره :

بالبحث عن مدلول كلمة "التأمل" اللغوى فى المعاجم المختلفة تبين أنها لا تخرج عن التمهل والأناه فى النظر إلى الأمور .

ففى القاموس المحيط : باب اللام فصل الهمزة . تحت مادة : أمل يقول المؤلف الأمل : كجبل " ونجم وشبر– الرجاء – آمال . أمله .أمله . رجاه وما أطول إملته بالكسر . أمله أو تأميله . وتأمل .. تلبث فى الأمر والنظر .(١)

وفى المصباح المنير : تحت مادة : أملته أملا . يقول المؤلف : أملته أملا من باب طلب : ترقبته وأكثر ما يستبعد حصوله .قال كعب بن زهير : أرجو وآمل أن تدنو مودتها . ومن عزم على السفر إلى بلد بعيد يقول : أملت الوصول . ولا يقول طمعت إلا إذا قرب منها " وتأملت الشىء إذا تدبرته وهو إعادتك النظر فيه مرة بعد أخرى حتى تعرفه . (٢)

وفى مختار الصحاح : لا يبتعد مفهوم الكلمة كثيرا عن المعنيين السابقين :يقول المؤلف :

" أمل " الأمل : الرجاء : خيره يأمل بالضم أملا بفتحتين ، و"أمله – أيضا " تأميلا، – وتأمل الشيئ نظر إليه مستبينا له (٣)

(١) القاموس المحيط جـ١ ص ٣٢٠ .
(٢) المصباح المنير ٣٠ .
(٣) مختار الصحاح ص ٣٦ .

ويلاحظ أن كلمة " تأمل " لم ترد فى أشعار الجاهليين إلا نادرا .

وكذلك لم ترد فى القرآن الكريم ولا فى الأحاديث النبوية الشريفة . وإنما وردت مرادفاتها أو ما يرتبط بمدلولها اللغوى الذى وضحته سابقا ، وقد يتجاوز معناها هذا المدلول اللغوى إلى افاق أخرى تعالج موقف الإنسان من الكون والطبيعة وقضية الإيمان المرتبطة بقوة الخالق ، ومحاولة الإنسان التعمق فى فهم هذه القدرة حيث يقف على عظمة الإله ويقترب حثيثا من درجة القرب والإلهام .

ودعوة القرآن الكريم الي التأمل والمنهج الإسلامى فى التفكير يقود المفكر إلى اليقين العقلى والاطمئنان النفسى ومبعث ذلك التسليم بوجود الحقيقة الكلية والاعتراف بقدرتها التي تكمن وراء كل حركة فى هذا الوجود .

أما التأمل عند المهجريين فلم يقدهم إلا إلى الحيرة الكونية والصراعات النفسية والارتطام بالواقع . الكابوس والمستقبل – الليل – وإن كانوا فى بعض الأحيان يجدون لذة فى هذا الصراع ولا يفتقدون شعورهم بالأمل في غد أفضل يعم الإنسانية كلها .

وكذلك لم يرد لفظ التأمل فى أشعار الإسلاميين والأمويين والعباسيين وما لحقها من عصور أدبية قبل العصر الحديث إلا نادرا . فاستعمال اللفظ فى الميدان الأدبى يعد من مستحدثات العصر الحديث فهو لم يستعمل من قبل بهذه الكثافة التى نراها فى أدب المهاجرين

ولا يظن نتيجة لهذا أن الأدب القديم خلامن الروح التأملية فليس هذا هو القصد ، والحقيقة التى لا يتطرق اليها الشك أن هناك الكثير من الأشعار العربية التى تتسم بالتأمل ويظهر ذلك جليا فى شعر أبى العلاء المعرى والمتنبى والشعراء الصوفيين من أمثال ابن الفارض والحلاج وابن عربى فأساليبهم تحمل إيحاءات كثيرة تنبىء عن ثراء فى المدلولات والتراكيب وعمق فى المضمون ومحاولة النفاذ إلى صميم الأشياء والولع بالجوهر لا بالعرض وباللباب لا بالقشور .

والعمليات العقلية التى تؤثر فى النتاج الأدبى كما حددها علم النفس هى : الادراك الحسى ثم التصور ثم التخيل ثم التفكير .

فالمرحلة الرابعة وهى التفكير وهى ما أقصده فى هذا البحث . والتأمل مرحلة مبكرة من مراحل الفكر . ويمكن أن أضيف مرحلة أخرى وهى اليقين .

فالتأمل الأدبى تسبقه ثلاث مراحل من العمليات العقلية المؤثرة فى النتاج الأدبى ، وهو يقف ما قبل النهاية بقليل .

فإما أن يصل المتأمل إلى الشاطىء . ويقترب من مرحلة اليقين ، وإما أن يفقد جميع حقائبه ويرتد فى انحدار مفاجىء إلى قرار الهوة السحيقة .

وكلمة " تأمل كثر دوراتها في الأدب الحديث ، وخاصة لدى المهجرين ، فلا يكاد يخلو أثر أدبى من تكرار هذه الكلمة ربما فى الصفحة الواحدة أكثر من مرة . وأكتفى بمثال واحد فى هذا الصدد.

فى كتاب " النبى " لجبران يجيب على الكاهن الذى سأله وقال ، هات حدثنا عن الدين . فيقول " المصطفى " :

وهل تكلمت اليوم فى موضوع آخر غير الدين أليس الدين كل ما فى الحياة من الأعمال " **والتأملات** "

أليس الدين كل ما فى الحياة مما ليس هو بالعمل ولا **بالتأمل** " (١)

إن حياتكم اليومية هى هيكلكم وديانتكم . لأنكم لا تستطيعون أن ترتفعوا **بتأملاتكم** فوق أعمالكم (٢) .

وإن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحل الأحاجى والألغاز ، بل " تأملوا " (٣) فيما حولكم تجدوه .

تأملوا (٤) جيدا تروا ربكم يبتسم بثغور الأزهار ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار ، يقول بودلير : ينبغى علينا لكى ننفذ إلى روح الأديب أن نفتش عن الكلمات التى يُكثر من استخدامها فى أعماله . إن الكلمة تكشف عن الفكرة التى تتسلط عليه .

وهذا لايعنى أن التأمل مقياسه تكرار الالفاظ . فقد نقرأ كتابا لم ترد فيه كلمة تأمل

---

(١) جبران – النبى ص ٨٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٩٠ .
(٤) المصدر السابق ص ٩٠ .

واحدة أو حتى ما يدور فى مادتها من ألفاظ . وهو برغم هذا مفعم بالتأمل والتركيز والتعمق فى معالجة موضوعه الذى خصص له .

(ب) المدلول الفنى للتأمل :

فى البحث السابق وهو دراسة المدلول اللغوى للتأمل ، وما يرتبط بهذا المدلول من معان وملابسات .. تعرضت للبحث عن هذا المدلول فى المعاجم اللغوية ، وقارنت معانيه باتجاه التأمل ومعانيه عند المهجريين ثم نوهت بندرة هذه الكلمة في الأدب العربى القديم ،وعدم ورودها فى القران الكريم ، وشيوعها فى العصر الحديث وخاصة لدى المهجريين . وخرجت من ذلك بنتيجة مهمة وان كانت جزئية وهى أن هذه الكلمة قد اقتحمت الحقل الأدبى الحديث واتسعت مضامينها كما سأوضح بعد ذلك .

وإيمانا منى بالقاعدة النقدية التى تقول : ينبغى لكى ننفذ إلى روح الأديب أن نفتش عن الكلمات التى يكثر من استخدامها فى أعماله – إن الكلمة تكشف عن الفكرة التى تتسلط عليه .

اخترت نموذجا لمدى دوران كلمة " تأمل" فى الأدب المهجرى من كتاب " النبى " لجبران خليل جبران .

وهذا لا يعنى أن المدلول اللغوى ينفصل عن المدلول الفنى . بل على العكس من ذلك تماما . فالشكل لا ينفصل عن المضمون .. واللغة هى لبنات العمل الأساسية . فمن مفرداتها يقيم الفنان البناء المعمارى لعمله الفنى ، وبمقدار ما يبعد الفنان عن التقليد بمقدار ما يستحق عمله الخلود لأن صاحبه أضاف شيئا جديدا ، ولم يكرر نماذج سبقته .

والفنان هو الذى يخلق لنفسه فعلا ولغيره بالقوة تجربة تأملية موحدة ذات طابع يتميز بدرجة كبيرة من الموضوعية ، وذلك عن طريق فرضه شكلا على مادته الخاصة .

والشاعر هو الذى يخلق تجربة من هذا النوع عن طريق تنسيقه الكلام تنسيقا موزونا .. وكل تنسيق للكلام موزون له هذا الأثر هو قصيدة .

والمدلول الفنى للتأمل أعنى به " التجربة التأملية " التى يخوضها الأديب ليعطينا من خلالها صورة صادقة عن أفكاره ومشاعره ونبوءاته وتصوره للعالم من حوله . والوقوف على مدى توافقه مع ما حوله من قيم أو رفضه لها وصراعه فى سبيل إيجاد عالم جديد مبدع

ونظرية الشعر فى جوهرها تعنى بالتجربة التأملية كما تعنى بقيم هذه التجربة وعناصر التجربة الشعرية متداخلة ، فالتجربة لا تنمو عن طريق إضافة جزء إلى أخر ولكنها تنمو عن طريق تغير كيفى باطن ، ولما كان التغير عضويا لذا لا تختفى المراحل المبكرة من التجربة بل تظل باقية فى مراحل التطور وهى فى طريقها الى التركيب والتنسيق الكامل فى النفس : " ويقول د/ عبد اللطيف خليف " إنها تنمو شيئا فشيئا نموا مطردا فى النفس ومن خلال الأداء الفنى لها (١)
ويعرف روستر يفورهاملتون التأمل فيقول : ويمكننا أن نصف التأمل بأنه تأمل يتميز بالإعجاب ولكن الموقف التأملى ليس هو موقف الحكم ، وذلك أن الحكم يتضمن وجود وعى بالموضوع مميزا عن الذات التى تمر بالتجربة ......غير أن التجربة التأملية فى صورتها الخالصة المثالية لا تحدث إلا بشكل متقطع(٢) ..

وموضوع التأمل : هو فى مضمون الشعور – ذلك المضمون الموحد الذى يتميز بدرجة كبيرة التركيب والذى يظهر من خلال الموقف الذاتى المتطور للشخص المدرك .

والتجربة التأملية : لابد لها من الوحدة العضوية ، وبالتالى التجربة الشعرية التى هى أهم أنواعها لا بد لها من الوحدة العضوية لنموهـــا . ذلك النمو الذى يتغير فيه الكل تغيرا كيفيا دائما . والدكتور أحمد أبو شادى فى ديوانه من السماء يفضل الأسلوب الرمزى القصصى فى أداء التجربة فيقول : ((وقد يطيب لى بحكم ذلك أن أحبذ الأسلوب الرمزى والأسلوب القصصى وأن أتفاءل بتذوق أدباء العرب فى أمريكا لهما . وأن أتمنى أن يعاون نهجهما على اجتثاث الإيحاء اللفظى الفاسد وعلى تربية الملكة الشعرية حيثما يستطاع ذلك . فإن الشعر على أى حال طبع وموهبة لا بهرج وصناعة بل عقيدة فنية)) (٣)

والتجربة الجمالية عند روستريفورها ملتون مرادفة للتجربة التأملية . فالجمال إذن هو التأمل .. يقول : إن التجربة الجمالية الكاملة هى تجربة تأمل لا يشتت فيها اهتمامنا فيتحول إلى ماهر عملى (سواء كان ذلك " إيحاء بحلول السعادة " أو تاكيدا لأهمية واجب خلقى) أو يتحول الى ما هو فكرى ، وتتضمن كلمة فكرى هنا كل ضروب النشاط المتواضعة التى يمارسها العقل القلق (٤)

---

(١) من توجيهات د / عبد اللطيف خليف أثناء مناقشة هذا المبحث "
(٢) روستر يفورهاملتون . الشعر والتأمل ص ١١٥ .
(٣) د / أحمد زكى أبو شادى – ديوان من السماء ص ١٢ .
(٤) روستريفورهاملتون : الشعر والتأمل ص ١٢٤ .

والمهجريون قد خاضوا هذه التجربة بعمق ووعى دقيقين لا يغفلان عن المقاييس النقدية وان كانت ملكاتهم الصافية هي المقياس الأول . فتوفرت لأعمالهم " الكلية العضوية - واستعملوا الأسلوب القصصى فى أغلب تجاربهم التأملية الشعرية منها والنثرية . ولجئوا أحيانا إلى الرمز وخير دليل ملحمة " على بساط الريح ؛ لفوزى المعلوف وملحمة " ليليت " لرياض المعلوف ، وكتاب " مرداد " لميخائيل نعيمة . وقصائده الآتية :

النهر المتجمد ، من أنت يا نفسى ، التائه ، أنشودة ، الحائك ، الجـــوع ، وقصـــائد أبى ماضى الآتية : العنقاء - الطين - فلسفة الحياة - الطلاسم - الأسطورة الأزلية - نار القرى . وكتاب النبى لجبران . ويقتضى البحث أن ندرس ثلاثة أشياء ، نصل من خلالها إلى مفهوم كلى للتأمل فى الفن وهى :

١ - ماكنه الموقف الجمالى " التأملى " .

٢ - كيف ينشأ هذا الموقف ؟

٣ - أهمية التأمل .

(١) كنه الموقف الجمالى " التأملى : إن أسهل طريقة لدراسة طبيعة هذا الموقف أن ندرسه وهو فى مرحلة متقدمة من تطوره ويمكننا أن نصفه بأنه موقف الاهتمام النزيه الذى لا يهدف إلى غاية مادية - بل هو اندماج فيما يحس به الأديب وينفعل به .

ويقول د / عبد اللطيف خليف : " موقف الاهتمام الا يُشبع نزعة ... كاهتمام الشاعر ببيت من الشعر واهتمام المهندس ببيت من الطوب .. وهكذا فالاهتمام يشبع نزوعا خاصا "(١)

ويتعين أن نحدد ملامح هذا الموقف عن طريق السلب أو النفى فنقول : " انه موقف يخلو من الاستطلاع ومن المصلحة العملية على حد سواء فهو لا يسعى وراء تفسير أو مصلحة وإنما هو فى استمتاع يستقر على موضوعه الذى يبدو له فيه بالتدريج أحيانا معنى خلاب وجمال أخاذ " .

وللموقف أيضا ناحيته الإيجابية التي تحتاج إليها عملية التذوق ومن الواضح أنها مما يحتاج إليه أيضا للإبداع الفنى .

---

(١) من حديث دار بينى وبين الناقد فى ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م .

ومن الناحية السلبية نجد أن خلوه النسبي من الاهتمام بالفعل بالإضافة إلى ما يسوده من ركون إلى القضاء والقدر وكلاهما ينزع إلى إزاحة عبء الظروف عن كاهل الفرد ، ونجد أن هاتين الصفتين قد تفسران إلى حد ما . لماذا كان التأمل ميسورا عند الشرقيين أكثر مما هو عند الأوروبيين (١)

وإذا كان هذا التفسير للموقف التأملي جاء على لسان أحد النقاد الأوروبيين فإنه يؤكد أهمية دراسة التأمل فى الأدب عامة وعند المهجريين بصفة خاصة لما لهم فى هذا الاتجاه من باع طويل مثمر .

ويصف هاملتون تأمل الشرقيين بأن معظمه مجدب لأنهم عجزوا عن السيطرة على اهتمامهم . ويعلل ذلك بأنه لولا الاهتمام الإيجابى عند الفنان فقلبه على حد قول الشاعر بئر من الهدوء . ولكان موقفه بلا ضابط مثل موقف الأحلام لا يمكن أن يقوم له الأساس الذى تقوم عليه طاقة الخيال الإبداعية ، وهاملتون حينما يصف تأمل الشرقيين بالجدب يبعد عن الصواب كثيرا بل قل ليس فيه من الحقيقة شيء لأنه لم يعايش التجارب التى خاضها أدباء الشرق وبخاصة أدباء المهجر منهم فهم فى تأملاتهم يثيرون كوامن النفس البشرية ويندمجون فى تجاربهم التأملية اندماجا كليا يتم عن وعى دقيق وحس صادق وفكر منظم . وفى معرض الرد عليه أيضا يقول د / عبد اللطيف خليف : " ألا يفضى كل تأمل إلى رؤية أو رأى إن لم يفض إلى موقف جديد وكذلك يفعل الرومانسيون فهم يثيرون كوامن النفس الإنسانية ويبرزون ما خفى من أسرار الكون (٢) .

والدافع التأملى : هو الذى يحرك الطاقة الإبداعية فتنشىء العمل الأدبى ولذلك " ينبغى أن لا نخلط بين الموقف التأملى وبين الطاقة الإبداعية ومع ذلك فإن النزعة التأملية فى الذهن هى التى ينشأ عنها الدافع الإبداعى ، ذلك الدافع الذى يخلق أثناء تحقيقه لذاته موضوعات جديدة للتأمل .

والعلاقة بين الموقف التأملى والطاقة الإبداعية علاقة وثيقة كالعلاقة بين النبات والتربة.

---

(١) روستريفور هاملتون : الشعر والتأمل ص ١٠٧ .

(٢) من حديث أدلى به د / خليف إلى فى ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م .

(٢) ... كيف ينشأ الموقف التأملى ؟:

كثيرا ما نجد أن الذي يثير الموقف الجمالى هو أمر مألوف نراه من وجهة نظر غير مألوفة . لنفترض انك كنت تتسلق تلا بقصد الرياضة وكنت تعرف المنطقة الريفية المحيطة فلم يكن فيها جديد فى نظرك بل ربما لم تكن معتادا أن تعير المناظر الطبيعية كبير اهتمام ولكنك كنت تتوقف عن التسلق من برهة إلى أخرى وترقد مسندا ظهرك إلى التل ناظرا إلى المنظر الطبيعى تحتك فإذا بك تجد أن قمة الأشجار أقرب الى بصرك من جذوعها السميكة ، وإذا بالحقول تنتظم فى شكل جديد فيستحوذ المنظر على انتباهك وتسمح لعينيك أن تتأمل المنظر بكليته وربما دهشت لما فيه من وضوح وحيوية فتشعر بأنك لأول مرة ترى بحق ما هو معروض أمامك .

ومن هذه اللحظة يبدأ الدافع التأملى فى تحريك الطاقة الإبداعية التى ترى فى الشىء العادى أسرارا لا نهاية لها تخفى على من لم تهبهم السماء قبسا من النار المبدعة ، والمهجريون يرون الأشياء من خلال شعورهم وليس من خلال أبصارهم المحدودة فقد تبدو الظواهر الكونية أو المشاهد اليومية عادية أمام الناس ولكنهم بتأملهم يعرفون كيف يستنبطون منها الكثير ، ويستنطقونها .

وخير شاهد على ذلك تجاربهم مع الطبيعة فقد اندمجوا فيها لدرجة الاتحاد والفناء وخلعوا عليها صفات الأحياء ، وتعلموا منها المبادىء ، وصاحبوها فى رحلاتهم للمعرفة والقيم الإنسانية .

فجبران فى كتابه " حديقة النبى " يقوم برحلة تأملية يربط فيها بين عالمى الإنسان والطبيعة ..فالطبيعة عنده هى المعلم ، وهى الأساس الذى تقوم عليه كل حكمة .

وهو يعبر عن شدة ارتباط فلسفته بمظاهر الطبيعة ويلخص فى الوقت نفسه هذه الفلسفة وهو يقول ... " خلوا من يبغى الحكمة يلتمسها فى الشقائق ، أو فى قبضة من صلصال أحمر " (١).

ويصف القروى بداية الموقف التأملى الذى يدفعه فى تصوير الطبيعة واستكناه أسرارها فيقول : " وقد يتجسم شعورى بصلة القربى بينى وبين هذه الأكوان فأنعطف على الشجرة

(١) جبران – النبى ص ٥٤ .

أعانقها ، والصخرة أضمها، والزهرة أناغيها ، والمرْجة أتقلب عليها ، وأمد ذراعى إلى السماء أحييها : وأبعث إلى الشمس بقبلاتى على أطراف بنانى والشمس بين روائع الطبيعة حبيبتى الأولى وفتنتى الكبرى ، وليس أبعث لنشاطى الجسدى والذهنى من الاستحمام بنورها " (١) .

– ولا يقتصر التأمل على ما تثيره مشاهد الكون الخارجية المتعددة بل " يمكننا أن نأخذ موقفا جماليا إزاء الموضوعات الحسية ففى كل مجالات الحياة يأتى الوقت الذى نتحرر فيه من المصلحة سواء كان ذلك عن قصد أم نتيجة لضغط الظروف وحينئذ نهتم بالموضوع لذاته (٢) وتطبيقا لهذا رأينا المهجريين لا يقتصرون على الموضوعات الحسية ولكنهم تأملوا الحياة والوجود والنفس الانسانية والموت والخلود والعدم ، وقيم الإنسانية ومبادئه .

فشكر الله الجر يمجد الألم ويجعله سر الحياة بل سر الخلود . ويقول :

أنــــت لــــولا الهـــمّ لاتفقـــه مَعْنًـــى للوجُـــودْ .

أنــــت لــــولا الحـــزن لا تسْمَـــعُ أنغْـــام الخلُـــودْ .

لا ولا تسمـــع همـــس اللــــه فـــى قَصْف الرعـــود .

إن فـــى الحـــزن سُـــرورا لا تـــراه فـــى السٌـرورْ .

إن فى الآلام لـــذّات لأربـــاب الشعـــورْ . (٣)

والتفكير فى الماضى مرتبط بالتأمل فى أغلب أحواله لأننا نتخذ من الماضى دروسا تفيدنا فى المستقبل .. وإيليا أبو ماضى يقول مؤيدا الحقيقة السابقة مخاطبا فيلسوفه المجنح " البلبل " :

طـــوباك أنـــك لاتفكـــر فى غد بـــدء الكـــآبة أنْ تفكـــر فـى غد

– التجربة التأملية بين الموقف العملى والموقف الفكرى :

إن التجربة الجمالية الكاملة هى تجربة تأمل لا يشتت فيها اهتمامنا فيتحول إلى ماهو

---

(١) القروى : ديوان القروى جـ١ ص ٢٤ .
(٢) روستريفور هاملتون – الشعر والتأمل ص ١١٢ .
(٣) شكر الله الجر ديوان الروافد ص ٤٤ .

عملى سواء كان ذلك إيحاءا بالسعـادة أو تأكيداً لأهمية واجب خلقى ، أو يتحول إلى ما هـو فكرى ، وتتضمن كلمة فكرى هنا كل ضروب النشاط المتواضعة التى يمارسها العقل القلق ، وموضوع التأمل هو مضمون الشعور . ذلك المضمون الموحد الذى يتميز به بدرجة كبيرة التركيب والذى يظهر من خلال الموقف الذاتى المتطور للشخص المدرك .

والجمال يوجد في موضوع التجربة الجمالية . فحينما تكتمل هذه التجربة ننسى أنفسنا ويكاد يختفى التمييز بين الذات والموضوع . إذ نفقد ذواتنا فى الموضوع ونستمتع بنشوة التأمل " بالمعنى الدقيق لكلمة نشوة " بعيدا عن الفعل وبعيدا عن التفكير والفعل فى أن يتبعا هذه التجربة وأن الموضوع الذى نتبعه ليس إلا الثورة الحاضرة لشعورنا .

إن من الصفات البارزة للتجربة الجمالية أن اهتمامنا يثار فيها على هذا النحو العميق الموضوعى الخالى من الأنانية . وهى صفة لا بد أن نعزو اليها جزءا من قيمة التجربة (١) .

وهذه الناحية الموضوعية من التجربة هى شيء يتميز كل التمييز عن الفكرة التى تقول : " إن الجمال يوجد خارجا عنا " ويصف " هاملتـون هذه الفكرة بأنها مضحكـة - ويسخـر من د / سانتيانا - الذى يضفى أهمية كبرى على هذه الفكرة المتناقضة فى جوهرها ويقـول د / سانتيانا " إن الجمال عنصر إنفعالى أى لذة من لذاتنا ومع ذلك فنحن نعتبره صفة فى الأشياء(٢)

ويقول د / خليف : " إن قيمة الناحية الموضوعية نابعة من إدراكنا لقيمها ومشاعرنا نحو هذه القيم . ومن غير هذا الجانب الذاتى فى التجربة ، تصبح الناحية الموضوعية شيئا بلا قيمة ، فإدراكنا ومشاعرنا هى التى تهب الأشياء قدرها وقيمتها (٣) .

وفى ميدان التجربة الواعية يؤلف تنسيق ملكاتنا وتنظيمها وتنغيمها جزءا كبيرا من المتعة التى نجدها فى الفن وفى الشعر وفى التراجيديا ، ....جزءا كبيرا من أعمق طبقات إشباعنا العاطفى .

---

(١) انظر روستريفور هاملتون : الشعر والتأمل ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢) چورج سانتيانا : الإحساس بالجمال ، ترجمة د / مصطفى بدوى ص ٧٣ نقلا عن كتاب : الشعر والتأمل لروستريفور هاملتون ص ١٢٧ .

(٣) من حديث د / خليف لى فى ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م .

(٣) أهمية التأمل . وسمات التجربة التأملية :

ومن التجارب الشعرية ما يتسم بالتأمل ولها قيمتها الأكيدة فى تنظيم الذهن . وهذه هى الناحية التى يوجد فيها تأثير الشعر من حيث هو شعر .

ومثل هذه التجربة التأملية ضرورى لأجل الحياة الغزيرة الشاملة ، وهو أيضا حلقة الاتصال بين عالم العقل وعالم الفن .

وللشعر قيمة فى تنظيم الذهن علي نحو مباشر وعلى نحو غير مباشر :

على نحو مباشر لأن التجربة الشعرية ذاتها تتميز بالنظام البديع ، وعلى نحو غير مباشر لأنه يشجع على إيجاد عادة التأمل فى الذهن .

والتأمل ضرورى : لا للفنان وحده ، وإنما لكل إنسان على نحو ما . فرجال الإدارة والسياسة ومن يشغلون المناصب الكبرى كلهم يحتاجون إليه إذا أرادوا أن يصبحوا أكثر من مجرد أناس ذوى كفاءة ضيقة ومقدرة تخلو من الخيال .

ولكن الفرق شاسع بين تأمل رجل الأعمال وتأمل الفنان . فرجل الأعمال حينما يتأمل ، فتأمله لا يتعدى العمل الحسى الذى يسيطر عليه أما الفنان فتأمله بدافع من إحساسه الباطنى الذى يجعل فكرته تزداد غزارة وعمقا .

والتأمل يحدث فى الحياة العادية وهو حاجة أساسية للإنسان إذ يبعد برهة عن صخب الفعل ويمنحه القدرة على الرؤية الصادقة والفهم والسيطرة على الأشياء والتجربة يصيبها تغير عميق حينما تنتقل من حيز الفعل إلى حيز التأمل وهى تتميزبنوع خاص من الثبات والوحدة والصفاء .

فهى عالم يقوم بذاته يمكننا ان نجد فيه راحتنا – عالم كامل فى ذاته (١)

والتجربة التأملية : فى أسمى صورها ترتفع بمدارك الإنسان وتسمو بها عن التدلى إلى الأغراض الحسية التى تثيرها غرائزه الشهوانية .

ومن هنا كانت التجربة التأملية من أرقى التجارب الأدبية . إذ تتعاون فى تكوينها قوى الإنسان العقلية والشعورية والروحية والجمالية ، فتخرج مادة هى مزيج من القدرات السابقة كلها فترضى كل ذى فطرة نقية لأن صاحبها فيه من الفيلسوف حكمته ومن الشاعر رقته ، ومن الصوفى شفافيته ، ومن الفنان ذوقه ونبوغه .

---

(١) أنظر كتاب الشعر والتأمل ص ٢٣٠ .

ولا يهم بعد ذلك ان أغضبت ذوى الرغبات الذين لم يرتفعوا بأنفسهم فوق مرحلة الإحساس المادى المباشر .

وعلى هذا الأساس يمكن تفسير ظاهرة عدم اهتمام المهجرين بالمفاتن الجسدية للمرأة . وعدم تصويرهم لغرائزها وليس هذا بدافع من تبلد الشعور أو جفاف العاطفة وإنما هو تسام فوق الرغبات . واستبطان للحقائق الكامنة فى قلب المظاهر الملموسة ووراء الواقع المحسوس .

وقد كان ذلك نهجا للرومانسيين الغربيين جميعا وللوجدانيين العرب الذين اتجهوا إلي النفس الإنسانية فى أغوارها العميقة وإلى الطبيعة فى أسرارها الأزلية لاستلهام الحقائق الكامنة وراء المظاهر (١) .

(جـ) التأمل والشاعر العربى :

إن الشاعر العربى حين يغنى أغنية انما يكون بحضرة الحقيقة التى يكشف لنا عنها حتي تصير كأنها صاحبنا الذى نراه "(٢) .

والشعر كما يقول العقاد في مقدمة ديوان عبد الرحمن شكرى . الجزء الثانى : ((حقيقة الحقائق . ولب الألباب . والجوهر الصميم من كل ماله ظاهر فى متناول الحس والعقول . وهو ترجمان النفس . والناقل الأمين عن لسانها . فإن كانت النفس تكذب فيما تحس به أو تداجي بينها وبين ضميرها فالشعر كاذب . وكل شىء فى هذا الوجود كاذب . والدنيا كلها رياء ولا موضع للحقيقة فى شىء من الأشياء)) .

ولعل أعظم ما حققه الشعر الحديث وما يزال يحققه فى كبار أعلامه ورواده أنه وصل العالم المنظور بعالم آخر غير منظور واحتفى بتجربة الخلق أيما احتفاء .

وجعلها أقرب إلى التجربة الدينية والصوفية . وأكد قدرة الروح المبدعة وانتصارها ورهبتها أمام أسرار الخلق وقدم الدليل بعد الدليل على أن الفن وبالأخص الشعر هو طريق النجاة من قسوة الموت وظلم السلطة وتخبط السياسة وغرور العلم . وتعنت الفلسفة وجشع البرجوازية وضياع أنقى وأبقى ما فى الإنسان وهو حياته الباطنة وقدرته على الخلق والتجدد والإبداع . تحت عجلات الآلية والنفعية والوضعية وزحام المدينة الكبيرة ولقد أعاد هؤلاء الرواد وتلاميذهم المباشرون للشاعر وظيفته الأولى وظيفة الساحر والمتنبىء والكاهن . وعلموه أن مهمته هى الشعر وحده ولا شىء سواه . ورسالته هى البحث عن حقيقة واحدة والتغنى بهذه الحقيقة .

---

(١) من حديث للدكتور خليف وهو يناقش معى هذا الفصل .

(٢) من أقوال ورد زورث نقلا عن د / محمود الربيعى فى كتابه : فى نقد الشعر ص ١٣٧ .

التى قد تتفاوت بين الواحد منهم والآخر بمهابة وإجلال . مستعينين برموز ملهمة موحية . إن الإنسان عندهم ليس هو الحيوان السياسى ولا القديس ولا هو المتصوف أو الفيلسوف . بل هو الفنان القادر على أن يجعل من الحياة نفسها فنا تستحق من أجله أن تعاش ويصل الكنوز الخافية فى أعماقه الفردية بكنوز الإنسانية وأسرارها ورموزها القديمة . ويثبت جدارته بهذه الإنسانية من خلال جدارته بالخلق والإبداع . والأدب العربى القديم لم يفقد هذه الخاصية التى لا تسلبه حقه من العمق والتأمل . ولكن لم يكن بهذه الصورة المكثفة التى أصبحت تشكل ظاهرة مستقلة فى الأدب الحديث . فقد جاءت مشاعر العربى القديم التى تحمل معتقدا خاصا ووجهة فلسفية معينة فى صورة أبيات متفرقة هنا وهناك .

أما الموضوعات المستقلة فلم تخص بها قصائد مستقلة لأن طبيعة القصيدة حينذاك ماكانت لتسمح بذلك . فالبيت كان وحدة القصيدة وكثيرا ما حمل الشاعر البيت الواحد شحنة هائلة من اختبار روحى عميق وتجربة إنسانية فذة ندهش بها إن عثرنا عليها . إنما هى وليدة ظروف حتمية لو لم تكن لما كانت (١) .

والحكم السابق حكم عام .. وبشىء من التخصيص سأحاول القاء نظرة فاحصة موجزة علي التيار التأملى فى الشعر القديم فى عصوره المختلفة .

العصر الجاهلى :

يتصور جل الباحثين أن الشعر الجاهلى شعر حسى غليظ يعنى بوصف المحسوسات التى يراها الشعراء أمامهم فى الصحراء المفتوحة . وليس لذلك أثر من آثار الفكر والعقل . أما إذا وجدنا شيئا نسميه الحكمة فهو لا يعدو أن يكون تعبيرا عن خبرة الأيام المباشرة التى تحتاج إلى ثقافة .

وسوف تكون كل دراسة تجرى على هذا المنوال ضربا من التكرار غير المفيد وسوف تكون غير مستقيمة أيضا . لأن حياة العصر القديم أعمق مما يجرى على أقلامنا حتى الآن .

وقد شهد هذا العصر صراعا روحيا قويا لم يقدر تقديرا ملائما . وإن نشأة الإسلام العظيم فى نهاية هذا العصر لا يمكن أن تهون من دلالتها ومغزاها ، إنها تعنى بكل اختصار أننا أمام عصر يضطرم فيه القلق ويبلغ ذروته . إننا أمام مجتمع تشغله أسئلة أساسية شاقة عن مبدأ الانسان ومنتهاه ومصيره وشقائه وعلاقته بالكون .

إن الشعر الجاهلى ينافس أى شعر آخر إذا أحسنَّا قراءته . ولو أحسنا قراءته لبدأ أمامنا وافر الحظ من العمق والثراء (٢) .

---

(١) ثريا كرم ملحس . القيم الروحية في الشعر العربى قديمه وحديثه ص ١٦٤ .
(٢) د / مصطفى ناصف . قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ٤٩ – ٥٠ .

والرأى السابق وجاهته وحظه من القبول لأن الشعر الجاهلى عبر أصدق تعبير عن نفسية البدوى وبيئته ، ووضح موقفه من الصراعات التى تموج فى داخل بيئته وخارجها وانما الذى أريد أن ألفت النظر إليه كما وضحت سابقا هو أننا لم نعثر فى الشعر الجاهلى على نصوص مستقلة ذات نزعة عقلية خاصة بالنفس الإنسانية أو بمشكلة الوجود والعدم أو الخير والشر .

وبرغم أنهم كانوا على علم بمعرفة النجوم والكواكب وأوقات طلوعها وغروبها فهم لم يبحثوا فى الظواهر السابقة حبا فى استكناه أسرارها وكشف علاقات جديدة فيما بينها وبين الإنسان بل لغرض العيش والقوت .

وفى النظرة العقائدية لم يستطع الشاعر الجاهلى أن يرتقى إلى آفاق محلقة تبعده عن الارتباطات البيئية والمشاعر الحسية فى نظرته إلى معتقده.

وذلك لأن آلهتهم كانت محسة مجسدة تدركها الأبصار كما تدرك غيرها من الكونيات الأخرى . فلم نر شاعرا جاهليا ينظم فى الإله قصيدة تأملية خاصة . بل كان يذكره عرضا بفكرة تتسم بالتسليم المطلق دون أن يبحث فى جوهره وصفاته وتأثيره فى هذا الوجود وانعكاس ذلك على تصرفات الإنسان .

وجل ما نجده عن فكرة العقيدة آراء متفرقة هنا وهناك بعضها متأثر بالآراء الإسرائيلية وبعضها بالمسيحية .

والرضا البعيد عن التعمق والتأمل كان السمة الغالبة على الشعر الجاهلى فى نظرته إلى الله .

فلبيد بن ربيعة يقول :

فاقنـــع بما قســـم المليـــك فإنمـــا قســـم الخلائـــق بيننا علامهـــــا

– وربما تسمو النظرة إلى الله فتتسم بروح تصوفية وتستشرف الغيب وتطوى المسافات والأزمنة فتلمح أن خالق الكون هوالحق ، ونعيم الدنيا لا عمر له ولا بقاء ، يقول لبيد :

ألا كـــل شىء ما خـــلا اللـــه باطـــل وكـــل نعيـــم لا محالـــة زائـــــل

والأمثلة كثيرة لا تحصى . ولم يعدم العصر الجاهلى ظهور ما يمكن أن نسميهم حكماء وإن كان شعرهم لم يرتق إلى آفاق التأمل الذى شهده العصر الحديث ..

ومن هؤلاء زهير بن أبى سلمى القائل :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وهو المشهور بحكمه الكثيرة فى أشعاره ومنها :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

ومنهم ذو الإصبع العدوانى القائل :

كل إمرىء راجع يوما لشيمته وان تخلق أخلاقا إلى حين

ومنهم طرفة بن العبد القائل :

والاثم داء ليس يرجى برؤه والبر برء ليس فيه معطب

والصدق يألفه الكريم المرتجى والكذب يألفه الدنىّ الأخيبُ

ومنهم : أكثم بن صيفى صاحب الحكم النثرية المأثورة .

ومنهم : عامر بن الظرب .

ويعد عامر من فلاسفة العرب فى الجاهلية فقد بحث فيما وراء الطبيعة حبا فى استطلاع المعرفة ورغبة فى الوقوف على ما تطيب به نفسه ويقره عقله . وقد وصل إلى الحق من طريق العقل غير متأثر ببيئته ولا بأهله وعشيرته واستدل على وجود الله بقوله :

" إنى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ولا جائيا إلا ذاهبا ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء " .

ومنهم : زيد بن عمرو بن نفيل . وهو ابن عم سيدنا عمر بن الخطاب . لم يرض عن عبادة الأوثان ولم يطب لفكره منهج اليهود ولا النصارى واتجه إلى الله يلتمس معرفته من هذا الكون ودلائله وصار يجدف بعقله ويسعى بتفكيره حتى وصل إلى الحق على الوجه الحق .

فأسلم وجهه لله وترك ما سواه وقال مؤكدا ارتباط الكون بخالقه والطبيعة مجلى الإله

الصادق :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها ولما استوت شدها ... سواء وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليه سجالا

ومنهم : " أمية بن أبى الصلت ".

قرأ التوراة والإنجيل واتسمت نظرته باليقين والإخلاص فى العقيدة وهو يؤكد أن الله نور أزلى متجدد وحوله تتوقد أنهار من النور . وهذا خيال صوفى بارع سابق لزمانه ولا عجب إذا عرفنا أنه كان يتمنى أن يكون هو النبى المنتظر .

وفى أشعاره ربط بين مظاهر الطبيعة وقدرة الله . والإيمان نتيجة هذه العلاقة الحتمية . يقول :

وقولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رؤوسه ... وفى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقد قال عنه المصطفى عليه السلام : آمن شعره وكفر قلبه .

ومنهم "قس بن ساعدة" استدل على وجود الله بالأثر على المؤثر وبالصنعة على الصانع ومن أشعاره قوله :

يا باكى الموت والأموات فى جدث ... عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوما يُصاح بهم ... كما ينبه من نوماته الصعق

– وفى العصر الإسلامى : يتغير الشعر بصورة ملحوظة . وتكاد تختفى صورة شاعر القبيلة أو شاعر العصر . وذلك لظهور القرآن الكريم الذى شغل عقول الناس وعواطفهم ، وفى القرآن الكريم أروع نموذج للتأمل الخلاق المثمر فى ظواهر الكون وبواطنه وفى النفس الإنسانية والحياة . والبقاء والعدم ، وكل ما يموج به الوجدان البشرى من انفعالات .

والتأملات القرآنية لها اتجاهات عديدة منها :

أ - **لفت الأفكار والعواطف إلى مشاهد الكون** : وذلك يتمثل فى الدعوة إلى التفكير فى خلق السموات والأرض وما فيها من نبات وحيوان ونجوم وكواكب ، ورياح مسخرة بينهما . ويسوق القرآن دلائل عظمة كل ظاهرة ويترك للعقل حرية التفكير وللقلب صدق المعتقد .

ب - **الأمثال التى يضربها الله للناس** : وذلك حين نتأمل حصاد عمل الكفار فى سورة النور وسوء العاقبة الذى لحق بأهل القرية الذين فسقوا فيها فحق عليهم القول وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف . وقصة التحدى التى تنبىء عن عجز الكفار عن خلق الذباب .

جـ - **القصص القرآنى** : وهو يرمز إلى معان هى غاية في الدقة والعمق .

فالعالم الفنى الذى تموج به قصة يوسف هو فى غاية المتعة والثراء والتأمل والجو الرائع الذى يحيط بقصة آدم ، وجو العظمة الذى تبعثه قصة سليمان وداود ، حيث تتحدى الحقيقة كل خيال ، وتجد العقول والعواطف مسرحا لرياضة ذهنية وجدانية تتأمل من خلالها هذه الأجواء الخلابة التى لا يمكن للشعر أن يرقى إليهافى أى عصر من العصور ، وقصة أهل الكهف وموسى وعيسى ... وغيرها تشير إلى مكانة التأمل القرآنى الذى يقود العقل والقلب إلى مرفأ اليقين وصواب المعتقد ولا يحطم داخل الإنسان ويشعل فى أغواره حرائق الشك ويفجر براكين الألم والسأم .

ولذلك وجد الشعراء الإسلاميون والأمويون أن القرآن الكريم خير نموذج يحتذى بل ويدافع عنه . إلا أنهم برغم ذلك ظلوا أقزاما أمام شموخ أفكاره وأساليبه ولم يستفيدوا من اتجاهات التأمل فى هذا الكتاب المبين . ولم يتعمقوا فى بحثه ودرسه وانما اكتفوا بموقف الدفاع عنه فى أساليب خطابية مباشرة كما فعل شعراء الرسول وشعراء آل البيت عامة ومنهم الكميت ودعبل والخذاعى .

ويحق لى أن أقول إن ظهور الدين الإسلامى لم يكن عائقا للشعر عن مسيرته ولم يحجر علي الناس سماع الشعر أو انشاده .

وإنما الشعراء هم الذين ظلوا متمسكين بالنهج القديم فى القصيدة شكلا ومضمونا ولم

تتفتح مداركهم لما فى هذا الكتاب من اشراقات ورموز وإيحاءات ثرية تظل جديدة معطاء برغم تعاقب الأزمان وتغير البيئات وتلون المشاعر وتبدل الأفكار .(١)

- وفى العصر العباسى :

انتشرت الفلسفة واختلط العرب بغيرهم من الأمم واقتبسوا ثقافات أجنبية ، لكن تأثير الفلسفة فى الأدب لم يظهر إلا فى نواحى قليلة معينة ، وقد كان هذا التأثير كما قال دى بور : سطحيا فى أغلب الأحوال ويتجلى هذا بنوع خاص فيما روى عن الشعراء من أقوال تدل على روح الشك ، ومن سخرية بأقدس الأشياء كما يتجلى فى تمجيدهم للشهوات الحسية ، ولكننا إلى جانب هذا نجد حكما وتفكيرا جديا وآراء صوفية تدخل جميعا فى الشعر العربى (٢)

والمتنبى وأبو العلاء يتضمن شعرهما كثيرا من الحكم وقد تميزا بالاتجاه الفلسفى فى أشعارهما .فالمتنبى ثبت أنه أثر فى أبى العلاء : بفكره وفلسفته .

ويذكر د / طه حسين أن البيتين :

ويـدفـن بعــضنـا بــعضا ويــمشــى   أو اخـــرنا عـــلـــى هـــام الأوالـــى
وكـم عـــين مـــقبـــلة النــواحـــى   كحيـــل بـــالجنـــادل والـــرمـــال

قد أثرا فى التشاؤم العلائى وما نشأ عنه من فلسفة تأثيرا عميقا .

وقد استغل أبو العلاء هذا المعنى وصوره فى أروع الشعر فقال :

صاح : هـــذى قبـــورنا تمـــلأ الرحــــ   ـــب فأيـــن القبـــور مـــن عهـــد عـــاد

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وان قدم العهد هو ان الآبـاء والأجـــداد (٣)

---

(١) أنظر كتاب : من القيم الإسلامية فى الأدب العربى . للمؤلف . مطابع جامعة الزقازيق .
أنظر كتاب : الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق للمؤلف دار الأرقم بالزقازيق .

(٢) ت ج دى بور . تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٧٦ . نقلا عن ثريا كرم ملحس فى كتابها القيم الروحية فى الشعر العربى ص ١٦٥ .

(٣) د / طه حسين : مع المتنبى جـ٢

وكان المتنبى واسع الثقافة . وقد وقعت أنظاره بغير شك على الثقافات اليونانية المترجمة إلى العربية ، كما أنه اجتمع بالمعلم الثانى " الفارابى " فى بلاط سيف الدولة وتتلمذ لآرائه أو عرف على الأقل طرفا منها ، وألم ببعض اتجاهاتها ،

ولما كان المتنبى ميالا إلى كل غريب مسارعا إلى كل ابتكار جديد ، لذلك رأيناه الوحيد بين شعراء سيف الدولة الذى اصطنع الاتجاه الفلسفى فى شعره ،

وكعادة الشعراء القدامى ليست هناك قصائد بعينها نحا فيها المتنبى ناحية الفلسفة وإنما هى أبيات متناثرة هنا وهناك (١) .

والاتجاه الفلسفى فى شعر المتنبى ناشىء عن رغبته فى الكشف عن حقائق الأشياء وبواطن الأمور فمذهب اللذة الذى نادت به الأبيقورية والمانوية نرى المتنبى يؤمن به فيقول :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فليس لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

والبيتان السابقان ينسبهما " عبد القادر البغدادى المتوفى سنة ٢٩٣ هـ إلى مذهب التناسخ ويشير إلى أن المتنبى كان متأثرا بمذهب السوفسطائية حين قال :

هون على بصر ماشق منظره فانما يقظات العين كالحلم

ومتأثرا بمذهب القضائية فى قوله :

نحو بنو الدنيا فما لنا نعاف ما لا بد من شُربْه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تُربْه

وينسبه إلى مذهب النفس الناطقة لقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف فى الشجب
فقيل تخلد نفس المرء باقية وقيل تشرك جسم المرء فى العطب (٢)

---

(١) م.ن.ص ٤٣٢ .
(٢) خزانة الأدب ص ٢٨٣ نقلا عن د / مصطفى الشكعة فى كتابه السابق ذكره .

وأبو العلاء من أعمق الشعراء العرب فكرا ويمكن أن نسميه فيلسوفا لأن الاتجاه الفلسفى فى شعره واضح إلى حد لا يقبل الشك . وهو فى هذا المجال أشهر من أن ينوه به . ففلسفته القائمة على رفض الواقع الخارجى ومعالجة مشاكل الذات وهموم النفس وفلسفة مواقف الحياة معروفة .

ومن أشعار أبى العلاء الفلسفية التأملية قوله موضحا رأيه فى الروح :

والـروح شـىء لطيـف ليـس يـدركه ... عقـل ويسكن مـن جسم الفتى حـرجـا
سـبحان ربـك هـل يبـقى الـرشـاد له ... وهـل يحـس بما يلـقى إذا خـرجـا
وذات نـور لأجـسـاد يـحسـنـه ... كـمـا تبينت تحت الليـلـة السـرجـا
قـالت معـاشر يبـقـى عنـد جثتـه ... وقـال نـاس إذا لاقى الردى عرجـا(١)

ويقول :

والـروح أرضيـة فـى رأى طـائـفـة ... وعنـد قـوم تـرقـى فـى السماوات
تمضى علـى هيئة الشخـص الذى سـكـنت ... فيـه الـى دار نـعـمى أو شـقـاوات (٢)

والفكرة الفلسفية التى توحى بأن الجسد سجن النفس طافت بذهن أبى العلاء فعبر عنها وعد الموت انعتاقا للنفس وبدء حريتها . والنفس عنده مرادفه للروح يقول :

والـروح طائـر محبـس فـى سجنـه ... حـتـى يـمـن رداه بـالاطـلاق (٣)

والنفس عنده غير خالدة فهى تفنى بفناء الجسد وفى هذا تناقض مع رأيه السابق يقول :

وجـسـمـى شمعـة والنـفـس نـار ... اذا حـان الـردى خـمدت بـآف(٤)

ومن الذين لمع بريقهم فى ساحة التأمل الأدبى الفلاسفة الذين عبروا عن أفكارهم بلغة شعرية محلقة وهؤلاء قليلون أمثال :

ابن سينا والغزالى ، والنفرى والفارابى وابن طفيل الغنوى .

---

(١) أبو العلاء المعرى . لزوم مالا يلزم جـ١ ص ١٩٧ .
(٢) م.ن ص ١٧٤ .
(٣) م.ن ص ١٤٥ .
(٤) م.ن جـ٢ ص ١١٢ .

وابن سينا كان الرائد لفلاسفة الإسلام وشعرائه المتأملين فى النفس الإنسانية وعينيته الرائعة كانت مجال معارضة كثيرة من الشعراء اللاحقين وهيهات أن يصلوا يقول :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع

ويقول :

هذب النفس بالعلوم لترقى وذر الكل فهى للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعلم سراج وحكمة الله زَيْتُ
فاذا أشرقت فانك حى واذا أظلمت فانك ميت

ويقول ابن سينا :

ارجع إلى نفسك وتأمل ... هل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك ما عندي أن هذا يكون للمستبصر ، حتى إن النائم فى نومه ، والسكران فى سكره ، لا يعرف ذاته عن ذاته ، وإن لم يثبت تمثله لذاته فى سكره (١). وقصة سلامان وأبسال " التى ذكرها ابن سينا فى كتاب الإشارات أحسن رمز ، لا بل أوضح تبين سعادة النفس ، ودرجاتها ، وكيفية محاربتها للشهوات والتجرد عنها .. وللقصة تأويلات كثيرة (٢). ...... منها أن سلامان هو النفس الناطقة ، وأبسال هو العقل النظرى، أو هو درجة النفس فى العرفان ، وامرأة سلامان هى القوة البدنية الأمارة بالشهوة والغضب ، وعشقها لأبسال هو ميلها إلى تسخير العقل .. إلى غير ذلك من التأويلات التى تدل مع غيرها من القصص الأخرى والرسائل المنسوبة إلى ابن سينا مثل رسالة الطير على أن النفس لا تنال السعادة الحقيقية إلا بإعراضها عن الشهوات وتركها الملذات وتطلعها إلى الملأ الأعلى ، لأن لذة التفكير والتأمل تشبه لذة العبادة.

وابن طفيل فيلسوف المغرب كان أديبا ناثرا وشاعرا ممتازا ذا فكرة عميقة فلسفية هادفة .

---

(١) أبن سينا . الاشارات ص ١٢١ نقلا عن د / جميل صليبا فى كتابه من افلاطون إلى ابن سينا ص ١٠٤
(٢) أنظر كتاب : من أفلاطون إلى إبن سينا لمزيد من الإيضاح ص ١٣٧ - ١٤٠ وكتاب من الفلسفة الإسلامية ص ١٦٥ ، طاهر عبد المجيد .

يقول فى صلة الروح بالبدن :

نـــور تـــردد فـــى طـــين إلى أجـــل	فانـــحاز علـوا وخـــلى الطـــين للكفـــن
يا شد ما افترقـــا من بعـــد ما اعتلقـــا	أظنـــهـا هدنـــة كـــانت علـــى دخـــن
ان لـم يكـن فى رضـا الـلـــه اجتـــماعهمـــا	فيـــالـهـا صفقـــة تمـت علـــى غـــبن

وقصة " حى بن يقظان" تصور آراءه فى أهم المشاكل الفلسفية بل انها تصور مذهبه الفلسفى الكامل بغاية الدقة والإحكام (١) .

وهذه القصة وغيرها من القصص الفلسفية هى فى قمة المتعة العقلية والإشباع العاطفى والفن الأدبى الذى أهملته الأوساط النقدية فى العصر العباسى والأندلسى أيضا ، والنُّـفرى لا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال كتابه : المواقف والمخاطبات "إذ ينطوى على خيال محلق ورمز شفاف وفكر دقيق يوحى بعظمة صاحبه وإخلاصه لفنه .

والشعراء الصوفيون وقفوا حياتهم على التأمل ، وجعلوا من حب الإله فلسفة خاصة ووضعوا لها رموزا تربطها بحياة العاشقين .

وفى أشعارهم عبروا عن فلسفتهم فى وحدة الوجود ونظرية التناسخ وفلسفة الحب الإلهى والاتحاد بالله والفناء فيه ..

– والشعر الصوفى حلقة ماسية فى أدبنا العربى لم يحظ باهتمام النقاد والدارسين حتى حسبه الناس أورادا تقال فى حلقات الذكر فقط .

وهو فياض بالأحاسيس الصافية ، زاخر بالعوالم الثرية ، يخاطب وجدان الإنسان التواق إلى الانعتاق ... إنه جدير بالتحليل والقاء الأضواء الجديدة عليه واستخلاص مبادىء نظرية نقدية جديدة ولتكن هذه النظرية هى " لغة الإشراق والكشف " وهى تحتاج إلى تضافر جهود عدة ومعاونة علم النفس والفلسفة والاجتماع والعقائد وعلم الصوتيات واللغويات والموسيقى .

ومن أشهر الشعراء المتصوفين : ابن الفارض ، ومحيى الدين بن عربى

– فابن الفارض يقول فى لغة شعرية رامزة يسبق بها أحدث ما تمخض عنه العصر

(١) أنظر : القصة كاملة : فى كتاب حى بن يقظان لأبن طفيل تقديم وتحقيق فاروق سعد .

الحديث من نظريات في صياغة الشعر كمبدأ تراسل الحواس أو المذهب الرمزى الذى تختلط فيه المدارك فالعين تسمع والأذن ترى والسمع ينطق واليد تتكلم واللسان يبطش .. وهذا ما عبر به ابن الفارض بفطرة نقية خالصة يقول:

وكلى لسان نـاظر مسمع يـد ... لنطق وادراك وسمع وبطشة
فعينى ناجت واللسان مشاهد ... وينطق منى السمع واليد أصغت
وسمعى عين تجتلى كل مابدا ... وعينىَ سمع إن شدا القوم تنصت
ومنّىَ عن أيد لسانى يدٌ كما ... يدى لى لسان فى خطابى وخطبتى
كذاك يدى عين ترى كل مابدا ... وعينى يد مبسوطة عند بسطة
وسمعى لسان فى مخاطبتى كذا ... لسانى فى إصغائه سمْعٌ مُنصتِ (١)

ويقول مؤكدا عقيدته فى الاتحاد والفناء :

كل من فى حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بكل من فى حماكا
يحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاح تحت لواكا (٢)

وابن عربى صاغ أفكاره فى شعر رمزى غامض يقترب من السحر إلا أنه يحرك الطاقات الكامنة فى النفوس والعقول .

فالعالم عنده خيال ورؤيا يجب تأويلها ، لأنه خيال يرمز إلى حقيقة يقول :

إنما الكون خيال ... وهو حق فى الحقيقه
والذى يفهم هذا ... حاز أسرار الطريقه

وهو يؤمن بالحب دينا شاملا للإنسانية كلها فيقول :

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وايمانى (٣)

---

(١) أبن الفارض ، ديوانه ص ٥٢ .
(٢) م - ن ص ٩٣ .
(٣) أبن عربى ترجمان الأشواق ص ١٩٦ .

وفى العصر الحديث :

ظهرت المدارس الشعرية وواكبتها المذاهب النقدية . وفى مقدمة هذه المدارس مدرسة الديوان ومدرسة المهجريين .

وقد آمن أصحاب المدرستين بأن الشعر ليس مجرد وصف أو نقل أو محاكاة بل هو على الدوام قوة مبدعة خلاقة وهو يبدع من ناحيتين : إنه يبدع أو يصنع أشياء لم تكن موجودة من قبل . وهو يبدع كذلك بالمعنى الأعمق لهذه الكلمة عندما يصقل العنصر الخلاق الكامن فى التجربة نفسها ويسمو به .

وأصبح للعقل دور كبير فى إنجاح التجربة الشعرية بل أصبح لزاما على الشعراء أن يتسلحوا بكل ما أنتجه العصر من نظريات علمية وفلسفية واقتصادية حتى يقاوموا غرور العلم وطغيان المادة – عليهم أن يكتشفوا أبعادا جديدة للغتهم ومشاعرهم وأن لا يتركوها متخلفة عن إيقاع العصر ونبضه الحاد .

وربما كانت قصة الشعر الحديث والشعر المهجرى هى قصة اكتشاف الباطن واستعمار الأعماق .

وانطلق المهاجرون من أرضهم التى ضاقوا بأوضاعها وراحوا فى غربتهم يعرضون على العالم كنوزا لم يتوقعها . وفى مقدمة هؤلاء ميخائيل نعيمة الذى يقول معبرا عن حيرته :

نحن يابْنى عسكر قد تاه فى قفر سحيقْ
نرغب العَودْ ولا نذكر من أين الطريقْ
فانتشرنا فى جهات القفر نستجلى الأثرْ
نسأل الشمس عن الدرب ونستفتى الحجرْ
وسنبقى نفحص الآثار عن هذا وذاكْ
ريثما ندرك أن الدرب فينا لا هناكْ
وسنبقى نهجع الليل وفى الصبح نفيقْ
ريثما نلقى منانا .. ريثما نلقى الطريق(١)

---

(١) ميخائيل نعيمة : همس الجفون ص ٤٦ .

أسباب ضعف التأمل فى الشعر العربى القديم :

بعد تتبعى السابق لمسيرة التأمل فى الشعر العربى واستخلاص نتيجة مهمة وهى ضعف تدفق التيار التأملى فى شعرنا القديم . وهذه النتيجة لا تمنع من أن يكون هناك بعض الشعراء الذين قوى ذلك التيار عندهم .

ويمكن تلخيص العوامل التى شاركت فى هذا الضعف فى الظواهر الآتية :-

(١) ظروف البيئة وطريقة التفكير :

ان العوامل الطبيعية والاجتماعية لها أكبر الأثر فى تكوين عقلية الشعوب . والظروف المعيشية التى عاشها العرب أثرت فى مسار تفكيرهم . ونتيجة لهذا استنفد العرب جهدهم فى السعى وراء الطعام والمأوى . ولم يتوفر لهم الوقت الذى يفرغون فيه لمراجعة ما يدور فى نفوسهم وتأمل ما حولهم وبلورته فى فلسفة ذاتية واستنباط المعانى الإنسانية منه .

وجاءت القصيدة العربية صورة لحركة الشاعر اليومية فقد جعلها لوحة ناطقة بحياته وترجمانا عن تطلعاته المرتبطة بالبيئة أوثق ارتباط.

(٢) بناء القصيدة :

والقصيدة العربية تفردت بشكل خاص يعتمد على وحدة القافية والوزن . ولا شك أن هذا الايقاع الموحد في كثير من النماذج جعل البيت هو وحدة القصيدة . والبيت يحمل كل ما يسكبه الشاعر من فكرة أو تجربة . وكثيرا ما استقرت فيه دون أن تلتفت إلى غيره أو تتعداه . وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى بيت آخر وربما حمل فكرة جديدة وتجربة جديدة .. ولذلك فقدت القصيدة وحدتها العضوية التى هى من أهم سمات القصيدة التأملية والاعتماد على روى واحد فى القصيدة حال فى كثير من المواقف الفنية بين الشاعر وحريته فى الانطلاق بأفكاره ومشاعره إلى آفاق جديدة . . فكأن الروى فى البيت قفل يفتح الأبواب ثم يغلقها . وهذا لا يمنع الجودة فى العمل الفنى والوحدة العضوية إذا استطاع الشاعر أن يسيطر على أدواته الفنية ويعطى لتجربته صبغة إنسانية شاملة ونظرة مستقلة إلى الكون والحياة .

(٣) **التكسب بالشعر** : كان لسيطرة الخلفاء .. وحاجة الشعراء إلى ما يكفيهم مؤونة العيش أثر فى بعد الشعراء عن التأمل الباطنى .. ومحاولة النفاذ إلى صميم الأشياء لأن الخلفاء أغروهم ببريق الذهب . فأصبح أقصى ما يتمناه أى شاعر هو الوصول إلى بلاط الخليفة ... وإلقاء قصيدته فى حضرته .. ولذلك حرص على إضفاء كل ما يستطيع اجتلابه من صفات على الممدوح رغبة فى الندى الذى تسيل به راحة الأمير .

وقد نبه إلى هذا الخطر الذى أحدق بالشعراء الامام عبد القاهر الجرجانى فى معرض دفاعه عن الشعر واعطاء التصور الحقيقى له ..ويهاجم من يتصور ان الشعر ليس إلاملحة أو فكاهة أو بكاء منزل .

فيقول : أما الشعر فخيل إليها أنه ليس فيه كثير طائل . وان ليس الا ملحة أو فكاهة أو بكاء منزل ، أو وصف طلل ، أو نعت ناقة أو جمل ، أو إسراف قول فى مدح ، أو هجاء وأنه ليس بشىء تمس الحاجة اليه فى صلاح دين أو دنيا (١).

– ومما أضعف دور الشعر التأملى العميق موقف الفقهاء من الشعر الصوفى ومن الصوفيين أنفسهم فقد اتهموا كثيرا منهم بالخروج عن تعاليم الشريعة ، ولم يصغوا إلى نفثات صدورهم ونبضات قلوبهم المفكرة فى عظمة الكون وخالقه ، والباحثة عن سر السعادة فى هذا الوجود . وكان لهذا الموقف دوره فى إخماد هذه الأصوات الفريدة لما للفقهاء من مكانة فى قلوب عامة الناس بل وفى قلوب الخلفاء وأصحاب الشأن . ووصل الأمر فى بعض الأحيان إلى الزج ببعضهم فى غياهب السجون .. وأين شعر أبى نواس وغيره من فحول الشعراء من قول : أبى بكر محيى الدين بن عربى الحاتمى :

سفينة إحساسى ركبت فلم تزل ... تسيرها أرواح أفكاره الخُرْسِ
فلما عَدَتْ بحر الوجود وعاينت ... بسيف النهى من جل عن رتبة الأنْسِ
دعانى به عبدى فلبَّيْتُ طائعًا ... تأمل – فهذا القطفُ فوق جنى الغرسِ
فعاينت موجودا بلا عين مبصرٍ ... وسُرِّح عينى فانطلقْتُ من الحبْس
فكنت كموسى حين قال لربه ... أريد أرى ذاتا تعالت عن الحس
فدك الجبال الراسيات جلاله ... وأصعق موسى فاختفى العرش فى الكرسى
وكنت كخفاش أراد تَمتُّعًا ... بشمس الضحى فانْهَدَّ من لَمْحة الشمس
فلا ذاته أبقى ولا أدراك المنى ... وغودر فى الأموات جسما بلا نَفْسٍ (٢)

(١) عبد القاهر الجرجانى دلائل الاعجاز : فى علم المعانى : ص ٢٢ .
(٢) أبن عربى ديوانه الجزء الأول ص ٢٩ .

(٤) اتجاه النقد إلى معالجة الشكل اكثر من المضمون :

غلب على النقاد العرب النقد الخارجي .. وما يحمله تآلف اللفظ والمعنى من معان . وأخذت قضية اللفظ والمعنى . جهدا عقليا مكثفا ومساحة كبيرة من كتب النقد العربى وانتصر بعض النقاد لقضية اللفظ وآخرون أكدوا على المعنى أولا :

فقدامة بن جعفر لا يرى أى ضرر اذا حملت الألفاظ الجيدة معنى غير حميم أو ذميم ، على أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك إلى الغاية المطلوبة وكذلك أشار العسكرى إلى المعنى ذاته . أما الجاحظ وابن الأثير فقد شددا على المعنى الشريف من أى انسان ولو جاهلا .

ويمكن أن نستشف من مصطلح " المعنى الشريف " مبادىء نظرية الشعر المتجهه إلى أغراض شريفة التى نادى بها فى العصر الحديث : السير فيليب سدنى فى كتابه : اعتذار عن الشعر أو دفاع عن الشعر " ويعد هذا الكتاب أول عمل نقدى ممتاز فى التراث الانجليزى .

ولم يقدر لهذا الاتجاه النجاح لأن باقى النقاد العرب لم يركزوا عليه فهم قد نظروا للشعر نظرة فنية خالصة تشبه مايسمى فى العصر الحديث : الفن للفن ".

فابن سلام يتحدث فى " طبقات فحول الشعراء " عن شعراء أخلاقيين وشعراء غير أخلاقيين فى الجاهلية ولكنه لا يرتب على ذلك أى حكم نقدى يتخذه أساسا للمفاضلة بين هذين الفريقين من الشعراء . وعد ابن سلام فى الطبقة الأولى امرؤ القيس والنابغة وقد قال عنهم إنهم ممن يتعهرون فى شعرهم .

وابن قتيبة لا يشير في مقدمته لكتابه : الشعر والشعراء " إلى ربط الشعر برسالة أخلاقية معينة ، ومنهج الآمدى فى كتابه الموازنة منهج فنى خالص فهو لا يضع سوي المقياس الأدبى شكلا ومضمونا مقياسا يقيس به الشعر ويفاضل على أساسه بين أبى تمام والبحترى.

وحتى فى المرات النادرة التي يبدو الآمدى فيها متأثرا ببعض النظريات الفلسفية والتى يعمد فيها إلى التجريد النظرى فى الحكم على الشعر لا يشير إلي أى عنصر أخلاقى فى العناصر التى يقوم عليها الشعر فى هذا الجانب ينقل الآمدى عن : شيوخ أهل العلم بالشعر " تعريفهم للشعر الجيد فيقول : " زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتستحكم إلا بأربعة أشياء جودة الآله، وإصابة الغرض المقصود ، وصحة التأليف ، والانتهاء

إلى نهاية الصنعة من غير نقص منها ولا زيادة عليها "(١) .

ثم يصل هذه العناصر الأربعة بنظرية العلل الأربعة المشهورة وهى :

العلة الهيولانية ، والعلة الصورية ، والعلة الفاعلة ، والعلة التمامية ، والقاضى الجرجانى فى كتابه : " الوساطة يرد على من أخذ على المتنبى بعض أبيات تتنافي والخلق القويم ويقول : " فلو كانت الديانة عارا على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخير الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر (٢) ومما تقدم نري أن النقاد القدامى لم يغوصوا فى أعماق المرئيات والمحسنات البيانية التى تحملها الألفاظ معانى مختلفة ، ولم يعيروا ما وراء الصور البيانية من الشعر اهتماما مركزا . ولم يدرس الشعر دراسة نفسية روحية ، ولم يبحث فيه بحثا عميقا . بل ظل النقد يحوم حول الأدب من زاوية محدودة وعولج الشعر معالجة جزئية ، ولم تقدر النواحى الفكرية والجوانب الروحية التى عبقت بها بعض الأعمال الشعرية الخالدة .

ولا يمكن أن نغفل بعض الظواهر النقدية التى كان لها الأثر الفعال فى تقويم حركة النقد العربى مثل ابن طباطبا العلوى الذى " استطاع من خلال ربطه بين الأدب والنفس البشرية أن يبرز عنصرا جديدا فى النقد العربى هو : العنصر النفسى . ذلك أن الإعجاب بالشعر ، والهيام به لا يقف عند ألفاظه وأوزانه وأفكاره وأنفاسه ، بل يكون أقوي وأوضح حين يتجاوب هذا الشعر مع تلك النفس ، فتقبل عليه ، وتطمئن إليه (٣) .

فالإمام عبد القاهر بنظريته فى النظم ومحاولته استكشاف الأثر النفسى للصور البيانية قد أعطى لحركة النقد العربى وجها جديدا ..... ويعطى الإمام عبد القاهر صورة صادقة للشعر حين يرد على من يدعى أن الشعر يحمل الباطل والكذب وبعض مالا يحس .. فيقول :

فكيف وضع من الشعر عندك ، وكسبه المقت منك أنك وجدت فيه الباطل والكذب وبعض مالا يحسن ، ولم يرفعه فى نفسك ولم يوجب له المحبة من قلبك . أن كان فيه الحق والصدق والحكمة وفصل الخطاب ، وأن كان مجنى ثمر العقول والألباب ، ومجتمع فرق الآداب . والذى قيد علي الناس المعاني الشريفة ، وأفادهم الفوائد الجليلة ، وترسل بين الماضى والغابر ينقل

(١) الآمدى .. الموازنة ص ٢٩٣ .
(٢) القاضى الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٥٨ .
(٣) أنظر : عيار الشعر للعلوى ص ١٥ .

مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد ، ويؤدى ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد حتى ترى به آثار الماضين ، مخلدة فى الباقين ، وعقول الأولين ، مردودة فى الآخرين ، ونرى لكل من رام الأدب وابتغى الشرف ، وطلب محاسن القول والفعل ، منارا مرفوعا وعلما منصوبا ، وهاديا مرشدا ، ومعلما مسددا ، وتجد فيه للنائى عن طلب المآثر ، والزاهد فى اكتساب المحامد ، واعيا ومحرضا ، وباعثا ومخصصا ومذكرا ومعرّفا ، وواعظا ومثقفا (١)

ونظرية الشعر التأملى التى لم يهتم بها النقد العربى القديم بلورها ، سدنى فى كتابه دفاع عن الشعر فى ثلاث نقاط رئيسية متصلة :

أولا : أنه عاد إلى التاريخ فوجد أن الشعر كان من أهم الوسائل التعليمية التى غذت عقول الناس فساعدت بذلك على نقل البدائيين إلى مراحل حضارية أعلى .

وثانيا : أنه ناقش الشعر على أساس فلسفى فوجد أنه قادر على إبراز الحقيقة والتعبير عن التجربة الانسانية فى صورة حية تغرى باتباعها .

وثالثا : أنه توصل بناء على هذا إلى أن الشعر يثرى العقل الإنسانى والشخصية الإنسانية بحيث يمكن الإنسان من إدراك الحقيقة والإحساس بها والتصرف طبقا لمقتضياتها "(٢) . .

والشعر بعد هذا كله " ينبغى أن يدهشنا عن طريق التطرف الرقيق لا عن طريق الفردية . ينبغى أن يفزع القارىء بحيث يحس كأن هذا الشعر يعبر عن أفكاره هو نفسه وفى أعلى حالاتها . وينبغى أن تبدأ الصورة الشعرية وتتطور وتأخذ شكلها بطريقة طبيعية أيضا بحيث تغمر القارىء ، كما تغمره الشمس . والشعر إذا لم ينبعث بصورة طبيعية كما تنبعث الأوراق عن الشجرة فمن الخير أن لا ينبعث على الإطلاق "(٣)

---

(١) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ص ٢٦ .

(٢) د / محمود الربيعى : فى نقد الشعر ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) من رسالة كليتس إلى جون تيلور فى ٢٧ فبراير ١٨٢٨ نقلا عن د / محمود الربيعى فى كتابه السابق ص ٩٣ – ٩٤ .

(د) بين التأمل والفلسفة

التأمل كما أوضحت سابقا هو البحث عن جوهر الأشياء ومحاولة التماس الحقائق بعيداً عن التقعيد والتقنين لأن الروح هى نقطة انطلاقه والعقل منارة على طريقه تهديه ولاتعوقه .

والمتأمل فيه من الفيلسوف حكمته ، ومن الشاعر رقته ، ومن الصوفى شفافيته ، ومن الفنان نبوغه .

فهل التأمل بالمفهوم السابق مطابق للفلسفة ؟ وهل من يخوض التجربة التأملية نعده فيلسوفا ؟ .

وللإجابة على السؤالين السابقين لابد من توضيح مفهوم الفلسفة ومفهوم الفيلسوف والمقارنة بين وظيفة الفلسفة ودور التأمل ومايتميز به كل من الأديب والفيلسوف . ويمكن على ضوء ماسأوضحه حول النقاط السابقة أن أحدد هل أدباء المهجر فلاسفة أم أنهم اكتفوا بالتأمل ولم يصلوا إلى نهاية مستقرة ثابتة نابعة من منظورهم الخاص للأشياء .

-١-

وكلمة فلسفة أخذها العرب من كلمتين يونانيتين إحداهما " فيلو " ومعناها محبة والثانية " سوفيا " ومعناها حكمة أو معرفة . وقد استعمل العرب كلمة فلسفة فى هذا المعنى .

وأخذوا كلمة فيلسوف من كلمتين يونانيتين أيضاً : إحداهما " فيلوس " أى محب والثانية " سوفيا" أى الحكمة والمعرفة .

وقد استعمل العرب كلمة فيلسوف فى هذا المعنى .

وقد عرفت الفلسفة تعريفات كثيرة فى مراحل تطورها المختلفة .

(أ) ففى عصر ماقبل أرسطو عرفت الفلسفة بأنها : هى البحث النظرى فى العالم الطبيعى ومعرفة أصله ، ويعرفها سقراط بأنها : البحث عن الحقائق الكلية والمبادىء الأخلاقية بحثا نظريا ، ويعرفها أفلاطون بأنها : البحث عن الإله وعن حقائق الأشياء الأزلية ومعرفة الخير للإنسان .

ويعرفها أبيقور بأنها : البحث عن أخلاق الإنسان وسلوكه لتحقيق اللذة المادية التى

يعقبها هدوء وطمأنينة عقلية .

ويعرفها أفلوطين بأنها : البحث فيما وراء الطبيعة بحثا نظريا ممزوجا بالآلام والعمل على خلاص النفس الإنسانية من الجسم وصعودها إلى الأول والاتحاد به .

وعرفت فى العصور الوسطى المسيحية بأنها : البحث فيما وراء الطبيعة تحت سلطان الدين .

(ب) وفى أوائل القرن السابع بعد الميلاد أشرقت فسلفة الحق والعقل معاً فى الشرق . ونزل القرآن الكريم على رسول الإسلام فأفسح مجال التفكير فى الطبيعة وماوراء الطبيعة ، ودعا إلى الفلسفة فى كل نواحيها وعبَّد لها الطريق فى عالم الخفاء أى فيما وراء الطبيعة .

وللفلسفة عند الفلاسفة المسلمين تعريفات عدة :

فالكندى يعرفها بأنها : العلم بجيمع الأشياء .

والفارابى يعرفها بأنها : استكمال النفس الانسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية على قدر الطاقة البشرية .

وصدر الدين الشيرازى يعرفها بأنها استكمال النفس الإنسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ماهى عليه والحكم بوجودها .

(جـ) وأخذت الفلسفة تعريفات عدة عند علماء الغرب .

فتعرف عند فرنسيس بيكون بأنها : العلم بالروابط الكلية بين الأشياء .

وتعرف عند ديكارت بأنها : البحث عن المبادىء الثابتة والأصول الأولى لجميع الموجودات .

وتعرف عند " كانت " بأنها : المعرفة النظرية المستمدة من المعانى الذهنية .

وتعرف عند "هربرت " بأنها : تحليل المعانى العقلية أى تصنيفها وضبط مفهوماتها بنسبة بعضها إلى بعض (١) .

---

(١) أنظر كتاب " الفلسفة الإسلامية " : طاهر عبد المجيد .

وعلى ضوء التعريفات السابقة للفلسفة يمكن أن تعرف الفليسوف بأنه :

هو الذى يجهد عقله فى حل مشكلات الحقائق ومعميات الكائنات . ويرى أن الحياة كل الحياة فى النظر فيها واستطلاع حقائقها وسر وجودها . وهو يتخذ البحث فى حقائق الأشياء مهنة له ويهون كل شىء فى سبيل تنفيذ هذه المهمة التى حملها على عاتقه .

-٢-

ومما سبق يتضح أن هناك علاقة موضوعية بين الفلسفة والتأمل فهما يشتركان فى موضوعات واحدة إلا أن التأمل يختلف عن الفلسفة فى أنه لايعنى بالقوانين الثابتة ولا التعريفات المحددة التي تعطى منهجا متكاملا له صفة الثبات والتوحد ، والفلسفة مصدرها العقل أما التأمل فيستضىء بوميض العقل الصافى الذى يكشف الطريق ولايحدد الأبعاد مع مؤازرة الوجدان والشعور وليس من غرائب الطبائع أن تتوفر لدى الفليسوف قدرة الأديب أو يستقر فى أعماق الأديب ومض لماح من عقلية الفليسوف .

" ونوفاليس " فى أحد فصول الشذرات يتحدث عن الأدباء وعالمهم فيقول : " إذا كان الفليسوف ينظم كل شىء ويضعه فى موضعه ، فإن الأديب يفك كل القيود ، إن كلماته ليست علامات عامة بل هى أنغام ورقى سحرية تحرك حولها مجموعات جميلة " (١)

ومن قديم شُهر عن أفلاطون نظرية المحاكاة فى الشعر " واعتبار الشعر بأنواعه مرادف للنقل والتقليد .

ولكن كثيراً من نقاد القرن العشرين يحاولون أن يستخلصوا من عباراته بعض المعانى التى ترد على الشعر اعتباره وتعدل من الفكرة الأفلاطونية بأن هناك شجارا قديما بين الشاعر والفليسوف وعداوة لاتقبل التصالح بين الشعر والفلسفة (٢) .

وبين أفلاطون أن الشاعر إنسان غير عادى حيث إنه يوحى إليه والشاعر لايستعمل اللغة استعمالا عاديا وإنما يستعملها بطريقة فيها إلهام يشبه الجنون .

وقد يوحى هذا الكلام من بعيد بأن الشاعر يتمتع بمالا يتمتع به الفليسوف حيث يتحرر من القيود والالتزامات التى توضع عادة على الأخير " الفيلسوف " وسيدنى " الناقد الأنجليزى

(١) د / عبد الغفار مكاوى : ثورة الشعر الحديث ص ٤٦ .
(٢) د / محمود الربيعى فى نقد الشعر ص ١٦ .

فى كتابه " دفاع عن الشعر " يقترب فى تفكيره من أرسطو حين يؤكد أن الشعر يحتل مرتبة أعلى من المرتبة التى تحتلها الفلسفة والتاريخ وهو يبدأ هذه النقطة بتقرير الدور الهام الذى يلعبه هذان النوعان من الثقافة الإنسانية في التأثير الإنسانى ويقارن بينهما وبين الشعر فى مفهومه فالشعر يتجه إلى غايات خلقية ويثرى التفكير الإنسانى بومضاته الفلسفية العميقة .

والفلسفة من طبيعتها التعريف والتحليل وهى تعالج موضوعاتها العامة وتصل إلى نتائجها الخاصة عن هذا الطريق .

والتاريخ يهتم بالغاية العملية لا النظرية . وهو لا يستخدم الحجة المجردة للوصول إلى أهدافه التعليمية وإنما يستخدم المثال الخاص المحسوس من الحياة . ولكل واحدة من طريقتى الفلسفة والتاريخ عيوبها .

فالفلسفة تصعب على الإدراك وتتصف بالغموض لأنها تعالج المجردات ولذلك فهى مرشد فقير للشباب وهى شائقة فحسب لهؤلاء الذين هم على قدر من المعرفة .

كذلك فإن التاريخ فى عنايته بالأمثلة المحسوسة إنما يقدم أمثلة عملية تنبع منها الحقيقة العامة ولكن على نحو من الغموض والاضطراب ، لما فى طريقته من الجزئية وعدم الشمول .

أما الشعر فيجمع العناصر الجيدة فى كل من الطريقتين :

حيث يقدم الحقيقة العامة التى هى غاية الفلسفة .

وهو يقدمها أمثلة خاصة حية ومحسوسة كما يفعل التاريخ (١) .

فالشعر المتسم بالتأمل يثرى العقل الإنسانى والشخصية الإنسانية بحيث يمكن الإنسان من إدراك الحقيقة والإحساس والتصرف طبقا لمقتضياتها .

-٣-

وأدباء المهجر وشعراؤه " اتهموا بأنهم فلاسفة أكثر منهم كتابا وحتى رموا بالهرب من الحياة " (٢) ولكن الرأى الصائب أنهم إذا كانت لهم اتجاهاتهم الفلسفية ونزعتهم العقلية فى التفكير فإن هذا لم يورطهم فى جفاف الفلسفة بل بقوا أدباء يتحدثون فى الفلسفة بلغة الأدب

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) د / عبد الكريم الأشتر . النثر المهجرى ص ٨٧ .

لابلغة الفلسفة ويقول د / جميل صليبا : إنهم أدباء لاأصحاب مذاهب فلسفية تنبع من عبقريتهم الخاصة " (١) فلا نستطيع أن نعدهم فلاسفة " لهم نظرية فلسفية معينة مقننة فهم لم يطمحوا فى ذلك وإن طمحوا فلن يصلوا لأن إحساسهم الشعرى وعاطفتهم المشبوبة وخيالهم سيبتعد بهم كثيراً رضوا أم كرهوا عن التقعيد الفلسفى الجاف ، فأغلبهم متقلب المزاج ، يفسر الوجود من خلال ذاته وانعكاسات الظروف عليه .

ويمكن أن نستثنى ميخائيل نعيمه وجبران .

وإن كان جبران لايتمتع بالهدوء والعقلية المنظمة الواعية التى يتمتع بها نعيمة (٢) فرغم أن نعيمة يتقلب فى كثير من الأحيان ولكننا نلمح من هذا التقلب مظاهر للثبات فمنذ البدء يؤمن الشاعر بالقلب ، ويستنيم إلى الطمأنينة النفسية . ويتحدث عن حبه الذى رفضه الناس ، وعن ضميره الذى قدسوه ، وقلبه الذى أحرقوه وتظل هذه المعانى صورته الصحيحة مهما تتجمع حولها صور الجمود العاطفى أو القلق النفسى ، أو العطف على الناس .

حتى لو أردنا أن نقيم من فهمه للخير والشر ، والمسؤلية الإنسانية ، والطمأنينة الصوفية ، والعلاقة بين الله والإنسان فلسفة لايعتريها تناقض فى أصولها لما وجدنا ذلك أمراً بعيداً .

ومعنى هذا أن القاعدة الفلسفية فى أدبه سليمة . وإن كان التقلب العاطفى يغير أحياناً من قسماتها . (٣)

وتظهر فلسفة ميخائيل نعيمة فى كتابه " مرداد " الذى يهديه إلى التواقين إلى التغلب أما غير التواقين فليحذروه " (٤) .

ومفتاحُ فلسفتهِ الصمتُ وهو كثير التردد فى أدبه وهو نفسه كان يظل صامتا ولايكلم حتى أصحابه ولايلقى عليهم التحية مدة قد تصل إلى عشرة أيام ، وآثر العزلة فى مسكنه بعيداً عن ضجيج المدينة .. وهو يفرض الصمت على بطل كتابه " مرداد " ويجعل الصمت من أهم ملامح الأرقش . وقد أورد على لسان مرداد قوله :

---

(١) د / جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى الشام .
(٢) د / إحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم ، الشعر العربى فى المهجر ص ١٨٩ .
(٣) المصدر السابق ١٨٩ .
(٤) ميخائيل نعيمة : مرداد ص ٥٧ .

" إن الصمت الذى أود أن أدخلكم إليه هو تلك القسمة غير المحدودة حيث يتحول اللاوجود إلى وجود ، والوجود إلى لاوجود .

ذاك هو الصمت الذى أودكم أن تجوبوا أرجاءه كيما تنزعوا عنكم فى النهاية جلدكم القديم الضيق وتنطلقوا فى رحاب لاوجود فيها ولاقيود " (١) .

" وفى رسالة إليه قلتُ له منوها ببعض كتبه التى توضح فلسفته :

" وصوت العالم " يتجمع فى لحظة واحدة والآباد تتمثل فى لمحة أبصرك فى ثناياها رائدا تتجدد ريادته ، وتزداد جلاء كلما قدم بها العهد . وكأن مرداد هو الترجمة الحقيقية لهذه الريادة . " والأرقش " هو مفتاحها ، واليوم الأخير هو الوعد الخصب اللا متناهى . فهو النهر الجارى في عيون السالكين دروب الحقيقة التواقين إلى النور المغالبين للديجور .

وزاد المعاد يغري أرواحهم التى التهمت الكثير ولم تشبع بمائدة روحية تكون زادا لعقولهم وقلوبهم . فيخضوضر فى طموحاتهم الأمل .

ويواصلون الرحلة فى أعماق " ابن آدم " بعيدين عن الهوامش ، والمصباح النعيمى فى رؤاهم يتوهج ويقودهم إلى عوالم جديدة معشوشبة بالحب والسلام والنقاء " (٢) .

* وجبران خليل جبران صاغ فلسفته وركزها فى كتابيه النبى وحديقة النبى فكتاب " النبى " هو خلاصة ماوصل إليه جبران من تجارب وآخر ما اقتطفه من معارف الحياة ، ونهاية ماتأثر به من آلام . وكان نقطة التحول الحقيقية فى حياة جبران العقلية وفى توجيه طاقته الإنتاجية فقد استمد جبران من تجاربه ومعارفه وآلامه ماربط به علاقة الإنسان بالإنسان (٣) .

وقد أودع جبران كتاب النبى خلاصة آرائه فى الحب والزواج والأولاد والبيوت والعمل والمساكن والبيع والشراء والجرائم والعقوبات والشرائع ، والحرية والعقل والعاطفة ، والتعليم والصداقة ، واللذة ، والجمال ، والدين ، والموت وكأننا بجبران قضى حياته يستعد لإخراج هذا السفر النفيس فإن كتبه السابقة من عربية وانجليزية ليست سوى مقدمات لما فى هذا الكتاب من

---

(١) ميخائيل نعيمة : مرداد ص ١٠٥ .

(٢) من رسالة أرسلتها إليه بتاريخ ٥ / ٢ / ١٩٧٩ .

(٣) د / ثروت عكاشة . مقدمة كتاب حديقة النبى ص ٩ .

حكمة وفلسفة وشعر وفن " (١)

وفى " حديقة النبى " تتضح فلسفة جبران فى علاقة الإنسان بالطبيعة . وهى مرحلة وصل إليها بعد معاناة فى البحث عن الحقيقة .

فبعد صدور كتاب النبى تطلع إلى بيان علاقة الإنسان بالطبيعة في " حديقة النبى " وعلاقة الإنسان بالله فى " موت النبى " .

وظل ثلاث سنوات وهو يتأمل أسرار الطبيعة وأثرها في تصرفات الإنسان وتمخضت تأملاته عن كتابين هما " رمل وزبد ، وعيسى بن الإنسان " .

وكان صدور الكتابين السابقين مرحلة تمهيدية هيأ فيها ذهنه ووجد انه لإنتاج كتابه " حديقة النبى " .

والطبيعة فى هذا الكتاب هى المنطلق لكل تفكير وهى مركز الدائرة " وهى الضوء الأخضر الذى يتوهج فى أعماقه وينير للسالكين دروب حياتهم المعتمة .

وجبران يربط بين الموت و الحديقة كاشفا عن نظرته الفلسفية إلى الحديقة بوصفها دورة الحياة المتصلة المتجددة . هى حلقة الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء وهى رمز الخلود والبعث ولاينسى جبران وهو يتناول علاقة الإنسان بالطبيعة أن يعالج كثيراً من المظاهر الأخرى التى تكتنف حياة الناس . فيجرد الناس من أرديتهم ويردهم إلى عناصرهم الأساسية الأولى ، لينتهى إلى أن هذه العناصر الأولى أعمق وأقوى مما قد يكتنف وجودهم من مظاهر " (٢) .

(١) جبران خليل جبران : النبى : المقدمة ص (٨ - ٩) .
(٢) د / ثروت عكاشة : مقدمة حديقة النبى ص ٤٨ - ٤٩ .

الفصل الثانى

بواعث التأمل فى الأدب المهجرى

بعد دراسة متأنية للظروف والملابسات التى أحاطت بحياة أدباء المهجر استطعت أن أحدد أهم البواعث التى دفعتهم إلى التأمل .

وهى وإن كانت تختلف من أديب إلى آخر . إلا أن الظروف العامة للحركة الأدبية المهجرية تتشابه مهما تنوعت خيوطها فهىّ تمثل شرنقة واحدة نعم فيها هؤلاء المغتربون بالأسوار الحريرية انتظارا لزمن التحول والتحليق فى العالم الرحب حيث يصيرون فراشات تمتص رحيق الطبيعة وتهب العالم أعذب ماوعى من مغانى الأمل والألم .

وحاولت أن أستفيد من بعض نظريات علم النفس العام والأدبى فى تقويمى لهذه البواعث على ضوء الظروف السياسية والإجتماعية والثقافية التى مر بها هؤلاء الأدباء .. وأهم هذه البواعث يتمثل فى الآتى : -

أولاً : التكوين النفسى :

يُقَسّم الدكتور يونج : الطبيب السويسرى " الناس من حيث أحوالهم المزاجية إلى طائفتين ، الطائفة الانبساطية أو العملية والطائفة الانكماشية أو التأملية .

فأفراد الطائفة الأولى يميلون إلى النشاط والعمل ولاتهدأ أنفسهم إلا إذا حققوا رغباتهم

أما أفراد الطائفة الثانية فيميلون إلى الانكماش ويكتفون بالتأمل والبحث وجمع العلوم والمعارف والتأليف والتدريس ويسلكون فى الغالب مسلك الزهد والتقشف فى الحياة (١) .

وبتأمل حياة المهجريين رأيت أغلبهم يميل إلى الأنكماش والتأمل فهم من الطائفة الثانية ..

ويظهر هذا جليا في دعوة جبران إلى حياة الغاب بعيداً عن زحام المدينة وهروب أبى ماضى من القصور إلى القفر ، وامتطاء المعلوف بساط الريح ليرى العالم من فوق ، ويكتشف أبعاداً جديدة يُغَيّر بها عالمه الذى أصبح رمزاً للعبودية والمهانة .

---

(١) حامد عبد القادر . دراسات فى علم النفس الأدبى ص ١١٧ – ١١٨ .

ونعيمة الذى آثر الصمت والعزلة واعتصم بالجبل .. ووصفه فى براعة وحب وثورة على التنين الذى يرمز به إلى نيويورك ، لقد اندمج بالأفق حتى كأن السماء تتوكأ عليه . أو كأنه عماد قبتها الفسيحة الزرقاء . وإذا التصق بالسماء وقف ثابتاً ساكتاً ، كاشفا صدره لأشعة الشمس ، مُبرداً قدميه فى لجة البحر ، وباعثا فى الهواء أنفاسه الباردة بلسما للبشر والبهائم والحقول . هو صنين . فلذة من كبد الأرض وشامة فى خد السماء (١) ومن الشخروب وسفح صنين أخذ نعيمة يطلق شراراته الفكرية التى تمثل تجربته ونفسيته أصدق تمثيل .

وهم برغم هذا لم يتنوقوا ثمارهم الطيبة التى قدموها للناس ، وضحوا بسعادتهم مقابل إسعاد الآخرين .. وترجم هذه الحقيقة شعرا إيليا أبو ماضى فقال :

بنيت فردوسى وزخرفته ... حتى إذا ما تم ضيّعته
أجريت فى أنهاره كوثرا ... فذاقه الناس وما ذقته (٢)

والبيتان السابقان يمثلان قصيدة كاملة . وهى وإن كانت تعد أقصر قصيدة إلا أنها تمثل حياة كل نفس وإحساس كل قلب يعانى من الصراع الحاد بين البقاء والفناء .

فلكل إنسان فردوس يبنيه ويزخرفه ، وربما يزخرفه قبل أن يشيده ، وربما يبنيه ولا يزخرفه ، والبناء ربما يكون خياليا ، وهو الغالب الأعم وخلفه تكمن المأساة وربما يكون عمليا وفى خلاله تنضج الحياة بالمعاناة والأرق والثمرة لانصيب منها للنفس ، والرائع فى هذا التعبير الإنسانى المشع أنه ينطوى على حياة أدّتْ دورها فى السباق الزمنى المفروض فبنت وزخرفت وشقت الأنهار وأسعدت الناس برحيقه المصفى ، وخوضُ مثل هذه التجربة استشهاد فى ميدان الحياة الصعب وكلنا شهيد إن أردنا ولكن ماأكثر الذين يهابون اقتحام الأخطار .

وتضحية الفنان بنفسه وذوبانه فى الجموع حقيقة يؤكدها علم النفس الحديث لأن الاستعداد على نحو خاص للفن يتضمن شحنة من الحياة الروحية الجَمْعِيَة مقابل الحياة الشخصية . فالفن نوع من الدفع الداخلى الذى يستولى على الكائن البشرى ويجعل منه أداة له .

فالفنان إنسان " جَمْعى " يستطيع أن ينتقل ويشكل اللا شعور أو الحياة الروحية للنوع البشرى .

(١) ميخائيل نعيمة . المراحل ص ٧٠٣ .
(٢) إيليا أبو ماضى : تبر وتراب ص ١٣٣ .

وهو لكى يؤدى هذه الوظيفة الصعبة يكون من اللازم له فى بعض الأحيان أن يضحى بالسعادة ، وبكل مامن شأنه أن يجعل الحياة محببة إلى الكائن البشرى العادى (١) .

وحياة الفنان لايمكن إلا أن تكون مليئة بألوان الصراع لأن فى داخله قوتين تتصارعان هما ، الميل البشرى للسعادة والرضاء والاطمئنان فى الحياة من جهة وشوق جارف إلى الإبداع قد يذهب بعيداً إلي حد أن يتغلب على كل رغبة شخصية من جهة أخرى " (٢) .

ثانياً : الغربة والتوق إلى الانعتاق من القيود المادية والنفسية : -

لقد كان المهاجرون يعيشون فى بيئة هم عنها جد غرباء وكانوا يعانون من غربة الحس والفكر والروح ، وكانوا يشعرون بالاختناق فى هذا الجو الذى تتحكم فيه الآلة ويريدون الانطلاق إلى عالمهم الروحى المثالى .

واصطدامهم بالمجتمع الجديد بما يضج فيه من آلات وصراع رهيب يشد العقول إلى بريق المادة فينسى الناس كل نبضة حب وخفقة حنان . والانتماء لكل عاطفة إنسانية خالدة ... كل هذه الضغوط أدت إلي نفور هؤلاء الأدباء من مواصفات هذا المجتمع " الديناميكى " وإطلاق العنان للعاطفة الإنسانية والوجدان الصافى ، والفكر المتلاحم مع شوق الإنسان للخلاص والسمو بروحة إلى آفاقه الرحيبة . والارتقاء بعقله فوق عالم المادة وخوض تجارب التأمل فى نفسه ، ووجوده وعقيدته وماحوله من مظاهر الطبيعة والحياة والموت وكان الشعر فى أغلب تجاربهم قاربهم السحرى الذى عبر به بعضهم إلى الشاطىء الآخر وبعضهم ظل تائها عن الميناء ، والبعض الآخر لم يهتد فكان من المُغْرَقين .

وهم فى غربتهم شعروا بالحنين إلى الماضى . والحنين إلى الماضى من أكبر العوامل فى اتقاد جذوة التأمل .

فحدوث الموقف الجمالى أو التأملى يكون رائعاً ، حينما نفكر فى أيامنا الماضية لكى نعيش الماضى من جديد ، لا لكى نبكى عدم استغلالنا لوقتنا أو لنستمد من الماضى دروسا تفيدنا فى المستقبل (٣) .

---

(١) د / عز الدين اسماعيل : التفسير النفسى للأدب ص ٤٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٦ .
(٣) روستر يفورهاملتون . الشعر والتأمل ص ١١٧ .

وإيليا أبوماضى يعتقد : أن نفخةً فى الناى على سكينة النفس ونغمة فى العود مع هدأة الروح قد تبلغ بسامعها أو عازفها إلى أبواب السماء مالا تبلغه بروج نيويورك وناطحات سحابها (١) ويقول فى كمنجة " سامى الشوى "

نيـويـورك ياذات الـبـروج التــى　　سمـت وطـالـت كـى تمس الغـمـام

لـــن تبلغـى واللـــه بـــاب السمـــاء　　الا بـــأوتـــار كنـــار الـشـــآم (٢)

ويحن القروى إلى ماضيه ويسترجع خياله صورة وطنه فيصرخ من أعماقه :

حـتـــام أحيـــا غـريـبْ　　مـــالـــى وطـــنْ

يـــايـــوم وصـــل الحـبيبْ　　أنـــت الــزمــنْ

كـــم لـــى بتـــلك السفـوحْ　　مـــن مـــوقـــف

والشـمـس طـــورا تلـــوحْ　　أو تـــختـــفـــى

فـــى ظـــل روض يـفـــوحْ　　بـــالمـضـعـــف

يـاحســـن يـــوم تـــؤوب　　بنـــا السفـــن

نشتـــم قبـــل الـغـــروب　　ريـــح الـــوطـــن (٣)

– وشفيق معلوف يصور لحظة الوداع تصويرا فنيا دقيقا حيث تسافر بهم الأيام إلى المجهول :

مجـاديـف عبـر اليم طاب لها صدى　　يرجعـه صفـقٌ على المـوج هـادىء

متـى رحـن يشققـن العباب تصاعـدت　　مـن القعـر تجـرى خلفهـن اللآلىء

يُدفَعـنَ فتيـانا تـذريهمُ النـوى　　علـى كـل أفـق والـريـاح تناوىء

فـوالله مـاأدرى أعنـد وداعهـم　　تئـن الصـوارى أم تئـن المرافىء

أطلـوا بـوجـه من كوى السفن واجم　　كـأنى بهـم دمع بكته الشواطىء (٤)

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى فى المهجر ص ٤٩ .

(٢) إيليا أبو ماضى : الخمائل ص ١٠٣ .

(٣) القروى : ديوان القروى جـ١ ص ١٤٣ .

(٤) شفيق معلوف : نداء المجاديف ص (١٤ – ١٥) .

ويصور "نعيمة" فى مقالته "مشهدان" هذه البيئة تصويرا فنيا يجسد غربته ورفضه

يقول : الشمس فى السماء – لكن من فى الحديقة يشعرون بها ولايرونها لأنها مقنعة بقناع أغبر كثيف ، ليس ضبابا ولا سحابا . إن هو إلا أنفاس التنّين المتصاعدة من ألوف المداخن ، وملايين النوافذ ، وجبال متراكمة من الحديد والحجر والقير والأسفلت .

تتصاعد هذه الأنفاس فى الهواء فينوء تحتها الهواء .

ترفعها الأرض بكل قواها إلى فوق فتشمئز منها السماء .

وتضغط بها إلى أسفل . فتبقى عالقة بين الأرض والسماء .

حافظة من الشمس حرارتها ، خانقة من النسيم أنفاسه ، ضاغطة بصفائح من حديد محمية فى نار جهنم على صدر التنين المتمدد بين نهرين الفاغر فاه ليشرب البحر ويبتلع البر دون أن يرتوى يوماً أو يشبع " (١) .

ويقول جبران : " فالحياة هنا طاحنة شبيهة بدواليب تحركها أيد خفية ليلا ونهاراً "، فليس غريبا أن يحس هؤلاء القرويون بالوحشة والضياع وأن ينظروا تبعا لذلك فى الحياة من أساسها ويسألوا أنفسهم . مامعناها ؟ ومامعنى وجودنا ؟ ومامعنى المسيحية الوديعة التى فسرت لنا حياتنا هناك فى الجبال العارية المغسولة بأشعة الشمس وأضواء النجوم (٢) وقذفت بهم الغربة الحسية والفكرية إلى مهاوى الغربة الروحية فشعروا بفجوة هائلة بين أمانيهم الشفافة وبين واقعهم المتناحر المتشكك الحائر الذى يبحث عن الرى وهو فى قلب الأمواج !!!

ثالثاً : الطبيعة الشرقية :

ومن البواعث التى دفعت المهجريين إلى التأمل . طبيعتهم الشرقية التى تحمل كل ماللشرق من خصائص وسمات وصفات وراثية وسيكولوجية نمت وترعرعت مع البذرات الأولى للمكونات المختلفة لهؤلاء الأدباء .

والشرقيون يميلون إلى التأمل أكثر من الغربيين . وذلك لروحهم التى سرت فيها شرايين البداوة والشعور الفطرى الفسيح الذى يتجول فيما حوله ويسافر فى الآفاق يقرأ لوحة الوجود .

(١) نعيمة : المراحل ص ٦٧ – ٦٨ .

(٢) د / عبد الكريم الأشتر : النثر المهجرى ص ٦٤ .

لاتشغله الآلة ولاضجيجها .

ولهذا السبب احتفظ المهجريون بهذه الخاصية وظلوا شرقيين فطريا يقول : روستريفور هاملتون : " ومن الواضح وبلا شك أن الموقف الجمالى يظهر عند الشعوب البدائية " (١) .

ومما يقودنا فى أستسلام إلى منابع هذه الفطرة الشرقية بكاء القروى عند ترتيله للقرآن الكريم وقوله : " ويل لكم أيها المسلمون . أتذل أمة بين يديها هذا الكنز الثمين ، ويستعمر شعب يملك هذه القوة والعظمة "

" وجورج صيدح " يضفى هذه السمة على الأدب المهجرى وهو ماتمخضت عنه عبقرية هؤلاء الغرباء الشرقيين فيقول : " إن الأدب المهجرى طبعت شمس الغرب ألوانها على أوراقه . أما لبه فيحيا على إشعاع الشرق وقلبه يختلج بنسمات الصحراء " ويؤكد أن الموهبة الفطرية هى مفتاح السر فى تفوق أدب المهجر مع الجد والاجتهاد والتأمل العميق .

ويفسر روستريفور هاملتون هذه الظاهرة عند الشرقيين بوصفين يمتاز بهما الشرقيون . ولهما الأثر الفعال في ظاهرة التأمل وهما :

أولاً : خلو موقفهم نسبيا من الاهتمام بالفعل .

ثانياً : الركون إلى القضاء والقدر .

ويجعل هاملتون الصفتين السابقتين أساسيتين فى الموقف السلبى من الحياة وقد سبق أن رددت عليه وقلت : إن المهجريين لم يكونوا سلبيين كلية . فهم مع تأملهم نراهم يخوضون غمار الحياة ويشتغلون بكل صنوف الأعمال من بيع وشراء وزراعة وغيرها ... والإيمان بالقضاء والقدر لايعنى إطلاقا السلبية فى الحياة وإنما التسليم في نهاية المطاف . بعد خوض التجربة وطول المعاناة ، والوصول إلى الأهداف ... وربما لايصل الإنسان ... وهنا يبرز الموقف الإيمانى بالقضاء والقدر ليحدث التوازن النفسى والاطمئنان الروحي فى حياة الإنسان وهما الثمرة المرجوة من رحلة التأمل .

وجبران فى حديقة النبى يتأمل علاقة الإنسان بالطبيعة حيث رمز لهذه العلاقة بالحديقة وكان فى هذا الرمز " مستعيراً أسلوب القدامى ، مستلهما روح الشرق ، مستنداً إلى عوامل

(١) هاملتون : الشعر والتأمل ص ١١٧ .

التطور التاريخى ، فى التعبير والتصور ، والتصوير جميعاً " (١) .

ويفسر أحد المفكرين الغربيين تفوق جبران فى تأملاته فى كتاب النبى فيقول :

" ولعله يرى بعينيه الشرقيتين مالا تتاح لنا رؤيته نحن أبناء الغرب ، ولاغرو فان معلمى الإنسانية يجيئون دائما من الشرق ! " (٢)

وقال آخر : " إن جبران قد اقترب من الغـــرب وعلى شفتيه ابتســـامة الشـــرق الجميلة يحمل عطية ثمينة فى صدره لكى يقدمها إلى الغرب . فقد جاء كالمسيح يطفح قلبه محبة "(٣) .

وفى عرض شائق يوضح د / ثروت عكاشة المراحل الفكرية التى مرت بها ثقافة الإنسان واتصل خلالها وجدانه ووسائل تعبيره بالطبيعة ، أو بالحديقة على وجه الخصوص ويقول : " كانت حديقة النبى التى أخرجها لنا جبران أثرا فنيا رقراقا يروى تلك الجذور العميقة التى تربط الإنسان بالطبيعة .

إن جبران صاحب الدم الشرقى ، والطبيعة الشرقية ، لم تكن به حاجة إلى أن يسعى إلى الشرق ، ليستعير منه الانفعال بالطبيعة لأن الشرق بروحه الفياض ، وطبيعته الخلابة ، كان حيا نابضا فى قلبه (٤) .

– والقروى يطرح عنه ثيابه قطعة قطعة وهو يطفر بين التلال هازجا ينفر السائمة ويقول :
" وإذا طغى الجمال كما فى لبنان فجمع بين سمو الجبال ونضرة السفوح وترقرق الجداول ، وزرقة البحر والسماء . ردنى إلى خشوع يلصق جبينى بالتراب ، ويسكب من عينى وشفتى تسبيحة رطبة حارة " (٥) .

وهو فى ذلك يلتقى مع " جستاف بالر " الذى اشتهر بأسم منشد الطبيعة " وكان يخر راكعا عند رؤية الحقول اليانعة ، وكانت الدموع تملأ عينيه حينما يرى شجرة تفاح تزدهر أو وردة تتفتح " (٦) .

---

(١) جبران : حديقة النبى : المقدمة ص ١٠
(٢) جبران : النبى ترجمة انطونيوس بشير ص (٩ – ١٠)
(٣) السابق ص ١٠
(٤) جبران : حديقة النبى : المقدمة " ص ٤١
(٥) القروى : مقدمة ديوانه ص ٢٤ .
(٦) جبران : حديقة النبى " المقدمة " ص ٣٦ .

وأخذ الغرب ينظر إلى الشرق ،كما لو كان حديقة مترامية الأطراف .... حديقة غامضة مسحورة يكسوها ليل أزرق صافى الأديم ، يجعل الحياة فيها أكثر حلاوة ، والورود أزكى عبيراً والنجوم أقوى سحراً .. يتخلل ذلك السحر الفتان ، شدو العندليب وخرير مياه القنوات ، وتنهدات الجوارى .

وهكذا استبد سحر الشرق وسره وغموضه ، برجل الغرب المادى . وانعكس هذا كله على نتاج الشعراء وأهل الفنون ، فأخذوا يتغنون بالشرق هربا من مادية الغرب المتجهمة وما فيها من جفاف وفراغ روحى ، أو يقصدون الشرق كى يرتووا من ينبوع العلم والمعرفة .

ومما يتعلق بهذا الباعث هو مايكمن فى طبيعة الشرقيين غالبا من ميل إلى معالجة هموم الذات وإحباطاتها والتأمل فى عوامل شقائها ومحاولة التعزى بمظاهر الطبيعة . وهذا الإحساس ناشىء عن الفطرة النقية المؤمنة بقوة كبرى مسيطرة وتظهر هذه النغمة عند أبى ماضى أكثر من غيره فهو يعالج موقفه فى حياته من خلال منظورتفاؤلى واع بطبيعة العلاقات الإنسانية وفلسفة الواقع والتكيف معه يقول فى قصيدته : دودة وبلبل " (١) :

نظــــرت دودة تـــــدب علــــى الأرض	إلــــى بلبــــل يطيــــــر ويَصْـــــدَحْ
فمضــت تشتكــى إلــى الـــورق الســـا	قـــط فـــى الحقــــل أنهــا لم تُجَنَّحْ
فــــأتت نمــــلة إليهـــــا وقــــالت	اقنعــــى واسكتــــى فمــــا لك أصلَــحْ
مــــاتمنيــــت إذْ تمنيــــت إلا	أن تصيـــــرى طيــــرا يصـــاد ويُذْبَحْ
فـــالـــزمى الأرض فَهْــى أحنى على الدود	وخلـــــى الكــــلام فالصمــــت أرْيَحْ

والأسطورة الأزلية (٢) " من أبدع ماجاءت به قريحته فى هذا الاتجاه .

ودودة وبلبل " تصوير مكثف لفكرة الأسطورة الأزلية وصورة ذات لون آخر ... لفكرة جبران فى قصته " البنفسجة الطموح " .

وكذلك قصيدته : الغدير الطموح " (٣) تحمل الطابع نفسه والفلسفة ذاتها .

---

(١) إيليا أبو ماضى : تبر وتراب ص ١١٣ .
(٢) أنظر الخمائل ص ١٢٦ – ١٣٥ .
(٣) أنظر الجداول ص ٩١ .

رابعاً : الروح الدينية المتأصلة فى نفوسهم :

إن التأمل هو المؤشر الذى يشير إلى أرقى مدارك الإنسان عامة . بحيث لايصبح آلة فوتوغرافية تنقل الأشياء كما هى والدين يدفعنا دائما إلى الغوص فى الأعماق للوصول إلى جوهر الأشياء ...

والقرآن الكريم فى مواضع كثيرة يدعونا إلى التفكير فيما حولنا . وفى مظاهر الكون . وفى أنفسنا وفى تاريخ الأمم السابقة (١) .

وإذ كان التأمل من سمات أدباء المهجر فإن ذلك يرجع إلى روحهم الدينية العميقة المتصوفة الإيجابية . المسلمون منهم والمسيحيون .

ومحراب التأمل هو الكون والنفس وكل ماتحلم به من قيم ومابين حلمها وواقعها من تناقض وصراع . وكل ماينزع من ذات الإنسان فتيل الشر يمكن أن يكون موضوعا للتأمل .

وقضية العلاقة بين الدين والشعر أخذت جدلا كبيراً ... ووقر فى الأذهان أن البون شاسع بين الدين والشعر " والأدب بوجه عام " وذلك استنادا للمقولة المشهورة ، الشعر يكثر فى الشر ولايكثر فى الخير " .

واعتقد عامة الناس أن الدين يحرم الشعر وأن قائل الشعر آثم . ومن هذا المفهوم المخطىء جافي الفقهاء الأدباء المتصوفين الذين اتخذوا من قضية الدين أساسا لموقفهم الأدبى والشعرى ولم يبتذلوا شاعريتهم فى ساحات القصور وتحت أقدام الخلفاء وبين أيـادى الغـوانى ..

واستند القائلون بالفصل بين الدين والشعر إلى الآية الكريمة " والشعراء يتبعهم الغاوون " ولكن حينما نتأمل الآية بعمق نرى أنها استندت إلى دليلين فى الآيتين اللاحقتين لتبرير هذا الحكم :

((ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون))

((وأنهم يقولون مالا يفعلون)) .

---

(١) انظر مبحث : التأمل والشاعر العربى "

ثم تستثنى الآية التالية نوعيات قفزت خارج دائرة التخبط فى كل واد والضرب على كل وتر وعدم الالتزام بموقف معين وابْتعدت عن الزيف والرياء . ولجأت إلى الصدق الفنى والمطابقة بين القول والفعل ، وأحسب أن تقويم القرآن للموقف الصحيح للشعراء من أرقى ماوصلت إليه الأحكام النقدية فى العصر الحديث فالنظرية الإسلامية في النقد والأدب تقوم على الإيمان بما يحمله ذلك اللفظ من إشعاع قوى وإيحاء مركز . الإيمان بالله . وبالذات . وبالمجتمع ، وبالبيئة .. ثم العمل الصالح وليس القول فقط أو الاعتقاد الخالى من الفعل ، والعمل الذى يجمل الواقع ويصلح مابين الإنسان وكل مايتصل به فى حياته .

ولاشك أن هذا أقوم سبيل لتقويم الذات وعلاج أمراض النفس البشرية وكل عقد السلوك والتراكمات النفسية التى تصيب الإنسان .

وذكر الله من أساسيات هذه النظرية لأن الشاعر والأديب صاحب موقف وينتمى إلى عقيدة وأيديولوجية " والأدب الإسلامى يفقد أهم خصائصه إذا لم تكن العقيدة أحد أركانه الأساسية .

وانتصروا من بعد ما ظلموا " والدفاع عن النفس والثأر لها وهو ما يسمى بأدب الحماسة أو المقاومة أو التحريض ، أو الأدب الثورى .. كل المصطلحات السابقة تنطوى تحت قوله تعالى " وانتصروا من بعدما ظلموا .

فالدين . والدين الإسلامى بالذات لم يرفض الشعر أو الأدب وإنما وضع منهجا محددا لصورة الشعر القويم ومايمكن أن أسميه .. بالنظرية الإسلامية الأدبية والنقدية .. وهى تقوم على الدعائم التالية :

(أ) الإيمان (ب) العمل (ج) الالتزام العقائدى (د) المقاومة ورفض العدوان بكل صوره .

وفى النقد الغربى تنكر بعض النقاد للشعر وهاجموه : ومن هؤلاء النقاد " جوسن " وقد ألف كتابا لهذا الغرض أسماه " مدرسة سوء الاستعمال " " هاجم فيه الشعر هجوما عنيفا ووصفه بأنه مدمر للأخلاق وسلم إلى مملكة الشيطان . وهو يقول عن الشاعر : " إنه يقودك إلى العزف ، ومن العزف إلى اللعب ، ومن اللعب إلى المتعة ، ومن المتعة إلى الكسل ، ومن الكسل إلى

النوم ، من النوم إلى الإثم ، ومن الإثم إلى الموت ، ومن الموت إلى الشيطان " (١) .

وكان " جوسون " يعبر عن رأى مذهب جماعة دينية متطرفة من البروتستانت هى جماعة " المطهرين " وهى طائفة كانت تعادى الفنون عامة ، وتنظر إلى كل أنواع المتعة على أنها إثم .

وكان رد الفعل عنيفا على هذا الموقف الدينى المعادى للشعر .. فألف " سيدنى " كتابه " أعتذار عن الشعر " أو " دفاع عن الشعر " حيث ربط بين الشعر والأخلاق ونقض النظرية القائلة بأن الشعر تدمير للأخلاق .

وكذلك كتب " شيللى " كتاب : " دفاع عن الشعر " وربط بين الشعر والنظرية الأخلاقية .

وغالى " ماثيو أرنولد " فى تقديره للشعر ورسالته الأخلاقيه حتى أحله محل الدين نفسه . وذلك يرجع إلى أنه عاش فى عصر طغى فيه العلم التجريبى على كل شىء وهدد بتدمير العناصر الإنسانية والروحية لدى الجنس البشرى ، وقد كان طغيان العلم والصناعة مفزعا لكثير من المفكرين والأدباء المبدعين .

وقد رأى " ماثيو ارنولد " أن الخلاص الوحيد للانسانية من " ميكانيكية " العلم والصناعة إنما يكون بالرجوع إلى الشعر .. (٢) .

ود / رتشاردز " يؤمن بأن الشعر ينبغى أن يحل محل الدين وأن يسد حاجات الإنسان الروحية ومتطلبات العصر الجديد .

ولاشك أن هذه مبالغة بعيدة عن منطق القبول ودائرة الصواب . إلا أن ماثيو أرنولد لاتنبع دعوته من منطق التحرر أو الإلحاد وإنما يعد الشعر قبسا إلهيا داخلا فى صميم الدين فدعوته إلى الشعر هى فى جوهرها دعوة إلى الدين بمنطقه الصحيح البعيد عن الطقوس المزيفة التى شوهت الدين المسيحى .

ويرد روبستريفور هاملتون على د/ رتشاردز متحدثا عن مطلبه القائل بإحلال الشعر محل الدين نفسه يقول : " إن هذا مطلب فيه قسط وافر من التغطرس " .

وعندما علل : هاملتون اعتراضه هذا وحكمه على : رتشاردز " بالتغطرس وقع فى خطأ

(١) د / محمود الربيعى : فى نقد الشعر ص ٤٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٤ .

كبير .. وأتى بنتيجة فاسدة .. حينما قال : (ماكنا لنحتج علي وصفه للدين بأنه خرافة مثل الشعر لو كان قصده مقصورا على القول بأن الدين مثل الشعر يمكن أعتباره تعبيراً عن طبيعة الإنسان وحاجاته ، وبهذا المعنى يمكن أعتباره خرافة " .

والحقيقة الناصعة دائماً تقول لنا : إن الدين ليس خرافة ولكنه حقيقة سماوية عليا إذا انكرناه فإنما ننكر حقيقة الخلق وجوهر الخالق . ونغفل عن الموجه لهذا العالم الذى تغنينا أداته الناطقة بوجود المبدع لهذا الكون عن الإتيان بالبراهين النظرية التي لاتقنع من سيطرت على أفكارهم غشاوةُ الباطل واقتحمت نفوسهم تياراتُ الجحود .

ويقارن : " هاملتون " بين التأمل الشعرى والتأمل الدينى مفضلا التأمل الشعرى بحجة أنه غاية فى ذاته فيقول : وليس التأمل الدينى غاية كاملة فى ذاته كما هى الحال فى التأمل الشعرى . بل هو رؤية إنسان مهما كان غرضها تفرض قداسته على المتعبد إحساسا بما فى هذا المتعبد من نقص وخطيئة ، إنسان هو أسمى مثل للمحبة فى ميدان الفعل . إنسان يوفر لناالعناية ويشد من أزرنا ولكنه لايقدم لنا تحريرا أكيدا من الصراع .

وهكذا فالتأمل هنا يؤدى إلى الفعل من عدة طرق .

وعلى الرغم من أنه تصحبه الغبطة والهدوء . فإنه يؤدى بنا إلى هذه الصيحة التى لايغمرها الصمت أبدا وهى :

« ياإلهى ماذا على أن أصنع لكى أنقذ روحى » ؟؟

ولكن التجربة التأملية النهائية للشعر لاتقدم مثل هذا الدافع بل إنها فى عصر يائس ، ترفع أمامنا مرآة نرى فيها خيبة آمالنا وتفاهتنا ، وحيرتنا ، وقلقنا بحيث إننا قد ينتهى بنا الأمر إلى قبول الأوضاع الماثلة ، وبمقدورها أيضا أن تجعل السأم ذاته من الأشياء الجديرة بالرؤية ، بحيث إننا نصبح فى نظرنا نحن حالات مرضية طريفة ، وأن مجرد التعرف على مرضنا يوفر لنا راحة البال وقد يدفعنا بعيداً عن الطبيب (١) والمقارنة السابقة لها ملتون بين التأمل الدينى والتأمل الشعرى ترجع إلى عقيدته المسيحية وتعاليمها وميراثها العقائدى الذى ترسب فى أعماق أدباء الغرب .

فمنهم من ثار على هذه الرواسب وهاجمها ، ومنهم من اتخذها مادة لفنه وأدبه بصورة

(١) هاملتون : الشعر والتأمل ص ٢٢٣ .

عصرية .

وقد دفع المهجريين إلى التأمل العميق تأثرهم بالروحانية المسيحية والواقعية الإسلامية بما تحمل من تفهم حقيقى لحاجات الإنسان وحلول مريحة لمشاكله وهمومه .

فنعيمه يرى أن الانجيل نموذج أدبى رائع ، والمسيح هو الأديب المثالى فى نظره ، وشهد الذين زاروا المهجر باحترام هؤلاء الأدباء للثقافة الإسلامية ، واعتزازهم بها لأنها ثقافة ذات قيم إنسانية عامة .

والقروى يعترف بهذا قائلا : " لم تكن لدى فكرة سوية عن الرسول العربى ولاقرأت كتابه وحديثه حتى آتانى الله فضله على يد هذه الآنسة : " نظيرة زين الدين " تكرمت على سنة ١٩٢٧ بكتابها : السفور والحجاب . فأماطت عن بصيرتى حجابا من الجهل كثيفا وحلقت بى إلى سماء من تراثنا الروحى لم تكن خطرت لى على بال . وأى أديب يهيم بالحكمة وساحر البيان لايخر ساجداً للحديث الشريف ومعجز القرآن " (١) .

– والروح الدينية التى تمتع بها هؤلاء المهاجرون مع بعدهم عن التعصب ترجع بهم إلى النشأة الأولى ، وطريقة التعليم .. فقد كان أقرب مثال لطريقة التعليم فى القرى اللبنانية فى أواخر القرن التاسع عشر هو نظام الكتاتيب الذى كان شائعا فى الآونة نفسها وفيما بعدها فى القرية المصرية . فقد كان بعض صبيان القرية يجتمعون على " الخورى " فى ساحة الكنيسة ، وتحت سنديانة قديمة يلقنهم مبادىء القراءة والكتابة . ثم يقرئهم بعض آيات الإنجيل ويقص عليهم الحكايات والأساطير الدينية التى توراثها المسيحيون فى كتابهم المقدس بعهديه القديم والجديد ..

وقد كان للعقيدة الدينية فى الشام منذ أكثر من نصف قرن شأنها الكبيرفى توجيه مقدرات الفرد ، وصياغة شخصيته ، واختيار ألوان ثقافته .

فليس غريباً إذن أن ينشأ هؤلاء الأدباء نشأة مسيحية يكون الكتاب المقدس معها هو الحقيقة الأولى فى حياتهم .

فإذا قابلتهم تجربة المهاجرة ، وأحسوا بالحاجة إلى أن ينظروا في الحياة فعلوا ذلك على ضوء ماتعلموه من حقائق هذا الكتاب .

(١) القروى : مقدمة الجزء الأول من ديوانه ص ٣٧ .

وقد كان غاية ماأستطاعوه أن يجعلوا من بعض الحقائق رموزا ، وأن يصلوا بين الإنجيل وبين الثقافات الدينية الشرقية التى يمكن أن تعد منابع أو أصولا لحقائق الإنجيل الكبير " (١) .

وحينما نتأمل آثارهم الأدبية الشعرية وغيرها نجد هذا الأثر واضحا فقد استرجعوا فى مهاجرهم كثيراً من ذكريات الطفولة وهم يهرعون إلى الكنائس فى الأعياد ، وفى أيام الآحاد ، وفى مناسبات التعميد والزواج وغيرها من المناسبات التى تتصل بالكنيسة من قريب أو من بعيد وقصيدة " الأجراس " لميخائيل نعيمة تجسيد لهذه النتيجة . فالأجراس هى المظهر الإعلامى للشعائر المسيحية واتخذ نعيمة فى هذه القصيدة لازمة له فى نهاية كل رباعية : دن • دن ! دن • دن ! .

ونلاحظ أنه فى الرباعيات الأولى الأخيرة ، لم يلتزم بهذا الصدى وجعله فى قلب القصيدة إيحاء بأن هذه النغمات تنبع من أعماق العقيدة المسيحية .

والقصيدة تتسم بالوحدة الموضوعية . والعنصر الدرامى يكون النسيج العام لها والشاعر يحلق فى آفاق البهجة متأثرا بالطقوس المسيحية فى احتفالات أعياد الميلاد ولكنه فى نهاية القصيدة يأتيه شبح الشك وهو خيال من نار فإذا بالنغمات تخفت قليلا .. وإذا الزهر ينكس تيجانه والريح تخنق ألحان العود فتخنق الأجراس ويسكت صوتها البهيج وتضطرب سكينته ويحتجب عنه الغاب والرفاق ويعود إليه الشك وأوتار قلبه تتقطع .. وإذا بالألحان الشجية ترتد إلى نغم لايطرب له أحد . وقد يكون هذا الشعور ثورة مكبوتة من نعيمة على مسلمات المسيحية وطقوسها التى بعدت عن جوهرها الصافى ، وأن بهجته كانت حلما استرجع به عهد صباه فى صنين فتعزى به ونسى قليلا واقعه المرير وذلك التفسير الأقرب إلى الواقع لأنه بدأ القصيدة وختمها بالبداية نفسها .

وتدل القصيدة على أن شبح العقيدة المسيحية المتمثل فى الأجراس كان يطارده حتى فى وقت هروبه منه إلى الغاب : يقول :

---

(١) د / عبد الكريم الأشتر - النثر المهجرى ص ٢٩ .

هــــوذا قـــــد أقبـــــل أتـــرابى
أهــــلا ، أهــــــلا بأصيحـــــابى !
النـــــــاس تسيـــــــر إلـــى القــداس
ونحــــــــن نكـــــر إلـــــى الغـــاب
دن . دن ! دن . دن !
أغصــــــــان الغـــــــاب تلاعبنـــــــا
وهـــــوان الغـــــــاب يداعبنــــــــا
وصخــــــور الــــــــوادى تدعــــونا
وصــــــــدى الأجــــــراس يعاتبنـــــا
دن . دن ! دن . دن ! (١)

ونجد فى رباعيات إلياس فرحات وتأملاته الكثير من التأثر بالتعاليم المسيحية وحكايات التوراة والإنجيل مما يوحى بتغلغل هذه التعاليم فى نفسه وتأصلها .

– ومنهم من تأثر بالثقافة الإسلامية وظهر هذا التأثر فى شعره مثل القروى ، ورياض المعلوف ومحبوب الشرتونى .. وأحمد زكى أبو شادى وإن كنت لا أميل إلى حسبانه من الأدباء الذين كان لتجربة الهجرة أثر كبير فى تكوين عقليتهم . وقد أصدر ديوانه " من السماء " وذلك يفسر اتجاهه الروحى لأنه أراد الهروب إلى عالم هادىء نقى وأمين .

يقول :

مـــــاعشقـــت السمـــــاء إلا هــــروبـــا ... مـــــن حيـــــاة تضـــــج بـــاالآلام
أنـــــت مـن أنت رحمــــــة بالبـــــرايـــا ... وهَمَّــــو مَـــــنْ همــــو بهــذا الخصـام
الدمـــــاء التــــى أباحـــوا دمــــائى ... والســــلام الـــــذى أراقـــوا سلامى

وتوجه فى ختام ديوانه " إلى نبى المحبة والسلام " عيسى " حيث أتخذ من أسمه الطاهر عنوان قصيدة أختتم به ديوانه أو كاد ثم عرج إلى السماء مرة أخرى فى آخر قصيدة

---

(١) ميخائيل نعيمة : همس الجفون : صدى الأجراس ص ٤٠ – ٤٥ .

بالديوان جعل عنوانها " الصعود " (١) .

– ورياض المعلوف يعترف بتأثره بالثقافة الإسلامية ، وشارك فى المناسبات الدينية الإسلامية يقول من رسالة إلىَّ « وكان من دواعى غبطتى وفخرى أنه وضع الحجر الأساسى لجامع البرازيل بسان باولو سنة ١٩٤٥ م وأنا فيها حيث دعيت إلى الحفلة وألقيت قصيدتى – وَحّد الله ... وعدتُ وألقيتها فى جامع بلدة جب جنين البقاع سنة ١٩٦٨ م وكان من الخطباء معنا سماحة الشيخ أبو عبية فطرب للقصيدة وقام وحيانى بكلمات ثناء وإطراء وتمداح بالقصيدة .

وهذه رسالة شكر من لجنة مسجد البرازيل فى ٣ آذار سنة ١٩٤٥ م سان باولو بالبرازيل . « إن الجمعية الخيرية الإسلامية لتسجل لكم الثناء العاطر على أدبكم الجم ، والرجاء موافاتنا بنسخة من قصيدتكم البليغة التى ألقيتموها فى هذا الاحتفال الجليل بذكرى سيد العرب محمد ابن عبد الله » ..

إذن هذا التزاوج الفكرى مابين الشرق والغرب وتشابك الحضارات هذه كان لها التأثير الفعلى على إنتاجى وربما كان فيها الحافز الدائم والأنطلاقة المباركة للتأليف والأستيحاء والإلهام " (٢) .

يقول رياض فى قصيدته وَحّد الله " موضحاً الإخاء الروحى بين محمد والمسيح :

يارســول الأنــام أنــتَ وعــيسى	خيــر من يُصْطَفى ويُرْجَــى ويُقْصَــدْ
شــرقنا بأســمٌ بعيــدك زَهــوا	شــرقنــا كلــه بعيــدك عيَّــدْ
أينمــا ســرت ركــع لصــلاة	ودعــاء كأنمــا الشــرق معبــد
يــالتلك المــآذن الشــم تعلــو	ناطحــات السحــاب فيهــا تُمَجَّدْ
بوركــت مــكة وبــورك يــوم	أنــت فيــه ولــدت للــدين فرقَدْ

(١) أنظر : الأديب ابريل ١٩٧٨ – مقالة : مع أبى شادى فى ديوانه من السماء (ص ١١ – ١٣) .
(٢) من رسالة أرسلها إلى الشاعر فى ٢٠ من يناير سنة ١٩٧٨ م .

وكفـــى العـــــرب فخـــــرهم بنبـــــى عبقــــرى هـــــو النبـــــى محمــــدْ (١)

وفى قصيدة أخرى يقول وما أصدق شعوره حينما يخاطب المصطفى عليه السلام :

علـم الــدين فــى يــديـك تعــالى فــى الـــذرى وهـــو قبلــة الأعـــلام
كـــل قـــرآنك الشـــريف عظـــات طـــاب تجـويــدهـــا مـــع الأنغـــامِ
قـــدت شعبـــا إلـــى تقـــى وصـــلاح هـــذه ميـــزة الرجـــال العظـــامَ
فاتخـــذت الكـــلام عـنـــك بليغـــا إن شعــــرى من وحيـــك المتســـامى
وإذا مأأجـــدت فـــيك قصيـــدى عـــاد فضلـــى إليـــك فى إلهامى (٢)

ومحبوب الشرتونى يقول :

ومحمـــد بطـــل البـــرية كلهـــا هـــو للأعـــارب أجمعـــين إمـــام (٣)

ونسيب عريضه حينما يضل فى بيداء الحياة ، ويضنيه الطريق الطويل يفر إلى الصلاة ليجد راحته ، وبداية طريقه ، ويناجى ربه فى خشوع :

أيـــا مـــن سنـــاه اختفـــى وراء حـــدود البشـــر
نسيتـــك يـــوم الصفـــا فـــلا تنسنـــى فـــى الكدر

* *

مـــراعيـــك خضـــر المنـــى هـــى المشتهـــى سيـــدى
وجسمـــى دهـــاه العنـــا حنـــانيك خـــذ بيـــدى (٤)

وهذا الاتجاه الصافى إلى الله فى أشد ساعات الحرج والحلك هو الذى يفيض على أغلب الشعر العربى فى المهجر روحا من الصفاء والشفافية التى تصعد بالقارىء من أطباق

---

(١) رياض معلوف : غمائم الخريف ص ١٠٨ - ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٠ - ١١١ .
(٣) محبوب الشرتونى ديوانه ص ٨٨ .
(٤) ديوان الأرواح الحائرة نقلا عن الشعر العربى فى المهجر ص ٤٧ .

الثرى إلى رحاب السماوات " (١)

وهو من أكبر الدوافع التى جعلتهم يتأملون كل ماتقع عليه حواسهم وما تخفق به مشاعرهم ولايكتفون بالنظرة السطحية .

– إنهم صيادون مهرة . لاينسيهم بريق الأصداف سحر اللآلىء ، ولا يغريهم الأمن على الشاطىء فيخافون ارتياد مجاهل الأعماق للعثور على كنوز الحقيقة .

خامساً : – الرؤية المأساوية للحياة :

إن كثيرا من العوامل النفسية التى تدفع الإنسان إلى النتاج الفنى بوجه عام والأدبى بوجه خاص مرده إلى رغبة الإنسان فى التعبير عن الظروف المحيطة به وتصوير آلام النفس وتحليلها .

ولاشك أن المنظور الذى شهد من خلاله هؤلاء الأدباء حياتهم منظور مأساوى يحتاج إلى استبطان ذاتى للكشف عن جوهر ماعانوه من صراع وآلام . والحزن كان قدرهم الذى فرضته الظروف عليهم وسأكتفى بنموذجين هما : [جبران ، وفوزى المعلوف] .

والحزن قاسم مشترك بينهما لون نظرتهما للحياة وألهمهما الرائع الجليل من الفن وإن كانت دواعيه تختلف بينهما .

فهى عند جبران قصة من المعاناة المريرة التى تنسج فصولها من الفقر والتشرد وموت الأهل ، والمرض الذى كاد يفتك بهم جميعا .

فأخته سلطانة ماتت وهو فى طريقه إليها في باريس .

ولم تمض العشرة شهور حتى يختطف الموت أخاه بطرس .

وبينما يلملم جبران شتات نفسه ، ويحاول وقف نزيف الألم . إذا بالجرح يتفتح من جميع الجوانب ، وتزداد نفسه تمزقا وتبعثرا ويختطف الموت أمه الحنون الرءوم .

والظاهر أنّ الداء الذى كان يشكو منه جبران وهو السل كان متفشيا فى الأسرة كلها . ولعل هذا الداء نفسه هو الذى ساعد على تكوين مزاجه الأسود فإن له أثرا فى النفس معروفا .

(١) محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى في المهجر ص ٤٧ .

هو مزيج من الحزن والرقة معا . ولاعجب بعد هذا أن يكون للموت ومايثيره من ألم فى النفوس وجروح في القلوب . وخاصة موت الأهل والأعزاء أثر وأى أثر فى معظم ماسطر جبران من شعر ونثر وإن لم يكن فيه كله .

وكذلك فى كل ماخطته ريشته من رسوم وأشكال حتى إنه ليقول فى إحدى رسوماته وقد دعاها فوارة الألم : وما الحياة كلها إلا فوارة من الألم " .

وذلك حين لاحظت صديقته إكثاره من رموز الموت والألم المجردين فأجاب لأن الموت والألم كانا نصيبى الأكبر من الحياة حتى اليوم .

فبين الرابع من نيسان عام ١٩٠٢ والثامن والعشرين من حزيران عام ١٩٠٣ فقدت أختى الصغرى ثم أخى الأكبر ثم أمى . وكلهم أعز ما فى الكون يا " مس " هاسكل " (١)

وكل هذا قد أدى بجبران إلى إطالة التأمل وكثرة التفكير وصبغ حياته بصبغة روحية لم يتخلص منها بعد ذلك وعناوين كتبه ومقالاته وقصصه تنضح بالألم وتشير إلى ماينطوى عليه داخله من جرح عميق . فالعواطف والأرواح المتمردة ، وصراخ القبور ، والأجنحة المتكسرة ، والمجنون ، وحفار القبور ، وأيها الليل ... كلها عناوين تخفى فى طياتها أشلاء نفس مفعمة بالمأساة واستطاعت أن تنتصر على دواعى القنوط فترجمت حياتها إلى أعمال فنيتن خالدة هى صورة لتلك النفس لم تقترب منها الألوان المزيفة التى تشوه وجهها الحقيقى .

وأما دواعى الحزن عند فوزى المعلوف فهى تمثل شرنقة كثيفة الأوتار . تنطوى على دفين غال هو " الحب الهارب منه دائماً " .

فمأساة حياته فشله فى هذا الميدان مما جعل الدنيا تضيق فى عينيه فكأنه ينظر لها من ثقب إبره .

وعندما يأتى الموت يقول له قف . لأن الحب آت .

وتمثل هذه النظرة نافذة خفية ندلف منها إلى عالم فوزى الداخلى المحطم .. لكنه يقبل البناء مرة أخرى ، فالأمل فى نفسه ، وإن كان إحساسه بالعبودية يسد عليه كل طريق .

وأحب أن ألفت النظر إلى أن الظـروف الخارجيـة هى التى تحكمت فى تكوين مـزاج

---

(١) ميخائيل نعيمة : جبران ص ٧٤ .

جبران ولونت داخله بظلال قاتمة .

والأمر على العكس تماما عند فوزى المعلوف فهو كما أخبرنى شقيقه الشاعر رياض المعلوف من أسرة عريقة . لها من الثراء حظ وافر ، ومن النبوغ العلمى قسط كبير يقول رياض المعلوف :

« ولاشك أن شاعريتنا نحن الأخوة الثلاثة مع العديد من شعراء آل المعلوف عن طريق جدودنا أمراء آل غسان الذين كانوا يهتمون بالشعر حتى إن حسان بن ثابت كان يلقى قصائده فى مديح جدودنا الغساسنة فيجزونه إكراما لشعره بأكياس الذهب .

وأشرتُ إلى ذلك فى إحدى قصائدى : " نبى العرب "

فقريضـــى ورثتـــهُ عـــن جـــدودى آل غســـان خيـــرة الأعـــلام
فجـــدودى العظـــام أشـــرف قوم أفعمـــونى مجْـــداً علـــى الأيـام

ويجوز أن يكون للتصوف المسيحى والإسلامى أثره فى مؤلفاتنا نحن الثلاثة " فوزى وشفيق ورياض " لأننا ربينا بين المطبوعات والمخطوطات فى مكتبة عيسى أسكندر المعلوف وأولاده الخاصة والتى تضم العشرين ألفا من المطبوعات النادرة ، وألفا من المخطوطات النفيسة المموهة بطراز الذهب ، والوثائق القيمة التى هى فى غاية الندرة .

ووالدنا العظيم العلامة المجمعى : مؤسس وعضو مجامع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق وبيروت والبرازيل ، وفى هذا الجو الثقافى الرائع .. وعلاوة عن ذلك أخوالنا الخمسة شعراء ومنهم الشاعر ميشال المعلوف أول رئيس للعصبة الأندلسية ومؤسسها مع مجلتها .

وهكذا ترعرعنا بين هذه النفائس الفكرية والشعرية ، والروحية ، فعشنا هكذا لناعين على الإنجيل ، وعين على القرآن الكريم !!.

فجمعنا مابين الحضارتين العظيمتين !! .. وصوفيتهما وروحانيتهما ، وعزتهما " (١) .

وبرغم هذا المناخ الصحى اعتلت نفس فوزى المعلوف ، والعلة نبعت من داخله وقد سئم

(١) من رسالة أرسلها الشاعر رياض المعلوف إلى فى ١٤ / ١٢ / ١٧٧ م زحلة لبنان

العالم الأراضى وامتطى بساط الريح .. وكانت النهاية أن أشعل فى نفسه : شعلة العذاب .

– وقد وجهتُ سؤالا إلى الأستاذ / رياض المعلوف خاصا بهذه الملحمة . « ماهو السر المختبىء خلف شعلة العذاب الذى أبحر مع بساط الريح خارج الغلاف الأرضى يسبح فى الملكوت مع ريح فوزى الأثيرية » ؟

فأجاب فى تحفظ قائلا :

– وشعلة العذاب عند أخى فوزى المعلوف هى شعلة الحب السماوية المتصلة بالله ! .. والروح المجنحة التى حملته على بساط الريح من الأرض إلى الأثير يسبح فيه . بين الغيوم .. والنجوم " (١) .

يقول فوزى فى شعلة العذاب " (٢) فى النشيد الثانى فى هيكل الذكرى :

طُـــوِيَتْ بســمـــــة لينشـــــر دمْـــــعْ   وخَبَـــتْ بـهجـــة ليلـمـــع جُـــرحُ
هـــــو سفــــر قلبتـــــه فـــإذا بــى   وفـــــؤادى فـــى دفتيــــه يســــحُ
يــافـــــؤادى وأنــــت منــــى كلــــى   ليســـــت حكمــــى يومـــــا عليـك يَصِحُّ
أنـــــت مهـــــد المنـــــى وهـذى بقــايا   هـــــــا أكبُــــت عليــك تغفو وتصحو

وكان آخر مانظمه الشاعر باعتراف شقيقه رياض المعلوف هذين البيتين وهما بداية النشيد السابع :

مرحبـــا بالعـــذاب يلتـهـــم العـــيش   التهـــــاما وينهـــش القلـــب نهشـــــا
مشبعــــــا نهمــــــةً إلـــى الــدَّمِ حَرَّى   ناقعــــــا غلَّــــــة إلـى الدَّمع عَطْشى

ويقول رياض المعلوف

"وتبا للموت الذى حرم الشعر والملحمة من إكمال هذا النشيد الذى فيه شىء من التشاؤم الذى يدل على إحساس عفوى للشاعر بدنو أجله . ففوزى هو رومنسى المنزع ، يعانى الوجود

---

(١) من رسالة أرسلها الشاعر رياض المعلوف إلى فى ٢٧ / ١٠ / ١٩٧٧ م زحلة – لبنان "
(٢) مخطوطة وافانى بها شقيقه الشاعر رياض المعلوف " .

بالتشاؤم والقنوط والسوداء ، إلا أن أنفعاله لايعبر إلى مجاز الخيال ويحل فيه ويتحد به ، ليستحيل إلى حالة نفسية متجسده فى أحوال حسية مستعارة من العالم الخارجى دون أن تتحتم فيها الدلالة الواقعية الملازمة لها .

تلك الرؤيا هى وحدها الشعر لأنها مستمدة من الرمز الذى لايعادل ولايقابل ولايفترض ولايعترض ، لايسقط ولايضيف وإنما هو كشف فعلى للحقيقة واستحضار لها بذاتها (١) .

ونتاج الشاعر إفراز لما فى داخله ولو تأملنا معجم فوزى المعلوف لرأيناه يمثل الرؤية المأساوية للحياة تمثيلا لايحيد عن الصدق ففى شعره تشيع المصطلحات والألفاظ الآتية: العودُ المقطَّعُ الأوتار ، والكأس المليئة بالحنظل ، والرسوم الضائعة على الشاطىء والخريف ، والحتوف ، العذاب ، اللوعة – الفرار – البؤس . الشوك ، الردى – الجرح . الأوجاع ، ولاريب فى أن نفسه المنطوية على ألم كبير انطلقت لتعبر عن ذلك الألم من خلال منظور المأساة التى عاشها ولم يعبر بغيرما فى نفسه من تأملات حائرة إزاء معميات الوجود الغامض .

سادساً : التأثر بفلسفة الشرق وفكر المتصوفين والفلاسفة المسلمين :

– يختلف الباحثون حول قضية تأثر المهجريين بالمتصوفين والفلاسفة الإسلاميين . فمنهم من ينكر تأثرهم وحجته أنهم لم يطلعوا على المصادر الأولى لهذه الثقافة وذلك لعقيدتهم المسيحية التى حالت بينهم وبين التعمق فى هذا الفكر واتجهوا إلى كتب الديانات الهندية القديمة وتأثروا بها فى اتجاهاتهم الفكرية (٢) .

وأغلب الباحثين يثبت تأثرهم بفلسفة الشرق وفكر المتصوفين المسلمين . والنصوص هى الدليل القوى والفيصل فى هذه القضية ، وكذلك الاعترافات الشخصية لها دورلا ينكر فى حسم أمثال هذه الأمور .

وكما يقول الدكتور مندور هؤلاء الأدباء " يصدرون عن قلب فيه لهفة إلى الله . ولو أننى قلت إنهم متصوفون لما عدوت الحق . فالتصوف ليس إلا وقدة فى الإحساس ، كل شعور قوى مرتبط بالله تصوف مهما كان موضوع ذلك الشعور .

ولهذا نرى الناس يقتتلون فى غير مقتل حول تصوف شاعر كالخيام : أمادى هو أم

(١) ايليا الحاوى : فوزي المعلوف شاعر البعد والوجد ص ٩٩ .
(٢) أنظر : النثر المهجرى د / عبد الكريم الأشتر.

روحى ؟ وهل خمره خمر الدنان أم خمر الروح ؟ والأمر بعد سواء - الخيام روح حائرة . وكذلك الأمر عند شعراء المهجر " (١) .

- وحاولت أن أتتبع تأثرهم بالفكر الفلسفى والخيال الصوفى فوجدت أنهم تأثروا بأبى العلاء وابن سينا والغزالى . وتأثروا بالخيام وابن الفارض والحلاج وابن عربى .. وكان لذلك التأثر باعث قوى على اتجاههم التأملى لأن التأثر نافذة تتيح للفكر استشراف آفاق جديدة ومعايشة تجارب جديدة .

-١-

التأثر بأبى العلاء المعرّى

أما أبو العلاء فقد تأثر به : إيليا أبو ماضى وفوزي المعلوف وأمين الريحانى

- إيليا أبو ماضى :

ومن الغريب أننا لانلحظ عند أبى ماضى تأثرا بأبى العلاء فى شعره المبكر . حين كان ينهج طريقة التقليد ويسير فيها متعمدا . ويظهر هذا واضحا فى ديوانه " تذكار الماضى " أما حين نبذ طرق القدماء وابتعد عن دروبهم نراه يتخذ من أبى العلاء هاديا يهديه فى رثاء أبيه . وذلك حين بدأت فترة نضوجه الشعرى ونحا منحى التفكير والتأمل والفلسفة فى شعره تلك النزعة التى أورثته شكه ولا أدريته اللذين عرف بهما .

وكانت تلمذته الشعرية فى هذا العهد لشعراء العرب الكبار ، بخاصة " المتنبى " وأبى العلاء " (٢) .

" وكان من جملة ماالطلع عليه من شعره هذه القصيدة النونية التى رثى بها المعرى أباه .

وفى قصيدة أبى ماضى " التى يرثى فيها أباه " تقليد واضح لقصيدة المعرى لافى الوزن والقافية فحسب بل فى العناصر والأفكار أيضاً .

فأبو العلاء يبدأ قصيدته بأبيات ثلاثة يصور فيها مدى حزنه وتألمه لذلك المصاب الجلل حتى لقد أضحى بعيدا كل البعد عن مظاهر الابتسام .

(١) د / محمد مندور : فى الميزان الجديد ص ٩٣ .
(٢) صلاح عبد الصبور / تذييل ديوان تذكار الماضى ص ٢٦٣ .

وأبو ماضى يأخذ فكرة تصوير الحزن ومايحدثه فى النفس من تشاؤم ونظرة سوداء فهى لاترى إلا ماهو قبيح ومؤلم يقول :

أبى خاننى فيك الردى فتقوضت ... مقاصير أحلامى كبيت من التبن
وكانت رياضى حاليات ضواحكا ... فاقوت وعفى زهرها الجزع المضنى
وكانت دنانى بالسرور مليئة ... فطاحت يد عمياء بالخمر والدن
فليس سوى طعم المنية فى فمى ... وليس سوى صوت النوادب فى أذنى

وعند كلا الشاعرين كلامٌ عن أبيه الميت وإسباغ صفات الوقار والكرم والفصاحة عليه ، وحديث عن الحياة والموت وفلسفتها وأسرارها .

وتقليد أبى ماضى للمعرى ظاهر فى بعض أبياته إلى جانب ظهوره فى الأفكار الرئيسة لقصيدته ، فهو قد أخذ بيتى المعرى فى الموت :

إذا غيب المرء استسر حديثه ... ولم يخبر الأفكار عنه بمايغنى
تضل العقول الهبرزيات رشدها ... ولم يسلم الرأى القوى من الأفن

فنظم فى معناهما أبياتا ثلاثة فى بساطة أكثر ومن غير تعقيد .

وزنت بسر الموت فلسفة الورى ... فشالت وكانت جعجعات بلا طحن
فأصدق أهل الأرض معرفة به ... كأكثرهم جهلا يرجم بالظن
فذا مثل هذا حائر اللب عنده ... وذاك كهذا ليس منه على أمْن(١)

والقصيدة السابقة من الشعر التقليدى شكلا ومضمونا عند أبى ماضى وأبى العلاء فهى لاتمثل اتجاه كل منهما حيث قال أبو العلاء رثاءه وهو فى طور التقليد ثم قلده أبو ماضى فكانت قصيدته تقليد التقليد :

أما التأثر الحقيقى فيظهر فى حيرة أبى ماضى أمام طلاسم الوجود والنفس والروح ففى هذه الظواهر السابقة يتوهج شرار الاحتكاك وتتولد نيران التأثر .

(١) د / نادرة جميل السراج : شعراء الرابطة القلمية ص ٢٤٠ – ٢٤٢ .

وفوزى المعلوف :

يتأثر بأبى العلاء ويمتزج ذلك التأثر بمنهج حياته التشاؤمى وقد وجهت سؤالا إلى الشاعر رياض المعلوف وهو :

هل للتصوف المسيحى والإسلامى أثره فى نتاجكم الشعرى " آل المعلوف "

فأجاب : فوزي تأثر بالمعرى وعمر بن أبى ربيعة ، ومن الفرنجة بشاتوبريان " الفرنسى "وروايته : أبن حامد أو سقوط غرناطة لفوزى ، تلاقى فيها مع أبن سراج القرطبى ومع شاتوبريان ، وألبير سامان ، ولامرتين " (١)

يقول : فوزي المعلوف معبرا عن فلسفة الألم ومقلدا أبا العلاء :

ألـــم كلهـــا الحيـــاة فلا تضحـــك ثـــغـــرا إلا لتبكـــى عيـــونا

ويقول متأثرا أيضا برفض أبى العلاء لكل قيمة حلوة فى الكون لأنها برق خاطف ناعيا على المبتسمين أبتساماتهم وعلى الباكين بكاءهم ثم يحكى مأساة الحياة من خلال قصة الميلاد والحياة والموت فى النشيد الثانى من شعلة العذاب :

يـــولد الطفـــل للعـــذاب وهـــذى سنـــة الدهـــر مـــا وقى الطفل شَرَّهْ
بيـــن أوجـــاع أمـــه دخـــل المهـــد وبـــين الأوجـــاع يـدخـــل قبـــره
بشـــرت بالجنـــين وهـــو نـــذيـــر لابشيـــر . فالســـوء يمـــلأ عمـــره
أن مـــن جـــاء مهـــده مكـــرها يمضى إلـــى لحـــده غـــدا وهـــو مـــكْرَهْ
مـــلأ الشـــوك روض عيشـــك فانـــزع كـــل أشـــواكه لتبلـــغ زَهْـــرَهْ
تعـــب كلهـــا الحيـــاة وهـــذا كـــل ماقـــال فيلســـوف المعرَّةْ (٢)

---

(١) من رسالة أرسلها إلىّ فى ١٤ / ١٢ / ١٩٧٧ .

(٢) فوزى المعلوف : شعلة العذاب (ص٢) مخطوطة بخط شقيقه رياض .

وأمين الريحانى :

يعترف بتأثره بأبى العلاء فيقول : " جمعنى الله بأبى العلاء بعد أن هدانى بواسطة الفيلسوف الإنجليزى " كارليل " إلى الرسول العربى قرأت اللزوميات معجبا بها ثم قرأتها مترنما ورحت أفاضل بأنى من الأمة التى نبغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور الحكيم(١) .

– ويشيد ميخائيل نعيمة بأبى العلاء بدافع من إعجابه به وبفنه وأدبه فيقول " إن أبا العلاء جمع في كثير من قصائده ومقاطعه بين دقة البيان وجمال التشبيه ورنة الوقع وصحة الفكر " (٢) .

– أما ابن سينا :

فيتأثر به تأثرا مباشرا : نسيب عريضة وأبو ماضى .. وينوه بفضله وعمق فكره جبرانُ ويشيد بقصيدته فى النفس .

وقد تأثر : نسيب عريضه بابن سينا فى فلسفة النفس : وهى فلسفة لها عند ابن سينا أساسيات ومبادىء محددة معروفة إلا أنها عند نسيب غير محددة الأبعاد فهو يخلط بين القلب والروح والنفس والعقل ... وحديثه عن النفس حديث الشعر وليس تحليل الفيلسوف .

ويلتقى نسيب مع ابن سينا فى علاقة النفس بالجسد فهى علاقة جوار عرضى لاعلاقة اتحاد ذاتى ، إنها تتألم فى الجسد ، وتعلم أنها ستفارقه وقد وصلت إليه فى كره ، وإذا فارقته تألمت لفراقه ، الجسد يمنعها من بلوغ ماتريد من الكمال ، فكأنه سجن كثيف ، أو قفص ضيق يصد النفس عن الأوج الفسيح ، وكأن النفس لاتألف مجاورة الجسد إلا بحكم الاعتياد . فإذا فارقت الحمى ودنت من الفضاء الأوسع واتصلت بالجواهر العلوية سجعت ، وغردت لانكشاف الغطاء عنها .

قال ابن سينا :

حتـى إذا قـرب المسيـر مـن الحمى ... ودنـا الرحيـل إلى الفضـاء الأوسَعِ

سجعـت وقـد كشـف الغطاء فأبصرت ... مـا ليس يـدرك بالعيـون الهُجَّعِ

(١) أمين الريحاني : الريحانيات .

(٢) ميخائيل نعيمة : الغربال .

ويقول نسيب عريضه مصورا فكرة العلاقة العرضية بين النفس والجسد ..

يانفس هل لك في الفصال	فالجسم أعياه الوصال
أم شاقك الذكر القديم	ذكر الحمى قبل السديم
فوقفت في سجن الأديم	نحو الحمى تتلفتين

– وأبو ماضي يتأثر بابن سينا في الفكرة الفلسفية التي تقول بهبوط الحقيقة على الإنسان من المحل الأرفع حين فارقت النورالكلى إلى نفس الإنسان أو عقله مجردا . مستقلا عن الجسد ، فإذا بطل الجسد وانحل إلى عناصره ، حافظت النفس على بقائها الفردى لأنها خالدة " (١) وماعلى الإنسان إلاأن يستبطن ذاته كي يدرك أسرارها قبل أن تنفصل عنه يقول أبو ماضي متقمصا روح ابن سينا حتى في الوزن والقافية :

أنا لست بالحسناء أول مولع	هي مطمع الدنيا كما هي مطمعي
فاقصص علي إذا عرفت حديثها	واسكن إذا حدثت عنها وأخشع
ألمحتها في صورة ! أشهدتها	في حالة ؟ أرأيتها في موضع ؟
إني لذو نفس تهيم وإنها	لجميلة فوق الجمال الأبدع
ويزيد في شوقي إليها أنها	كالصوت لم يسفر ولم يتقنع
فتشت جيب الفجر عنها والدجى	ومددت حتى للكواكب أصبعي
فإذا هما متحيران كلاهما	في عاشق متحير متضعضع
وعلمت حين العلم لايجدي الفتى	أن التي ضيعتها كانت معي(٢)

وجبران :

أشاد بقصيدة ابن سينا في النفس واعترف بتأثيرها في معتقده فقال :

" ليس بين مانظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس " .

ويقول : " فكأني به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات

(١) جميل صليبا من أفلاطون إلى ابن سينا ص ١١٩ .
(٢) إيليا أبو ماضي : الجداول ص ٨ – ١٢ .

بواسطة المرئيات " فجاءت قصيدته هذه برهانا نيرا على أن العلم هو حياة العقل يتدرج بصاحبه من الاختبارات العلمية إلى النظريات العقلية ، إلى الشعور الروحى ، إلى الله .

ويلتقط جبران ومضات تتألق فى مانظمه كبار شعراء الغرب مثل شكسبير فى رواياته وتشيلى فى أقواله وغوتى فى تأملاته وبراونن فى مقولاته .. ثم يقول : " ولكن الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة . فوضع فى قصيدة واحدة ماهبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة فى أزمنة مختلفة . وهذا مايجعله نابغة لعصره وللعصور التى جاءت بعده ، ويجعل قصيدته فى النفس أبعد وأشرف مانظم فى أشرف وأبعد موضوع " (١) .

-٣-

– أما الغزالى :

فيشيد به جبران ويقوم منهجه فى الحياة تقويما ممزوجا بالدهشة والإعجاب يقول : " اعتزل الغزالى الدنيا وماكان له فيها من الرخاء والمقام الرفيع وانفرد وحده متصوفا ، متوغلا فى البحث عن تلك الخيوط الدقيقة التى تصل أواخر العلم بأوائل الدين ، متعمقا فى التفتيش عن ذلك الإناء الخفى الذى تمتزج فيه مدارك الناس واختباراتهم بعواطف الناس وأحلامهم .

وعَنْ فكر الغزالى وفلسفته يقول جبران مؤكداً لنا ماعليه من ثقافة واطلاع فلسفى وأدبى " ووجدت فى الغزالى مايجعله حلقة ذهبية موصلة بين الذين تقدموه من متصوفى الهند والذين جاءوا بعده من الإلهيين . ففى مابلغت إليه أفكار البوذيين قديما شيء من ميول الغزالى ، وفى ماكتبه سبنوزا ووليم بلايك حديثا شيء من عواطفه .

– ويدعو جبران إلى دراسة الغزالى ويتهم الشرقيين بالكسل عن دراسته بينما الغربيون يعرفون عنه أكثر مانعرفه نحن ، فهم يترجمونه ويبحثون فى تعاليمه ، ويدققون النظر فى منازعه الفلسفية ومراميه الصوفية .ثم يقول : " أما نحن الذين نتكلم اللغة العربية فقلما ذكرنا الغزالى أو تحدثنا عنه . لم نزل مشغوفين بالأصداف كأن الأصداف هى كل مايخرج من بحر الحياة إلى شواطىء الأيام والليالى " (٢) وحينما يتحدث جبران عن كسلنا فى دراسته فإنه يعبر عن رأيه فى ماهية هذه الدراسة : ويرى أننا لم ندرس الغزالى من الوجهة الأدبية . ولم نحلل أعماله تحليلا يرقى إلى مستوى تفكيره العميق واتجاهاته الروحية التى تحيل الأفكار الفلسفية إلى مادة أدبية تخاطب الوجدان ، وتغذى العقل الإنسانى .

أما عن الدراسات الأخرى فهى تحلل أعمال الغزالى من الوجهة الفلسفية والدينية وتدرس

---

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ٤٨ – ٤٩ .
(٢) م – ن : ص ٥٠ – ٥١

حياته والعوامل المؤثرة فيها فما أكثرها !! .

وهى لم تكن أصدافا كما يدّعى جبران .. بل هى لب فكر الغزالى وأساس منهجه فى الفكر والحياة .

-٤-

- التأثر بابن الفارض :

لقد لقيت تائيته الكبرى قبولا وإعجابا لدى المهجريين وتأثروا بفلسفته الروحية وتاقوا إلى خمرته الإلهية التى خلقت من قبل أن يخلق الكرم وفى مقدمة الذين تشوقوا إلى مذاقها رشيد أيوب . ونسيب عريضة .

فرشيد ينظم تائية أخرى يعارض بها تائية ابن الفارض التى أعجب بها وبصاحبها ويسمى أيوب تائيته : " جمال الموت " وهو يرثى بها نفسه ويتحدث فيها عن موته ومايرجو أن يحيطه به أهله من مظاهر البساطة والهدوء والطمأنينة ساعة موته ويتحدث كذلك عن انفصال جسده . وانطلاق روحه إلى عالمها الأعلى ، وعن الراحة الأبدية التى يأمن أن يستريحها جسده إلى غير ذلك من الأفكار الفلسفية والتأملات والخواطر النفسية " (١) .

ويشتاق رشيد أيوب إلى موطن ابن الفارض ويتخيل أن موطنه النجوم فيقول :

ليتنى أعلم فى أىّ النجومْ ... حل رب العاشقين الفارضى
لبعثت النفس من خلف الغيومْ ... فتناجيه ببرق وامض
راح لم يبق لنا غير الرسومْ ... فى حواشى كل سر غامض
سائق الأظعان أين احتجبا ... صاحب الآيات سامى الفكر

- ونسيب عريضه

يعارض التائية الكبرى بمقطوعة صغيرة يتحدث فيها عن ليل الشعراء ويبدؤها بمطلع مشابه تمام الشبه لمطلع رشيد أيوب

فيقول :

كؤوس الهوى دارت علينا بليلة ... وقد أترعت من خمر روح المحبة (٢)

وجبران يقول عن ابن الفارض مُدْرِكًا سرَّ شفافيته .

(١) د/ نادرة جميل السراج : شعراء الرابطة القلمية ص ٢٤٣ .
(٢) م - ن : ص ٥٤٣ .

« كان عمر بن الفارض شاعرا ربانيا ، وكانت روحه الظمأنه * تشرب من خمرة الروح فتسكر ثم تهيم سابحة مرفرفة فى عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وميول العشاق وأمانى المتصوفين . ثم يفاجئها الصحو فتعود إلى عالم المرئيات لتدون ما رأته وسمعته بلغة جميلة مؤثرة .

ولم يتناول ابن الفارض موضوعاته من مجريات يومه كما فعل المتنبى ، ولم تشغله معميات الحياة وأسرارها كما شغلت المعرى ، بل كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ماوراء الدنيا ويغلق أذنيه عن صخب الأرض ليسمع أغانى اللانهاية (١) .

– ٥ –

– وابن عربى :

فى نظرته المتحررة والبعيدة عن التعصب للعقيدة يؤثر فى الاتجاه العام العقائدى عند المهجريين فهم نبذوا العصبية بدافع من سمو نظرتهم إلى جوهر العقيدة وليس بدافع من خواء قلوبهم من المشاعر المقدسة التى تكن للدين كل إجلال وإكبار .

يقول رشيد أيوب :

أصلـــى لموســى وأعبــد عيســـى وأتلـــوا الســـلام عـــلى أحمـــد

وجبران ينبذ فكرة التعصب وظلال ابن عربى تهيمن عليه . ويقول :

« وتقول فكرتكم : الموسية ، البرهمية – البوذية – المسيحية ، الإسلام أما فكرتى فتقول ليس هناك سوى دين واحد ، مجرد مطلق تعددت ظواهره وظل مجردا مطلقا ، وتشعبت سبله ولكن مثلما تتفرع الأصابع من الكف الواحدة "

–٦–

– وعمر الخيام :

برباعياته التى لقيت فى الآداب الكبرى حظوة رفعت من شأنه بين بنى قومه أنفسهم .

(*) هكذا فى النص ولايخفى الخطأ اللغوى فيها : والصياغة الصحيحة " روحه الظمأى "

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ٦٧ .

وفيها يبدو الخيام داعية إلى انتهاز الملذات ولكن وراء خواطره المحمومة أسى المفكر ، ولوعة الأسيان ، ورهف الوعى المعوق تجاه أسرار الحياة إلى مايسودها من طابع السخط والضيق بالمنافقين والوصوليين والانتهازيين وأدعياء الدين .

- **يقول الخيام :**

ألا فلتــدرك أنـــك ستفتــــرق عــــن روحـــــك

وستمضـــــى فـــى حجـــاب أســـــرار العــــــدم

فاشـــــرب الخمــــر ، إذ لاتـــــدرى مــــن أين أتيت ؟

وطـــــب نفســـــا ، فـــــلا تـدرى إلى أين تمضى (١)

* * *

مـــن جمـــاعة الذاهبـــين فـــى هـــذا الطريق الطويل

مــــن الـــــذى عـــــاد ليفـــــوه لنــــا بالســـــر ؟

إذن حــــذار أن تبقى مليا على رأس هذين الطريقين .

مــــــن شـــــره وحـــاجـــة ، إذ أنـــــك لـــن تعـود

* * *

أى مفتـــى المدينــــة نحـــن خيــــر منــــك صنعــا

وعلــــى مانحــــن عليــــه من عربـدة نحن أيقظ مـنك

نحـــــن نشــــرب دم ابنــــة العــنب ، وأنت دم الناس

فهلـــــم منصفـــا : أينــــا شــــارب الدماء ؟ (٢)

ولايخفى مافى هذه الرباعيات وغيرها من التقاء بأفكار بعض المهجريين ففى الرباعية

(١) د/ محمد غنيمى هلال ، مختارات من الشعر الفارسى ص ١٤٢ .

(٢) د/ محمد غنيمى هلال ، مختارات من الشعر الفارسى ص ١٤٥ .

الأولى تتمثل حيرة أبى ماضى بل تكاد تكون رباعية أبى ماضى ترجمة لكلمات الخيام وكذلك فى الرباعية الثانية التى توضح جهل الإنسان إزاء الموت .

والرباعية الثالثة كلها توحى بموقف المهجريين من رجال الدين الذين زيفوا تعاليم المسيح وجبران من أبرز من يتجهون هذا الاتجاه فى قصصه المتعددة " وتقول د/ نادرة السراج :

ولايجوز أن نغفل تأثر بعض شعراء الرابطة وشعراء المهجر وأدبائه عامة برباعيات عمر الخيام .

فلعريضة مثلا رباعيات متفرقة فى ديوانه .

ولأيوب فى أغانيه كذلك " (١)

(١) د/ نادرة جميل السراج : شعراء الرابطة القلمية ص ٢٤٣ .

الباب الثانى

مكانة التأمل بين الاتجاهات
الأدبيـــــة الأخـــرى
وطرق التعبير عنه

الفصل الأول: سيطرة النزعة التأملية على اتجاهات الأدب المهجرى المختلفة.

الفصل الثانى : طرق التعبير عن التأمل :

أ - فى الشعر .

ب - فى النثر .

الفصل الثالث :

الخصائص والمؤثرات .



الفصل الأول

(أ) سيطرة النزعة التأملية على اتجاهات الأدب المهجرى

تتعدد الاتجاهات فى الأدب المهجرى ، شأن كل أدب جاد ، كالحقل الخصب الذى ينتج الثمار المتنوعة والمتعددة وكل منها نافع ومفيد .

واهم الاتجاهات التى سيطرت على مشاعر المهجريين هى :

أ - الاتجاه القومى .

ب - الاتجاه الاجتماعى .

جـ - النزعة التأملية : وسأحاول فى إيجاز أن أوضح ملامح الاتجاه القومى والاجتماعى من خلال دراستهما عند بعض الأدباء الذين شاع فى نتاجهم هذان الاتجاهان ، وذلك لإبراز قيمة الاتجاه الثالث ومدى تغلغله فى معظم الأدب المهجرى فهو منه كالقلب من الجسم منه تبدأ الحياة وإليه تعود .

أ - الاتجاه القومى :

ليس غريبا أن يتجه بعض المهجريين هذا الاتجاه لأن الغصن وإن امتد خارج دائرة شجرته إلا أنه يظل فى حنين دائم إلى جذوره التى تهبه عناصر الحياة .

وظل الوطن نشيد غربتهم وملاذ أشواقهم ، فلا تجد منهم من لم تظهر بصمات الوطن فى أدبه بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وهم وإن اتفقوا فى الحنين إلى وطنهم والتمسك بقوميتهم ، إلا أنهم اختلفوا فى وسيلة التعبير .

فالشماليون : وخاصة جبران ونعيمة جاء تعبيرهم عن الوطن تعبيرا فنيا ، فهم لم يناجوه بأنفاس صارخة ملتاعة فيها حرقة المغترب وعفوية المشتاق ، ولكن الوطن امتزج بأنفاسهم وفنهم فجاء أدبهم من وحى أجوائه وظروفه السياسية والثقافية والاجتماعية .

وكتاب النبى :

صورة لغربة جبران الروحية فى أميركا . وأشواق عليا إلى وطنه الذى غاب عنه ثم رجعت سفينته إليه مرة أخرى . ومرداد ، والفلك ، وقمة المذبح ، ومنحدر الصوان ، كلها تكون صورة واقعية حقيقية لجبل صنين مستقر نعيمه والوسيلة التى لجأ إليها أدباء الرابطة القلمية أخصب خيالا وأمتع فنا من التعبير المباشر الذى لجأ إليه أدباء العصبة الأندلسية .

وأدباء الرابطة القلمية يختلفون عن العصبة الأندلسية فى العقيدة القومية فهم أى : أعضاء الرابطة " لاينادون بالقومية العربية ولايتعصبون لها مثلما يحنون إلى لبنان ويشتاقون للعودة إليه .

فأدباء الرابطة القلمية كان اتجاههم وطنيا ، أما أدباء العصبة الأندلسية فقد كان اتجاههم قوميا عربيا . فأدباء الرابطة وإن نبذوا التعصب دينيا وعربيا . إلا انهم لم يفلتوا من شرك التعصب للوطن والحنين إليه .

أما الجنوبيون : فتصطبغ نفثاتهم وأشواقهم البعيدة النائية المهاجرة بالحماسة القومية والعصبية العربية .

ويقول الدكتور " خدورى " ممثل نادى القلم العراقى من مقال له :

« أما الشعراء والكتاب فأرواحهم دوما فى البلدان العربية وأجسادهم فقط فى المهجر ، وهم يتتبعون بدقة زائدة تطور القضية العربية ، وينظمون الشعر ويتلون الخطب الحماسية خدمة للبلاد العربية ومنهم الأمير أرسلان بجريدته " الاستقلال " . والسيد موسى يوسف عزيزه بجرائده القومية والأسبوعية .

والدكتور جورج صوايا بمجلته " الإصلاح " والسيد موسى كريم بمجلته " الشرق " والشاعر إلياس قنصل بمجلته " المناهل " .

وعلى هذا الأساس نجد الجالية العربية فى أميركا الجنوبية تشعر وتتحسس بما يشعر ويتحسس به العرب فى كافة البلاد العربية [1] .

والفرق بين الطابعين الشمالى والجنوبى فى هذا الاتجاه يرجع إلى اختلاف البيئة "

(١) أنيس المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ص ٢٨٢ .

فالمهاجرون وجدوا أنفسهم فى الجنوب بين أقوام لايفوقونهم رقيا وعزما فكان ذلك من أسباب بروزهم كعنصر يفاخر بماضيه وآتيه .

ولم يتيسر لهم ذلك فى الشمال حيث هالتهم الحضارة الأميريكية بنظامها وتفوقها المادى . فدفعتهم برغم اكبارهم لها إلى التنديد بالمادية والتفاخر بروحانية الشرق " .

ومن أبرز الشعراء دفاعا عن القومية العربية وإيمانا بتاريخ العرب الحافل بالأمجاد الشاعران : رشيد سليم الخورى " القروى " وأبو الفضل الوليد ، وغيرهما من أدباء الجنوب ومثل چورچ صيدح ، وإلياس فرحات ومحبوب الشرتونى ، ونصر سمعان .

فإلياس فرحات : يهاجم " عقل الجر " حينما أسس ناديا أدبياً أسماه النادى الفينيقى خوفا منه على ضياع الشعور بالقومية العربية .. يقول :

قـــوم لقــد أنكــروا جهــلا أرومتهـــم	مستمسكـــين بقـــومم مالهـــم أثـــــر
لـــولا التعصــب كانـــوا كلهـــم عـــربا	فلتهنـــأ العُـــرْب لم يعلـــق بهـا الوضــر
هـــذا " التفيـــنق " للتفـــريق أوجـــده	عـات يبغضـــه بالـــوحــدة الحـــــذر
وكيــــف لايحــــذر الباغى إذا اجتمعت	تحــــت البيـارق بنو العرب والحضـــر (١)

ويتعلق محبوب الشرتونى بعروبته – ويفسر هذا التعلق والحب بأنه حق الجوار والرحم ولايصدفه عن هذا الحب بخل الأحبة ، ولابدواتهم – فهو الحب الخالى النقى هل بعد ذلك حب ؟ وهو يصوغ مشاعره فى حوار شعبى جميل يتفق مع جو التجربة التى يدافع فيها عن قوميته :

قـــالـــــوا تحــــب العـرب قلت أحبهــــم	يقضـــــى الجـــوار علـــىّ والأرحـــــامُ
قالـــــوا : لقـــد بخلـــوا عليك أجبتهـــم	أهلـــــى وإن ضنـــــوا علـــــىّ كـــــرامُ
قالـــــوا : البـــداوة قلت : أطيب عنصـــر	صفـــــت القـــــلوب هنـــاك والأجْســـَامُ

وبعض الشعراء ينتهز المناسبات الدينية ليعبر عن مشاعره القومية : " فنصر سمعان " ينتهز مناسبة مولد النبى الكريم ليجسد آلام العروبة ويصف واقعها – ويناجى الرسول عليه السلام ويطلب منه العودة لجمع شتات العرب .. ونراه يقول :

(١) د/ نظمى عبد البديع / أدب المهجرين بين أصالة الشرق وفكر الغرب .

بزغت فحيّت الجوزاء مَهْدَك   وأعلت فوق مجد الشمس مجْدَك
وكل فم له الفصحى لسان   يردد عند حمد الله حمدك
نبي قريش - إنْ قريش ولت   وولت أشرف النزعات بعدك
فلا عمر تراه ولا عليٌّ   يقود إلى مراقي العز جندك
وغاية ماترى أشتات شعب   تردّى فوق برد الحيف بردك
فقم إن العروبة رهن ضيم   أطال وصاله وأطلت صدُّكْ (١)

- وعروبة الشاعر قادته إلى هذا التسامح الديني ولكنه حاد عن الصواب في مخاطبة الرسول عليه السلام . فالتعبير بنبي قريش ، بعيد عن الصواب لأن محمدا أرسل للناس كافة وليس لقريش فقط .

- وقوله " وأطلت صدك تعبير غير مناسب - لأن الذين أطالوا صدهم عن تعاليم النبي عليه السلام هم المسلمون المقصرون وغيرهم من الذين لم يعتنقوا دين الإسلام . وچورچ صيدح " في مقام حديثه عن النبي الكريم يقولم ممجدا الوثبة العربية التي كونت الحضارة العظمى :

زهت العروبة وابْتَنتْ   للمجد مالم يبن بانْ
والعرب أخلاق تثور   على الضلالة والهوان
فتحوا البلاد فذمة   تقضى وأوراح تصان
يوفون بالنذر الذي   أعطى الكتاب له الضمان
وضعوا الندى والسيف في   وضعيهما خلف البيان

والقروى : إيمانه بالعروبة لايتزعزع ، ويبلغ تعصبه لها مدى غير محدود . وشعره القومي : شاهد إثبات على ذلك وكذلك كتاباته واعترافاته وهو في عقيدته القومية لايتنكر للمبادىء التي جعلت من العرب سادة العالم . وهذه المبادىء قد سبقت الاشتراكية التي ينادي بها العصر الحديث ولكن أصحاب الدعوة إليها أخفقوا في تطبيقها .

فالعدل والإخاء والمساواة مبادىء عليا نادى بها الدين الإسلامي الذي هو سر عظمة العرب وتفوقهم : يقول :

« قبل الثورة الفرنسية وقبل شريعة تحرير العبيد الإسمية في أميركا بأكثر من ألف سنة

---

(١) د/ نظمي عبد البديع / أدب المهجريين أصالة الشرق وفكر الغرب .

جهر شارعنا العربى الأعظم بمبدأ الحرية والإخاء المساواة . فجعل فك الرقاب كفارة عن الذنوب وزلفى إلى الله وقال فى حديثه : الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره » (١) .

وهو يعبر عن رأيه فى العروبة بدافع من نزعته القومية فيقول :

" العروبة روح حاتم ومعن والسموأل فى سلوك كل نبيل عربى ، وروح عنترة وطرفة وأمرىء القيس والأخطل والمتنبىء فى خيال كل شاعر عربى وروح خالد وأسامة وطارق وصلاح الدين ويوسف العظمة على سيف كل جندى عربى وروح على وأبى بكر وعمر على قلب كل متسلط عربى ، العروبة أن يشعر اللبنانى أن له زحلة فى الطائف والعراقى أن له فراتا فى النيل العروبة دم ذمى يجرى فى عروق جسد واحد . أعضاؤه الأقطار العربية وكل مايعوق دورة هذا الدم يعرض الجسد كله للأخطار " (٢)

وقد جعل القروى شعار الجزء الأول من ديوانه هذين البيتين :

إنـــى علـــى ديـــن العـــروبة واقـف	قلبـــى علـــى سبحـــاتها ولســـانى
إنجيلـــى الحـــب المقيـــم لأهلـهـــا	والـــذود عـــن حـــرماتها فرقـانـى

وصدّر ديوانه بأبيات تنبىء عن معتقده القوى الخالص وإيمانه بأن الإسلام هو صاحب الفضل الأول فى النهضة العربية الرائدة فيقول :

عـــش للعـــروبـة هـاتفـــا	بحيـــاتهـــا ودوامهـــــا
وأمـــدد يمـــين الحـــب يـــا	لبنـــانهـــا لشـــآمهـــا
أنـظـــر إلـــى آثـارهـــا	تنبئـــك عـــن أيـــامهـــا
هـــذا التـــراث يمـــت معظمــــه	إلـــى إســـلامهـــا

وقمت بإحصاء عددى لقصائد ديوانه المكون من جزأين والذى يضم معظم نتاجه ويتكون من الأقسام التالية :

---

(١) القروى : مقدمة الديوان ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠ - ٤١ .

١ - البواكير .
٢ - الأعاصير .
٣ - الزمازم .
٤ - المحافل والمجالس .
٥ - زوايا الشباب .
٦ - الموجات القصيرة .
٧ - الأزاهير .

والديوان به ٤٥٦ أربعمائة وست وخمسون قصيدة .

والقصائد القومية التى تعبر عن إيمانه بالقومية العربية أوتهجمه على المستعمرين أو الحكام الظالمين ١٢٦ مائة وست وعشرن قصيدة فالاتجاه القومى يحتل ٢٥ ٪ خمسا وعشرين فى المائة من مجموع نتاجه تقريبا .

ومن الواضح أنها على قلتها تفوق غيرها لدى الشعراء الآخرين .

والباحث فى ديوانه يرى أمثال هذه القصائد (١)

- بين حكومة - كفى يكفى - الداء العياء - ياأمة الشرق
- الحرب - الأوربيون - هذا حدادك - سيد وخواجا
- وهل أنسى - لعينيك يالبنان - أقحوانة ابرنجا - تذكرت أوطانى
- أبطال لبنان - أحبابنا - سيد اتناوساداتنا - أمام العلم .
- تلك القرى - عيد المسافر - السورى التائه - وقفة على الشاطىء
- تلك المشاهد - خيال سوريا - الوطن البعيد - رسم
- طيور البحر - الهاشمية - يانافيا - تحية الأندلس

(١) أنظر الصفحات التالية على التوالى فى الجزء الأول من الديوان ، ٦١ - ٦٤ - ٧٢ - ٩١ - ١٠٥ - ١٣٢ - ١٤٧ - ١٥٠ - ١٥٣ - ١٥٦ - ١٥٨ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٧ - ١٧٠ - ١٧٤ - ١٧٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩٨ - ٣٠٣ - ٢١٠ - ٢٣٣ - ٢٣٨ - ٢٠٨ - ٢٤٣ - ٢٥٢ - ٢٩١ - ٣٠٥ - ٣٠٨ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٥ - ٣١٩ - ٣٢١ - ٣٢٤ - ٣٢٧ - ٣٣٠ - ٣٣٧ - ٣٣٩ - ٣٤٢ - ٣٤٤ - ٣٤٨ - ٣٥٠ - ٣٥٣ - ٣٥٥ - ٣٥٨.

- سلطن الأطرش والتنـــــك - عيد الأضحى - الرجاء الوطن - الاستقلال حق لاهبة
- هذيان شاعر - عيد استقلال لبنان - الشهداء - لبنان وثورة حوران
- صيحة للجهاد - وعد بلفور - قحط الرجال - نكبة الشام
- سقوط أورشليم وأريحا - الحق لايتجنس - مأس لايراع - بطل الصحراء .
- عيد الفطر - شبول الأرز

والجزء الثانى كذلك حافل بالقصائد العديدة .

فالزمازم أغلبها شعر حماسى قومى والتسمية توحى بمضمون ماوراءها .

ولم يترك الشاعر مناسبة قومية إلا وشارك فيها بأحاسيسة الصادقة الملتهبة فهو يناصر الثورات على المستعمر وعلى الأتراك فى العالم العربى كله .

وهو يندد بوعد بلفور ، ويندد باليهود الذين اغتصبوا فلسطين . وقصيدته ، وعد بلفور تبلغ سبعين بيتا ، وفيها يتميز قلبه من الغيظ وتشتعل نفسه حماسة لإنقاذ الوطن السليب فيقول :

الحق منك ومن وعودك أكْبَرُ	فأحسب حساب الحق يامتجبر
تعد الوعود وتقتضى إنجازها	مهج العباد ، خسئت يامستعمر
عد من تشاء بما تشاء فإنما	دعواك خاسرة ووعدك أخسر
فلقد نفوز ونحن أضعف أمة	وتؤوب مغلوبا وأنت الأقدر

وينظر القروى إلى المستقبل ويصف واقع اليهود وصفا دقيقا فيقول لامسا بؤرة الجرح وكاشفا اللثام عن أطماع اليهود :

أمنيَّة الدنيا السلام وإنما	تحقيقها فرض على من يقدر
هيهات والتسليح أكبر همكم	والوحش خلف جلودكم متنكر
ماروض التسماح صقل أديمه	مهما تمدنتم فأنتم بَرْبَرُ (١)

---

(١) القروى : ديوانه جـ١ ص ٣٢٠ - ٣٣٤ .

وآمن أبو الفضل الوليد بالعروبة إيمانا راسخا وآمن بالإسلام دينا عالميا تسوده روح التسامح والمحبة والإخاء

وتفرد أبو الفضل الوليد بميزة جعلته ذا شخصية مستقلة هى :

إيمانه بالإسلام عن يقين خالص وتركه للمسيحية ودفاعه عن أمجاد الإسلام دفاع المحب الغيور وإلمامه بتاريخ المسلمين العرب إلماما وصل إلى درجة الذوبان والفناء فيه .

وآمن بالقومية العربية ودافع عن مقوماتها ووضحها فى ثنايا أشعاره وساندته إلى جانب معتقده الإسلامى العربى ثقافة عربية أصيلة دفعته إلى الغيرة على كل ما هو عربى ، وإلى البحث فى أصول اللغة العربية وإبراز عناصر الجمال فيها ، وإظهار ما كمن من كنوزها الدفينة.

– وشعر أبى الفضل الوليد القومى والإسلامى يأخذ طابع المطولات فهو يكتب قصيدة " تائية " يجارى فيها تائية ابن الفارض " نظم السلوك " وتبلغ ثثمائة بيت : ويبدؤها بالرؤية النبوية ويقول :

أعاهد ربى أن أصلى مسلما	على أحمد المختار من خير أمة
هدانى هواها ثم حبب شرعه	إلى فَصِحْتُ مثل حبى عقيدتى
فمن قومه قومى أدين بدينه	لأنى أرى الإسلام روح العروبة
توسلت بالقربى إليه فلم تضع	لدى العربى الهاشمى شفاعتى

وفى هذه الرؤيا النبوية تتوالى النصائح على فم الرسول العربى يبلغها أبو الفضل الوليد وهى نصائح فى مجموعها توضح رأى أبى الفضل فى إصلاح أمة العرب وإنقاذها من فترات الضياع . ويقول :

فلا مؤمن إلا الذى هو معرب	وهذا كتاب الله بالعربية
لقد حان أن يستعربوا ويعربوا	بنيهم وأهليهم لإتمام وحدة

وتكشف هذه المبالغة وهى أن الإيمان لايصح إلا من العربى عن التعصب الصادق الذى يتمسك به أبو الفضل فى إظهار حبه للعروبة وبنيها ودينها .

ولا أنكر أن الشاعر مخطىء فى منطقه فالإسلام دين شامل للإنسانية كلها . وأتجاهه القومى يرتكز على عدة أسس تدور حول عدة محاور وهى :

(أ) وضع دستور شامل لإصلاح الأمة :

وفى ذلك الدستور سجل تعود إليه الأمة العربية إذا ماأرادت الإيمان بالوصية التى يبلغها إياها أبو الفضل الوليد أو أرادت أن يكون لها المحل اللائق بين الأمم .

فمن نظام أخلاقى ودينى إلى نظام حزبى وإجتماعى واقتصادى وفى كل ذلك بناء للدولة إذا شاءت أن تستكمل عدتها فى مسيرة الحياة . (١)

(ب) استلهام التاريخ واستنطاقه لاستكشاف طريق المستقبل :

وشعوره القومى العربى والإسلامى يدفعه إلى تلمس أسباب الإصلاح الإجتماعى ومعالجة جراح هذه الأمة باستلهام تاريخها الحافل بالأمجاد العظام والتنويه بدور المرأة العربية المسلمة والفتى العربى المسلم فى صنع الحضارة العريقة وحثهم على استئناف ذلك الدور الرائد وفى ذلك اتساع أفق لدى الشاعر وخاصة فى الفترة التى عبر فيها عن رأيه وهو يمزج مشاعره القومية بأحاسيسه التأمليةُ التى يتصور من خلالها الأمة العربية وقد عاد إليها مجدها فيقول :

ومـــا عربيـــة هـــذا الـــزمـــــان	كتــــلك التــى ربيــت فــى الخيــام
تحمـــس جيشـــا وتنشـد شعـــرا	وتعلـــو الجـــواد وتجلـــو الحســـام
وأفضـــل مـــن هـــؤلاء البـنين	عظـــام الجـــدود الغـــزاة العظـــام
فـــأيـــن الإبـــاء ؟ وأيـــن السخـــاء	وأيـــن الـــوفـــاء ؟ وأيـــن الزمـــام

وقصيدته " المغربية " بلغت ١٢٠ مائة وعشرين بيتا .

(١) چورج غريب : أبو الفضل الوليد : شاعر الحمراء ص ٥١ .

وفيها يصافح الأمجاد العربية وهى التى حلت محل الأمجاد الفارسية والرومانية ويستحث أهل تونس والجزائر ، ومراكش ، ومصر ، ويذكرهم أن الإسلام أصبح ممزقا وهذا يؤله ويستثير حميته . ومصر هى قبلة العالم الإسلام بحضارتها وأزهرها .

(جـ) الدعوة إلى النضال ضد الاستعمار :

وهذه الدعوة تتجسد بصورة مكثفة فى قصيدته : " الشرقية " التى تجاوز مائة بيت وفيها يتحدى الأعداء ويكشف زيف مبادئهم التى تشبه جسم الأفعى . تحمل نعومتها الفتك بلامسها . ولايميل إلى مهادنة المستعمرين أو التصالح والتعايش معهم فيقول :

فــإن المـــوت فـــى شـــرف وعـــز	أحـــب مـــن الحيـــاة إلـــى الأبىّ
سيـــوف الشـــرق ماضيـــة ظباهـا	وأمضـــاه شبـــاة محمـــدىّ

(د) فلسطين :

وفى قصيدته " المقدسية " يتضح وعى الشاعر المبكر بالقضايا المصيرية وخاصة قضية فلسطين فيقول مخاطبا القدس :

أنــت العظيمــة فــوق الرمــل نائمــة	أنــت الكريمــة فــى أيــام بؤســاك
هــل تستقــر جماهيــر اليهــود إذا	دعــوت يومــا أبــا حفــص فلبــاك
وافـــاك فــى ليلــة المعــراج سيــدنا	محمــد وكتــاب اللـــه سمـــاك
إن السيــوف علــى الأغمــاد حاقــدة	لأنهـــا لـــم تجـــرد فـــى رزايـــاك
أحينمــا عمــر صلــى وحيــث بنــى	بنـــو أميـــة للتقـــوى مصـــلاك
يمشـــى الأجـــانب فــى غوغائهم مرحا	ولا سكـــون لـــن شاقتـــه سكنـــاك

ولايكفى أبو الوليد بالندم والبكاء أمام أطلال الذكريات فى القدس وإنما تبدو رؤيته السياسية ناضجة ويبدو وعيه دقيقا حينما يدرك أن عهد البكاء قد ولىّ ، وأن عهد الصبر لايجدى ، فالقوة تفرض إرادتها ، ولاقوة بغير وحدة تدك عرش التخاذل وتزلزل جدار الاستسلام والتفرقة .

(هـ) الوحدة العربية ضرورة حتمية لبناء حضارة المستقبل : -

ومن منطلق إيمان أبى الفضل الوليد بلغة القوة لتأكيد الشخصية العربية والذات المستقلة يدعو إلى الوحدة الشاملة لأنها الطريق المعبد بالمشاعر والآلام والآمال والدم إلى القوة الذاتية التى تمنح صاحبها العزة والاستقلال فيقول :

كم خارج من عهود العرب يشتمنى ... ولم أكن قط شتاما وسبابا
ماالشام أفضل عندى من طرابلس ... فهذه القدس يلقى قابها القابا
والتونسى أو المصرى فى نظرى ... مثل الشآمى إعزازا وإحسابا

- ومن مطولاته التى تعالج قضايا الوحدة العربية قصائدة " المكية " والأموية ، والشامية والدمشقية ، والشهادية ، والجهادية ، والبغدادية ، والأندلسية ، والصحابية ، والصبابية ، والعسكرية ، والباريسية ، ويعبر عن مدى حبه لوطنه العربى فيقول :

إنى أموت كما عشت عربيا ، وأود أن تضم جسمانى تربة دمشق الطيبة ، وهناك تهيم روحى فى البادية ، وتنشق نفحاتها الطاهرة ، وتطرب لهدير الوادى ، تلك رقدة اشتهيها وأعلل بها نفسى وأراها خير مكافأة لى إذا كنت مستحقاً " (١) .

ويكاد يكون الوليد أكثر شعراء المهجر دعوة إلى الوحدة العربية وكان فى طليعة من تغنوا بهذا الأمل الحبيب .

فقد عبر من مهجره القصى عن استبشاره باستعادة عهد المأمون والرشيد اثر نشوب الثورة العربية إبان الحرب العالمية الأولى فقال فى قصيدته " الدولة العربية " :

الله أكبر عادت دولة العرب ... بشرى لهارون والمأمون فى الترب
دمشق حنت إلى بغداد واضطربت ... مصر التى هى دار العلم والطرب
على الثلاثة شاد العرب دَوْلتهم ... ياحبذا دولة الأسياف والكتب (٢)

---

(١) انظر كتاب : چورج غريب : أبو الفضل الوليد .
(٢) انظر كتاب : " على الجمبلاطى " شاعر العروبة فى المهجر أبو الفضل الوليد .

الاتجاه الاجتماعى

إذا كان التأمل هو أخص خصائص الأدب المهجرى فإن هذا الأدب فى مسيرته الحافلة بالإبداع تطور ولم يفقد النبض الاجتماعى الحاد الذى يبحث عن حلول جذرية لمشكلات المجتمع بعيدة عن التعقيد الفلسفى أو العمق التأملى أو التجريد والتهويم والخيال . كل ذلك بأسلوب قريب إلى اللغة المتداولة مما يجعل الكاتب قريبا من أصحاب المشاكل التى يعالجها ورفاق الطريق إلى غد أفضل .

ولم يبعد أدب الرابطة القلمية عن المجتمع والغوص فى مشاكله ومحاولة الوصول إلى حل ملائم يسعد الإنسان ويقيه شر الموبقات أيا كانت وفى مقدمتها الجهل والفقر والمرض .

والاتجاه الاجتماعى قد يتحول عند بعضهم إلى دعوة الاشتراكية تمزج فيها النقمة على أرباب المال والأعمال بالعطف على الفقراء من العمال " (١) وقد يكون الشعور الاجتماعى ممزوجا بالتأمل الفكرى أو الخيال الشعرى الملحق .

(١) وهذا ماتجده فى معظم كتابات جبران وهى تصف الواقع المر الذى تعانيه شرائح المجتمع على تنوع عذاباتها وطموحاتها . وجاءت أعماله بكائيات حالمة أو عواصف منذرة ، أوخيالات متمردة على قوانين الأرض ومعتقدات الإنسان أو تشريعات وقوانين يسنها ويعتقد أنها تصلح فساد الإنسان .

فقصته " الأجنحة المتكسرة " تقوم فكرتها على رفض التسلط الاجتماعى وتقييد حرية الفتاة وتهاجم نفوذ رجال الدين المسيحى الذى يقف ضد رغبة : سلمى ، وجبران ، فى الاقتران ببعضهما طمعا فى زيادة ثروته ، ويحلل جبران هذه الظاهرة حينما يقول : (٢)

« ماطلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامة فى تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بأمور الأرامل والأيتام ، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروسا لابن أخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامة رجلا غنيا ولم يكن له وريث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه لا لجمال وجهها ، ونبالة روحها ، بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة

(١) أنيس المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ص ٢٨٢ .
(٢) الأجنحة المتكسرة ص ٢٦ جبران .

مستقبل منصور بك وتساعده بأملاكها الوسيعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والأشراف».

وعندما ماتت سلمى كرامة هى وطفلها - يصور جبران مشاعر الواقفين وهمساتهم فى ساعة الدفن :

ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين قائلاً : " هذه أول مرة رأيت جسدين يضمهما تابوت واحد ، وقال آخر : " كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته " وقال آخر : " تأملوا بوجه منصور بك . فهو ينظر إلى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله فى يوم واحد " .

وقال أخر : غدا يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة وأقوى جسما " (١).

وفى كتاب " النبى " يعطى جبران تصورا للمجتمع الذى يريده ويحدد رأيه فى البيع والشراء والزواج ، والتعليم ، والصداقة ، وغيرها من أمور المجتمع .

وفى حديقة النبى يتحدث جبران ويبين مساوىء الأمة التى أدت بها إلى التخلف فيقول : « ما أولاكم أن ترثوا لأمة لاترفع صوتها إلا حين تشيع ميتا ، ولا تتفاخر إلا بالأطلال ، ولاتثور إلا عندما ترى رقابها بين السيف والنطع ؟!. وما أولاكم أن ترثوا لأمة تستقبل حاكمها الجديد بالطبل والزمر ، وتشيعه بالنكير والصفير ، لتعود فتستقبل الخلف بما استقبلت به السلف ، ثم ماأولاكم أن ترثوا لأمة تفرقت أحزابا ، وظن كل حزب أنه أمة وحده » (٢)

والتناقض الاجتماعى يثير جبران ، فالسجن للضعاف ، وإن كبروا فلهم المجد والفخر . والعدل ضائع والجن يبكى لضياعه والأموات يضحكون من تصرفات الأحياء إن بعثوا من رقادهم .

يقول : "

والعـــدل فى الأرض يبكى الجن لو سمعـوا	بــــه ويستضحـك الأمـوات لـو نظـروا
فالسجـــن والمـــوت للجـــانين إن صغـروا	والمجـد والفخــر والإثــراء إن كبــروا
فســـارق الـــزهـــر مذمــــوم ومحتقـر	وســـارق الحقــل يدعـى الباسل الخطــر
وقـــاتل الجســـم مقتـــول بفعلتـــه	وقـــاتل الـــروح لاتـدرى بـه البشــر (٣)

(١) الأجنحة المتكسرة ص ٦٤ جبران .
(٢) حديقة النبى ص ٦٢ .
(٣) عرائس المروج ص ٢٦ . جبران .

والألفاظ هنا تتناسق مع جو التجربة التى سيطرت على الشاعر – فهو فى صراع مع التناقض الاجتماعى فالألفاظ هنا تتقابل فالبكاء والضحك ، والسجن والمجد ، والصغر والكبر ، والذم والاحتقار ، والبسالة والخطورة ، وقتل الجسم وقتل الروح ... كلها مقابلات تتناسق مع الجو الذى أراد الشاعر رسمه فى عناية وحس مرهف مهموم متشوق لعدالة نقية تعيد للإنسان البهجة والحياة .

وفى قصة " يوحنا المجنون " يعبر عن إيمانه بالعمل الشريف ، ويدين الرهبان الذين سرقوا مواشى يوحنا واتهموه بالإجرام لأن مواشيه قد أكلت من مزارع الدير .. فيصرخ فيهم يوحنا : " هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب أيها المراؤون ، هكذا تستخدمون أقدس ما فى الحياة لتعميم شرور الحياة " (١)

– وفى مسرحية الآباء والبنون لميخائيل نعيمة :

يصف إلياس أمه قائلاً فى غضب :

« أمى إنها امرأة عنيدة لاتطيق أن يعاندها أحد فى شىء وأولادها على الأخص فهى تطلب منا طاعة عمياء » (٢) .

والخلاف حول موضوع تقليدى هو زواج " زينة أخت الياس من ابن موسى العركوش . فالتقاليد تقول : إنه رجل ثرى . من عائلة محترمة ، والعركوش وابنه يحملان لقب بك .

وكل المواصفات السابقة عند أم الياس كفيلة بتحقيق السعادة لابنتها . ولاتعطى للعوامل الأخرى أهمية كفارق السن أو السلوك الشخصى للإنسان أو السلوك الاجتماعى أو التفاهم الروحى بين الشخصين ...... إلخ .

وزينة هى التجربة التى ظهر فيها انتصار نعيمة للتيار الجديد فى التفكير فقد استطاع داود أن يؤثر فيها بأفكاره الجديدة ، فتجرأت ورفضت ابن العركوش ، بل وذهبت إلى داود فى بيته . بعد صراع بين أم الياس وأبنها وصديقه داود .

ويبرز نعيمه معتقده فى الحرية الدينية ويرى أنها حق اجتماعى وذلك من خلال الحوار بين ام الياس المتعصبة لمسيحيتها وبين داود الذى ينبذ التعصب

(١) جبران : عرائس المروج ص ٣٤ .
(٢) م – نعيمة : الآباء والبنون ص ٣٦ .

" إم الياس : وين بتصلى بكنيسة الروم ، يما الموارنى يما البستريد : البروتستانت " يما الجامع ،

داود : أصلى فى قلبى يا خالتى لا فى كنيسة الروم ولا الموارنة ولا البروتستانت ولا فى الجامع " (١) والحرية الدينية ليست مطلقة وإنما لابد من شعائر تترجم معتقد الإنسان وإلا مافائدة التعاليم الدينية ؟

وفى المشهد الثالث يبرز نعيمة حقيقة هامة وهى :

أن التغيير الاجتماعى يحتاج إلى صراع حاد حتى فى داخل البيت بين أفراد الأسرة وذلك فى الحوار الآتى بين إلياس الحائر القلق وبين داود الذى استقر على طريق التغيير

إلياس داود : لو شئت أن أمتثل لإرشادك لتحول هذا البيت إلى ساحة حرب

داود : وأى بأس فى ذلك ؟ أليست الحياة كلها حربا ؟

إلياس : أأحارب أمى ، ؟

داود : بل حارب مافيها من ضلال بما فيك من حق (٢) .

وفى الفصل الثانى : يبرز فلسفته الاجتماعية وهى التفاؤل .

وهو خط انتهجه نعيمة فى حياته وإن كانت كتاباته وأشعاره تقول غير ذلك لأنه يأخذ الحياة مأخذ الجد ويفلسف كل شىء .

وشهيدة أخت داود هى العقلية المتفائلة التى تأخذ الأمور بيسر وسهولة وتفلسف المواقف لحسابها . وتحاول إقناع الياس بهذا المنهج قائلة له :

« أما أنا فأتقبل علقمها بالشكر طمعا بشهدها » (٣)

ويبرز نعيمة حقيقةً يؤمن بها الجيل الجديد وهى أن المعرفة مجال الفخر والإعجاب وليس المال ولا النسب المزيف .

---

(١) م – نعيمة : الآباء والبنون ص ٣٢ .
(٢) م – نعيمة : الآباء والبنون ص ٣٢ .
(٣) السابق ص ٥٤ .

ويجسد نعيمة الحقيقة السابقة على لسان زينة التى أحبت داود لمعرفته واتجاهاته الفكرية فتقول له :

« كرهت ابن العركوش كرها لاكره فوقه ، وأحببتك حبا لاأدرى إذا عرف مثله أحد قبلى . لكننـــى لم أجسر أن أعترف به حتى أمام نفسى نظرت إلى الهوة بينى وبينك ، لاهوة المال والنسب . بل هو ة الإدراك والمعرفة » (١)

وينهى نعيمة مسرحيته بانتصاره للعقلية الجديدة . فموسى العركوش الذى كان كثير التهجم على الجيل الجديد (٢) ظهر زيفه وخبثه وعرفوا أنه مدين بأمواله كلها . ولم يستطع أن يسعد ابنه على حساب الآخرين طمعا فى مالهم .

لأن المال فى نظر العقلية التقليدية له قيمة لاتقدر فموسى يقول لابنه :

" لايعيـــش اليـــوم يابنى إلا الغنى ، ياابنى المال كل شىء . ضع هذا نصب عينيك دائما " (٣) .

وتبارك أم الياس بعد تحولها وإيمانها بالتيار الجديد زواج زينة من داود ، وتبارك زواج شهيدة من الياس .

وينتصر الصدق على الخداع ، والتفكير والعلم على التسلق والانتهازية وبهذا الانتصار يعطى نعيمة حق البقاء للشرائح الاجتماعية السليمة الخالية من الأوبئة التى تفتك بالمجتمعات ويبارك القيم الخيرة القائمة على أسس صحيحة عادلة صادقة .

وفى مسرحية " الورقة الأخيرة " (٤) يصورنعيمة التقاء الجيلين . وكأن هذا الصراع لايستمر بل تأتى ساعات يتوافق فيها الحزبان وذلك عندما تتسامى الأهداف وتتُبل الأغراض ، وتتسع آفاق التفكير .

فسميرة : صورة للجيل الجديد . تزن الأمور بمشاعرها الإنسانية . وتعترض على ضياع الوقت فى اللعب واهدار العقل والمال فى سبيل لذة الكأس والطاس ..

(١) السابق ص ٧٢ .
(٢) انظر الحوار بينه وبين أم الياس ص ٩١ .
(٣) الآباء والبنون ص ١٠١ .
(٤) انظر مسرحية : الورقة الأخيرة فى كتاب " أبو بطة " ص ١٨٢ – ٢٠١ .

فيقول الجد لها : جميل منك يا ابنتى أن تفكرى تفكير الشيوخ ، وليس جميلا وأنت فى ريق الشباب أن لاتتمتعى بلذات الشباب ، العبى وغنى واطربى يابنيتى ، وافرحى مع الناس بالعام الجديد " فترد سميرة بصوت إنسانى وشعور شفاف واع يحمل بذور الاشتراكية التى طالما اشتاق نعيمة إلى تطبيقها لإسعاد المجتمع ورخائه :

" لاكان عام جديد ، لايحمل الشبع للجائع ، والرى للظمآن ، والدفء للمقرور ، والعدل للمظلوم ، والبلسم للجريح ، والحرية للسجين ، والبصر للكفيف .

وفى القصص القصيرة : –

يظهر اتجاه نعيمة الاجتماعى بصورة واضحة ويكاد ينافس نزعته الفلسفية وأعتقد أن الكاتب جنح إلى تلمس مشاكل المجتمع بعقلية متفتحة واعية تقف على طريق الإدراك لأسرار الأحزان التى تغلف حياة الناس .

ولم تسيطر نزعة الحزن عليه فى أسلوبه بل جنح إلى الأسلوب الساخر الذى يجعل من القصة فكاهة طريفة وإن كان موضوعها هو قمة الحزن والتعقيد .

واختار شخصياته من واقع الشعب اللبنانى على اختلاف طبقاته وتعدد أصنافه ووظائفه

–١–

فهو يشعر بما يعانيه قطاع العمال والفلاحين ويتعاطف معه ، ولاشك أن شعوره هذا ناشىء من ميله الفطرى واطلاعه على الثقافات الاشتراكية واعتناقه مبادىء المساواة والعدل والإخاء ، وتأثره بالأدباء الروس ذوى النزعة الاشتراكية ، التى تنشد حلماً يبدو مستحيلاً .. والواقع الاجتماعى يظل ملوّنا بصبغة الصراع والخوف من الغد ... ومن المصير المجهول ...

– وقصته " ثائران " (١) توضح هذا الخط الاشتراكى الثائر ، حيث التقت ثريا بفؤاد وجمع بينهما حب القضاء على صراصير المجتمع والانتهازيين والإقطاعيين ، وتركت ثريا خطيبها " فريد صرصور " الذى سرق منه فؤاد : السوار الذهبى " بالقوة وفى ذلك إيمان بأن القضاء على الطبقات المتعالية التى لاتشعر بالمعاناة لايحتاج إلى المهادنة .

ولكن لابد من القوة حتى وإن كانت اغتصابا وسلبا فهذه هى الوسيلة للقضاء على

(١) انظر القصة بكتابه " أبو بطة " ص ١٠٦ – ١١١ .

الشرائح الخارجة على نضال المجتمع وكفاحة كما توعدت ثريا وصرخت : « بل ستبتلع الأرض الصراصير » .

" وفى قصته " أكابر " (١) امتداد لهذا الخط حيث يتجسد الإحساس بالثورة على النظام الطبقى والظلم الاجتماعى من خلال إظهار سلبيات أصحاب الأرض الذين لايشفقون ولا يضمدون جراح الفلاحين البسطاء ويخففون همومهم .

وفى قصته " هدية " يعانى هموم العمال ويقف على سر مأساتهم ، ويصور مدى معاناتهم فى كسب لقمة العيش ، ويصور بساطة نفوسهم وطيبة قلوبهم وتوقهم إلى السعادة ، وأداء علمهم على خير وجه كل ذلك بأسلوب بسيط وتمكن من معرفة المشاكل التى يمر بها هذا القطاع الشعبى الذى يشيد على كتفيه حضارة الإنسان .

وشخصية " مسعود " رمز للمعانى السابقة ، وهديته لزوجته " المرآة " اختيار مناسب ففى المرآه يرى نفسه وملامحه وما تحدثه الأيام فى وجهه وكيانه من آثار الكد المتواصل وفى المرآة يرى زوجته حقيقة وخيالا فتزول آثار الإجهاد وشقاء الأيام .

ويلمس نعيمة سر القلق المتجدد الذى يحرق أعصاب الطوائف المطحونة وهم معذبون حائرون بين دخلهم القليل ومتطلبات العيش المرهقة ، وعدم استطاعتهم التوفيق بين الإثنين . وفى النهاية يفترسهم المرض ولايجدون ثمن الدواء .

ويصور مدى المسافة بين سذاجة مسعود القروى الطيب – وبين خبث المحتال الذى لوثته المدينة وسرق من مسعود " ليراته " ثمن المرآة " فسرق عرقه ودمه وسعادته .

ويستدين مسعود ويشترى المرآة ، ولكنها فى النهاية تتكسر فى قمة نشوة مسعود بها لترمز إلى استمرار المعاناة والظلم الواقع على هذا القطاع وإن أمانيه فى السعادة لم تتحقق بعد كما يتصور الكاتب وفى تصوره كثير من الحقيقة .

" وأبو بطة " (٢) صورة من مسعود فهو عامل فقير ، كادح ، دون الربع من الرجال والناظر إلى وجهه الشاحب وعينيه الصغيرتين الغائرتين ، وإلى لحيته الكثة التى لاتدنو منها الموسى أكثر من مرة فى الشهر أو مرتين . وفى رجليه القصيرتين الحافيتين .... الخ .

(١) انظر القصة بكتابه " أكابر " ص (٧ – ١٧) .
(٢) انظر قصته " أبو بطة " فى كتابه " أبو بطة " ص (٧ – ١٧) .

إلا أن أبا بطة أوثق صلة بنعيمة فهو صديق له جمعت بينهما المصادفة . وهو صورة للشموخ والإباء حتى فى لحظات الضعف الذى فرضته السنون عليه وصورة للجبروت حتى مع ابنه : الجبروت الصادق المؤمن بقيمة العمل وكرامة النفس البشرية .

ومسعود : صورة للانسحاق الإجتماعى

وأبو بطة : صورة للثقة بالنفس التى تبلغ حد الغرور . ولو أدت هذه الثقة إلى الموت .

والفلسفة الاجتماعية لأبى بطة هى فلسفة الشعب الكادح الذى يبذل حياته فى سبيل الحفاظ على كيانه(١) .

والعامل يموت واقفا لايعرف الذل ولا الضعف ، كرامته نظير حياته ، لديه غيرة محمومة على مهنته ، لايقبل أن يمسها أحد فى وجوده ولو كان أبنه .

فأبو بطة يصرخ حينما يرى ابنه يقترب من الصندوق ليحمله .. اغرب من هنا ياكلب مامات أبوك بعد !!!

ولاينسى نعيمة المفارقات المؤلمة فى مثل هذه المواقف حيث يصور لحظة سقوط أبى بطة على الأرض وهو يحمل البرميل وهى لحظة مأساوية ولكنه بسخرية دامية يتهكم على صاحب المصنع ويجسد تبلد إحساس ذوى النزعات الطبقية .

فصاحب العمل لايحزن لمصرع أبى بطة ولكنه يصيح خائفا على أمواله :

" البرميل . البرميل . تداركوا البرميل ألف ليرة " !!!!

والسيدة التى مس البرميل طرف حذائها لاتأسى لمنظر أبى بطة ولكنها تثور مدافعة عن كرامة حذائها وتركل أبا بطة ركلتين صارخة : وحش . وحش .

وفى قصته : " على الله " تأكيد لموقف نعيمة السابق ففيها تعاطف اجتماعى وثورة على الاستغلال ودعوة إلى محاربة من يرون المال سلاحا ضد كل معدوم.

ونعيمة فى هذه القصة قاض عادل . أصدر حكمه على ذلك الإقطاعى الذى رفض أن يعطى المرأة المحتاجة شيئا من ماله . وحمل الفقراء ذنب إفلاسه وتجرأ على الله وقال :

(١) أنظر نصوص هذه الفلسفة فى القصة نفسها ص (٩) .

« ماكان سبحانه يوما تاجر شعير أو مدير بنك »

ولا تأخذ صورة العامل عند نعيمة وجها واحداً أو وجهين . أو لاتتعدى موقف الرثاء . ولكنها تتخطى كل ماسبق لتعطى لنا وجها جديداً . وهو " التكريم الاجتماعى " للعمال ، والعمل هنا بعيد عن العضلات الفولاذية " ولكنه عمل يشترك فيه العقل مع المهارة والدقة . إنه عمل حضارى ، فدور العمال لايقل عن دور المديرين ورؤساء التحرير وهذه المفاهيم يشخصها فى قصته " اليوبيل الألماسى " (١) .

والتكريم جاء فى صورة إقامة حفلة ليعقوب وزوجته فى عيد زواجهما مكافأة له على خدمته خمسين سنة فى الصحيفة بإخلاص ومهارة وتضحية .

وخصصوا عددا من المجلة للتنويه بيعقوب وإخلاصه وإبراز قيمة العمل والعمال .

– ٢ –

ويحارب الفضول الاجتماعى ويدعو إلى عدم اقتحام أسرار الناس ، ويرفض حب الاستطلاع الدائم الذى يزرى بصاحب هذه العادة .

وشخصية " ستوت " (٢) شريحة اجتماعية منبوذة قضى عليها بالهلاك جزاء مااقترفت فى حق الناس " .

–٣–

ويقترب من نفسية المرأة فى قصته " أم وليست بأم " (٣) ويوضح أن الاحساس بالأمومة فطرة أنثوية خالصة حتى وإن تقدمت بالمرأة السن كما ظهر فى أحساس الخالة " مرشـــا " بـذلك : وهذه حقيقة نفسية اثبتها علم النفس الحديث .

فالفتاة فى سنى عمرها الأولى تتصرف باحساس أموى فطرى خالص . فعرائسها التى ترتبها أو التى تصنعها وتحملها على صدرها . وكذلك حملها الكتب وإسنادها إلى صدرها فى حنان عفوى ثم تشوقها إلى البيت الذى تستقر فيه وانتظارها حادث الولادة السعيد . كل هذه

(١) أنظر قصة " اليوبيل الألماسى " فى كتابه " أبو بطة " ص ٥٥ – ٦٢ .
(٢) أنظر قصة : مصرع ستوت " فى كتابه "أكابر " ص ١٨ – ٢٩ .
(٣) أنظر القصة : فى كتابة " أكابر " ص ٣٥ – ٤٣ .

الرغائب والتصرفات يبعثها شعور خفى تواق إلى أن تكون الفتاة أما ، وتظل هذه الرغبة متقدة فى داخلها حتى ولوكانت فى سن الخالة مرشا ، التى : تجرى من جانب إلى جانب فى بيتها وإلى صدرها وسادة تضمها بحنان لايوصف ثم تدفعها فى الهواء لتتلقفها بيديها الاثنتين وهى تصيح بأعلى صوتها : ها . ها ! هاى . هاى ! هو - هو . يقبرنى الزغلول . يقبر نى !!! .

-٤-

ويحلل نفسية الرجل ويدرك أن الإحساس بالأبوة عند الرجال يقابل الإحساس بالأمومة عند النساء . فهو نداء مشوب باللهفة يمور فى صدر كل رجل مهما تقدمت به السن .

" **وعدو النساء** " (١) الشاعر الذى لاتغيب النكتة عن بديهته والذى اشتهر بنظم الشعر وعداوته للنساء . بعدما بلغ من العمر ستا وسبعين سنة يستيقظ نداء الأبوة فى أعماقه وذلك فى اللحظة التى يلمح فيها موكب عرس فيتخيل أن العروس ابنته : ويسطر لها خطابا بلغة شعرية حالمة ، ويفيض حنانا ورقة . وينضح بالأسى والشجن " ويقول فيه :

" إن مابان منى للناس يابنيتى هو غير ماكشفته أنت منى لنفسى ..... ومن أنا من بعدك يابنيتى ؟

ست وسبعون سنة ملتفة بعباءة بالية ، وفى زاوية خالية من بيت مقرور ، مظلم ، مهجور .

- ٥ -

وعن العلاقات الأسرية المتنامية وعاطفة الأخوة يتحدث فى قصته " شهيدة الشهد " (٢) .

فخيزران برغم عنفوان أمها وعبادتها للمال وإجبارها ابنتها وابنها على إحضار المال مهما تكبدا من عناد . تموت وتعرض نفسها لأذى النحل وترفض فكرة الانتحار ثم تحمل لأخيها بعضا من عسل النحل حتى يتم شفاؤه " .

---

(١) أنظر قصة عدو النساء " فى كتابه أكابر ص ٦٦ .
(٢) أنظر قصة " شهيدة الشهيد " فى كتابه " أبو بطة ص ٦٣ - ٧٠ " .

- ٦ -

ويعالج العادات والتقاليد الريفية وماتعتقده العجائز ، وتحرص عليه ، وما يفتعلنه فى المناسبات العديدة من سباب وتهم بدافع من الحسد والحقد وسوء الظن والبخل الشديد وكل هذه الأمراض الاجتماعية افرازات خبيثة لأوبئة الجهل وضيق الأفق .

وفى " دجاجة أم يعقوب " (١) يصور الكاتب المثالب السابقة . وأم يعقوب مثال مرفوض لها . ولايفقد نعيمة الأمل فى الإصلاح الاجتماعى والقضاء على الظواهر المرضية .

فعندما تموت أم يعقوب كمدا على اختفاء دجاجتها نبصر فى جنازتها تولد الحياة من الموت وذلك حينما ظهرت الدجاجة مرة أخرى ووراءها أفراخها التسعة (٢) وفلسفة أم يعقوب فى الحياة تشير إلى ثورة نعيمة على هذه الفلسفة الرجعية المتعفنة التى لا يجنى صاحبها من ورائها شيئا إلا حسرة القلب واتهام الناس وفقدان الحياة .

-٧-

وفى قصتيه " ذنب الحمار ، والبنكار وليا " يجسد مشكلة اجتماعية تتكرر فى حياة الكثيرين من أفراد الطبقات الدنيا أو الوسطى وهى الرغبة الملحة فى الارتفاع إلى طبقة أصحاب النفوذ أو المال ، والنفور من حياة العمال الكادحين بأى وسيلة مهما كانت !!!

والنتيجة أن الإنسان الذى يحاول تغيير جلده والانسلاخ من طبقته بأسلوب غير شريف أو بعيد عن الواقع تكون عاقبته الفشل .

وبطلا القصتين . امرأة أبو شاهين " وزوجة بركات " الحمار " وكلتاهما تطمحان إلى حياة السادة الأجلاء وتنفران من حياة العرق والكبد فزوجة بركات لاترضى أن يظل زوجها حمارا بعد ماكسب ورقة اليانصيب وتصر على بيع الحمار وزوجة ابن شاهين تعنفه وتفرح لأنه باع العنزات وارتاح من الشعر والبعر وفى سخرية واقعية يصف نعيمة نهاية الزوجتين :

زوجة بركات تموت فى حادثة ويموت الأشقر إثر صدمة من سيارة صاحبه القديم وتتحطم السيارة ويصاب بركات . وبعد أيام يوجد على قبر زوجته ذنب الأشقر .

وقالوا : إن الذى قطع ذنب الأشقر - ووضعه على الضريح لم يكن غير بركات وزوجة "

---

(١) أنظر القصة فى كتابه " أبو بطة ٤٥ - ٥٤ .

(٢) أنظر نصوص هذه الفلسفة ص ٤٦ من المصدر السابق .

أبو شاهين التى أصرت على أن ترسل ابنها إلى البلاد الأجنبية ليتعلم مثل أولاد الأغنياء واضطر أبوه إلى بيع كل مايملك من عنزات .

لم يعوضها ذلك الإبن شيئاً بل اضطر أن يقرر العودة إلى بلده مفقود الرجاء وأرسل إلى أبيه طالبا تكاليف العودة ولكن من أين ؟

وفى لحظة من اليأس والثورة يغطى الأب شهادة ابنه " البكارولوليا " بالبعر ويرسل له رسالة مرفقا بها شعرتين من شعر المعزى وبعرتين .

وكتب إلى ولده قائلا : ياولدى شاهين : هذا كل ماأبقيته وأبقته لى البكارولوليا من المال أرسله إليك لتستعين به على العودة إلى ديارك والا فابق حيث أنت والسلام " .

وهذه النتيجة لاتعطى حلا اجتماعيا سليما ، فالطموح والرغبة فى الارتقاء غير محجور عليها بل هى غريزة فى الإنسان فالرقى مطمعه دائما .

وكان من الممكن أن يجعل لبركات تأثيرا فى زوجته فيحملها على استغلال المال بصورة تحفظ عليه ماله وتسعد حياته فالمشكلة لاتكمن فى كونه حمارا ويعيش حمارا ويموت حمارا . ولكن التغيير هو الحل الاجتماعى المطلوب إذا توفرت الوسائل الصحيحة لذلك .

وتغطية البكارولوليا بالبعر فيه إهانة لدور العلم فى التقدم الاجتماعى وفشل الابن لايعطى مبررا لصحة موقف أبيه وبعد موقف زوجته عن الصواب فهى وإن أخطأت الوسيلة فلم تخطىء الهدف .

وكان من الممكن أن يعطى نعيمة للابن دورا إيجابيا فيقوم بالعمل فى أى جهة ويكسب تكاليف اقامته بدلا من الصورة المشوهة التى رسمها له .

والاتجاه الاجتماعى فى كتابات نعيمة ينافس نزعته الفلسفية : وتكشف عن أصالته فى هذا الاتجاه ، وبراعته فى رسم ملامح شخصياته بدقة محكمة ، وخبرته العميقة بالمجالات الاجتماعية المختلفة .

فكتابه " أكابر " يحتوى على ١٣ ثلاث عشرة قصة : منها ٩ تسع قصص اجتماعية

وأربع قصص ذات نزعة تأملية فلسفية [١] .

وكتابة " أبو بطة " يحتوى على (١٩) تسع عشرة قصة ومسرحية من فصل واحد [٢] والقصص منها ١١ إحدى عشرة قصة ذات نزعة اجتماعية والباقى ذات نزعة تأملية فلسفية والمسرحية اجتماعية أيضا وهى بعنوان : الورقة الأخيرة .

ومسرحيته " الآباء والبنون " يضمها كتاب مستقل وهى ذات هدف اجتماعى نبيل . وكتابه " هوامش " مجموعة من القصص والمقالات والخواطر أغلبها ينحو المنحى الفلسفى والقصص الاجتماعية فيها قليلة " [٣]

وفى قصته عمود البيت [٤] صورة متكررة فى الريف ، فالعاطفة بين الرجل وزوجته حارة متوهجة ، ويظهر ذلك فى الحوار الذى يدور بينهما ، وحرص كل منهما على راحة صاحبه ، والعمل قسمة بين الرجل والمرأة ، والحياة بسيطة المظهر ، فالطفلة تنام على كيس من الخيش فرشته لها أمها على التراب تحت شجرة غير بعيدة . أما غطاؤها فكان عباءة والدها .

والتسليم بالقضاء والقدر فطرة الفلاح ومنهجه فى الحياة . فهو يبذر البذور ويقول " يد الله قبل يدى " وفى ذلك تحليل لنفسية الفلاح وخبرة بأدق خصائصها والمرض المفاجىء اختبار للعاطفة القوية التى تربط الزوجين ، وإظهار المعاناة التى يعانيها هذا القطاع من الشعب ، ويقع فريسة الثالوث القاتل الفقر والجهل والمرض .

فالدواء ضمة من الأعشاب ، والطبيب يأتى صدفة ، ولولاه لانهار عمود البيت ونعيمة يؤمن بدور المرأة فى المجتمع وفى الأسرة فهى عمود البيت وهى التى تحث زوجها على العمل وهى مصدر الخير الذى يأتيه .

---

(١) انظر فى كتابه " أكابر القصص التالية : (أكابر – مصير ستوت – أم وليست بأم – عدو النساء – موعدان ، على الله – هدية – علبة كبريت – ذنب الحمار) .

(٢) أنظر فى كتابه : " أبو بطة " القصص التالية : (أبو بطة – دجاجة أم يعقوب – اليوبيل الألماسى : شهيدة الشهد – البكاروليا – السرنوك – ثائران . صديقى عبد الغفار . هدية الحيزبون – ميلاد جديد .

(٣) أنظر فى كتابه (هوامش) القصص التالية : النفنوغة – أستاذ – صبر أيوب – زاوية دافئة – حمام – الجورب الجانى – عمود البيت – بائع المكانس .

(٤) أنظر القصة فى المصدر السابق ص ١٤٤ – ١٤٩ .

-٣-

- واتجه أدباء المهجر إلى الفئات الاجتماعية الكادحة وعبروا عنها ووصفوها . ووقفوا على مشاكلها ... وتعاطفوا معها .

فالفلاح يصفه " شفيق معلوف فى تقدير وإعجاب بتضحياته وتصوير لكفاحه المستميت ويقول :

وفـــى الحيـــــاة ديُـــونَهـــــا   كرمـــا ومـــا وفيـــت ديـــــــونـــه
ومضـــى تشـــق الأرض قبضـــتــه   بـــعـــــــزم لا يخـــــونـــه
عــــرق الجهــــــاد همـــى علـــى   عينيـــه فانطبقـــت جفـــــونـــه
هـــــلا نظـــرت جبينـــــه   كـــم فيـــه لـــؤلـــؤة تـــزينـــه
ضَنــــّت عليـــــه بالـــدمــــوع   عيــــونه فبكـــى جبينـــــه (١)

وقد اهتزت الصورة عند الشاعر هنا . فليس من المناسب أن يصف العرق باللؤلؤ ، ثم بعد ذلك يصوره دموعا .. ويجعل الجبين يبكى - وقبل ذلك يصف الفلاح بأن لديه عزما لايخونه وقبضته تشق الأرض .. أليس هذا اضطرابا فى الصورة التى أراد الشاعر رسمها للفلاح ؟

- ويصف الراعى ويصور خبرته وقلقه وحبه لأغنامه .. فيقول :

مشـــى وفـــى كفـــه هـــــراوتـــه   وهـــــووراء القطيـــــع مكـــتئـب
ونايـــــه مــــن خـــــلال جعبتــــه   يمـــد عنقـــا كمـــن لـــــه أرب
مشــــرد الفكـــر لايثـــوب إذا   ينبـــح كلـــب أو نعجـــة تثـب
وطـــالمـــا فـــى المـــروج نعجتـــه   طـــاب علـــى كفـه لها العـشب (٢)

- ويخاطب " ساعى البريد " فى لغة رقيقة لامسا جرحه وما هو فيه من مأساة وهذه لفتة إنسانية من الشاعر تدل على وعيه الاجتماعى وتطلعه إلى إسعاد الناس . يقول :

---

(١) شفيق معلوف . لكل زهرة عبير ص ١٢ .
(٢) السابق ص ٢٠ - ٢١ .

ياساعيا بابتسامات توزعها   على الشفاه بلا من وترديد

ياواهبا كل بشرى حين جدت بها   راحت تكذب عنك الفقر بالجود

أبعد بذلك فينا مابذلت ترى   عينيك فى مأتم والناس فى عيد

لو تعلم الناس يوما أنها سلخت   أيامها البيض من ليلاتك السود (١)

وفى تصوير بارع تتآزر فيه الحركة والشاعر والصور ينقل إلينا مشهد البستانى وهو يجدد الحياة فيقول :

بصرت به ينُقل راحتيه   على الأغراس من عود لعود

فينزع سلخة من كل غصن   ويدفنها لتولد من جديد

يداه على التراب ومقلتاه   معلقتان بالأفق البعيد (٢)

وعن البناء يتحدث الشاعر زكى قنصل فيقول (٣) :

يبنى القصور وكوخه خرب   ساءت حياة كلها تعب

مشت السنون عليه فاختلطت   أصباغه وتقارب السبب

بالروح فى " تموز " وقفته   يكويه من أنفاسه لهب

بالروح فى " كانون " نظرته   يصطك من قر ويضطرب

ويخاطبه الشاعر ويعزيه بروح فاترة بعيدة عن الإحساس الثائر فيقول :

ياغائصا بالطين لانصب   يوهى عزيمته ولا وصب

ماأنت أول كادح عثرت   آماله وكبا به الدأب (٤)

ومنضد الحروف " يصفه زكى قنصل فى قصيدة طويلة تبلغ ثلاثين بيتا .. وأعيب على الشاعر أنه لايقدر قيمة العمل بمقدار مايرثى لهذا العامل الذى لايأخذ حقه فالعمل بطولة .. ولابد للعامل من مكافأة فعلية وهى أن يخوض الحياة بصلابة وقوة لكن : زكى قنصل يستمر في مشاعره الحزينة فيخاطب " منضد الحروف :

---

(١) السابق ص ٣٩ .

(٢) السابق ص ٦٩ .

(٣) د / خفاجى قصة الأدب المهجرى جـ ٢ ص ٤٢٢ .

(٤) د / خفاجى قصة الأدب المهجرى جـ ٢ ص ٤٢٣ .

ياسافحـــا بـــين المطـــابع قلبـــه ومجـــازفا خلـــف الـــرؤى بشبـــابه
أجنـــيت مـــن دنيـــاك إلا علقمـــا ومـــن الرجـــاء الحلـــو غير سرابـــه (١)

وتختلف نظرة : " زكى قنصل " إلى العامل عندما يصور ماسح الأحذية - فيصوره بشوشا غير حافل بمضايقات الحياة - فؤاده مفعم بالرجاء ، يكافح فى ثبات وعزم وهذا تصوير واع لهذه الفئة التى تخوض غمار الحياة فى طلاقة وعزم وقناعة : يقول (٢) :

فـــى وجنتيـــه طلاقـــة وتـــورّدُ وعـــلى أصابعـــه خضـــاب أســـود
ضـــاقت بـــه الدنيـــا فلم يحفل بها شتـــان عبـــد فـــى الحياة وسيـــد
مـــا هـــاضت البلـــوى جنـــاح رجائه أو شـــل همتـــه الكفـــاح المجهـــد

ويقول عن " بائع الصحف " (٣) وهو يقوم بدور خطير فى المجتمع :

هـــو همـــزة بـــين القلـــوب وسلم تتنقـــل الأخبـــار فـــى درجـــاته
مـــاتت حـــزازات السيـــاسة عنـــده وتعـــانق الأضـــداد فـــى واحـــاته

ويتعمق الاتجاه الاجتماعى عند رياض المعلوف ، ويكاد يتفرد من بين أدباء المهجر بهذا الاتجاه الذى يصور واقع المجتمع وعاداته وتقاليده تصويرا فنيا واعيا متعاطفا مع تقاليد الريف القديمة ، وطبيعته الفطرية الناطقة بالأسرار وإن كان لا يخلو من الحس الثورى الطامح إلى التغيير .

وقد درست ديوانيه . زورق الغياب ، وغمائم الخريف " وأحصيت عدد القصائد فيها .

فوجدت أن ديوان زورق الغياب يضم (٥٤) أربعا وخمسين قصيدة والقصائد الاجتماعية تبلغ (٢٠) عشرين قصيدة .

وذلك لأننى عددت ملحمة " ليليت " ٩ تسع قصائد لأنها تتكون من تسعة أناشيد فجعلت كل نشيد قصيدة مستقلة .

إذن نسبـة القصـــائد الاجتماعية تبلغ ٣٧ ٪ من مجموع قصائد الديوان والقصائد

---

(١) السابق ص ٤٢٤ .
(٢) د / نظمى عبد البديع أدب المهجريين أصالة الشرق وفكر الغرب ص ٢٠٤ .
(٣) المصدر السابق .

هى : (١)

– الفلاح – النعيم الأسود – إلى نمام – إلى أمى – دروب اللحون – الديك – رقصة العصفور – إلى ابنتى نجوى – إلى صغيرتى نجوى وحياة – الخوابى – ذكرى أمين الريحانى – ليليت ... وروح التأمل تسرى فى هذه الأعمال . لكنها ليست مكثفة كما هى فى القصائد ذات النزعة الفلسفية . وديوانه " غمائم الخريف " يضم ٨٣ ثلاثا وثمانين قصيدة

والقصائد الاجتماعية تبلغ ٣١ احدى وثلاثين قصيدة

إذن نسبة القصائد الاجتماعية تبلغ ٣٧٪ من مجموع قصائد الديوان

والقصائد هى : (٢)

ليل الكروم – نهاية حب – رقصة العصفور – دروب اللحون – فروع المجد – خداع الدهر ، إلى بنيتى ، جنون رقصة الجرك – ذكريات وذكريات – أمام تمثال والدى – إلى عازفة . الجيل الثقيل – إلى نمام – إلى صغيرتى أمل وإلهام – صداقة الكتاب – الكمنجة الناطقة – لبنان – الفلاح – إلى صغيرتى نجوى وحياة – ياساعتى – الموسيقى الأعمى – المغترب – ليالى المرافع – المصدور – إلى راقصة – إلى راقصة شرقية .

وواضح من عناوين القصائد أنها تعالج واقع المجتمع الخاص والعام . مجتمع الشاعر المتمثل فى أسرته فهو يتحدث عن صغيراته الأربع نجوى وحياة وأمل والهام .

وهو يتحدث عن والده فى قصيدتين . ويتحدث عن أمه فى قصيدتين : وكأن الشاعر أعطانا ميزانا لعاطفته تجاه أبويه وهى متساوية .

ولاينحصر الشاعر فى دائرة أسرته بل يلمس نبض المجتمع المجروح فى صورة الفلاح . ويكرر القصيدة نفسها فى الديوانين ليعطينا مدى اعتزازه بهذه الشريحة الاجتماعية التى تبذل دمها وتروى به مستقبل الإنسان . ويخاطب الفلاح

---

(١) أنظر الصفحات التالية على التوالى : ١٢ – ٣١ – ٤٢ – ٥٨ – ٦٤ – ٧١ – ٧٣ – ٧٩ – ٨٠ – ٨٧ – ٩٣ – ٩٧ إلى ١٢٠ .

(٢) أنظر الصفحات التالية على التوالى من ديوانه غمائم الخريف : ١٣ –١٧ – ١٥ – ١٥ – ١٩ – ٢٣ – ٢٨ – ٣١ – ٣٤ – ٣٨ – ٤٢ – ٥٠ – ٥١ – ٥٣ – ٥٩ – ٦٧ – ٦٩ – ٦٩ – ٧١ – ٧٥ – ٧٧ – ٨٢ – ٨٦ – ٨٧ – ٨٨ – ٩٢ – ٩٩ – ١٠٥ – ١١٢ – ١٥٨ – ١٥٩ .

شـــق يافـــلاح صـــدر الأرض شقـا ... تنعـــم النـــاس بمـــا تجنـــى وتشقـــى
احـــرث التـــربة وازرع واجتهـــد ... يدفـــق الخيـــر علـــى كفيك دَفْقـا (١)

ولاينسى الشاعر دوره فى مجتمعه الذى يكشف القناع عن سلبيات السلوك الاجتماعى فيوجه اللوم إلى النمام الذى يفسد العلاقات الاجتماعية والقصيدة تتكرر فى ديوانه " زورق الغياب " وغمائم الخريف " وظاهرة تكرار القصائد لاتعيب الشاعر بمقدار ماتـــدل على إلحاحه على الفكرة التى يريدها رفضا كما هو الحال مع " النمام " أو قبولا كما هو الحال مـــع " الفلاح ".

ويقول فى قصيدة " إلى نمام " (٢)

هدمتـــك أيهـــا النمـــام هـــدما ... وأســـف فـــى شفـاهى أن تذمـــا
أرى فيـــك الإخـــاء غـــدا عـــداء ... ومعســـول الـــذى ترويـــه سمـــا
تراوغنـــى وتلثـــم لـــى جبينـــى ... كيـــا هـــوذا إلـــى ابن الله أومـــا

ويتعاطف الشاعر مع دور المرأة فى المجتمع ومشاركتها فى مسيرة الوطن . وتربية النشىء فيخاطبها فى جذالة ومودة حانية .

سيـــرى إلـــى الإصـــلاح والعليـــاء ... أخـــت الرجـــال وفتنـــة الشعـــراء
سيـــرى أمـــام الجمـــع حـولك كلنـا ... فـــى وحـــدة وطنيـــة ... غـــراء
للـــذود عـــن وطـــن عـــزيـز خالـد ... فـــى الســـاعة النكـــراء والســـوداء
يامـــنْ عطفـــت علـــى الفقير وبؤسه ... وغـــمـــرته باكـفـــك السمحـــاء
ومســـحت جـــرحا داميـــا فشفيتـــه ... بيـــد كبـــرعم وردة قمـــراء !
فكأنهـــا كـــف المسيـــح أدارهـــا ... فشفـــت جـراح النـــاس دون دواء (٣)

ولايغيب عنه ما فى المجتمع اللبنانى من حياة لاهية وسهرات صاخبة فيصور هذا الواقع تصويرا ذكيا يخلو من نزعة الرفض أو التقويم لهذه العادات التى ألفها الناس هناك فيتحدث

---

(١) أنظر ديوان زورق الغياب ص ١٢ وديوان غمائم الخريف ص ٨٦ .
(٢) أنظر ديوان زورق الغياب ص ٤٢ وديوان غمائم الخريف ص ٦٩ .
(٣) أرسل الشاعر إلى هذه القصيدة مشكورا .

عن ليل الكروم وعن " النعيم الأسود ، والخوابى ودروب اللحون ، ويصف عازف القصب ، وجنون رقصة الجرك ، وليالى المرافع ، والموسيقى الأعمى .

ويصف الراقصة ، والراقصة الشرقية "ومن قصيدته : إلى راقصة شرقية (١) يقول :

ميــــدى مـــع الألحـــان ميـــدى	بقـــوامك اللــــدن الفـــــريـــد
ســـاق أخـــف مـــن الجنـــاح	إذا تـــأهب للصعـــــود
ســـاق تروضهـــا اللحـــون	برغـــم منشئهـــا العنيـــد

ومن قصيدته " الموسيقى الأعمى (٢) يقول :

وأعمـــى فـــى تفننـــه بصيـــر	يلحـــن مثلمـــا توحـــى السمـــاء
شبيـــه الطيـــر تفقـــأ مقلتـــاه	ليقضـــى العمـــر يشغلـــه الغنـــاء
ولايـــدرى بمـــا فـــى الأفق يجرى	أطـــل الصبـــح أم هبـــط المســاء

- وفى كتاب " صور قروية " لمحات من واقع الريف اللبنانى .

والكاتب يحكى هذه الصور فى وصف دقيق واحساس يجسم هذا الواقع ويدافع عنه ولم تبدأ منه نزعة تغيير له إلا فيما يتعلق بكرامة الإنسان ومقاومة السيطرة عليه . وكأن هذه الصور القروية هى النموذج الأمثل الذى يطمح إليه أو الذكريات التى مرت وهو متعلق بها ويخاف أن تفلت من ذاكرته أو ينسيه الزمن ملامحها . ويشفع لكاتبها أنها صور فقط وليست وجهة نظر يبثها من خلال عمل قصصى أو مسرحى أو روائى أو شعرى .

وإنما هى خواطر فقط استوحاها من ريف لبنان . وهى تعطينا تفصيلا دقيقا وأمينا عن عادات الريفيين اللبنانيين ، وتقاليدهم فى فصول السنة الأربعة وأعمالهم اليومية ... ولم يكتب هذه الصور إلا بعد استغراق تام فى أجواء الريف اللبنانى وهو الريفى . ابن " زحلة " المؤمن بجمال "الريف ، والغارق إلى أذنيه فى فتنته الآسرة التى شدته إلى تأملها والتعبير عنها .

والكاتب مؤمن بقيمة العمل . وأبو سليمان " الفلاح " تشخيص حى لهذه القيمة فهو فى أول النهار " مهيب الطلعة . بهيها ، يمضى إلى حقله والمهمزة بيديه وقامته ممشوقه كالرمح . شارباه معقوفان أشقران ، وعيناه زرقاوان صافيتان صفاء سماء بلادنا .

---

(١) رياض المعلوف : غمائم الخريف ص ١٥٩ .
(٢) رياض المعلوف : غمائم الخريف ص ٩٢ .

وفى آخر النهار يعود أبو سليمان متعبا فيقول عنه :

" جلس فلاحنا المتعب حول خوان بيته القديم ليأكل لقمة العافية من عندياته ومؤنه . كالباذنجان المحفوظ بالزيت والزيتون الأسود البلدى الفكه ، فما ألذ وأشهى هذه اللقمة بعد كدح النهار ولو عجنت بعرق الجبين وغمست بدم القلب (١) .

– ويميل الكاتب فى نثره إلى الأسلوب الساخر الذى يغرى القارىء ويرسم البسمة على شفتيه فهو يتحدث عن أبى سليمان فيقول :

« يكلم عجليه فيهزان آذانهما كأنهما يفهمان »

وتأكيدا لإيمانه بقيمة العمل . يتحدث عن " حانوت الضيعة " ويثور على واقع ذلك الحانوت لأنه مأوى العاطلين والعجزة الذين يسكرون ويعربدون وفى ذلك إيمان بقيمة العمل وحث عليه . والعمل هو حجر الأساس فى المجتمع الشامخ .

ويتحدث الكاتب عن عادات الناس وتقاليدهم وعن الأسواق وعادات البيع والشراء . فهناك بائعة التفاح ، ونهار الأحد فى الريف ، والقروى الذى يحمل على دابته كل مايريد من السوق وإلى السوق . ويصف المسابقات ومنها مسابقة الجرس ، وهذه المسابقات موضع حكايات العجائز اللاتى يغزلن الجوارب .

– ومن الظواهر الريفية : الخبازة وإشاعاتها المغرضة .

ويصف الكاتب الطبيعة اللبنانية وصفافيه مزج لحياة الناس بهذه الطبيعة ورصد لحركاتهم والتحامهم بهذه الطبيعة فهو لا يعطيها صفة التجريد ولا يجعل منها سيدا لإنسان أو معلمه وإنما يجعلها جزءا لاينفصل عنه وهذه نظرة جديدة للطبيعة وهو ولع بتتابع الفصول ... لأنها تؤثر فى سلوك الناس وتشكل أحاسيسهم .

فالصيف يتحدث عنه وعن فواكهه وعادات الناس فيه . ويصف بيوت الجبل وسحر الطبيعة هناك وسعادة الناس بذلك ويتحدث عن نوافير الماء ودروب القرية ، وأسرار تلك الدروب . وللخريف سحره فى لبنان كما للغيم بهجته . كأنما الطبيعة فى هذا البلد خلقت خلقا جديدا واتخذت معانى جديدة كما صور الكاتب وناجى الغيوم بقوله : « تعالى أيتها الغيوم إلينا

(١) رياض المعلوف صور قروية ص ١١ – ١٣ .

وامطرينا برذاذك الخلاب ، وقطراتك العذبة المتلألئة على أوراق الغصون ، كاللآلىء اللماعة البراقة ، الباهرة العيون . تعالى ومتعى أنظارنا بجمالك وسحرك . تعالى فنحن فى عطش شديد إلى منهلك المنعش (١) .

وظواهر الطبيعة هناك مسخرة لخدمة الإنسان ومواساته . فالنهر له حديث ذو شجون ، والنسيم عليل يشفى السقام . وأحجار الجبل مادة خصبة لكل فنان . وهذه نظرة نفعّية إلى الطبيعة فكما أن روح الإنسان تندمج فى الطبيعة كذلك الطبيعة لاتنفصل عن حياته المادية فهى رصيد مادى وروحى للإنسان .

والطبيعة الحية استرعت إحساس الشاعر والكاتب فوصفها بدقة وشاعرية أضفت عليها حياة جديدة وأثوابا مبتكرة بعد تأمل طويل فى أحوالها وهو يعايشها فى قريته فالطاووس كالشاعر الملهم الذى يبعثر شعره عندما ينظم قصيدة ، والديك : قميصه خمرية مصبغة ومموهة بخيوط من شعاع الفجر والمغيب . والدجاجة ، وديك الحبش ، والهدهد والعصفور الدورى ، والعصفور الشويكى ، والكنارى ، .. إلى آخر هذه الظواهر والكائنات الطبيعية التى يصادقها الكاتب ويبثها مشاعره وآماله . (٢)

وكتاب " ريفيات " يسير على المنهج نفسه فهو يتحدث عن رقصة الدبكة اللبنانية ، وقبضاى الضيعة والطاحون ، والناطور ، والتينة ، ويوم قطاف العنب ، والزيتون والورود ، ويتحدث عن الرغيف والطربوش والسراج ، والمختار ، والقافلة والبط ، والحطاب ، وكلها مظاهر ريفية تكمل لوحة أراد الكاتب رسمها بصدق وحب وسخرية أحيانا وتعرية للواقع الاجتماعى المتخلف فى فترات من الزمن الماضى فهو يصور شخصيات الريف ، ومواسم الحصاد ، والمظاهر الريفية من الملبس والمأكل والمشرب ، والعادات والتقاليد .

والأسلوب الذى عالج به الكاتب الموضوعات السابقة فيه إضافة إلى لغة الأدب المهجرى ، وقد أرسلت للشاعر رسالة أدبية أوضح فيها أهم سمات ذلك الأسلوب وقد نشرتها مجلة الأديب اللبنانية وهذا نصها :

إلى الشاعر رياض المعلوف

---

(١) رياض معلوف : صور قروية ص ٨٢ .
(٢) أنظر " صور قروية " للوقوف على مزيد من التفاصيل .

تحية الشعر والمحبة والسلام

كتبت دراسة عن الاتجاه الاجتماعى فى أدبكم شعرا ونثرا . وهو جزئية من رسالة للدكتوراه ، ووجدت أنكم تمثلون هذا الاتجاه فى الأدب المهجرى أصدق تمثيل وأحصيت القصائد الخاصة بهذا الاتجاه من ديوانيكم - زورق الغياب وغمائم الخريف ومن العجيب الغريب أن النسبة فى الديوان واحدة هى ٣٧ ٪ تقريبا من مجموع النتاج .

وبعد دراسة كتابكم - صور قروية ، وريفيات : والوقوف على اندماجكم فى شخصيات الريف ، ومواسم الحصاد ، والصور الريفية والأشجار ، والعادات الريفية فى الحقول والبيوت وجدت أن أسلوبكم طريف جديد . وأهم سمات ذلك الأسلوب :

البعد عن التعقيد اللفظى وعدم التهويم أو الإغراق فى الخيال ، والميل إلى التشبيهات المبتكرة والمنتزعة من البيئة بإحساس وفن خالص ، وسيطرة روح الفكاهة والسخرية جذبا للقارىء ، والوصف الدقيق للشخصيات .

ورياض المعلوف ينفرد من بين أدباء المهجر بهذه الميزة وهى النزعة الاجتماعية التى تصور واقع المجتمع وعاداته وتقاليده بصدق وإحساس رومانسى - وخاصة عندما يتحدث عن المختار فهو يسخر منه ويصوره ممثلا لعهد مضى " وكم من قتيل مضى شهيد المخترة وخاتمها السحرى !! يقرأ مالا يقرأ دون قراءة .. والرغيف معجون بعرق الجبين ودم الحشاشة واللقمة منه دونها أهوال وأهوال ، ويخاطب الرغيف قائلا :

كن إنسانا أكثر من الإنسان . وتكرم على من حرمهم الدهر لقمتك ، وعلى من اشتاقوا كثيرا إلى طلعتك واطلالتك !!

وإلى اللقاء مع الأدب والفن والصداقة .

البيضاء - ليبيا / صابر عبد الدايم يونس (١)

- وينفر الكاتب من الظلم الاجتماعى ويتحدث فى سخرية وفكاهة عن شخصية المختار ويقول عنه :

" وكم من قتيل مات : شهيد المخترة وخاتمها السحرى "

---

(١) مجلة الأديب اللبنانية ١٩٧٩ م

ويصفه فى تهكم لاذع قائلاً :

« يقرأ مالا يقرأ دون قراءة »

" وإذا ماقرأ أو كتب لاسمح الله " فهناك المصيبة ، لأنه يجب أن تكون منجما لتفهمه " (١)

وتمتد ثورته إلى قبضاى الضيعة " حيث يحارب الاستغلال فى شخصه ويسخر من نزعة السيطرة واستعباد الأحرار الضعفاء . فيصفه وهو فى قمة ظلمه وعنفوانه ليجعل القارىء مشاركا له فى الثورة على مثل هذا الطاغية . ويقول عنه :

الرصاص عنده هواية وغواية ، وصوته فى مسمعه أعذب من صوت الكمنجة والناى ، كلما حضر عنترنا عُرسًا حولّه إلى مأتم برصاص مسدسه الذى يصيب قضاء وقدرا أحد الأبرياء فيرديه قتيلا " (٢) .

ويتجلى الحس الاجتماعى لدى الشاعر فى عيد الحصاد . فهو يتعاطف مع الفقراء ويبتهج بمقدم الحصاد لأن الفقير سيجد مايكفيه مذلة الحاجة " وهذه الحبوب العسجدية هى سبائك . بل دراهم اختزنت فى جيوب السنابل ، وتساقطت فى يد الفلاحين الفقراء وجيوبهم لتغنيهم عن الناس (٣) .

ويتضح إحساسه الإنسانى بالعدل الاجتماعى حينما يخاطب الرغيف قائلا « كن إنسانا أكثر من الإنسان ، وتكرم على من حرمهم الدهر لقمتك وعلى من اشتاقوا كثيرا إلى طلعتك وإطلالتك » (٤) .

والرغيف يرمز إلى شقاء الإنسان فى حياته وحتمية ذلك الشقاء فالرغيف معجون بعرق الجبين ودم الحشاشة واللقمة منه دونها أهوال وأهوال .

(جـ) النزعة التأملية روح سارية فى اتجاهات الأدب المهجرى المختلفة

أوضحت سابقا أن الاتجاه القومى كان له دور فى إثراء الحركة الأدبية فى المهجر وكذلك

---
(١) رياض معلوف : ريفيات ص ٢١ .
(٢) السابق ص ٤٨ .
(٣) السابق ص ٧٢ .
(٤) السابق ص ٣٩ .

الاتجاه الاجتماعى .

وإذا حاولنا أن نعقد موازنة بين الاتجاهين السابقين وبين النزعة التأملية للوصول إلى نتيجة علمية توضح دور التأمل وأهميته فى الأدب المهجرى ستتضح أمامنا الحقائق الآتية :

أولاً : الاتجاهان : القومى والاجتماعى لم يأخذا صفة العموم بل انحصرا فى دائرة شعراء معينين .

فالاتجاه القومى اشتهر به أبو الفضل الوليد والقروى وجورج صيدح والاتجاه الاجتماعى برز فى نتاج رياض المعلوف النثرى كما أوضحت سابقا وكذلك فى أدب " نعيمة " القصصى والمسرحى ، وفى شعر زكى قنصل أيضا أما النزعة التأملية فتكاد تكون قاسماً مشتركا بين شعراء المهجر كل حسب موهبته الفنية واتساع آفاق تفكيره .

ثانياً : النزعة التأملية تطبيق للمنهج النقدى الذى اختطه نعيمة فى كتابه الغربال وجعله منارا للشعراء المهاجرين وغيرهم .

والشعراء الذين تعرض " ميخائيل نعيمة " لنقد بعض أعمالهم هم : نسيب عريضة ، وأحمد شوقى ، والشاعر القروى ، وأمين الريحانى ، والشريقى ومن مراجعة ذلك النقد فى عمومه فإنه يمكن القول بأن أهم القضايا التى أثارها تتركز فيما يأتى : -

١ - دلالة الشعر على شخصية قائله .

٢ - الصدق الفنى ضرورة من ضرورات الإبداع الجيد .

٣ - الصورة الشعرية وقيمتها التعبيرية .

٤ - البناء العضوى للقصيدة وأثر ذلك فى تماسك بنائها "(١)

ولم يكن منهج نعيمة منهجا علميا فى نقده وإنما كان يستخلص النتائج من خلال دراسته للعمل المنقود ، وقد تكون هذه الطريقة أجدى من غيرها إذا بعدت عن التعميمات والتهويمات والاستطرادات مثلما فعل نعيمة فى معظم آرائه وكان الطابع الإنسانى هو المسيطر عليه فهو يعد الوجود الإنسانى المشترك هو مصدر الإلهام الحقيقى لكل عمل فنى جيد .

والاتجاه الفلسفى غلب على نتاجه ... وكان له أثر فى آرائه النقدية وعاب على القروى

---

(١) د / عبد الحكيم بليغ - حركة التجديد الشعرى فى المهجر ص ١٥٩ .

أكثر أبياته الوطنية التى تارة يؤنب فيها شعبه لأنه كان مستعبدا ولايزال مستعبداً ، وطورا يبكى عز بلاده وحرية بلاده وعزم بلاده التى قضى عليها الأجنبى .

وقال (١) " العالم العربى سيهمل الكثير من قصائد القرويات لكنه لن يهمل خطاب الشاعر للبقر فى قصيدته " بين البقر والبشر "

تشكـــين فصــل الشتاء البـارد القاســـى
مـــاذا أقـــول أنا فـــى عشـــرة النـــاس
نامـــى علـــى الثلج نامى ليس مـــن بـــاس
فالثلـــج غيـــر فـــؤاد دون إحســـاس
وإن تكـــن هاطـــلات الغيـــث تغشـــاك
طـــوباك فالقطـــر غير الدمـع طوبـــاك

ثالثاً : إذا تصفحنا نتاج المهجريين شعرا ونثرا نجد أن النزعة التأملية روح سارية فى كل موضوعات أدبهم واتجاهاته المختلفة لاتكاد تغيب عن مشاعرهم وهى تتجه إلى المثيرات التى توحى لهم بما يكتبون من شعر ونثر ففى ديوان القروى كما أوضحت سابقا يبرز الاتجاه القومى فى وضوح ونصوع وبرغم هذا نجد روح الشاعر التأملية لاتغيب بل تشده كثيرا ليعمق نظرته فى كل اتجاه يبدع فيه .. فهو حتى فى مجانه يستمد من الطبيعة أدواته الفنية ويقيم دعوى الإنكار على ذلك الوجه الكالح ويقول (٢)

للـــروض فـــى وجــــه الغديـــر ملامـــح   والبــــان فى كـــف النسيـــم مـــراوح
وروائـــــح الـــــورد النـــدىّ فوائـــح   وعلـــى الجمـــاد من الحيـــاة لـــوائح
والشمـــس مشـــــرقة ووجهـــك كالـــح

وهو لايخْدَع بالجمال الشكلى بل ينفذ إلى جوهر الأشياء فيقول عن الجمال الباطن (٣) :

أهيـــم بحســـن فـــى وجـــوه خفيـــة   تحجبهـــا الأجســـاد مـثـل البـراقــع
ولـــو أننـــى أبغـــى من الحسن ظاهـــرا   لفتـــشت عنـــه فـــى زوايا الشـــوارع

ويخاطب البحر فى أسى بالغ وهو ينوء بالهموم الثقال (٤)

يـــابحـــركم حطمـــت مـــن صخـــر   ولكـــم أذيـــت ، علـــى مدى الـدهـــر
ترغـــى علـــى شطيـــك مضطـــربا   متـــوعـــدا متبـــددا غضبـــــا
مهـــلا فـــذلك ليـــس بالأمـــر
لـــو كـــان موجـــك يصنـــع العجبا   لأزاح هـــذا الصخـــر عن صـــدرى

---

(١) ميخائيل نعيمة : الغربال ص ١٦١ .
(٢) رشيد سليم الخورى ديوان القروى جـ١ ص ٢٢٥ .
(٣) م . ن ص ٢٤٩ .
(٤) م . ن ص ٣٦٧ .

والاتجاه الاجتماعى عند رياض المعلوف فى ديوانيه : زورق الغياب ، وغمائم الخريف كما أوضحت سابقا تبلغ نسبته ٣٧ ٪ من مجموع نتاجه .. ونظرته إلى مشاكل مجتمعه فيها تأمل للواقع الذى يجرى حوله ، وفيها سخرية من الذين يتحكمون فى قوت الضعفاء ، وفيها أحيانا دعوة إلى الثورة على هؤلاء المستغلين .

– والنزعة التأملية عند أبى ماضى ونعيمة وجبران ونسيب عريضة ، وفوزى المعلوف هى لب أدبهم وفكرهم .

فديوان " همس الجفون " يتضمن ثلاثين قصيدة منظومة بالعربية ، وأربع عشرة قصيدة مترجمة من الإنجليزية إلى العربية ، هو الذى كتبها بالإنجليزية وكلها ذات نزعة تأملية فلسفية فيها إشباع للعقل وإمتاع للعاطفة .

وقد يبدو نتاج نعيمة قليلا ، ولكن هذه القلة لاتعود إلى جدب الحقل الشعرى عنده ولكن إلى (١) عدم الرضا عن الخوض بالشعر فى كل موضوع وإلى عدم الإصغاء إلى صوت الانفعال إلا إذا كان عميقا وقد قصر شاعريته أو اقتصرت هى به على حديث النفس والتأمل .

– وحين نتصفح قصائد الديوان ونتأملها نراها عميقة المعانى تتمتع برؤية إنسانية شاملة ونزعة فلسفية تجول فى مشاهد الطبيعة وتتأمل عالم الإنسان الخارجى والباطنى فنراه يتحدث عن " النفس الإنسانية " فى قصيدته " من أنت يانفسى " (٢) ويتساءل عن حقيقتها وفى النهاية يخاطبها " أنت فيض من إله .

ويتحدث فى قصيدته من " (٣) سفر الزمانً و يعبر عن فلسفته فى " وحدة الوجود " وقصيدته " ابتهالات " تعبر عن معتقده فى " الله " وهو أنه موجود فى كل الوجود " .

وقصيدته " يارفيقى " (٤) توضح رأيه فى جمال الوجود وإنه من جمال الله ؛ والكفُر أن نرى فيه شيئا قبيحا وفيها إشارة إلى عقيدته فى تناسخ الأرواح يقول مخاطبا رفيقه :

قـــل أطعنـــا فـــى كـــل ماقـد فعلنا   صـــوت داع إلـــى الوجـــود دعانـــا
فبنينـــا مـــن الحيـــاة ولـــكن   قـــد أعـــدنا إلـــى الحيـاة جنـــانا
وأكلنـــا منهـــا ولكـــن أكلنـــا   وشربنـــا لحومنـــا ودمانـــا

وقمة التأمل فى نتاج أبى ماضى نجدها فى ديوانيه " الجداول " والخمائل ففى فاتحة ديوان الجداول يتضح أن التأمل هو ذروة الفن الشعرى حيثما يقول (٥) :

---

(١) د إحسان عباس ، محمد يوسف نجم الشعر العربى فى المهجر ص .
(٢) م . نعيمه : همس الجفون ص ١٦ .
(٣) م . ن ص ٢٦ .
(٤) م . ن ص ٧٩ .
(٥) إيليا أبو ماضى – الجداول ص ٥٧ .

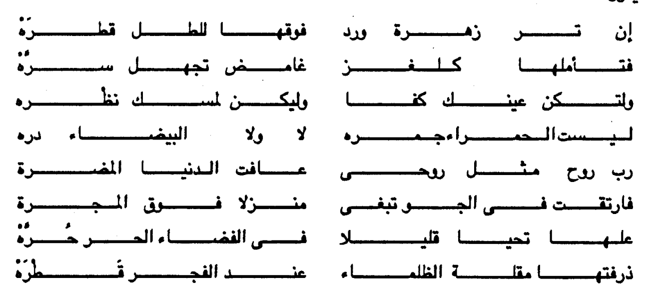
هذه أصداء روحي ... فلتكن روحك أذنا
إن تجد حسنا فخذه ... واطرح ماليس حزنا
إن بعض القول فن ... فاجعل الإصغاء فنا
تكُ كالحقل يرد ... الكيل للزارع طنًّا

رب غيم صار لما ... لمسته الريح مزنا
مالصوِت أغلقت من ... دونه الأسماع مَعَنْى
لست منى إن حسبْت ... الشعر ألفاظا ووزنا
خالفت دربك دربي ... وانقضى ماكان منّا

والديوان يحفل بمعان سامية محلقة فى عالم يرسمه الشاعر قريب من المثالية ، وأحيانا يفلسف الحياة ويضفى عليها طابع التفاؤل ، ونراه فى مواقف كثيرة حائراً متشككا ويصور السماء فيراها أنها تختلف من إنسان لآخر فهى كالأمانى كل إنسان يتصورها بدافع من ظروفة وبيئته .

والطبيعة عنده ترجمان الأسرار ومكمن الأشواق ..

ويعبر الشاعر عن فلسفته فى " التقمص والتناسخ فى قصيدته " قطرة الطل ، والناسكة يقول :



إن تر زهرة ورد ... فوقها للطل قطرَةْ
فتأملها كلغز ... غامض تجهل سرَّهْ
ولتكن عينك كفا ... وليكن لمسك نظْره
ليست الحمراء جمره ... لا ولا البيضاء دره
رب روح مثل روحي ... عافت الدنيا المضره
فارتقت في الجو تبغي ... منزلا فوق المجره
علها تحيا قليلا ... في الفضاء الحر حُرَّهْ
ذرفتها مقلة الظلماء ... عند الفجر قَطْرَةْ

ففى هذه القصيدة تتمثل الوحدة الفنية التى تتسم بها التجربة الشعرية التأملية

فالقصيدة صورة شعرية تتآزر فيها الألفاظ والعبارات والصور الجزئية لتعطينا بناء عضويا متماسكا .. يعبر عن نظرة عميقة للأشياء حتى ولو كانت ضئيلة وذلك أهم مايميز التجربة التأملية عن غيرها .

فالشاعر يطلب ممن يرى قطرة الطل فوق الوردة أن لايغفل عنها ، بل يتأملها ويبتعد عن النظرة السطحية ... فالعين تلمس واليد تنظر وهذا مايسمى بمبدأ تراسل الحواس .. وهو مذهب الرمزيين فى أدائهم التعبيرى .

وينتقل الشاعر إلى تفسير ذلك اللغز فيصور روحه وقد ملت الدنيا ثم ارتقت فى الجو تنشد الحرية فعادت مرة أخرى إلى الأرض قطرة من الطل تسقى الزهور وتجمل وجه الحياة هكذا رأينا الشاعر يبدع فى تجربته ويحيل المنظر العادى إلى شىء غير مألوف ويصوغ منه مثالا لتجسيد رأيه الفلسفى فى الحياة .

وتتكرر هذه الظاهرة كثيرا عند أبى ماضى ونعيمة وجبران . ويقلدهم " نعمة قازان " فى معلقة الأرز ونسيب عريضة .

فجبران . يغلف التأمل نتاجه شعرا ونثرا . فمقالاته شعر منثور وقصصه تطبيق لأفكاره ومعتقداته فى النفس والوجود والحياة ، وأشعاره أشواق حارة إلى العالم الذى ينشده .

إنه يخاطب الكون قائلا (١) .

أيها الكون العاقل ، المحجوب بظواهر الكائنات ، الموجود بالكائنات وفى الكائنات والكائنات ، أنت تسمعنى لأنك حاضر ذاتى ، وأنك ترانى لأنك بصيرة كل شىء حى ، ألق فى روحى بذرة من بذور حكمتك لتنبت قصبة فى غابتك وتعطى ثمرا من أثمارك . آمين .

ويقول من مسرحيته " إرم ذات العماد " (٢) .

« كل مافى الوجود كائن فى باطنك وكل ما فى باطنك موجود فى الوجود وليس هناك من حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها أو بين أصغرها وأعظمها ، ففى قطرة الماء الواحدة جميع أسرار البحار ، وفى ذرة واحدة جميع عناصر الأرض فى حركة واحدة من حركات الفكر كل ما فى العالم من الحركات والأنظمة

---

(١) جبران البدائع والطرائف ص ١٠

(٢) م . نعيمة الغربال ص ١٣٦ .

ونسيب عريضة فى الأرواح الحائرة ، واحتضار أبى فراس ، وعلى طريق إرم ينظر إلى الوجود نظرة حائرة ولكنها ثاقبة تنفذ إلى الصميم ولاتكتفى بموقف الدهشة فقد (١) أوجد لحيرته جسما تكاد تلمسه اليد ، وأعطاها لسانا يخترق ستائر القلب ، وينفذ إلى أعماق الروح . فصورته واقفا على ملتقى طرق الحياة يحث نفسه على المسير ، ونفسه حائرة.

ونسيب عريضة من الذين خرجوا من مظهر الحيرة ليكتشفوا آفاقا أجمل وأبعد من آفاق الحيرة الضيقة .

أما الآفاق التى اكتشفها نسيب عريضة بعد تخلصه من الحيرة وآفاق الروح التى تقوم عليها قبة الوجود الذى لايحد . إذ مال ببصره عن ثانويات الحياة إلى أولياتها وعن مرئياتها إلى ماوراء مرئياتها .

ويشارك نسيب عريضة فى حيرته وألمه الشاعر رشيد أيوب . لكن الألم والحيرة عند نسيب عريضة كان لهما أثر فى تكوينة الفلسفى حيث عبر عن نفسيته القلقة تعبيرا مكثفا عميقا .

أما " رشيد أيوب (٢) فلم يكون فلسفة عميقة وإنما طالت حسرته وتمزق قلبه الحساس إنه" موزع بين آماله الضائعة ، وآلامه الممضة ، هو برم بالناس ، برم بالفقر هارب من واقع الحياة المؤلم .

وقادته هذه الحيرة إلى مراجعة نفسه وتأمل أحوال الناس والاستفادة من تجارب الأيام : يقول مخاطبا نفسه (٣)

لا تشتكــى الدنيـــا إلـــى أحـــــد	فلكـــــم مـــــررت بأبلـــغ الـــدرس
فالنـــاس يبتعـــدون عـــن رجــــل	يشكـــوإليهـــم حالـــة البـــؤس
هـــاتى مـــن الأشعـــار أطـربهـا	وتجاهلـــى مافيـــك مـــن يـــأس
عـــودى عـــن الأحـــلام	فـــى عـــالم الأمـــس
وامشــــى مـــع الأيــــامْ	والخمـــر فـــى الكـــأس

---

(١) م . نعيمة الغربال ص ١٣٦ .

(٢) د / خفاجى قصة الأدب المهجرى ص ٣٣٩ .

(٣) من ديوان " هى الدنيا " ص ٤٣ نقلا عن كتاب قصة الأدب المهجرى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ٣٤٢ .

ويقول من قصيدته " المسافر " (١)

دعـــته الأمانـــى فخلـــى الـربـــوع   وســـار و فى النفـــس شـــىء كثيـــر
وفـــى الصـــدر بين حـــنايا الضلـــوع   لنيـــل الأمانـــى فـــؤاد كبيـــر
فحـــث المطـــايا وخـــاض البحـار   ومـــرت ليـــال وكـــرت سنـــون

ولـــم يرجـــع

وليس بخاف مافى أسلوب " رشيد أيوب من سهولة وبعد عن التعمق فتجربته برغم أنها مريرة لكنه لم يستطع أن يعطيها صفة الشمول والثراء الفنى .

---

(١) م . ن ص ٣٥٠ .

الفصل الثانى

أ - طرق التعبير عن التأمل فى الشعر المهجرى

الشعر هو أداة التعبير التى اتخذها المهجريون وعاء يصبون فيه مشاعرهم المفكرة وأفكارهم الشاعرة . ووقف النثر إلى جانب الشعر يؤازره فى ميدان التأمل بألوانه المتعددة من قصة ومقالة ورواية ومسرحية (١)

وللشعر لغته الخاصة المعبرة عن فكرة الشاعر ، والمصورة لعاطفته ، والحاملة أسرار نفسه إلى الوجود .

وقد خاض المهجريون تجاربهم التأملية وعبروا بها عن موقفهم إزاء النفس الإنسانية ، وأشواقهم الروحية إلى المثل الأعلى ، وبحثهم عن سر الوجود ، ولغز الموت وشغفهم بالطبيعة .

وكانت لهم طرقهم التعبيرية عن المضامين السابقة ، وإن كانت التجربة التأملية تتسم بالموضوعية حينا وبالذاتية أحيانا فإن طريقة التعبير عنها جاءت عند المهجريين فنية خالصة ، واستطاعوا أن يؤلفوا بين الذاتية والموضوعية فهم لم ينظروا فى واقعهم وحسب بل فى واقع الإنسان والحياة والقدر ، وتوفرت لقصائدهم الوحدة العضوية ، وتآلف الصورة الشعرية وتناسقها ، وانسجام الشكل مع المضمون ، وتناسب الإيقاع والمضمون تناسبا فطريا وشيوع الموسيقى الداخلية فى قصائدهم .

وتنوعت طرق التعبير عن التأمل فى أشعارهم . فالقصة الشعرية تطالعنا عند أبى ماضى بما تتسم به من نضج فنى ، وبناء متماسك ، وهى عند القروى كذلك وأن كانت لاتصل إلى مستواها الفنى عند أبى ماضى - كذلك نجدها عند الياس فرحات وميخائيل نعيمة ، وجورج صيدح ، ونسيب عريضة .

كذلك جاء تأملهم الشعرى من خلال تعبيرهم الملحمى والأسطورى ىكما نجد عند فوزى المعلوف فى " بساط الريح ، وشعلة العذاب ، وعند شفيق معلوف فى مطولته " عبقر " والأحلام " وعند الياس فرحات فى " أحلام الراعى " وعند نسيب عريضة فى " على طريق ارم وعند أبى

---

(١) أنظر كتاب : مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر « للمؤلف دار المعارف ١٩٨٢ م المبحث الخاص بالتيار التأملى فى النثر المهجرى ، حيث رَصَد المؤلف تجربة التأمل فى فنون النثر فى أدب المهجر وهى :
[١ - المقالة ٢ - القصة ٣ - الرواية ٤ - المسرحية - الخاطرة والأبدة] .

ماضى فى " الأسطورة الأزلية ، وعند رياض المعلوف فى " ليليت " .

– والرمز الفنى للتعبير عن المضمون يطالعنا فى قصائد كثيرة عندهم . ذلك لأن الرمز فيه إثراء المضمون حيث يضفى عليه رؤية شاملة ، كذلك فيه عمق فى الأفكار ، والمعانى وخصوبة فى الخيال ، وتماسك فى البناء المعمارى للقصيدة، وتآلف فى الصورة الشعرية حيث تكتسب القصيدة وحدة فنية وعضوية يتصل أولها بآخرها وتبتعد عن التفكك والاضطراب وتقترب من الصدق الفنى وكان الرمز عند المهجريين واضحا لاغموض فيه .

– والحوار كان من طرق التعبير عن التأمل عند المهجريين ، وهو يضفى على القصيدة الطابع المسرحى والقصصى ، ويجعل إيقاعها أكثر تأثيرا فى النفس فتتجاوب معها وتنفعل بها فتتأثر بمضمونها .

وهذه الطرق التعبيرية جددت بناء القصيدة العربية شكلا ومضمونا ، وإن كان الشعر العربى لم يعدم مثل هذه التجارب ولكنها لم تأخذ صفة العموم . والنضج الفنى فالشعر القصصى نجده عند امرىء القيس وعمر ابن أبى ربيعة وحاتم الطائى ولجأ الشعراء المتصوفون إلى الرمز ليعبروا عن أشواقهم الروحية إلى الحقيقة الكبرى .

وربما تأتى القصة الشعرية خالية من التأمل الفنى وقد يأتى الحوار ساذجا تافه المعنى وقد نجد الرمز مفتعلا ، والأسطورة بعيدة عن التعبير الصادق عن المضمون .

ولكن عند المهجريين نضجت هذه الطرق التعبيرية ونجحت فى الوصول إلى غرضها وأثرت فى حركة التجديد فى الشعر العربى ، شكلا ومضمونا ، حيث أدخل المهجريون فى الشعر عنصر الفكر فتعانق القلب والعقل فى التعبير عن التجربة الشعرية التى تتآزر فى تكوينها الألفاظ والعبارات والأفكار والعواطف والصورالشعرية لتعطينا عملا فنيا صادقا بعيداً عن الافتعال .

وعن هذه الطرق سأتحدث فى إيجاز منوها بدورها فى إبراز التجربة التأملية :

أولاً : القصة الشعرية :

وهى شائعة عند أبى ماضى شيوعا يدعو إلى الغرابة والدهشة فلا يكاد يخلو ديوان من دواوينه منها .

– ففى ديوان تذكار الماضى هذه القصص الشعرية . وردة وأمين ص ٤٧ ، أنا هو ص ٢٥٣ ، قتل نفسه ، ص ٢٦٩ ، " مصرع حبيبين ص ٧٦ .

وهذه القصص لم تتمتع بالنضج الفنى الذى عهدناه عند أبى ماضى . فقصة وردة وأميل خالية من الرمز الأصيل والعمق الذى اتسمت به أشعار أبى ماضى بعد ذلك ، وهو يلتقى مع المنفلوطى فى خيالها الرومانسى الحزين ، وتخلو من الأفكار العميقة ذات الصبغة الفلسفية حيث تتحدث عن فتى يحب فتاة ويموت الفتى قتيلا وتموت الفتاة كذلك لأنهما لم ينعما بالحب الذى قصداه معا ويقول فى نهاية القصة :

ياصاحبــى إن جـــزت فــى قبريهمــا	فـــاتْلُ الســـلام عليهمـــا ترتيـــلا
مـــن شـــاعر ماحـــرك الغصن الهوى	إلا تـــذكـــر وردة واميـــلا

ولاحظْتُ أنه يستعمـل الألفـاظ الصعبة التى لاتوحى ولاتتناسب المضمون مثل جيش اللهام ، المدنف ، الهزبر ، العطبول ، قسورة ، السدر ، العفر ، وبعض هذه الألفاظ كانت تلجئه إليها القافية مثل كلمة " عطبول " .

وهكذا بقية القصص الموجودة بهذا الديوان . وربما يرجع هذا الضعف والقصور فى التعبير عن التجربة الشعرية التأملية إلى أن هذا الديوان كان باكورة نتاج الشاعر فى أول عهده بالشعر وهو فى سنى عمره الأولى وإن كان هناك شك حول تاريخ مولده إلا أن المهم أن هذا الديوان كان باكورة نتاجه الشعرى . كذلك كان الشاعر متمسكا بالمنهج التقليدى فى بناء القصيدة وكانت تجاربه تقليدية سانجة ، وكان فى هذا الوقت مازال بعيدا عن الالتحام بالتراث الإنسانى والثقافات الأجنبية " التى أتيح له أن يطلع عليها وهو فى المهجر .

وفى ديوان " الخمائل والجداول " تبلغ القصة مستواها الفنى عند أبى ماضى . ففى ديوانه الجداول (١) القصص الآتية : العنقاء السجينة ، الحجر الصغير ، التينة الحمقاء ، المجنون ، الأشباح الثلاثة ، الطلاسم ، هى ، وفى ديوان "الخمائل (٢) القصص الآتية : ، الشاعر والملك الجائر ، الفراشة المحتضرة ، أنا وابنى ، الأسطورة الأزلية .

– ففى قصيدته " العنقاء " يبحث عن سر السعادة ، ويسأل البحر عنها والقصور لكن

(١) أنظر الديوان الصفحات الآتية على التوالى ١٠، ١٦، ٣٧، ٤٦ ، ١٠٥ ، ١٣٩ ، ١١٨ .
(٢) أنظر الديوان الصفحات الآتية على التوالى ٩ ، ٥٠ ، ١٩١ ، ٢٢٢ .

لم يجد جوابا فيحسبها فى الرؤى والأحلام ، ويظنها فى النجوم والبروق ، ويفتش عنها فى الفصول ولكنه لايعثر عليها فعاد إلى نفسه واليأس يحيط به من كل جانب بعد تأمله الطويل فى الظواهر الكونية وأخيرا يعرف أنها كانت معه ولكنه ضيعها فيهتف فى حزن غامر (١) .

حتـــى إذا نشــر القنـــوط ضبـــابه	فوقـــى فغيبنـــى وغيـــب موضعـــى
وتقطعـــت أمـــراس آمـــالى بهـــا	وهـــى التـــى مـــن قبـــل لـم تتقطـع
عصـــر الأســـى روحـــى فسالت أدمعا	فلمحتهـــا ولمستهـــا فـــى أدمعـــى
وعلمـــت حـــين العلـــم لايجدى الفتـى	أن التـــى ضيعتهـــا كـــانت معـــى

والشاعر فى قصة بحثه عن السعادة أو عن الحقيقة كأنه جوال يضحى بكل شىء فى سبيل الوصول ، وروح ابن سينا تسيطر عليه حيث يعارض قصيدته التى مطلعها :

" هبطـــت إليـــك مـــن المحل الأرفع	ورقـــاء ذات تعـــزز وتمنـــع

والأبيات تتسلسل تسلسل الأحداث فى القصة ، وتستمر كأنها البناء الشامخ كل طابق فيه يعلوه مابعده ويشد من أزره ، وإن كان الحوار من مقومات البناء الفنى للقصة فقد أبرزه أبو ماضى وسأل نفسه وغيره.

– والعقدةُ التى تمثل الأزمة فى القصة وتأتى بعدها لحظة التنوير أو الحل يعبر عنها الشاعر فى موقفه من نهاية القصة حيث اكتشف أن السعادة التى ضيعها كانت معه ولكنه لايدرى .

وفى قصة " السجينة (٢) يتأمل قضية الحرية من خلال قصة زهرة قطفها إنسان من الروض الطليق ووضعها فى قصره الموشى بالزخارف – ويجسد حزنها " ويدين الإنسان لموقفه النفعى حيث يرمى الزهرة تحت النعال حين يجف عطرها ، ويستخلص من هذا المشهد الذى نسج منه قصته حكمة صائبة فى الحياة وتناقضها، وقد لاتكون الحكمة جديدة ولكنها من وحى تجربته التى عبر عنها ومن هنا تأتى طرافتها وجدتها يقول :

فكـــم شقـــيت فـــى ذى الحيـــاة فضـــائل	وكـــم نعمـــت فـــى ذى الحيـــاة عيـــوب
وكـــم شيـــم حسنـــاء عاشـــت كأنهـــا	مســـاوىء يخشـــى شرهـــا وذنـــوب

(١) أبو ماضى : الجداول ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦ .

وفى قصة التينة الحمقاء " يحارب الأنانية ونزعة الاستئثار بالخير وحجبه عن الناس وفى قصة " الشاعر والملك الجائر " يحارب تسلط الحكام ، وينوه بقيمة الكلمة الصادقة ويعلن رأيه فى الموت حيث تساوى الجميع . ولاتبقى إلا الحكمة السديدة التى أهداها الشاعر لمن بعده يقول (١)

فى حومة الموت وظل البلى ... قد التقى السلطان والشاعر
هذا بلا مجد وهذا بلا ... ذل ، فلا باغ ولاثائر
عانقت الأسمال تلك الحلى ... واصطحب المقْهُور والقاهِرُ

. . .

وتوالت الأجيال تطرد ... جيل يغيب وآخر يفد
أخنت على القصر المنيف فلا ... الجدران قائمة ولا العمد
ومشت على الجيش الكثيف فلا ... خيل مسومة ولا زرد
ذهبت بمن صلحوا ومن فسدوا ... ومضت بمن تعسوا ومن سعدوا
وبمن أذاب الحب مهجته ... وبمن تاكل قلبَهُ الحَسَدَ
وطوت ملوكا مالهم عدد ... فكأنهم فى الأرض ماوجدوا
والشاعر المقتول باقية ... أقواله فكأنها الابد
الشيخ يلمس فى جوانبها ... صورى الهوى والحكمة الولد

وفى " الأسطورة الأزليه " يتأمل صراع الإنسان مع نفسه حيث يثور على واقعه وتتناقض أمانيه ورغباته .

وفى قصيده " الحجر الصغير " (٢) يعبر عن فلسفته الاجتماعية فى المساواه بين الأفراد وفى هذه القصيدة يشخص أبو ماضى الجمادات ويخلع عليها صفات الأحياء . ويبرز أسلوبه القصصى ، فيكثر من استعمال الأفعال الماضية التى تأتى فى سرد الحكايات مثل سمع الليل ، كان ذاك الأنين ، فانحنى فوقها ، فرأى أهلها وهوى من مكانه ، فتح الفجر جفنه .

ويأتى بحروف العطف التى تربط بين الأبيات والأفكار وتعطى للأحداث ترتيبا يلائم الجو القصصى وكأنها المواد التى تعمل على تماسك لبنات البناء .

(١) أب ماضى : الخمائل ص ١٨ ، ١٩ .
(٢) أبو ماضى : الجداول ص ٣٧ .

ويغرق الطوفان المدينة البيضاء لأنها لم تهتم بهذا الحجر الصغير .

وللقروى فى ديوانه قصص شعرية كثيرة منها (١) " البلبل الساكت ، العصفور والباشق والإنسان ، السمكة الشاكرة ، الدوحة الساقطة ، حضن الأم ، الربيع الأخير .

ولم ترق قصص القروى إلى مستوى القصة عند أبى ماضى كما أوضحت سابقا . وذلك لميل القروى إلى القصيدة الغنائية التى تعبر بصورة مباشرة عن المشاعر وتغلب عليه اللغة الخطابية الرنانة وبخاصة فى قصائدة الوطنية والقومية .

فقصيدة " البلبل الساكت " تصور تعاطفه مع ذلك البلبل الذى كان طليقا وحاصرته الثلوج وكاد يقضى عليه – ويرمز إلى حبه للحرية حينما أطلق سراح البلبل وقال له « إنما الحر لايقيد حرا » .

وقصة الراهبه " لإلياس فرحات " يتحدث فيها عن الراهبة التى اعتزلت الحياة ودفنت شبابها فى ظلمة الدير بعد فجيعتها فى حبها ، وتبعث فيها الطبيعة الإحساس بالحياة مرة أخرى وذلك حين ترى زهرة ناضرة محبوسة فى أعالى الجدار ، فترى فيها صورة نفسها الحبيسة فى ظلمة الدير فتخاطبها وكأن الزهرة صورة لأمانيها الدفينة ونفسها التواقة إلى النور والحرية وهنا يتجلى الموقف التأملى فى أرقى صوره حيث تخاطب الراهبة الزهرة فى لغة شفافة عذبة . :

أُخَيَّةُ يهنيك هذا السمو ... وهذا البهاء وهذا الرضا
ولكن أما كان أشهى إليك ... جوار الأزاهير بين الربا ؟
تحوم عليك بنات القفير ... وتسعى إليك صبايا القرى
لأنت تعيشين فى عزلة ... فلا فى السماء ولا فى الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ... ومن يتنشق هذا الشذا (٢)

ولرشيد أيوب قصة شعرية بعنوان" الشيخ والفتاة وأخرى هى " أبنة الكوخ ، ولإلياس فرحات قصة بعنوان " كل حر فى دولة الظلم جان ، وقصة أخرى هى الشهيدان " تدور حول الموت فى الحب وتجعله خلودا "

(١) أنظر ديوان القروى جـ ٢١ جـ ٢ الصفحات الآتية ٦٦ ، ١٣٤ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٨٠١ .
(٢) د / حسن جاد الأدب العربى فى المهجر ص ١٧٧ .

ثانياً : الملاحم والأساطير :

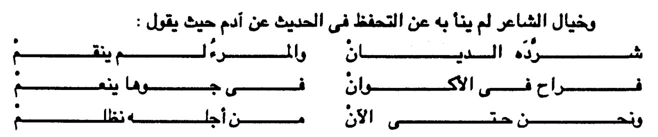
للأساطير فى الشعر المعاصر دور فى إبراز جمال التجربة الشعرية حيث تكسبها عمقا ورحابة ، وتضفى عليها سمة من الغموض المحبب الذى يعطى للمتلقى فرصة لتشغيل ذهنه ، ويفتح أمامه باب التخيل فيرى فى التجربة ألوانا متعددة من الصور والمضامين ، وقد استوحى المهجريون من الأساطير بعض تجاربهم وخاصة فى مطولاتهم الشعرية التى أخذت طابع الملاحم " ويمتزج فيها الخيال المحلق بالواقع ، وتلتقى فيها الحقائق بالأساطير . ومع ذلك فنحن نتساهل فى التعبير حين نطلق على بعض هذه المطولات اسم الملحمة ، فمهما بدا فيها من ملامح الملاحم . ومهما سادها من الجو الأسطورى والخيالى ، فهى لاتبلغ على كل حال مبلغ الإلياذة أو الشاهنامة فى استواء العناصر وطول النفس " (١) .

ومن هذه المطولات مطولة " ليليت " لرياض المعلوف وقد استوحاها من خبر جاء فى إحدى صحف بغداد فحواه " أن أحد رجال البعثة الأثرية التى تبحث عن الآثار فى مدينة - أور - وفق إلى اكتشاف آثار تعود إلى ماقبل التاريخ وتشير إلى زواج آدم من - ليليت قبل حواء ثم تركه الأولى وزواجه من الثانية .

- وليليت عندما رأت آدم تحول عنها إلى حواء دبت نار الغيرة فى قلبها فلبست جلد أفعى وعملت على أن تطعم آدم التفاحة المحرمة التى كانت سببا فى إخراجه من الجنة " (٢) .

- والنصوص الدينية لاتؤيد ذلك . ولذلك عددت مثل هذا الكلام من قبيل الأساطير ومن خلال هذا الخبر يعبر "رياض المعلوف " عن رأية فى المرأة ، والتقاليد الاجتماعية ، ونوازع الإنسان ورغباته . كل ذلك فى أسلوب قصصى وأوزان قصيرة متنوعة تعبر عن موقف اللهفة والحيرة الذى أحاط بآدم ، وتصف الواقع المشوب بالحسرة والخوف الذى عايشة آدم بعد ما طرد من الجنة .

وخيال الشاعر لم ينأ به عن التحفظ فى الحديث عن آدم حيث يقول :



شرّدَه الديانْ والمرءُ لم ينقمْ
فراح فى الأكوانْ فى جوها ينعمْ
ونحن حتى الآنْ من أجله نظلمْ

---

(١) د / حسن جاد / الأدب العربى فى المهجر ص ١٨٦ .

(٢) رياض المعلوف زورق الغياب ص ٩٩ " مقدمة " ليليت " .

وكـــــــان فــــى الحـــرمــــــانْ ‏ مــــــن قبـــــــل كالمعــــــــدمْ
يسيـــــــــــر كالعميــــــانْ ‏ لســــــــــانه أبكــــــــــمْ

فآدم لم يشرد وإنما اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، ومن أين يجيئنا الظلم بعد آدم ؟ هل من الله ؟ وماربك بظلام للعبيد ، ولايظلم ربك أحدا .

وهل سار آدم كالعميان ؟ وهل أصابه البكم ؟ ومثل هذا الوصف غير لائق فى الحديث عن الأنبياء مهما كانت مبررات التصوير والخيال الشعرى .

واستوحى نسيب عريضة مطولته " على طريق إرم " من أسطورة عربية كما يقول فى مقدمة القصيدة " جاء فى أساطير العرب أن " إرم ذات العماد " مدينة عجيبة بناها شداد بن عاد من حجارة الذهب واللؤلؤ والجواهر فكانت فتنة باهرة للعيون ، لايقدر القادم من بعيد أن ينظر إليها إذا واجهها فى ضوء النهار ، ثم أقفرت هذه المدينة العجيبة واختفت فى الصحراء فهى فى مكان محجوب . عامرة بقصورها السحرية وكنوزها المباحة ، ولكن لايمكن الاقتراب منها وقد طلبها كثيرون فهلكوا أوضلوا ، وعادوا قانعين من الغنيمة بالإياب " (١) .

ومعلومات الناس عن " إرم ذات العماد " وتصورهم لها وشعورهم نحوها يجعلها أسطورة ولكنها كانت حقيقة كما جاء فى القرآن الكريم بأنها " لم يخلق مثلها فى البلاد " ويقال إن " إرم " أسم لقبيلة تمتع أهلها بالشرف الرفيع والسيادة .

وقد استخدمها الصوفيون رمزا للوصول إلى الحقيقة ومجاهدة النفس . وفى الأدب الحديث أصبحت رمزاً للبحث عن المجهول والوصول إلى اليقين والزاد الروحى الخاص ، ويأخذ نسيب نفسه فى هذه الرحلة ويصطحب القلب والعقل والأفكار ولكنهم لايواصلون معه الرحلة ويبقى وحيداً مع نفسه ، وتتمثل له الحقيقة فى ضوء بعيد وكأنه اشراقة المعرفة فى نفسه فيقول متأملاً ماضيه وحاضره ومستقبله وهاربا من الوجود كله برغم أن عقله لم يوافقه على ذلك ، وقلبه لم يغامر معه إلى نهاية الطريق يقول :

نحـــــو ذاك الـــــوميـــــــضْ ‏ ســــــرينـــا نستعيـــــــــض
عن ظـــــــلام الحضيـــــــــض ‏ وشقـــــــــاء الـــوجـــــــــود
بسنـــــــــاء الـــوعـــــــــود

(١) د / نادرة جميل السراج : نسيب عريضة الشاعر الكاتب الصحفى ص ٩٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٦ .

إيه ضوئى البعيدْ   لح ولح ما تريد
ليس طرفى يحيد   عنك حتى يعود

لتراب ودود

لح ولح فى الفضاء !   قد سمعت النداء
ودليلى الرجاء   فعساه يقود

ظامئا للورود

يقول " حبيب إبراهيم كاتبه " فى مقدمته لديوان الأرواح الحائرة مقارنا بين قصيدة نسيب ، وقصيدة منطق الطير لفريد الدين العطار ، " وقد نحا الشاعر فيها طريقة الصوفيين فى وصف مقاماتهم ورحلاتهم من عالم الشهادة إلى عالم الغيب فهى تذكرنا بقصيدة منطق الطير لفريد الدين العطار كما نعلمها عن الترجمة الإنجليزية عن الأصل الفارسى لادواورد فتزجيرالد مترجم رباعيات الخيام المشهورة ، على أن الفرق بين القصيدتين أن قصيدة فريد الدين العطار تشرح لنا طرفا من فلسفة الصوفيين وتشتمل على كثير من حكمهم ، وقصيدة عريضة درس دقيق فى تنازع عوامل النفس والحس والعقل " (١)

– ومن الذين وظفوا الأسطورة فى التعبير عن أفكارهم وتأملاتهم فى تناقضات الحياة ومثالبها الشاعر " شفيق معلوف الذى أبدع مطولتيه " الأحلام " ، وعبقر وقد استوحى " عبقر " من أسطورة عربية تقول إن " عبقر قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل عمل جليل وجعلها الشاعر مسرح أفكاره وميدان تأملاته وحارب نقائص الإنسان وهو يصف الشياطين ، وكم كان وصفه بارعا دقيقا للشيطان حتى لو أردنا أن نرسم من كلمات الشاعر صورة للشيطان لما أعوزنا ذلك . يقول :

فى فمه من سقر جذوةٌ   منها يطير الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعنى   أنيابها والمحجر الغائر
كأنما محجرها كوّةٌ   يطل منها الزمن الغابر

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦

ويتجول الشاعر فى هذا الوادى العجيب . ويقابل الشياطين ويطلق على كل واحد منهم اسما ويرمز لكل نقيصة إنسانية بشيطان . ويؤكد رفضه لواقع الإنسان البغيض حين يجعل عرافة الجن مذعورة من دخول الإنسان وأديهم .

وقد أشاد بهذه المطولة الناقد البرازيلى " أغريبنو " فخاطب الشاعر " لقد وجدت فى ملحمتك أفكارا وصورا جديدة ، فالوزن ينقاد حرا طليقا معبرا .. وفيها كثير من التآلف والانسجام ، ولكن الأهم هو ما انطوت عليه من فكر صائبة ، مما يدل على تأملك العميق فى مصير البشرية . أما القسم الخيالى فقد حفل برموز غنية ، ليست فى الحقيقة سوى وسيلة للتعبير عن كثير من الأهواء والنزعات التى يتخبط فى دياجيرها إنسان هذا العصر المعذب (١)"

– وكما حاول نسيب الوصول إلى الحقيقة ، والهروب من العالم المادى المتصارع المتناقض وكما كشف شفيق المعلوف النقائص البشرية وأدانها فى " عبقر " .

يمتطى فوزى المعلوف " بساط الريح " ليلتقى بروحه فى الفضاء بعيدا عن الأرض وشرور الإنسان .

وقد استوحى هذه الملحمة من أسطورة شرقية تزعم أن السحرة تمتطى بساط الريح فى غدوها ورواحها .. والمطولة " مجموعة قصائد عميقة المغزى مرتبطة بفكرة واحدة ، وشعور واحد ، يغلب فيها التأمل على الفلسفة ، فترى روح الشاعر الحالمة متنبهه لأجمل مظاهر الطبيعة وأعمق العواطف الحية ، كل ذلك فى شعر غنائى جلى " (٢) .

وفوزى المعلوف يهرب من العالم الذى أفسده الإنسان ويطير فى الآفاق ، ليلتقى بروحه ويجد حريته وبعد جولة بين الكواكب والنجوم والطيور والأرواح يعود وقد أعطانا موقفه من الإنسان وأفكاره وآراءه فى الحياة بعد تأمل أحوال الكون ومتناقضاته وقد سيطر على القصيدة جو حزين قاتم فسره الشاعر فى النشيد الثامن :

عشت بين المنى يراود نفسى خُلَّبٌ من طيوفها وعقامُ

اقتفيها وفى يَدَىَّ فؤادى ثم ألوى وفى يَدَىَّ حطامُ

أى عود حملته للتلهى لم تقطع أوتاره الأيام ؟

---

(١) مجلة العصبة الأندلسية عدد يناير وفبراير ١٩٥٠ نقلا عن د/ حسن جاد فى كتابه الأدب العربى فى المهجر ص ٢٠٥

(٢) من مقدمة فرنسيسكو فيلاسيازا للقصيدة نقلا عن د/ حسن جاد فى كتابه الأدب العربى فى المهجر ص ١٨٧

أى كـــأس قربتـــه مـــن شفـاهـى   لـــم يحـــل حنظـــلا عليـــه المـــدام ؟
ضـــاع عمـــرى سعيـــا وراء رســـوم   خططتهـــا فـــى الشـــاطىء الأقـدام .

وهو هنا كأغلب أدباء المهجر يغلب عليه الخيال الرومانسى فالأجواء التى تحفل بها أجواء رومانسية خالصة ففى هذا النشيد نرى " الحلم الذهبى والعود المقطع الأوتار ، والكأس الملأى بالحنظل ، الرسوم الضائعة على الشاطىء . وهذه جميعها هى ملامح المشهد الرومانسى البكائى الجنائزى .

وتبرز فى شعر فوزى " قيمة النغم الذى يوقع على وتر خاص فى ضمير الشاعر ، فتراه يغمر القصيدة بمثل الأنين والشجو والحنين ، نغم الوزن الخفيف ، والقافية اللاهثة المتحشرجة فى الهاء ، بل فى ضرب من صياغة الحروف والألفاظ فى العبارة بحيث يخيل إليك أن معانيها هى أداؤها الأقل وأن ما يواكب المعانى من إيقاع وترجيع هما صنو لحالة الذهول التى لايستقيم شعر الا بها " (١) .

ثالثاً : الرمز الفنى "

والرمز من أدوات التعبير التى تهب العمل الفنى الجودة والوحدة الفنية وكثافة المعنى . وقد كان الرمز من أدوات التعبير عند المهجريين . وتنوع الرمز وتلون عندهم فهم يستخدمون الطبيعة الحية رمزا لمضامين يرغبون فى التعبير عنها ، وكذلك يوظفون الطبيعة النباتية كالزهور ، والأغصان ، والعليق ، ويخلعون على الطبيعة الجامدة صفات الأحياء ويشخصونها ومن خلالها يبثون أفكارهم وتأملاتهم ويلجأون أحيانا إلى التجريد كما فعل نعيمة فى قصيدته " الاكتمال والجوع ، فالعصفور عند رياض معلوف يرمز به إلى الفشل فى الحب تارة وتارة أخرى يرمز به إلى القلب المحلق فى آفاق البهجة .

فقصيدته " العصفور الأعمى " (٢) معاناة وجدانية صادقة يتخذ الشاعر العصفور الأعمى رمزا للإنسان الذى أحب . وضحى ، ولقى الأذى ولم يكافأ إلا بالصد والعذاب والحرمان .. يقول الشاعر مخاطبا العصفور الأعمى :

---

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف شاعر البعد والوجد ص ١٠٠ .
(٢) رياض المعلوف : زورق الغياب ص ٣٩ .

عـــذابك فـــى الهـــوى هـــذا عـذابــى	وهمـــك أيهـــا العصفـــور همـــى
سقــطت مـــن الغصـــون وكنت تشـدو	لهـــا مـــن حســـرة وجـــوى وظلـــم
فمــــت ومـــات فـــى الآفـــاق لَحْـــن	يظـــل علـــى الـــدوام بكـل فهـــم

وقد أضاع الشاعر مغزى الرمز حين عقد مقارنة بينه وبين العصفور فى البيت الأول " عذابك " ... ولو ترك الحديث عن العصفور مجردا من كل تحديد لاكتسب الرمز خصوبة وسعة وثراء .

وفى قصيدته " رقصة العصفور (١) يأخذ العصفور مفهوما آخر حيث يرمز به إلى القلب المنتشى الراقص المحلق فى آفاق البهجة ..

وعند القروى يأخذ العصفور رمز الاغتراب حيث يبثه الشاعر أشجانه وأحزانه وتأملاته وهو فى غربته القاسية فيخاطبة :

هـــل أنـــت ياعصفـــور مثلـى غـــريب	هـــل لك مثلـــى إخـــوة فـــى الـــوطـــن
هـــل أنـــت مثلـــى هاجـس بالحــبيب	مـــن ذا الـــذى تهـــواه مـــن ؟
كأنمـــا أنـــت بصـــدر القفـــص	مصفـــق الجانـــح لاتستريـــح
طيـــر ذبيـــح فـــى ضلـوعى رقص	وما انتهـــى بعـــد عـــذاب الذبيـــح

وعند أبى ماضى يصبح البلبل فيلسوفا مجنحا داعيا للحب ، باحثا عن أليف ضاع ووطن لم يصل إليه بعد .. فالحيرة هنا لب الرمز .. وليس بغريب على أبى ماضى أن تتعمق رموزه ، وهو صورة لنفسية أبى ماضى الحائرة الباحثة عن طريقها الصحيح ، والمشتاقة إلى وطنها ، والتائهة فى زحام الحياة المادية يقول (٢) .

يافيلســـوفا قـــد تلاقـــى عنْـــدهُ	طـــرب الخلـــى وحرقـــة المتوجـــد
تشـــدو وتبهـــت حائـــرا متـــرددا	حتـــى كأنـــك حـــين تعطـى تجتـدى
وتمـــد صـــوتك فـــى الفضا متلهفا	فـــى ذلـــة المستـــرحـــم المستنجـد
فكأنمـــا لك مـــوطـــن ضيعتـــه	خلـــف الكواكـــب فـــى الزمان الابعـد
أو كنـــت قـــد ضيـــعت إلفـك إننى	أبكـــى علـــى إلفـى الـــذى لم يوجـد

---

(١) السابق ص ٧٣ .

(٢) أبو ماضى تبر وتراب ص ١١٣ .

والبلبل عند أبى ماضى فى موضع آخر رمز للرقى الإجتماعى والحرية والدودة رمز للإحساس بمركب النقص حيث تطمع أن تكون ذات جناحين حتى تطير وتحلق مثل البلبل .

وقصيدته " دودة وبلبل " المتضمنة للرمز السابق تصوير مكثف لفكرة الأسطورة الأزلية وصورة بوجه آخر لقصة البنفسجة الطموح لجبران . يقول : (١) .

نظـــرت دودة تـــــدب علــــى الأرض	إلـــى بلبــــل يطيـــــر ويصــــــدح
فمضــــت تشتكـــى إلـــى الورق الساقـط	فـــى الحقــــل أنهــــا لـــم تجنـح
فأتـــت نمـــلة إليهـــا وقـــالت	أقنعـــى واسكتـــى فمـــا لك أصلـــح
مـــاتمنيـــت اذ تمنـــيت إلا	أن تصيـــرى طيـــرا يصـــاد ويذبــح
فالزمـــى الأرض فهـــى أحنى على الـدود	وخلـــى الكـــلام فالصمــت أريـــح

وعند نعيمة تصبح الدودة رمزا للحرية والخلو من التبعة ، ورمزا للمساواة ايضا ورمزا للإيمان كذلك . الإيمان البعيد عن التقنين والبحث عن الأسرار يقول نعيمة : (٢)

وأنـــت التـــى يستصغـــر الكل قـــدرها	ويحسبهـــا بعـــض زيـــادة نقصـــان
تـــدبين فـــى حضـــن الحياة طليقـة	ولاهـــم يضنيـــك بأســـرار أكـــوان

ويؤمن الشاعر بالمساواة ويخاطب الدودة :

لعمـــرك يااختـــاه ، مافـــى حياتـنا	مـــراتب قـــدر أو تفـــاوت أثمـــان

ويتخذ شفيق معلوف من " الكلب " رمزا " للفئة التى تعين الإنسان على ظلمه وذلك فى قصيدته " مشهد صيد " ولدى شفيق قدرة على الوصف الدقيق كما أوضحت سابقا فى مطولته " عبقر " فبعد أن أحضر له الكلب الصيد ناجى شفيق نفسه مفسرا ذلك الرمز قائلا :(٣)

فقلـــت لنفســـى كيـــف تنصــرظالما	وتخـــذل مظلـــوما وتعتـــز مقصـــدا
حـــرمت اعتســـافا آمـــن الطيـــر وكره	وأرديتــــه فـــى وكـــره وهـو ما اعتدى
فيـــا سالـــب الأعمـــار رفقا بها ولا	يغـــــرك جهـــــلا أن فـــى يدك الغدا

---

(١) م . نعيمة خمس الجنون ص ٨٥ .

(٢) شفيق معلوف لكل زهره عبير ص ١٤٦ .

وفى قصيدته " مصرع الأسد " ينعى على الطاغين ظلمهم ، ويتهكم على المستعمرين . ويدعو إلى مقاومتهم حيث أخذ من قتل عامل الحبشة لأسده دعوة للقضاء على المستعمر يقول : (١)

وكأنننــــى بــــك ناظـــــر فى شدقــه أســـــدا بلنـــــــدن مـــــاوفى بذمـــــار
فرميـــــت لبـــــدته فزمجـــــر وارتمـــى متخبطــــــا بـــــدم الإبــــاء الجـــارى

ومن الملاحظ أن الرموز الشعرية لم تتخذ عند المهجريين وظيفة خاصة مستقلة فلم تحدد رموز معينة لمظاهر معينة وإنما لاحظت أن الشىء الواحد يستخدم فى رموز كثيرة كما أوضحت فى الحديث عن العصفور واختلاف الرمز به .

ووظفوا الظواهر الطبيعية كالنبات والبحار ، والأنهار والشمس ، والقمر واتخذوا منها رموزا لنقل مشاعرهم وأفكارهم .

فالغصن المثمر يرمز به رياض المعلوف إلى حبيبته فى لغة هامسة ، وإيقاع راقص ، يتلاءم مع الجو النفسى للتجربة الشعرية

والجدول الطروب يرمز به أبو ماضى إلى قيمة اجتماعية تتمثل فى صنع الخير وعدم التباهى به وهو مايسمى مبدأ " إنكار الذات " ويقول عنه (٢) بعدما رأى إعجاب الطبيعة به :

فوقفـــت أرمقـــه وأســـأل حائرا مستفسرا
مـــاحبب الأطيــــار والاشجــــار فيه ياتـرى ؟
أحصــــاه ؟ إن البحــر يحوى فى حشاه جوهرا
أم مـــاؤه ؟ إنــــى رأيـــت الســيل منه أغزرا
أو طهــــره ؟ إنـــى وجـــدت الطــل منه أطهرا
ما الســـر فـــى هــذى ولا فى كونه يسقى الثرى
بل كـــونه يســـدى الجميل ويستحى أن يظهـرا

---

(١) السابق ص ٨١ .
(٢) جورج ديمترى سليم ، إيليا أبو ماضى دراسات عنه وعن أشعاره المجهولة .

والزهرة عند " شفيق معلوف " رمز للأمل ، والصخرة رمز للإنسان اليائس الذى لم يفقد بارقة الأمل . ويتخيل أن الزهرة النابتة فى الصخرة حلم نابت ، وحتّى تململ فى ذراعى مائت ويسائل الزهرة فترد عليه :

أنا لست إلا ومضة الذكرى على تقطيبة الصخر الكئيب الصامت (١) وليس يخفى ما فى هذه الصور الشعرية من طرافة وجده . وخيال مبتكر ، وامتداد فى الصورة يجعل الصورة الشعرية لوحة متكاملة . تنفذ إلى أعماقنا وتحبب إليها الحياة .

والنهر عند نعيمة يرمز به إلى قلبه الذى تجمدت فيه الحياة – أو إلى شعبه الذى كبلته القيود ، ويستمد الشاعر من ذوبان الثلوج وتغير الفصول ومجىء الربيع رمزا للأمل الذى يتعلق به .

والصخر عنده رمز للصراع الذى يؤرق الإنسان ويضنيه ويفسر هذا الرمز فى نهاية قصيدته " يابحر " (٢) .

وقفت والليل داج ... والبحر كر وفر
فلم يجبنى بحر ... ولم يجبنى بر
وعندما شاب ليلى ... وكحل الأفق فجر
سمعت نهرا يغنى ... الكون طى ونشر
فى الناس خير وشر ... فى البحر مد وجزر

والبحر عند " جبران " صورة لمبدأ الحياة ، وكل القيم تتجمع فيه .

فالعزم له وليس للغاب ، والرمز له وليس للصخر ، والريح الفاصلة بين السديم والسماء ملك يديه ، والنهر الذى يروى ظمأ الأرض مشتق منه ، والطود الخالد تابع له ، فالكل له حتى الفكر ، فالبحر عند جبران مصدر الحياة منه تبدأ وإليه تعود .. وهذه النظرية عند جبران خيال شعرى وتأمل بعيد عن الحقائق العلمية لكنه فيه مسحة فلسفية يعبر بها جبران عن رأيه الخاص فى مصدر الحياة .

---

(١) شفيق المعلوف لكل زهرة عبير ص ٧١ .

(٢) م . نعيمة : خمس الجفون ص ٩٨ .

رابعاً : الحوار الشعرى

– وإلى جانب القصص الشعرى والملاحم والأساطير ، والرموز الفنية استخدم المهجريون فى التعبير عن تجاربهم التأملية الحوار الشعرى . وهو يعطى القصيدة طابع المسرحية ويجعل الأصوات تتعدد فى القصيدة ، واكتسبت بذلك القصيدة عند المهجرين سمة التجديد والتعبير عن المضمون بحرية وعمق ، ونجد هذه الظاهرة عند كثيرين منهم مثل جبران فى " مواكبه " وقصيدته " الجبار الرئبال " (١)

فالقصيدة كلها حوار بين ذلك الطيف الذى تخيله من شعاع وسديم وضباب ، وتبيُّن بعد الحوار بينهما أنه الشاعر نفسه والحوار يبدو رائعاً حيث تتكون القصيدة من قواف متعددة كل بيتين على قافية الأول يبدأ بـ " قلت " والثانى بـ " قال :

قلت : ياطيفـا يعيـق الليـل فـى	سيـره ، هـل أنـت جن أم بشـر ؟
قـال مغتاظـا وفـى ألفاظـه	رنـة الهـزء : أنـا ظـل القـدر

وعند أبى ماضى يكثر هذا الحوار الشعرى فى كثير من قصائده ، وقد يأتى فى صورة تساؤلات كما فى قصيدته " الطلاسم " وقصيدته " المساء " .

ولم يكن الحوار الشعرى عند أبى ماضى خياليا كما هو عند " جبران " بل رأيناه يدير الحوار كثيراً بينه وبين زوجته " دوروثى " واتسم هذا الحوار بالإيجابية حيث كانت تناقشه فى أمور الحياة : ومن هذاالحوار قوله (٢)

لـم أنـس حـين مشـت إلىَّ تلومنى	لمـا رأتنـى باسمـا متهـللا
قـالت : أتطـرب والمـنايا حـوم	فـى الأرض كيف رمت أصابت مقتـلا ؟
أنظـر فقـد خـلت البيوت من الشباب	ولا جمـال لمنـزل منهـم خـلا
فسألتهـا : أوليـس مـن أجـل العـلا	شهـداؤنا " خاضوا الوغى ؟ قالت : بلـى

.. وتحاوره زوجته فى عقيدته الدينية .

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ١٠٦ .
(٢) جورج ديمترى سليم : أبو ماضى ص ٥٦ .

وسائـلـة " أي المـذاهب مذهبـي | وهـل كان فرعا في الديانات أم أصـلا ؟
وأي نبـي مرسـل أقتـدي بـه | وأي كتـاب منـزل عنـدي الأغلـى ؟ (١)

وفي " الدمعة الخرساء " (٢) يتحدث عن زوجته ويدور بينهما حوار فلسفي يعبر به أبو ماضي عن فلسفته في مذهب " التقمص والتناسخ " ويتأمل مصير الإنسان بعد موته :

كـانت تمـازحني وتضحـك فانتهـي | دور المـزاح فضحكهـا تفكيـر
قالـت وقـد سلـخ ابتسامتها الاسـي | صـدق الـذي قـال الحيـاة غرور
أكـذا نمـوت وتنقضـي أحلامنـا | فـي لحظـة وإلـى التـراب نصير
فأجبتهـا لتكـن لديـدان الثـرى | أجسـامنا ! إن الجسـوم قشـور
لاتجـزعي فالمـوت ليـس يضيـرنا | فلنـا إيـاب بَعْـدَهُ ونشـور

وليست الطرق التعبيرية السابقة هي المعنى الوحيد عن التأمل . فقد تتسم التجربة بالثراء والعمق والتأمل وليس فيها من القصة شيء ولا الملحمة ولا الأسطورة ، ولا الحوار . وقد تتوفر الطرق السابقة وتكون تجربة فقيرة كاسدة نائية عن الخصوبة والثراء ولكنها عند المهجريين كما أوضحت سابقا ، زادت من خصوبة التجربة عندهم وعمقها وأتاحت لهم أن يتأملوا كل ماتقع عليه حواسهم . وتنفعل به مشاعرهم .

---

(١) أبو ماضي : الخمائل ص ٧٩ .
(٢) أبو ماضي : الجداول ص ١٧٨ .

الفصل الثالث

الخصائص والمؤثرات

(١) الخصائص :

يختلف النقاد فى تقويم النص الأدبى اختلافا متباينا يصل أحيانا إلى إثارة المعارك التى درجو على تسميتها بالمعارك الأدبية .

وأرى أن هذا الخلاف من طبيعه الحياة . .. فلكل ذوقه وثقافته ورؤيته الخاصة للعمل المنقود شريطة أن يبنى هذا النقد على أسس واضحة ، تزيد العمل الأدبى وضوحا وتكشف عن أسراره او تزيل الستار الخادع عن زيفه .

ومن خلا ممارستى للإبداع الأدبى ، وارتباطى بإبداع الآخرين ، ومحاولتى تقويم هذه الأعمال الإبداعيه أرى أن النص الأدبى وبخاصة النص الشعرى حينما نقف أمامة متأملين فاحصين تبدو لنا ثلاثة انماط :

النمط الأول :

مثله مثل الشجرة العارية من الأوراق والتى لا ظل لها . وهذا هو النص الفقير الذى ليس له حظ من الشعر سوى الوزن والقافية ويمكن أن يسمى نظما لا شعرا .. حيث لا يحمل دلالة قيمة ولا معنى عميقا .. ولا توحى الفاظه بشىء وخياله يعنى بالظواهر الشكلية ولا ينفذ إلى صميم الأشياء . فهو هيكل فقط ، وإن شئت قل : إنه جسد لم تسر فيه الروح وهو غير جدير بالاهتمام لأنه لا بقاء له ولا نفع يرجى منه .

والنمط الثانى :

مثله مثل الشجرة الوارفة الظلال . ذات الأوراق اليانعة ولكن لا ثمر لها وهذا هو النص العادى الذى لا يهز أعماقنا ، بل يمر بأحاسيسنا مرا خفيفا ، ولا يبقى له أثر فى نفوسنا ، إذ سرعان ما يتقلص ظله ، وتتساقط أوراقه .

وهذا ما غلبت عليه الصنعة والتكلف ، وتعمد إظهار الموهبة او اقتناص المناسبة فتأتى تجربته الشعرية بعيده عن الصدق ، معالمها يشوهها التقليد ، وصورها يشوبها التكلف .

والنمط الثالث :

مثله مثل الشجرة التى تأصلت جذورها وسمقت فروعها ، وتهدل ثمرها وصمدت أمام عواصف الشتاء ، ورياح الخريف ، وهزأت بعوامل الزمان والمكان فالتجربة الشعرية فيه نابعة من الظروف التى دفعت بالشاعر إلى المعاناة إلى درجة الاحتراق أو الاستغراق فى مصدر الانفعال ، فإذا بالأفكار عميقة إلى مالا قرار والألفاظ تخفى وراءها دلالات كثيرة وتوحى بعواطف ومعان متعددة غزيرة ، والصور مبتكرة متلائمة مع الجو النفسى العام للتجربة ، تنمو نموا عضويا حتى تصبح القصيده بناء متماسكا متآلفا متناسقا ، مبتكرا ، مؤثرا ، معبرا عن نفسية الأديب وشخصيتة بصدق وعمق وهذا هو أرقى درجات التعبير الأدبى وأصفى منبع للشعور الصادق .

فهو لا يتعمق نفوسنا ، ويغور فى أعماقنا فحسب ، بل يهزنا هزا عنيفا من داخلنا ويصدمنا دائما ، وان شئت فقل يفزعنا ، ويعرض أمامنا الحياة ومتناقضاتها ويأخذنا فى رحلة المعاناة والصراع ولكننا فى النهاية لا نفقده .. بل ينتقل من جيل إلى جيل لأن ثمره لا ينقطع ولا يمتنع ، فالأجيال تتناقله ، والمسافات تتلاشى أمامه ، ولا يجمد أو يتقوقع فى قالب محدد ، بل يرى فيه كل جيل ضالتة ، ويرى فيه نفسه ، وأمنه ، وخلاصه ، لأن المعانى تتولد منه ، وتتكاثر تكاثرا يقاوم عوامل الانحلال والضعف ، لانها حملت تجارب الإنسان . المعقدة منها والميسرة وعبرت عن نفسيته وما يعتورها من دواعى القبض والبسط ، والإدبار والإقبال ، والتجارب التأملية التى خاضها المهجريون لا تمت إلى النمطين ، الأول والثانى بصلة ما اللهم إلا فى القليل النادر .

وهى تتعلق بأسباب جوهرية وأصيلة بالنوع الثالث ولذلك حظيت بالتقدير والثناء وأثرت فى تجارب الكثيرين ونفوسهم .

ولم يتسم هذا الأدب بهذه الخصوصية إلا بتضافر الشكل مع المضمون فى إظهار قيمته واستمرار تأثيره فى الناس .

١ - وأهم الخصائص التى يتسم بها المضمون عند المهجريين هى :

أ - التأمل .. ولا يقتصر التأمل على الاتجاهات الفلسفية ومحاولة الكشف عما وراء الطبيعة بل اتجه المهجريون إلى الحياة يتأملون ويعالجون مشاكلها فادبهم ، مشغول بالحياة

وجميع مقوماتها متفاعل معها كل التفاعل وجدانيا وفكريا بصورة ايجابية ومع ذلك فللرومانسية وللرمزية وللسريالية والكلاسيكية فيه نصيب ، والرومانسية واضحة فيه بتأثير الرومانسية الفرنسية وورومانسية الأدب الأمريكي نفسه . (١) فواقع الحياة ليس بعيدا عن مضمون الأدب المهجري .

والواقعية التي يمثلها هذا الأدب تؤمن بواقع الإنسان الخير ، وتحاول أن تروض طباعه ولا تفقد الثقة فيه . وتقترب من الشعور الرومانسي حين تتعاطف مع المراهقين والبؤساء . وتنوح في كثير من المواقف .

والمتأمل لنتاجهم يعثر على الحقيقة السابقة . (٢) كالقصص التي أبدعها جبران ومقالات « نعيمة » وأشعار العصبة الأندلسية ، وقصائد أبي ماضي الرمزية التي تنادي بالمساواة . ونبذ الأحقاد . والإخاء الأنساني .

وبهذا تبعد هذه الواقعية الجديدة عن الواقعيه الغربية التي ترى أن الإنسان شر في ذاته ولا يثمر إلا الحنظل وذلك أن هدفها كشف الواقع وبيان أعماقة وإبراز خفاياة وتعتقد أن ما يبدو من الإنسان من نبل وسمو ومثالية ليست واقع الإنسان وليست حقيقته ولكنها مجرد قشرة سطحية يغلف بها الإنسان سوء طويته . (٣) وتقترب واقعية المهجريين من المثالية وربما يبدو هذا غريبا ولكن الطريقين الواقعي والمثالي لا يمكن أن يكون لكليهما نصيب من التعبير إذا أريد أن يكون فنيا . (٤)

ب - التركيز :

وخاصية التركيز يتمتع بها نتاجهم النثري أكثر من بعض النتاج الشعري لأن الشعر دون النثر في كثير من نماذجه فهو يميل إلى الإسهاب والتوضيح والقياس والاستطرادات والتداعي اللفظي يقول ميخائيل نعيمه .

(١) د / محمد عبد المنعم خفاجي : قصه الأدب المهجري ص ١٤٦.

(٢) وضحت في الفصل الثاني من هذا الباب الاتجاة الاجتماعي والوطني واهمية التفل في أدب المهجر والامثله هناك تحلله تحليلا كافيا .

(٣) د / عبد الرحمن شعيب الأدب المقارن مسائله ومباحثه ص ٣١١ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٠٧ .

فصغيرا قد كنت أطلب لو كنت كبيرا ولى صفات الكبير
وكبيرا لو عدت طفلا صغيرا واستردت نفسى نعيم الصغير
وخليا لو كنت بالحب مضنى وأسير الغرام ، لو كنت حرا
وفصيحا لو كنت عيا سكوتا وسكوتا لو كنت أنطق درا
وحكيما ، لو كنت غرا وغرا لو عرفت المكنون سراً فسراً(١)

وواضح أن ولع الشاعر بالمقابلة بين المعانى والألفاظ قد جعل الأبيات قريبة من الصياغة النثرية وكان يمكنه أن يحيلها إلى عمل « درامى » تتعدد فيه الأصوات والمواقف ويجسمه الحوار الفنى كما فعل « ابو ماضى » فى الأسطورة الأزلية .

فالتركيز الذى اتسم به النثر والشعر أحيانا بجانب إضاعة الوقت فى التكرار والثرثرة مما يصبغ الأدب المهجرى بصبغة فنيه جادة حيث ينمو ويظل حيا دائم التجدد ، ويعنى بالإنسان أولا وأخيرا .

ومن هذا الأسلوب المركز أسلوب جبران فى كتبه ، رمل وزبد ، والنبى وحديقة النبى والبدائع والطرائف وأسلوب شفيق معلوف فى كتابة ستائر الهودج وهو فى القسم النثرى منه حوار دافىء مجنح بين الشاعر ونجيته ، وهو جديد فى شكله ، جديد فى مضمونه ، جديد فى صوره ، جديد فى موسيقاه التى تنبع من أحاسيس الشاعر قبل أذنيه .

حيث نلمح التجربة الصادقة والوحدة العضوية والموضوعية ، والصور التعبيرية فيه تتآزر فيها الألفاظ ، والصور ، والعبارات حتى تكمل التجربه ويجىء التعبير عنها صادقا مؤثرا يقول شفيق معلوف .

الشاعر :

صبغ وجهك الحياء
وقد نشر الطائر جناحيه
ففتح للعراف دفتى كتاب
فهل خشيت أن يقرأ العراف ما فى قلبك ؟
مهما عمقت مياه الينبوع

---

(١) م . نعيمة : همس الجفون ص ٢٣ .

رشحـــت دموعـــه على ظاهـــر الحصـــى
ومهمـــا تكتـــم النسيـــم
نمـــت عليـــه ظـــلال الاوراق
المرتعشـــة علـــى الأرض
مـــر الجـــواد كالـبرق الخاطـــف
يحثـــه مهمـــاز الشبـــاب
فاختلـــج قلبـــك لوقـــع حـوافـــره
وعلقـــت عينـــاك بغبـــاره
فعـــدت خائبـــا إذ لا جـــواد عنـــدى
يضـــرب بحافـــره الأرض
فيرقـــص مـــن حـــولك الغبـــار
النجيـــة :
أنـــا لغـــز صـــو يحباتـــى
اتركهـــن فـــى أوج اللهـو لأتبع الفـــارس
الـــذى بهرنـــى جـــمال جـــواده
فألحقـــه بصـــرى
وأود لـو يـــر دفنـــى وراءه
لأن روحـــى تشتـــاق الجـرى فى الفضـــاء
حجب الغبار بصرى فلم أرك يا من لا جواد عنـده
وانجلى الغشاء ، فإذا بك تثيـــر الغمـــام
على جواد لا يمـــس حافـــره التـــراب (١)

وكتاب زاد المعاد لنعيمه حقل خصب لأسلوبة النثرى الفلسفى المركز .

ففى مقاله الأخير « على ضريح رفيق » (٢) يقول فى اسلوب مركز ينأى عن الصنعة الشكلية فالمعانى تتكاثف فيه حتى يظن أنها تحجب عنا فكرة الشاعر لولا إشراقة تنبعث من

(١) شفيق معلوف : ستائر الهودج ص ١٥ ، ١٦ .
(٢) م . نعيمه . زاد المعاد ص ١٤٨ .

قلب الأديب فتحيل الفلسفة شعورا والفكرة الصارمة نبضا إنسانيا حسيا وفكرة الشاعر منبعثة من تجربته التى خاضها ، وليست جسما غريبا عنها .

يقول ها هى السماء قد أمطرتنا فى هذا الصباح مدرارا ، فأين القطرات التى هبطت من السحاب ؟ لقد تغلل بعضها فى التراب ، وتصاعد بعضها إلى الجو ، ولكن يدا خفية ستعود بها من مخابئها ، إن لم يكن اليوم فغدا ، إلى البحر الكبير الذى انفصلت من بحر الوجود الاعظم ؟ ومهما تقاومت بها الغربة لابد لها من العودة إلى البحر الكبير ، إلى حضن خالقها .

وفى كتاب « رمل وزبد » يبث جبران خواطره وأراءه وتأملاته فى الحياه ويقول :

« بين جانحتى كل رجل وكل امرأة قليل من الرمل ، وقليل من الزبد . لكن بعضنا يبين ما بين جانحتيه وبعضنا يخجل . أما أنا فلم أخجل فالتمسوا لى العذر وامنحونى المغفرة » .

هكذا يفصح جبران عن هذا الرمل وهذا الزبد ، وكأنه يرمز بهما إلى أوراق النفوس وهنات القلوب ، وهو يود لو بدا الناس صرحاء لا يغمرون شيئا وهم يفعلون غيره ، والكتاب بعد هذا أدب رمزى ، فى أدق ما يكون الأدب الرمزى . ثم هو كلمات إنسانية تطوى رسالة إنسانية من أجل ما تكون الرسالات » . (١)

يقول جبران :

علـــى هـــــذه الشطـــــآن أسعـــى إلى الأبد
بــــين الــــــرمل مسعــــــاى وبـــــين الزبد
ســـــوف يطغى المد على آثار قدمى فيمحو ماوجد
أمـــــا البحـــر وأما الشاطىء فباقيان إلى الأبد

ويقول فى رمزية : مكثفة مفسرا تحكم العقل فى الإنسان بدافع من أنانيته

العقل فينا اسفنجة والقلب جدول

أليس عجيبا أن أكثرنا يؤثرون أن يمتصوا على أن يسيلوا .

(١) رمل وزبد : « مقدمة د / ثروت عكاشة ص . ١٤ .

ج - الهمس :

والأدب المهجرى أدب مهموس أى أدب المناجاة والحديث القريب إلى أذنك وقلبك ، وليس من الأدب الخطابى الرنان المجلجل .

والدكتور محمد مندور يعد أول من وصف الأدب المهجرى بهذه الصفة وقد اخذ هذا الاصطلاح من قراءته فى الأدب الفرنسى واطلاعه على آثار النقاد الأوروبيين .

ويقول مدافعا : عن نظريته « إن الهمس فى الشعر ليس معناه الضعف ، ولكنه الدنو من القلوب ، إن الهمس ليس معناه الارتجال حيث يتغنى الطبع فى غير جهد ولا إحكام صنعة ، وانما هو إحساس بعناصر اللغة واستخدام تلك العناصر فى تحريك النفوس وشفائها مما تجده(١) .

وطبق د / مندور رأيه على قصيدتين . إحداهما قصيدة يا نفس « لنسيب عريضه » وهى ذات مضمون فلسفى تأملى ، والأخرى قصيدة « يا أخى » وهى من الشعر النابض بالإحساس القومى النابع من الوجدان الجماعى الذى يأسى لهموم الإنسان ومشكلاته وصراعه ضد القوى الغاشمة التى تسحق وجوده .

وهو بهذا الاختيار يدلل على صدق نظريته فالهمس فى الشعر لا يقتصر علي المشاعر الشخصية أو التجارب الذاتية فالأديب الإنسانى يحدثك عن أى شىء يهمس به فؤادك ولو كانت التجربه تتعلق بالحرب وويلاتها وشرورها كالتجربة التى عبر عنها « نعيمه » فى قصيدة « يا أخى » .

أو تعالج مشكله فلسفية صارمة - كالتجربة التى عبر عنها نسيب فى قصيدتة « يا نفس ويفرق د / عبد الرحمن شعيب بين « الهمس والإيحاء » فيقول . (٢)

« فالهمس فى الشعر هو قدرته على مناجاة النفوس والحديث إليها حديثا حانيا يحرك مشاعرها ، ويثير انفعالاتها ، ويهز أحاسيسها أى ما يثير التلاؤم الوجدانى والتجاوب العاطفى بين الشاعر وقرائه ، ولكن الإيحاء يخالف ذلك إلى حد ما ، فهو لا يقف عند التجاوب والتعاطف ولكنه يتعدى ذلك إلى دنيا أوسع من ذلك ، حينما تتفتح أمام النفس أودية رحيبة من الانفعالات المتشابكة والعواطف المتداخلة .

(١) د / محمد مندور : الميزان الجديد ص ٢٢ .

(٢) د / عبد الرحمن شعيب : فى النقد الأدبى الحديث ص ٣٠ .

وهذا التفريق بين هاتين الظاهرتين فى النقد الحديث لا أرى مبررا له لأنهما ممتزجتان فى العمل الجيد ، متعانقتان فى الكشف عن صدق العاطفة وعمق الفكرة .. فالنص الجيد يهمس ويوحى ويفكر بعاطفة مؤثرة .

وبعض النقاد يتهم الشعر المهجرى ويدعى أنه يخلو من الإيحاء ، وهو ادعاء لا يسانده الواقع ، وترفضه النماذج الأدبية الراقية التى تمتلىء بها دواوين المهجريين .

فديوان الخمائل والجداول يفيضان بالقصائد الكثيرة التى تشبه الكنز أو المدينة المتعددة الابواب حيث تتولد منها المعانى وتجد المشاعر فيها الأمان .. فالشاعر يبدأ ديوان الخمائل بقصيدة يسميها « المدخل » وكأن الديوان حديقة غناء خمائلها ملتفة الاغصان ، متشابكة الجذور ، متنوعة الثمار ، يرى فيها كل إنسان ضالته ولكن عليه أن يعرف المدخل حتى يهتدى إلى الحقيقة التى ينشدها ، يقول أبو ماضى . (١)

وقعــــت نخلـــة علــى الأقحـــــوان ... فـــــاذا فـــى القفيـــر شهــــــد
ومشـــت بعدهـــا علـــى الأغصـــان ... دودة فالغصـــــون جـــــرد
وهمـــى الغيـــث فـــى الحقول ففيهـــا ... شجـــــر وارف وزهـــــر
وأصــاب الرمـــال كـــى يحييهـــا ... فهمـــا ميـــت وقـــبر

فالصورة التعبيرية فى المقطع السابق متناسقة موحية .ألست ترى معى ألفاظ « النخلة » والأقحوان ، والقفير ، والشهد ، والأغصان والدودة والغيث ، والحقول ، والزهر ، والشجر ، والرمال يسوقها الشاعر لا ليصف روضة رآها . وإنما ليرمز إلى ما هو أعمق من ذلك .. إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية وموقف الشاعر من الناس ، ومنهجه المحدد فى الحياة .

فالنخلة رمز للعطاء فقد أعطت الشهد للروض ، والدودة رمز الفساد الإنسانى الذى لا يعطى ولكن يدمر ، والغيث رمز لمن يعملون على استمرار الحياة ، والحقول ترمز إلى الطبائع الإنسانية المتجاوبة مع دعوات الإصلاح ، القابلة للتجديد والعطاء ، والرمال رمز للطبائع الفاسدة التى تفسد كل ما تراه ولا تستجيب لدواعى الخير والأمان .

فالكلمات السابقة فى « القصيدة » ما هى إلا أدوات تعبيرية جسد بها الشاعر تجربته فى لغة هامسة موحية مركزة قريبة من واقع الانسان ، لا ينتبه إليها إلا من تيقظ حسه وكأن الشاعر يريد أن يقول : إن هذه خمائلى – من يرد أن يصحبنى فيها أو ينشق عطورها أو يتذوق ثمارها ، فلتكن هذه مبادئنا .

---

(١) أبو ماضى – الخمائل ص ٧ .

أنـــا غيـــث فـــان وجدتـــك حقـــلا فأنـــــا العشـــب والشـــجر
غـــير أنـــى إذا لقيتـــك رمـــلا لســـت شيئـــا حتـــى المطر

ومن النماذج الموحية الهامة قصيدة « قشورولباب » (١) للشاعر شكر الله الجر يقول فيها .

كـــل مـــا خلنـــاه قشـــرا صـــار فـــى الأرض لبـــاب
أتـــرى الأرواح تمشـــى جـــواهـــرا خلـــف الـــتراب
إن أمـــر البعـــث ســـر كـــائن خلـــف الـــوجـــود
ووجـــود المـــرء غصـــن جذعـــه تحـــت اللحـــود

ومنها قصيدة : الهزار المنتحر (٢) « للشاعر رياض معلوف ويقول فيها :

كنـت طلـــق الجنـــاح غـــير مقيـــد يـــا هـــزارى تختـــال بـين الغصـــون
أسرتـــك الأقفـــاص كـــم تتنهـــد فـــى جـــوارى بحرقـــة وشجـــون

والشاعر يحن إلى الحرية . ويدافع عنها . ولذلك عبر عنها فى الصورة الفنية السابقة.

وقصائد نعيمه وبخاصة التى كتبها بالإنجليزية وترجمها إلى العربية توحى بالكثير من المعانى وتهمس فى حب عميق ، وكأن القصيدة لوحة شعرية متكاملة ، متناسقة وقصيدتا « الحائك » ، والجائع » نموذجان فريدان للشعر الذى يفيض بالمعانى الثرة والمشاعر النبيلة ، والذى يتخذ الرمز وسيلة للتعبير عن الموقف والتجربة وأثبت هنا قصيدتة « الحائك » يقول :

أنا هـــو المنـــوال والخيـــط والحـــائك
وأنـــا أحوكـــه نفســـى من الأموات والأحياء
أمـــوات الأمـــس واليـــوم
والأيـــام التـــى مـــا ولـــدت بعد
والـــذى أحـــوكه بيـــدى
لا تستطيـــع قـــدرة أن تحـــله
حتـــى ولا يـــدى

(١) ديوان زنابق الفجر ص ١٢١ نقلا عن د/ خفاجى – قصة الأدب المهجرى ص ٤٠٥ ج ٢ .
(٢) د / خفاجى قصه الأدب المهجرى ج ٢ ص ٤١٠

تلك هـــى حكـــايتى يا عابـــر السبيـــل
فـــاضــــرع معــــــى
كيـــما تكـــون المحبـــة قـــائدا لمكـوكك.
مثلمـــا هــــى قــــائدة لمكـــوكى
فـــى هذه اللحظة التى أراك فيها علـى منوالـى
صـــــورة سرمـــديـــة كالقـــــدر
وســــرا ســـــرمديا كــــالله
والآن ســـــر فـــــى سبيـــــلك
ولا تقـــــل لـــــى وداعـــــا
فلنـــا لا أقـــــول وداعـــا لأحد
أنـــا مــــاض فـــى حكايتـــى

د – الشكل :

وكما انفرد الأدب المهجرى بسمات خاصة فى المضمون كان لابد أن يصاحب هذه الخصائص تجديد فى الشكل لأن المضمون والشكل ممتزجان وأعنى بالشكل كل ما يستخدمه الأديب لإبراز مضمونه من ألفاظ وعبارات وصور وموسيقى وأخيلة حيث تتآلف كلها فى إعطاء صورة جمالية تنقل لنا إحساس الأديب وفنه .

وقد اتسّم الأدب المهجرى بالتحرر فى صياغة الشاعر والتعبير عن الأفكار وهذا التحرر التعبيرى فى الشعر المهجرى أكثر ما يكون فى شعر نسيب عريضة وميخائيل نعيمه ، وأبى ماضى ، ورياض المعلوف .

وقد تمثل هذا التحرر فى تجديدهم لهيكل القصيدة حيث لم يتمسكوا أحيانا بالتفعيلات والبحور بقواعدها الموروثة

فنسيب عريضه فى قصيدتة « النهاية » [1] يقول ساخرا من استسلام أهل وطنه للمستمر الغاشم .

(١) نصيب عريضه : الأرواح الحائر ص ٦٥ .

كفنـــــوه !
وادفنـــــوه !
واسكنـــــوه
هـــوة اللحـــد العميـــق
فهـــو شعـــب مـــيت لـــيس يفيق
رب ثـــار
رب عـــار
رب نـــار
حركـــت قلـــب الجنـــان
كلهـــا فينـــا .. ولكـــن لـــم تحرك
ساكنـــا إلا اللســـان

فالشاعر فى هذه القصيدة يلتزم بالتفعيلة فقط .. ولم يتمسك بشطرى البيت أو مجزوء بحر الرمل .. وانما ترك إحساسه يصوغ موسيقاه .. وقد تطور فيما بعد هذا النوع من الشعر .. وأطلق عليه اسم الشعر الحر أو « المرسل » ومن المهجريين من صاغ مشاعره على هذا النحو مثل أمين الريحانى يقول من قصيدة بعنوان « ريح وسموم » كتبها فى عام ١٩٠٧ .

بربـــك القيـــوم
مالـــذى تظنـــه يـــدوم ؟
صـــوت سمعتـــه فـــى الكروم
وقـــد مـــرت عليهـــا سمـــوم
فجفـــت الأرض وعـــادت كثيـــرة الكلوم
سقطـــت الجفـــان ، وفزعت الأوراق إلى الغيوم
صـــوت صـــارخ فـــى النجـــوم
مـــا الـــذى تظنـــه يـــدوم ؟

« وحول هذا الشعر الحر ثار جدل عنيف بين النقاد والأدباء ومازال إلى اليوم وكل فريق يدلى بحجته » .

وليس هذا معرض الحديث عن هذه القضية ولكن أثبت هنا رأى الدكتور عبد اللطيف خليف لما فيه من إنصاف وبعد عن التعصب يقول : (١)

« وأود أن أشير إلى أن محاولة الشعر الحر لم يتهيأ لها بعد الشاعر الفحل يفرض عليها مضمونا غنيا ، فينصت إليه الناس ، أو يفرض لها إطارا جديدا لا يبعد عن مقومات شعرنا العربى فيستهوى الناس ، ولم يتهيأ لها بعد الإطار المستقر الثابت لأنها ما زالت تتردد بين إطارات شتى لا يتفق عليها أصحابها الأدلاء . (٢)

وقد أرسلت للشاعر رياض المعلوف رسالة فى ٢ ابريل سنه ١٩٧٨م ووجهت إليه سؤالين يتعلقان بالإيقاع الشعرى الذى يفضله ثم دوره فى تطور القالب الشعرى المتوارث فأجاب مشكورا ·

سؤال (١) : أى البحور الشعرية تميل إلى النظم فى موسيقاها ؟ ولماذا ؟

جواب : أحب البحور الشعرية إلى شعرى وإلى سمعى هو - الخفيف - ربما لخفة روحه الشعرية ! أو لخفة وزنه ! وتقاطيعه وموسيقاه الناعمة ! وخفة حركته وصدق الذى قال فيه : ياخفيفا خفت به الحركات !! وهذا لايعنى أننى لم أعتن بغيره من البحور كالمتقارب والرجز والكامل ومجزوءاتها ، ومن غريب أمرى أننى لم استعمل البحر الطويل إطلاقاً ولا أستسيغه .. ولا أعلم إذا كان ذلك لطول تفاعيله ومن طبعى الاختصار عادة .

ومن غريب أمر الشعراء أن خليل مطران كان ينظم على السجية الفطرية وكذلك عمر أبو ريشه كما أقر بذلك فى مقابلة إذاعية ببيروت منذ أسابيع ولى خال شاعر معروف أيضـــا هـــو " قيصر المعلوف " أحد مؤسسى ندوة رواق المعرى بسانبولو البرازيل وله قصيدة شهيرة جداً هى " عليا وعصام " ومطلعها :

---

(١) أنظر آراء النقاد والشعراء فى هذه القضية فى كتابنا : محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة : دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤ م .

وأنظر كتاب : موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور : للمؤلف نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٩٢.

(٢) د / عبد اللطيف خليف : التيارات الجديدة فى الشعر العربى الحديث فى مصر ص ٢٤٤ .

رُلـــى عــرب قصـــورهـــم الخيـــــام   ومنزلهــم حمــــــاةوالشـــــــآم
إذا ضاقـــت بهـــم أرجــــاء أرض   يطيـــب لغيرهــــم فيهــا المقـــام

وخالى قيصر هذا نظم قصيدة فى الزعيم سعد زغلول - على السجية والفطرة وقبل نشرها أسمعها إلى والدى العلامة عيسى اسكندر المعلوف عضو مجامع اللغة بالقاهرة ودمشق وبيروت فدقق والدى بها فوجدها لا وزن لها ولا فى العقد الفريد وفيه كل الجوازات الشعرية كما هو معلوم .

والقصيدة سماعيا وموسيقيا تخالها موزونة ولكن لا وزن لها وكأنه ابتدع لهاهذا الوزن ، ولم يصرف النظر عن نشرها رغم ذلك فأرسلها يومئذ إلى الأهرام ونشرتها فى صفحتها الأولى مع إطراء الشاعر والقصيدة .

وهذا ما يذكرنا بما قاله الشاعر أبو العتاهية حينما قال له أحدهم إنه وجد خللا بالوزن فى إحدى قصائده . فأجابه أبو العتاهيه أنا أكبر من الأوزان !!

سؤال (٢) : ما مدى مساهمتكم فى تطور القالب الشعرى المتوارث ؟

جـــواب : لربما باعتمادى لمجزوء بعض البحور الشعرية وموشحاتى بتضييق مجال الموجة الشعرية فى البحر ومجزوءاته للتركيز على الصورة والجرس الموسيقى فكان بها شىء ما من التطور الذى ربما اعتمده أو لم أعتمده ! وجاء صدفة والله اعلم .   زحلة لبنان : رياض المعلوف ١٠ مايو ١٩٧٨م

-٢-

ولم يقتصر تصرف المهجريين فى أدبهم علي الهيكل الخارجى ، وانما حاولوا التصرف فى المواد الخام لأعمالهم الفنية .. فعمدوا إلى استحداث ألفاظ لم ترد فى الشعر العربى .

وقد كان ذلك فى كثير من الأحيان عن وعى منهم ورغبة فى التجديد ، فقد يشتق بعضهم كلمات جديدة لاعتبارهم إياها أبلغ أثرا أو أجمل موسيقى أو لغير ذلك من الاعتبارات (١) ووقع بعضهم فى أخطاء لغوية .. وجاء تعبيرهم ركيكا بعيدا عن اللغه الفصحى .

فجبران يقول فى مواكبه

(١) د / خفاجى - قصة الأدب المهجرى ص ١٤٧ .

وتحممت بعطر .. وتنشفت بنور (فالفعل تحمم فيه خطأ لغوى والصواب « استحم » والتعبير بالفعل وتنشفت .. فيه ابتذال لا يتناسب مع جو القصيده الفكرى العميق . ومن تراكيب نعيمه الركيكة « ماذاك فكرى » يقصد لا أعنى هذا « خجل بلباسى » أى من لباسى وكثيرا ما يلجأ أبو ماضى إلى الضرورات الشعرية التى تدل على الضعف اللغوى ومن ذلك قوله : سلمى بماذا تفكرين « بتخفيف الكاف وتسكين الفاء . والصواب تفكرين » وتارة يسكن التاء المربوطة وينطقها تاء عند الوقف عليها مثل قوله :

إن التـــأمل فـــى الحيـــاة يزيد أوجاع الحياةْ

فدعـــى الكـــآبة والأسى واسترجعى مرح الفتاةْ

واستعمل بعضهم الألفاظ العامية كقول نعيمه « قازان »

ويامـــا هربـــت مـــن الكلبـــة   ويامـــا لعبـــت مـــع البســـة

وقد استعمل نعيمه كثيرا من الكلمات الأجنبية وعدها جزءا من اللغة مثل « التاكسى - التليفون - البرنيطة - السيكارة » .

-٣-

وقد أدى بهم جموحهم هذا إلى توجيه سهام النقد من الأدباء والمحافظين فى المشرق العربي وفى مقدمتهم الشاعر عزيز أباظة الذى يقول « (١) ولشعراء المهجر صناعة بيانية ربما ازورت قليلا عن الذوق العربى السليم فأسلوبهم فى الشعر - الا نفرا منهم لا شىء فيه من البلاغة وحسن السبك » .

وشعراء المهجر وأدباؤه يرون أن التقيد بالقوالب الجامدة يعوق خيال الإنسان عن الانطلاق ، ويقيد مشاعره فلا تحلق فى آفاق التأمل فيما حولهما من ظواهر وقيم .. ويرد عليهم « عزيز أباظه قائلا » (٢) ويعللون ذلك بأن لغة الشعر يجب أن تنسلخ عن لغة الخطابة وان التأمل فى الحقائق الكونية تعجز الألفاظ الموشاة عن تأديته أصدق أداء ، ورأينا أن الشعر الخالد لا

---

(١) الشعر العربى فى المهجر « تصدير » عزيز اباظة ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩

تكفى المعانى وحدها لخلوده وانما لابد من مصاحبة القيم التعبيرية له حتى يظفر بالبقاء ويكتب له الخلود وحجة الأستاذ عزيز اباظة قوية . ولكن ليس معنى هذا أن يصير الشعر تقليدا ومحاكاة ولكن لابد له مع الصياغة الرصينة والخيال المحلق من الابتكار وفنية الأداء .. وهذا ما كان عليه كثير من ادباء المهجر .

والدكتور « مندور » يدافع عن أخطائهم اللغوية فى النحو والصرف ملتمسا لهم العذر ما دام شعورهم غنيا فيقول[1] إنها أشياء نادرة لها نظائرها عند أكبر الكتاب . وإنما يعيب الاسلوب عدم التحديد أو العجز عن الإيحاء .

وهذا التساهل فيه إهدار لحرمة اللغة فهى اللبنات الأساسية للعمل الفنى وإلا فكيف يمكن أن يصوغ مشاعر من ليست له دراية باللغة ويدافع د / مندور عن استخدامهم للألفاظ المألوفة « المبتذلة » إذ لا يرى فيه عيبا لأن ذلك مما يساعد الشاعر على أداء المشاعر الحقيقية الخفية .

وأما الإسراف فى الصور والقلق وقوة النغم التى تخرجه عن الهمس أحيانا والمبالغة التى تخرجنا إلى الألفة والإغراب وتلمس المعانى البعيدة والصور المقتسرة فقد يكون مرد ذلك إلى صدق الشاعر المهجرى فى التعبير عن نفسه وإحساسة الباطنى .

-٤-

ومن النماذج التى تمثل ضعف الأسلوب بدعوى التجديد قول « جورج صوايا » وهو يدعو عرب المهجر إلى ترك طريق شعرائنا المقلدين والى إهمال العادات القديمة وإلى مجاراة الإفرنج فى منهج حياتهم .

يقول :

واتـــرك أبحاثـــا ينبذهـــا شعـــرا نهضتنـــا الحاليـــة
جـــار الافـــرنج بمـــا بلغـــوه مـــن الدرجـــات الـوصفـــية
واهمـــل عـــادات قـــد رثـــت لعراقتهـــا فـــى القدميّـــة

وهذا النموذج من الشعر يحمل كل المثالب التى يمكن أن توجه الى الشعر المهجرى مع أنها تدعو إلى الثورة على القديم والأخذ بكل جديد .

(١) د / مندور / فى الميزان الجديد ص ٧ .

فهى أشبه بهتافات المظاهرات والإعلانات التجارية ، ولهجتها الخطابية تبعد بها عن أى ايحاء أو همس يؤثر فى النفس ومباشرتها الفجة تجعل من الشعر قشورا يابسة لا حياة فيها .

والضعف اللغوى فى كلمة « شُعرا » والتعبير فى قوله « نهضتنا الحالية » مبتذل والمقطوعة خالية من أى صورة شعرية .

وذلك النموذج ليس مقياسا للأدب المهجرى – فهناك الروائع الفنية للأدباء الآخرين .

والنثر المهجرى « نثر صادق كالأسرار يتهامس بها الناس وحين تسمع هذا النثر يخيل إليك أنه أت من أعماق الحياة » (١)

٥ – خصائص الصورة الأدبية فى الشعر المهجرى

يتضافر المضمون مع الشكل فى خلق التجربة الشعرية عند أدباء المهجر فتأتى القصيدة لوحة شعرية متكاملة تجمع إلى فن القول فن التصوير والرسم وتتكون الصورة الأدبية عندهم من تآلف وانسجام الألفاظ والعبارات ، والتصوير والخيال والموسيقى حيث تعبر القصيده عن نفسية قائلها أصدق تعبير .

ولم تأت القصيدة عندهم مفككة ليس بين أبياتها ارتباط أو بين أفكارها تآلف وتناسق ولم تأت صورها من قبيل الصور الجزئية ، بل الصور عندهم تمتد لتكون فى النهاية صورة كلية مؤثرة ، وبذلك تكتسب القصيدة عندهم وحدة فنية ووحدة عضوية وبخاصه فى القصائد التى تأتى فى الثوب القصصى .

وإذا كان نتاجهم الشعرى يترجم الحقائق السابقة فإن آراءهم النقدية تقوم دليلا على وعيهم بقيمة العمل الأدبى الناضج . فقد بينوا رأيهم فى الشاعر .. وفى التصوير الشعرى ، والخيال الشعرى ، ووحده القصيدة العضوية .

– ١ –

يقول : ميخائيل نعيمه عن الشاعر « (٢) نبى وفيلسوف « ومصور ، وموسيقى وكاهن .

(١) المصدر السابق ٦٩ .
وارجع الى كتاب : مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر للمؤلف دار المعارف ١٩٨٤ حيث رصد المؤلف التيار التأملى فى النثر المهجرى .
(٢) م . نعيمه : الغربال ص ٧٤ .

– نبى لأنه يرى بعينه الروحية مالا يراه كل بشر .

– ومصور لأنه يقدر أن يسكب ما يراه ويسمعه فى قوالب جميلة من صور الكلام .

– وموسيقى لأنه يسمع اصواتا متوازية حيث لا نسمع نحن سوى هدير وجعجعة ، العالم كله عنده ليس سوى اله موسيقية عظيمة تنقر على أوتارها أصابع الخيال وتنقل ألحانها نسمات الحكمة الأبدية .

وعن الصدق فى صياغة المشاعر وعدم المبالغة أو الإغراب فى الخيال ، وضرورة التناسب بين القالب والروح يقول .(١) « الريحانى » خذو بيانكم – مجازكم واستعارتكم – من لوح الوجود ومن الحياة لا من الكتب والدواوين ، ليكن فى خيالكم حقائق كونية مباشرة ، وليشع من هذه الحقائق الخيال ، حافظوا على التناسب والتوازن بين الصيغة والمعنى ، وبين القالب والروح ، واذا كنتم طائرين مثلا فليكن القول خفيفا مجنحا ، وإذا كنتم متألين أو ناقمين فلتكن الأمواج اللغوية من نوب الحديد ، تجنبوا السخافة فى الفكر والوصف وفى الصورة الشعرية وفى الخيال لا تسخروا الشمس والقمر مثلا . كما سخرهما قبلكم ألف شاعر وشاعر .

فدعوة « الريحانى تتجه إلى التجديد فى الصورة الشعرية وأن تكون من واقع الإحساس الذى ينبع من أعماق الشاعر ، ويثير الريحانى » قضية مناسبة الإيقاع والألفاظ للغرض المعبر عنه وهى تتفق مع الجو النفسى للتجربة الشعرية .

وكما أوضح نعيمه رأيه فى الشاعر . يوضح رأيه فى الخيال الشعرى بوصفه وسيلة من أهم وسائل التعبير يقول « (٢) إن الشعر قوى هائلة تجسم أحلامنا عن الجمال والعدل والحق والخير ، وتروى ظمأ أرواحنا إلى الحياة التى تعشقها ولكن لا نراها بعين ولا نسمعها بأذن ، وخيال الشاعر هو روح هذه القوة وجوهرها فما ذلك الخيال وما مادة وجوده وكيف يكون ؟ إن خيال الشاعر طاقة تستمد وجودها من حقائق الحياة التى يعيشها ، لا يضيف إليها ولا ينقص منها إلا ما تقتضيه الرؤية الفنية للأشياء ، وبعبارة أخرى فإنه ينسج صورته الخيالية من خيوط الواقع الذى يحيط به ، لكن بعد أن ينبذ منها ما يراه غير مناسب للصورة ، أولا يأتلف نسيجه مع بقية الخيوط ، أى انه يقوم فى تأليف صورته الشعرية بشىء من تغيير النسب التى تقوم عليها حقائق الأشياء فى الطبيعة ، وهذا هو خلق الشاعر الذى نسميه خيالا ، فمادة الخيال إذن

(١) د/ عبد الحكيم بليغ . حركة التجديد الشعرى فى المهجر بين النظرية والتطبيق .
(٢) م . نعيمه الغربال ص ١٥٦ .

لا توجد من العدم وإنما هى حقائق ثابتة لها وجود خارجى يصنفه الشاعر تصنيفا خاصا مستلهما من رؤيته الفنية ، وهذا هو الفرق بين الخيال والوهم ، فالوهم هو إيجاد أشياء وهمية « ليس لها وجود حقيقى » .

وعن وحدة القصيدة يقول أمين الريحانى فى وصاياه السابقه للشعراء « ليكن لقصائدكم بداية ونهاية فلا تقرأ طردا وعكسا على السواء » .

« ونحن إذا أحسنا الظن بهذه الجملة القصيرة فإننا نستطيع أن نقول إنها ترمى إلى ضرورة وحدة القصيدة وتماسك بنائها ، لأن معني أن يكون للقصيدة بداية ونهاية أن تتسلسل أفكارها داخل سياج شعورى موحد تحكمه وحدة الموضوع ووحده الجو النفسى ، فلا يقحم عليها موضوع غريب عن موضوعها ، أو فكرة غير متجانسة أو متآزرة مع أفكارها وبذلك يكون للقصيدة بداية ونهاية »(١)

وآمن المهجريون بما وراء الالفاظ من دلائل وأسرار ، فعرفوا أن اللغة ليست نظاما جافا فنعيمه يؤكد أن(٢) لمفردات لغتنا التى نستخدمها فى إبداع آدابنا شعرا ونثرا خصائص وميزات عجيبة ، والفنان الملهم صاحب الحس بخصائص هذه المفردات وما يكمن فيها من طاقات الإيحاء ، والتعبير هو الذى يستطيع أن يشكل منها صورة فنية رائعة ، منسجمة الألوان ، مؤتلفة الحركات ، شجية الاصوات بحيث يمكنها بتلك الطاقة الهائلة أن تحقق رسالة الفن ، بتعبيرها عن مطالب الانسان ووفائها بحاجاته - فلكل كلمة معنى أو روح ، ولكل كلمة رنة . ولكل كلمة صبغة أو لون والمجيد من الكتاب والشعراء من إذا شاء الافصاح عن عاطفة أو فكر جمع بين مفردات يتولد من ارتباط معانيها معنى جلى، ومن اندماج ألوانها صورة واضحة جميلة ومن تآلف رناتها لحن رقيق شجى .

وليس لهذه القيم التعبيرية ثمرة إلا أذا تجسمت فى العمل الأدبى بحيث تأتى القصيدة ذات وحدة فنية تآلفت وانسجمت فيها الألفاظ والتعبيرات والصور والموسيقى وتسلسلت أفكارها . وسرى فيها شعور موحد ، هو صورة صادقة لنفسية قائله ويؤكد جبران هذا الاتجـــاه فيقول. (٣) أعنى بالشاعر ذلك المتعبد الذى يدخل هيكل نفسه فيجثو باكيا فرحا نادبا مهللا

---

(١) د / عبد الحكيم بلبع . حركة التجديد الشعرى فى المهجر ص ١٦٨ .

(٢) م . الغربال ص ٦١ .

(٣) م ونعيمه : همس الجفون ص ٥٢ .

مصغيا مناجيا ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وافعال وحروف واشتقاقات جديدة فيضيف بعمله هذا وترا فضيا إلى قيثارة اللغة وعودا طيبا إالى موقدها .

ومع بعض النماذج الشعرية التى تتحقق فيها القيم السابقة وكلها تندمج فى القصيدة اندماجا بحيث يصعب الفصل بينها - وأهم ما يميز بناء القصيدة فى الشعر المهجرى تلك الصورة الفريدة التى تدل على خيالهم السابح ، وتكون هذه الصور فى النهاية شريطا من المشاهد يعبر فى مجموعه عن صورة كلية - تتسم بالحيوية والحركة بما يشع فيها من ظلال وأطياف وإيحاءات وإيقاعات خفية تؤثر فى النفس وتنبىء عن صدق الشاعر ومهارته .

- ١ -

وقصيدة التائه لميخائيل نعيمه تتمثل فيها المعايير النقدية السابقة وأثبت هنا نصها :

« **التائه** » (١)

اســـير فـــى طريقـــى فـــى مهمـــه سحيـــقِ
ووحدتـــى رفيقـــى ووجهـــتى الفضـــا

* * *

مطـــيتىَ الـــترابُ وخوذتـــى الســـحابُ
ودرعـــى الســـرابُ ورائـــدى القضـــا

* * *

تسوقـــنى الثوانـــى فى موكـــب الزمـــانِ
ولســـت أدرى شانـــى فـــى معـــرض الـــورى

* * *

فـــلا القضـــا ينُبيـــنى و لا الرجـــا يهديـــنى
ولا السمـــا تعطـــينى نـــورا لكـــى أرى

* * *

بـــل فـــى ضلـــوعىَ نـــارُ تثيـــرها الأقـــدار
ياليتهـــا تختـــارُ ســـواى موقـــدا

* * *

---

(١) ديوان : همس الجفون : ميخائيل نعيمه .

نار بلا رماد   يشوى بها فؤداى
وليس إذ ينادى   من يسمع الندا

* * *

واحرقتى أواه   لو كنت أدرى ما هى
أشعلة الإله   أم شعلة الردى

* * *

فهى التى تحيينى   وهى التى تفنينى
وهى التى تسقينى   من جمرها ندى

* * *

وهى التى لظاها   أرانِىَ إلا لاها
وهى التى لولاها   لم أعرف الشقا

* * *

رباه هل بليّه   ذى النار أم عطيةٌ
تحلو بها المنيّهْ   ويعْذُب البقيا ؟

* * *

هل جرها عنادى   علىّ أم فسادى ؟
أم جرها انقيادى   لسلطة الهوى .

* * *

أم جرها غرورى   بفكرِىَ المبتورِ ؟
أم جرها قصورى   عن فهم ما انطوى ؟

* * *

رباه هل يلامُ   منْ رئُه أوامُ
ونوره ظلامُ   إن قلبه كبا ؟

* * *

أم يجلب العقابا   من يأكل الضبابا
ويرتدى السرابا   إن فكره نبا ؟

* * *

أخالقـــــى رحماكـــــا بمــــا بـــجرت يداكـــا !
إن لـــم أكـــن صداكـــا فصـــوتُ مـــن أنـــا ؟

* * *

رَبـــــّى ألا ترانـــى أســـاق كـالحمـــلانِ
ربـــى أمـــا كفانـــىِ عمـــاى والونـــى ؟

* * *

فابـــدل لظـــى نيرانـــى بجمـــرة الإيمـــان
واجعـــل مـــن الحنـــانِ للقلـــب مـــرهمـــاً

* * *

إذ ذاك بالتهليـــلِ أســـير فـــى سبيلـــى
وخالقـــى دليـــلى ووجهـــتى السَّمـــا

* * *

القصيدة تفصح عن تجربة قاسية خاضها الشاعر تتمثل فى حيرته وصراعه مع نفسه وقد نجح الشاعر فى التعبير عن تجربته وأعطى لقصيدته وحدة فنيه وعضوية .

فهو يبدأ القصيدة بتصوير نفسه سائرا فى مهمه سحيق ، ورفيقه وحدته ، وغايته الفضا والتراب مطيته ، والسحاب خوذته ، والسراب درعه ، والقضا رائده .

ولم تأت الفكرة مجردة بل جسمتها الألفاظ المعبرة بما حملت من دلالات وايحاءات ثرية . والالفاظ عنصر هام من عناصر الصورة الادبية – فلفظ – التائه – عنوان القصيدة ، يوحى بالجو النفسى لها ، وكأنه المفتاح الذى بواسطته تدخل عالم الشاعر القلق وعبارة « مهمه سحيق » توحى بأن الشاعر لا يعرف أبعاد طريقه ، وما أشد السخرية فى تعبيره عن الوحدة بالرفيق ، وتخيله أن الفضاء غايته .

والألفاظ لا تأتى غريبة عن البيئة التى يعايشها الشاعر أو الأديب والأديب الصادق المبتكر هو الذى يطوع مفردات اللغة التى يستعملها أبناء جيله للتعبير عن مشاعره مع المحافظة على سلامتها من اللحن أو ميلها إلى الابتذال .

ولذلك يأتى « نعيمه » بألفاظ تتفق وحياة الجنود . ولم تأت هذه الألفاظ من باب التقليد

والمحاكاة وإنما لأنه جرب هذه الحياة فى فترة من عمره وتظل هذه الحياة مترسبة فى نفسه يستمد من آثارها المخزونة فى عقله الباطن ما يلائم التجربة التى يمر بها وهنا يتخيل التراب مطية ، والسحاب خوذة ، السراب درعا . وقد لا نشعر بالألفة بين عناصر الصور الجزئية التى ساقها فى صيغة التشبيه المفرد ولكن إذا حللنا نفسية الشاعر وجدنا أنها صدى لنفسيته الحائرة القلقة وأنه قاسى من ويلات الحرب العالمية الأولى .

ويستمر الشاعر فى تصوير نفسيته وتجسيد حيرته مستعينا بأدواته الفنية الألفاظ والأخيله والموسيقى . فالثوانى تسوقه فى موكب الزمان ، وهو يجهل شأنه والقضاء لا يخبره بأمره ، والرجاء لا يهديه ، والسماء لا تعطيه نوراً « يهتدى به » .

ونلمح التلاحم بين الأبيات وتسلسلها ، والتآلف والانسجام فى العبارات مما يمنح القصيدة وحدة فنية وعضوية .

ويستعين بحروف العطف ليدل على التتابع فى نمو التجربة .

ويفاجئنا الشاعر بتفسير لحيرته بعد ما يئس من العثور على النور الذى يهتدى به ففى ضلوعه النار وأتى بلفظ « بل » وهى للإضراب ليربط بين عناصر الصورة وأجزاء التجربة .

بـــــل فـــــى ضلـــــوعى نـــــار تثيـــرهـــــا الأقــــــدار
ياليتهـــــا تختــــــار ســـــواى مـــوقـــــدا

هذه النار قد تكون نار الفكر المشتعل فى نفسه ، وقد تكون نار الشك ، وقد تكون نار الحيرة والفزع من الأوضاع السائدة فى هذا العالم .

وقد تكون نار الهداية ، والشعلة الإلهية – التى عبر عنها بعد ذلك فى القصيدة والشاعر يستمد من التراث الدينى الصوفى رموزه . فالنار فى التراث الدينى كانت بردا وسلاما على أبراهيم ، ووجد عليها موسى هدى من ربه .. وناداه « أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين » (١)

إذ قال موسى لأهله انى أنست نارا سأتيكم منها بخبر واتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون « فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » (٢) .

ولا شك أن النزعة الصوفية كانت من سمات التجارب التأملية التى خاضها شعراء المهجر

---

(١) سورة القصص الآيه رقم « ٣٠ » .
(٢) سوره النحل الآيه رقم « ٧ ، ٨ » .

وعبروا عنها بعمق وأصالة « وإذا كان الدين أو التصرف يطلب من المؤمن والمريد أن يخلص لصلواته وتأملاته وخلواتة فالشعر أيضا يطلب نفس الإخلاص فى الصنعة والتركيز والبعد عن شواغل الزمان والمكان والوجود والعدم والفرح والحزن(١) .

والعبارات فى أبيات القصيدة مبنية بناء متناسقا يشارك فى بناء الصورة بناء فنيا يقول:

فـــلا القضـــا يُنْبينـــى ولا الرجـــا يهدينـــى
ولا السمـــا تعطينـــى نـــورا لكـــى أرى .

فبناء العبارة فى الأشطر الثلاثة واحد .

وإيقاع القصيدة ملائم لفكرتها فكأنه إيقاع خطوات الشاعر القلقة وكأن الإيقاع مرادف لحركات الشاعر وخطواتة البعيدة عن الوثوق فهو حائر خطواته مهتزة .

ولا يترك الشاعر فرصه لنا لتفسير هذه النار بل يبدأ فى عرض موقفه منها ، وكيف أتت اليه ، ويجمع أجزاء الصورة فى أساليب استفهامية تدل على حيرته فيبدأ بالشكوى والحسرة لعدم معرفته كنه هذه النار .

ويقول :

أشعلـــة الإلـــه أم شعـــلة الـــردى

ثم يفسر هذا التساؤل فى تسلسل شعورى عجيب ومقابلات يعيبها الاستطراد والتداعى من عيوب الصورة عند المهجريين يؤدى بهم إلى النثرية فى مواقف تعبيرية كثيرة يقول :

فهْـــى التـــى تحيينـــى وهْـــى التـــى تفنينـــى
وهْـــى التـــى تسقينـــى مـــن جمرهـــا نـــدى

والتعبير بقوله « تسقينى من جمرها ندى » يوحى بحب الشاعر لهذه النار ويسعد بسقياها وان كان جمرا لأنها تطهر داخله ، وتكشف له عن زيف الحياة ، وتوصله إلى معرفة الإله وتشفيه لأنه لولاها لما كد وتعب وتأمل .

(١) د / عبد الغفار مكاوى ثورة الشعر الحديث ص ١٧

ويحاول إيجاد العلة لاندلاع النار فى ضلوعه . هل العناد ؟ أم الفساد ؟ أم الانقياد للرغبة ؟ أم غرور الفكر ؟ أم قصور الرأى ؟

وكلها تساؤلات تميز التجربة التأملية عند المهجريين ولا شك أن الإنسان لا يصل إلا بعد إمعان وتساؤل . ومن خلال هذا الموقف التأملى يندفع الشاعر فى صياغة أفكاره ، فالظمأ إلى الحقيقة رى للنفس والسير فى الظلام من أجلها نور للعقل .

وتوجه الشاعر إلى خالقة ليتمم لوحتة فيطلب من الرحمن الإنقاذ .. وهنا يجد طريقه وينادى :

أخالقى رُحْماكا   بما بَرَتْ يداكا
إن لم أكن صداكا   فصوتُ من أنا ؟

ربى ألا ترانى   أساق كالحملان
ربى أما كفانى   عماى والونى ؟

فابدل لظى نيرانى   بجمرة الإيمان
وأجعل من الحنان   للقلب مرهما

إذ ذاك بالتهليل   أسير فى سبيلى
وخالقى دليلى   ووجهتى السما

وهنا تتم اللوحة الشعرية ويجد التائه أمنه فى طريقه ، فطريقه قد عرفه وهو التوحيد ، ودليله الخالق وكان قبل ذلك تائها فى مهمه سحيق وكانت وجهته الفضا أى الفراغ ، لكنما الأن وجهتة السما أى اليقين والاطمئنان ويلاحظ أن الشاعر لم يتكلف صورة بيانية بل ترك الخيال يأتيه طوعا ممتزجا بالمعنى معبرا عن الإحساس . كذلك لم يتعمد مجىء التشبيه ولم يذكر على كثرة الصور الجزئية غير أداة تشبيه واحدة « أساق كالحملان » .

وكرر الشاعر بعض الألفاظ تكرارا يوحى بلهفته الشديدة إلى معرفة الأمن واليقين . وفى

خطابه لله واستنجاده به وفق فى صياغته فهو ينادى نداء فيه استغاثة الغريق والتعبير بقوله « خالقى » يوحى باقتناع الشاعر بعدم قدرته على إيجاد حل لنفسه واعتراف منه بقدرة الله على كل شىء ، ويوحى أيضا بأمل الشاعر فى نجدة ربه لأن الخالق لا يخذل المخلوق ، وتكرار كلمة « ربى » يفيد تعلق الشاعر بالله وعدم التجائه إلى غيره ، ويدل على شده الانفعال . كذلك يوحى بزيادة التأثير والإقناع .

وهكذا عبر الشاعر عن تجربته بصدق وعمق « وتآزرت فى تكوينها الألفاظ والعبارات والصور والموسيقى وواءمت صياغتها مضمونها . ونفسية قائلها ، وعبرت عن شخصيته ، وترتبت أفكارها وتلاحمت أبياتها مما أكسبها وحدة فنية وزاد من تأثيرها فى النفس هذه الموسيقى الداخلية التى شاعت فيها وسرت فى أبياتها كما تسرى الروح فى الجسم والماء فى العود الجاف . وأضفت على القصيدة ظلالا روحية صوفية .

— ٢ —

والصورة فى الشعر المهجرى . صورة كلية ممتدة تتكون من جزئيات كثيرة تمثل لبنات البناء المتعددة ولكنها تتماسك حتى يقوم البناء الكلى الشامخ .

كذلك تكتمل عناصر الصورة بما تتضمن من تشبيهات مفردة . وضمنية وتمثيلية وكنايات واستعارات . تكون كلها فى النهاية عناصر الصورة وأبعادها .

ففى قصيدة « تعالى » (١) لأبى ماضى .. يسرى شعور بالخوف من المجهول والرغبة فى اقتناص السعادة فى الوقت الحاضر ، وقد عبر الشاعر عن هذه الفكرة بالألفاظ المشعة البراقة التى استمدها من الطبيعة المرحة وهذه سمة أبى ماضى فى اختيار ألفاظه . إن الطبيعة ثروته التى ينفقها فى أعماله الشعرية ويعتمد على تكرار الفعل « تعالى » بوحى من لهفته الشديدة إلى استمرار العلاقة الزوجية بينه وبين زوجته دوروثى . وقد قال هذه القصيدة بعد خمس سنوات تقريبا من العيش معها وقد دهمتها بعض الرزايا . فنفسيته هنا مقبلة على الحياه داعيةللحب .

ويكثر أبو ماضى من التشبيه فى صوره الجزئية . إنه يخاطب زوجته ويرغبها فى الإقبال على الحياة ويرمز للسعادة بالخمر . وقد لا تكون خمرا حقيقية ولكنها رمز للسعادة ، أو رمز نسيان الخلاف . يقول مشبها الخمر بالتبر .

---

(١) أبو ماضى : الجداول ص ٣٠

تعالـــــى نتعاطاهـــــا كلـــون التبر أو أسطـــع

ويأتى التشبيه أحيانا فى هيئة المضاف والمضاف إليه كقوله :

تعالـــــى نطلـــق الروحين من سجــن التقاليـــد

ويندمج فى الطبيعة ويعبر عن هذا الشعور مستخدما التشبيه المصحوب بالأداة .

تعالـــــى إن رب الحـــب يدعـــونا إلى الغاب

لكــــــى يمزجنــــا كالمـــاء والخمرة فى كأس

ويتصور النور جلبابا فيقول :

ويغـــدو النـــور جلبابك فى الغــــاب وجلبـــابى

والهروب إلى الغاب ، ونبذ حياة المدينة واتخاذ النور ثوبا من تأثير المدرسة الرومانسية فى أفكار المهجريين . وقد تكررت هذه النغمة عند جبران فى مواكبه ، وعند نعيمه فى « صدى الأجراس » وعند القروى فى هيامه بالطبيعة وعند رياض معلوف فى عشقة لقريته « زحله » قريته الريفية المتواضعة .

وفى نهاية القصيده يركز الشاعر على فكرته التى رسم صورتها في مقاطع متعددة وهو الآن يوحد أجزاءها وينادى « زوجتة » :

تعالَـــىْ قبلمـــا تسكـــت فـــى الروض الشحارير

ويـــــذوى الحـــور والصفصاف والنرجـس والأس

تعالـــى قبلمـــا تطمـــر أحلامـــى الأعاصير

فنستيقــــط لافجـــــر ، ولاخمــــــر ، ولاكـــاس

وقد استطاع الشاعر بوسائله التعبيرية وصوره الشعرية أن يعطى لتجربته صفة الشمول .

- ٣ -

والتشخيص كان إحدى دعائم الصورة عند المهجريين فهم يخلعون على النباتات والجمادات والكائنات الأخرى صفات إنسانية رغبة فى تجسيم الفكرة والتأثير فى النفس ، وإيجاد إشعاعات حول الكلمة التى توحى بالكثير من المعانى والدلالات الخفية .

فهم يقولون « النرجس الواشى » والطير التياه الفخور ، والعقل الأحول ، وضج السكون ، وييس الحلك ، والضحى قبلك ، وأمثال هذه التعبيرات التى نطلق عليها فى البلاغة الاستعارة المكنية « تكثر فى أسلوب المهجريين وتساعد على فهم نفسية الكاتب أو الشاعر .

ويلجأ احيانا المهجريون فى تصويرهم لمشاعرهم ومبادئهم إلى الرمز الموضوعى والوصف الدقيق لأحد المشاهد ، ولا يكون الوصف خارجا عن التجربة الشعرية بل من صميم تكوينها ، ولا يكون سطحيا يصف الهيكل ولكنه ينفذ إلى صميم الأشياء ومن هذا قصيدة « مشهد صيد » للشاعر شفيق معلوف .

« مشهد صيد » (١)

تشمم كلب الصيد طيرا فأبرزت ... نواجذه نصلا وأظفاره مدى
وساف خبايا العشب شما بمخطم ... تنسم خلف العشب ريحابها اهتدى
كأن له عينا على أنفه ترى ... خلال مهب الريح صيدا تلبدا
نضى ذنبا صلب القناة مصوبا ... وشال برجل عاقفا بعدها يدا
وحملق لم يطرف بعينيه طارف ... يلوك شجى فى حلقة مترددا
ومال باحدى مقلتيه يهيب بى ... كعبد يمنى بالغنيمة سيدا
فلاذت لخطوى الطير بالجو وارتمت ... تغلفها بالنار قاذفة الردُى
فأقبل نحوى يملأ الريش شدقه ... وألقى ببشر فى يدى ما نصيدا
ومرغ بالعشب الضلوع كأنه ... يلبد لى من لين العشب مقعدا
فقلت لنفسى كيف تنصر ظالما ... وتخذل مظلوما وتعتز مقصدا
حرمت اعتسافا آمن الطير وكره ... وأرديته فى وكره وهْو ما اعتدى
فيا سالب الأعمار رفقا بها ولا ... يغرك جهلا أن فى يدك الغدا

يبدأ الشاعر بوصف كلبه وهو يبحث عن الفريسة .. وقد وفق هى هذا الوصف وأعانته اللغة وتمكن بقدرته البيانية وخياله الخصب من تصوير حركة الكلب فى بداعة عجيبة فالتعبير بالفعل « تشمم » يوحى بجدية البحث ورغبه الكلب الملحة فى التعرف على الفريسة وتشبيه « النواجذ » بالنصل ، والأظفار بالمدى من صميم الكيان التعبيرى للتجربة ، فلابد من الاستعداد للانقضاض على الفريسة وهل يكون بغير هذا ؟

وتنمو الصورة وتمتد وتبدأ حركة الكلب ويجد فى البحث بين العشب ويسمو خيال الشاعر. واعتقد انه ابتكر هذا التعبير « كأن له عينا على أنفه ترى ، لأن حاسة الشم عند الكلب قوية فجمع الشاعر بين المزيتين وتخيل الأنف عينا ترى الصيد .

(١) شفيق المعلوف : لكل زهرة عبير ص ٤٥ – ٤٩ .

ويؤكد الشاعر العلاقة الحميمة بين الشاعر والمصور فى وصفه لهيئة الكلب وهو مستعد للانقضاض . وكأنها صورة حقيقية وليست وصفا بالكلمات .

« نضى ذنبا صلب القناة مصوبا . وشال برجل عاقفا بعدها يداً . وهذه العلاقة بين الشاعر والمصور قويت أواصرها فى القرن التاسع عشر فى أوروبا عندما نشأت الحركة الرمزية « فقد حاول مالارميه أن يصور الجمال المثالى فى أشعاره بنفس الحماس الذى حاول به « دانتى » أن يصور عالمه غير المرئى فى صورة مرئية » (١) .

وكان جبران شاعرا مبدعا ورساما ماهرا ومصورا ملهما .

ويصف نعيمه الشاعر بأنه مصور لأنه يقدر أن يسكب ما يراه ويسمعه فى قوالب جميلة من صور الكلام .

ويكمل الشاعر الصورة فيقول :

وحملق لم يطرف بعينيه طارف يلوك شجى فى حلقة مترددا وقد أعطى للصورة حيوية وحركة . فهو إلى جانب الإيقاع الذى يتكون من بحر الطويل وهو ايقاع بطىء هادىء نسبيا يلائم العواطف المعتدلة الممتزجة بقدر من التفكير والتملى أدخل عنصر التصوير لإبراز فكرته ، فعمقها وأكسبها جمالا ، وأضفى عليها ظلالا موحية بالأحداث .

وأدخل عنصر التشويق .. وكأن القارىء أو السامع يريد أنْ يعرف ماذا بعد ذلك فيقول :

ومال باحدى مقلتيه يهيب بى .. كعبد يُمنى بالغنيمة سيدا .

والشاعر يهب الكلب ميزة التفكير والتخطيط ويأتى بصورة جزئية توضح هذا الوصف

« كعبد يمنى » بالغنيمة سيدا .

ويتم المشهد . وتكتمل اللوحة الشعرية حينما يسقط الطير ويتلقفه الكلب ويلقيه فى يد الإنسان . وينفعل الشاعر ويصور الكلب ذا إرادة ، يعرف السرور ويتقن الوصف حين يصور الكلب بأنه مرغ بالعشب الضلوع ليهيىء للشاعر مكانا من لين العشب .

---

(١) د / عبد الغفار مكاوى : ثورة الشعر الحديث ص ١٦ .

ومرغ بالعشــب الضــلوع كأنـــــه   يلبــد لــى مــن لَيّـن العُشْب مَقعــدا

ويهذا تكتمل عناصر الصورة التعبيرية حيث تآلفت الألفاظ والعبارات والصور الجزئية فى رسم هذا المشهد الوصفى الذى صوره الشاعر بقلمه . ومما ساعد علي تلاحم التجربة أن القصيدة تشبه القصة القصيرة .

والمغزى من هذه التجربة يوضح اتجاه الشاعر الإنسانى ، وعاطفته الرحيمة حيث يؤنب الشاعر نفسه على هذا الاعتداء الصارخ على الحرمات . ويتسع المضمون من هذه الحادثة الجزئية ويتطور إلى رؤية شمولية فى الحياة ، ومحاربة للظلم ، ومقاومة للغرور الانسانى .

فيا سالــب الأعمـــار رفقــا بهـــاولا   يغـــرك جهــلا أن فــى يـــدك الغـــدا

– ٤ –

وتأتى الصورة الشعرية فى أحيان كثيرة لتعبر عن فكرة فلسفية فى صورة حوار يجريه الشاعر بين ظاهرتين من ظواهر الطبيعة ، أو قصة يحكيها وفى الغالب يكون البطل من الجمادات أو النباتات ولا يقصده لذاته بل يرمز به إلى معنى سام نبيل أو معتقد خاص يؤمــن به الشاعر .(١)

يقول أبو ماضى فى قصيدته .

" الغدير الطموح (٢) "

قـــال الغـــديـــر لنفســـه   ياليتنـــى نهـــر كبيـــر
مثـــل الفـــرات العـــذب أو   كالنيـــل ذى الفيـــض الغـــزيـــر
تجـــرى السفـــائن موقـــرات   فيـــه بالـــرزق الـــوفيـــر
هيهـــات يرضـــى الحقيـــر   مـــن المنـــى إلا الحقيـــر
وانســـاب نحـــو النهـــر لا   يلـــوى علـــى المـــرج النضير
حتـــى إذا ماجـــاءه   غلـــب الهـــدير علـــى الخـــرير

---

(١) فى الفصل الثانى من هذا الباب تعرضت لدراسة القصة الشعرية بوصفها طريقا من طرق التعبير عن التأمل وكذلك الاسطورة ، والرمز .

(٢) الجداول ص ١٣٨ .

فالشاعر يشخص الغدير ويخلع عليه صفة الإنسان الطموح الذى لا يعى أبعاد طموحه بل يندفع فى غير وعى إلى تحقيق أمنياته التى تفوق إمكاناته .

فهو يتمنى أن يكون نهرا كبيرا مثل الفرات أو نهر النيل ويستحقر نفسه ولا يرضى بتفاهات الأمانى . وتمتد الصورة وتمتد معها أحلام الغدير فيتخيل أن السفائن ستجرى فيه مثلما تجرى فى الفرات أو النيل ، وتكتمل الصورة حيث ينساب الغدير نحو النهر .. ولكن يتحطم كل شىء ويضيع خريره فى هدير النهر الكبير .. هكذا تتم الصورة التى اراد الشاعر التعبير من خلالها عن فكرته وفلسفته فى الحياة بعد تأمل طويل فى مشاهد الكون .. والألفاظ سهلة واضحة ولكنها تتلاءم مع الجو العام للنص ، فالفرات ، والغدير ، والفيض الغزير ، والسفائن ، والرزق الوفير والنهر ، والموج ، والهدير ، والخرير ، كلها تناسب الجو النفسى للقصيدة .

والشاعر لم يفسر الرمز كما يفعل غيره من المهجريين أحيانا فيضيع بذلك القيمة الفنية له . فأصبحت القصيدة فكرة مصورة . جاءت فى أسلوب قصصي بعيد عن التقريري المباشر .

وحين تأتى الصورة معبرة عن فكرة فلسفية تجريدية نري الألفاظ ملائمةلجو التجربة وخيالها مكثف . ففى قصيدة ميخائيل نعيمه .... يقول « الخير والشر » (١)

سمعت فى حلمى ويا للعجب ! ... سمعت شيطانا يناجى ملاك
يقول « أى بل ألف أى يا أخى ... لولا جحيمى أين كانت سماك ؟
أليس أنا توأمان استوى ... سر البقا فينا وسرّ الهلاك ؟
ألم نصغ من جوهر واحد ؟ ... إنْ ينسنى الناس أتنسى أخاك
فأطرق ابن النور مسترجعا ... فى نفسه ذكرى زمان قديم
واغرورقت عيناه لما انْحَنَى ... مستغفرا ، وعانقِ ابن الجحيم
وقال أى بل ألف أى يا أخى ... من نارك الحَرّى أتانى النعيم
وحلق الاثنان جنبا إلى ... جنب وضاعا بين وشى السديم

فالشاعر هنا يصور حوارا بين الشيطان والملاك . وتعبيراته خدمت الفكرة التى يرمى الى ترسيخها فى أذهاننا .

(١) م . نعيمه : همس الجنون ص ٦٤ .

فالتعبير بقولة « يناجى » يوحى بمعتقد الشاعر فى امتزاج الخير والشر فى الانسان وإن الخير نابع من الشر ، وتأتى صوره الجزئية لتشارك فى تجسيد الفكرة وتأكيدها . فيعبر عن الخير والشر بأنهما « توأمان » وفى ذلك تجسيم للمعانى وهذه الخاصية التعبيرية من خصائص الصورة عند المهجريين وقد شاعت فى الشعر الحديث حتى أصبحت أسلوبا عاديا .

ويقيم دليلا على معتقده فى أن الخير والشر توأمان فيقول « ألم نصنع من جوهر واحد » ؟ وكلمة « الجوهر » من المدلولات الفلسفية فهى بذلك من لبنات الفكرة الأساسية وتأتى دقة التصوير والوصف فى قوله .

فأطـــرق ابـــن النــــور مسترجعـــا فـــى نفســه ذكــرى زمــــان قديـــــم

والتعبير عن الخير بابن النور تعبير جديد ، فالنور هنا رمز للنقاء والطهر والخير رمز لابن آدم ، والشر رمز لإبليس .

ويعترف الملاك بفضل الشيطان عليه « من نارك » الحرى أتاتى النعيم ، ويختم نعيمه تصويره لمعتقده بصورة خيالية فيقول :

وحلــــق الاثنــــان جنبـــا إلــــــى جنب وضاعـا بـــيْن وشـــىٰ السديــــم

ولنعيمه أن يعتقد ولكن ليس من الضرورى أن نوافقه . فالخير والشر فى طبيعة الانسان ولكن ليس الشر من طبيعة الملاك . فالملائكة عباد مقربون . لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وأعتقد أن نعيمه لا يقصد بالملاك جنس الملائكة وإنما يرمز به إلى الانسان النقى الطاهر . ويومىء إلى قصة آدم . حيث امر الله الملائكة بالسجود لآدم فأبى أبليس فكانت معصيته وطرده من الجنه بسبب النعيم الذى اغدقه الله على آدم . ثم وسوس إبليس لآدم فأكل من الشجرة وعصى ربه . لكن تاب الله عليه وهداه وأمره بالهبوط إلى العالم الأرضى ليصارع إبليس رمز الشر . الذى يجرى مجرى الدم فى العروق .

وربما استوحى نعيمة هذه القصيدة من التراث الدينى وتصويره لقصة هبوط آدم من الجنة ، والقصيدة كما قلت ذات فكرة فلسفية نابعة من الشعور بالصراع والثنائية وهى مرحلة من مراحل تفكير نعيمة التى خاضها وعبر عنها .

والعنوان : الخير والشر ، يوحى بهذه الثنائية ، وألفاظ القصيدة كذلك تتسم بالمطابقة التي تزيدها إشعاعا ، فالشيطان يقابله الملاك ، والجحيم تقابلها السماء والبقاء يقابله الهلاك ، والنار يقابلها النعيم .

والغموض الذى يسيطر على القصيدة يحفها بظلال الرهبة والهيبة .

وفى التعبير بقوله : أتنسى أخاك إيحاء بقدرة الشيطان على التأثير فى نفس الملاك ، وقد تقمص شخصيته ومهد لهذه الاخوة التى يدعيها الشيطان بقوله :

لــــولا جحيمــــى أيـــن كـــانت سمـــاك
ألـيـــس أنـــا توأمـــان استـــوى
ســـر البقـــا فينـــا وســـر الهـــلاك
ألـــم نصـــغ مـــن جـــوهر واحـــد ؟
إن ينسنـــى النـــاس أتنســـى أخـــاك ؟

ولا تستطيع فى القصيدة السابقة أن تقدم بيتا وتؤخر بيتا ، فأفكارها مترابطة ، وأبياتها متماسكة ، وفيها ترابط شعورى ، ولا تستطيع أن تقرأ بعض القصيدة وتترك البعض الآخر وإلا كان المعنى ناقصا .

فالوحدة المعنوية من سمات القصيدة فى الشعر المهجرى . فالقصيدة كما يقول العقاد « ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقى بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها .(١)

— ٥ —

ومن ملامح الصوره عند المهجريين أنها ذات نزعة صوفية وجدانية لأن التجارب التأملية التى خاضوها كانت متسمة بهذا الطابع – وقصيدة « نعيمة السابقة ترجمة لهذا الاتجاه . وقصيدة « التائه التى ذكرتها سابقا » ففى مثل هذه التجارب يتحدث الشاعر عن رؤاه بنفس الحماس واللهب الذى يتحدث به المتصوف عن رؤاه الإلهية .

(١) عباس العقاد – الديوان ص ١٣٠ .

وبتأثير هذه الروح يتحدث جبران عن ابن الفارض قائلا :

« ولكن إذا وضعنا صناعة ابن الفارض جانبا ونظرنا إلى فنه المجرد وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسية وجدناه كاهنا فى هيكل الفكر المطلق ، أميرا في دولة الخيال الواسع ، قائدا فى جيش المتصوفين العظيم ، ذلك الجيش السائر بعزم نحو مدينة الحق ، المتغلب فى طريقه على ضغائن الحياة وتوافهها المحدق أبدا إلى هيبة الحياة وجلالها » (١)

وأثرت هذه النظرة فى خيالهم فهذا أبو الفضل الوليد يتخيل العصفور مصليا وهو يغنى فيخاطبه فى شفافية بالغة وحس مرهف .

أيهـــا العصفـــــور قـــــل لــــــــى	أتغـــــــنـــى أم تصلـــــــــــــى
هـــــذه تغريـــــدة قـــــــد	طـــــيرت قلـــــبى وعقلـــــــى
أنــــت بالانشـــــاد فـوقــــــى	ان تكـــن بالنظـــم مثلـــــــى
أعطـــــنى وزنـــــا جديــــدا	لـــم يكـــن للشعـــر قبلــــى

وفى البلاد المحجوبة « يضفى جبران على « الجمال » صفات القداسة ويجعل الناس يصلون ويعبدون الحق ، وبلاده المحجوبة مكانها فى الأرواح . وهى مشيدة من عنصرين متضادين الأنوار والنيران .

وهذا الخيال الصوفى يدفعه إلى ذكر الرموز الصوفية كالكأس والساقى ونور القبس والسر المصون . وأنغام السكون ، وسكرة الوصل ، وأشواق الصدود والحيرة والقلق يدفعان « نسيب عريضة » إلى مخاطبة النجمة . يبثها أحزانه ويرى فيها رمزا يهديه إلى الطريق الصحيح فيقول :

أيـــا نجمـة سطعـــت فـــى الظــــلام	أنـــيرى طريــــق فـــتى لا ينــــــام
فـــتى عذبتـــــه النــــوى والهمــــوم	فـــتى أيقظتـــه أمـــور جســــام

والتعبير بقوله : أيقظته أمور جسام يوحى بمعان كثيرة فكأن الهموم منبه للإنسان وموجه له . ولم يشأ أن يطيل وانما تضمن التعبير بقوله « أيقظته كل ما يريد من معان كثيرة » .

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ٦٧ .

ورشيد أيوب فى قصيدته .

« الجندى والغدير » (١) يقول :

يا غديرا جاريا بين الحقولْ	فى سكون الليل ما هذا الخرير
قل برب الخلق هل أنت رسولْ	رنّة الأفلاك فى أوج الأثير ؟
أم فؤاد الصب من بين الطلول	يبعث الشوق أنينا وزفيرْ ؟
هل تقاسى وحشة الليل البهيمْ	وبنات النعش فيه مؤنساتْ ؟
مثل صب كلما هب النسيم	هاجه ذكر الليالى الماضيات
أم كمشتاق إلى دار النعيمْ	بعد ما قد ملَّ من هذى الحياةْ
أنت تبكى مثل من يرعى العهودْ	أنت مثلى ماتلا الليل النهار !
بدموع مالها الدهر جمودْ	كدموعى خلقت للانحدار

إن الشاعر يصور خرير الغدير بعدة صور جزئية تتفق ونفسية الجندى الذى يخاطبة وهذه الصور فيها مسحة صوفية . فصوت الخرير يشبه رنه الافلاك فى أوج الأثير ، أو أنين وزفير قلب المحب الولهان . أوبكاء الوفى المحافظ على عهده ، ولكنه لا يجد من يبادله الوفاء ، ، وموج النهر يصوره الشاعر دموعا لا تجْمد أبد الدهر ولكنها فى انحدار دائم .

وهذه الأوصاف التى خلعها الشاعر على الغدير نابعة من نفسيته التى تشعر بوحشية الغربة ، وحين تواكب الصور التجربة الشعرية وتصور نفسية الشاعر فهذا برهان نجاحها وصدقها .

ولا تخفى النزعة الصوفية المؤثرة فى معجم الشاعر وصوره وتجربته التي يغلفها الاغتراب والحرمان والحنين إلى الوطن إنه يسائل الغدير بعدما تخيل خريره أنينا وزفيرا .

---

(١) أشعار وشعراء من المهجر : محمد عبد الغنى حسن ص ٥٤ .

هـــل تقــاســى وحشـــة الليـــل البهيـمْ
وبنـــات النعـــش فيــــه مؤنســـاتُ
مثـــل صـــب كلمـــا هـــب النسيـمُ
أم كمشتـــاق إلــــى دار النعيـــمْ
بعـــد ما قـــد مـــل من هذى الحياةْ

فالوحشة ، والأنس ، والصب ، وذكر الليالى ، والشوق ، ودار النعيم ، كلها من المعجم الصوفى الذى يشارك فى نجاح التجربة . وتألف الصورة الكلية التى تتآزر فى تكوينها الصور الجزئيه .. فهو يشبه بنات النعش بالفتيات التى تؤنس الغدير الوحيد ، ويشبه بالصب الذى يحمل إليه النسيم ذكريات غالية مضت ويشبهه بالإنسان اليائس الذى يشتاق الجنة بعد ملله من هذى الحياة .

وتكتمل أبعاد الصورة حين يفسر الشاعر سبب أحـزانه وتشاؤمه ويقـول على لسـان « الجندى » ..

إنمـــا أنـــت إلـــى البـــحر تعودْ
وأنـــا هيهـــات عَـــوْدى للديـارْ

والقصيدة تآلفت ألفاظها وصورها وعباراتها مع إيقاعها فانسجمت صورتها الكلية وتمت لها وحدتها الفنية .

وقد تخلل الصورة الكلية القصيدة . وهى جزء من بناء موضوعها فتشارك فى نجاح التجربة الشعرية وتوحى بالترابط الشعورى .

فإلياس فرحات حينما يصف مأساة أمه وهو بعيد عنها كان لابد أن يتحدث عن تجربة أبيه فى الحياة ، ويصور كفاحه وبنوه بعدم تمتعه بثمرة هذا الكفاح يقول .

وأبـــو الصقـــور علـى فـراق فراخـــــه ... فـــى غمـرة مــع دهـــره وعـــــراك
يرجـــو فـلا يسـع الفضـــاء جناحـــه ... ولكـــم رمـــاه اليـأس فـى الأشـــراك
لهفـى عليــه مضـى بـــداء حنينـــه ... وبقيـــت صابـــرة علـــى بلـــــواك

فالشاعر حين استعار للأبناء صفة الصقور ، وجعل الأب « أبا الصقور » كان لابد أن يتمم أجزاء الصورة بما يتلاءم مع هذا الجو .. فجعل الأبناء فراخا على سبيل الاستعارة التصريحية ، وصوره مصارعا للدهر .

وتتسع الصورة حينما يصف أباه وقت الرجاء ووقت اليأس فيظل مع حديثه عن الصقر فهو وقت الرجاء والتمنى تنفسح الأمانى . وينشر الصقر جناحيه زهوا واختيالا وحتى أن الفضاء لا يتسع لها .وربما تبدو فى هذا التصوير المبالغه شديدة ولكنها ليست غلوا بل توحى بجو الاستبشار الذى كان يعيش فيه أبوه وقت الرجاء وهو فى وقت اليأس يذهب شموخه ويقع فى الأشراك ، وأخيرا يقضى عليه داء الحنين « فالقصيده لا تأتى مجرد تشبيه أو استعارة مكنية أو تصريحية أو كناية ، منفصلة عن جو التجربة ولكنها تمتد لتضفى ظلالا متسمة بالحيوية والحركة والتآلف والانسجام .

« ومحبوب الخورى الشرتونى » حينما يشعر بالضيق من واقع الحياة المر ، ويتألم من إيذاء الإنسان ، وتكالب ابن آدم على الماديات وصراعه القاتل فى هذا السبيل لا يعبر عن هذه الخواطر تعبيرا مجردا جافا بل يلجأ إلى الطبيعة الحية ومن خلالها يبث هذه المشاعر فيصوره أمنية تمناها وهى أن يكون هزارا « ثم يصف الهزار ويندمج فى عالمه وهو فى الحقيقة مندمج فى ذاته التى رآها فى عالم الهزار .

فتصويره للهزار نابع من ذاته وموافق لنفسيته ، وليس تصويرا لهيكل الهزار - فالهزار ناعم البال فى فسيح الفضاء ، والهزار مطلق الجناحين بعيد عن أذى الإنسان . والهزار لا تعكر صفو حياته مطالب الحياة فالحدائق ملأى لكنها لا تلهيه عن غنائه وهو يرتدى ثوبه من صنع خالقه، وهذا الثوب يعز على ابن آدم فى رخائه يقول [١].

ليتنى كنــت فـــى الحـــــياة هـــــزارا	ناعـــم البـــال فـــى فسيـــح فضائـــــه
مطلـــــق الجانحـــــين فيــــــه بعيـــــدا	عـــن أذى المـــــرء عـن كثــير جفائـــــه
ليـــس يلهيــــه والحدائـــــق مــــــلأى	طلــب الـقوت عـــن لذيــذ غنائـــــــه
يرتدى مـــن صنيـــع باريـــه ثوبـــــــا	مـا ارتـداه ابـــن آدم فـــــى رخائــــه

وكل هذه الأوصاف أمنيات تطوف بذهن الشاعر وتداعب خياله وقد أبرزها فى هذه الصورة الوصفية للهزار بهذا الإيقاع البطىء الهادىء والعاطفة المضبوطه والقافيه الممدودة التى تمثل الأمل الممتد فى نفس الشاعر .

---

(١) أشعار وشعراء من المهجر ص ٧٦ محمد عبد الغنى حسن .

وقد يغلف الصورة « عنصر التشويق والاثارة » حيث تتكون الصورة من عدة مشاهد كل مشهد كل مشهد يؤدى إلى الآخر وفى النهاية يفاجئنا بالسر الذى يحاول تجميع أجزائه وهو يغامر ويرحل فى سبيل اكتشافه وقصيدة القروى تتضح فيها هذه الخاصية .

وعنوانها « الفتنة الكبرى »(١)

عرتنى خشية لله لَمّا ... رأيت الشمس تَأْذَنْ بالشروق
فلم أرفع يدى بالحمد حتى ... ذكرت بضاعتى وكساد سوقى
ولما قمت منصرفا لشأنى ... تذكرت الصلاة على الطريق
حملت نماذجى ألقى اتكالى ... على المولى ووعد من صديق
فلم أبصر جمال الروض حتى ... عرتنى هزة الشعر الرقيق
ولما عدت من نظم القوافى ... تذكرت الصديق على الطريق

* *

وإنى فى ذهول الشعر يوما ... أحوم به على غصن وريق
إذا بحمامة تبكى بكاء ... له جمدت دمائى فى عروقى
فلماذا ب فى سمعى صداها ... تذكرت القريض على الطريق

* *

سمعت كمنجة فى كف أعمى ... تثيركوا من الحس العميق
فلما كنت منجذبا إليها ... ومِلْتِ إلىٌ بالقدّ الرشيق
ذهلت عن الصلاة وكَسب رزقى ... وشعرى والكمنجة والطريق

إن الشاعر يريد أن يصف حبيبته ويبين أنها عنده فى طهر الصلاة وأكثر أهمية من السعى على الرزق . بل هى قوت حياته وغذاء روحه ، إنها الوتر الحانى الدافىء الذى يلهمه الشعر ، وإنها الروضة الغناء الفواحة بالعطور ، وإنها فى حزنها كالحمامة التى تأسر القلوب ببكائها ، وإنها الناى الذى يعزف عليهأروع ألحانه .

كل هذه الصور أراد الشاعر أن يرى حبيبته فيها - فلم يأت بها فى صور جزئية متباعدة غير متآلفة ولكنها وبعد تأمل فى كيفيه بناء القصيدة اهتدى إلى هذا القالب حيث عدد الظواهر التى فتنته وهى الشمس التى جعلته يصلى ، والروض الذى ألهمه الشعر ، ثم الحمامة التى أسرته ببكائها . ثم الموسيقى التى أثارت كوامن حسه العميق .

---

(١) ديوانالقروى ج ٢ ص ٧٠٦ .

ويصل إلى فتنته الكبرى التى تجمع كل الفتن السابقة فى قدها الرشيق ومحياها الوضىء فاذا به يذهل عن كل شىء سواها .و يرى فيها كل عناصر الجمال ، إن هذا الخيال تصوير جديد وتصرف فى رسم ملامح الحبيبة وايحاء بمدى تمسكه وقد واتته المعانى والألفاظ ، وكان عنصر التشويق هو المسيطر على مشاهد الصورة التي أكسبت القصيدة وحدة فنية .

وفى « البلاد المحجوبة » ، والجبار الرئبال ، يتضح عنصر التشويق والاثارة فى التصوير الشعرى عند المهجريين .

وكذلك يتضح فى قصيدة « الولادة الجديدة » ، وعناق الوجود « للقروى » وقصيدة « أمنية الإهة » و « الحجر الصغير » . والفليسوف المجنح « لأبى ماضى » ومن هذا ايضا قصيدة « مصير وردة » لجورج صيدح و « زهرة فى صخرة » لشفيق معلوف .

— ٨ —

والصورة عند المهجريين بعيدة عن التقليد لأن التقليد خال من المعاناة ، فلا يكفى أن يحفظ الإنسان دواوين الشعراء ثم يكتب من وحى ما حفظ ، لا من وحى نفسه ويصور من وحى ما قرأ لا من وحى شعوره وتجربته .

إن الابداع لا يتمثل إلا فى القدرة على الابتكار والتجديد فى المعانى والصور والألفاظ والصياغة والأخيلة .

والصور عند المهجريين جاءت وليدة المعاناة ، والفقر ، والغربة ، والحنين ، والاندماج فى مشاهد الطبيعة ، وقد كستها غلالة من الحزن الشفاف الذى يمنح القلوب رقة ، والنفوس طهرا ، والعقول صفاء وقدرة على التأمل فى مشاهد الكون .

وقادهم هذا الحزن إلى رؤية شعرية صوفية لبعض أمور الحياة وما فيها من تناقض وصراع وإيليا أبو ماضى أراد أن يصور الموسيقى وتأثيرها فى النفس فلم يأت بأوصاف مباشره للآلة الموسيقية « الوتر » وإنما جدد فى ابتكار الصورة الشعرية الفريده وصاغ قصيدته « أمنية إلاهة » فى صورة قصة شعرية .

فالإله يحب الإلاهه ويزين لها الدنيا ويجعل الطبيعة مهرجانا لها . ولكنها تتأبىّ عليه

وتطلب منه أشياء تبدو مستحيلة ، ويسوق الشاعر عدة صور جزئية تشارك فى تكوين الصورة الكلية .

يقول على لسان الإلاهة :

أريـــــد دنيـــــا شعـــــاع يبقـــى اذا غابـــت النجـــومْ
أريـــد دنيـــا تحـــس نفســـى فيـــها نفوســـا بـــلا جســـومْ
أريـــد خمـــرا بـــلا كـــؤس مـــن غـير مـــا تنبـت الكـــرومْ
أريـــد عطـــرا بـــلا زهـــور يســـرى وان لـــم يكـــن نســـيمْ

وزادت فقالت :

أريـــــد أنينـــــا يشـــوش روحـــى ولا محتضـــر
ومـــاء يمـــوج ولا جـــداول ونـــارا بـــلا حطـــب تستعـــر

فاطرق ذاك الاله الفتى

وفـــى نفســـه ألـــم مســـتتر

وقـــال :امهلينـــى ثـــلاث ليـــال

أذلل فيهـــا المـــراد العســـر

ويبحث الشاعر عن عالم حبيبته ويأتيها بخيط قصير المدى : بلون التراب ولون الشعر ولا شك أن هذه صورة مبتكره للوتر . وخيال مجنح ، وقدرة فائقة على توليد وحدة فنيةّ وتاخذ منهج القصة .

وقد اعتقد المهجريون أن ميزة الصورة أنها « تستطيع أن تشع فى كل اتجاه وأن تسمح لك باستكناه المزيد من المعانى كلما أوغلت معها بحسك إنها صوره معطاء تكشف عن الجديد دائما . (١)

– وآمنوا بضرورة تلاحم الصورة مع الشعور والفكرة كما أوضحت فى النماذج السابقة

(١) د / عز الدين اسماعيل – التفسير النفسى للأدب ص ١٠٠ .

فالصورة كشف نفسى لشىء جديد بمساعدة شىء آخر وأن المهم هو هذا الكشف .

وعن تلاحم الصورة مع الشعور والفكرة يقول هويلى : إن الشعور ليس شيئا يضاف إلى الصور الحسية وإنما الشعور هو الصورة أى إنها الشعور المستقر فى الذاكرة الذى يرتبط فى سرية بمشاعر أخرى ويعدل منها .

وعندما تخرج هذه المشاعر إلى الضوء وتبحث عن جسم فإنها تأخذ مظهر الصور فى الشعر أو الرسم أو النحت . (١)

---

(١) السابق ص ٧١ .

– ب – المؤثرات الأدبية وأثرها في التجربة التأملية

إن عامل التأثير له دوره الجاد فى ازدهار الآداب واتساع آفاقها ومضامينها ولا تستطيع أمة تقدر الفكر ، وترى فى الأدب تجسيدا لحركتها فى الحياة وصورة لواقعها وآمالها وأحلامها ، وآلامها ، أن تعيش بمعزل عن التيارات السياسية والثقافية والأدبية العالمية ولا أن تغمض عينيها عن التراث الحافل بمآثر الأقدمين .

« والتأثر دليل الحيوية والطواعية والتفتح وهو النافذه التى تتيح للفكر استشراف آفاق جديده ومعايشة تجارب جديدة . (١)

وقد تأثر الأدب المهجرى شأنه شأن الآداب الأخرى بمؤثرات كثيرة .. سرت فيه وذابت وبقى محتفظا بطبيعته المستقله وشخصيته المتميزه عن غيره . ولم يقتصر على هذا بل تجاوز مرحلة التأثر إلى مرحلة التأثير ولم يؤثر فى الأدب العربى فقط بل أثر فى الادب الأوروبى وقد اعترف بهذا الشاعر رياض المعلوف فى رسالة أرسلها إلىّ فى العاشر من مايو سنه ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، « ١٠ من مايو ١٩٧٨ » وقال متحدثا عن القصائد التى أتت على نظام الموشحات « ولا شك أن هذه الموشحات هى من أرق الشعر العربى والشرقى لا بل العالمى .

ودليلى على ذلك أن الشاعر الفرنسى الشهير « فكتور هيغو » تأثر بهذه الموشحات حتى أنه نسج علي منوالها بالفرنسية بتعدد القوافى والأوزان ، وديوانه المشرقيات دليل ساطع على ما أقوله وفخر لنا جميعا كشرقيين أن يتأثر بنا هؤلاء الشعراء العظام فى العالم . (٢)

– وقد أرسل إلى الشاعر رياض المعلوف عدة قصائد من ديوان المشرقيات للشاعر الفرنسى « فيكتور هيغو » وأثبتها هنا : وقد ترجمها أيضا وقال « عبرتها لك بأمانة

---

(١) د / محمود الربيعى : فى نقد الشعر ص ١٤٠ .

(٢) من رسالة أرسلها إلى الشاعر رياض المعلوف فى ١٠ من مايو ٩٧٨م .

١ - مصارع الثيران [١]

كنـت أملك خاتما من الذهب : ولكننـــي أضعتـــه .

وأننى مصارع الثيران .. وعازف القيثارة فى غرناطة !

ولاعـــب السيـــف فـــى أشبيليـــة !

وخاتمـــى كـــان يلمـــع لمعـــان النجـــم !

والشيطـــان المختبـــىء فـــى عـــين سمـــرائـــى !

هـــل يستطيـــع أن يصـــوغ خاتمـــا مثيلـــه .

.. ولـــوجـــوف القمـــــر

٢ - العصفور

العصفـــور يطير فى الأفق .. حيث يلتهب حبا
وإذا كانـــت الـــورود .. هـــى الأشياء !

فالعصفـــور يطيـــر ويهيـــج الصحـراء !

والبيـــت والحقـــول .. والسنـــديانات

وهـــــى تصغـــــى إليـــــه ..

عنـــدما أنشودته تنتقل من غـاب إلى غاب .

(١) أرسل الشاعر رياض المعلوف هذه القصيدة وقصيدة العصفور ، والخليفة - وترجمها عن الفرنسية . والقصائد الثلاث من شعر « فيكتور هوجو » وقد تأثر فيها بإيقاع الموشحات فى الشعر الأندلسى وفى الشعر المهجرى كما يقول الشاعر « رياض المعلوف » .

٣ - الخليفة

الخليفة انتقم من سكان الجبل .. وجنوده وصلوا إليه . رافقهم الله

ولـــم يتركـــوا بـعـــد الانتقـــام شيئـا حيا
فشمـــل الحـــزن هـــذا الحقـــل المنكـوب
وعظـــام شعـــب كامـــل تسكـن هـذه الحجارة
والعقـــاب المنشـــور المـــريش
والنســـر ذو الأجفـــان الحمـــر
همـــا هنـــا المنتصـــران الفرحـــان
ومنقـــارهما فاغـــران .. نهمـــان
كـــل شـــيء تـلاشـــى
والطـــريق الذاهبـــة فـــى الصحـــراء
عـــندما تمـــر فيهـــا قافلـــة الإبـل ..
.. يتـــراءى فيهـــا لكبيـر القافلة .. عامود ظاهر .
.. تقـــرأ عليـــه هـــذه الكتـــابه
إلى الـــذين يحبـــون الاطـــلاع عليهـا ..
هـــذه الطـــرق عبـــدهـــا وخططهـــا ..
معـــبدو طـــرق الخليفـــه

* *

و يتضـح الأثـر الشـرقى فى هذه القصائد فى معانيها وألفاظها .. ففى القصيدة الأولى يذكرنا ضياع الخاتم بخاتم سليمان وقصة البحث عنه . وغرناطة واشبيلية والسيف وعين الفتاة السمراء كلها توحى بأجواء الشرق وروحانيته .

وفى قصيدة « الخليفة » أيضا نعثر على هذه المواد التى تشيع فى أجواء الشرق فهو يتحدث عن عنفوان الخليفة .. وواضح أن الشاعر يهاجم سلطة الخلافة ويراها سببا فى دمار بعض الشعوب وحين أراد أن يصور الظلم ويجسده رمز إليه بالعقاب والنسر وهما فاتحان فمهما . فهما نهمان لالتهام الجثث . وحين نقارن بين هذه الصورة وبين الخيال الشعرى عند العرب فى

وصف الحروب وبخاصة عند المتنبى نرى أنه كان يصف الخليفة بأنه يترك للطير رزقها من جثث أعدائه ، والإبل سفن الصحراء عند العرب .

ولا تهمنا هذه المقارنة الآن وانما الذى أود أن أشير اليه هو تأثر الشاعر الفرنسى بطريقه الصياغه بحيث صاغ ديوانه « المشرقيات » على طريقة الموشحات التى نظمها شعراء المهجر تأثرا منهم بالموشحات الأندلسية .

وقد تأثر الأدب المهجرى بمؤثرات كثيرة .. فقد تأثر بالتراث العربى الإسلامى حيث ظهر فى أدبهم وشعرهم أثر قوى من فكر المتصوفين . وقد وضحت هذا فى الباب الاول وأنا أعالج « بواعث التأمل عندهم » حيث أوضحت أن من هذه البواعث « التأثر بفكر الشرق وفلسفة المتصوفين » (١) .

وكما تأثر المهجريون بالفكر الصوفى والفلسفى تأثروا أيضا فى بعض أفكارهم بالشعراء العرب الكبار مثل المتنبى وأبى العلاء . والشاب الظريف ، والبهاء زهير ، وأبى نواس.

فالشاعر إلياس فرحات شعره – لم يخل من خطرات الحكمه والمثل يرسلها الشاعر فى خلال القصيدة . وتكثر هذه الظاهرة فى شعر فرحات كثرة تذكرنا بالحكم والأمثال فى شعر المتنبى . (٢) فما أقربه من المتنبى إذ يقول .

ومـا هـين حـقٌ لا سـلاح لربـه	وأضعف أنـواع السـلاح التـأدبُ
ولـولا نـيُوب الأسـد كانـت ذليلـةً	تسـاط ، وتعنـو للشكـيم وتركـبُ
وكـم ظالـم يستعبـد النـاس عنـوة	وحجتـه الكبرى الحسـام المشطـبُ

* *

أنـا مـن يـرى أن الريـاء معـرة	وأن خبيث القـول فـى الصـدق طيّـبُ
ومـا أنـا إلا كـالزمـان وأهلـه	أعـاف وأستحلـى ، وأرضـى وأغضـب
تعبـت إذ استنتظرت خـيرا من الـورى	ومستقطـر السلـوى مـن الصـاب يتعـب

وقد أطلق عليه الأستاذ صالح جودت فى كتابه بلابل من الشرق لقب « المتنبى الجديد »

---

(١) ارجع إلى الباب الأول مبحث « بواعث التأمل » .

(٢) محمد عبد الغنى حسن : أشعار وشعراء من المهجر ص ٩٢ .

وقال « هناك قرية تنجب العباقرة » . اسم هذه القرية « كفر شيما » بلبنان .

ومن هذه القرية خرج آل اليازجى ، خير من خدموا اللغه العربية . وآل شميل من خيرة من رعوا الثقافة ، وآل تقلا من أقدم من أنشأوا الصحافة .

ومن قرية العباقرة خرج المتنبى الجديد « الياس فرحات » (١)

وتقيم العصبة الأندلسية فى سنه ١٩٣٥ « ألف وتسعمائة وخمس وثلاثين مهرجانا تذكاريا لمرور ألف سنة على وفاة المتنبى – وهذا يدل على احتفاء هؤلاء الأدباء بالمتنبى وإعجابهم به وترجموا هذا الإعجاب الذى وصل الى درجة التأثر أن أنشأوا القصائد الكثيرة – ومنها قصيدة « القروى » بعنوان « نبى »(٢) . وتبدو المغالاة فى هذه القصيدة حيث يطلق على المتنبى لقب « نبى » ويعد كلامه قرآن الشعر كما أن كتاب أحمد قرآن النثر .

وفى هذه القصيدة الجزاله اللفظية ، والجرس القوى والحكمة التى كان يصدرها المتنبى عن تجربة صادقة ، والفخر الذى كان يكثر فيه بنفسه ، يقول القروى .

ألا أى ينبـــوع سقـــاك معينــــه ... فإنـــى إلـــى تـــلك المنــاهـــل ظمــــآن
أصـــاب « ابن أوس » منـــه حســوة طــائـر ... وبلـت لســـان « البحـترى » بـه الجـــان
وأنـــت مقـــيم كـــارع مـــن دنانـــه ... يشعشعهـــا بالكوثـر العـــذب رضـــوان

ولم ينس الشاعر أن يشير إلى أبى تمام والبحترى فى أبياته ، ويتعرض للخلاف حول الشعر فى العصر الحديث ، ويهاجم النقاد الذين يهاجمونه فيقول :

أجـــد نافَجُـــنْ الحاســـدون وليتنا ... أسأنا ففى بعـض الإســاءه إحســـانُ
أغـــاروا علـــى ألفاظنـــا بمراقـــم ... يقـر لهـــا بالطعـــن بيـــض وســرانُ
لهـــوا بانتقـــاد الثـــوب عمـــا يضمه ... وتنتخـــب الحسنـــاء والجســـم عريـــانُ
وداروا بتذمـــام الغـــبار عيـونهـم ... إذا بـــرزت فى حلبـة الشعـــر فرســـانُ
بـشـــاعرها فلتفتخـــر كل أمـــة ... يهـــددهـــا بالمـــوت والعـــار طغيـــان
اذا طـــويت أعـــلامها فهـــو بيرق ... وان أخمـــدت أنفاسهـــا فهـــو بركـــان
يهـــز رفـــات الغابرين صراخـــه ... فتنشـــق أرمـــاس وتنحـــل أكفـــان
وتبـــعث أبطـــال ، وتنضـــى صوارم ... وتنـــشر أعـــلام ، وتنصـــف أوطـــان

(١) صالح جودت : بلابل من الشرق ص ٨٦ .
(٢) ديوان القروى ج ١ ص ٤١٥ .

ويبدو هذا التأثر أحيانا فى اتفاق المعانى ربما للروح العربية الواحدة أو للتأثر بأفكار الشعراء.

فابو ماضى فى الأسطورة الأزلية يقول :

هـم حـــددوا القبـــح فكـــان الجمـــال وعرفـــوا الخـــير فكـــان الطـــلاح

ويلتقى قوله مع قول المتنبى « وبضدها تتميز الأشياء والشاعر « نعيمه قازان » عندما يقول :

ألا كل ديـن مـا خـــلا الحـب بدعـــــة وكـــل اجتهاد مـــا عـــداه ظنـــــون

يذكرنا بصياغة بيت لبيد الذى يقول فيه :

ألا كـــل شـــىء مـــا خـــلا اللـــه باطـــل وكـــل نعـــيم لا محـــالـــة زائـــــل

وأبو ماضى عندما يقول :

لم يـبق مـــا يســـليك غـــير الكـــاس فاشـــرب ودع للنـــاس مـــا للنـــــاس
وانس الهمـوم فليـــس يسعـــد ذاكـــر واســـق النجـــوم فانهـــا جـــلاسى
واصرع بهـا عقـــل النديـــم ولبـــــه ما نغـص الحاســى كعقـل الحاســـى

فإنه يذهب قريبا فى التأسى « بأبى تمام » إلى حد بعيد فى قوله :

دعنى وشرب الهوى يـا شـارب الكـــاس فانـــنى للـــذى حسيتـــه حاســـى

والشاعر « شكر الله الجر » يقلد المتنبى فى صياغة أبياته . ويسرق منه تعبيرات كاملة فبيت المتنبى الشهير .

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــارا تعبـت فـــى مرادهـــا الأجســـام

قلده « شكر الله الجر » وقال :

كلمـــا كانـــت النفـــوس كبـــارا ضـاق عـن مطمـع النفـــوس الوجـــود

« والياس قنصل » بعد أن يلح فى أسباب الحيرة وينهمك يكتشف أخيرا أن مبعث ذلك هو

الإنسان نفسه يقول :

يا نفـس لـن تجـدى السبيـل فأطفـئى	هـذا الضيـاء فمـا الضيـاء بمسعفـى
مازلـت أبحـث ممعنا فـى حيرتـى	وأجـد خلـف الوهـم جـد تلهـف
حتى رجعـت إلـى الشكوك مصدعـا	ورأيـت أنـى مصدر الـسر الخفـى

إنه فى هذه النزعة يجارى أبا العلاء فى قولة :

والـذى حـارت البريـة فيـه	حيـوان مستحـدث مـن جمـاد

وعندما يخاطب « فوزى المعلوف » الموت بقوله :

الآن يامـوت إلـىّ اقـترب	يـا مرحبـا بالموثـق المعتـق
ـتق نفسـى مـن قيـود الأسـى	موثـق جسمـى فـى المـدى الضيـق

فانه يقترب جدّ القرب من أبى العلاء الذى رأى الحياة سجنا للروح داخل الجسد عندما يقول :

أرانـى فـى الثلاثـة مـن سجونـى	فـلا تسـأل عـن الخـبر النبيـث
لفقـدى ناظـرى ولـزوم بيـتى	وكـون النفـس فـى الجسـم الخبيـث (١)

وقد وجهت للشاعر « رياض المعلوف » سؤالا يتعلق بقضية التأثر عند المهجرين قائلا :

- أى أدب أثر فيكم وفى آل المعلوف عامة ؟ وما الأديب المباشر الذى تأثرتم به فى الأدب العربى؟ وما منابع ثقافتكم الأولى ؟ وهل للتصوف المسيحى والإسلامى أثر فى نتاجكم ؟

فأجاب :

نحن الإخوة الثلاثة :

فوزى : تأثر بالمعرى وعمر بن أبى ربيعة . ومن الفرنجة بشاتوبريان الفرنسى وروايته – ابن حامد أو سقوط غرناطة تلاقى فيها مع ابن سراج القرطبى ومع شاتوبريان وألبير

(١) د / نظمى عبد البديع : أدب المهجريين أصالة الشرق وفكر الغرب . ص ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ .

سامان ، ولامرتين .

وشفيق : تأثر بالمتنبى وأبى تمام وطرفة بن العبد . **ومن الفرنجة** : ببودلير الفرنسى .

ورياض : تأثر بالشاب الظريف والتلمسانى « وأبى النواس » والبهاء زهير وعمر بن أبى ربيعة وأعجب بمجاميع الثعالبى الشعرية للعديد من شعراء العرب خاصة أحسن ما سمعت للثعالبى .

وهذا الكتاب كان رفيقه وزاد سفره مع ديوان أبى نواس فى كل اسفاره الي أوروبا والبلاد العربيه والأمريكتين .

ومن الفرنجة تأثر ببودلير ، وألبير سامان ، وما لرميه ، ولا مرتين الفرنسيين وشللى البريطانى ، وأوثغريتى الإيطالى ، ولى دواوين شعريه فرنسية نشرت بباريس . منها « تلاوين ومسامير العاج ، وشعراء الخمرة والمرأة عند العرب مع ترجمة بعض شعرهم بقلمى » .

وثقافتنا الأولى بالعربية والفرنسية وبعض الإنكليزية ولا شك أنه أتتنا شاعريتنا نحن الأخوه الثلاثة مع العديد من شعراء آل المعلوف عن طريق جدودنا أمراء آل غسان الذين كانوا يهتمون بالشعر والشعراء حتى إن حسان بن ثابت كان يلقى قصائدة فى مديح جدودنا الغساسنة فيجزونه إكراما لشعره بأكياس الذهب ! وأشرت إلى ذلك فى إحدى قصائدى :

فقريضـــى ورثتـــه عـــــن جــــــدودى ... آل غســـــان خـــــــيرة الأعــــــلام
أمـــراء مـــن أنبـــل العـــرب أصـــلا ... ســـادة الشعـــر والعـــلا والحســـــام
وبهـــم كـــم تشامـــخ الـــرأس عـــزا ... ولـــى الفخـــر بالجـــدود الكـــــرام

ويجوز أن يكون للتصوف المسيحى والاسلامى أثره فى مؤلفاتنا نحن الثلاثة « فوزى وشفيق ورياض المعلوف لأننا ربينا بين المطبوعات والمخطوطات فى مكتبه عيسى اسكندر المعلوف وأولاده – الخاصة والتي تضم العشرين ألفا من المطبوعات النادرة وألفا من المخطوطات النفيسة المموهة بالذهب والوثائق القيمة التى هى فى غاية الندرة .. ووالدنا العظيم العلامة المجمعى عيسى اسكندر المعلوف مؤسس وعضو مجامع اللغة العربية بالقاهرة ، ودمشق وبيروت والبرازيل .

وفى هذا الجو الثقافى الرائع ! .. وعلاوة عن ذلك أخوالنا الخمسة شعراء ومنهم الشاعر ميشال المعلوف أول رئيس للعصبة الأندلسية بسانبولو البرازيل ومؤسسها مع مجلتها .

وهكذا ترعرعنا بين هذه النفائس الفكرية والشعرية والروحية . فعشنا هكذا لنا عين على الإنجيل .. وعين علي القرآن الكريم . فجمعنا ما بين الحضارتين العظيمتين ! .. وصوفيتهما وروحانيتهما وشاعريتهما .

زحله فى ١٤ ك١ ١٩٧٧ زحله لبنان – رياض المعلوف (١)

– ٣ –

ومن المؤثرات التراثية التى أثرت فى الأدب المهجرى ، الأدب الأندلسى وكان تأثيره فيه تأثير النبع القديم فى الروافد التى نهلت من ذلك النبع .. وتشبعت لتلتقى بينابيع كثيرة غيره ، فيحدث تمازج واختلاط ، وفى النهاية نجد أدبا ذا طعم جديد ولون متميز :

أ – ويرجع تأثر الأدب المهجرى بالأدب الأندلسى إلى صلة الأمريكان الذين يعيش بينهم المهجريون بالأسبان وأهل الأندلس .

ب – كذلك التشابه فى ظروف الهجرة وإن اختلف الزمان والمكان والهدف يقول حبيب مسعود : فالعرب دخلوا الأندلس فاتحين ونشروا هيبتهم فدرج الأدب والعلم فى ظلال أعلامهم وزها الشعر فى خمائل مجدهم . أما نحن فقد دخلنا أرض كولمبس مسترزقين طالبين عطفا سائلين عدلا . فلا نبرر تسمْية بيئتنا « بالأندلس » إلا اعتبارنا أن نشر الأدب العربى فى البلد الغريب وفى الأميين من قومنا « هو فتح مبين » وأن الأنصراف إلى الأدب هو نوع من الاستشهاد .

ولقد حملت نفوس المهجريين كل اعزاز وتقدير وحماس وتعصب لهذه الدولة التي قامت فى الأندلس وبنت مجدا عريقا دام أكثر من ثمانية قرون « وهذا الشعور ولد فيهم العزائم والهمم وأثار فيهم نخوة الفخر والاعتزاز بهذه الأمجاد (٢) .

ج – واتصل المهجريون ببعض شعراء الأسبان الذين كانوا يذكرونهم بعهود الأندلس الغابرة كالشاعر الأسبانى الشهير « فرنسيسكو فيلا سبازا » الذى عاش مدة عمره فى البرازيل واتصل به عدد من شعراء هنا: مثل فوزى المعلوف وقد ترجم مطولته «

بساط الريح » إلى اللغة الأسبانية وكتب مقدمتها .

ولقد ترجمها غير شاعر الأسبان ، أمير شعراء البرتغال (سويرينو) شعرا إلى البرتغالية ، وترجمها المستشرق الانجليزى « جورج كفت » الى الانجليزية وترجمها إلى الألمانية الدكتور « كميفماير » . وإلى الروسية « كروتشكومسكى » وإلى الرومانية « أميل مرقده » نزيل بخارست » وإلى الفرنسية كل من الدكتور فائز عون ، والسيدة أفلين بسترس والسيد فوزى سعيد .[1]

ومظاهر هذا التأثر تبدو فى أعمال الشعراء والأدباء ، ومنهم فوزى المعلوف فى شعره ونثره أيضا ، فقد وضع رواية عنوانها « ابن حامد أو سقوط غرناطة .

وجبران خليل جبران : يقول فى قصة « الأجنحة المتكسرة موضحا أن الأدب الأندلسى كان من مصادر ثقافته الأولى « سرت نحو ذاك المعبد واعدا نفسى بلقاء سلمى كرامة ، حاملا بيدى كتابا صغيرا من الموشحات الأندلسية التى كانت فى ذاك العهد ولم تزل إلى الآن تستميل نفسى »[2]

والياس فرحات يحيى الأندلس فى موشحة بعنوان الأندلس فيقول :

يـــا إبنـــه الزهـــراء يـــا أندلسيـــّة	إن مـــن أجـــدادك العـــرب بقيـــــة
لـــم تـــزل شامخـــة الـــرأس أبيـــــه	لـــم تفرقهـــا مســـــاع أجنبيـــــة
لـــــم تفتقهـــا دواع مذهبيـــــة	كلمـــا مـــرت بهـــا ريـــح الخزامـــى

أرسلت معْها لأهليك السّلامــا[3]

ولم يكتف شعراؤنا الأندلسيون الجدد « المهجريون » بأن استوحوا أمجاد الأندلس وأيامهم الجميلة فى شعرهم ونثرهم بل سموا رابطتهم الأدبية التى تلم شتاتهم وعنها تصدر أفكارهم « العصبة الاندلسية » وضمت كثيرا من الأدباء ومنهم من كان يوقع تحت عمله الأدبى بتوقيع « أندلسـى »[4]

وقد تأثر المهجريون فى الصياغة وكيفية الأداء بالموشحات الأندلسية لأنهم قد أطالوا النظر فى الموشحات وفيما اهتدت إليه من أشكال موسيقية تعتمد على

---

(١) د / حسن جاد / الأدب العربى فى المهجر ص ٤٣١ .
(٢) جبران : الأجنحة المتكسرة ص ٢٠ .
(٣) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٢٤٩ .
(٤) السابق ص ٢٥١ .

التنويع فى القافيـــة أو اللعب بعدد التفاعيل على أن يخضع كل ذلك لنظام موسيقى ثابت . (١)

ويرى الناعورى أن المهجريين طوروا فن الموشحات نظرا لظروفهم التى ساعدتهم كالجو الجديد الذى عاشوا فيه والآداب الغربية التى اتصلوا بها والحرية الواسعة التى امتلأت بها نفوسهم .

ويرى هذا الرأى أيضا « الدكتور مصطفى هدارة » حينما يتكلم عن عناصر التجديد فى الناحية الشكلية العامة لشعر المهجر ويقول عنها إنها « ذات أصول قديمة إلا أن شعراء المهجر قد أضافوا إليها بروحهم التجديدى القوى إضافات جديده » (٢)

ولكن د / أنس داود يرى أن المهجريين « لم يجددوا فى اوزان الشعر بل نهضوا بفن توزيع القافية على النحو الذى بدأه الشعراء العباسيون ونما علي يد الوشاحين » (٣) ويتهم د / نادرة جميل السراج بالتسرع حين « أشادت بتجديد شعراء المهجر فى أوزان الشعر وقوافيه والحقيقة أن التطوير الذى حدث على أيدى المهجريين فى فن الموشحات لم يكن تطويرا فى الشكل « الوزن خاصة » وإنما كان تطويرا فى مضمون هذه الموشحات فقد « ارتفعوا بمستواها الفنّى وأشاعوا فيها الموسيقى العذبة والرقة الغنائية الحلوة وسموا بها عن التلاعب اللفظى والزخرف الشكلى اللذين كانا يسيطران عليها فى الأندلس » (٤) .

كما تجاوزوا بها نطاقها الأندلسى المحدود المضمون الذى كان يعوزه العمق واتساع الأفق إلى الآفاق الإنسانية والاجتماعية والتأملية وضمنوها شعر التأمل والشعور الإنسانى الواسع .(٥)

ومما يؤكد ما ذهبت إليه واتفقت فيه مع بعض النقاد الذين ذكرتهم . قول ايليا أبى ماضى فى مقدمة ديوان « نعمة الحاج » لا يصير الشاعر شاعرا حقيقيا حتى يستنبط ويبتكر ، وليس الابتكار أن يعدل الشاعر من الروى الواحد والعروض الواحد فى القصيدة إلى أكثر من

(١) د / د انس دواود : التجديد فى شعر المهجر ص ٣٥٢ .
(٢) د / مصطفى هدارة : التجدد فى شعر المهجر ص ١٨٦ .
(٣) د / دانس دواود : التجديد فى شعر المهجر ص ٣٢٥
(٤) حسن جاد / الأدب العربي فى المهجر ص ٤٣٧ .
(٥) السابق ص ٤٣٧ .

روى وأكثر من عروض كما يتوهم بعض المعاصرين خطأ .

فإن هذه الطريقة قديمة طرقها شعراء الأندلس ، وتوسعوا فيها ولكنها لم تصنع من غير الشاعر شاعرا . وهذا مما يثبت أن السرفى المعانى لا المبانى على أن المعنى الجميل يستلزم أن يكون معناه جميلا . (١)

والشاعر رياض المعلوف حينما وجهت إليه السؤال الآتى :

هل تأثر المهجريون بفن الموشحات عند الأندلسيين :أجاب قائلا :

« أظن أن المهجريين تأثروا بالموشحات الأندلسية ونسجوا على منوالها أو عارضوها بالطريقة ذاتها أو ببعض الاختلاف نظرا للزمن والبيئة.

فالرابطة القلمية والعصبة الأندلسية تأثرتا بنهضة الأندلس الشعرية ولأدبائها وشعرائها خاصة نماذج لطيفه تذكرنا بالأندلس ونهضتها وإن تكن أحيانا الطريقة مختلفة نوعا ما خاصة فى التفكير العصرى الآن .

فالأندلسيات كانت فى « الروضيات والطبيعة ومحاسنها » .

أما المهجريون فإنهم تجاوزوا ذلك بإضفائهم مسحة فلسفية فى تخيلاتهم الشعرية !! وكأنهم أكملوا هاتيك الموشحات والزهريات المستكلفة الموسيقى والمعنى والمبنى . بموشحات جاءت موافقة لنهضة الزمن الحديث فى عمق التفكير ومتطلبات العصر . (٢)

وحتى تتم الموازنة ويأخذ الحكم دليله العملى . سأضع نموذجين لكل من الموشحات الأندلسية القديمة والموشحات المهجرية . لنعرف الفرق بين مضمونهما وإن اتحدا فى الشكل الخارجى .

(أ) من موشح لأبى عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز من شعراء المعتصم بن حمادج وقد عاش فى القرن الخامس الهجرى يقول : (٣)

---

(١) مقدمة ديوان : نعمه الحاج – التجديد فى شعر المهجر د / مصطفى هدارة ص ١٧٩ .

(٢) من رسالة أرسل بها الشاعر الى فى ١٠ من مايو سنه ١٩٧٨ .

(٣) ابن سناء الملك دار الطراز فى عمل الموشحات ص ٦٥ .

بدرتـــــم شمـــس ضحــــا غصــــن نقا مســـك شـــــم
فالوصـــال مـا قــد خـــلا مــــن أمـــل فائـــــق
والخيــال مـا قـد عــلا مـــن نفـــس خافــــت
قاتلــى أهـــدره دمــــا مـــن قـــد غـــدا ملحـــدا
واصلــى كنــت نمـــــا عمـــا بـــدا قـــد عـــدا
سايلــى مستفهمــــا حــــين الــــردى أعتـــدى

* *

ومما لا شك فيه أن هذه الموشحة ظاهرة التكلف ، ثقيلة الإيقاع ، متفككة الأبيات والشعور اعتمد فيها صاحبها على التنويع الموسيقى ولم يتطلع إلى ما عداه.

ولا يمنع هذا أن تكون هناك موشحات تتسم بالرقة والعذوبة وصدق الشعور ولكنها لا تصل إلى العمق الذى أضفاه المهجريون على قصائدهم التى أخذت طابع الموشحات ومنها موشحة ابن سناء الملك التى يقول فيها :

ياشقيــــق الـــروح مـــن جســدى أهـــــوى بى منـــك أم لَمَـــمُ

ضـــعت بـــين العـــذر والعـــزل
مأنـــا وحـــدى علـــى خبـــل
مـــا أرى قلبـــى بمحتمـــل

مايـــريـــد البــين مـــن خلــدى وهــــو لا خصــــم ولاحكـــم

أيهـــا الظبـــى الـــذى شـــردا
تركتنـــى مقلتـــاك ســــدى
زعمـــوا أنـــــى أراك غـــدا

وأظـــن المـــوت دون غـــــدى : أيـــن منـــى اليـــوم مازعمـــوا

أدن شيئـــا أيهـــا القمـــر
كـــاد يمحـــو نـــورك الخفـــر
أدلال ذاك أم حـــذر

لاتخـــف كيـــدى ولا رصـــدى أنـــت ظبـــى والهـــوى حـــرم

* *

وإذا كانت موشحة ابن سناء الملك ، وهو صاحب القدم الراسخة فى هذا الفن اقتصرت على تجربة محددة ، وخيال قريب .

فإن إيليا أبو ماضى يصوغ أفكاره العميقة فى قالب الموشحات ، ويخاطب نفسه معزيا إياها فالناس لا تفهمها وترميه بالجنون لأنه لا يقنع بالظواهر بل يفتش عن الأسرار الكامنة خلف النقاب » يقول من قصيدته « يا نفس » (١)

يا نفـــس لو كنـــت تريـــن الشـــؤون	كمـــا يراهـــا سائـــر النـــاس
لمـــا رمانـــى بعضهـــم بالجنـــون	ولـــم أجـــد فـــى النـــاس مـــن بـــاس

* *

بالأمـــس مـــر الموكـــب الأكـــبر	فيـــه الفـــتى الراكـــب والناعـــل
وأقبلـــت غـــيد الحمـــى تخطـــر	يهتفـــن : عـــاد البطـــل الباســـل
مـــالك يـــا هـــذى لا تهتفـــين	لصاحـــب الدولـــة والبـــاس ؟
فقلـــت لـــى ضاحكـــة تسخريـــن	ويلك ! هـــذا قاتـــل النـــاس

ونعيمه فى قصيدتة « من سفر الزمان » (٢) بين موقفه من الزمن ، وفكرته عن الوجود فيستقبل عامه الجديد استقبال الفيلسوف لا استقبال الغر الساذج الذى يفرد ولا يعرف سبب فرحتة إلا أن الناس يحتفلون بهذه المناسبة وعليه أن يشاركهم أما نعيمه فيخاطب هذه السنة المقبلة فى صياغة تشبه الموشحات .

(١) أبو ماضى الخمائل ص ٦٣ .
(٢) م . نعيمه همس الجفون ص ٢٧ .

مـــا أنـــت فـــى سفـــر الزمـــان العظـــيم إلا صـــدى الماضـــى وصـــوت الغـــد
فـــيك استـــوى مـــن قبـــل أن تولـــدى قطبـــا حيـــاة نحـــن فيهـــا نهـــيم

لا جـــوعهـــــا يشبـــــع
لا موتهـــــا يهـــــجع
لا طامـــــع يقنـــــع
فيهـــــا ولا الزاهـــــدون
النـــــاس فـــــى أســـرارها حائرون
والســـــر ، لـــــو يدرون ، فيهم مقيـــم

— ٤ —

ومن المؤثرات التى ظهرت فى أدب المهجريين توافقهم مع حركة التجديد فى الأدب العربي المعاصر وخاصة اتجاه خليل مطران الرومانسى فى الشعر العربى الحديث فإن القصيدة عنده ذات موضوع واحد ومترابطة الأفكار والصياغه عنده تعد « جزءا من الخلق الشعرى ، فهى نحت للصور والأخيلة ومد للروابط والمبادلات بين معطيات الحواس المختلفة .

فمطران شاعر رومانتيكى أصيل يحاول أن يخفى تلك الرومانتيكية لشدة حساسيته وفرط محاسبته لنفسه ومعاودته لها . (١)

والمتتبع لشعر مطران القصصى وشعره فى الطبيعة ، وصوره الشعرية ، وصياغته يلمح هذا الشبه بينه وبين بناء القصيدة عند المهجريين وكأن روحا تجديدية سرت فيهما معا فتشابهت مشاعرهما .

— ٥ —

ومن المؤثرات التى أثرت فى أدب المهجريين ما كان ثمرة الالتقاء الفكرى بين شعراء مدرسة الديوان وأدباء المهجر « ويطلق د / عبد اللطيف خليف » على مدرســـة الديوان اســـم « جيل المذهب الجديد » ويقول « فى مطلع القرن العشرين ظهر جيل جديد من الشعراء يخالف جيل المحافظين فى فهمه حقيقة الشعر ووظيفته فقد اتجهوا بالشعر إلى التعبير عن الطبيعة

(١) د / محمد مندور : خليل مطران ص ١٢ .

وأسرارها وعن الانسان ومشاعره ، وعابوا على الشعراء المحافظين انصرافهم بالشعر الى تسجيل الظواهر والمعالم الوطنيه أو القومية بالأسماء والحوادث » (١) .

وهذا الاتجاه فى الشعر هو اتجاه المهجريين ، فهم يعبرون عن وجدانهم تعبيرا صادقا وعبد الرحمن شكرى يقول فى تصدير ديوانه .

ألا يـــا طائـــــر الفـــردوس إن الشعـر وجـدان

ويقول العقاد معلنا مذهبه فى الشعر والشعـراء.

الشعـر مـن نفـس الرحمـــن مقتبـــس	والشاعــر الفذ بــين النـــاس رحمــــان
ان كان فى الكون ركــن للحيـــاة يـــرى	ففـــى صحائفــه للشعـــر ديـــــوان

وكان للصلة الأدبية الحميمة التى نشأت بين العقاد ونعيمه أثر لا ينكر فى إثراء كل من المدرستين فالعقاد يذهب إلى أنه « وقع من قراءة الغربال على قرابة صحيحة وجوار ملاصق فى الحى الذى يسكنه من هذه الدنيا الجديدة ، وذلك لأنه رأى قلما جاهدا فى طلب الشعـر الصحيـح ».(٢)

ونعيمه يقرأ كتاب الديوان ويكتب منوها بالكتاب وصاحبيه العقاد والمازنى ويقول :

« ألا بارك الله فى مصر فما كل ما تنثره ثرثرة ولا كل ما تنظمه بهرجة ، وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام وتؤلف رصف القوافى » . (٣)

ويوضح « نعيمه حيثيات تقديره لهذه المدرسة وتجاوبه معها فيؤكد أنه بدأ يسمع أن فى مصر جماعة تأبى اليوم أن تتناول غذاءها الأدبى من قصع أجدادها وملاعق أجدادها بل تفضل أن يطبخ طعامها بيدها وأن تمضغه بأسنانها لا بأسنان سواها » .

وقد تبادلت هاتان المدرستان التأثير وأفادت كل منهما من الأخرى إلا أن مذهب الجيل الجديد ، كان أرسخ قدما فى تقنين الأصول النقدية ، حيث حدد العقاد والمازنى فى « الديوان » القيم والمعايير النقدية التي تحدد نظرتهم إلى الشعر فنادوا بالوحدة المعنوية فى القصيدة .

(١) د / عبد اللطيف خليف : التيارات الجديدة فى الشعر العربى المعاصر ص ١٧٤ .
(٢) مقدمة الغربال عباس العقاد ص ٧ .
(٣) الغربال ص ١٨٣ .

وأكدوا على ضرورة الصدق الفنى والمعاناة وأن الشعر لابد أن يرتبط بشخصية قائله ويعبر عن وجدانه وأحاسيسه .

ويرى د / مندور أن التقاء المدرستين فى الدعوة إلى التجديد فى الشرق العربى وفى المهاجر كان فى شعر الوجدان الذاتى والسبب « أن المدرستين قامتا في زمن أخذ الوعى ينتشر فيه فيعكس على الافراد إحساسا قويا بذواتهم ورغبة عارمة فى تأكيد تلك الذوات ولا سيما أنهم قد اطلعوا على الآداب الغربية والشعر الغربي بالذات واحسوا بنبض قائليه .

ومن ناحية أخرى فإن الشعر الغنائى هو الميدان الخصب للتجديد ولما يحوى من القيم الفنية الموروثة وزلزلة هذه القيم من أذواق الجمهور وإحلال قيم أخرى فى هذا الفن أمر جد عسير يحتاج إلى صبروعزم وجلد على ما يواجه به الدعاة من عداوة وشحناء واحتراب حول القديم والجديد . (١) .

و « العقاد » يؤكد أن المدرستين « نبعتا تلقائيا وسارتا متوازيتين ساعيتين إلى هدف موحد هو الهجوم السافر على مدرسة الأدب التقليدى والدعوة إلى أدب جديد ولأدل على ذلك من الباعث على هذا الهدف هو ظروف متشابهة هى اتصال كل منهما بالآداب والثقافات الأوربية ثم إحساس كل منهما بأن اتجاهات الأدب العربى التقليدى لم تكف حاجات العصر المتطور . (٢)

(١) د / عبد الحى دياب عباس العقاد ناقدا ص ٨٧ ، ٧٩ .

(٢) من حديث مع العقاد : المجلة عدد أبريل سنه ١٩٥٥م .

- ٦ -

المؤثرات الأجنبية :

وإذا كان الأستاذ / العقاد صرح بأن سبب التقاء المدرستين هو الثورة على القديم والتأثر بالأدب والثقافات الأوربية .

فهذا الاعتراف له دوره في البحث عن المؤثرات الأجنبية في الأدب المهجرى حيث جعلته يتجه إلى العمق ، ومعالجة هموم الذات ، وتأمل الحياة وخفاياها والطبيعة وما تحفل به من أسرار وسيطرة الحزن عليهم في كثير من أشعارهم ، وشيوع المذاهب الفلسفية فى قصصهم وأشعارهم كوحدة الوجود ، والتقمص والتناسخ ، وتعدد الحيوات ، وتجدد بناء الإنسان وانتقال الأرواح من الإنسان الى النبات كل هذه الأفكار السابقة كانت صدى لهذه المؤثرات المختلفة فقد أتيح لبعضهم أن يطلع على فلسفة الهنود ومذاهبهم القديمة ، والفلسفة الصينية والآداب الفرنسية والإنجليزية والروسية والأمريكيه والأسبانية والبرتغالية .

ونظرا للتجمعات الأدبية التى كانوا يعقدونها والصحف التى كانوا يصدرونها انتشرت هذه الثقافات التى سرت فى أعماقهم الأدبية فقرأها زملاء لهم لم يطلعوا على هذه الآداب فقلدوها .. وتناقلت الأفكار فيما بينهم .

وربما يقرأ الإنسان قصيدة فيتأثر بمنهجها .. وتتولد فى نفسه معان كثيرة وخيالات متعددة نتيجة لقراءته وتأثره بهذا العمل الأدبى .

والشاعر رياض المعلوف يجيب على سؤال وجهته إليه فى هذا الشأن .

س : هل تعتقد سيادتكم أن الأدب الأجنبى كان له أثر في نزوع الأدب المهجرى إلى التأمل واستبطان أسرار الأشياء ؟ وهل الأدب الأمريكى خاصة ينفرد بهذا التأثير ؟

جـ : وأجاب الشاعر قائلا :

لا شك أن الأدب المهجرى تأثر بالأدب الفرنجي وفقا للبيئة التى عاش فيها هؤلاء الأدباء والشعراء . فمثلا أدباء « الرابطة القلمية – بنيويورك تأثروا بأدباء وشعراء السكسون من أمريكيين وانكليز ، وكذلك أدباء – العصبة الأندلسية بالبرازيل تأثروا بالأدب البورتغالى ، وفى

الشيلى والأرجنتين وفنزويلا بالأدب الأسبانى واللاتينى » (١)

ويعترف الشاعر بأنه تأثر بالأدب الفرنسى والإنجليزى . فقد تأثر بيودلير ، وألبير سامان ، ومالا رميه ، ورامبو ، ولا مرتين . وهم من أعلام الأدب الفرنسى وأقطاب الرومانسية والرمزية فى الأدب الأوربى ، وتأثر بشيلى البريطانى ، وأونغريتى الإيطالى وفوزى المعلوف تأثر بشاتوبريان الفرنسى ولامرتين وكذلك شفيق معلوف تأثر ببودلير الفرنسى .

وهذه الاعترافات وثيقة لا جدال فيها من أحد أقطاب هذه المدرسة وليس أقوى من الاعتراف فى أمثال هذه القضايا « وتأثرهم بالآداب الأجنبية تعددت خيوطه وتشابكت ، ولكنهم لم يذوبوا فى آفاق تلك الآداب وبقيت لهم شخصيتهم الأدبية المستقلة - وجاء تأثرهم قريبا من الاحتذاء .

- ١ -

ففى أمريكا « كان الأدب ما يزال متأثرا بتلك الحركة الروحية القوية التى ظهرت على يد امرسن « ١٨٠٣ - ١٨٨٤ » وغيره من الشعراء الذين نزعوا فى شعرهم نحو مذهب « الترا نسند نتلزم » ومعنى هذه الكلمة العناية بكل ما هو روحى ، والسمو بالروح إلى افاق علوية ، ومعاونة كل من يعيش بالروح ، وفى هذا ما فيه من التسامى والعلو الذى اتسمت به هذه الحركة التى يقول مؤرخو الآداب عنها إنها مظهر لاحق لحركة الرومانسية الأوربية نفسها .

وخاصه أن كلتا الحركتين تسير على مبدأ عدم الصبر على التفكير الكلاسيكى السقيم الذى يوصف بأنه رتيب وممل .

كما أن بعض الكتاب الأمريكين ممن انتموا إلى هذه الحركه يشبهون نظراءهم من كتاب الانجليز وهذه الحركة الأدبية التى تدعو إلى السمو والجمال الروحى والمعنوى كانت ترمى أيضا إلى تشجيع كل فرد على تتبع ملكاته الخاصه وعبقريته الكامنه فى داخله .

وهذا الاعتقاد بأهمية الفردية الشخصية هو الذى حدده ودعا إليه الكاتب الكبير امرسون وقد كان لهذه الحركة مجلة تسمى المزولة كانوا يكتبون فيها ويعبرون عن آرائهم . (٢)

---

(١) من رساله أرسلها الى الشاعر فى ١٤ ديسمبر سنه ١٩٧٧م .

(٢) د / نادرة جميل السراج : شعراء الرابطة القلمية ص ١٠١ - ١٠٢ .

ومن أدباء أمريكا المشهورين والذين كان لهم أثر فى الحياة الفكرية هناك والأدبية فى ذلك الوقت والت ويتمان ، ورلف والد ، وامرسون ، وهنرى دافيد ثورو .

وكانت اتجاهاتهم روحية خالصة . فامرسون صاحب الحركه الروحية القوية التى تحدثت عنها سابقا .

« أما والت ويتمان فقد كان ملاكا فى هيئه شاعر يتحدث بتلك النبرة التي يتحدث بها أنبياء العهد القديم وكان مشغولا بقضايا الديمقراطية والحق والعدالة » (١)

وهذه الروح التالية أثرت فى المهجريين .. وقد شغلوا بهذا الأدب واتصلوا ببعض الأدباء الأمريكيين فجبران كان على صلة وثيقة ببعض الشعراء الأمريكيين واشترك فى تحرير مجلة الفنون السبعة واتصل بجمعية الشعر النيويوركية التى أتاحت له أن يلقى في اجتماع من اجتماعاتها شيئا من نتاج قلمه .

« ويكفينا هذا دليلا على أن جبران كان على صلة وثيقة بعدد لا بأس به من المنتديات الأدبية الأمريكية ، وكان بينه وبين شاعرات أمريكا وأديباتها صداقه تبلغ حد المتانة والإخلاص فى بعض الاحيان كصداقته للآنسه « مارى هاسكل » وصداقته « لبربارا يونغ » التى كتبت كتابا عنه وعن ذكرياتها معه وعن آرائه وأفكاره .

وظاهرة التسامح الدينى التى شاعت فى كتابات المهجريين وأشعارهم إنما هى صدى لهذه الروح التي سرت فى أمريكا عقب التزمت الشديد الذى سيطر على حياة الأوربيين الذين هاجروا إلى أمريكا فارين بدينهم من الاضطهاد وسطوة الكنيسة .. وتشابهت الظروف فإن المهجريين فروا وهم يئنون من سطوة الاضهاد الدينى التى اشتعلت فى بلادهم . على يد « العثمانيين » والصراع الطائفى المرير والمذابح التى اشتعلت فى سنه ١٨٦٠ م .

ونرى « أبا ماضى يتأثر بويتمان الشاعر الأمريكى الذى كان يدعو إلى المبادىء الروحية ويتأثر ب « ثورو » الداعى إلى الامتزاج بالطبيعة ، والحياة فى صفائها والتخلص من تعقيدات الأنظمة الحديثة وجورها على فردية الأفراد واستقلالهم النفسى .

ففى حديثه إلى قارئه « فى افتتاحية ديوانه « الجداول » نلمح ظلالا من مطالع قصيدة الخير والشر ، والفساد والطهر ، والهزيمة والنصر ، ثم هذه المصالحة بين الروح والجسم وهى

(١) ديوان تذكار الماضى « تذييل » ٢٦٥ .

معان حقل بها ديوان الجداول « كثيرا ما تتردد فى شعر « ويتمان » يقول ويتمان فى افتتاحيته.

أحتفـــل بنفـــسى وأتغنـــى بنفـــسى
وكـل ما أدعيه أنا عليك أيها القارىء أن تدعيه
لأن كـــل ذرة تنتمـــى إلـــى تنتمـــى اليـــك

ويقول أبو ماضى فى أول ديوان الجداول

يــا رفيقـــى أنـــــا لــــولا أنــت مــا وقعـــت لحنـــــا
كنــت فـــى ســـرى لـــمّـا كنـــت وحـــدى أتغـــنى

انه استطاع أن يعرف الروح السارية في الموروث الشعرى الأمريكي" (١)

وقصيدة « ميخائيل نعيمه أغمض جفونك تبصر « التى تدعو إلى شىء من التفاؤل بما يكون وراء المظهر الخارجي للأشياء . ربما لم تكن إلا تحليلا قصيرا لقول « لونجفلو » .

« تعز أيها القلب وكف عن الشكوى فوراء الغيوم لا تزال شمس مشرقه » .

وهى عباره أحبها نعيمه ووصفها فى صدر إحدى مقالاته (٢) « مقالة فى كتابه الغربال »

ولكن نعيمه تبرأ من تأثره بأى مؤثرات أجنبية فيما عدا الأدب الروسى . والحقيقة أنه تأثر بفلسفة الهنود القديمة وبالفلسفات الصينية.

إنه يخاطب « بوذا » قائلا .

« ايه يا ساكن النرفانا : علمنى كيف أسكت سكوتك فى حضرة ما يدرك بالتأمل ولا يفسر بلغة البشر ، وكيف ألجم لسانى فى حضرة من لا شأن لهم من الكلام معى عمالا يقاس ولا يحد إلا إيقاعى فى التجربة والشماتة بجهلى .

« ألا برد لواعج روحى ولو بقطرة من رحيق النرفانا » .

(١) ديوان تذكار الماضى ٢٦٧ – أبو ماضى .
(٢) د / احسان عباس ، ومحد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ١٨٦ .

ويفسر « نعيمه النرفانا كما نقل عن « ادموند هومز » تفسيرا فيه قرب من فكر نعيمه نفسه وكأنه اختط لنفسه منهج النرفانا في الحياه يقول « النرفانا حالة من حالات الكمال الروحى الأقصى التى تدركها النفس بنموها الطبيعى واتساعها وتمددها الي حد أن تنفصل عن كل ما هو فردى وغير دائم ومتقلب فتندغم بالنفس العالمية التى ليس من حقيقة أبدية سواها (١)

أليس المفهوم السابق للنرفانا يتفق مع قول نعيمه « فما انطلق فى الكون صوت إلا كان نوطة فى ترنيمة الحياة العامة . ولا فكر إلا كان خيطا فى نسيج الفكر الكونى .

وقوله « فأنتم متى انفك خيالكم من أصفاده - لا قبل ذلك - تمكنتم من الوصول إلى قلب الجمال والحرية - إلى قلب المحبة والحق - إلى قلب الله . (٢)

ويتحدث نعيمه عن « وجه لا وتسو » الصينى الذى تنبأ للولاية بالخراب واضطر الى مغادرتها واذ بلغ الحدود أوقفه الخفير قائلا « اذا كنت عازما على مغادرتنا أفلا كتبت لنا كتابا نذكرك به ! » إذ ذاك نظم لاوتسو بضعة مقاطع شعرية أودعها خلاصه اختباراته الروحية ، وسلم الجندى الكتاب ومضى فى سبيله وإلى اليوم لا يدرى أحد إلى أين يمضى " .

إن حكاية هذا المعلم والفليسوف الصينى تشبه إلي حد كبير حكاية « مرداد بطل قصة « نعيمه » ولا شك أن حكايته كانت من المصادر التى نسج منها نعيمه قصة مرداد إن نعيمه يمجد فكر « لا وتسو » ويخاطبه فى شغف وتأثر بالغ .

وما أبعد فكرك عن المتناهى وأقربه من اللا متناهى حيث تقول :

اطلب الفكر المطلق « ذروة الفراغ » والرصانه (ينبوع الطمأنينة الروحية) الأشياء كلها فى حالة الصيرورة تأتى وتعود . فالنبات لا يزهر إلا ليرجع إلى الجذور . وفى رجوعه إلى الجذور اقتراب من الطمأنينة . لأنه يسير إلى الغاية . المحتومة له ، المسير إلى الغاية المحتومة كالأبدية فى معرفة الأبدية نور وفى جهلها شغب وشر من عرف الأبدية فهو مدرك ، ومن أدرك فقد اتسع أفق فكره ، ومن اتسع افق فكره كان نبيلا ومن كان نبيلا فهو كالسماء . (٣)

---

(١) م . نعيمه : المراحل : ١٥ ، ١١

(٢) م . نعيمه زاد المعاد ص ٢٠

(٣) م . نعيمه : المراحل ص ٢٦ .

أليست المعانى السابقة كلها تسرى فى أفكار نعيمه وآثارها واضحة فى كتاباته ولكن نعيمه عنده قدرة على إذابة الآثار الخارجية فى فكره وبثها فى جميع نواحيه فتبدو كأنها غير موجودة .

– ٢ –

وقد تأثر المهجريون بالنزعة الرومانسية الأوربية « وقد نشأت الرومانسية فى احضان الألم الذى اصاب الشبان الفرنسيين حين ضاعت آمالهم وتبددت أحلامهم التى كانو يرقبون الظفر بها فى ظل امبراطورية عظيمة على يد نابليون . فلما اخفق نابليون شاع اليأس فى قلوب الشبان الفرنسيين وأحسوا أن آمالهم تتبدد على صخرة الواقع المرير الذى تعيشه فرنسا فعاجوا نفوسهم بآمال محطمة وأحلام يائسة وقلوب حزينة ومضوا بها إلى الطبيعة المرحبة يلتمسون لديها العزاء حين يحسون رجع نفوسهم فيما توحى به من أسرار ، وحين هربوا إلى الطبيعة الحانية عاشوا معها فى وجدان حالم فرارا من واقع الحياة القاسى المرير ، وانتقلت عدوى النزعة الوجدانية الحالمة إلى دول أوروبا كافة حتى صارت سمة من سمات الشعراء فى هذا العصر . (١)

وتتشابه مدرسة المهجريين مع المدرسة الرومانسية حتى فى أسباب التكوين – فالرومانسية نشأت فى أعقاب الثورة الفرنسية والمدرسة المهجرية اتضح كيانها وبرزت ملامحها بعد الحرب العالميه الأولى .

وحتى فى الفن والتصوير فهما متشابهان أيضا إلا أن المدرسة الرومانسية كان لها أكثر من مصور بينما كان للرابطة القلمية مصور واحد هو جبران . ويذهب البعض إلى أكثر من هذا فيقولون إن ميخائيل نعيمه ناقد الرابطة يأخذ نفس المكانه فيها كتلك التى أخذها سانت بيف ناقد المدرسة الرومانسية .(٢)

وقد تأثر جبران بالشاعر الإنجليزى « وليم بليك » وأعجبه من حياة بليك هدوؤه العائلى ومشاركة زوجته له فى تأملاته ومعاونتها له فى فنه بقدر استطاعتها وتمنى جبران لو يستطيع تحقيق هذا الحلم هو الآخر فيجد بجانبه فتاة أحلامه التى قد تشد أزره وتأخذ بيده .(٣)

---

(١) د / عبد اللطيف خليف : التيارات الجديدة فى الشعر العربى الحديث فى مصر .
(٢) د / نادره جميل السراج شعراء الرابطة القلمية ص ١٠٢ .
(٣) السابق ص ٢٩١ .

وظهر أثر وليم بليك فى كتابات جبران واخيلته التى تجول فيما وراء الحس وتجسم المعنويات ومن هذه الأساليب قوله فى كتابه « رمل وزبد » كنا خلقا ضالين هائمين تواقين آلاف السنين قبل أن نلهم الكلمات من البحر والريح فى الأجمات .

فأنى لنا الآن أن نفصح عن خوالى الدهوربأصوات أمسنا . (١)

وليس غريبا على جبران هذا التأثر فقد أتقن الأنجليزية . وكذلك نعيمه والريحانى وألف جبران كتبا كثيرة بالانجليزية مما يدل على تمكنه منها مثل كتابه النبى وحديقة النبى ، ويسوع ابن الإنسان ورمل وزبد ، وألف نعيمه كتاب مرداد ، وكثيرا من قصائد الشعر باللغة الانجليزية .

كذلك ألف الشاعر رياض المعلوف بعض دواوينه وكتبه باللغه الفرنسيه مثل : تلاوين ومسامير العاج . وشعراء الخمرة والمرأة عند العرب ، وقام بترجمة بعض أشعار هؤلاء الشعراء ، وترجم شعره إلى الإيطالية والبرتغالية والأسبانية والإنجليزية .

وايليا أبو ماضى تسرى فى أشعاره روح « وليم بليك » كما سرت فى كتابات وأشعار جبران ففى قصيدته « أمنيه الإهة » يقول على لسان الآلاهه .

أريـــــد دنيــــــا شعـــــاع　　　يبقـــى اذا غلبـــت النجـــوم
أريـــــد دنيــــا تحـــس نفســـى　　　فيهـــا نفوســـا بـــلا جســـوم
أريـــــد خمـــــرا بـــــلا كـــؤوس　　　مـــن غـــير مـــا تنبـــت الكـــروم
إريـــد عطـــرا بـــلا زهـــور　　　يســـرى وان لـــم يكـــن نســـيم
ومـــاء يمـــوج ولا جـــدول　　　ونـــارا بـــلا حطـــب تستعـــر

وتقول د / نادره جميل السراج .

« إنى أحس بهذه الأبيات روحا من شعر « وليم يليك » الشاعر الروحى الهائم الذى تأثر به جبران زعيم الرابطة ، ويظهر أن عدوى التأمل ببليك قد سرت منه إلى بقية الزملاء . (٢)

ونسيب عريضة فى ديوانه « الأرواح الحائرة » يلتقى فى مزاجة المتشائم ، وآلامه التى لا نهاية لها مع المدرسة الرومانسية . التى سيطرت على الأدب الأوروبى فى القرن التاسع عشر .

(١) جبران : رمل وزبد ص ١٩ .
(٢) د / نادره جميل السراج : شعراء الرابطة القليمة ص ٢٢٧ .

فالشاعر « هوسمان ، والكاتب والشاعر المتشائم « توماس هاردى ، وماثيو أرنولد ، وتنيسون يقول عنهم الناقد البريطانى د / ديتشر » من الآن فصاعدا تصبح صفات الرفض والإنكار والهروب هى الاتجاهات العامة بين الشعراء . والهروب إلى الكلمات والتنكر بأسلوب الصوفية والنسك ، الرفض بأسلوب التشاؤم أو الثورة ، وديوان « هوسمان » المسمى « فتى شرويشير » ظهر فى لندن ١٩٨٦م ثم انتشر فى الولايات المتحدة الأمريكية وطبع ثلاثا وثمانين مرة وكتب عنه كثير من النقاد .

وبالنظر إلى هذه الحقائق لسنا نستبعد أن يكون نسيب عريضه واحدا ممن قرءوا هذا الديوان وأعجبوا بالشعر والشاعر ، إذ نلحظ الكثير من وجوه الشبه بينه وبين هوسمان « كلاهما كان متشائما متحيرا وخائب الأمل ، وكلاهما كان يسأل الناس أن يتركوه وحده ويعطوه الفرصة للتأمل والتحليق » .

وكثيرا ما كان « هوسمان » يتحدث إلى نفسه مثل عريضه وبقية « المهجريين » ولكى يؤكد أهميه هذه النفس يقول « هوسمان » .

« وإذا نالك الأذى من يدك أو من قدمك ، اقطعها وعش صحيحا ولكنك كرجل يقضى عليك إذا كان المرض فى نفسك أو فى روحك » ولكن بينما يحتقر هوسمان النفس المريضة فإن نسيبا يجاهد لكى يجد لها علاجا » .

أنفســـى ألــم تبصـــرى فـــى الحيـــــاة ســــوى الليــــل واليــــأس والمنكـــرات ؟
فهـــلا نظــــــرت إلـــــى المفرحـــــــات وطــــــرت إلـــــى الـــروض والغانيـــات

* *

ذممــت الحيـــــاة ولـــــم تعرفيهـــــا فهلا تناديت ، مـا أنت فيها سوى زائـره (١)

وحين نقارن بين موقف المهجريين من الموت وموقف بودلير . نرى توافقا فى النظرة إليه وقد اعترف « الشاعر رياض المعلوف بأنهم تأثروا ببودلير ورامبو ، وشاتوبريان ، وملارميه فبودلير يقول « العالم ممل وصغير اليوم وامس وغدا » ويعد الموت مخلصا له من واقع الحياة المريرة فقصيدته « المرحلة » التى تضمنها ديوانه » أزهار الشعر تجرب كل محاولات الخلاص لكى تصمم فى النهاية على الموت أما ما يجلبه الموت فهو شىء لا ندريه فالمهم هو السفر فى

(١) د / نادره جميل السراج : نسيب عريضه : الكاتب الشاعر الصحفى .

حد ذاته وأما الشاطىء المجهول فلا أهمية له .

يقول :

يا مـــــوت ! .. أيهـــــا المـــــلاح العجـــوز
آن الاوان فـــارفـــــع المرســـــاه !
مللنـــــا المقـــــام هنـــا ، يا موت فعجل بالرواح
إن يكـــن قـــد أدلهـــم ســواد البحر والسماء
فـــان قلوبنا التى تعرفها يفيض منها الضياء (١)

أليس القول السابق قريبا من قول "رياض المعلوف"

أنمـا الحـــظ قسمـــة فـــى البرايـــا — شــــؤم حظـــى يبـــدو علـــى قسماتـــى
مـــر حولـــى الحفـــار يهمـــس همســـا — فسمعـــت الحفـــار يـــروى مماتـــى
إن ثغـــرى ســـلا التبســـم لكـــن — عنـــد مـــوتى تجـــددت بسماتـــى (٢)

وهل يبعد قول « بودلير » عن قول فوزى المعلوف :

الأن يـا مـــوت إلـــىَّ اقـــترب — يـــا مرحبـــا بالموثـــق المعتـــق
معتـــق نفســـى مـــن قيـــود الأســـى — موثـــق جسمـــى فـــى المدى الضيـّـق

ويرى صورة الموت فى الطبيعة فيقول :

برغـــم الزهـــر مـــا وجـــدت لتبقـــى — بـــل ليمضـــى بـــك الخريـــف
هـــذه حالنـــا خلقنـــا لنشقـــى — ولتقضـــى بنـــا الحتـــوف (٣)

وتأثر جبران خليل جبران باسلوب نيتشه وطريقته الخاصة التى اتبعها فى كتابه « كذا تكلم زرادشت » وعرف كيف يلتقط فن نيتشه ، ودفعه الإعجاب به إلى ان يحاول أن يكون هو

---

(١) د / عبد الغفار مكاوى : ثورة الشعر الحديث ص ٨٦ .
(٢) رياض المعلوف : الأوتار المتقطعه ص ١٠ .
(٣) شعله العذاب لفوزى المعلوف ، مخطوطه ، ارسلها إلى الشاعر رياض المعلوف .

نيتشه جديدا .(١)

وكما أجرى نيتشه تعاليمه على لسان زرادشت أجرى جبران تعاليمه على لسان « المصطفى » وظل جبران متأثرا بأساليب نيتشه وطريقته فى التعبير .

وميخائيل نعيمه ونسيب يتأثران بالأدب الروسى وذلك نتيجة لتلقى العلم وهما فى مراحلهما الأولى بالمدارس الروسية . ودراسة نعيمه فى جامعة « بلتافا » واطلاعه على نتاج الأدباء الروس أمثال « جوركى وتشيكوف ، وبيلنسكى ، وبوشكين ، وتكراسوف ، ويقول فى كتابه « أبعد من واشنطون ومن موسكو » أطلعت علي الكآبة العميقة فى النفس الروسية نتيجة للقلق المستبد بها من حياة مقنعة العينين ، مكبلة اليدين والرجلين ، وللشوق المتأجج فيها إلى حياة تبصر طريقها ، وتسير فيه نشطة آمنه ومؤملة .

ويبدو هذا التأثر فى قصص نعيمه ذات المغزى الاجتماعى المتعاطف مع الكادحين من الشعب ، فهو يكتب عن العامل « أبى بطة » وعن « مسعود ، وعن تكريم الصحفيين وعن ، ستوت » وعن الشباب الثائر ، ويدعو الى محاربة الظلم الاجتماعى والثورة على المستغلين والمرابين . (٢)

وقد استمد نعيمه من الأدباء الروس والنقاد .. أشياء كثيرة أثرت فى تفكيره فيما بعد « فبيلنسكى » الناقد الروسى كشف له عن مواطن الصدق والقوة والخير والجمال فى العمل الأدبى وعن سمو وظيفة الأديب إذا هو أحسن تأديتها بالنسبة إلى نفسه وإلى الحياة حواليه وإلى الذين يقرأونه .

وجوركى : قد سلط أمام ذهنه أنوارا كشافة على زوايا مظلمة من الحياة الروسية حياة المشردين والمحرومين والناقمين على نظام يعيشون فى ظله حياة المنسيين الساكنين فى القاع .

وقد أعجب بتشيكوف « فى تصويره الدقيق لجميع نواحى الحياة بما فيها من تفاؤل ، وانبساط وانقباض وثروات وثورات » (٣)

والنهر المتجمد « الذى وصفه نعيمه فى قصيدته إنما يرمز به إلى حياة الشعب الروسى

---

(١) د . ثروت عكاشه : رمل وزبد ص ٨ .

(٢) تحدثت بالتفصيل عن هذا الاتجاه عند نعيمة فى الفصل الأول من الباب الثانى .

(٣) د / خفاجى : قصة الأدب المهجرى ص ٢ ص ٨٣ .

المتجمدة والتى يهيمن عليها القيصر الروسى ، واستطاع نعيمه أن يصور مشاعره تجاه هذا الشعب ثم أماله فى الغد المشرق الذى يرجوه له ، ولكنه فى نهاية القصيدة يعدل عن الشعب إلى القلب فيقول :

" يا نهـــر ذا قلبـــــى أراه كمــــا أراك مكبـــــلا

والفـــــرق أنــــــك تنشط مـــن عقــــالك وهـــو لا "

وبرغم هذا العدول المفاجىء عن فكرة القصيدة يظل نعيمه متعلقا بروح سرت فى أدبه مستمدة من الأدب الروسى .

ويؤكد نعيمه هذا التأثر وهذا التقدير بعد تصفحه لمجلة الفنون التى أصدرها نسيب عريضه فيصيح « لا لا لست فى حلم يا ميشا . فهذه النفحات التى هبت عليك من فنون » رفيقك نسيب عريضه لم تنطلق من خيالك ومن رغبتك الملحاح فى أن تجدد العربية شبابها ، إنها لحقيقه راهنة . وانها البشارة لك بالانبعاث الذى رحت تترجاه لبنى قومك منذ أن اطللت على الأدب الروسى والآداب العالمية وادركت قدسية الكلمة ، وقوة القلم إذا هو لم يدنس الكلمة والرياء والتدجيل ولم يعبد الحرف دون الروح .(١)

ويرجع تأثر نسيب بالأدب الروسى كذلك إلى نشأته الأولى فقد « تلقى نسيب تعليمه الابتدائى فى مدرسة حمص الروسية المجانية وحين ظهر تفوقه اختارته الجمعية الروسية الامبراطورية ليكمل تعليمه الثانوى فى مدرسة المعلمين الروسية فى مدينة الناصرة فى « فلسطين » .(٢)

وتمكن نسيب بعد ذلك من قراءة الأدب الروسى ، وترجم قصة عن اللغة الروسية أسماها « اسرار البلاط الروسى » وهى قصة رومانسية للمكائد التى كانت تتم فى البلاط الروسى خلال نظام حكم الامبراطور نيقولا الأول . ويمكن أن نلحظ فيها بوضوح عدم رضا الشعب ، والاهتمام بالمشاكل الاجتماعية .

وفى صحيفه الفنون حرص نسيب على ترجمة بعض القطع النثرية والشعرية من الأدب الروسى .

---

(١) د / نادره جميل السراج : نسيب عريضه ص ٢٧ .
(٢) السابق : ص ٢٣ .

وبنظرة إلى عناوين القطع المختارة سواء من الشعر أو النثر ، تتضح لنا الحالة المسيطرة على مزاج نسيب ، وتشاؤمه ووحدته . ابتعادا عن مشاكل الحياة اليومية إلى عالم من الذاتية ، أى فى اتجاه الهروب . وهذه الملامح فى طبيعته امتزجت جيدا مع نغمة الحزن وطبيعة الكآبة التى سيطرت على الكثيرين من الشعراء والكتاب الروس ، الذين وقع نسيب تحت تأثيرهم عندما كان حدثا ثم شابا يحاول أن يتحرر من القلق ومتاعب الحياة ، ففى قطعة النوم المنية مثلا ، يرى الكاتب الروسى « سولوغوب » أن العالم الذى نحن فيه عالم شرير وقبيح ، والحل الوحيد للإنسان أن يتراجع أو يهرب إلى عالم من الأحلام ، عالم من الانسجام والهدوء .

وفى قطعة أخرى من الشعر الحر بعنوان « الموت » لزعيم الحركة الرمزية فى الأدب الروسى الكاتب « موشكوفسكى » يشجع الكاتب على الترحيب بالموت كأفضل هبة منحتنا إياها الطبيعة . وهو يرى أن طهارة الجسم وطهارة الروح يجب أن تجتمعا وتتمم إحداهما الأخرى ، حتى نصل إلى هدف التاريخ البشرى . (١)

ويتأثر شفيق المعلوف ورياض المعلوف وفوزى المعلوف بالأدب البرتغالى ويؤلفون بعض دواوينهم بالبرتغالية ، ويترجمون بعض القصائد ومنها « أسطورة » يارا التى ترجمها شفيق ويكتب شفيق معلوف عن ألف ليلة وليلة . وعن جسور الاتصال بين العرب والغرب ، وعن الأدب الفارسى .. وعن الأدب الهندى .. مما يدل على ثقافة متمكنة .. ولا شك أنه تأثر بهذه الاتجاهات التى كتب عنها .. فى خواطره النثرية ، وأشعارهُ بكتابه « ستائر الودج روح من حافظ الشيرازى وصدى لأغانيه التى يناجى بها محبوبته : يقول حافظ الشيرازى . (٢)

ما أكثر المخاطر فى دروب الحب ألم أقل لك يا قلبى أن تبتعد عن ضفائرها .

فقد وقع حتى النسيم فى أشراكها !

لامست الكأس شفتيك ذات مساء فقالت : أنا الحياة مع أنك أنت تهبين الحياة للكؤوس .

---

(١) المصدر السابق : ١٦٥ .

(٢) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا .

(٣) شفيق المعلوف : حبات زمرد ص ١١٥ .

ويقول شفيق : [١]

« وكـــان شعـــرك عند كل لفتة يتردد بينك وبينى
كفـــدائر صفصـــافة يدفعهـــا النسيـم عنهـا
فتجـــذبهـــــا اليهـــــا الأغصـــــــان
فـــى محيـــاك ما فـــى الأرض والأفــق من وضوء
أنت تجذبـــين يـــدى فيبهـــرنى البهــــاء

إن قبلتى الأولى لن يقطفها سواك ، أحس نارا جائعة على فمى .

إن نفسية شفيق المعلوف تلتقى مع نفسية حافظ الشيرازى الذى يقول :

« إن براعـــم روحـــى لـــن تفتـــح ما لـــم أضم حبيبتى بين ذراعى
« أنا شمعـــة تحتـــرق ! فأيـــن لهثـــة شفتيها تضع حدا لعذابى ؟
« يوم غاب ركبها اغرورقت عيناى بالدمع . ومازالتا تجودان به حتى طنت
فـــى مسامـــع قلبـــى أجـــراس القافلـــة المؤذنة بالعودة » [٢]

ولا شك أن هذه المؤثرات كلها أفادت الأدب المهجرى ، واكسبته خبره واسعة جعلته يرقى إلى مستوى عال فى الفكر والتعبير ، مع ما تمتع به هؤلاء الأدباء الذين هاجروا من بلادهم من مواهب قوية ونفوس حائرة ، وارواح شفافة وعقول قادرة على التلقى والتمحيص والإبداع ، وهذا ما يؤكده جورج صيدح حين يوضح السر فى تفوقهم ويقول إنه الموهبة الفطرية لا الثقافة .

ويرى الدكتور مندور « أنهم قوم مثقفون قد امعنوا النظر فى الثقافات الغربية التى لا غنى لنا اليوم عنها ، وعرفوا كيف يستفيدون منها فى لغاتها الأصلية » [٣] وأرى أن الثقافة تضافرت مع الموهبة ، مع العوامل النفسية ، والتجارب التى خاضوها ، فصنعت هذا الأدب

---

(١) ستائر الهودج : ص ١١ ، ٣٤ .
(٢) حبات زمرد : ص ١١٥ .
(٣) د / محمد مندور فى الميزان الجديد ص ٨٥ .

الذى التقت فيه حضارة الشرق بحضارة الغرب وروحانية الشرق بمدنية الغرب وماديته . فهو أدب كما يقول جورج صيدح .

« طبعت شمس الغرب ألوانها على أوراقة أما لبه فيختلج بنسمات الصحراء »

الباب الثالث

مظاهر التأمل
فى الأدب المهجرى

توطئـــــة

الفصل الأول : أبعاد الرؤية الدينية

الفصل الثانـــى : الوجود

الفصل الثالـــث : النفس الإنسانية

الفصل الرابـــع : الحب

الفصل الخامس : الطبيعة

الفصل السادس : الموت

الفصل الســـابع : الحياة

توطئــــــة :

إن التأمل هو المنهج الذى اتخذه الأدب المهجرى وحلق فى آفاقة فقد أطال المهجريون النظر فى ذواتهم ، وما حولهم من الكائنات شأن الفلاسفة الروحيين وانشغلوا بما انطوى فى أعماق النفس من المخبآت والودائع وانشغلوا بمشاكل الوجود ، وقضايا الفناء والخلود .

وكذلك تأملوا أنفسهم . وبحثوا فى أسرارها الموغلة فى الخفاء ووضحوا موقفهم من مشاهد الوجود حولهم .. وكل له نظرته الخاصة ..

والأستاذ عيسى الناعورى يقول :

.. والتأمل يكاد يكون ميزة اختص بها فى الغالب مهجريو الشمال .

.. وفى المكان الأول جبران ونعيمه ونسيب عريضة وأبو ماضى ولم يشترك من مهجريى الجنوب بهذه المزية إلا الأقلون وعلى مدى ضيق ، واعتقد أن هذا الحكم فيه بعض التسرع .

لأن الذى يتأمل فى صبر وهدوء وانصاف وتفرد نصوص الجنوبيين شعرا ونثرا يرى أنها تكاد تضارع نصوص الشماليين فى هذه النزعة .

.. صحيح أن أدب الرابطة القلمية يتسم أغلبه بالتأمل .

.. إلا أن هذا لا ينفى هذه السمة عن أدب العصبة الأندلسية فلا يمكن أن نغفل فوزى المعلوف وشفيق المعلوف ، ورياض المعلوف وشكر الله الجر ، والياس فرحات والقروى وصيدح .

.. وحين نقرأ هذا الأدب الشعرى والنثرى نرى أن هؤلاء الأدباء كانوا فى تأملاتهم متجردين من الطبيعة المادية ويسمون فوق الحياة .. فوق البشر .. ويحلقون بأخيلتهم فى عوالم مجهولة .. يحللون النفس الانسانية .. ويصورونها بدقة ، ويحاولون إماطة اللثام عن أسرار الحياة .. وأسرار ما وراء المادة .

وفى كثير من هذه التأملات العميقة يحدوهم الشك ، ولكنه الشك الباحث عن الحقيقة .. المتطلع إلى تحقيق مثل إنسانية عليا خالدة ، لا تتطرق اليها الشكوك ولا تلفعها الأوهام والأساطير.

ومؤلفات المهجريين تعطينا دليلا أكيدا على مدى اتساع الرؤية التأملية عندهم .

وفى مقدمة هذه الأعمال مؤلفات نعيمه وجبران وأبى ماضى وكذلك أمين الريحانى الذى تزخر ريحانياته بالتأملات اللطاف فى قصائده المنثورة .

وكذلك الشاعر القروى وغيره من أدباء الجنوب .. كالياس فرحات فى أحلام الراعى ، وفوزى المعلوف الذى نطير معه على بساط الريح فنجتاز آفاقه المحدوده لنعانق المطلق خلف الحجب .

وشفيق المعلوف الذى نرتاد معه عبقر بأحلامنا الكبيرة ، ونقابل أصناف الشياطين ، ونستنطقهم الحقيقة المرة القاسية .

وبهذا النوع من الأدب .. الباحث عن الحقائق الصريحة خلف الأوهام والخرافات .. يمتاز أدب المهجريين الذى تحرر من قيود القديم وتحرر من قيود المادة وحلق فى أجواء حرة سامية . يكتشف المجهول ويحلل الأشياء ويعللها ليصل إلى حقائقها الخالدة .

وهو أدب أفاضته أرواح حرة ورتلته ضمائر صريحة . لا تجد ما يحدها ويكبلها دون البحث عن الحقيقة .

* *

وبعد هذه الصورة المجملة عن التأمل .. سأبين أهم مظاهره بصورة تفصيلية وذلك باعتمادى أولا على النصوص التى أطلت التأمل فيها من خلال دواوينهم ومطولاتهم الشعرية ومقالاتهم وقصصهم .

ثم آراء الباحثين ثانيا .. والتوفيق بين هذه الآراء ومعارضتها أو تأييدها استنادا إلى حيثيات تسندها الحجة .

ثم تأتى النتيجة التى هى خلاصة تأمل النصوص واستعراض الآراء والتوفيق بينها . ثم أوضح رأيى الخاص :

ومظاهر التأمل عند المهجريين تتمثل فى المعالم الآتية :

١ – اللـــــــــــــــه « الرؤية الدينية »

٢ – الوجـــــــــــود

٣ – النفس الانسانية

٤ – الحـــــــــــب

٥ – الطبيعـــــــــة

٦ – المـــــــــوت

٧ – الحيـــــــــاة

وسأعتمد فى دراسة كل مظهر على الموازنة بين آراء الأدباء فربما تكون متفقة وربما تكون مختلفة . وسأحاول توضيح مبررات الاتفاق ودواعى الشقاق .

ولن أقتصر على المشهورين من الأدباء ، وإنما سيكون اختيار الأديب فى كل مظهر حسب تفوقه فيه

والشهرة لن تتدخل فى تقويم العمل الأدبى .

فرب أديب مغمور له نظرته التى لا يصل إلى عمقها أشهر الأدباء .

* *

الفصل الأول

«أبعاد الرؤية الدينية»

يقول الشاعر القروى مناجيا ربَه:

يارب إنك صاحب الأمرْ   وأنا اليك موكل أمْرى
منْ لى سواك إذا الهموم طمت   وتلاعبت بسفينة العمر
أكذا أظل الدهر مرتطما   أنجرُّ من صخْر إلى صخْرِ

تمهيد :

آمن المهجريون بالله ايمانا قويا إلى درجة التصوف، وكان التسامح لب عقيدتهم والحرية الدينية رائدهم فى كل مجال ومنتدى فهم يؤمنون بالله ويدعون إلى الإيمان به، ولكنهم لا يرونه بعيون المعتقدات المذهبية التى نشأوا عليها فى طفولتهم، والتى كانت تحذر الكاثوليكى من أن يشترى زيتا من أخيه الأرثوذكسى كما ذكر نعيمة فى كتابه عن جبران بل يرونه ربا لجميع مخلوقاته على السواء، ويحبون أن يراه جميع الناس كذلك مهما اختلفت مذاهبهم وطوائفهم فلا فضل لذى ملة على ذى ملة أخرى ولا تفاوت بينهم أمامه.

ومثل جبران ونعيمه والريحانى وأبى ماضى كذلك كان إخوانهم فى الرابطة القلمية وغير الرابطة.

فالتسامح الدينى والحرية الفكرية هما المذهب الذى ينتمون إليه ويدينون به.. ولم تبتعد هذه السمة عن أدباء المهجر الجنوبى.

فنرى المسلم والمسيحى يشتركان معا فى تكريم ذكرى الرسول عليه السلام ويمجدونه فى شعرهم ونثرهم.

وهم جميعا يؤمنون بأن الدين لا يفرق بينهم ماداموا إخوانا فى العروبة واللسان والموطن.. وبأن الرسول عليه السلام مفخرة للأمة التى ينسبون اليها والتى يجمعهم لواؤها تحت عزته ونقائه وأصالته.

وكم من حفلة دينية إسلامية هناك كان خطباؤها وشعراؤها من المسيحيين كالقروى وفرحات وشكر الله الجر ورياض المعلوف ونصر سمعان، وجورج صيدح، وسواهم.

* *

وسأبين فى هذا الفصل علاقة بعض أدباء المهجر بالله، وحقيقة موقفهم من الدين وكيفية النظر إليه.

إن الروح الدينية سيطرت على عقول المهجرين وعواطفهم، وأثرت فيهم تأثيرا قويا.

ويرجع ذلك إلى اعترافهم بالله والإيمان بأنه الموجود لهذا العالم وقد عبروا عن هذا فى أدبهم شعرا ونثرا، وجاء تعبيرهم متسما بمسحة فلسفية مردها إلى الفلسفات التى اطلعوا عليها وتأثروا بها.

وبعد استقراء معظم نتاجهم ودراسته تبين لى أن موقفهم من الله يتمثل فى ظواهر متعددة.

أولا :

الإيمان العميق بالله الذى يصل إلى درجة التصوف أحيانا فذات الله عند جبران هى مقصد العبادة الأسنى. وليست العبادة لأغراض نريدها، كصلاح الأحوال الدنيوية، والرغبة فى الجنة، والخوف من النار.

يقول فى مطولته «المواكب» مهاجما طريقة فهم الدين عند بعض الناس حيث تغلب عليها السمة التجارية.

والدين فى الناس حقل ليس يزرعه	غيـــر الألـــى لهـم فى زرعه وطر
مـــن آمـــن بنعيم الخلـــد منتشر	ومـــــن جهول يخاف النار تستعر
فالقـوم لولا عقاب البعث ما عبدوا	ربـا ولولا الثـــواب المرتجى كفروا
كأنمـــا الدين ضرب من متاجرهم	إن واظبوا ربحو أو أهملوا خسروا

وهو بهذا المفهوم للعبادة والاتصال بالله يقترب من روح المتصوفين السابحة فى محيط الله.. مثل جلال الدين الرومى الذى يصور حبه لله وتعلقه به قائلا.

جــاء حبيبـــى : قمـــرا لـــم تر السماء، ولن ترى له مثيلا
يقظـــــــــــان أو حالمــــــــــــــا
متوجـــــا بشعــــــاع خالـــد . لايثنيه سبيل أى سبيل
فـــــى دن حبـــــــك يارب غسلـــــت روحـــى " (١)

---

(١) م. ر. نيكلسون : الصوفية فى الإسلام ص ١٠٢ - ١٠٣.

ومثل رابعة العدوية حين تناجي ربها في ضراعة خاشعة:

يا الهي: ان كنت أعبدك طمعا في جنتك فأحرمني منها
وان كنت أعبدك خوفا من نارك فأحرقني بها
وانما أعبدك لذاتك أنت وحدك

ويلتقي نعيمه مع جبران في هذا الاتجاه المجرد عن كل غرض في العباده فيقول:

«ما آمن من طمع بالجنة وخاف النار»

وعندما يعتقد نعيمه وجبران في هذا المبدأ فهما يتفقان مع روح التصوف الإسلامى ويستمدان هذه الروح أيضا من تراث المسيحية ومن الانجيل نفسه. فليس بعيدا وهما المسيحيان نشأة ومعتقدا أن يكونا قد عثرا على هذه الحكاية وهما يقرآن الإنجيل فقد «روى أن المسيح مر على طائفة من العباد وقد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية.»

فقال : ما أنتم؟

قالوا : نحن عباد.

قال : لأى شىء تعبدتم؟

قالوا : خوّفنا من النار فخفنا منها.

فقال : حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم.

ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة.

فقال : لأى شىء تعبدتم؟

فقالوا : شوقنا إلى الجنان، وما أعد فيها لأوليائه. فنحن نرجو ذلك.

فقال : حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم.

ثم جاوزهم فمر بآخرين يتعبدون.

فقال : ما أنتم؟

فقالوا : نحن المحبون لله، لم نعبده خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته ولكن حبا له

وتعظيما لجلاله.

فقال : أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم «فاقام بين أظهرهم وفى لفظ آخر انه قال للأولين»

مخلوقا خفتـــم ومخلوقـــا أحببتـــم
وقـــــال لهـــؤلاء «أنتم المقربون»

فلا يستبعد أن يتأثر نعيمه بالمسيحية من خلال أحبارها ورهبانها وفرقها «الخوارج» من أمثال فرقة «المصلين». وكذلك أقرانه ممن يسيرون فى الخط نفسه مثل جبران، والتصوف الشرقى المسيحى قد تشرب منذ زمن بعيد أفكار أفلوطين واصطنع لغة المدرسة الأفلاطونية الحديثة » (١) وفى قصيدته «التائه» يصور ضياعه واتقاد الجمرات فى كيانه. وخفاء سرها عنه فيصرخ.

واحـــرقتـــــــــــى أواه لـــو كنـــــــت أدرى مـــا هـــــــــى
أشـــعلـــــه الإلـــــــــــه ام شـــــعلـــة الـــــــــــــــردى

ثم يتحسس طريقه فيجده فى الاتجاه إلى الله. واستنشاق عبير الإيمان ولو كان العبير جمرا.

فـــابـــــدل لظـــــى نيـــرانـــى بجمـــــــــرة الإيمـــــــــــــــان
واجعـــل مـــــن الحنــــــان للقلـــــــب مرهمـــــــــــــــــــا

* *

إذ ذاك بـــالتــــــهـــليـــل أســـــير فـــى ســــــــبيلـى
وخـــالقــــــى دليـــلـــــى ووجهتـــــى الســـــــــــما (٢)

المصلون : فرقة مسيحية من الهراطقة يقوم مذهبها على أن الصلاة المتصلة يمكن أن تجتث أصل الخطيئة وتبلغ بالإنسان حد الكمال الروحى والتحقق، وقد قاموا بنشر مذهبهم، ابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع الميلادى حتى القرن السادس.

(١) م. ر نيكلسون: الصوفية فى الإسلام ص ١٣ - ١٤.

(٢) م. نعيمة همس الجفون ص ٥٣ - ٥٤ .

وقد كتب القصيدة السابقة سنة ١٩٢٢م «ولم يكن اهتدى بعد إلى طريق محدد وإنما كان الإيمان مطلبه وأمنيته ويمر به الزمن وتزداد نظرته عمقا وقلبه يشرف على واحة الإيمان فلم يعد يتمنى وإنما أصبحت الحقائق تعلن عن نفسها وتسرب الاطمئنان الى نفسه التى اكتوت بالحيرة كثيرا وعانق قلبه الذى طالما ارتعشت نبضاته أمام أشباح الشك وقبض عقله على طائر الحقيقة الذى كان فى هروب دائم وهو يلهث وراء ظله على الارض.

وفى كتابه «اليوم الأخير فى طبعته الثالثة سنة ١٩٦٧» يقول نعيمه على لسان د/ موسى العسكرى».

ربى لقد طفحت نفسى بغبطة الوجود	لقد بدأت أفهمك
ربى لا تجعل هذا اليوم يومى الأخير	وليطل ما طال الزمان

وطالت محبتك (١)

ويعبر أمين الريحانى عن إيمانه بوجود إله قادر جليل وهو يرد على اتهام رجال الدين المسيحى له بالكفر فيقول «اعلموا أننى لست مارقا كافرا كما تقولون فانا أغار على النواميس الحقيقية، والعقائد القويمة، أذب عنها ما استطعت. أنتم تجدفون على الاله العظيم» (٢).

وهو يهتف فى صدق وحب مناجيا ربه:

«.. سبحانك اللهم، فإن أنت شيدت «العقاقير» بين العقول ورفعت الجدران عند حدود العقائد. فما أقمت حدا أو حاجزا بين القلوب الصافية» (٣) ويناجى ربه معبرا عن إيمانه واعترافه بخالقه.

ياذا الجلال الأزلى	الحقنى بشىء من جلالك
ياذا النور الدائم	امددنى بقبس من نورك
ياذا القوة غير المتناهية	ابعث منها قواى
إنى حىّ فيك	عليم بنجاويك
أنت الحياة بأجمعها	أولا وآخرا، وإنى لأحيابك

(١) م. نعيمه: اليوم الآخير ص ٩٤.

(٢) سامى الكيالى: أمين الريحانى ص ١٨٣.

(٣) الريحانى: بين الحرم والإيمان: نقلا عن: جورج غريب: أدب الرحلات ص ١١٢.

... ساعدنى اللهم لأجمع قواى الروحية، والعقلية، والجسدية فى سبيل الحق والحب والحكمة.

أنت إلهى. ولا اله لى إلا كَ. (١)

وقد اندفع بعضهم إلى الدعوة إلى أن يكون الله هو غاية الشعر وهدفه وهو «نعمه قازان» الذى ألف قصيدة طويلة تبلغ مائتين وأربعين بيتا وسماها «معلقة الأرز» يقول.

ولكننى شاعر مؤمن.. دعوت إلى الله فى دعوتى

ويقر «قازان» بأنه متأثر بنعيمة وجبران فيقول «جبران فجر، ونعيمه فجر في فجر وأنا لست إلاشعاعا من ذلك الفجر».

ويشتد سخطه على الأدب العربى لأنه بحث فيه عن الله فلم يجد شعرا يهديه الى ذلك فعاد من هجير الرحلة ظامئا كمن يأكل النار بالشوكه.

يقول:-

سعيت إلى الله فى شعركم	فكنت كساع إلى بؤرة
وفتشت عنه بآثاركم	كأنى أفتش عن علة
فكنت وبى عطش قاتل...	كمن يأكل النار بالشوكة

واعتقد أن «قازان» لم يجهد نفسه فى البحث عن الحب الالهى فى الشعر الصوفى ولو فعل لعاد بزاد وفير لكنه اكتفى بما سمعه أو قرأه عن المشهورين من شعراء العرب فعاد ساخطا.

وقاده هذا السخط إلى الاعتقاد بأنه «قد فتح مغاليق الشعر وسار حتى وصل إلى غاية الغايات والى أبعد ما أتيح لنفس أن تصل(٢).

أما غاية الغايات فهى معلقة الأرز «وهى فى الأدب القومى العالمى. هى ثورة كلها وكرم،

---

(١) السابق ص ١٣٧ .
فى بحث بواعث التأمل إشارة إلى هذا فى " التأثر بفكر الشرق وفلسفة المتصوفين .
(٢) محمود الشريف : ثورة قازان فى معلقة الأرز ص ٢٥٧ .

وتعمق فى التفكير، وإيمان بالحقيقة بالله بالقوة التى لا تغلبها قوة، وقازان يؤمن بأن الله مركز الدائرة التى ينحصر فيها تفكيره فهو منها وإليها: يقول فى مقدمة المعلقة تأكيدا لذلك «آمنت بالله وبرحمته وعدله، وبالدنيا ملكوت وفردوس الإنسان وبالإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله».(١)

ونتيجة لهذا التفكير يعد الأدب والأديب والشاعر كل من يرشده إلى الله ويقوده الى الجنة فيقول «الأدب إذن أدبى» كل زرع يثمر فى هذا الحقل وكل نور ولو ضئيل يضىء في هذه الطريق».

والأديب، أديبى . كل من يدلنى على الطريق ويسير أمامى

والشاعر، شاعرى، كل من أدخلنى الجنه وعرفنى الله.(٢)

* *

وفى مقدمة المعلقة يقودنا إلى أعماقه الصافية وروحه الشفافة ويدلنا على قرب المسافة بينه وبين الله، فى مجموعة من الخواطر تفيض بالتسامى الروحى والصلاة المؤمنة بالله وبالإنسان وبالحياة.

فهو ينحو فى أدبه منحى جديدا، فهو شاعر يفهم رسالة الشعر الروحية، وهو انسان يحب الخير للبشرية، ولا يجد مسوغا لفصل الشعر عن الإيمان بالله وبالإنسان وإحكام الصلة بينهما.(٣)

والحب هو الطريق إلى الله.

ويؤمن قازان بأن الحب هو التيار السارى فى روح الحياة، والدين ترجمان ذلك الحب، والله هو الغاية التى تصل إليها يقول فى إحدى قصائده تحت عنوان «الحل الأخير» مازجا بين الشعر والدين والحب والله.

كل شعر دين بغير حدود ... فاذا حُدَّ فهو دين العبيد
كل دين لله والله حب ... فاذا الحب ضاق بالمبغضينا

ليس حبا كلا ولا الدين دينا

(١) نعمة قازان : معلقة الأرز .
(٢) السابق .
(٣) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٥٧٥ .

وهو متأثر فى هذه النظرة بايليا أبى ماضى فى ايمانه بالحب طريقا للنفس ولله حيث يقول: أنا بالحب قد وصلت إلى نفسى وبالحب قد عرفت الله.

وكذلك نراه متأثرا بتعاليم نعيمه فى كتابه «زاد المعاد» وغيره من كتبه الفلسفية حيث نرى النزعة السامية نفسها في الحب الشامل حتى لمن يبغضوننا يقول نعيمه «إنكم إن أحببتم كل ما فى الكون إلا دودة واحدة فسيبقى لكم كرهكم ينبوع ألم ولن ينضب هذا الينبوع حتى ينضب كرهكم».

* *

– والله فى عقيدة قازان نور مشع خلف النافذة التى سدها الفكر بالتعليل والعلل فهو يتمنى أن تحلق روحه تحليقا فطريا لا تتفلسف ولكن تتطهر. لا تفكر ولكن تتسامى وحين يبحث عن وسيلته في صحراء أشواقه للروح يجد جمله متمثلا فى نفسه فيقول:

ما بين قلبى وبين الله نافذة ... قد سدها الفكر بالتعليل والعلل
والله من خلفها نور يقبلنى ... فلا أحس به يا نشوة القبل
مازلت أبحث فى الصحراءعن جملى ... حتى انتبهت لنفسى راكبا جملى[1]

وتشيع فى ديوان القروى الروح الدينية العذبة والممتزجة بالحماس القومى وحب العروبة، ونطالع القصائد الآتية وغيرها فى ديوانه الجزء الأول والثانى صلاة – وقفة على القبر، ونفخت بى، فزع إلى الله سبحانه، يارب ، الهى ، عيد المولد النبوى – عيد الفطر، أين وجدت الله.[2]

وفى مقدمة ديوانه يعترف بعقيدته ويسلم بوجود الله فيقول:

أؤمن به تعالى إيمانى بوجودى، ولن يساورنى الشك حتى أجد من يقنعنى أنى أنا خلقت نفسى، وأعد بحث العلماء فى. هل الله موجود أدل على الحماقة من تساؤل بصير فى رائعة النهار. هل فى السماء شمس أم لا؟

رافقنى هذا الشعور الدينى طيلة حياتى. فرأيت ظل خالقى يصحبنى أيّان رحلت

(١) نعمه قازان: معلقة الأرز.
(٢) انظر ديوان الشاعر جـ١ جـ٢ الصفحات الآتية على التوالى: ٨٢، ٨٨، ١٠٢، ١٢٠، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٨٩، ٣٥٥، ٨٠٧.

وحللت، وقد علمتنى التجارب أن لا أهل ولا تعزية إلا به وحده، وأن لا حب إلا حبه، قد أنسى الله حينا فى بأسائى ولكننى لم أنسه قط فى نعمائى، فصلاتى مجرد تسبيح وشكر واعجاب بعظمة الخالق».(١)

- ٢ -

ثانيا : وامتدادا لروحهم التصوفية آمن بعضهم بالفناء المطلق فى الله، وتدرج هذا الفناء إلى فناء كل شىء فى كل شىء. الفناء المطلق فى الله، والفناء المطلق فى الإنسان والفناء المطلق فى الطبيعة.

وهذا المذهب هو «وحدة الوجود» وقد اعتقده نعيمه وقال «والفناء هو أقصى درجات المحبة. واذا كنا نقول الله والانسان والطبيعة فهذه كلها تعنى شيئا واحدا هو الحقيقة الكبرى أو الوجود الأعظم».

فهذه الألفاظ الثلاثة إنما هى مترادفات لمعنى واحد فقط، تختلف الألفاظ الدالة عليه. بينما يبقى المدلول واحدا».

ويلاحظ أن نعيمه متأثر بعقيدة التثليث فى المسيحية وكذلك جبران وعن هذه [illegible] وهى اندماج قدرة الله فى جمال الطبيعة وامتزاجهما بروح الإنسان تتفرع سائر آراء نعيمة وفلسفته التناسخية والإنسانية والإلهية والطبيعية.، والقروى والريحانى، وأبو ماضى وجبران. ممن يتخذون من الطبيعة مجلى لقدرة الإله وترجمانا لأسراره. لكنهم لم يصلوا إلى هذا الحد من الفناء الذى يعتقده نعيمه .. فليس هناك فى رأيه إله وإنسان فالله هو نحن ونحن الله.

يقول من مقالة له بعنوان «الخيال» لكم الكون وكل ما فيه. كما أن فى بذرة الأرز الصغيرة تنطوى كل أسرار الأرزة الكبيرة التى ولدتها، هكذا انطوت فيكم كل أمجاد القدرة التى بعثتكم من اللا وجود إلى الوجود ومثلما أنه يستحيل عليكم أن تفكروا بزمان لم تكن تلك القدرة فيه، كذلك يستحيل عليكم أن تفكروا بزمان لم تكونوا فيه لأنكم كنتم فى ضمير الله دهورا بلا عد من قبل أن تكونوا كما أنتم اليوم. على حد ما كانت بقايا أرز لبنان الحاضرة فى أول أرزة طرحت ظلها على الأرض أحقابا طويلة من قبل أن سمعت ولولة الرياح في وادى قاد يشا» (٢)

(١) م. نعيمه زاد المعاد ص ٧ ، ٨.

(٢) القروى ديوانه ص ٢٠ - ٢١.

ووحدة الوجود وعدم انفصال الله عن العالم لب عقيدة نعيمه ومحور تفكيره كما يتضح من النص السابق وغيره.

لكن د/ أنس داود يقول «فنعيمة لا يرى أن الله هو العالم، وأن العالم هو الله، بل يرى أن الله قوة خفية تظهر آثارها فى العالم.(١)

وفى ذلك بعد عن الحقيقة ومخالفة كما تدل عليه النصوص.. ففى نص آخر يقول نعيمه «إن الله الذى هو أنت وأنا وكل انسان سيقيم له من سلالة آدم أنبياء.(٢)

ثم يقول «وليس هناك» أنا « و » أنت و« هو » فأنا كل إنسان وكل إنسان هو «أنا» فاذا أحببت إنسانا أحببت نفسى، وإذا أسأت إلى إنسان أسأت إلى نفسى».

ويفلسف القروى موقفه من الله ولا يقف عند حد المناجاة والتضرع بل نراه فى قصيدة «ذرة التراب» (٣) «يتناول قضية علاقة الله بالعالم. ويوحد فى ظنه الوجود بالموجد، ويلم بنظرية الفيض» فيض العالم عن الذات الإلهية.(٤)

يقول :

تجرى المقادير فيضا من طبيعته	يَصْدُرْن عنه مويجات مويجات
سر التحول والتكرار مطرد	هذى البدايات من تلك النهايات
لعل منحجب الأشياء اكثر من	منظورهن وكم تحظى بآيات

وتبدو ملامح نظرية وحدة الوجود «عند أبى ماضى وإن لم يصرح بها فهو يؤمن بأن الله هو الواهب والملهم كل ما يبدعه الشعراء والفنانون. فالشاعر يراه فى كل شىء مبتهج فى الكون وإن غطت الكآبة وجه الحياة، فالله يبدو بآثاره وروعة إلهامه، فى ما يقوله الشعراء.

---

(١) د/ أنس داود: التجديد فى شعر المهجر ص ٢٤٠.
(٢) م. نعيمه: زاد المعاد ص ١١٢.
(٣) ديوان القروى جـ ٢ ص ٨٦٧.
(٤) د/ أنس داود: التجديد فى شعر المهجر ص ٢٤٤.

يقول :

مــن أحــب اللـــه فتــاكا وجبارا وقاهرْ
فأنا أهـــواه رســـاما وفنــانا وساحرْ
وأراه فـــي النـدى والزهر والشهب السوافر
فـــإذا الأنجـــم غـارت وانطوت كل الأزاهر
وتلاشـــى كل ما أنشــا وســوى من مناظر
لاح لـي فى حسنه الأكمل فى ديوان شاعر(١)

* *

– والإيمان بالله عند الريحانى مسرحه الطبيعة المتآلفة، المتألقة بالأسرار الشاهدة بما للخالق من أروع الآثار.. وهو فى هذا النهج يلتقى مع أبى ماضى فى البحث عن الله فى الطبيعة. وفى العزلة كما حدث مع «نعيمه» حين عاد من أمريكا واعتزل الناس وأقام «بالشخروب» وسمـوه «ناسك» الشخروب «وكذلك الريحانى» بعد أن قضى نصف حياته فى المدينه العظمى مدينة نيويورك راح ينشد حقائق الوجود الكبرى فوجدها فى العزلة ككبار النساك أو وجد فى العزلة سبيلا أوصل إليها، ووجدها فى الطبيعة، أو وجد فى الطبيعة الدليل أوضح عليها، ووجدها فى البساطة أو وجد فى البساطة ألف ناحية من نواحيها، ووجدها فى الجمال، أو وجد فى الجمال الرمز الأنور من رموزها ووجدها فى الوداعة، بل وجد فى الوداعة «أسحر» صورها، وهى جالسة بين أختها الشمس وأخيها القمر.

أو ليس هنا السبيل الذى لجأ إليه كبار الصالحين والفلاسفة، للوصول إلى معرفة الخالق؟ أو لم تتفق التعاليم الدينية والمذاهب العقلية والنشآت الطبيعية فى الدلالة على واجب الوجود، والتوفيق بين موجبات العاطفة ودلائل العقل، ولقد سار «الأمين على هذا الدرب فاكتسب لقب الفيلسوف، إنها الدرب الموصلة إلى الحقيقة. مهما تشعبت وتباينت مسالكها، واختلفت فى الشكل والتفصيل.(٢)

* *

(١) أبو ماضى : الخمائل ص ١٠٧

(٢) جورج غريب : أدب الرحلة تاريخه وأعلامه ص ١١٥.

والله عند «جبران» هو القوة السرمدية التى تكمن وراء كل حركة في هذا الوجود إنه مصدر الحياة والقوة وكل ما ينتاب الوجود من أحداث. وجبران كأمين الريحانى ونعمية والقروى، وأبى ماضى يربط الوجود ومظاهره العاقلة، وغير العاقلة، المنظورة فيها وغير المنظورة، المتحركة والساكنة، بالله فى علاقة متينة، وكلها تستمد قوتها من الله ولا تَحْيا إلا به.

إن كل ما هو كائن يعيش على كل ما هو موجود، وكل ما هو موجود يعيش فى إيمان بلا حدود على فيض العلى المتعال.

ثالثا : وآمن المهجريون بأن «الله موجود فى كل الوجود» وهذه النظره لها أصداء فى الفلسفة الإسلامية، والثقافات الشرقية القديمة والمتصوفون الاسلاميون اتُّهموا بما يسمى «الاتحاد والحلول مثل ابن عربى والحلاج فهم من المتأثرين بالفلاسفة الشرقيين من الهنود أو بالمسيحية المبدلة، أو برأى أفلوطين المصرى.

ويقول المستشرق «نيكلسون» وقد استبان الآن أتم استبانة جوهر الصوفية فى أقصى نموذج لها، ذلك الأ نموذج حلولى تأملى أكثر منه زهدى ورع.(١) والقضية لها مؤيدون ومعارضون ولكل براهينه والمقام يضيق عنها الآن وقد ظهرت آثار هذا المعتقد فى أفكار جبران، ونعيمه وأبى ماضى والقروى ورياض المعلوف ومسعود سماحه.

فجبران يرى الله فى كل الوجود، وينشد معرفته بالتأمل فى أسرار هذا الكون الهائل يقول :

و إن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تُعْنَوْا بحل الأحاجى والألغاز. بل تأملوا فيما حولكم تجدوه. وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشى فى السحاب، ويبسط ذراعيه فى البرق، وينزل إلى الأرض مع الأمطار تأملوا جيدا تروا ربكم يبتسم بثغور الأزهار ثم ينهض يحرك يديه بالأشجار ، ويتحدث جبران على لسان المصطفى عن الله فى حديقة النبى حين سأله أحد حواريه عنه قائلا.

إنا لنسمع هنا كلاما كثيرا عن الله أيها السيد. فما قولك فيه؟ ومن هو فى كُنْه الحقيقة؟

فأجاب المصطفى موضحا صورة الإله التى تقبع فى أعماق جبران وهى تعز على كل إدراك وتسمو فوق كل تخيل. وبرغم هذا فهى ليست نائية عنا، وانما تبسط جناحيها علينا

(١) أ. ر. نيكلسون : الصوفية فى الاسلام ص ٣٢.

جميعا لننعم بأمان ما بعده خوف، واستقرار لاينال منه اضطراب.

فالاله اله رحمة وشفقة وليس اله خوف وتعذيب. والحب سفينة الوصول إلى منارة الإيمان. والإبحار لا يقدر عليه إلا من تفانى فى سبيل الوصول وانشق قلبه وهداه إلى الواحد الأحد.

يقول جبران: تخيلوا الآن أيها الصحاب والأحباب. قلبا يسع قلوبكم جميعا وحبا يشمل حبكم جميعا، وروحا تحيط بأرواحكم جميعا، وصوتا يضم أصواتكم جميعا وسكينة أعمق من سكينتكم جميعا، سكينة أزلية أبدية لا يحدها زمان.

ارجعوا إلى جماع أنفسكم باحثين عن جمال تفوق روعته روعة كل جمال وعن أغنية أبعد صيتا من أغانى البحر والغاب.

وعن جلال يستوى على عرش الجوزاء بالقياس إليه مقعد ضئيل .. ويمسك بصولجان الثريا. بالقياس إليه ومضة من ومضات قطر الندى.. ولئن كنتم تسعون دائما إلى الرزق والمأوى، وتلتمسون الكساء . وما تعتمدون عليه فلتسعوا الآن إلى الواحد الأحد «الذى لا هو بهدف تصيبه سهامكم ولا هو بكهف صخرى يقيكم أذى الطبيعة».

فجدوا فى البحث إلى أن تنشق قلوبكم وتهديكم من حيرتكم إلى حب العلى المتعال وحكمته «ذلك الذى يسميه الناس» الله.(١)

ويلتقى نعيمه مع جبران ويؤمن بأن المساواة تجمع الكل فى الواحد والواحد فى الكل وبأن الله موجود فى كل الوجود.. وهذه النظره لها أصداؤها عند الحلاج وقد اتهم بالكفر والإلحاد لأنه آمن بالاتحاد والحلول وعبارته المشهورة لا تخفى على أحد «مافى الجبة إلا الله» ولغة الصوفيين رمزية تشير إلى المعنى من بعيد فالحلاج وان فاضت عاطفته وصاح فى حالة من أحوال جذبه بقوله «أنا الحق» على افتراض أنه قالها فى غير تلك الحالة لم يرد حلولا ولا اتحادا، وإنما أراد التفانى في محبوبه تفانيا أصبح به لا يدرى، ولا يرى إلا حبيبه.(٢)

ومما يؤكد الرأى السابق قول الحلاج نفسه.

---

(١) جبران : حديقة النبى ص ٨٤ – ٨٥.

(٢) طاهر عبد المجيد : الفلسفة الاسلامية جـ ٢.

أنا سـر الحـق، ما الحـق أنا   بل أنـا حـق ففـرق بيننـا
أنا عيـن الله فـى الأشيا فهل   ظاهـر فـى الكون إلا عيننا (١)

– ويعتقد نعيمه أنه ليس هناك شرف ولا حقارة. فالله نفسه موجود فى كل ما خلقه، وكل ما خلقه موجود فيه. فهل يمكن لمعدن الشرف أن يكون حقيرا؟ أو هل يمكن له أن يخلق شيئا، وهو يخلق ذاته فى كل ما يخلقه؟ «إن أصغر ما فى الحياة يتمم أكبر ما فيها، وإن أكبر ما فيها يتمم أصغر ما فيها، فلا الجبل أثقل من ذرة الرمل، ولا الثور أعظم من الضفدع «ولا الثمرة أثمن من الحطبة ولا الزهرة أقدس وأجمل من الشوكة».(٢)

وشعره يفصح عن معتقده ففى قصيدته «ابتهالات» (٣) يدعو الله أن يكحل عينه بشعاع من ضياه كى يراه فى كل ما خلق، ويسأل الله أن يفتح أذنيه على نداء الحق الذى ينحدر من أعلى عليين ليسمع صوت الله فى كل الأصوات التى أبدعها ويطلب من الله أن يجعل لسانه شاهدا عليه معينا له فى رحلة الحياة المضنية.

فليكن سيفا لسانى حـده   فى سبيل الحق ماض لا يهـابْ
لا يكف الضرب حتى ضـده   ينثنى عن غيه نحـو الصـوابُ
وإذا ما خان نطقى قلمـى   فأراه البطل فى الحق الصـريحْ
فى كلام الغير فاجعل من فمـى   للسانى أيها البارى ضـريحْ

ويتمنى من الله أن يجعل قلبه واحة تسقى القريب والغريب والقصيدة نفثات حارة تتصاعد من قلب نعيمه كموجات البحر التى تود معانقة الشاطىء.

يقول :

كحل اللهم عينى   بشعاع من ضياكْ   كى تراكْ
وافتح اللهم أذنى   كى تعى دوما نداكْ   من علاكْ
وليكن لى يا إلاهى   من لسانى شاهدانْ   صادقانْ
واجعل اللهم قلبى   واحة تسقى القريبْ   والغريبْ

---

(١) الحلاج: الطواسين: نقلا عن أ. رنيكلسون فى كتابه: الصوفية فى الإسلام ص ١٤٥.
(٢) م. نعيمه : زاد المعاد ص ٢٢.
(٣) م. نعيمة همس الجفون ص ٣٥ .

ويتأمل القروى مظاهر الوجود ويجد آثار الله فى كل ذره تتألق بوهج الإبداع ولكن الذى يدرك سره قليل لأنهم لم ينعموا بسمو الروح وكبريائها: ويقول فى فلسفة واعية بطبائع النفوس:

خصصت بالروح القليل من الورى ... وبريت أكثر من بريت جمادا
ونفخت بى روحا يكاد أقله ... يكفى ولو جبل الثرى آحادا
لو لم تكن أنت الوجود مجسما ... لخفقت فى صدر الوجود فؤادا

* *

رابعا : واتسمت نظرة بعض المهجرين إلى الله بالحيرة، والشك أحيانا إلا أنهم سرعان ما كانوا يعودون إلى اليقين بعد البحث المضنى والتأمل فيما حولهم وفى نفوسهم. ونجد هذه الظاهرة عند نسيب عريضه وأبى ماضى ونعيمه والقروى.

فنسيب عريضه «تصطبغ نظرته بالحيرة، ويتسم موقفه بالشك، فقد اشتهر من بين أدباء المهجر بالحيرة الشديدة والشكوك المتواصلة بحيث يكاد يصبغ شعره كله وتتسم حياته بهذا الطابع الحائر، وعنوان ديوانه «الأرواح الحائرة» يوحى بذلك.

«فالمزية الكبرى لنسيب عريضه الحيرة الروحية التى تتجلى فى شعره وتكاد تصبغ كل قصائده بطابعها القوى مما جعله شاعر الحيرة الأكبر بين زملائه المهاجرين وسائر شعراء المهجر.(١)

إن علامة استفهام كبرى تغلف شعر نسيب، تنم عن حيرته، ومنذ اللحظة التى وصل فيها إلى نيويورك وخلال كل السنوات التالية نجده يواجه الحياة(٢) سائلا ثم مستوحشا، ثم متزهدا، ثم متصوفا لم ينل من الحياة الخارجية نصيبا، فانعكف على الحياة فى داخله يذريها تارة بمذراة عقله، وطورا بمذراة قلبه «(٣) .

وتسرى هذه الروح فى أغلب شعره. فى رباعياته، وفى رحلته إلى إرم. وفى مناجاته، وفى حديثه إلى النجمة، والنجمة رمز للفكرة المشرقة وسط ظلام العقل والحس والشعور يقول:

---

(١) عيسى الناعورى: أدب المهجر ص ٣ - ٤٠.
(٢) نادره جميل السراج: نسيب عريضه ص ٥٧.
(٣) م. نعيمه : الغربال ص ١٣٣.

أيا نجمة سطعت فى الظلام ... أنيرى طريق فتى لا ينام
فتى عذبته النوى والهموم ... فتى ايقظته أمور جسام
أنيرى طريقى خلال الرؤى ... خلال الشكوك خلال السأم
لقد طال ليلى فهل من صباح؟ ... وطال اضطرابى فهل من كلام

وقصيدة التائه «لنعيمه تعبر عن هذه التجربة ولكنه ينتهى إلى مناجاة ربه فى خشوع.

فابدل لظى نيرانى ... بجمرة الإيمانِ
واجعل من الحنان ... للقلب مرهما
إذا ذاك بالتهليلِ ... أسير فى سبيلى
وخالقى دليلى ... ووجهتى السما (١)

وبنفس الروح يناجى نسيب ربه طامعا فى الاطمئنان الروحى وهو غير يائس ولا مستسلم لشكوكه برغم حدتها يقول:

أيا من سناه اختفى ... وراء حدود البشر
نسيتك يوم الصفا ... فلا تنسنى فى الكدر

* *

أيا غافرا راحما ... يرى ذل أمسى وغدى
معاذك أن تنقما ... وحلمك ملء الأبد (٢)

ومن المؤشرات التى تدلنا على تصوف نسيب وروحة الدينية «أنه يعتمد على الرمز العاطفى ذى الإيحاءات المتعددة البعيدة، وخاصة ما يتصل بالرموز الصوفية لطبيعة موضوعه، وعلاقته بالنظرة الصوفية والفلسفة المثالية. فأما المحور الذى تدور عليه أكثر رموزه فهو القافلة والرحلة، ولذلك نجده يتحدث دائما عن الربوع، والدليل، والظلام والحادى والنور البعيد والسراب

(١) م. نعيمه / همس الجفون ص ٥٤.
(٢) نسيب عريضه: الأرواح الحائرة ص ٢٦٤.

والناقة والركب والحمى والوطاب.

وتعجبه كلمة «الدروب» فيكررها دون ملل. وهو يتبع هذه الصور دائما بمعنى الظلام والحيرة وترقب الشموس، فإذا تحدث عن الفناء عرض غروب الشمس، وقد يعرض البحر أحيانا رمزا للفناء، وأن الناس كلهم أنهار تلتقى فيه.(١)

والرموز السابقة تشير إلى حيرته فقد ظل حائرا أمام معميات الحياة وتناقضاتها ولا يملك إلاتساؤلاته المتلاحقة التى زادته قلقا وحيرة. إلا أنه كان بعد الله ملاذه الحنون. يهديه بعد الضياع ويزرع فى روحه الأمل بعد القنوط.

ولنسمعه يتضرع إلى ربه فى لغة عذبة فى عفوية الطفولة، ولهفة الحائر، واستغاثة الغريق، وشوق المحب.

مراعيك خضر المنى هى المشتهى سيدى
وجسمى دهاه العنا حنانيك خذ بيدى

* *

وعند أبى ماضى تأخذ الحيرة طابعا فكريا. حيث يجرى حوارا بينه وبين ابنه حول ماهيه الله.. ويؤكد أبو ماضى أن حقيقة الله لا يعرفها أحد ولكنه يمكن أن ندركه فى آثاره الخالدة فى الكون. ويأتى بصور فلسفية.. الذرات صارت صخورا والقطرات صارت بحرا والبحر حوى الأصداف والدرر والضوء أصبح أجراما وكواكب.

فالطريق إلى ا له يتمثل فى الفكر الجاد، ثم الحس والشعور.. ثم البهجة فى الحياة التى تكون نتيجة للاطمئنان الروحى.

ويجيب أبو ماضى ابنه حينما يسأله وماكُنْه إلاله؟ وما ماهيته؟ قائلا :

قلت يا ابنى أنا مثل الناس طرا
لى فى الصحه آراء وفى العلة أخرى
كلما زحزحت سرا خلتنى أسدل سترا
لست أدرى منك بالأمْـ ـرِ ولاغيرى أدْرى

إنمـــا اللـــه الــذى صــاغ مـــن الـــذرات صخـــرا
والـــذى شــاء فصــارت قطـــرات المـــاء بحـــرا
والـــذى شـــاء فضـــم البحر أصـــدافـــا ودرا
وأراد الضـــوء أجـــراما فصـــار الضـــوء زهـرا
أن هـــذا اللـــه لما شـــاء هـذا كـان فكرا (١)

* * *

وقد تتولد الحيرة من الصراع النفسى الذى يعانيه الإنسان من التصادم بين قيمه الروحية وغرائزه الجسدية.. كما حدث مع القروى حيث اندلعت من وجدانه شرارة الإيمان لتصطدم بجذوة الغريزة في نفسه فيقع صريعا ما بين فطرته وغريزته فيتمعن هنا وهناك ولا يجد إلا ربه فيصلى في خضوع ويتمتم فى قصيدته «صلاة» (٢).

سيدى كـن علـى الحيـاة معينـا تـائبـا ذاق مـــن رضـــاك معينا
كـم صـرفت السنــين والقـلب لاه عنـك يـارب كـم صـرفت السنينا
كلمـا الصبـح لاح أحسـب أنـى منـه أنسـت وجهـك الميمـونا
فأغنـى مـع العصافيـر حَمْدا كـاد للحمـد يستفـز الغصـونا
ثـم نـادى داعـى الذنـوب فلبيت دليـل الذنـوب يعمـى العيـونا
فتعطـف علَـىَّ ربَّـاهُ وارأف بـأثيـم يرجـوك ربـا حنـونا

خامسا: وقادتهم الحيرة فى كثير من المواقف الى التسليم بالقضاء والقدر اعترافا منهم بقدرة الخالق وعجز المخلوق عن تفسير أسرار هذا الكون، وفشله فى الوصول إلى حقائق الأشياء.

فمن منطلق الذات والشعور بالهزيمة فى الحياة يستسلم القروى لقضاء الله فيناجيه فى تذلل وخشوع وسكينة.

يـارب إنـك صـاحـب الأمـر وأنـا اليـك مـوكـل أمـرى
مـن لـى سـواك اذا الهموم طمت وتلاعبـت بسـفينـة العمـر
أكـذا أظـل الدهـر مرتطـما أنجـر مـن صخـر الى صخر(٣)

وأحيانا يكون التسليم بالقضاء والقدر طريقا إلى الإصلاح الاجتماعى وخلق التوازن

(١) إيليا أبو ماضى الخمائل ص ١٩٢ .
(٢) ديوان القروى جـ ١ ص ٨٢.
(٣) السابق ص ٢٦٦

النفسى حتي لا يصدم الناس بالواقع المرير.. وهذا ما نجده عند ايليا أبى ماضى وحين نتأمل مطولته الحكاية الأزلية من زاويتها التى تتناول موقف المخلوقات من الله. وكيف تقمص أبو ماضى شخصية أصناف مختلفة من المخلوقات الرافضة لواقعها. نعثر على أثر نفسية أبى ماضى من خلال محاوراته لله على لسان النوعيات البشرية التى ذكرها فى مطولته وهى تبلغ «مائة واثنين وأربعين بيتا» تجمعها عشرة أناشيد. يتمثل فيها أبناء الحياة على اختلاف طبقاتهم ونوازعهم النفسية.

والحكاية أزلية حقا. فالآنسان منذ أن وجد على الأرض لم يرض قط بنصيبه من الحياة ولا بقسمته من الوجود. فهو أبدا ناقم على هذه القسمة يريد تغييرها ولكنه لا يرضى أويقنع أبدا ولو تغيرت قسمته فى كل لحظة والقصيدة تعبر عن فلسفة أبى ماضى القدرية.فإذا تناولنا نفسيته بالتشريح نرى أنها نفس استسلامية غير متمردة وان كانت هذه الحكاية تعبر فى ظاهرها عن تمرد وثورة على المواصفات الكونيه والمسلمات التى وجد عليها الورى.

لكن المتأمل فى عمقها يرى أنها تعبر عن موقف أبى ماضى الذى بثه من خلال رفض أبطال الحكاية ثم تبين لهم فى النهاية أن رفضهم لا فائدة منه ولابد أن يرضى الكل بقسمته. فالوجود هو الوجود. ولن يغير فيه شىء فالله خلقه فى ظاهره متناقضا: لكنه خاضع لمقاييس ثابتة يقدرها الخالق العليم فهناك أسرار تكمن خلف اختيار المخلوقات ونشأتهم على هذا النحو. ولهذا العمل أو ذاك.

فالشاب يتمرد لأن الله لم يجعله شيخا والشيخ يشكو لأنه يريد أن يكون شابا وتؤخذ منه حكمته، وتعاتب الحسناء خالقها لأنه خلقها جميلة. والجمال لا يورث إلا الفضائح. فهى مرمى سهام التهم والخيانة والغدر.

وتهب الجارية الدميمة حانقة ناقمة على قسمتها القبيحة وترى أنها تعيش فى عالم أحكامه جائرة. ومن جور هذه الأحكام أنه...كما يقول أبو ماضى

لـــيس لـــذات القـــبح مـــن غـــافر وفـــيه مـــن يغفـــر للزانـــيـــة

والغنى ينهض ويشكو إلى الله تحكم المال فى نفسه ويريد أن يكون فقيرا لأن الخوف يقتله من ضياع مستقبله لو ذهب ماله هباء.

وعلى العكس منه يثور الفقير على فقره، ويثور الأبله على خلقه بهذه الطريقه والعبقرى يعذبه ذكاؤه. فالعبقرية سبب محنته، وكأنه بذلك يردد قول المتنبى ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله.. وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم .. وأخيرا تنتهى الشكايات... ويقف الجميع فى انتظار حكم أحكم الحاكمين وصدر الحكم «كونوا كما تشتهون».

لما وعى الله شكايا الورى | قال لهم كونوا كما تشتهون

فكانوا كما اشتهوا من قبل، وتحول كل منهم إلى ما تمناه.

– ويقترب من أبى ماضى فى التسليم بالقضاء والقدر رغبة فى الاصلاح الاجتماعى الشاعر الياس فرحات. لكن ابا ماضى يقصد من استسلامه إلى خلق التوازن النفسى أما الياس فتسليمه يدفعه إلى حسن المعاملة والخلق النبيل لأن الدين عنده لا يكون بغير المعاملة الحسنة والأخلاق النبيلة والبعد عن الزيف والخرافات، يقول.

ويقول:

الدين قلب نقى لا اتصال له | بالزيت والملح والتعزيم والهذر

ويقول :

يامؤمنا كان يدنينى ليقنعنى | أن الصلاة سلاح غير منكسر
وأن فى صور الأبرار تعزية | للمؤمنين ومنجاة من الخطر
لم لا أراك إذا انتابتك نائبة | مستسلما لقضاء الدين والقدر
لا تسع للكسب وادفع ما عليك وعش | كالناس واشرب وكل من هذه الصور

ويؤكد تمسكه بالأخلاق الحسنه والدعوة إليها وتقديره للتفكير والعلم فيقول:

إذا الشيخ والقسيس لم يكرما النهى | وأحكامه فليبرأ الدين منهما
إذا أنت أديت الفرائض كلها | ولم تك حسن الخلق لم تكن مسلما

ويدافع من نزعته فى تهذيب الإنسان يبنى علاقته بالله على هذا الأساس فيقول:

ولما رأيت الغنى الغبى | يفوز على الفيلسوف الفقير
تنهدت حزنا ورحت أقول | مخاطبا الله بارى الشعوب
إلهى لماذا خلقت العقول | بعصر تفكر فيه الجيوب

وحين يعذبه ضميره ويمنعه من الانحراف عن القيم يقول:

شكـــوت ضميـــرىَ شكـــوى الجهول	ونحـــت علـــى الحـــظ نـوح الغراب
فأسمعنـــى اللـــه صـــوتا يقـــول	أتشكـــو ضميـــرك يـــابن التـراب
ولولا ضميـــرك مـــا كـــنت شـيْأ	ولـــو كـــنت مـــن نيرات الثريا

ومن الشعراء الذين راضوا أنفسهم على التسليم بالقضاء والقدر: أبو الفضل الوليد وتسليمه يرجع إلى الاطمئنان الروحى الذى أحس به بعد اعتناقه الاسلام واقتناعه بذلك واعتقاده أن كل ما تأتى به الأقدار لا يكون إلا خيرا. فالتسليم ليس عن ضعف أو يأس ولكنه عن إيمان عميق، واطمئنان روحى وأمان نفسى.. إنه يناجى ربه فى حب وأمل.

يـا مـــالك السمـــوات والأرض	وقـابـــض الـــدول والسـلاطين
خلـــص الشـــرق مـــن الغربيـــين	ونجنـــا مـــن مكائـــد الاجنـبين
واجعـــلنـــا متـدينـــين	غـــيـــر متعصـــبـــين
أحـــرارا مســـتقلـــين	غيـــر مسيطـــر عليهم ولا متفرنجين

سادسا: الروح الدينية القوية التى تمتع بها المهجريون جعلتهم يعتزون بالعقيدة الدينية ونتاجهم يفسر هذه الظاهرة حيث سرت هذه الروح الدينية في أعمالهم الإبداعية ولونت مشاعرهم، وكانت الحرية الدينية مذهبهم، ولم يعرفوا التعصب الذى يحجب الحقيقة عن الإنسان.

ولذلك نرى الدين بمعناه المجرد، وارتباطه بالخالق يلقى منهم اهتماما كبيرا وقد ساعدهم هذا الشعور على الارتباط بالله ارتباطا وثيقا كما أوضحت سابقا.

ففى كتاب «النبى» يخصص جبران فصلا يتحدث فيه عن الدين ويربط الدين بالحياة ويوضح أنه عندما تحدث فى شئون الحياة والمعاملات والنفس فهو لم يبتعد عن الدين وكأن جبران بذلك يرد على دعاة الرهبانية فى العقيدة المسيحية الذين يفصلون بين الدين والحياة، ويعتقدون أن هذا جوهر ديانتهم.

ويلاحظ أن جبران أتى بالحديث عن الدين فى نهاية الكتاب قبل حديثه عن الموت يقول «وهل تكلمتُ اليَوْم فى موضوع آخر غير الدين؟

أليس الدين كل ما فى الحياة من الأعمال والتأملات

من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله؟ وعقيدته عن مهنته؟

فالدين فى رأيه لا ينفصل عن الحياة. بل هو سر جمالها وحيوتها واستمرارها المتجدد.

ويختلف أمين الريحانى عن جبران فى نظرته إلى الدين وعلاقته بالله فجبران أقرب إلى التصوف من أمين الريحانى، والتأمل هو النسيج الذى يكون الخط الفكرى لجبران.. فعناوين كتبه توحى بهذه الروح الدينية القوية مثل كتاب «النبى» وحديقة النبى، ويسوع، والأرواح المتمردة، واختياره لفظ المصطفى ، بطلا أو رمزا فى كتاب النبى، وحديقة النبى ليذيع أفكاره على الناس بدافع من هذه الروح.

ولكن الريحانى اتخذ من هذه الحرية الدينية وسيلة لتوحيد أمته وجمع قلوبها قبل كل شىء على الوعى الوطنى والقومى، وعدم استخدام الدين فى التفرقة بين أبناء الوطن الواحد، والأمة الواحدة.

والمتأمل لكتب الريحانى المتعددة «الريحانيات، المكارى والكاهن، المملكة الثلاثية، التطرف والاصلاح، وغيرها يرى فيها من الحرية الدينية والفكرية الشىء الكثير».

والروح الدينية تسرى فى نتاج نعيمه كله.

ففى ديوانه « همس الجفون نرى القصائد المتعددة التى تحمل شحنات هائلة من التيار الدينى مثل «من أنت يا نفسى»، من سفر الزمان «لو تدرك الأشواك ابتهالات، صدئ الأجراس، التائه، الخير والشر، قبور تدور، الى دودة، العراك وفى مقالاته وقصصه ملامح دينية عميقة. وكذلك فى تعبيراته يسرى هذا النفس الروحى المتجرد.

وكتابه «زاد المعاد» مفعم بهذا التيار الذى تترجمه المقالات الاتية: «الخيال»، «الأبواق المحطمة»، «العالم الباطنى»، «جناحا البشرية» «الموت والحياة»، الكون كامل للكاملين، «سلام الله وسلام الناس والدين والشباب».

ولم نفتقد هذه الروح فى كتابه «صوت العالم» ففيه مقالات متعدده تسيطر عليها هذه الروح مثل «مهماز البقاء»، «طائر الفينكس، مدرسة الغد، الدين والدنيا».

وإيليا أبو ماضى فى فلسفته الدينية لا يبعد كثيرا عن زملائه السابقين وإن كان يبدو

واضحا أكثر منهم. والشك لم يتطرق إليه في عقيدته وإن كان طائفه قد حام عليه فى أماكن أخرى وزمان مغاير لزمان عقيدته.فهو يؤمن بدور الدين فى الحياة إيمانا صادقا بدءا ونهاية.

ففى ديوانه الأول «تذكار الماضى» نلمح القصيدة الأولى وعنوانها «الإنسان والدين» وهو فيها يثور على الإنسان ثورة يقوى ريحها الانفعال ويضعف كذلك تأثيرها.

فثورة أبى ماضى على الأنسان ووصمه بكل نقيصة. وهو فى هذا المنعطف الخطير من حياته. عهد التكوين. يدل على موقف أبى ماضى من الإنسان، وخاصة فيما يتعلق بالعقيدة.

وهو موقف الرافض لما عليه الإنسان من الغرور المستأسد عند القوة، واللين السام الناعم عند الضعف، والفطرة الشريرة الراسخة فى تكوينه.

ويرى أبو ماضى أن الإنسان عريان ما لم يتدثر بدثار الدين مهما بلغ من التقدم فى العلم والحضارة لأن الدين هو الحياة يقول:

قالوا ترقّى سليل الطين قلت لهم ... الآن تم شقاء العالم الانا

إن الحديد اذا ما لان صار مدى ... فكن على حذر منه إذا لانا

قد حارب الدين خوفا من زواجره ... كأن بين الورى والدين عدوانا

انى ليأخذنى من أمره عجب ... أكلما زاد علما زاد كفرانا

إذا ارتدى المرء مافى الأرض من برد ... وعاف للدين بردا عاد عريانا(١)

ويلاحظ أن أبا ماضى لم يحدد رأيه فى الدين الذى يقصده ولعله تعمد ذلك اعتقادا منه بأن جوهر الدين واحد.

وفى ديوان «تبروتراب» يبدو ذلك الشعور متجسدا فى قصائد متعددة وبخاصة القصائد التى يتفجع فيها على أحبابه وهى:

الشاعر – مازال فى الأرض حيا – يا قائد القوم – ليتهم عرفوه – سكت الشادى وبح الوتر – لم يهدم الموت إلا هيكل الطين – ريح الردى.

وهو يدعو إلى التسامح والتسامى فى الموقف العقائدى، والتشبه بالطبيعة التى لا مذاهب فيها ولا طوائف وهو فى هذه النظرة ينفرد عن زملائه بإقحام الطبيعة بصورة مركزة.

---

(١) أبو ماضى : تذكار الماضى ص ٩

والإحساس بالشقاء الإنسانى عند نسيب عريضه يدفعه إلى الدين لكى يبحث عن سعادته وأمانه، فيتمنى أن يكون ربا.. وهو يبدى هذا الموقف فى قصيدته «لو كنت ربا» التى وردت في كتاب «الغربال» لنعيمه ضمن القصائد التى لم تظهر فى ديوانه، وفى هذه القصيدة تظهر فلسفته وموقفه: وهو يمزج بين المادة والروح وبين الحلم والواقع حيث نحس بلسع نار الشقاء الإنسانى ولفح هجير الحياة ورمضائها وهما يكويان أعماق الشاعر. فهو يتمنى إن كان ربا أن يهبط من عرشه إلى أرض الشقاء ويغسل بالدموع جراح الإنسان ويستغفر له عن عيشته المقسومة التى هى فى جحيم من لدن بدء الخليقة إلى اليوم ولن يغير من قسوتها سوى التمسك بالدين. ولا شك أن هذا الموقف فيه حنين إلى الأرض وارتباط بالحياة وشكوى منها ومحاولة لترطيب جفافها وإنبات الخير فيها وهى نظرة متميزة. يقول « نسيب عريضة ».

لـــو كنـت ربـــا فـــى الســماء عظـــيمـا	بجمـــيع أمـــر الكـائـنـات علــــيمـا
لهبطـت مـــن أعلـى الـى أرض الشـقا	نحـو ابـن آدم مـــن خلقـــت قـديمـا
ولبثـت أغسـل بـالـدمـوع كلـومـــه	وأزيـــده بتــذللـى تعظـــــيمـا
مســـتغفرا عـن عيشـة قسـمت لـــه	منذ الخليــقة لا تـــزال جحــــيمـا

ويلاحظ أن الشاعر لا يشعر بقدسية الله شعورا فيه رهبة العابد وإجلال العارف ولكنه فى سبيل إسعاد الإنسان يفقد احترامه للذات العلية فيخاطب الله بل يتحدث بلسان الله. ويصور الله نادما مستغفرا - يطرح نفسه عند موطىء أقدام ابن آدم ويسجد أمام وجهه تكريما له. وفى ذلك إيذاء للشعور الدينى لا يليق بشاعر مثل نسيب عريضه فكيف يقدم الله ويستغفر ويسجد أمام وجه ابن آدم؟ إنه تصور مرفوض، ومبالغة من الشاعر فى تكريم ابن آدم...!!!

- وتشيع فى ديوان القروى الروح الدينية الصافية والممتزجة بالحماس القومى وهو يلتقى مع الريحانى فى هذه النظرة، ويتعصب للعروبة، ونطالع فى ديوانه القصائد الآتية - صلاة - وقفة على القبر - ونفخت بى - فزع الى الله سبحانه - يارب - الاهى - عيد المولد النبوى - عيد الفطر - أين وجدت الله.(١).

والحب عند القروى مفتاح الدين« يقول:

(١) ديوان القروى الصفحات الاتية على التوالى ٨٢. ٨٨. ١٠٢. ١٢٠. ٢٦٦. ٢٧٣. ٢٨٩. ٣٥٥. ٨.٧

كشفت ضمير الدين يوم كشفته ... ولم أعترف بالله حتى عرفته
فما أنا في الأكوان بعد بباحث ... وفى كبدى ألفيته وألفته
غسلت من البغضاء والحقد أضلعى ... ببعض الذى من كأسه قد رشفته
وشدت به بيتا جعلت حدوده ... وراء حدود الوصف لما وصفته
بأعمدة الخلق المتين دعمته ... وأجنحة الروح الأمين سقفته
فما الأرض إلا ذرة فى فنائه ... مغلغلة بين الحصى إذ رصفته
وما الدهر فى السبع الطباق تنضدت ... سوى ثمر من روضه قد قطفته (١)

– ومحمود الشريف جعل الأدب دعوة إلى الاتحاد بالله لأن هذا أساس السعادة في الحياة، ولأن الأدب. لا قيمة له إن لم يسر والفضيلة على وفاق مستمر فالأديب أو الشاعر هو رسول الحياة، وهو قائد البشرية.. فإذا فسد الملح فبماذا يملح؟.

وهو لذلك يثور على ما نسميه، الأدب البغى ثورة جارفة ساحقة».(٢) ويثور محمود الشريف على الجهل والجمود فى فهم الدين.

وتتضح هذه الثورة فى كتابه في الصفحات التالية: ٢٤ – ٤٩ – ٧٥ – ٧٧ – ١٣٧ واتسمت ثورته بالجرأة على من خالفوه ولم يفهموه.

وامتدادا لهذا التأثر يعرف الشعر كما ينبغى أن يكون بعد أن تدب فيه روح التجديد فيقول «الشعر عبقرية أو رسالة تولد مع الإنسان، وتشب وتكبر معه حتى إذ اتضح طغت على نفسه وقادتها وأنطقتها، والشاعر روح قدسى خلق للانسانية بلسما على جرح المظلوم. الشاعر هو الحب يتكلم.(٣)

وثورة محمود الشريف على الأدب البغى بدافع من إيمانه بالله وروحانيته السامية يعبر عنها د/هداره قائلا «والواقع أنه يعبر فى هذه الثورة عن رأى شعراء المهجر بلا استثناء»(٤).

وإذا كان أبو الفضل الوليد شاعرا أسلم بعد أن كان مسيحيا فالأديب سيف الدين

(١) السابق ص ٨٠٧
(٢)عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٥٧٧
(٣) د/ محمد مصطفى هداره التجديد فى شعر المهجر ص ٧٨
(٤) السابق ص ٧٩

الرحال مسلم النشأة والتعليم فهو كاتب وشاعر وعالم مصرى من طراز الاساتذة الجهابذة، عملاق بروحه وجسده، جبار فى صبره على الجهد الطويل تأليفا كان أو ترجمة أو تحقيقا أو جدالا، يقول:

إنه تلقى العلوم فى الأزهر الشريف وتلقن فن الإنشاء وأصول الدين من الإمام الشيخ محمد عبده وأنه تخصص في علوم الكيمياء والكهرباء وفنون الجراحة الجمالية[١].

وفى موقف سيف الدين الرحال الدينى نلمس جانبا جديدا ونظرة مغايرة عن الخط الذى سار فيه أغلب أدباء المهجر: فموقفه موقف المدافع عن عقيدة معينة وهى الإسلام وجوهره لا يعترف بالتعصب ولا التفرقة العنصرية، ولا الطوائف أو التناحر المذهبى وكان هدف سيف الدين الرحال خدمة الإسلام مما يوحى بروح دينية مخلصة لهذا الدين القيم.

سابعا : الحرية الدينية كانت القاسم المشترك بين أدباء المهجر في موقفهم من العقيدة. فعلى الرغم من أن أغلبهم يدين بالمسيحية لكن لم يتعصبوا لها بل هاجموا رجال الدين فيها لتصرفاتهم البعيدة عن جوهر العقيدة المسيحية وغلبت عليهم النظرة الإنسانية. ولم تقف العقيدة حائلا بينهم وبين ثقافتهم وتعاملهم مع الآخرين.

وجبران والريحانى والياس فرحات من أشد الأدباء هجوما على رجال الدين المسيحى.. وقد استخدموا مواهبهم فى التعبير عن آرائهم ولجأوا إلى إجراء هذه الآراء على ألسنة الحيوانات حينا كما فى أحلام الراعى لفرحات، ورواية المحالفة الثلاثية والمملكة الحيوانية لأمين الريحانى.

وأحيانا يعبرون فى قصصهم ومقالاتهم وأشعارهم كما فى قصص جبران، ومقالات نعيمه وجبران، وأشعار أبى ماضى ونعيمه والقروى.

وليس معنى هذا أنهم لا يعترفون بالمسيحية!!!، إنهم يهاجمون مظاهر الزيف التى شوه

---

(١) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا ص ٦٠١ .

بها رجال الدين الوجه الحقيقى لها - نظرا لخلافاتهم ولأطماعهم المادية واستغلالهم سذاجة بعض الناس ذوى القلوب الطيبة والنوايا الحسنة.

- ونلاحظ أن عقيدة التثليث تسيطر على أفكارهم في نتاجهم - فالريحانى يجعل المحالفة ثلاثية، ونعيمة يتحدث عن «ثلاثة وجوه» بوذا - لاوتسو يسوع ويتحدث عن مثلث الحياة.

وأهم ما ميز اتجاههم الدينى السماحة وعدم التعصب لدرجة أن بعضهم أشاد بالإسلام وأنشد القصائد فى مدح الرسول عليه السلام كالشاعر رياض المعلوف وجورج صيدح، وإلياس فرحات، وإلياس قنصل، ونصر سمعان وميشيل مغربى، وزكى قنصل.

فعقيدة جبران هى المسيحية ولكنه لا يتعصب بل نراه ثائرا على مالحقها من زيف وشوه صورتها النقية.

والمتأمل لقصصه الأجنحة المتكسرة، وخليل الكافر، والشيطان، ومرتا البانية، والسيدة وردة الهانى، وصراخ القبور - يجد هذا الخط الثائر على الطقوس الشكلية التى أخفت معالم المسيحية التى تضوأت على يد المسيح وحوارية الأصفياء.(١)

ولذلك نراه مؤمنا بأن الدين هو «ما أنار القلب»

يقول: ومتى كان ضمير جار كنور الشمس حيا نقيا، وقلبه كوردة تتفتح فى الفجر لتستقبل ندى السماء. فلا فرق عندى أن ذكر بين الدراويش أو غيرهم».

ويقول :

أنا مسيحى، ولى الفخر بذلك، ولكننى أهوى النبى العربى وأحب مجد الإسلام وأخشى زواله، إننى أسكن المسيح شطرا من حشاشتى ومحمدا الشطر الآخر»

- وتتلخص فلسفة الريحانى الدينية فى اتجاهين اثنين:

أولا : محاربة التعصب الدينى ومن يحاول تعميقه فى النفوس. كالقساوسة الذين جعلوا من الدين كهنوتا وطقوسا ونأوا به عن واقع الناس وحياتهم وهو يشير إلى هذا فى عمق وأسى قائلا:

« عندما أفكر فى المذاهب والطوائف الدينية - بليتنا الكبرى - وفى أولئك المتعصبين

---

(١) انظر النقد التحليلى لهذه القصص فى كتابنا « مقالات وبحوث فى الادب المعاصر» ط/دار المعارف ١٩٨٢

جهلا و نفاقا، الذين يكفرون الناس. ويتعيشون بجهل الناس أذكر بيتين من الشعر الإنكليزى لصديقنا الأمريكى «ادوين مرجهام» ترجمتهما، إن المتعصب رسم دائرة صغيرة. وجعلنى أنا الكافر خارجها ولكنى - والحب عونى - غلبناه فرسمنا دائرة كبيرة وجعلناه ضمنها».

وترجع ثورة الريحانى على التعصب إلى نزعته الإنسانية التى تجعل سلامة الوطن واستقراره فى المقام الأول.

فقد كان منذ صغره وقبل أن يتمرن علي القلم لترجمة أحاسيسه فى مقالات وخطب وكتب يجيل فكره فى مجتمعه وشؤونه. فكانت نفسه تثور على ما يعانيه مجتمعه من صنوف الجهل والجور وما يخضع له شعب بلاده من عبودية لرجال الدين ورجال الإقطاع. وحينما أصبح قادرا على التعبير عن ثورته هذه بالقلم راح يصب نقمته شواظا من نار على كل لون من ألوان الجهل والظلم تارة ساخطا معنفا، وتارة متهكما ساخرا.

فلقى على ذلك الكثير من حملات رجال الدين والإقطاع معا. فنشروا فى أوساط الشعب الساذج الجاهل أن الريحانى ملحد يفسد الضمائر، ويحاول أن يهدم الدين، ويزرع الشكوك في نفس الشعب.

وزاد رجال الدين أن حاربوا كتبه، وجعلوها فى القائمة السوداء التى لا يجوز لكاثوليكى قراءتها، وفرضوا الحرمان من الكنيسة على من يتجرأ على قراءة شىء منها(١).

ثانيا :

وكانت ثورة الريحانى يؤجج نارها رغبته فى عدم اتخاذ الدين وسيلة للتفريق بين أبناء الوطن الواحد. فالدين يدعو إلى جمع الشمل والألفة فالتعصب الدينى لا يمكن أن يصبح سدا منيعا فى وجه الإنسانية والتقدم والاخاء البشرى، ولذلك تتراءى لنا روحه المتحررة فى أكمل صورة للإخاء الانسانى الذى يمشى فى ظلاله الجميع تحت الشجرة الإلهية.

وذلك ما نلمحه فى مقال له عنوانه، الكنيسة والجامع «يختمه بقوله فتعال معى يا أخى المسيحى. تعال إلى الجامع» (٢).

وأكد الريحانى أن بلاده لم يصبها بالضعف والتخاذل وانحلال القوة وتفرق الكلمة إلا ذلك

(١) عيسى االناعورى أدب المهجر ص ٣٥٢

(٢) د / محمد مصطفى هدارة التجديد فى شعر المهجر ص ١٢٤

التعصب الطائفى الذى عطلها وعوقها عن السير فى طريق النهوض.(١)

ويرى أنهم «طائفة من المتاجرين بالأكاذيب» (٢)

والمتأمل لكتب الريحانى المتعددة: الريحانيات، المكارى والكاهن المملكة الثلاثية، التطرف والاصلاح، وغيرها يرى فيها من الحرية الدينية والفكرية الشىء الكثير المدهش.

وقد ركز حملته على رجال الدين المسيحى فى رواية «المحالفة الثلاثية والمملكة الحيوانية. التى انتهى من وضعها فى تموز سنة ١٩٠١ وهى كتاب رمزى تلبس فيه الحيوانات الجبب والطيالس. الحصان والبغل والحمار والثعلب والجمل والثور ويتخلقون بأخلاقنا، ويتحدثون بلغتنا.

ورمز أمين الريحانى لنفسه بالثعلب وللسيد المسيح بالأسد ومن كلماته الجريئة. اجمعوا كتب اللاهوت وأحرقوها كلها. ابنوا عقيدتكم على النواميس الكهربائية والبخارية تجدوا أنفسكم إذ ذاك قريبين من الله بل أمام وجهه المنير المقدس. (٣)

ويتطور رفض أمين الريحانى للواقع المشوش الذى آلت إليه العقيدة إلى التهجم على أسس العقيدة المسيحية نفسها، فينكر حدوث أى صلة مباشرة بين الإله والإنسان، وينكر تجسد الإله فى بشر، بل وينكر أن تخالف مريم النواميس الطبيعية فتلد دون مباشرة إنسان، وفى لغة رمزية تشف عن المعنى الأصلى فى وضوح فيقول:

«التجسد لا يوافق النواميس الطبيعية، والمخاطبة الشفاهية بين الخالق والمخلوق مخالفة لأحكام العقل - واللبؤة التى لا يضاجعها الأسد لاتحبل والأسد الذى يموت يموت إلى الأبد ولا يعود إلى هذه الحياة ثانية».(٤)

وأمين الريحانى مخطىء فى تحليله السابق. ونظرته لم تتعد دائرة المحسوس وهى نظرة تنأى عن عالم الروح كثيرا ... فالله هو الخالق وهو الذى يعلم سر التكوين وكيفيته قال تعالى «الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون» (٥)

---

(١) محمد عبد الغنى حسن الشر االعربى فى المهجر ص ٤٤
(٢) د/ أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٦٨
(٣) الريحانيات جـ١ ط ٢ ص ٥٢
(٤) السابق ص ١٨٣
(٥) سورة الروم آية ١٨

لكنه يجعله أمامنا بالطريق الطبيعى الذى ألفه الناس بل هو غريزة خلقية أودعها الله كل كائن حى من أجل عمارة الأرض واستمرار الحياة.

وفى ذلك رحمة بعقولنا حتى لا تشت حين تفقد الأسباب وتعوزها البراهين، فاذا ما جاءت حالة مثل ولادة المسيح فانها من عند الله ويسره وإرادته والمنطق العقلى لا يجيز أن يكون الرسول ابن سفاح.

والقوانين النفسية تثبت أن الشاذ لا يهدى الأسوياء. بل يظل أسير عقدته التى تسد أمامه كل الآفاق... والقرن الكريم يروى ذلك بصدق واقناع «قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين. ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا».(١)

والمنطق القرآنى واضح فهذه هى معجزة عيسى تخرس ألسنة المكابرين وينطق الصبى ليدفع عن أمه خبث الاتهامات. ولم يحدث فى التاريخ أن نطق صبى فى مهده بمثل ما نطق به عيسى «قال إنى عبد الله. آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ..» (٢) .... وليس معنى هذا أن الريحانى ينكر وجود القوة العليا المسيطرة على الكون التى تستحق كل إجلال وتستوجب الخضوع والعبادة. لأن الريحانى عاد إلى دقائق هذا الموضوع فى مواضع أخرى. وبين أنه ينأى بالبشرية عن الاختلافات حول القشور. ويهمه أن يجتمعوا حول الجوهر الأصيل والنبع الصافى.

وايليا أبو ماضى يثور على التعصب الدينى بل يصل إلى درجة الإعراض عن هذه الخلافات ويتخذ من الطبيعة كتابه ودينه.. ولعل هذا ثورة منه وانفعال ضد الإنسان الذى زيف القيم يوضح هذا فى قصيدته «كتابى» (٣) حين تسأله زوجته دوروثى» عن مذهبه فيقول

وسائلة أى المذاهب مذهبى　　وهل كان فرعا فى الديانات أم أصلا

---

(١) سورة مريم آية ٢١
(٢) سورة مريم آية ٣٠ - ٣٥
(٣) أبو ماضى الخمائل ص ٧٩

وأى نبـــىّ مـرســل أقتــدى بــه | وأى كتـــاب مــنزل عنـدى الأغلـى؟
فقلـت لها : لا يقتنـى المـرء مذهــبا | وان جـل «إلا كـان فـى عنـقه غــلا
أنـا آدمـى كـــان يحســب أنـــه | هـو الكـائـن الأسـمى وشرعتـه الفضلى
وأن لـه الدنيــا الـتى هـــو بعضــها | وأن لـه الاخـرى إذا صــام أوصــلــى

ويصور أبو ماضى بعد ذلك تعاليم الإنسان المشوهة، وهو يهاجم بصورة غير مباشرة رجال الدين الذين يعظونه وهم ليسوا أهلا لذلك... لأنهم يقولون ما لا يفعلون يقول مبينا تناقض الإنسان:

نهـــانى عن قـــتل النفــوس وعندما | رأى غـــرة منـــى تعلـــم بـى القتلا
وذمّ إلـــى الـــرق ثـــم استـرقنى | وصـــور ظلمـــا فيـــه تمجيـده عدلا

ثم يعلن رفضه القاطع لما يرى من تناقض ويندمج فى الطبيعة فيأخذ منها الدروس والآراء حيث يتسع قلبه للناس جميعا ويبذل لهم حبه وإخاءه لا يفرق بين أحد منهم كالنجم الذى يضىء للجميع، والنهر الذى يسقى الجميع، والطل الذى يزين الورد والأشواك والأرض التى تغذى كل النباتات.. ويقر بهذا كله ويقول:

فأصـــبح رأيـــى فـــى الحـــياة كـرأيـها | وأصبحـت لـى ديـن سـوى مذهبـى قبـلا
فـديـنى كـديـن الـــروض يعبـــق بالشــذا | ولـو لـم يكـن فيـه سـوى اللـص منسـلا
وديـنـــى الـــذى اختـــار الغـديـر لنفســه | وياحســـن مـا اختـار الغـديـر ومـا أحلى
وديـنـــى كـديـن الشـهـب تبـدو لعـاشـق | وقــال، وفيهـا مـا يحـب ومـا يقـلى
ودينى كدين الغيــث إن ســح لـم يبــل | أروى الأقاحى أم سقى الشـوك والدفـلى

– وأما إلياس فرحات فإنه لم يعرف المذهبية فى الدين.. فالدين عنده فى القلب النقى وحده وهو فى ذلك يلتقى فى النسيج الموحد الذى يجمع الفكر المهجرى الدينى وفلسفتهم الإلهية.. يلتقى مع جبران فى نبذه للتعصب، ومع نعيمه فى روحانيته الصافية ومع أبى ماضى

---

(١) سورة مريم آية ٣٠ – ٣٥ .
(٢) أبو ماضى الخمائل ص ٧٩ .

فى ابتهالاته السامية، ومع الريحانى فى رغبته فى جمع شمل الأمة المتصدع، فهو لا يؤمن بمظاهر الدين أو طقوسه لأن الدين عنده فى القلب النقى وحده. ولا علاقة له بما يضيفه إليه أصحابه من مراسم وطقوس وانقسامات، وهو لا يتصور مطلقا أن يكون الدين سببا للتفريق بين أبناء الأمة الواحدة أو أبناء الإنسانية عامة.

وعلى الرغم من أنه مسيحى المولد والنشأة إلا أنه لا يمارس طقوس الدين المسيحى بنفسه ولا بأبنائه. ويشير فى عدد من قصائده إلى ملاحقة بعض الكهنة له لكى يعمد بناته ويذكر أنه كان يردهم عن هذه الملاحقة لانه لا يؤمن بعقائدهم.

ويكاد يكون فرحات من أعنف من هاجموا التعاليم المسيحية ومن أصلبهم وأكثرهم تطرفا. ولعل السبب الأكبر فى كراهيته لهم ما رآه في وطنه لبنان من انقسامات مبنية كانت نكبة كبرى على وطنه. فلم تكن مذبحة عام ١٨٦٠ «ألف وثمانمائة وستين لتقع فى لبنان لولا اختلاف الدين ولم تكن فرنسا لتسيطر على لبنان لولا تعلق قسم من اللبنانيين بها باسم الدين».

– والآن على الرغم من تقدم العصر وازدهار الحضارة تتجدد المأساة فى لبنان. مسلمين ومسيحين ومعارك دامية، وضحايا بالآلاف. ودمار فى كل مكان.

ولكن أين الشعراء؟ انشغلوا بأمور أخرى. أين الانتفاضة الأدبية المصبوغة بالدم. المنبثقة من مأساة الجماجم ووديان الموتى.

– ولا يكتفى إلياس بالسخرية من رجال الدين لكنه يسخر من نصوص الكتاب المقدس ويشترك معه الكثيرَ من أدباء المهجر فى ذلك فيقول فى إحدى رباعياته:

إلــــه اليهـــود يحـــب الحميـــر	وليـــس يحـــب الألـــى يفهـــمونْ
فـــإن تنـــكروا تكفـــروا بالكتـــاب	ومافيـــه وحـــى كمـــا تزعمـــون
أمـــا كـــان آدم وهـــو جهـــول	محاطـــا بعطـــف الإلـــه الحنـــون
فمـــا عـــرف الخيـــر والشر حتى	نفـــاه وعاقبـــه بالمنـــون (١)

وفى ديوان أحلام الراعى نلمس عقيدةَ الياس التحريرية ودعوته إإلى كسر التقاليد البالية ومحوها وبذلك يضم صوته إلى أصوات المهجرين المتمردة .

(١) إلياس فرحات : الرباعيات ص ٥٤ .

فهو يبغض المفسدين المفرقين ودعاة العنصرية والطائفية والأقلية بين المهاجرين ويعبر عن هذا فى قصيدته "محاكمة" وينتهى فى هذه القصيدة إلى حكم القاضى على "الكبش" الدخيل المفسد الذى قضى مثخنا بالجراح بعد الوقيعة التى أشعلها بين الغنم . بأن يسلخ وجهه ويحفظ ليظل شكل الخيانة ماثلا أمام الجميع .

ثم يطرح جسمه فى النار ويقول :

ولا رحـــم اللـــــه روحــــــــا تـــدفق مـــــــنها الــقـــــذر
إذا ســقـــر قــــــبِلَتهْـــــا فـــقـــد زاد شـــــرســـــقر

وقصيدة "علامة استفهام" (١) تعبر عن رأى الشاعر فى الأديان ودعاتها حيث يناقش فيها قضية الخالق بأسلوب شعرى "مناقشة فكرية عميقة . (٢)

فإذا ما ذهبنا مع القصيدة إلى نهايتها لنعرف رأى الشاعر فى قضية الخالق فلن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا إن الشاعر قد ابتسم ابتسامة غامضة فى النهاية لم تعط يقينا لأحد الفريقين .

فقد اختتم دفاع المؤمنين بالله بتلك النظره الساخرة من رجال الدين وأنهم وجدوا بين البشر عقابا لهم على التهامهم الشياه . وأن ذلك حسبهم دليلا على عدالة الله. (٣)

والقصيدة الاخيرة "رثاء الغضروف" من أطول قصائد المجموعة يبدؤها الشاعر بمرثية صغيرة متحسرة على كلبه الأمين ومساعد الأيمن فى رعاية أغنامه ثم يستطرد فيذكر حلما رأى فيه كلبه قد عاد إلى الحياة فى ثوب إنسان عقابا من الله له !! فأصبح مضطرا إلى الجرى على سنة الناس فى المجاملة والتملق والكذب وحين يصحو الراعى من حلمه يهرع ليرى قطيعه فيرى وقد كرت عليه الضوارى فيتذكر كلبه الأمين من جديد ويذرف عليه دمعة حارة صارخا .

غـــضروف يـــاحسرتى علـــيك ويـــا ذلـــــــى وذل المـــراح والشـــــــاء

وفى عودة الكلب إلى الحياة على شكل إنسان تأكيد لمعتقد إلياس فى فكرة التقمص

(١) أحلام الراعى ص ٩٦ .

(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٢٤٦ .

(٣) السابق ص ٢٤٦ .

والتناسخ التى رددها جبران ونعيمه وقويت أصداؤها فى نتاجهم الأدبى المتنوع .

وفى هذه العودة التى تضمنت عقاب الله له رجوع إلى الفكرة التى عبر عنها الشاعر فى قصيدة سابقة هى فلسفة الغضروف . فإذا ربطنا هذه الفكرة فى القصيدتين بحملة النعجة على لؤم الإنسان وغدره فى قصيدة " سلام الغاب " وبحملة الشاعر على المفرقين بين الناس بحجة الدين فى قصيدة " علامةاستفهام " والذين يشيعون روح الانقسام بين الآمنين فى قصيدة محاكمه وجدنا أن الشاعر فى (خمسة أسداس) ديوانه يهدف إلى تهذيب الإنسان وتعليمه معانى العدل والرحمة والمحبة .

وأداه حُبُّ تهذيب الإنسان إلى التسامح الدينى والالتقاء فى رحاب الأخوة الإنسانية يقول : فيم التقاطع والأوطان تجمعنا . . قم نغسل القلب مما فيه من ضجر

– والشاعر : رياض المعلوف يقول فى إحدى رسائله إلى " إننى لست متعصبا ولا متزمتا . أما قضية الخالق فلا شك أنه موجود وإن يكن غير منظور .

والدليل أن إحدى الأمم أرادت أن تختبر ذلك باستغنائها كتجربة عن قائد الأوركسترا أو الجوقة السمفونية الموسيقية هكذا بتركها إدارة نفسها بنفسها .. فخاب الظن .. وساد النشاز وعمت الفوضى بين الموسيقيين .. وفقد الانسجام والتآلف .[1]

انه يخاطب ربه فى همس رقيق ولغة شفافة قائلاً :

فاقبـل صـلاة بالعيـون همستهـا ... وبهـا فمى بجميـل حمدك ينطـق
مـن شاعـر عـرف الحقيقة كلهـا ... هـو لم يكن يومـا لهـا يتملـق
فسـرت على شفتـى الأثيمـة نسمـة ... علويـة هـى مـن عبيرك تعبـق
وأنـا حيـالك مـن أنـا ياخالقـى ... كذريـرة ببخـور قدسـك تحـرق
دعنـى أقبـل راحتيـك تيَمُّنـا ... بيد هـى الدنيا تشـع وتشـرق [2]

ومن منطلق إيمانه العميق .. وعدم تعصبه يخاطب المصطفى عليه الصلاة والسلام فى المولد النبوى قائلا :

---

(١) من رسالة بعث بها الشاعر إلى فى ١٤/ ١٢ / ١٩٧٧ م .

(٢) من قصيدة : يد الله " وقد وردت هذه القصيدة فى ديوان خيالات " وديوان " زورق الغياب ، وديوان غمائم الخريف

يا نبي الأعراب والإسلام	عيدك اليوم بهجة للأنام
هو يوم مبجل عربي	فيه أقبلت مشرقا كالحسام
أنت يا صاحب الرسالة فخر	أنت أهل للمدح والإكرام
تنثر الحكمة البليغة شعرا	عربيا يطيب للأفهام
علم الدين في يديك تعالى	في الذرى وهو قبلة الأعلام (١)

وتأتى عبارات الشاعر غير الملائمة لخطاب الرسول ،ويبدو أنه أراد أن يجامل المسلمين ولا يورط نفسه وهو الذى يدين بالعقيدة المسيحية . أو أنه لبعده عن المناخ الإسلامى الصحيح لم يدرك كيف يخاطب الرسول عليه السلام .

فالنبى ليس نبى الأعراب فقط وكلمة الأعراب مرتبطة فى الوجدان الإسلامى بالكفر والنفاق وبعدم القدرة على التفريق بين الإيمان والإسلام .

وأحاديث الرسول حينما توصف لاتشبه بالشعر بل هى فوق مستواه والله يقول :

" وما علمناه الشعر وما ينبغى له " صدق الله العظيم .

ومشاركة المهجريين المسيحيين لاخوانهم المسلمين فى أعيادهم ترجع إلى سماحتهم الدينية ، وشعورهم القومى المعتز بالعروبة .

فالقروى ينبذ التعصب ولا يسمح له أن يفرق بين أبناء الأمة الواحدة ، والرسول محمد عليه الصلاة والسلام هو باعث هذه الأمة الأول وموحدها بدينه ودعوته يقول :

أكرم هذا العيد تكريم شاعر	يتيه بآيات النبى المعظم
ولكننى أصبو الى عيد أمة	محررة الأعناق من رق أعجم
إلى علم من نسج عيسى وأحمد	وآمنة فى ظله أخت مريم (٢)

ويدافع من الشعور نفسه والاهتزاز بالقومية العربية يقول الياس فرحات :

(١) رياض معلوف : غمائم الخريف ص ١١٠ .
(٢) ديوان القروى جـ١ ص ٣٥٦ .

غمر الأرض بأنوار النبوه ... كوكب لم تدرك الشمس علوّه

لم يكد يلمع حتى أصبحت ... ترقب الدنيا ومن فيها دنوّه

بينما الكون ظلام دامس ... فتحت فى مكه للنور كُوّه

وطمى الاسلام بحرا زاخرا ... بأوازئ المعالى والفتُوّه

من رأى الأعراب فى وثبتهم ... عرف البحر ولم يجهل طُمُوّه

إن فى الاسلام للعرب علا ... إن فى الاسلام للناس أخُوّه

يارسول الله إنا أمة ... زجها التضليل فى أعمق هوه

ذلك الجهل الذى حاربته ... لم يزل يظهر للشرق عتوه

قل لاتباعك صلوا وادرسوا ... انما الدين هدى والعلم قوّه

والشاعر إلياس قنصل يخاطب الرسول عليه السلام فى قصيدة طويلة تبلغ ثلاثة وثمانين بيتا . (١) ويمجد فى الرسول روح الأخوة والمساواة والتسامح ويقول فيها :

انى ذكرتك يامحمد ناشرا ... روح الأخوة فى بنى الانسان

يعلو " بلال " العبد أشرف قبة ... ليذيع منها أشرف الألحان

حق المواهب أن يقدر أهلها ... لا فرق فى الأجناس والألوان

انى ذكرتك يارسول مقابلا ... أسراك أسرى الشك والعصيان

لم يظفروا بك مثلما رغبوا ولو ... ظفروا - لجد الحقد بالغليان

وظفرت أنت ، فلم تشأ تجريمهم ... أو رميهم بمعرة وهوان

* *

وبنيت أعظم دولة نشرت على ... قاصى الوجود صلاحها والدانى

إن غاب بعض روانها فلأننا ... نحن المصادر لا الزمان الجانى

وفى عيد الفطر يهتز وجدان الشاعر " زكى قنصل " ويعد عيد الفطر " عرس الضياء ويصف مقدمه السعيد ويربط بين آذان رمضان وترتيلة الميلاد : يقول .

---

(١) د / خفاجى : قصة الأدب المهجرى ص ٢٦٤ .

عُرْس الضياء ، وعزة الأعياد — إن القلوب الى نداك صواد
هشت لمقدمك السعيد حواضر — وتهللت – لما هللت بواد
إنى لتربطنى بركبك نزعة — عربية ملكت على قيادى
رمضان – هبنى من أريجك نفحة — نديـاء تحيى بالرجاء فؤادى
كحل بأنوار السماء بصيرتى — واغمس بأطياب الفضيلة زادى (١)

وفى موسم الحج يشارك " جورج صيدح " وفود الحجيج فرحتهم ويربط بين هذه المناسبة وبين اغتصاب فلسطين ويحث العرب والمسلمين على استرجا ع الأماكن المقدسة ويقول :

حجـوا جناح الله واعتصموا — ياقاضى الحاجات كن لهمُ
البروح تسمع ما يخالجهم — ان سد آذان الورى صممُ
والركن يلمس من شعائرهم — شكوى تضيق ببثها الكلمُ

* *

ان الحجيج يحثهم أمل — غير الحجيج يحزهم ألم
علم على الحرمين ذكرهم — بالثالث الهادى به العلم
بالمسجد الأقصى بجيرته — بمأتم فى العيد تنتظم
حملت فلسطين الصدور إلى — قبر الرسول إليه تحتكم
تستشفع الأضحى وحرمته — فى موطن هامت به الحرم (٢)

ثامنا : أمن المهجريون بأن الله هو القوة الكبرى التى تقف وراء كل حركة فى هذا الوجود المترامى الأطراف ، وقد غالى بعضهم فى هذا الموقف إلى درجة تشبه موقف المتصوفين من فلسفة الاتحاد والحلول .. ووحدة الوجود وهى معتقدات يشوبها الغموض وبعيدة عن الصواب .

أما عن جوهر العقيدة فبعضهم آمن بالتثليث وهو معتقد المسيحيين ويسمى بالأقانيم الثلاثة " وجوهر المسيحية لايقر هذا المعتقد فالله واحد والمسيح ابن مريم وليس ابنا لله .

---

(١) د / نظمى عبد البديع : أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب ص ٣٨٢ .
(٢) السابق ص ٣٨٤ .

ومنهم من آمن بالوحدانية وثار على عقيدة التثليث " مثل جبران والريحانى وفرحات يقول جبران على لسان آمنة العلوية وهى تخاطب - نجيبا فى مسرحية " إرم ذات العماد ".

قل لا إله إلا الله ولا شيء إلا الله وكن مسيحيا "

* *

ولقد خان بعضهم التوفيق فى أدائهم التعبيرى حين خاطبوا الله حيث لم يشعروا بهيبته القدسية فأتوا بألفاظ وتعبيرات بعيدة عن ذوق المؤمن وغير لائقة فى الحديث عن الحق سبحانه وتعالى .

ومن ذلك ما يعتقده نعيمه فى " الرجل الإله " وهو معتقد مخطىء فعنصر الآدمية غير عنصر الألوهية ، ولايمكن للإنسان مهما ارتقى فى العبادة والروحانية أن ينفصل عن بشريته .

ويصف أبو ماضى الإله " بالثرثار " فى قصيدته " الإله الثرثار " ولا يليق هذا الوصف مهما كان التعبير رمزيا .

وأيضا فى قصيدة " أمنية إلهة " يخونه التوفيق .. فكيف يؤنث الإله .. ؟ وهو واحد لا شريك له ؟

ويصور قصة حب بين إله وإلهة " ويقول " أحب إله الإهة " ويبدو أن التعبيرات والتصورات اليونانية القديمة التى تناقلها الشعراء فى أوروبا وفى العصر الحديث عن آلهة الحكمة وآلهة الجمال ، قد أثرت فى المعجم الشعرى لأبى ماضى وغيره من الذين لم يتورعوا فى استعمال مثل هذه الأساليب .

كذلك يؤخذ على أبى ماضى " أنه اتخذ الحرية نبيا له ، والكون كتابا وأنكر الكتب السماوية فالمذاهب فى رأيه أغلال تشل حركة الإنسان يقول :

فقلت لها لايقتنـى المـرء مذهبـا ... وان جـل إلا كـان فى عنقـه غـلا
وصـار نبيى كـل مايطلـق العقـلا ... وصـار كتابـى الكون لاصحـف تتلـى

كذلك يؤخذ على أمين الريحانى إنكاره لولادة المسيح بدون مباشرة جسدية حيث يقول رامزا إلى المعنى الذى يريده " واللبؤة التى لا يضاجعها الأسد لا تحبل " وقد رددت عليه وفندت مزاعمه فى المبحث السابق " الحرية الدينية ".

ويؤخذ على القروى كما يؤخذ على كثير من أدباء المهجر . أنه لم يتأن فى اختيار الألفاظ

التى تناسب التحدث عن الله أو مخاطبته . وفى ذلك تجريد لله من هالات القداسة التى تغمره .

فنرى إلياس فرحات يقول : إله اليهود يحب الحمير ، ونسيب عريضه يقول : إن الله تمنى أن يسجد أمام آدم ليعتذر عن إساءته إليه .

والقروى يجعل الإله جاهلا بتجربة الإنسان مع حنان الأم .. فيقول بعد سرده لقصة الشاعر وحواره مع الله واختلافه معه :

فأطــــرق سيـــد الأكـــــوان طـــــــرا   بشكوى شاعـــــر الغبـــــراء واهتـــــم
وقـــــال لنفســـــه هـــــذا محـــــال   أيعلـــم شاعـــــر مالست أعلـــــم
أينعـم خاطـــىء فـــى الأرض قبلـــى   بما أنا لســـت فـــى الفردوس أنعـــم
لاكتشفـــن هـــذا الســـر يومـــا   ولو كلفـــت أن أشقـــى وأعـــدم (١)

ويرى أن الأديان نوع من الآداب الشعبية المتوارثة التى يصعب على العامة تفهم مراميها ووسائلها الفنية فتؤمن بأن حكاياتها ليست من قبيل الرموز الفنية بل من قبيل الحقائق الثابتة " لكنها آداب سامية صقلتها قرائح المصلحين البلغاء وان وهم العامة أنها غير ذلك " (٢)

وقد أكد رأيه هذا فى قوله من قصيدة يخاطب بها المتنبى .

نبـــى ولو ضجـــت شيـــوخ وركبـــان   وهـــل بعد اعجـــاز ابـــن كندة برهــــان
وكـــل كـــلام يرفـــع النفـــس منـــزل   وكل كـــلام يفســـد العقـــل بهتـــان
ولا فـــرق فـــى الآيـــات الا بأنهـــا   لـــذى العقـــل آداب وذى الجهـــل أديان (٣)

وقد ورد البيتان السابقان برواية أخرى . فى الطبعة التى حوت الديوان كله فقال " وكل مقال " وقال : وذى القلب " .

وعند تقويم موقفه من تقاليد العقيدة نراه لايخضع لها فهو ينتقد مبادىء المسيحية

---

(١) ديوان القروى ص ٨٠١ .
(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٢٤٨ .
(٣) ديوانن القروى جـ١ ص ٤١٥ .

ويحمل فيها على قصة غضب المسيح على باعة الحمام وطرده لهم من الهيكل يقول مخاطبا سلطان باشا الأطرش قائد ثورة الدروز:

فيـا حمـلا وديعـا لـم يخلـف	سوانـا فـي الـورى حمـلا وديعـا
غضبـت لـذات طـوق حـين بيعـت	ولـم تغضـب لشعبـك حـين بيعـا
ألا أنزلـت إنجيـلا جـديـدا	يعلمنـا إبـاء لاخنوعـا [(١)]

-٩-

تاسعا : ومن أدباء المهجر من أسلم مثل " أبى الفضل الوليد ، ومنهم من كان مسلما مثل سيف الدين الرحال ، ومحمود الشريف .

وكان الرحال متعصبا للإسلام .. وبايعاز من هذا الشعور القوى تجاه الدين نراه يحرص على السلوك الاسلامى ، وربما أداه ذلك إلى الصراع مع غيره من الشعراء والأدباء فقد حرص على عدم استقبال " إلياس فرحات " حين زار الأرجنتين مع الشاعر القروى ، وأصدر بيانا نشرته الجريدة السورية اللبنانية يومها نصه " انذار وتحذير للمسلمين بأن لا يستقبلوا الشاعر فرحات وأن لا يصافحوه لأنه يربى الخنازير ويتاجر بها في البرازيل .

وقد قام " الرحال " بترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الأسبانية حرصا منه على نشر الثقافة الاسلامية وتبصير العالم الغربى والأمريكى بروعة القرآن الكريم .. كان يتوقع أن تطبع الترجمة بمال المسلمين عامة ومال المهاجرين خاصة وان توزع على جميع معاهد الثقافة الأمريكية ليطلعوا على حقيقة الدين الاسلامى هدية الله للإنسان وأن تكلل هام المترجم بهالة المجد والشرف ويرصع صدره بوسام الاستحقاق وبرغم هذا فقد غفل عنه الأدباء المسلمون والعلماء ولم ينوهوا بهذا العمل الفريد .!!!

والرحال يؤمن بالله إيمانا حقيقيا لاشك فيه ولا ارتياب ولاحيرة ولااعتراض وانما اليقين الروحى ، والصفاء النفسى ، والإيمان بالقوة الكبرى شعاره فى محراب التأمل الروحى ،

---

(١) السابق ص ٣٠٩ .

وسلاحه الذى يشهره فى وجه كل دواعى التمزق النفسى والفزع الروحى .

* *

ومن الأدباء الذين اقتنعوا بالإسلام الشاعر " أبو الفضل الوليد " فقد غير اسمه رسميا فى سجلات حكومة البرازيل عام ١٩١٦ م " من " إلياس طعمه " إلى " أبو الفضل الوليد " ابن عبد الله طعمة .

ونذر نفسه للدفاع عن الإسلام ، وكتب مطولة شعرية عارض فيها تائية ابن الفارض " نظم السلوك " وقد بلغت ٣٠٠ ثلثمائة بيت . ويقول فيها :

أعاهـــد ربـــى أن أصلـــى مسلمـــا ... علـــى أحمـــد المختـــار مـــن خيـر ملـة
هدانـــى هواهـــا ثم حبب شـــرعـــه ... إلـــى فصحـت مثـــل حبـــى عقيدتـــى
فمـــن قومـــه قومـــى أديـــن بدينـــه ... لأنـــى أرى الاســـلام روح العـــروبـــة
توسلـــت بالقربـــى إليه فلـــم تضـــع ... لـــدى العربـــى الهاشمـــى شفاعتـــى (١)

وفى موقفه من الاسلام تتمثل غيرته الشديدة على تعاليمه وأمجاده .. فنراه يبكى بحرقة على مآذن الأندلس التى أصبحت ترن فيها الأجراس بعد أن كانت تتشح بمهابة الأذان .. إنه يصرخ فى أسى :

يا أيهـــا المسجـــد العانـــى بقرطبـــة ... هـــلا تذكـــرت الأجـــراس تأذينـــا
تلك المساجـــد صـــارت للعدا بيعـــا ... بعـــد الأئمـــة لاتهـــوى الرهابينـــا

ويعتز بعقيدته الجديدة وبأبطالها فيقول مخاطبا : فاطمه الزهراء

أيـــا بنـــت النبـــى رفعـــت قـــدرى ... بتقريبـــى إلـــى المـــلا العلـــى
وقـــد جردت مـــن شعـــرى سيوفـــا ... تـــذود عـــن الضريـــح اليثربـــى
وقـــد أشعلـــت بالفرقـــان لبـــى ... فهـــذى النـــار من صـــدرى اللظـــى
فقالـــت أنت بالاســـلام أولـــى ... فصـــل وسلمـــن على النبـــى (٢)

* *

(١) چورچ غريب : أبو الفضل الوليد ص ٤٩ت .
(٢) على الجمبلاطى : أبو الفضل الوليد ص ٣١ .

وقد اهتدى الشاعر إلى الإسلام بعد بحث شاق وحيرة مضنية ، ووجد فى الإسلام ماطمأن روحه وهدأ نفسه ، فلا داعى للتساؤلات ، واللا أدريات والشكوك والتبرم كبقية الشعراء والأدباء المهجريين .. فالقرآن كنز الحقيقة فيه مايشبع الروح ويروى العقل ويطمئن القلب ، وقد انشغل الشاعر بتاريخ أمته وأمجاد الإسلام وألقى بموهبته الشعرية المتفجرة فى أتون النضال القومى ، والتحدى الحضارى فاشتعل كيانه ، ووجد نفسه ثائرا علي ذاته منطلقا خارجها يرود مفازات الحرية ويهز المشاعر ، ويوقظ النفوس ، ويبعث روح اليقظة فى الأمة .. ويصرخ .

حتـــام أنتـــم صـــابـــرون علـــى الأذى ... والام أنتـــم غُـفُّـــلٌ ونيـــامُ
أموالكـــم ونفوسكـــم منهوبـــة ... وديـا ركـم فيهـا الخطـوب جســامُ
هـــزأ الفرنجـــة شامتـــين وقولهـــم ... المسلمـــون حياتهـــم أحـــلامُ
والديـــن لا يعتـــز مالـــم يحمـــه ... ملـــك بنـــاه باســـل وهمـــامُ[1]

---

(١) السابق ص ٣٣ .

الفصل الثانى

الوجود

بين التصور الفلسفى وآفاق الرؤية الأدبية التأملية

تمهيد :

الوجود هو اللغز المحير إلى الآن .. يحيطه الغموض من كل جانب ، وتلاحقه التساؤلات وهو فى هروب دائم .. يتجاهلنا ونجهله ، ولم تزل الحيرة تبرق فى تجارب العلماء ، وتموج فى عقول الفلاسفة وتنمو فى وجدان الأدباء وتطغى على قلوبهم ، وتفيض عليهم بخوارق الإلهام ، والكل مازال يتساءل .

ماحقيقة الوجود ؟ وكيف بدأ ؟ وكيف جئنا ؟ وإلى أين نمضى ؟ وماذا بعد ؟ وكل فلسفة لها مقدماتها ونتائجها .

وفى نهاية المسافة التى يقطعها الفكر على مر الزمن يقف العقل الإنسانى حائرا أمام حقائق الوجود المبهمة وروعته الموحية ، وأسراره الناطقة .

وتشعبت آراء الفلاسفة حول أصل العالم . وإلى جانبها وقفت الآثار الأدبية القديمة .. فمذهب طاليس الفلسفى يرى أن أصل العالم الماء . وهير قليطس يرى أن أصل العالم النار فهى المبدأ الأول للوجود . ويريد بها نارا إلهية لطيفة جدا ، نسمة حارة عاقلة أزلية أبدية تملأ العالم ويرى انكز منيس أن أصل العالم هو الهواء ، وأن المتناهى هو المبدأ الأول للوجود . وتتولد منه الموجودات عن طريق التخلخل والتكاثف فاذا تخلخل الهواء صار إلى نار منها تولدت كل الموجودات النارية كالكواكب والنجوم مثلا واذا تكاثف نشأت عنه الرياح والعواصف والسحب ثم الأمطار ثم تتكاثف الأمطار فينتج عنها الأتربة والصخور.

وهكذا يسير الخلق والتكوين من هذا الأصل " الهواء " فى اتجاهين عكسيين من أدنى إلى أعلى ، أو من الكثافة إلى التخلخل وبالعكس .

والفيثاغوريون يقولون : إن أصل العالم هو العدد لأنه أشبه بعالم الأعداد منه بعالم الماء أو النار أو الهواء . وأن مبادىء الأعداد هى عناصر الموجودات عندهم لأن الموجودات أعداد . والعالم على هذا مركب من عدد ونغم .

والفلاسفة الذريون ومن أشهرهم : ديمقرايطس: يرون أن أصل العالم هو الذرة ويفسرون الكون والفساد فى هذا الوجود علي هذا الأساس فتكون الأشياء ليس إلا نتيجة اقتران المجموعة أو تلك الذرات .

وانكسمندر : في مذهبه الفلسفى يرفض رأى طاليس فى أن أصل العالم الماء ويقول :إن الماء استحالة اليابس بالحرارة إلى مائع، وإذا فالجامد سابق على الماء . فليس الماء مبدء أولا للكون والماء معين ومحدود ولا يمكن أن يكون المبدأ الأول معينا أو محدودا وإلا لما تولدت منه الأشياء المتميزة .

والمدرسة الأيلية وفيلسوفهم " بارمينيدس " : يرون أن أصل الوجود هو الوجود نفسه فليس فى الكون كله إلا هذه الحقيقة وهي حقيقة الوجود وإذا كان لابد من أن يتصف بشىء فلا يمكن أن يتصف إلا بأنه موجود ، ولم يقتصر البحث فى أصل الوجود على الفلاسفة بل نرى .. فى أول القصيدة البابلية المسماه " قصيدة الخلق" .

فى البدء قبل أن تسمى السماء وقبل أن يعرف للأرض اسم كان المحيط وكان البحر وفى إحدى الأساطير المصرية جاء :

" فى البدء كان المحيط المظلم أو الماء الأول . حيث كان " أتون " الإله الأول صانع الآلهة والبشر والأشياء وجاء فى التوراة : " فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خاوية خالية وعلى وجه القمر ظلام ، وروح الله يرف على وجه السماء " .

وفى القرآن الكريم آيات متعددة تشير إلى الخلق . ففى سورة هود يقول الله سبحانه وهوالذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا .

وفى سورة الحديد يقول الله وهو أصدق القائلين " هو الأول والآخر والظاهروالباطن وهو بكل شىء عليم ." هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرض ، يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أين ماكنتم والله بما تعلمون بصير " .

* *

- وأدباء المهجر لم يُعْنَوا بالبحث الفلسفى قدر ماعنوا بالتأمل فى مشاهد الوجود ..

فهم لم يبحثوا فى أصل الوجود مثل الفلاسفة اليونانيين فى مراحل تفكيرهم الأولى وانما كانت لهم صلة بفلسفة أفلاطون الذى كان يرى أن العالم عالمان .

عالم الحس وهذا هو العالم المشاهد وهو دائم التغيير عسير الإدراك ليس جديرا بأن يسمى موجودا بل هو شبيه بالعالم لأنه ظل وخيال للموجود الحقيقى .

والعــالم الحقيقى الثانى " عالم المجردات " وفيه أصـــول ما فى ذلك العالم الحســى وبين هـــذين العالمين يوجد العـــقل الإنسانى تتحقق فيه معرفة حـــالات من حالات تلك المعارف الكونية .

ويفسر أفلاطون الكون على أساس فكرته فى المُثُل ومثنوية العالم ، وهو يقرر وجود مادة فى المبدأ مبهمة غير معينة ، ولا يعرف عنها غير صلاحيتها لتقبل الصور .

– وأدباء المهجــر بهروا بما حـــولهم وتأملوا فى كل شـــىء وحاولوا كشـــف الأسرار العميقــة وتحملوا ضـــنى الترحال ، وضحـــوا بما يملكون إلا ثروتهم الروحية ووجـــدانهم الصافى العميق .

– وحين أتعرض لدراسة الوجود عند أدباء المهجر بصفته مظهرا من مظاهر التأمل سأعتمد على دراسة النصوص وتأملها ثم سيرة الشاعر وظروف حياته ثم بعد ذلك استنتج النظرة التى ارتبطت بالأديب . وقد تكون إبداعية ، وقد تكون تأثرية بمعنى أنه قلد غيره أو تأثر به .

وهذا المظهر من مظاهر التأمل يرتبط بالمظهر السابق ارتباطا عضويا . فالله خالق الوجود ، والوجود هوالحقيقة المتجسدة التى تعلن عن وجود الإله . إلا أن التأمل فى الفصل السابق ينفرد بميزة التخصص حيث يدور حول فهم سر الخالق . والوقوف على معالم العقيدة الصحيحة .

أما النظر إلى الوجود فهى نظرة شمولية بما يحوى هذا الوجود من مشاهد وملابسات وحقائق وأوهام ..... و.......

وقد تأمل المهجريون وجودهم الإنسانى وربطوا بينه وبين الطبيعة وما وراءها وآمنوا بالروح . واقترانها بالجسد . أو بقائها بعده . واعتقدوا أن الوجود شر كله أو خير كله ومنهم من آمن بثنائية الوجود . ووحدته. ومنهم من تمرد عليه ورفضه ومنهم من احتار فى تفسير ظواهره .

وبعد استقراء معظم نتاجهم وتأمله وجدت أن تأمل الوجود عندهم يدور حول الظواهر الآتية :

١ – وحدة الوجود :

وهذا التصور للوجود هو لب عقيدة نعيمه وجبران وبؤرة موقفهما من الوجود وقد قلدهما من اعتقد بهذا من باقى المهجريين مثل أبى ماضى وشكر الله الجر ونعمه قازان .

ومن الإيمان بهذه الدعوة تتفرع سائر آراء نعيمه وفلسفته الإنسانية والالهيَّة والطبيعة فما دام الوجود كله غير منفصل فليس هناك إله وإنسان فالله هو نحن ونحن الله لأننا فيه الجسد وهو فينا الروح ، فحين نعبده إنما نعبد خير ما فينا وأبقاه .

وقد جهر جبران بإيمانه المطلق بوحدة الوجود فهو دائما " يرى صورته فى الكل ويسمع صوته فى كل الأصوات " (١)

وهذه النظرية، تأثر بها أبو ماضى فى أبيات عابرة من بعض قصائده ولكنه لم يتخذها مذهبا فكريا كما اتخذها جبران ونعيمه (٢)

ولهذه الفلسفة جذورها الممتدة فى الفلسفات الشرقية القديمة واتصلت ببعض جذور الفلسفة الإسلامية ومن قبل تشربتها العقيدة المسيحية .

وتمتزج بهذه القضية قضية الاتحاد بالله فهما لا ينفصلان وأثارت فلسفة الاتحاد جدلا كثيرا . وليس المقام هنا لتقويم الآراء وانما لبيان الأصول التى كانت رصيدا لنعيمه وأقرانه فى اعتناق هذه الفلسفة .

---

(١) جبران : رمل وزبد .

(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٣٨٠ .

وحال الاتحاد هى غاية لطريق بسيطة تتحرر بها الروح شيئا فشيئا من كل ما هو غير ربانى وهى تختلف عن " النرفانا " فالنرفانا تغير للشخصية لا غير ، وأما الفناء فهو تلاشى الصوفى عن وجوده الحسى .

ويستلزم ذلك الفناء " البقاء " أو الاتحاد بالحياة الربانية "(١)

ونشأت هذه العقيدة فى الدين المسيحى بوحى من قصة عيسى كما يتصوره المسيحيون ونشأت فى الدين الإسلامى بوحى من قصة خلق آدم كما صورها القرآن .

والمسيحيون يعتقدون أن الله خلق آدم على صورته ، ثم أبرز من ذاته تلك الصورة من حبه الخالد ، وحتى يرى نفسه كمن ينظر فى مرآة . ومن هنا أمر الملائكة بالسجود لآدم الذى تجسد فيه كما تجسد فى عيسى .

واستند القائلون بهذه النظرية وهى التجسيد أى أن الله تجسد فى آدم وهم من المتصوفة المسلمين إلى رواية الأمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله خلق آدم فى صورته وطوله ستون ذراعا ثم قال : اذهب فسلم على أولئك النفر – وهم من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ... الخ...

ويقول الحلاج :

سبحـــان مـــن أظهـــرنـــا سوتـــه   ســـرّ سنا لاهوتـــه الثاقـــب
ثـــم بـــدا لخلقـــه ظاهـــرا   فـــى صـــورة الآكـــل والشـــارب

وإذا كان " ناسوت الله " يشمل طبيعة الإنسان ، الروحى منها والجسدى فإن " لاهوته " لايستطيع الاتحاد بهذه الطبيعة إلا عن طريق التجسد ، أو كما يقول الأستاذ " ماسينيون " عن طريق حلول الروح القدس التى تتخذ مكانها حين تحل الروح الجسد "

---

(١) أ . رنيكلسون : الصوفية فى الإسلام .

وهذا المذهب فى " التأله الشخصى على الشكل الخاص الذى طبعه به الحلاج حين قال :

مزجت روحك فى روحى كما | تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شىء مسنى | فإذا أنت أنا فى كل حال

بينه وبين المذهب المسيحى الأساسى نسب واضح (١)

فمعتقد نعيمه فى ألوهية الإنسان انحدر اليه من أصول العقيدة المسيحية وكان لهذا المعتقد ارتباط وثيق بقضية وحدة الوجود التى أينعت فى حقول التصوف الإسلامى .

– وجبران يعتقد أنه بؤرة هذا الوجود وأن الوجود يتحرك فيه ومن خلاله وهو الدائرة التى تحوى داخلها كل مافى الوجود ويقول في كتابه " رمل وزبد ".

خيل إلى فى الأمس أنى ذرة تتموج مرتجفة فى دائرة الحياة بغير انتظام واليوم أعرف كل المعرفة أننى الدائرة وأن الحياة بأسرها تتحرك فىّ بذرات منتظمة .

والفكرة الوجودية السابقة ارتباط بفكرة نعيمه عن " الرجل الإلهى " واعتبار الإنسان إلاها أصغر .. وهى أيضا من الأفكار التى انحدرت إليهم من التراث المسيحى .

ويؤكد جبران إيمانه بألوهية الإنسان حين يعطينا صورة للعالم الآتى ويقول :

" هناك فى العالم الآتى سنرى جميع تموجات مشاعرنا ، واهتزازات قلوبنا .. وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التى نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط (٢) » ، ووحدة الوجود تبدو فى كتاب النبى وحديقة النبى .

" والوجود عند جبران يمتد إلى أعمق من مفهومه فهو قائم بصرف النظر عن صوره والأرواح عنده تتناسخ وفكرة الموت تعنى الانتقال لا العدم .

---

(١) أنظر أ . رنيكلسون فى كتابه : الصوفية فى الإسلام .
(٢) جبران : النبى .

على أن وحدة الوجود عند جبران لاتعوق نمو الشخصية ولا تحول بينها وبين الحركة الحرة المستقلة ذات الطابع الخاص .(٢)

– ويلتقى جبران فى بعض نظراته للوجود مع المدرسة الأيلية وفيلسوفهم " بارمينودس " الذين يرون أن أصل الوجود هو الوجود نفسه .

ويظهر اتجاهه إلى استقلال الشخصية الفردية مع اقتناعه بوحدة الوجود فى حديثه عن الزواج : يقول المصطفى مجيبا على سؤلا " الميترا" عن الزواج " لقد ولدتما معا وحقا تظلان الى الأبد ، و ها تكونان حينما تبدد أيامكما أجنحة الموت الشهباء . نعم تظلان معا حتى فى ذاكرة الله الكتوم . ولكن دعا الفسحات تفصل بين التصاقيكما ، ودعا رياح السموات ترقص بينكما .(٢)

ويفسر د / ثروت عكاشه فى كتابه بأن ذلك يرجع إلى تأثره بشخصية (بليك) وبقراءاته لنيتشه فى قلب مدنية سريعة سطحية لا تعرف معنى التمهل أو الاسترخاء أو الاستيعاب يقول :

" لعل ذلك كله دفعه إلى هذه المحاولة البارعة فى تحليل سر الوجود وحمل الناس على فهمه والوقوف عليه " (٣)

وهو فى كتاب النبى يفسر مظاهر الوجود ويعلن موقفه حيث يتكلم عن الأشياء التى توطد علاقة الإنسان بالإنسان مثل الحب . الزواج . الأطفال . العطاء المأكل والمشرب ، العمل . الحزن والفرح ، البيوت والثياب ، البيع والشراء .

وفى أكثر من موضع يوضح نعيمه هذا المعتقد . فهو فى كتابه " المراحل " يقول على لسان الغراب محددا معالم الإنسان الإله " أما إذا سمعتم إنسانا يقول " أنا " وعرفتم أنه يعنى نفسه والغراب كذلك . وكل مافى العالم الذى لابداية له ولانهاية فخروا أمامه ساجدين ذلك الإنسان " إله " " (٤)

---

(١) جبران النبى

(٢) السابق ١٦ .

(٣) السابق .

(٤) م . نعيمة المراحل ص ١٣٩ .

وفى كتابة زاد المعاد . يشير إلى هذا المعتقد ولكنه يناقض نفسه حين يمزج الله بالإنسان ثم يقول إن ذلك الإله سيقيم له من سلالة آدم أنبياء ، وذلك حين يقول لصاحبه " لكن سيأتيك زمان .. وهو آت كل إنسان – فيه تسلك حتى النهاية سبيل النشوة الروحية ، سبيل الذين يرون رؤى ، سبيل الأنبياء .. لأن الله الذى هو أنت وأنا وكل إنسان له من سلالة آدم سلالة أنبياء بلى وأكثر من أنبياء . (١)

– وواضح مدى التخبط فى هذه الفلسفة لأن الإنسان خليفة الله فى أرضه وآثار الله تحل فى خلقه وليس هو لأنه منزه عن التجسيد والآنية والمكانية والزمانية .

وتملك هذه الفلسفة على نعيمة أقطار نفسه فيحاول أن يبرهن على صحة معتقده ، موضحا أن الإنسان لو لم يكن إلها لما استطاع أن يعرف الله ويقول : كيف للباطل أن يعرف الحق ؟ أم كيف للمتناهى أن يستوعب اللا متناهى ؟ .

إنما النور وحده يفهم النور . والحق وحده يعرف الحق . واللامتناهى يستوعب اللامتناهى انما الله وحده يستطيع أن يعرف الله .

هو الإله الكائن فى الأنبياء الذى عرف وكشف إله الأنبياء . وهو ذلك الإله نفسه الكائن فى كل إنسان الذى فى قدرته أن يعرف الله فى كل شىء وفى كل إنسان . (٢)

ولعل نعيمة شعر بعدم قدرته على تثبيت دعائم هذه الفكرة وهى ألوهية الإنسان وأحس بالتناقض فى دفاعه عن فكرته . فخفف من كثافتها . واتجه إلى الإيمان المطلق بإرادة الإنسان وإيمانه هذا يرتبط بفكرته السابقة . ولكن البون شاسع بين من يؤمن بقدرة الإنسان وبين من يقول عنه أنه إله يقول " وذلك هو العدل كل العدل " أن يكون ثوابى فى يدى ، وعقابى فى يدى، فلا أعاتب الله ، ولا الدهر ، ولا الطبيعة ، ولا أى إنسان فيما يصيبنى من وجع فأنا قضاء نفسى . وأنا قدره . وأنا السبب الأول والأخير فى كل ما بينى وبين الناس من تفاوت فى الحظوظ .(٣)

وهو يصرح بهذا التراجع بصورة أوضح فى كتابه اليوم الأخير . وهو من الكتب التى

(١) م نعيمة : زاد المعاد ص ١٤٢ .
(٢) م . نعيمة زاد المعاد ص ١٣٧ .
(٣) م . نعيمة اليوم الأخير ص ١٥٦ .

تمثل الحلقات الأخيرة فى تفكير نعيمة يقول " إننى أحسه ولا أعيه ذلك " المجهول " هو الواحد الأحد الذى دعاه الأقدمون " الله " والإنسان هو أتم صورة له على الأرض ولكنها صورة ما تزال في طور " التطهير " وتطهيرها لا يجرى اعتباطا ، أو كيفما اتفق . بل هو يتبع نظاما دقيقا ومحكما وصارما إلى أقصى الحدود .(١)

– وبهذا يقترب نعيمة من الواقع الذى لا يستطيع أحد بعده أن يتهمه فى صحة تفكيره وفى تأكيد امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية منافاة أصلية لقاعدة الوحدانية التى قام عليها الإسلام .

ومن ينادون بفلسفة الاتحاد فى التصوف الإسلامى لا يقصدون فناء الشخصية فى المحبوب حتى لم يعد لها وجود . بل مثلها مثل القطرة فى المحيط فكما أن قطرة المطر تسقط فى المحيط فلا يقال إنها فنيت ، بل ليس لها وجود منفصل ، فكذلك الروح المتجوهرة لا يمكن تميزها من الألوهية الشاملة .

ويتفرع عن مذهب " وحدة الوجود " بعيدا عن فكرة " الإنسان " الإله " التى تراجع نعيمه عنها عدة أفكار وجودية منها .

أ – تتلاشى عنده حدود الزمان والمكان ، والمسافات الفاصلة بين جزيئات الوجود . فكل شىء ابن اللحظة . وهو فى هذا يلتقى مع جبران فليست هناك توقيتات معينة وإنما فى كل لحظة تتجمع الآزال والآباد . وفى كل بقعة من الأرض تتجمع الأرض كلها كما تجتمع مياه البحار فى القطرة الواحدة من الماء يقول :

" والخيال الذى يطوى كل الزمان فى " الآن " ويحشر كل المكان فى " هنا " لا يبصرشيئا من هذا التفاوت . (٢)

ب – والكون يسير بحركة كليه شمولية فأصغر ما فى الحياة فيه سر أكبر ما فيها يقول :

" فإذا ما أكلتم ثمرة فكأنكم أدخلتم إلى جوفكم الحياة بأسرها . لأن كل مافى الحياة قد تعاون في تكوين تلك الثمرة . إذا ماصافحتم إنسانا فكأنكم صافحتم كل إنسان من

---

(١) السابق ص ١٠٠ .

(٢) م . نعيمه زاد المعاد ص ١٥ .

آدم حتى آخر آدمي يمشي على سطح الأرض لأن كل إنسان يحمل في نفسه كل الناس " (١)

وهو في هذا الاتجاه يلتقي مع أبي ماضي . في " الحجر الصغير " ومع جبران في فلسفته التي تعطي لكل شيء أهمية في الوجود مهما قل حجمه . والثقافة العلمية تؤازرهم في إعطاء أفكارهم قيمة موضوعية . فالنواة هي أصل الخلية ، والخلية منها يتكون مجموع الكائن أي كائن والكائن رمز الوجود . والوجود هو الكائن .

يقول نعيمه " إن أصغر ما في الحياة يتمم أكبر مافيها . وإن أكبر ما فيها يخدم أصغر مافيها فلا الجبل أفضل من ذرة الرمل ولا الثور أعظم من الضفدع . ولا الثمرة أثمن من الحطبة ولا الزهرة أقدس وأجمل من الشوكة .(٢)

ونجد هذا الاتجاه نفسه عند أبي ماضي في قصيدته " الطين " وقصيدته " الأسطورة الأزلية ، وقصيدته " الحجر الصغير " .

جـ - والخيال إكسير الوجود . أما العقل والحواس وحدها فلا يرى فيهما نعيمه إلا الشقاء للبشرية إذا هي ظلت ملقية إليها قيادها . فالخيال في نظره يهتك حجاب المجهول وينفذ إلي صميم الأشياء . ويهزأ بالمسافات والحدود والأعمار وجعل أول مقاله له بكتابه " زاد المعاد" بعنوان " الخيال " وعرف الخيال بأنه " هو مقدرتكم أن تبصـروا وأجفـانكم مغمضة ؟ وتسمعوا وآذانكم مسدودة ، وتشموا وفي أنوفكم سطام ، وتذوقوا وألسنتكم في غلاف ، وتلمسوا وأياديكم مشلولة . هو مقدرتكم أن تدركوا حدود الحواس الخارجية فتجعلوا منها عبارة تجتازون بواسطتها إلى حيث لا حدود " .

أما العقل الذي يغالي الناس في تكريمه فليس سوى ولد جموح يقوده الخيال من أنفه ولكن قلما يمشي به بعيدا . فاحذروا من أن تلقوا كل اتكالكم عليه ، أو ما ترونه يجهد ذاته بغير انقطاع ، بغير جدوى ، في تفهم أسرار الكون .

وهو ما يزال في جهده كالولد الذي أعطيتموه أكداسا من الوريقات الملونة وأمرتموه أن

---

(١) السابق ص ٥٣ .

(٢) م . نعيمه : زاد المعاد ص ٢٢ .

يركب منها صورة حيوان أو إنسان . (١)

٢ - تناسخ الأرواح :

ويرجع اعتقادهم فى تناسخ الأرواح إلى التأثر بفلسفات قديمة وبخاصة فلسفة الهنود والفرس . فقد استقرت فى فارس منذ القدم مذاهب التجسيد والتشبيه والتناسخ ولهذه الفلسفة أيضا بذورها فى التصوف الإسلامى ويمكن أن نطلق عليها فلسفة الترقى فى سبيل الاتحاد عن طريق التناسخ من أجل البقاء ولنسمع جلال الدين الرومى يحكى قصة التحول فى سبيل البقاء .

مـــت معـــدنا وصـــرت نبـــاتا
ومـــت نبـــاتا فنهضـــت حيـــوانا
ومـــت حيـــوانا وكـــنت إنســـانا
ولـــم أخـــاف ؟ ومتـــى انقضـــى المـــوت ؟
ســوف يموت منى الإنسان لأخلق مع الملائكة المقربين
بـــل ســـأدع الملائكيـــة . (٢)

وظهرت آثار هذه الفلسفة فى كتاب " حديقة النبى " لجبران . وذلك فى حديث المصطفى لحواريه عن الوجود : يقول جبران .

" وبعد برهة سأله حوارى وقال حدثنا عن الوجود أيها السيد . وكيف تكون الكائنات ؟

ونظر إليه المصطفى مليا ، وفاض قلبه بحبه ثم نهض وسار بعيدا عنهم وعندما عاد قال : فى هذه الحديقة يرقد أبى وترقد أمى ، وقد وسدتهما الثرى أيدى الأحياء . وفى هذه الحديقة تغيب بذور السنة الماضية حملتها إلى هنا أجنحة الريح ولسوف يرقد فى الثرى ألف مرة جثمان أبى وجثمان أمى ، وألف مرة ستوارى الريح البذور ولسوف نقبل معا بعد ألف عام . وأنا وأنتم وهذه الزهرات إلى هذه الحديقة كما هى حالنا الآن وسنكون من عشاق الأرض ، وسنكون من الصاعدين إلى السماء .(٣)

---

(١) م . نعيمة : زاد المعاد ص ٩ .
(٢) أ . رنيكلسون : الصوفية فى الإسلام ص ١٥٨ .
(٣) جبران : حديقة النبى ص ٩١ .

وظهرت فى قصص جبران آثار هذه الفلسفة .. ومنها قصة " الشاعر البعلبكى " و " البنفسجة الطموح " ومسرحية " إرم ذات العماد " ، وقصة " رماد الأجيال والنار الخالدة " ، وقصة الشيطان " (١)

والسبب المباشر فى اتجاه نعيمه إلى هذه الفلسفة هو اشتراكه فى جمعية أمريكية حين ذهب إلى أمريكا كانت تدعو إلى مذهب التقمص وتناسخ الأرواح .

وعبر عن معتقده هذا فى كتاباته الكثيرة . وهو يعطى لفلسفته قيمة علمية تجريبية توقعه فى شرك الماديين وهو الذى يحارب الهياكل ويدعو إلى تقديس الروح والخيال يقول فى مقالته " مهماز البقاء " (٢) من منا إذا عن له يوما أن يحلل نفسه نظير ما يحلل الكيميائى مركبا كيميائيا تمكن من أن يرد أعصابه وعظامه ولحمه ودمه إلى مصادرها ؟ أليست أجسادنا تتكون من جسد الكون ، وتتغذى به لتعود فتساعد فى تكوينه وتغذيته ؟ وفى مقالته " طائر الفينكس " أسطورة الحياة المثلى .(٣) يؤكد فلسفته ويعتمد على الأسطورة لإعطاء فلسفته قيمة أدبية وعلمية عالية . ويقول : فالروح تبقى كامنة فى الرماد لتعود من جديد فى صورة " فينكس آخر " ونعيمه فى هذه المقالة يوافق النظرية الفلسفية القائلة بأن أصل العالم هو النار وهى نظرية " هير قليطس " .

والنار التى يقصدها نعيمه هى روح طائر الفينكس يقول نعيمه : إن الموت والحياة لأن مصدرهما واحد . وهو الروح المرموز إليه بالنار . فالنار أبدا هى التى تلتهم الأشياء ثم تكثرها وتنوعها ، لكنها لا تلتهم ولا تكثر أو تنوع ذاتها هى النار – أو الروح – تلك الحياة الأولية التى يدعونها العلم الحديث – الطاقة – تنظم ذرات الأشياء على اختلاف أنواعها ثم تنشرها فهى متغلغلة فى كل شىء .

وهى عندما تلتهم شيئا ترده إلى عناصرها الأصلية . فلا تتلاشى بل تنعتق من سجنها الوقتى . وهكذا عندما يحرق الفينكس نفسه لا " يموت " حتى لحظة واحدة لأن النار التى هى روحه تبقى كامنة فى رماده .

وهى التى تعود فتجمع ذراته من جديد فتكون منها فينكسا آخر جديدا فهو وإن بدل

(١) فى كتاب : مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر » للمؤلف تحليل لهذه القصص وبيان لأهم القضايا التى تثيرها .

(٢) م . نعيمة : صوت العالم ص ٢٩ .

(٣) السابق ص ٩٦ .

جسده مرة فى كل خمسمائة سنة لا يبدل الروح التى لا يطرأ عليها انقطاع أو تغيير (١) .. وطائر الفينكس يضيف رافدا جديدا إلى روافد نعيمه الثقافية وهو اطلاعه على فلسفة القدماء المصريين وآدابهم ، ويقول مشيدا بهم لا جدال فى أن سواد الشعب المصرى القديم كان يتخذ الشمس معبودا له أما مؤلفو كتاب الموتى وشائدو الأهرام وخالق أبى الهول وإيزيس وأوزوريس وأسرارهما ، ومعلموا ديمقريط وفيثاغورس وأفلاطون . فكيف تصدق أنهم كانوا يتعبدون جرما سماويا مهما عظم ذلك الجرم وعجب وهم قد رادوا الفضاء واكتشفوا النجوم .(٢)

وفى كتابه المراحل قصتان تشيران إلى معتقده فى التناسخ أو التقمص وهما "الانتحار ، وحبتان من القمح . (٣) .. وفى كتاب " اليوم الأخير " (٤)

يوضح نعيمه معتقده فى التناسخ بصورة جديدة فيطلق عليه تجدد الشخصية .. وهى أنّ الإنسان يعيش أكثر من حياة . وكل حياة يعاقب فيها على ماقدمه فى حياته السابقة . ويرفض فكرة الموت مرة واحدة ثم البعث للحساب . ويقول من تتجدد شخصيته مرة واحدة فهى قابلة للتجديد أكثر من مرة . ويميل إلى الافتراض الثانى . وكعادته لم يدلل على افتراضه . ففقدت نظريته منطق الثبات والاقناع .

وتظهر آثار هذه الفلسفة فى أشعار أبى ماضى . فهو يخاطب زوجته " دوروثى " فى قصيدته " الدمعة الخرساء " (٥) حين قالت " أنموت وتنقضى أحلامنا .. فى لحظة وإلى التراب نصير . يقول :

فـأجبـتـهـا لتكـن لـديـدان الثـرى ... أجـسامنـا إن الـجسـوم قشـورُ
فـاذا طوتنـا الأرض عـن أزهـارهـا ... وخـلا الدجـى مـن وفيـه بـدورُ
فستـرجـعـين خميـلـة معطـارة ... أنـا فـى ذراهـا بلبـل مسحـورُ
أوجَـدْولا متـرقـرقـا متـرنمـا ... أنـا فيـه مـوج ضاحـك وخريـرُ
أو تـرجعـين فـراشـة خطـارة ... أنـا فـى جناحيهـا الضحـى المنشـورُ
أو نسمـة أنـا همسهـا وحفيفـهـا ... أبـدا تُـطُـوفُ فى الربـا وتـدورُ
أو نلتقـى عنـد الكثيـب علـى رضـى ... وقناعـة : صفصافـة وغديـرُ

(١) السابق ص ١١١ .
(٢) السابق ص ١١٠
(٣) م . نعيمة : المراحل ص ١١٢ - ١٢٥ .
(٤) أنظر تحليل رواية اليوم الأخير فى كتابنا « مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر »
(٥) إيليا أبو ماضى : الجداول ص ١٧٨ .

ومن الغريب أن أبا ماضى يعد هذه الفلسفة من باب الوهم والتخدير لمشاعر زوجته حتى لا تصدمها الحقيقة المرة حقيقة الموت والفراق الأبدى .

فبعد أن يمنيها بأنهما سيرجعان ويتقمصان الكائنات الطبيعية : يقول :

فتبسمت وبدا الرضا فى وجهها ... إذ راقها التمثيل والتصويرُ
عالجتها بالوهم وهى قريرة ... ولكم أفاد الموجع التخديرُ

لكنه فى قصيدة " قطرة الطل " (١) يؤكد هذا المعتقد فى التقمص والتناسخ فيقول :

إن تر زهرة ورد ... فوقها للطل قطره
فتأملها كلغز ... غامض تجهل سره
ولتكن عيناك كفًّا ... وليكن لمسك نظره
ليست الحمراء جمره ... لا ولا البيضاء دُرَّة

* *

رب روح مثل روحى ... عافت الدنيا المضره
فارتقت فى الجو تبغى ... منزلا فوق المجره
علها تحيا قليلا ... فى الفضاء الحر حره
ذرفتها مقلة الظلماء عند الفجر قطره

* *

وفى قصيدته " لم يهدم الموت إلاّ هيكل الطين " .(٢) التى يرثى بها صديقه الشاعر نسيب عريضه يؤكد إيمانه بهذه الفلسفة ويقول :

لسوف يرجع عطرا فى الرياحين ... أو نسمة تتهادى فى البساتين
أو بسمة فى ثغور الخُرَّد العين ... فالموت ما هو إلا هيكل الطين

" لا تحزنوا . فنسيب غائب حاضر "

---
(١) السابق ص ٩
(٢) إيليا أبو ماضى : تبر وتراب ص ١٩٤ .

والشاعر رياض المعلوف يؤمن بهذه الفلسفة ويعترف بهذا فى رسالة أرسلها إلىّ مجيبا عن سؤال وجهته إليه قائلا له : الوجود : مارأيكم فى بدايته ونهايته . وفلسفة التقمص والتناسخ ووحدة الوجود ؟ .. وكانت هذه إجابته :

جـ - لا بداية ولا نهاية للوجود .

ويجوز أن تتقمص الروح بشخص آخر أو بنبتة فى النبات فإذا كان ذلك ممكنا فأود أن تتقمص روحى بشاعر إنسانى جديد يولد مكانى ويفوقنى شاعرية وإنسانية !

فإذا صعب ذلك فأتمنى أن تنبت فى روح تضمخ الجو بعطرها الشذى !!

والوجود يتحمله الإنسان مرغما . شاء أم أبى ! لأنه لم يخير فى وجوده وكيانه ! وهو مرغم على ما يحصل له في أكثر الأحايين . فوجود الإنسان والأقدار والأعمار كلها بيد الله عز وجل .

- والوجودية العصرية هى التعبير الحسى والعملى عما يكمن فى عقل الإنسان وباطنه من كبت وتحفظات وتقاليد ، فيفعل هكذا ما يروقه له دون أى تحفظ أو خوف من الملامة !

ورائد الوجودية الحديثة جان بول سارتر " اتخذ من الوجودية بدعة اشتهر بها وأصبح له فيها اتباع حقق لهم بها انتفاضة على التقاليد والحياء والخوف والحذر من تصرفات الإنسان الوجودى حتى الشاذة منها فوجدوا فى الوجودية علة وجودهم ، وزيا جديدا يرفهون به عن نفوسهم وأجسامهم المتعبة من أعباء الحياة اليومية الرتيبة !!

وكل انسان صريح للغاية هو وجودى النزعة .

زحلة - لبنان ١٩ يناير ١٩٧٨ رياض المعلوف (١)

٣ - الثنائية :

واعتقد المهجريون بثنائية الوجود فالشر والخير ممتزجان فيه فليس خيرا كله وليس شرا كله . وفى نتاجهم تتضح هذه الفلسفة حتى فى طريقة الأداء فهم مولعون بالمقابلات اللفظية والمعنوية والمساواة بين الأضداد وكأنهم بذلك يوحون إلى القارىء والسامع بأن الوجود مبنى

(١) من رسالة أرسلها الشاعر إلى فى ١٩ من يناير ١٩٧٨ م

على هذا الأساس : فما القصائد إلا تصوير لمتناقضات الوجود ورصد لواقعه وتحركاته .

* *

فقصائد نعيمه " الخير والشر" والعراك ، و " يابحر " (١) وغيرها من القصائد تمثل هذا المعتقد . وقد مر نعيمه بثلاث مراحل هى مرحلة القلق وعدم وضوح الرؤية ثم مرحلة الجيشان العاطفى ثم مرحلة الصراع والاعتقاد في الازدواج والثنائية فهو فى قصيدة " يابحر " يستدرج البحر بتساؤلاته السقراطية ويبثه مشاعره وأفكاره ومن خلال الارتباط بينه وبين الطبيعة يأتى الحل فى نهاية القصيدة بعد أن أخذت الخط الدرامى العضوى المتنامى والنهج القصصى ، وعندما تبلغ الدراما قمتها يأتى الصباح رمزا للحل الفكرى .

يقول معلنا تناقض الكون وازدواج الوجود وثنائيته . فالإنسان روح وجسد وفى الناس خير وشر والكون طيٌّ ونَشْرُ .

يـا بحر .. يابحر قل لي   هل فيك خير وشرٌّ ؟
وقفت والليل داج   والبحر كرٌّ وفرٌّ
فلم يجبني بحر   ولم يجبني برٌّ
وعندما شاب ليلي   وكحل الأفق فجر
سمعت نهرا يغني   الكون طيٌّ ونَشْرُ
في الناس خير وشر   في البحر مدٌّ وجزر (٢)

وامتدادا لفكرته فى تجدد الشخصية يعتقد أنه يحيا كل يوم حياة جديدة ، وسكرة الموت كذلك تغشاه كل يومْ وضباب الشك يعذبه " أحيانا " وهو يعاني من الازدواج الداخلى والانقسام النفسى والصراع بين التسليم والعناد فالكون أسراره ومبعث همه . (٣) .. ويقول فى خطابه للدودة .

---

(١) همس الجفون ص ٦٤ – ٩٦ – ٩٧ .
(٢) م . نعيمة : همس الجفون ص ٩٧ .
(٣) أنظر مذكرات الأرقش ص ١٢٤ للوقوف على مزيد من الأحداث التى توضح هذه الفكرة .

ولولا ضبـاب الشـك يـا دودة الثـرى لكنـت ألاقى فـى دبيبـك إيمـانـى
لك الأرض مهـد والسـمـاء مـظـلـة ولـى فيهمـا من ضيـق فكرى سجنـان
ففـى داخـلى ضـدّان قلـب مسلـم وفكـر عنيـد بالتسـاؤل أضنـانـى
لعمـرك يا أختـاه مافـى حياتنا مـراتب قـدر أو تفـاوت أثمان (١)

وفى قصيدتة " لو تدرك الأشواك " يبدو هذا الإحساس واضحا : الموت والحياة فى آن واحد ، فهو يخاطب من يبكى على فقيده بين القبور ويؤكد له أن حزنه مؤقت أما هو ففى كل يوم يدفن حبيبا :

لكـن غـدا تنسـاه أمـا أنـا ففـى حياتـى كـل يـوم دفـين
إذ أننـى أجتـث زاد البـلـى منـى وكـم يبلـى رجـاء ثمـين
فـى لحظـة من عيشنـا الفـانى (٢)

ويلتقى الماضى بالحاضر بالغد فى صورة السنة المقبلة التى تختفى فيها الأزمان والآماد والناس فى أسرارها حائرون . يقول : إلى سنة مقبلة .

مـا أنت فـى سفـر الزمـان العظيـم
إلا صـدى الماضـى وصـوت الغـد
فيـك استـوى مـن قبل أن تولدى
قطبـا حيـاة نحـن فيهـا نهيـم
لاجـوعهـا يشبـع
لاموتهـا يهجـع
لاطامعـا يقنـع
فيهـا ولا الزاهـدون
النـاس فـى أسـرارها حائـرون
والسـر لـو يـدرون فيهـا مقيم (٣)

---

(١) م نعيمة : همس الجفون ص ٨٣ .
(٢) السابق ص ٢٨ .
(٣) السابق ص ٢٧ .

والموت عند نعيمه وجه الحياة الآخر .. فهو يصور اللحد بأنه مهد الحياة قائلا فى تفاؤل غريب :

وعندما الموت يدنو واللحد يفغر فاه
أغمض جفونك تبصر فى اللحد مهد الحياة (١)

وأسطورة " الحكاية لأزلية "(٢) عند أبى ماضى تمثل هذه الظاهرة ولكن أبا ماضى لا يدعو إليها ولا يتحمس لها ولكن يريد تحطيمها . فالجمال والقبح . والخير والشر ، والكمال والنقص والشوك والزهر ، . كلها أسماء وضعها الإنسان ليعرف الواحد منها بالآخر ولكن لا وجود إلا لصفحة واحدة منها على الأرض إذ تمحى مشكلة الصراع بين الثنويات "(٣) .

وأبو ماضى كثيرا ما يناقض نفسه .. فبينما هو فى الأسطورة الأزلية يدعو إلى " تحطيم الثنائية " إذا به فى " الطلاسم " يقرها فى نفسه لكن لا يعرف حقيقتها ويبدو أنه متأثر بنعيمه فى قصيدته " الشيطان والملاك " إنه يتساءل عن مصدر الأفكار والخواطر التى تعتلج فى عقول البشر وضمائرهم فلا يجد جوابا ويرى ما يقوم فى نفسه من صراع بين الخير والشر أو بين الملاك والشيطان كما يقول وما يدفع إليه كل منهما من لذة أو عفة . من سعادة أو شقاء ، من اشتهاء أو كراهية . من حب أو بغض من حسن أو قبح ، وهو يقابل بين المظاهر السابقة جميعا لكنه – لا يهتدى من مقابلاته إلى شىء يبدد حيرته .

يقول :

إننى أشهد فى النفس صراعا وعراكا
وأرى ذاتى شيطانا وأحيانا ملاكا
هل أنا شخصان يأبى ذاك مع هذا اشتراكا
أم ترانى واهما فيما أراه ؟ لست أدرى .(٤)

وقد دفع الإحساس بالثنائية جبران إلى التمرد على الوجود الخارجى المحس والثورة على أوضاعه ولذلك نشتم رائحة الغربة والحنين الدائم إلى المثالية عند جبران وكان فى قلبه فراغ لم يملأه بخور المعجبين ، ووحشة لم تؤنسها طيوف الشهرة يقول :

---

(١) السابق ص ٩ .
(٢) أبو ماضى : الخمائل ص ٢٢٢ .
(٣) د / إحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ٥١ .
(٤) أبو ماضى : الجداول ص ١٦٣ .

" أنا غريب فى هذا العالم ، وفى الغربة وحشة موجعة تجعلنى أفكر بوطن سحرى لا أعرفه وتملأ أحلامى أشباح أرض قصية ما رأتها عينى " ، وشعوره بالغربة وتمرده على وجوده كانتا بذرتين خفيتين أينعتا فى وجدانه وأثمرتا ورأيناه يبدع فى قصيدته " البلاد المحجوبة " و" المواكب " .

فالبلاد المحجوبة تقوم على الثنائية إنها نور ونار ، والمواكب مبنية على الصراع بين حياة المدينة وحياة الغاب ، بين الفتى والشيخ .. ولا شك أن هذا التناقض صورة لنفسية جبران المتصارعة ولإحساسه الباطنى دور فى إنتاجه مثل هاتين القصيدتين وغيرها " فإن كثيرا من الدوافع النفسية التى تدفع الإنسان إلى النتاج الفنى بوجه عام والأدبى بوجه خاص ، مرده إلى النزعات الباطنية المكبوتة التى تؤثر فى الحياة الشعورية تأثيراً لا يشعر به الإنسان .

فإن العقل الباطن ليس خامدا هامدا ، ولكنه يقظ فعال ، يؤثر فى حياة الإنسان العقلية دون شعور منه ، وبخاصة مايسمى بالعقد النفسية وقد برهن علم التحليل النفسانى على أن هذه العقد تتكون فى العقل الباطن منذ الطفولة الأولى وتبقى كامنة فيه لا يشعر الإنسان بها حتى فى عهد الكبر ، ولكنها تعمل عملها البعيد الأثر فى حياته دون شعور أو قصد منه ، وقد يكون لبعضها تأثير خاص فى النتاج الفنى (١)

وشعوره بالغربة فى بلاده المحجوبة والتمرد على المجتمع المادى والحضارة المزيفة فى " المواكب " مرده إلى هذا الأثر النفسى الذى نشأ من إحساس جبران بثنائية نفسه وازدواج العالم الخارجى من حوله .

يقول : فى البلاد المحبوبة محددا مكان هذا الوجود .. الحلْم

يـا بـلاد الفكـر يـا مهد الألى ... عبدوا الحق وصلوا للجمالْ
ما طلبناك بركب أو علـى ... متن سفن أو بخيل أو رجال
لستِ فى الشرق ولا الغرب ولا ... فى جنوب الأرض أو نحو الشمال
لستِ فى الجو ولا تحت البحارْ ... لستِ فى السهل ولا الوعر الحرج
أنتِ فى الأرواح أنوار ونارْ ... أنتِ فى صدرى فؤاد يختلج (٢)

---

(١) حامد عبد القادر : دراسات فى علم النفس الأدبى ص ٢١ .

(٢) جبران البدائع والطرائف ص ٩٥ .

وقصيدة " المواكب " كما يفهم من ظاهرها قصيدة اجتماعية .

ولكن حينما نتأملها ونعرف رسالة جبران الإصلاحية نصل إلى عمقها الحقيقى وهو التأمل فى جوهر الوجود .

والمعنى الظاهرى يأتى على لسان الشيخ فى صورة هتاف اليأس من حياة المدينة والمعنى العميق يتغلغل فى روح الفتى العارى الخارج من الغاب يعزف على نايه بمرح ونشوة فهو يرمز إلى وجه الوجود المتجرد من كل الأقنعة التى تكشف عن سر المعرفة الحقيقية إلى الجمال المطلق .

وقد آمن أبو ماضى فى فترة من حياته بالوجود المادى حيث ربط وجود الروح بوجود الجسد وفناءها بفنائه وحسب الخلد من الأوهام الزائفة وهو بذلك ينفى عقيدة التناسخ التى نادى بها نعيمه وجبران ومن حذا حذوهما من المهجريين .

وقد جاء بشعر مباشر تقريرى وقد ناقش هذه القضية مناقشة عقلية بعدت بها عن روح الشعر يقول .

غلط القائل إنا خالدون ... كلنا بعد الردى هيٌّ بن بيّ

فمن الزور الموشى والفند ... قولنا الأرواح ليست تصرع

لم تكن موجودة قبل وجد ... ولهذا حين يمضى تتبعُ

تلبث الأفياء مادامت غصون ... فاذا ما ذهبت لم يبق فيّ

والشاعر هنا يأتى بتشبيه ضمنى فى البيت الأخير ويريد أن يقول إن الأجساد كالغصون والأرواح كالظلال .. فإذا ما قطعت الغصون هل تبقى الظلال ؟ . ومعنى هذا أن الروح بمثابة الظل للجسد . والحق أن الروح هى الأصل والجسد هو الطارىء عليها فالروح تهبه الحياة وعندما تفارقه يفقدها .. وعن معتقد أبى ماضى يقول جورج صيدح " إنه قول لا يخلو من شطط " (١)

– وكما أن تناسخ الأرواح لا يتفق مع العقيدة الإسلامية كذلك القول بفناء الروح عندما يفنى الجسد مرفوض أيضا لأن الروح موجودة قبل الجسم وتبقى بعد فنائه وتحول أبو ماضى بعد ذلك عن هذا الرأى وآمن ببقاء الروح لأنها الجزء الباقى فى الإنسان فقال لزوجته مقرا

(١) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ص ٢٢٢ .

بالبعث .

لا تجزعي فالموت ليس يضيرنا	فلنا إياب بعده ونشورُ
إنا سنبقى بعد أن يمضي الورى	ويزول هذا العالم المنظورُ

* *

— ٤ —

الاندماج الكلي في الوجود وبثة الشكاة والأحزان أو اتخاذه نموذجا للمساواة المطلقة والأخوة الإنسانية .

— " فايليا أبو ماضي " ينظر إلى الوجود نظرة كلية ، ويندمج في مشاهده الخارجية ويعبر المسافة التي تفصله عنه .. لينفذ إلى صميم فكرته ، ويتوصل إلى الأسرار الكامنة داخل الوجود فهو كالراهب والصوفي حين يتصور أن الليل راهبه ، والشهب شموعه ، والأرض محرابه ، والفضاء كتابه ، وصلاته ما تقول السواقي ، وغناؤه صوت الصبا في الغاب ، ويد السماء تكحل جفونه ، وأحلامها تعانق أهدابه ، وفم الصباح يقبل جبينه ، وأريجه يعطر جلبابه .

وكتابي الفضاء أقرأ فيه	صورا ما قرأتها في كتاب
وصلاتي الذي تقول السواقي	وغنائي صوت الصبا في الغاب
ولتكحل يد السماء جفوني	ولتعانق أحلامها أهدابي
وليقبل فم الصباح جبيني	وليعطر أريجه جلبابي
إنما نفسي التي ملت العمران	ملت في الغاب صمت الغاب (١)

والوجود الإنساني هو الألف والياء في أدب جبران ، وهو الحقل الذي يغرس فيه عصارة روحه وشعوره وفيض عقله وخياله . (٢)

حيث يعتقد أن كل إنسان أخوه في رابطة الإنسانية أو صورة في محيط الوجود الذي لا ينفصل ، وذلك لأن المحبة هي ربه ومعلمه على كل حال . (٣)

---

(١) إيليا أبو ماضي : الجداول ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) عيسى الناعوري : أدب المهجر ص ٣٥٧ .
(٣) السابق ص ٣٥٦ .

ويتطورهذا الإحساس عند جبران إلى الذوبان فى مظاهره الكونية فالبذور هى الغابات – والدود ربما يصير ملائكة ، والمسافة الشاسعة بين هذا التحول هى اللحظة . فالوجود لحظة ، والسنون لحظة .

يقول على لسان المصطفى " أقبض قبضة من هذا الثرى الطيب . ألست تجد فيها بـذرة ، وربما دودة ، لو أن راحتك من الرحابة والاحتمال بمكان فلربما غدت فيها البذرة غابة ، ولربما أصبحت الدودة جمعا من الملائكة .

ألا لا يغيبن عنك أن السنين التى تجعل من البذور غابات وتحيل الدود إلى ملائكة هى بنت اللحظة . والسنون كلها هى اللحظة ذاتها .

والوجود فى رأى جبران لا يفنى وإنما ينتقل من صورة إلى صورة أخرى فهو يقول " ما كانت حياتنا هباء . أو لم تشيد البروج من عظامنا " (١) .. وهو فى هذه الفكرة متأثر بأبى العلاء المعرى فى قوله :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

و متأثر بالخيام فى فكرته التى نظمها أحمد رامى شعرا :

فامش الهوينا إنّ هذا الثرى من أعين ساحرة الاحوار(٢)

وقادهم هذا الاحساس المتعاطف مع الوجود الإنسانى إلى الشعور بالإشفاق على المحرومين والكادحين .. والنزعة الإنسانية شائعة فى الأدب المهجرى .. شيوعا لا يخفى على دارسى الأدب .ومن الذين أضفوا على نزعتهم الإنسانية مسحة فلسفية نسيب عريضه ، وميخائيل نعيمه ، وجبران وأبى ماضى .

" فنسيب عريضه فى نظرته للوجود يبتعد عن الخوض فى المسائل " الميتافيزيقية ولكنه يعيش مع المحرومين . والفقراء ويتمنى لهم حياة أفضل وهو فى هذا يلتقى مع جبران إلا أن جبران كان يريد الإصلاح ويجد في الوصول إليه وخاصة فى كتابه النبى وحديقة النبى .. أما نسيب فهو يكتفى بالبكاء والنواح ولا يملك غير ذلك وهو فى ذلك متأثر بالرومانتيكية " الغربية بما فيها من تشاؤم وإحباطات وضعف يغمر النفس البشرية . فهو مهما ارتفع إلى النجوم وانبسط على مدى الأفق وغاص إلى أعمق اللجج كما عبر عنه ميخائيل نعيمه لا تغيب عنك عنده تعاسة البشر الموضوع الدائم لشعره .

(١) جبران : رمل وزبد ص ١٥ .
(٢) أحمد رامى : رباعيات الخيام ص ٤٣ .

عـــن فقـــير حاسـد طــير السمـا — عــن طــريد مـالــه العمـر مـقــر
عــن عــذارى بـذلـت أعراضهــا — فـى سبيــل العيــش يابئــس التجــر
بـاطــلاً تَـرْجُـون لَـحْنــا مفرحـا — قطعــت أطــرب أو تــارى العـبــر (١)

وهو يتعاطف مع الباكين على البشر وحالهم .

مــزقـوا قلبـى مـع الباكــين فــى — مأتــم العيــش علـى حـال البشـر (٢)

ويغوص الشاعر فى محيط الأسئلة عن بواطن الوجود وظواهره . وحين لا تهلل القمم للرياح يقول :

لمــاذا تهـب الـريــاح عـلــى — شواهــق ليســت بها حافلــة (٣)

والرياح هنا رمز للوسيلة التى تجرى وراء الأهداف والغايات ولكن لا جدوى والريح التى يهزأ بها الصخر هى التى ستسير السفينة برغم أن البحر زاخر بالموج .

لمــاذا السفينــة تطلــب ريحــا — ومــن تحتهــا أبحـر هائلــة (٤)

وحين يرى ظمأ المرتادين للصحراء يقول متسائلا :

وفــى القفـر عطــشى يريدون مــاء — وريـح السمـوم بـهــم نـازلــه (٥)

ثم يتساءل حين يرى الناس لا يجنون ثمرة من وراء حبهم أو إحساسهم أو عيشهم :

لمــاذا نحــب لمــاذا نحــس ؟ — لمــاذا نعيــش بــلا طائـلــه (٦)

وتصدمه حقيقة الموت المرة فيتساءل عن كثرة النسل إذا كانت فاجعة هكذا فما فائدته :

لمــاذا التنـاسل والنســل يــدرى — بــأن الحيــاة لــه قـاتـلــه(٧)

---

(١) نسيب عريضه : الأرواح الحائره ص ١٧ .
(٢) السابق .
(٣) السابق ص ٤٤ .
(٤) السابق .
(٥) السابق .
(٦) السابق ص ٤٥ .
(٧) السابق .

ويحاو ل أن يجيب على نفسه بسخرية لاذعة :

أكيمـا تـــزيـد المقـابـر رمـســا ونصـغــى إلـــى رنـــة الـثــاكلـــة ؟ (١)

ويصدم بالتناقض الوجودى حيث اللبيب محروم والجاهل فى يسر ورخاء فيعض على قلبه ويهتف من أعماقه :

لـــاذا يفـــوت الأديـــب الـغـنـــى وتحظـــى بــــه فـئـــة جاهلــــه (٢)

وهذا الإحساس تكرار لإحساسات سابقة فقديما قيل :

كـــم عالـــم عـــالم أعــيت مـذاهـبـــه وجـــاهـــل جـــاهـــل تلقـــاه مرزوقـــا

هــــذا الـذى تــرك الأوهـــام حائـــرة وصـــير العالـــم النحـريـر زنـديـقـــا

وميخائيل أحس بهذا الإحساس لكنه حاول أن يقنع نفسه بأن قصره هو قصر أفكاره وأحلامه فهو لا يملك سواه يقول :

لا . لا تـقـــل مـــاراقـنـــى قـصـــرك العالـــى أو انـــى لـم يطـب لـــى هــــواهْ

بـــل إن لــــى يـاصـاح قصـــرا أبـــت نـفســـى بـــأن تلجـــا لقصـــر ســـواه

ذا قصر أفكارى وأحلامى

لا والــــذى الأقـــدار خــــدامــــــه مــافــى فـؤداى غمـــة مـــن غنــــاك

إذ قـــد حبانـــى الحظ بعض الغنـــى يـاصاحبـى مـن غـيـر مـاقـد حبـــاك

فاحشـــد ولا تشفـــق علــى فقـــرى (٣)

وتتردد هذه النغمة فى قصيدة " الطين لايليا أبى ماضى .

* *

ويدافع من الشعور الإنسانى المرهف تجاه الوجود البشرى يؤمن جبران بالمثال العام المطلق . فمعدن الناس واحد . مهما اختلفت نوازعهم وأخبارهم يقول " عندما تبلغ قلب الجياة تجد أنك لست أرفع من المجرمين ولا أدنى من الأنبياء فالناس كلهم فى مرتبة واحدة "

وهو يحن دائما للمجهول والوصول إلى مجاهل الأبد ، لأن فى عالمه غير المنظور أشياء لا ترى ولا تسمع يقول :

---

(١) السابق .

(٢) السابق .

(٣) م نعيمة : همس الجفون ص ٣٣ .

" أشتاق إلى الأبدية لأننى سأجتمع فيها بقصائدى غير المنظومة وبصورتى غير المرسومة .

ويندمج جبران فى الطبيعة ليأخذ منها الأدلة المقنعة التى تبرر موقفه من وحدانية الوجود ، ويأسف لأن الإنسان ليس فى متناوله هذا الدليل العلمى فيقول : إنك لو جلست على السحابة لما رأيت الحد الفاصل بين بلاد وبلاد ، ولا الحجر الفاصل بين حقل وآخر ولكن يا للأسف إنك لن تستطيع أن تجلس على سحابة .

وفى قصصه تتضح هذه النظرة أيضا كقصة " رماد الأجيال والنار الخالدة " وهو أيضا يستشهد بالطبيعة ليبرر موقفه ويصور لنا الموت بأنه حالة عابرة يقول :

ولكن الأجيال التى تمر وتسحق أعمال الإنسان لا تفنى أحلامه ، ولا تضعف عواطفه ، فالأحلام تبقى ببقاء الروح الكلى الخالد . وقد تتوارى حينا وتهجع أونه متشبهة بالشمس عندما يجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح . (١)

– ٥ –

والبحر من الظواهر الطبيعية التى اعتقد بعض المهجريين أنها أصل الوجود ،قد خاطب أبو ماضى البحر فى قصيدته الطلاسم ووازن بينه وبين نفسه ورأى أن البحر يبقى وهو يفنى برغم أنه يمتلك ما لا يمتلكه البحر من الظل والعقل . وهو يلتقى مع نعيمه وجبران فى تصورهما له بصفته ظاهرة وجودية كبرى لكنه لا يصل إلى ما يقترب من اليقين الذى وصل إليه نعيمه من أن البحر هو سر الوجود منه البدء وإليه النهاية وكذلك جبران ولعل تصورهما هذا مستمد من النظرة الفلسفية القديمة التى تقول إن أصل العالم الماء . (٢)

أو أنهما متأثران بالكتب السماوية وفيها ما يوحى بهذه الفكرة .

* *

وامتدادا للبحث عن حقيقة الوجود يتفق جبران مع داروين فى نظريته " النشوء والإرتقاء وهى نظرية تنادى بتطور الحياة وأن أصلها واحد .. وكان الإنسان هو قمة هذا التطور وصورته

(١) جبران : عرائس المروج ص ٩

(٢) أنظر قصيدة نعيمه : نهر يغنى بديوانه همس الجفون ص ١٣٠ وقصيدة جبران البحر ص ١٠٤ بكتابه البدائع والطرائف .

المثلى . وقد ظل داروين من عام ١٨٣١ إلى عام ١٨٥٩ – يتجول على ظهر الباخرة بيجل " حول العالم يجمع الملاحظات وقد رأى أن الحياة تتلون وتتكيف وتغير من تكوينها لتتلاءم مع بيئتها على الدوام .

وقد اعتقد بأن الحياة فى أصلها ذات أب واحد انحدرت عنه كل الأنواع واختلفت لاختلاف بيئاتها .

وقد لقيت هذه النظرية إنكارا ثم قبولا من الأوساط العلمية ولكنها مالبثت أن خفت بريقها فهى مجرد احتمال أو فرض . لا يصل إلى درجة اليقين لأنها لا تعترف إلا بالعنصر المادى وأنكرت " أى تدخل من خارج وأى يد هادية مرشدة ، تقود الحياة وتهديها فى رحلة ملايين السنين . وقالت إنه لا شىء يقود الحياة العمياء سوى مصلحتها الحياتية فى أن تبقى .. وها نحن نرى أن هذا غير صحيح .. وأن النسيج الحى يشف فى كل تفاصيله عن هذه اليد الهادية للخالق المبدع القادر على كل شىء . خالق الأزل الذى يخلق للخلق ويجمل للجمال .(١)

ويبدى جبران وجهة نظره فى تأييد هذه الفكرة حيث أن التطور فى رأيه يكون فى قيم الحياه ومبادئها فهى تتطور من الحسن إلى الأحسن . يقول :

" أنا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء . وفى عرفى أن هذه السنة تتناول بقائليها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة فتنتقل بالأديان والحكومات من الحسن إلى الأحسن انتقالها بالمخلوقات كافة من المناسب إلى الأنسب .

– ٦ –

وقد يتسامى بعضهم فى نظرته للوجود . ويحب الوجود لذات الوجود بعيدا عن أى غرض لأن الأغراض تجعل الإنسان ضعيفا أمام الزمن وقد أفصح عن هذا المعتقد الشاعر إيليا أبو ماضى .

فهو يؤمن بالوجود المطلق المجرد من كل رغبة وعلة . فالرغبات هي التى قهرت الورى وأذلته يقول :

قهر الورى وأذلهم أن الورى	متعلل أو طامع أو مجتدى
جعلوا رغائبهم قياس زمانهم	والدهر أكبر أن يقاس بمقصد
وقتلت فى نفسى الرغائب والمنى	فقهرته بتجردى وتزهدى (٢)

(١) د / مصطفى محمود : لغز الحياة ص ٨٨ .
(٢) أبو ماضى : الجداول ص ٧٩ .

وحينما يقهر أبو ماضى الزمان بتجرده وزهده وسمو نفسه ينطلق من أسر الجسد محلقا بجناحين خفيفين فى دنيا المطلق باحثا عن سر الذات المتوحد ليذوب فى لهيبها المقدس .. يذكرنا هذا الوجد الصوفى بقول جلال الدين الرومى وهو ينأى بنفسه عن عالم المادة ويهمس فى عمق .

يا عجبا أنا عنـــد نفســــــى مجهــــــول
فبـــالـلـه مـــــــاذا أفعـــــــــــل الآن ؟
لا أعظـــــــم الصلـــــــيب ، ولا الهـــلال
ولســــــت مجـــــوسيًا ، ولا يهـــــــوديا

* * *

فـــى مكـــــان مـــــــن وراء المكـــــــان فـــى محـــرم حيـــث لا ظـــــل للـــــــطراق
تــنــزهـــت روحــــــى واســتـعـلــــــت فعشت فى روح محبوبى الواحد من جديد[١]

– ٧ –

الحيرة الكونية الشاملة أمام مسلمات الوجود وطلاسمه :

– وهذه الحيرة تمثلت فى نتاج أبى ماضى ونسيب عريضه وفوزى المعلوف فالثلاثة يشتركون فى شعور واحد ويجمعهم نسيج واحد هو " الحيرة والبحث عن الحقيقة " إلا أن أبا الماضى أنقذ نفسه باللاأدرية ، وقد يكون هذا منه تجاهل العارف وفوزى عذب نفسه وكواها بنار النقمة على هذا الوجود وانتهى إلى طريقه المسدود وهو الرفض وعدم القدرة على مجابهة الواقع ومسايرة الحياة .

– أما نسيب عريضه فأستطيع أن أقول أنه الحائر الذى لم ينج بنفسه من الحيرة بل ظل غارقا فيها يتساءل إلى أن يصير ترابا ودودا ، لكنه يتلاقى مع فوزى المعلوف فى تشاؤمه المفرط وظروف حياته الصعبة ، والصدمات المتوالية أثرت فى نفسية الشاعر الرقيق فانطبع مزاجه بالتشاؤم وطفح أدبه بالشكوى من الحياة [٢]

– وفى ديوانه الأرواح الحائرة الذى يجمع نحو خمس وتسعين قصيدة " ٩٥ " نرى كلا منها خطوطا بارزة لصورة نفسه الحائرة المتشككة الباحثة عن الكمال والمعرفة خلف حجب

(١) أ . ر نيكلسون : الصوفية فى الإسلام ص ١٥١ .
(٢) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا ص ٥٩٦ .

الحياة والوجود ، وعن السعادة الكبرى فى الاتصال الروحى ولذلك نجد نسيبا دائم البحث عن نفسه وفى زواياها ليهتدى إلى خفايا الوجود الأعظم . (١)

وموقف نسيب من الوجود مرتبط بنفسيته التى أمطرتها السنون بالنوائب ففجع بأخيه " سابا " ثم بأخته " ليويا " وأصبح كالغريق فى لجة الأحزان يستغيث بالحيرة طورا ، ويتعلق بالفلسفة وسيلة للنجاة فتخونه الحيلة فى تفسير التفاوت فى حظوظ البشر ، والخلل الدائم الظاهرى فى نظام الحياة ، وعجز عن فهم حكمة الخالق فى تعذيب خلائقه فاستحوذت عليه وأصبح شاعرها الأول وقد عاش فى حالة حرب دائمة بين كيانه الظاهرى وكيانه الخفى لا تخمد نارها من جانب طريقه حتى تشتعل فى جانب ، وهو يحترق ويصيح :

لمــــــــاذا وقفـــــت بخـــــوف وحيــــره
أيــــــــا نفســــى عنـد الطريق العسيره
ألا امشى فإن الحياة قصيرة .. الا امشـــى (٢)

وهو من أولئك المجاهدين الذين نزحوا إلى العالم الجديد يجاهدون فى سبيل الحياة وفي قسوة تلك المجالدة مالا يترك لهم راحة ولا سبيل إلى الأخذ من لذات الوجود بنصيب .(٣) وايليا أبو ماضى وهو مازال فى سنى حياته الأولى بدأ يتساءل عن أمور الوجود ومسلماته كـيف صار ؟ كيف يمضى ؟ كيف يجىء ؟

ثم يتساءل لماذا جئنا إذا كان الفناء مصيرنا . وإذا كان الخلود في الآخرة فلماذا الموت وما معناه ؟

وأخيرا يسلم الشاعر بكل شىء .. ففكره قاصر عن إدراك أبعاد الجواب يقول :

أفكـــر كيـف جئـت وكيـف أمضـــى	علـى رغمـى فـأعيـا بالـــجــــواب
أتـيـتُ ولـــم أكـــن أدرى مجيـــئى	وأذهـــب غـيـــر دار بـالإيــــــاب
إذا كـــان المصـيـر إلـــى خلـــود	فمـــا مـعـنـى المـنيـة والتبـــــاب
أمـــور لا يـحـيـط بـهـنّ فكـــرٌ	ولـــو أمـــسـى يحيـط بكـل بـــاب

ولاشك أن هذا الشعر لإيليا أبى ماضى يعطينا مفتاحا لشخصية هذا الشاعر وهي أن

(١) الناعورى : أدب المهجر ص ٣١٥ .
(٢) چورج صيدح أدبنا وأدباؤنا ص ٢١٩ .
(٣) د / محمد مندور : فى الميزان الجديد ص ٨٢ .

التأمل فطرة فى قريحته ، وأن هذه الأبيات إرهاص للعمل الأدبى الضخم " الطلاسم " ويدلنا هذا الشعر أيضا على أن الطلاسم التى نشرت بعد عشر سنوات لم تكن نتيجة الإيحاء الخارجي بل وليدة تأملاته الشخصية .(١)

وينتقل أبو ماضى عام ألف وتسعمائة وستة عشر (١٩١٦) إلى نيويورك ويتعرف بجبران ويصدر الجزء الثانى من ديوانه . وتأسر جبران نظرات أبى ماضى ويسحره شعره ، فيكتب مقدمة الديوان ويقول فيهامشيرا إلى نزعة أبى ماضى التأملية فى الوجود ، وخفايا الكون . : فى ديوان أبى ماضى سلالم بين المنظور وغير المنظور وحبال تربط - مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس تملأه بتلك الخمرة إن لم ترشفها تظل ظمأن حتى تمل الالهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان " .

وفى ذلك أبلغ رد على قول عبد المسيح حداد فى كتابه " انطباعات مغترب عن إيليا أبى ماضى أنه شاعر مقل تعلم الشعر الصحيح من ميخائيل نعيمه .

والذى يزود شعر أبى ماضى بعناصر الحيوية والتأثير هو أن شعره ينبع من قلبه وأنه معبر عن عاطفة أو فكرة يشعر بها كل انسان . (٢)

- وفكرة الوجود الزمنى عند إيليا متناقضة نتيجة لحيرته الشديدة وعجزه عن تفسير طلاسم الوجود فهو يتناقض فى موقفه من الغد والأمس فهو يخاطب الطائر " - الفيلسوف المجنح . وهو ظله الطائر الذى ضيع إلفه والشاعر لم يجده بعد ، يخاطب هذا الطائر قائلا :

طوبـــاك إنـــك تفكـر فـــى غـــد بـــدء الكـــآبة أن تفكـر فـــى غـــد (٣)

وبعد ما يجاوز الشاعر مرحلة الشباب ويقتحم الغد الذى صار حاضرا وأمسا ويحس بالاقتراب من النهاية يقول لمن يسأله عن أمس الذى كان غدا قبل ذلك .

يا سائلـــى عـــن أمـــس كيـــف انقضـــى دعـــه وسلنـــــى يـا أخـــى عـن غـــد
أروح للنفـــــس وأهنــــالــــهـــــــا أن تحســـب المـاضــىَ لـــم يولَـد (٤)

وهو فى ديوان الجداول .. يبدأ من منطق الوحدة الكونية الشاملة ، والمقاييس الزمانية وهم لا يقره ذوو النهى المفكره المتأملة يقول :

---

(١) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا ص ٢٧٦ .
(٢) الناعورى : أدب المهجر ص ٣٨٧ .
(٣) أبو ماضى : الخمائل ص ١٦ .
(٤) أبو ماضى : الجداول ص ٥١ .

هيهات ما أرجو ولا أخشى غدا ... هل أرتجى وأخاف مالم يوجد ؟
والأمس فىَّ فكيف أحسبه انتهى ... أفما رأيت الأصل في الفرع الندى ؟
قَبْلٌ كبَعْدٍ حالةٌ وهميةٌ ... أمس أنا يومى أنا وأنا غدى (١)

– والطبيعة أداة تحت تصرف عبقرية الشاعر وهو يعالج فكرة الوجود الزمنى وهو فى موقفه هذا يمثل الارتداد العكسى بمعنى أن موقفه فى قصيدة " الزمان " فى الجداول يأتى فى قمة النضج ثم يضعف هذا النضج فى ديوانه " الخمائل " فى قصيدة " الفيلسوف المجنح ".

ويقترب من الضحالة والتسليم الساذج فى نهاية المطاف فى ديوانه تبروتراب . حينما يقول فى قصيدته " أين عصر الصبا " .

أروح للنفس وأهنا لها ... أن تحسب الماضى لم يولدِ

– وفوزى المعلوف فى شعلة العذاب " المطولة التى لم يستطع أن يتمها رأيناه يناقش فيها المشكلات الكونية وجها لوجه بعد أن نمت قوة التساؤل عنده ولم يلق فى بساط الريح " إجابات شافية ولم تكن كافية لاستنفاد كل ما فى نفسه من إحساس بعبثية الوجود وألم الحياة . فأنشأ هذه المطولة ولكنه قضى وخلف النشيد السابع مشنوق النغم على حنجرة الأبدية الخرساء ، بعد أن خط بيتين فقط .

وقال شقيقه " رياض المعلوف " فى ختام المخطوطة التى أرسلها إلىَّ لهذه الملحمة " . هذان البيتان بدأ الشاعر بهما النشيد السابع ، ولم يتسن له اتمامه فهو اذا آخر ماوجد منه بخطه . وتبا للموت الذى حرم الشعر والملحمة من إكمال هذا النشيد الذى فيه شىء من التشاؤم الذى يدل على إحساس عفوى للشاعر بدنو أجله " والبيتان هما :

مرحبا بالعذاب يلتهم العيش ... التهاما وينهش القلب نهشا
مشبعا نَهْمة إلى الدَّم حَرَّى ... ناقعا غلة إلى الدم عطشى (٢)

---

(١) أبو ماضى : الجداول ص ٥١ .
(٢) فوزى المعلوف : شعلة الذاب ص ٤ " مخطوطة " .

والملحمة تتكون من سبعة أناشيد هى :

١ - لغـــز الـوجـــود	١٤ " أربعـــة عشـــر بيتـا " .
٢ - فـــى هيكـــل الذكرى	١٤ " أربعـــة عشـــر بيتـا " .
٣ - بـــين المهـــد واللحد	١٤ " أربعـــة عشـــر بيتـا " .
٤ - يـــوم مـــولـدى	١٤ " أربعـــة عشـــر بيتـا ".
٥ - بسمـــــــات	١٤ " أربعـــة عشـــر بيتـا " .
٦ - دمـــــــوع	١٤ " أربعـــة عشـــر بيتـا " .
٧ - العـــــــذاب	٢ " بيتـــــان فقط " .

وقال فرنسيس كفيلا سباسيا أمير شعراء الأسبان عن هذه الملحمة ، ومثل هذا الكتاب يكفى وحده لإحياء ذكر الشاعر المتفوق الخالد لأن الصوت البشرى قلما تحدى الألحان الالهية بوضوح أتم من الوضوح الذى تحدتها به هذه القوافى الساحرة . وهذا لعمرى الشعر الخالد بعينه . (١)

والنشيد الأول بعنوان " لغز الوجود " وفيه يتكلم عن تناقضات هذا الوجود وأسراره وتسرى نظرته المتشائمة فى شرايين النشيد وروح أبى ماضى تسرى فى تساؤلاته . لكن روحه المتفائلة لا تمس روح فوزى أبدا يقول :

برعـــم الـزهـــر ما وجـــدت لـتبـقى ... بـــل ليـمـضـى بـــك الـخـريـــف
هـــذه حالنـــا خلقنـــا لنشقـــى ... ولـتـقـضـــى بنـــا الحـتـــوف

* *

كيف جئنـــا الدنيـا ومـن أيـن جئنـــا ... والـــى أى عالـــم ســـوف نقضـــى
هـــل حيينـــا قبـل الوجود وهـــل نُبْـــ ... ـــعث بعـــد الـردى وفـــى أى أرض ؟
هـــو كنـــه الحيـــاة مـــازال ســـرا ... كـــل حكـــم فيـــه يـــؤول لنقـــض
كيـــف أجلـــو غـــدى وأدرك أمســـى ... وأنـــا حـــرت كيـــف يومـى سيمضى (٢)

(١) شعلة العذاب : المقدمة ص (١) .
(٢) السابق ص (١) .

والشعور العام فى هذا النشيد هو شعور النكد والأسى من لغز الوجود المحدق بالعقل ، فكأن العقل أداة مخذولة ، مرذولة ، يتجول فى فسحة يسيرة من الضوء على ظلمة مدلهمة لا حد لها . (١)

والشاعر فى حيرته المتفاقمة يذكرنا بنسيب عريضه فهو حائر كيف يكتشف الغد " النبوءة . ويدرك الأمس – الذكرى – وهو لا يدرى كنه يومه – الواقع – " ويحاول أن يتعزى عن حيرته بأنه كان حيا من قبل بجدوده وسيحيا فيما بعد بأولاده وأنه بخاصة سيخلد بعد الموت بشعره " (٢) حيث يقول :

قد حيينا قبل الولادة لكن	بجدود قضوا كما سوف نقضى
وسنحيا بعد الردى ببنينا	فى كيان نعطيه بعضا لبعض
إننى شاعر بروحى فوق الـ	ـمَوْت تمشى بكل حبى وبغضى
أيه ياموت لن تمَس خلودى	فاقض ما شئت لست وحدك تقضى
فأنا خالد بشعرى على رغـ	ـم زمان من قيمة الشعر يغضى (٣)

وهو غالبا ما يناقش القضايا الكونية من داخله فهو يقدم أولا لحياته الأليمة ثم يتبعها بذكر الألم المرافق لكل إنسان حى من المهد إلى اللحد .

والوجود عنده كما قال أبو العلاء قديما " تعب كلها الحياة " .

– وفى ديوان : الجداول" نقرأ " الطلاسم " وفيها حيرة أبى ماضى ودهشته أمام متناقضات الوجود فقد صب فى هذه المطولة ذوب وجدانه وخلاصة تجاربه التى ظهرت فى عديد من قصائده السابقة " . ومشاق رحلته الطويلة عبر آفاق الوجود .

وهل وصل إلى شاطىء المجهول ؟ لا لم يصل !

إنه يقول فى النهاية : لست أدرى .

وهذه المطولة هى مجموعة تأملات متطلعة للبحث عن الحقيقة يرسلها لا يقنع بالوقوف

---

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٥١ .

(٢) د / أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٤٢٤ .

(٣) فوزى المعلوف : شعلة العذاب : لغز الوجود ص (١) .

عند الظواهر والقشور بل يحاول التغلغل إلى الأعماق . (١)

والشاعر فى بداية القصيدة التى يبلغ عدد مقاطعها واحدا وسبعين مقطعا يطرح حقيقة هامة وهى عدم معرفته لسر وجوده ومن أين وجد ؟ وهو يقر بأنه ريشة فى مهب القدر يحركه كيف يشاء يقول :

جئـــــت لا أعلـــــم مـــــن أيـــــن ولكنـــى أتيت
ولقـــــد أبصـــــرت قـــــدامى طريقـــا فمشيت
وسابقــــى ســــــائرا إن شــــئت هــذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟ .. لست أدرى (٢)

من أول مقطع يعلن الشاعر عقيدته التى تسلم للقدر بكل شىء فهو إن شاء أم أبى سيسير وهذا يذكرنا بموقف " الجبرية فى الفلسفة الإسلامية الذين يقولون إن الإنسان ريشة فى مهب الرياح .

والشاعر يتساءل عن كل ما سبق بحيرة يخنقها اليأس والظلام الحالك ولكنه لا يجد الجواب عن شىء عن أسئلته عند نفسه فيهتف .

ألهـــــذا اللغـــــز حـــــل ؟ أم سيبقـــى أبديـــا ؟
لســـت أدرى .. ولماذا لـــست أدرى ؟ لست أدرى ؟ (٣)

وتوغل أبو ماضى فى تصوير الحيرة بصورة مفزعة مقلقة ، وبدلا من أن يثير بقصيدته الفكر والعاطفة ، فإنه يشلهما لأن القصيدة تنقل معانى العجز مكبرة مهولة ، وتقلب الإنسان الى دودة عمياء لا تعرف أين المبدأ والمنتهى ولا تدرك شيئا مما حولهما .. وتفقدنا الثقة فى النظام الكونى . وفى أنفسنا ، وتجلب الحجارة التى كانت بعيدة عن طريقنا ، فتطرحها فيها لنعثر بها وتطلب إلينا أن لا نحاول رفعها أو إزاحتها . لأنه لا جدوى من ذلك . (٤)

ويعتقد الشاعر أن البحر لديه الجواب .. كظاهرة كونية هائلة ولكن أمواجه تسخر منه

(١) عيسى الناعورى أدب المهجر ص ٢٨٢ .
(٢) أبو ماضى الجداول ص ١٠٦ .
(٣) أبو ماضى الجداول ص ١٠٧ .
(٤) د / إحسان عباس ومحمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ١٧٠ .

وتضحك ثم يتمرد الشاعر ، على غير عادته " ويقارن بينه وبين البحر فيرى أنه أعظم من البحر فهو له فى الأرض ظل وله عقل يفكر به وفيه الحس . ويرتاد به طريق الحياة والبحر يخلو من هذه الميزات وبرغم ذلك يبقى البحر ويفنى الشاعر الإنسان ولا ينعم بهذا الوجود كيف ذلك ؟ لا يدرى شاعرنا فيقول :

فيــــك مثـــــلى أيهــــا الجبــــار أصـــداف ورمل
إنمــــا أنــــت بــــلا ظلٍّ . ولــــى فى الأرض ظل
إنمــــا انت بلا عــــقل ولــــــى يابحــــر عقـــل
فلمــــاذا يا ترى أمضى .. وتبقى .. لست أدرى . (١)

ويلتقى أبو ماضى مع نعيمه وجبران فى تصورهما للبحر بصفته ظاهرة وجودية كبرى لكنه لا يصل إلى اليقين الذى وصل إليه نعيمه من أن البحر هو سر الوجود منه البدء وإليه النهاية . وكذلك جبران . ولعل يقينهما هذا مستمد من النظرة الفلسفية القديمة التى تقول إن أصل العالم المادة . (٢) .. أو أنهما متأثران بالكتب السماوية وفيها ما يوحى بهذه الفكرة .

وهو يناقض نفسه فى المقطع الثانى وكثيرا ما نلمح هذا التناقض الفكرى فى القصيدة " الطلاسم " فهو " يقرر الفرق بينه وبين الطبيعة وأنه يتمتع بالعقل - وهذا نوع من المعرفة وبعد ذلك يعود إلى الفكرة نفسها فيقول :

فــــىَّ مثــــــل البحــــر أصـــــداف ورمـــل ولآل
فــــىَّ كالـــــروض مــــروجٌ وسفــــوحٌ وجبــــال
فــــىَّ كالجــــو نجــــوم وغيــــومٌ وظــــلال
هــــل أنا أرض وبحـــــر وسمــــاء ؟ لست أدرى

فيعود بهذا إلى التشكيك فى ذاته مع أنه من قبل قد عرف أنها ذات عاقلة (٣).. وحين لا يجد عند البحر جوابا لأسئلته يمده ولو ببصيص من النور الذى ينشده يتركه ويمضى إلى الدير

(١) أبو ماضى : الجداول ص ١٠٨ .
(٢) أنظر قصيدة نعيمه نهر يغنى بديوانه " همس الجفون ص ١٣٠ وقصيده جبران " البحر ص ١٠٤ بكتابه : البدائع الطرائف .
(٣) د / إحسان عباس ومحمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ١٦٩ .

معتقد أن من فيه لديهم سر الوجود وكنوز الحكمة وأبواب المعرفة ولكنه خاب مسعاه حين لم يجد الجواب :

قـــد دخلـــت الديـــر استنطـق فيه الناسكينا
فـــاذا القـــوم مـــن الحيـــرة مثلى باهتونا
غلـــب الـــيأس عليهـــم فهـــمُ مستسلمـونا
واذا بالبـــاب مكتـــوب علـــيه ... لست أدرى (١)

وهو يوحى من بعيد فى المقطع السابق بقصر . إدراك رجال الدين وفشل الرهبانية أو حياة التنسك فى الوصول إلى ما يروى جفاف الروح المتطلعة للحقيقة وتتحرك فى نفسه أشواق المعرفة إلى سر الوجود ويفقد الأمل فى الأحياء فيذهب إلى الأموات فى المقابر ويواجه نفسه القاسية وهنا تقر نفسه بأنها لا تدرى شيئا ولا تستطيع الإجابة .

– والحقيقة أن أبا ماضى يعرف الإجابة إلا أنه يوهمنا بالجهل ويلقى أسئلة ضخمة ليوقعنا فى حيرة معه . وينسى منهجه التساؤلى وتجاهله فيقول مركزا على حقائق ثابتة :

انظـــرى كيـــف تســـاوى الكل فى هذا الكانْ
وتلاشـــى فـــى بقـــايا العبد رب الصونجانْ
والتقـــى العـــاشق والقـــالى فمـــا يفترقانْ
أفهذا .. منتهى العـدل فقـــالت .. لســت أدرى (٢)

ويعود الشاعر والحيرة هى . هى لا تنقشع . والأسئلة هى . هى . لا تلقى جوابا ويتجه الشاعر الى أرباب الغنى ويسائل القصر وهو يضنى عقله وينفق أيامه وأفكاره فى رحلته الطويلة ولكنه لا يلقى جوابا .

فينصرف إلى المقابلة بين القصر والكوخ فلا يجد فى الحقيقة فرقا بينهما ولا شك أنها نظرة كلية شاملة .

أو ليس صاحب هذا وصاحب ذاك يشتركان فى كل الصفات والمزايا العامة ؟ألا يتقلب على كليهما الليل والنهار ويساور نفسيهما الشك واليقين ، والغضب والرضى، والرجـــاء والخشيـــة ؟

(١) أبو ماضى : الجداول ص ١١١ .
(٢) السابق ص ١١٠ .

إذا فكل ما بينهما من فوارق إنما هو وليد الأوهام البشرية السخيفة . أما الطبيعة الأم فلا تعرف هذه الفروق لأن كل المخلوقات فى عينها سواء.

سـائل الفَجـرَ . أعنـد الفجـر طينٌ ورخامْ؟
وأسـأل القـصـر . ألا يخفيـه كالكوخ الظلامْ؟
واسـأل الأنجـم والـريح وسـل صَوْب الغمامْ
أتـرى الشـىء كما نحن نراه ؟ .. لست أدرى (١)

وبعد أن يبلغ الشاعر الحيرة وهو غارق فى لجة الوجود ، لا يصل إلى حقيقة يتفق عليها البشر ، وإن اتفقوا عليها فلن تتفق معها الظواهر الكونية ولن تراها كما نراها نحن .

بعد هذا ينصرف إلى مظهر معنوى من مظاهر الوجود بل والسر فى بقائه .

يتساءل عن مصدر الأفكار والخواطر التى تعتلج فى عقول البشر وضمائرهم فلا يجد جوابا – ويرى ما يقوم فى نفسه من صراع بين الخير والشر أو بين الملاك والشيطان كما يقول وما يدفع إليه كل منهما من لذة أو عفة . من سعادة أو من شقاء من اشتهاء أو كراهية من حب أو بغض من حسن أو قبح .

والشاعر هنا يؤمن بالثنائية ويقر الازدواج متأثرا بنعيمه فى قصيدته الشيطان والملاك . على الرغم من أنه حاول تحطيمها فى الأسطورة الأزلية وهو يقابل بين المظاهر السابقة جميعا ولكنه لا يَهتْدى من مقابلاته إلى شىء يبدد حيرته لأن مافى وجوده " طلاسم " يعجز العقل عن الوصول إلى كنهها وتفسير رموزها وحين يمل الشاعر وتسأم نفسه التساؤل حين لا يقع على شىء من الحقيقة التى أجهد نفسه بَحْثاً عنها ..

وقد بحث عن سر الوجود فى مظاهره كله فلم يجده ، ولو تصورنا كائنا حيا وأبو ماضى يريد أن يسأل عن حقيقته نراه أولا يجهل كيف التقى به ولكن مصاحبته قدر مفروض عليه ، هذا الكائن " الطبيعة ثيابه ، والدين روحه والمادة جسده ، والفكر عقله ، الذى به يواصل رحلة البقاء ، والموت نهايةُ رحلته .

وفتش شاعرنا فى ثياب هذا الكائن الوجودى فلم يعثر على الحقيقة فعبث بجسده ، وتغلغلت يداه فيه فمالمست سوى الطين وتاه عن الجوهر ، ولم يأخذ من البحر غير الأصداف ،

(١) السابق ص ١١٨ .

فهدأ قليلا ، واستردّ أنفاسه اللاهثة.

وأمسك بعقله وساطه ، ولكن الفكر لم يسعفه بل زاده حيرة وشكا فلجأ إلى الروح فهى رمز الخلود ، وتوسل إليها أن تهديه إلى حقيقة هذا الكائن ولكن الدين الذى يكمن فى الدير لم يزح عنه كابوس التساؤل واعتقد أن الحقيقة هناك فى الفناء فى نهاية هذا الكائن . فتصور أنه مات . وهرول بين القبور يفتش عن سره ولكن هيهات ! يعود المسافر إلى نقطة البداية ، يعود لنفسه وحقائبه خالية من كل شىء ذاكرته ، مزودة أحلامه ، مبعثرة أيامه ، مذبوحة أوهامه فيهتف واليأس يعربد فى داخله .

أنا لا أذكر شيئا — من حياتى الماضية
أنا لا أعرف شيئا — عن حياتى الآتية
لى ذات غير أنى — لست أدرى ما هيه
فمتى تعلم ذاتى — كُنْهَ ذاتى .. لست أدرى (١)

* *

ويجد الشاعر نفسه محبوسا فى إطار المجهول والغربة والنفى فهو لا يعلم أى شىء عن أى شىء فهو لغز ، والوجود لغز ، والذى أوجد هذا اللغز أعظم فلا جدوى من التساؤلات ، ونشدان المعرفة فالعاقل هو من يعلن اللا أدرية شعارا دائما .

إننى جئت وأمضى — وأنا لا أعلم
أنا لغز وذهابى — كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا — اللغز سر مُبْهم
لا تجادل : ذو الحجى مَنْ — قال إنى لست أدرى (٢)

* *

ويذكر د / أبو شادى أن أبا ماضى أخذ معانى ملحمته " الطلاسم من الشعراء إدجار ألان بو " ، روبرت جرين الأمريكيين . (٣)

---

(١) أبو ماضى : الجداول ص ١٢٥ .
(٢) أبو ماضى : الجداول ص ١٢٦ .
(٣) د / خفاجى : قصة الأدب المهجرى ص ٢١١ .

ويذكر أبو شادى تعليقا على قصيدة " الطلاسم " ولا نعرف صدى لأسئلة الملايين من قبل ، ولأسئلة العديدين من الشعراء وعلى رأسهم عمر الخيام وحافظ الشيرازى والمعرى والزهاوى فى الشرق وكلهم من المتشككين . (١)

ويذكر د/ حسن جاد " أن فيها أسئلة حائرة من مشكلات الوجود ومفارقات الحياة يرى البعض أنها أكبر من أن يحاول مثل أبى ماضى البحث فيها ، فليس وراء المحاولة والتساؤل إلا الشقاء والعناء ويرى البعض أنه يدين بعقيدة اللاأدرية التى تسود القصيدة وبعضهم يرى أن ايليا كان ساذجا - وقف مبهورا حائرا أمام حقائق الوجود .

وبعض الناس يرى أنه يتجاهل تجاهل العارف ويحمى طلاسمه بكل هذه اللاأدريات .(٢)

ويذكر رأيه فى هذه التساؤلات فيقول متفقا مع أبى شادى إن هذه الأسئلة كان بعضها فعلا أكبر من أبى ماضى ، كما كان أكبر من غيره وأن لغز الوجود أعيا من قبله عقول الفلاسفة والمفكرين كما أعياه وكل سؤال يتجه إلى هذا اللغز لا يظفر بغير صداه الحائر . "

" لا تجادل : ذو الحجى من قال إنى لست أدرى .. (٣) ويرى عزيز أباظة :

أن إيليا أبى ماضى وقع فى مغالطات فكرية فى طلاسمه وقال لقد انسرب خيال الشاعر فى أودية الظنون ، وعلل الموت بتعللات لا يجد العقل المؤمن لها مساغا ، وتناسى أن الموت تشذيب لشجرة الإنسانية فلا فضل للدعارة ولا ذنب للطهارة وإنما هى نهاية للبشرية ما صلح منها أو طلح . (٤)

وأرى أن أبا ماضى لم يتبع فى مذهبه خطا فكريا له معالمه المحددة بحيث نستطيع أن نقول إن مذهبه ديكارتى أو وجودى ولكنها إنفعالات طارئة يحسها الشاعر من أن لآخر ويعبر عنها بصدق الشاعر وإحساس الفنان .

---

(١) د / محمد خفاجى : قصة الأدب المهجرى ص ٢١٣ .
(٢) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ص ٢١٩ .
(٣) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ص ٢١٩ .
(٤) محمد عبد الغنى حسن الشعر العربى فى المهجر " مقدمته الكتاب ص ١٤ .

- ٨ -

الثورة على الوجود ورفضه والبحث عن عوالم غير منظورة طلبا للأمان :

– وهذه الثورة نشأت من الإحساس باستعباد الوجود للذات الإنسانية كما أوضح ذلك فوزى المعلوف فى مطولته على بساط الريح .

– أو أنها نشأت من الإحساس بما فى العالم الخارجى من زيف وضباب وبريق وغيم كما هو عند نسيب عريضه .

– أو أنها تتصل بإحساس الشاعر بتفاهة هذا العالم والبحث عن بلاد محجوبة فيها كل ما ينشده الإنسان من معان وقيم وأمان وهدوء ، ومحبه وصفاء ، وتجدد دائم كما فى البلاد المحجوبة التى ظل جبران يبحث عنها ، والعنقاء عند أبى ماضى وكذلك نار القرى صورتان لهذا العالم المفقود المثالى المقابل للوجود المشاهد المزيف .

وأطال نسيب عريضه التأمل والبحث وقاده هذه التأمل فى الوجود الخارجى إلى اكتشاف عالم غير منظورحواليه ، وأن هذا العالم الخارجى زيف وضباب وبريق وغيم ويعد هذا تحولا خطيرا فى موقف نسيب الوجودى .

فمن قبل كان يعترض على مسلمات الأمور ، وينقب عن أسرار ما يجرى أمامه . والآن يدخل عالمه الجديد الذى تخيله ضوءا بعيدا فى معلقته على طريق ارم " وبعد سفره الطويل إلى ضالته المنشودة " إرم " يهتف وهويرى شعاعا من اليقين ينآى عنه كلما اقترب كالأفق الخادع .

إيـــــه ضـوئـــــى البعيـــــــد   لُـــــحْ ولُــــــحْ مــــا تــريـــــــدْ
ليـــــس طــــــرفـــى يحيــــــد   عَــنْـــــك حَـتــــىٰ يـعُـــــــودْ

وبقراءة رحلة نسيب الروحيَّة ، على طريق إرم " نجد الشاعر وقافلته يمرون ببضع مراحل . بحثا عن الحق أو المجهول ، ويصف طريقة ، مرحلة ، حتى يتخيل أنه رأى نارها من بعيد ، دون أن يصل إلى الهدف .

لقد عد أحد النقاد هذه الملحمة لنسيب عريضه ، لو اتبعناها تقودنا الى المراحل المختلفة التى مر بها الشاعر فى حيرته . (١)

(١) د / نادرة السراج : نسيب عريضه ص ٩٦ .

والملحمة تتكون من مائتين وستة وثلاثين بيتا مقسمة إلى ست مقطوعات أعطى الشاعر لكل منها عنوانا يوضح المرحلة التى يصفها ويتبعها . (١)

وفى هذه الملحمة أصداء من الثقافة الروسية التى تلقنها نسيب فى بداية حياته وقد ظهرت هذه الثقافة فى ترجماته العديدة لقصائد كثيرة لعدد من الشعراء الروس الروحيين بمجلة الفنون " ومنهم الشاعر " سولوغوب " - والشاعر " لرمنتوف " والشاعر همتو تسيف " وهم من المؤمنين بعالم الأحلام . والفناء والاتحاد بين الروح والجسم وعاشوا فى صراع مع الواقع الأليم فبينهم وبين نسيب علاقة روحية متسامية عميقة وملحمة " على طريق إرم " تشبه فى الأدب الفارسى ملحمة " منطق الطير " لأبى حامد محمد . بن أبى بكر ابراهيم ، المشهور بفريد الدين العطار . كبير شعراء الصوفية فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى .

ومنطلق الطير " منظومة فى ألف وستمائة بيت من الشعر الرمزى الصوفى يبدأ بمقدمة فى توحيد الله ، ومدح الخلفاء الأربعة وإنكار التعصب ، وبعد ذلك يتحدث بلسان الطيور عن رحلتها فى طلب الطائر الأسطورى المسمى بالفارسية سيمرغ ، وهو يقابل العنقاء " معنى لفظ سيمرغ : ثلاثون طائرا ، إذ هو مركب من "س" ثلاثون ، ومرغ " طائر "وهو هنا رمز " الله " (٢)

ومن هذه الملحمة أقتطف هذه الأبيات التى تصور مثول الطير بين يدى الحضرة الإلهية " حينما تطهرت كلية من كل شىء .. وجدت جميعا أرواحها من نور " الحضرة الإلاهية .

وأضحت مرة أخرى . أسرى الروح الجديدة
فصارت حيارى من جانب آخر
فأى عنها ما فعلت ومالم تفعل
فقد زال وامحى من صدورها
وبرزت أمامها شمس القربى
فولت وجوهها جميعا شطر ذلك الضياء
وحين توجهت نحو " السيمرغ " الله "
كان هو نفسه تلك الحضره
وكلما توجهت بأنظارها الى ذات أنفسها
كان "سمرغها " ربها " ذاك الواحد الآخر (٣)

(١) أنظر تحليل الملحمة بالمصدر السابق ص ٩٦ - ١٠٦ .
(٢) أنظر تفاصيل هذه الملحمة فى كتاب " مختارات من الشعر الفارسى للدكتور محمد غنيمى هلال من ٣٨١ - ٤١٧
(٣) د / محمد غنيمى هلال : مختارات من الشعر الفارسى ص ٤١٠ - ٤١١ .

وعانى نسيب من الغربة الروحية ، فلا عجب أن تسمع للأسى فى شعره أنغاما شجية ، وأيضا فيه كل ألوان الحيرة والوحدة والوحشة والحنين ثم لا عجب فى أن يطرح الشاعر على ذلك كله وشاحا من الصوفية العميقة الصافية كالتى نطالعها على الأخص فى منظومته البديعة " على طريق إرم (١) " وهو يحس الحياة سيرا متواصلا لا راحة فيه ولا توقف ، ويحس الوجود طريقا غاب أوله فى غيبوبة الجهل وتوارى آخره فى غيبوبة المعرفة فلا ينقطع بحث قلبه إلى الأمام . (٢)

وهو يفسر هذا العالم الذى يشد إليه الرحال حين يتأمل فى هدوء قائلا :

لـو حـدق المـرء فـى البرايـا ... لـشـام مـا لا تـرى العيـون
مـا حولنـا عـالـم خـفـى ... تـدركـه الـروح فـى السكون
كـم مبصـر لا يـرى وأعمـى ... يـرى ويـدرى الـذى يكون (٣)

ويحس الشاعر أنه غريق فى لجة الوجود وليس من نجاة . فقلبه بلا شراع وسفينته من غير ربان ولكن مناره الإيمان ، وهو يقصد جزائر الخلود فهى الحلم والنجاة ومأوى التائه المجنون :

قـلـبـى بـلا شـراع ... يـطـوف فـى الـبـحـار
قـد قـارب الـتـداعـى ... مـن كـثـرة الأسـفـار
سـفـيـنـة حـقـيـره ... لـيـس لـهـا ربـان
فـى ظـلـمـات الـحـيـرة ... مـنـارهـا الايـمـان

* * *

طـاف الـبـحـار يـرجـو ... جـزائـر الـخـلـود
لـعـلـه .. يـنـجـو ... مـن لـجـة الـوجـود (٤)

وإذا كان نسيب قد فقد ربانه فيما سبق فإنه وجده فى طريقه وربانه الذى عثر عليه هو نفسه يقول وهو يحدوه إلى طريق الخلود .

(١) د / خفاجى : قصة الأدب المهجرى ص ٣٥٦ .
(٢) السابق ص ٣٥٧ .
(٣) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ٨٣ .
(٤) من قصيدته على طريق " ارم

تقدَّمينى وسيرى إلى مكان بعيدْ
كل الدروب تؤدى إلى سبيل جديدْ
أنا وإياك ركب على طريق الخلودْ

– وفوزى المعلوف فى موقفه من الوجود لا يمثل موقفا فكريا محدد المعالم كموقف جبران ونعيمه . ولكن موقفه من الوجود موقف الرافض . الذى ينظر إلى الوجود بمنظار أسود . ويغلف هذه النظرة أمانٍ غير منظورة للخلاص منه فالفشل مكافأته فى كل مغامرة يخوضها وأمانية دائما تعرض عنه متجهمة . يقول:

عشت بين المنى يراود نفسى خُلب من طيوفها وعقامُ
أقتفيها وفى يدىّ فؤادى ثم ألوى وفى يدىْ حطام !!

وربما كانت العثرات التى وقفت فى طريقه ، إضافة إلى ماالديه من رصيد ثقافى وموهبة محلقة " لاطلاعه على الشعر الأسبانى ونمو تجاربه بالتأمل ومواقعة الحياة بالهم والألم والتحرى عن غايته من الوجود وغاية الوجود من ذاته " وَلَّد لديه القصائد المتميزة الخاصة (١)

وموقفه السوداوى من الوجود يتصل بأكثر من سبب إلى ظروف حياته التى مرت به وعلى الرغم من أنه كان ثريا يتمتع بجاه الحسب ووفرة المال ، فلم تسعفه هذه المظاهر الزائفة .

يقول " محمد عبد الغنى حسن ، وتمثل لنا نظرة فوزى المعلوف المتشائمة فى الحياة صدق القول بأن المال لا يخلق سعادة ، ولا يصنع غبطة . فلقد اجتمع له الثراء والشباب وأوفيا له الكيل . ولكنهما لم يستطيعا أن يخلقا وتر السعادة فى عوده الحزين .(٢) – ومظاهر هذا الترف يصوره جورج صيدح فيقول عنه " فرع باسق من الدوحة المعلوفية أينع قبل الأوان ، وصوّح فى ريعان الربيع ، قدر له أن يمر بالحياة راكبا " بساط الريح " مستعجلا الوصول إلى الملأ الأعلى .. ترعرع وأينع بين ضفاف البردونى وفى أكناف الغوطة فى ظل والده العلامة عيسى اسكندر المعلوف ، ولكن الطموح غرربه فهجر الوادى الحالم ، والجو الباسم الي أرض المداخن ، والمناجم وراء البحار عام ١٩٢١ ألف وتسعمائة وواحد وعشرين " (٣) وهو فى بساط

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٧ .
(٢) محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى فى المهجر ص ٢١٧ .
(٣) جورج صيدح : أدبنا وأوباؤنا ص ٤٥٨ .

الريح كما يقول " فرنسيسكو فيلاسباسا " صوت متوحد " متعدد ، متصابى ، روحانى ، مشع منعكس ، تتلاءم فيه المتناقضات بأعجوبة خارقة ، ورشاقة شعرية رائعة ، وتلاحم إلهى بليغ " (١)

والوجود فى نظر فوزى المعلوف وهْم فى وهْم ، ويحكى عنه شقيقه شفيق المعلوف فى كتابه الذكرى أنه فى (عام ١٩٢١ ألف وتسعمائة وواحد وعشرين) . كتب تحت أحد رسومه :

كـل هـذه الحيـاة وهــم وهـــذا الـــر ســـم وهـــم ومـــا أنـــا غيـــر وهـــم
غيـــر أن الرســـــوم تـبـقــى طـويـــــلا وأنــــا أمحـــى بروحــــى وجسمــــــى

– وفى ملحمته الطويلة على بساط الريح .. نتعرف على روحه الرافضة للوجود وقيمه وهى تتكون من أربعة عشر نشيدا تبلغ فى مجموعها مائتين وثمانية عشر بيتا " واختياره لموضوع الملحمة يقودنا إلى حقيقة نظرته للوجود . فكونه يطير من على الأرض ويحلق فى العوالم الغامضة ، ويسبح فى ما وراء الطبيعة يدلنا على حقيقة ذات قيمة وهى كرهه لهذا الوجود ، وثورته على ما فى الأرض من شرور وآثام " فالملحمة نفثات شاعر يحس أنه مقيد بجسمه على الأرض . ولكن روحه تسرح حرة فى الفضاء الطلق الرحيب بين الأرواح العلوية الخالدة البعيدة عما يعرفه العالم الأرضى من أطماع . (٢)

وفى النشيد الأول " يتجلى إحساس الشاعر بغربته عن دنيا الناس الحافلة بالمظالم المقيدة بمتطلبات تهيض أجنحة الشاعر وتغل خياله . فهو منذ البداية يعانى انقسامه النفسى الحاد بين الروح والجسد ، بين المثالية الصافية والواقع المادى الجاف . (٣)

ويصور الشاعر هذا الانقسام حين يتكلم عن مملكة الشاعر ومكانها الفضاء .

مـــوطـــن الشاعـــــر المحلـــق منــذ الــ ـــبدء لكـــن بـروحـــه لا بـجـسـمـــــه
أنــزلتـــه فـيــــه عــــروس قــوافيـــــ ــــه بعيـــدا عـــن الوجـــود وظلمــه (٤)

(١) أنظر مقدمه : على بساط الريح .
(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٢٧١ .
(٣) د / أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٤١٤ .
(٤) على بساط الريح ص ٦٢ .

وهذه الصورة التى تجعل الشاعر ينعم بمملكة الفضاء بكل مظاهر الملك من حاشية وموكب وعرش وتاج وطيلسان وصولجان " صورة رومانسية مستفادة من تراث الفكر ، منذ القدم ومن النزعة المسيحية التى لا تجد فى هذا العالم مقيل هناء بل شقاء وأنه بلد الغربة ووادى الدموع ، ولسنا نزعم أن الشاعر اقتفى خطى سواه بالتقليد وإنما هى مشاركة آلت إليه من الوجدان الإنسانى العام ، اتخذها لها أو أنها فاضت منه فيضا لقيامها فى طبعه وحلولها فى نفسه محل اليقين المبرم . ولقد امتطى الشاعر لذلك كله جناح الخيال والرؤيا . (١)

وفى النشيد الثانى يخاطب روح الشاعر فيقول مؤكدا رفضه للأرض الآثمة :

أنـــت مـــن عالـــم بعـــيد عـــن الأر ض يفيـــض الجـــلال عـــن جانبيـــه
هـــو فردوســـك السحيق فـلا الإثـــم ولا الشـــرّ يبلغـــان إليـــه (٢)

وفى النشيد الثالث يفند فوزى المعلوف موقفه من الوجود ويفسر ذاته من خلال التحامه بمظاهر الكون وقيمه وأهدافه . وملخص هذه النظرة هو أنه عبد لهذا الوجود لذا يمقته لأنه تواق إلى الحرية ومحروم منها . وبالرغم من أنه يعانى من العبودية لكن روحه حرة طليقة ، فالوجود أوله حياة وآخره موت وهو عبد الاثنين .

أنـــا عبـــد الحيـــاة والمـــوت أمشـــى مكرهـــا مـــن مهودهـــا لقبـــورهْ

والوجود يسير حسب شرائع هو عبدها :

عبـــد مـاضمـت الشرائـــع مـــن جـــو ريـخـــط القـــوى كل سـطـــورهْ

ولعل الشاعر يريد بالشرائع هنا – الشرائع البشرية . ولا أوافقه على كلمة " جور " إن أراد غير ذلك .

ويقوى من كونه يريد بها الشرائع البشرية أنه قال " يخط القوى كل سطوره وأداته اليراع الذى اتخذ من دم الضعيف حبرا ، ومن نواح المظلوم صريرا وهو عبد القضاء والمال والمدينة والإثم والجاه والشهرة والحب . وهو أعمى فى قبضة العبودية العمياء التى جعلته أسير المظاهر السابقة .

---

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٦٠ .
(٢) فوزى المعلوف : على بساط الريح ص ٦٦ .

والشاعر يبدو منفعلا أمام وجوه الحياة ولكنه انفعال متمهل متوازن مع الفكر يبعث العمق والشمول حتى تصبح " الأبيات فى هذا النشيد " مجموعة من الأفكار المخضبة بالعاطفة فالمعاناة عبرت فى مجاز الفكر بدلا من الخيال ، وغلب عليها الوضوح بدلا من الإيحاء ونزعة الافهام على نزعة الإلهام ، وتسفر النزعة العقلية حيث يبدو الشاعر مفكرا بالتسلسل والسببية أكثر منه معانيا بالرؤيا . (١)

وغلبة التأمل الفكرى ، أدت إلى طغيان أسلوب المقابلة والبرهان فبدت – القصيدة من بدايتها إلى نهايتها كالقضية الرياضية . فالبيتان الأولان هما المسألة وقد دل عليها بعبودية الحياة والموت والشرائع والقضاء والشهرة والحب – أما النتيجة فهى أن الروح وحدها حرة .

ومن هنا اتسمت القصيدة بوحدة عضوية وتدرج وتسلسل فتمت دون تكلف أو – استطراد . وربما مالت إلى الأسلوب النثرى الصرف فى التعداد ..(٢)

وينقد د / أبو شادى موقف فوزى السلبى من الوجود . كذلك ينقده د/ أنس داود لأنه موقف غير محدد بخط فلسفى معين . ولكن الأستاذ / عيسى الناعورى يقول عن هذا النشيد " عبد وحره " وقد رسم الشاعر بهذا التصوير لوحة من أصدق اللوحات الفنية الموشاة بالتأمل العميق فى موكب هذا الوجود السائر دائما والناس مصفدون بأغلاله لا يستطيعون فكاكا . ثم يقول عن النشيد " إنه من أروع الشعر الذى يحملنا على التفكير العميق لأن كلا منا يرى فيه صورة نفسه وصورة أحاسيسه . (٣)

و د / أنس داود يرى أن هذا الموقف جاء " على نحو لا مبرر له من تفهم للوجود وأسراره أو تعمق للإنسان وطبيعته ولكنه تنفيس عن ألم ذاتى مكبوت بطريقة تتسم بالمبالغة ولا تتفق مع القضايا الحياتية والمصيرية التى طرقها فوزى فى مطولته " وهو يعمم عبودية الانسان دون أن يترك لإرادته وعقله ثقبا للإختيار وهى نظرة بعيدة عن الموضوعية مغرقة فى التشاؤم والسوداوية . (٤)

ويرى " إيليا حاوى " أن النشيد الثالث " عبد وحرة " من أسمى أناشيد القصيدة وأكثرها

---

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٧٢ .
(٢) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٧٣ .
(٣) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٢٧٤ .
(٤) د / أنس داود . التجديد فى شعر المهجر ص ٤٣١ .

شجوا ودنوا إلى النفس حيث يستهل الشاعر بفكرة عامة يقارن فيها بين الجسد والروح المقيمة فيه ، بين عبودية الجسد وحرية الروح وعذابه فى ما بينهما . وأثر ذلك يبين هذه الفكرة ويفصلها ، ملما بشتى نواحى الحياة على ضوئها وبالنسبة إليها . (١)

وأرى أن فوزى المعلوف صادق فى إحساسه كل الصدق فهو يحكى عن الواقع المرير الذى اتسمت به النفس البشرية حين تتعرى من كل قناع وهذا لا يسلب الإنسان التيار الإيجابى وعوامل القوة النفسية التى بها يجابه هذا التسلط الواقع عليه من كل ماحوله وهذا ما افتقده فوزى فقد استسلم لسيطرة النوازع الخفية فتخيل أن الوجود كله هكذا ومن هنا صب نقمته على الوجود كله فى النشيد السابع حيث يصور فزع النجوم ومهاجمتها للإنسان الظالم الباغى .

هـو مخلـوق عـالـم اسمه الأر	ض يغطى الشقاء كـل بطاحِهْ
عـالـم ما شعـاره غيـر أن الـ	ـحق للقـوة التى فـى سلاحـه
لا تخـافـى منـه وخليـه يعلـو	فقريبـا يهـوى صريـع كفاحـه

ويتابع وصفه للإنسان فى النشيد العاشر قائلا عنه :

هـو يحيـا للشـر فالشـر يحيـا	أبـدا حيث حل شـؤم ركابِـهْ

– وفى هذا النشيد يحس فوزى بالبؤس " الوجودى المخيم عليه فى كتاب القدر وفى شروط مصيره البشرى . فالإنسان ليس سوى حفنة من تراب ونطفة هزيلة من طين وماء . نفخة أحيته ونفخة تميته ، وفى النهاية يعود إلى رحم الأرض التى منها أخذ وقد بدا الإنسان فى ذلك كله قمينا مدحورا ، يحسب أن الوجود أوجد فى سبيله فيما هو يدب على متنه بالفساد والفتن والموت . (٢)

وفى النشيد الحادى عشر يقول فوزى عن الإنسان على لسان روح توشوش الأرواح وتسر إليهم بحديث النقمة على هذا الشرير :

أُعْطِـى النطـق والحجـا ميزة تَـفْـ	ـرقهُ فـى الوجـود عـن حيوانِـهْ
فـاذا بالأذى ولـيـد حجـاه	واذا بالشـرور نَبْـت لسانِـه

---

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٦٧ .

(٢) إيليا حاوى فوزى معلوف ص ٩٢ .

وفى تفسيرهذه النظرة التشاؤمية القاتمة إلى الوجود يقول الناعورى " ونحن نرى أن هذا التشاؤم المرالعنيف عند فوزى المعلوف وهو فى ميعة العمر وفى عنفوان العافية والجمال والغنى إنما مصدره التأمل الطويل الذى لا إرادة للشاعر فيه ولا اختيار فى الموت وفى آلام الحياة (١) .

لكن د / أنس داود يرى العكس فى تفسيره لهذه الظاهرة . فالناعورى يرى أن - مصدرها التأمل لكن أنس يقول " وحسبنا أنْ نقول إنها لم تكن عن رؤية وتأمل ولم تصدر عن فلسفة تحلل الوجود وتختبر المقدمات ولكنها كانت غضبات شاعر يحمل طعنة غدر من حبيبته أصابته فى الصميم من كبرياء شبابه ورهافة إحساسه فأظلم الوجود بين عينيه فقدمه لنا مغلفا بجراح فؤاده ملونا بألوان آلامه . (٢)

وقبل أن أدلى برأيى فى هذه القضية أود أن أوضح نقطة مهمة وهى : أن فوزى المعلوف إضافة إلى ظروفه القاسية كان متأثرا بأبى العلاء المعرى . بأفكاره وفلسفته فالمتأمل لأفكار فوزى يلمح اتفاقا فى نظريتهما وربما نتج هذا الاتفاق من تأثر فوزى بفيلسوف المعرة وحكيمها وهذا هو الأرجح ، أو ربما كانت الظروف النفسية متفقة وتدور فى أفق واحد وربما تكون سرقة شعرية غير مباشرة . ففوزى يرى أن النبات ليس إلا عصير أجسام الموتى وهى نظره فسرها أبو العلاء قديما حين قال :

خــــفف الــــــوطء مـــــا أظـــــن أديم   الأرض إلا مــــن هــــــذه الأجســـــــاد

وقال فوزى : كل النبات الذى فى الأرض من زهره إلى لبلابهْ !!!

ليـــــس إلا عـصـير أجسـام مـــن مـــا   تــــوا فزانـــوا الثـــرى بأجمل مابـــهْ

وهو متأثر أيضا فى هذا التفسير للوجود المادى بعمر الخيام الذى يقول :

فامــــش الـهوينــــى إن هـــذا الثـــرى   مــــن أعــــين ساحــــرة إلاحــــورارْ

والنص الأصلى هو كما ترجمه د / محمد غنيمى هلال :

كـــــل ذرة كـــــانت علـــــى وجـــه الغبـــراء
حسنـــــاء مشـــــرقة المحيـــــا زهـــــراء الجبين
فانفـــض الغبـــــار عن وجنــــة الفاتنــة فى حيــاء
فان ذاك الغبار كان أيضا وجنة ونؤابة حسنـــاء (٣)

(١) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٤٦٤ .
(٢) أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٤٢٢ .
(٣) د / محمد غنيمى هلال : مختارات من الشعر الفارسى ص ١٣٩ .

والواقع أن بين المعرى وفوزى المعلوف تجاوبا صادقا فى نظرتهما إلى الحياة وفى آرائهما فى الموت والخلود ، فلقد انطوى المعرى على نفسه يتأمل الدنيا من خلال عماه فبدا له أن شرها يطغى على خيرها فعافها وهام بحر بها .

وأطال فوزى فيها ببصره وبصيرته معا ، فلم يتح له تأمله إلا كرهها ومقتها فضم قلمه إلى شيخ المعرة فى محاربه الحياة والناس . (١)

ويقر بهذا التأثر شقيق الشاعر وهو رياض المعلوف حين وجهت اليه سؤالا فى رساله خاصه عن المؤثرات التى أثرت فى أدبهم وبخاصة أدب فوزى المعلوف . فقال : فوزى تأثر بالمعرى وعمر بن أبى ربيعه ومن الفرنجة بشاتوبريان " الفرنسى "وروايته" ابن حامد " و سقوط غرناطه تلاقى فيها مع ابن سراج القرطبى ومع شاتوبريان ، وألبير سامان ، ولا مرتين . (٢)

وهذا الاتجاه والتأثر يدلنا على أن فوزى تضافرت عوامل كثيرة فى تكوين موقفه الرافض للوجود .

لكننى كما قلت سابقا أعتقد أنه لم يمتلك قوة الإرادة التى تسمو على الضعف البشرى فاستسلم لدواعى الألم وأسباب الشقاء .

وهذا الإحساس جعله يشعر أنه يعيش على الأرض بالرغم منه وذلك حين تظهر روح الشاعر فتطوقه بكل عطف وتقف بين الأرواح الصاخبة الثائرة لتدفع عنه ما ترميه به هذه الأرواح من جارح القول ، ولتخلصه من غضب العالم الفخور بشمسه ، وتعتذر عنه بقولها :

هـو بالرغـم عنـه مـن عـالـم الأر ... ض تزيًا بشكـل أبنـاء جنسـهْ
سكـن الأرض مرغمـا وهـو لو خُـيرَ ... ما اختـار غـير ظلمـة رمسِـهْ

وفى بساط الريح لم يخرج فوزى عن حكاية ألمه وتصوير الارتطام بين مثاليته الروحية والفساد الذى استشرى بمجتمعه وبين طموحه إلى الكمال والقيود الأرضية التى تصدم هذا الطموح مما دعاه إلى وصم الانسان بالعبودية وحمل على المجتمع الإنسانى بأبلغ الهجاء فهو لم ينطلق إلى القضايا الكونية الكبرى . قضايا الوجود والعدم . المبدأ - والمصير .

---

(١) الناعورى : أدب المهجر ص ٢٧٨ .
(٢) من رسالة له إلى فى ١٤ / ١٢ / ١٩٧٧ م .

وفى "ملحمة" شعلة العذاب " يوضح أن الابتسام والبكاء لا جدوى منهما فالمولود يبكى والراحل يتحسر وميلاده مقترن بالألم ، وموته أكثر ألما . يقول :

مـــا وليـــد الآلام غـيـــر أســــير	والــــردى وحــــده يحـــرر أســــرَهْ
ضاقـــت الأرض فـــى الحيـــاة عليـــه	وكفتــه فـــى المــوت أضيـــق حفـــرهْ
إن مـــن جـــاء مهـــده مكـــرهـــا يمـــ	ـــضى إلـــى لحـــده غدا وهْـو مُـكْـرَهْ (١)

- وهو يؤمن بالقدرية المطلقة . فالإنسان يأتى . كما عبر فى أبياته السابقة مكرها ويرحل وهو مكره كذلك . ولذلك ينظر إلى الموت نظرة المخلص من العذاب والألم والتشاؤم هما الصبغة التى تلون شعور فوزى، مهما اختلفت الصيغ والمواقف وتغيرت الظروف والأماكن وتنوع الإحساس فالوجود عنده غارق فى دموعه فهو أتى بغير اختياره وتمنى لو لم يجىء إلى هذا الكون الشقى .

ومرة أخرى تطل رأس أبى العلاء بما تحمل من أفكار غامضة غائمة ضبابية من عينى فوزى المعلوف لنقرأ من خلال صمتها المفصح عن آلاف الأفكار إنه متأثر بقول أبى العلاء :

هـــذا جنـــاه أبـــى على وما جنيتُ على أحَـــدْ

وروحه تأخذ الطابع الرومنسى حين تنوح على كل شىء " فالرومانسيون هم القاشلون باختيار منهم ، الناعون ، النائحون بلا جنازة ، حاملو الأعلام السود ولسان حالهم يقول " خير للإنسان لو لم يولد " .

وهكذا فالبسمة تطوى والبهجة تخبو ، فيما ينتشر الدمع وتلتمع الجراح فالرومانسى يقيم لذاته مناحة ، وهو حى وينظم المراثى الذاتية وتراه كأرميا . مقيما على أطلال الحياة ، ملتطما ، معولا ، وربما تغالى فى ذلك ، فرثا نفسه وبكى مصيره منذ ولادته .(٢) وهو يترجم المعانى السابقة قائلا عن الطفل ساعة مولده :

ذرفـــت عينـــــه لـــدى رؤيـــة النـــــو	ر دمـــوعـــــا جـــرت بغـــير اختيـــــارهْ
نطقـــت عنــــه وهــــى عــى فكانـــــت	أول المـفـصـحـــــات عــــــن أفكـــــاره
هكـــذا الـزهـــر يسكـب الدمع عند الـ	ـــفجر مستـقـبـــلا سنى أنـــواره (٣)

---

(١) فوزى المعلوف : شعله العذاب : بين المهد واللحد ص ٢ .
(٢) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٥٤ .
(٣) فوزى المعلوف : شعلة العذاب : يوم مولدى ص ٣ .

وإذا كان سائر الرومانسيين يحنون إلى الطفولة حنينا هالعا إلى زمن جميل كانوا يحيون فيه حياتهم ، بدلا من أن يتفكروا بها . فإن فوزى يبدو أشد وعيا لفاجعتها لأنها تمثل البراءة التى سيفترسها الغدر ، والطهر الذى سوف تدنسه أدران الحياة والاستلام الذى سينكره العذاب ، والجمال الذى سيحيله القبح والحياة التى سيبتلعهما الموت . (١)

ونلاحظ أن التساؤلات القوية التى ناقش من خلالها لغز الوجود ، وقضية " المبدأ والمصير " لم تتطور إلى تساؤلات أعمق ولم تعمم إلى مناقشة قضايا أخرى فوقفت عند حدود التساؤل . ثم غرق الشاعر فى آلامه النفسية يصورها من زوايا متعددة وهذا يعطينا دليلا أكيدا على أن فوزى كان موقفه الأول والأخير من الوجود هو الرفض والموقف العدائى لكل ما فى الوجود من مظاهر والإحساس بعبثية الحياة وحتمية العدم ، واحتجاب الحقيقة .

كلمة أخيرة :

مما تقدم أستطيع أن أقول إن موقف المهجريين من الوجود يتمثل فى الحقائق الآتية :

أولا : الإيمان بوحدانية الوجود وهو ما نجده عند جبران ونعيمه .

ثانيا : الإيمان بقيمة الإنسان وأهمية دوره فى الوجود إلى حد بلغ التطرف عند نعيمه فنادى بفكرة " الإنسان الاله " .

ثالثا : فلسفة تناسخ الأرواح أخذت من أدبهم قسطا كبيرا ونادى نعيمه بمبدأ الحيوات المتعددة للشخص الواحد . وأطلق عليه . مذهب تجدد الشخصية .

رابعا : لم ينصب التأمل فى الوجود عندهم على أصل الكون ومتى وجد ؟ مثلما تعرض الفلاسفة لهذه القضية واختلفوا حولها .

وردوا أصل العالم إلى الماء أو النار أو الهواء أو العدد ،أو الذرة أو إلى الوجود نفسه .

وإنما تأملوا فى مظاهر الوجود الكونى وحقيقة الوجود الإنسانى وبحثوا عن حقيقة سعادة الإنسان وأدهشهم تناقض القيم التى تحوطه من كل جانب .

خامسا : اتسم موقف البعض منهم بالعداء للوجود . وصب شواظ غضبه عليه وخير شاهد على ذلك "

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف ص ٥٧ .

بساط الريح وشعله العذاب " لفوزى المعلوف .

لكن فى الأغلب كان أدبهم . إيمانا بالحضارة . والصبر على المكاره والإقدام بالعزيمة الصادقة على الكوارث والأخطار .

سادسا : التساؤلات والحيرة والشك الدائم فى كل شىء .. ولا شك أن الشك كان محور تفكير المهجريين عند نظرتهم للوجود . وهذه الصفة كانت مثار هجوم عليهم ونقد لهم ولأدبهم . وفى مقدمة هؤلاء المهاجمين الشاعر عزيز أباظه يقول :

والشك طابع شعر المهجر المميز له ، فنسيب عريضه . الشاعر الذى انسرح فى مرآة الحياة وأطال التأمل فى أسرار الكون ينوء ذهنه بالريب فى الحياة وما بعد الحياة فيقول :

شربْتُ كأسى أمام نفسى	وقلت يانفس ما المرامْ
حياة شك وموت شك	؟فلنغمر الشك بالمدامْ

ويقول : ومن المعلوم فى أدب الغرب أن الشك لون من ألوان الفلسفة الحديثة حتى إن ديكارت وضع له مذهبا محدد الأصول ولعل انتفاع أدباء المهجر بالأدب الأوروبى أورثهم هذه النزعة فشكوا فى كل شىء ولم يهتدوا إلى شىء . (١)

ولكن العقاد يدافع عن هذه الظاهرة ويرد على عزيز أباظة مفسرا ظهورها عندهم نتيجة للظروف الحياتية والثقافية وتقلبات حياتهم يقول " إن هذا التساؤل طبيعى فى مثل نشأتهم وثقافتهم وأطوارهم ، وتتقلبات حياتهم ، وقد انتهوا جميعا من تساؤلاتهم إلى سماحة الدين ونبذ العصبية الذميمة . والميتافيز يقاليست باب الحكمة الوحيد الذى طرقه الشعراء المهجريون . فإنهم نظموا حكمة الحياة فاجتمعت لهم من هذه الحكمة ذخيرة لا نظير لها فى بيئة أخرى من بيئات الشعر العربى الحديث .

(١) أنظر الشعر العربى فى المهجر لمحمد عبد الغنى حسن " المقدمة لعزيز أباظة " ص ١٤ - ١٥ .

الفصل الثالث

النفس الإنسانية

بين التصور الفلسفى وآفاق الرؤية الأدبية التاملية

تمهيد :

وبعد بيان موقف المهجريين من الوجود ، وتأملهم فى مظاهره وأسراره يأتى مظهر آخر من مظاهر التأمل عندهم . ويعد من أهم مظاهر التأمل عندهم ذلك المظهر هو " النفس الإنسانية "

وقد أتيت به بعد الوجود لأن الحديث عن النفس لا ينفصل عن الوجود فالنفس إحدى مسلمات الوجود. ولذلك ربما يتشابه الحديث عن النفس مع الحديث عن الوجود فى بعض المواقف .

فجبران يعتد بنفسه ويرى أنها بؤرة الوجود . فكل ما فى الوجود فى نفسه وحين يتكلم عن خلود الوجود يمنى نفسه كذلك بالخلود .. وقريب من هذا الموقف . موقف أبى ماضى فى قصدته " المجنون " حيث يتخيل أن الوجود فى قبضته ويهزأ بكل مميزات الوجود الأكبر ويقول فى عصبية وهو يعتقد أنه كل شيء فى الوجود وأن بداخل ذاته المحدودة ينطوى العالم .

فصـــاح الصـــوت مـــا أرجـــوه فـــــى نفســـى ومـــا أحـــــذرْ
فـمـهـمـــا رحـــب الأفـــــقُ فنفســى الأفـــق الأكـــبرْ (١)

ولم يغب عن وعى المهجريين ما يدور بنفوسهم من صراع وإحساس بمرارة الواقع والطموح الى الانعتاق من قيود المادة . كذلك تساءلوا عن طبيعة النفس وما هيتها هل هى فى الروح أم الجسد ؟ أم العقل ؟ أم القلب ؟ أم أن هذه القوى جميعا تمثل مانسميه بالنفس .. وما كيفية هذه الطبيعة ؟

هل النفس غارقة إلى أذنيها فى الشر ؟ أم أن بذور الخير مضيئة فى أعماقها ؟ أم أن الخير والشر يتعانقان فى داخلهما ؟ كما يعتقد نعيمه .

---

(١) أبو ماضى : الجداول ص ٥٤ .

كل هذه مشاعر طافت بداخل المهجريين وهم يواجهون النفس ويهربون من واقعهم إلى معالجة مشاكل النفس ، واستبطان أسرارها .

واذا تساءلنا عن سبب اهتمام المهجريين بالنفس نجد الإجابة العلمية فى ضوء حقائق علم النفس تقول بأن " هناك تفاعلا وتجاوبا بين الشاعر والعالم النفسانى فمن المعروف أن فرويد " قد أفاد كثيرا من شكسبير فى تفسيره لشخصية " هاملت " وهو التفاعل الذى لابد منه بين تيارات الحياة المختلفة فينتج عنه تأثر وتأثير بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، واضحة أو خفية ، وربما كانت جميع هذه التيارات تنبع من أصل واحد أو على الأقل تسير فى خطوط متوازية . والشطر الماضى من القرن العشرين شاهد على ذلك . فبرجسون فى الفلسفة ودوركيم فى الاجتماع ، وفرويد فى علم النفس وبروست فى الأدب كل أولئك كانوا مظاهر مختلفة لظاهرة واحدة هى روح العصر فليس غريبا على طبائع الأشياء أن يفيد علم النفس ممثلا فى فرويد من الشعر ممثلا فى شكسبير ، أو من القصة ممثلة فى دستويفسكى أو بروست أو من على شاكلتهما إذ أن الهدف فى كلتا الحالتين مشترك ، وهو كشف أكبر قدر ممكن من جوانب الحياة الإنسانية . (١)

ولهذا رأينا المهجريين يهتمون بالبحث الشعرى عن حقيقة النفس ويمنونها بالخلود ونلاحظ أن التأمل فى النفس الإنسانية من مميزات أدباء الرابطة القلمية أما شعراء الجنوب فلم نعثر على مثل هذا التأمل إلا فى شعر فوزى المعلوف حيث اشتملت مطولتاه على قضايا ذاتية نفسية تعانى من صراع بين عالم المادة وعالم الواقع وفى مطولة شفيق المعلوف " عبقر " دارت أحاديث عن النفس والجسد وبواعث اللذة والألم " غير أن شعر المهجر بصورة عامة قد شغل بالعلاقات الحية المباشرة بين الفرد والمجتمع . فلم يوجد فيه كثيرا الإحساس بانعزالية الفرد عن المجتمع وبذاتية عالمه وإنغلاقه على نفسه بل وجد فيه الإحساس بالفرد الإنسانى كوحدة من وحدات المجتمع تتفاعل معه وتنفعل باهتماماته . وتنشغل بقضاياه . (٢)

وفى دراسة موقف المهجريين من النفس سأتبع المنهج الآتى :

أ – التطلع إلى الانعتاق من أسوار الواقع المادى

ب – طبيعة النفس الإنسانية وما هيتها .

(١) د / عز الدين اسماعيل . التفسير للأدب ص ٢١ – ٢٢ .
(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٢٣٢ .

جـ - الصراع بين قوى النفس المختلفة .

مع الحرص على بيان أوجه التوافق والاختلاف بينهما ومظاهر التأثير والتأثر .

والبحث فى النفس موضوع قديم طرقه الأدباء والفلاسفة . والمتصوفون . وبحثوا فى حقيقتها وعنفوها وواجهوها بكل عنف . ؟

ومن المهم أن أذكر هنا مراحل المباحث العلمية النفسية والفلسفية وهى على الترتيب ثلاث مراحل .

أ - مرحلة الأيديالزم :

أو " طور البحث المثالى " الذى بدأه وأعلى بناءه أفلاطون .

ب - مرحلة " الريالزم :

أو طور البحث الواقعى أى البحث فى الواقع المشاهد الذى وضع أساسه أرسطو ، ونحا نحوه من أتى بعده من الفلاسفة ثم ضعف أمره حينا من الدهر ، ثم بعث مرة أخرى على أيدى الفلاسفة المسلمين .

وظل شغل الفلاسفة والمفكرين الشاغل حتى جاء العصر الحديث . فبدأت المرحلة الثالثة الأخيرة وهى .

جـ - اليوتيليترياتزم :

أى المذهب النفعى أو البرجماتزم أى المذهب العلمى الذى رفع لواءه فى أمريكا " وليم جيمز " العالم النفسانى المشهور ، وجون ديوى - الفيلسوف المربى الذائع الصيت .

ويتلخص هذا المذهب فى :

أنه لا يعنينا معرفة حقيقة الشىء ، ولا الإلمام بوظائفه وإنما تعنينا معرفة طرائق الانتفاع به .

ولقد سلكت المباحث النفسية هذا المسلك نفسه . فقد كان القدماء يُعْنَوْن بمعرفة حقيقة النفس وإدراك منشئها ومصيرها .

وجاء أرسطو فاتجه بفكره الثاقب إلى معرفة وظائف النفس وقواها وملكاتها واستعداداتها كالاحساس والتخيل والتذكر والتفكير وظل الفلاسفة من بعده ينهجون منهجه مع تغيير قليل أو كثير حتى جاء العصر الحديث فبذل علماء النفس جهودا متواصلة فى معرفة طرق استخدام الوظائف فى نواحى الحياة الإنسانية . (١)

وجدير بالذكر هنا أن بحث المهجريين فى النفس لم يكن بحث الفلاسفة أو العلماء النفسانين ، وانما هو بحث يدفعه الانفعال وتقوده العاطفة ويقننه الشعور .

ولذلك ظلوا فى بحثهم فى دائرة الطور المثالى " الأيديالزم " الذى بدأه أفلاطون ، ودائرة البحث " الواقعى " الريالزم " الذى بدأ به أرسطو وأحياه الفلاسفة المسلمون .

وستتضح هذه الحقيقة عندما نقف على حقيقة موقفهم من " النفس " ، وتشكله المحاور الآتية

أ - التطلع إلى الانعتاق من أسوار الواقع المادى :

تعمق فى نفوسهم هذا الإحساس واشتاقوا إلى الهروب لعالم آخر كالغاب ، أو ما وراء الطبيعة نتيجة لاصطدامهم بمتناقضات الحياة وعدم التكيف مع مثالبها ولنظرتهم المثالية البعيدة عن الواقع .

فجبران قد شعر بالغربة النفسية وعاش فى عذاب كبير يعانى من عذابات أشواقه للمجهول المحجوب عن خياله . وتمثل هذا الإحساس فى قصيدته " البلاد المحجوبة " إحساس بالغربة وانصراف عن الواقع المرير . ويحاول أن يجد الطريق الأمثل ليصل إلى عالمه المنشود . هذا العالم سراب أم أمل ؟ أمنام يتهادى فى القلوب أم غيوم طفن فى شمس الغروب .

ويقول ناقد " إذا كان جبران فى المواكب قد وجد أمنه النفسى ووحدته الروحية فى أكناف الطبيعة ، ورأى الغاب مثوى للحياة الناعمة بمسرات العدالة والحرية والمساواة وإذا كان فى كثير من نثره قد ألح على هذه الفكره ، وقد هجا المدينة هجاء مرا لاذعا فإنه فى البلاد المحجوبة لا يبحث عن عالمه الذى أمضه الحنين إليه خارج ذاته لأنه يجده أخيرا أمنية تشتعل بها الروح وينبض بها الوجدان ، وستظل كذلك بومضها ونبضها ، وسيظل الكائن البشرى متحرقا إلى مرفأ مجهول ليس من سبيل للوصول إليه (٢) وليس صحيحا أن جبران قد وجد أمنه

(١) حامد عبد القادر : دراسات فى علم النفس الأدبى ص ٠ - ١١ .

(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ١٨٢ .

النفسى فى المواكب فقد كانت حلبة لصراعه النفسى بين واقعه وبين مثاليته حيث تفاقم الصراع فى نهاية القصيدة وأحسسنا بإرهاق الشاعر بعد هذه المناظرة الحادة بين واقعه ومثاليته . فقد أحس الشاعر رغم كرهه للمدينة أنها لا تزال تشده وتضغط عليه بما تحمل من مغريات وفى النهاية بينتصر الشر فى نفسه على الخير وهو كاره لذلك الانتصار الذى تتمثل فيه كل آلامه وبتأمل النص ندرك هذه الحقيقة التى أغفلها الناقد .

لكـــن هـو الدهـر فـــى نفسـى لـــه أرب	فـكلمـا رمـت غـابــا راح يعتــــذر

وأحيانا نرى جبران .. يفكر فى الموت ليهرب من عالمه النفسى الرهيب فالموت فى تصوره هو الحل الأمثل لكل مشكلات وجوده :

شاخـــت الـــروح بجسمـــى وغـــدت	لا تـــرى غيـــر خيـــالات السنـــينْ
فاذا الأميـــال فـــى صـــدرى مشـــت	فـبـعـكـــاز اصـطبـــارى تستعـــينْ
والتـــوت منـــى الأمانـــى وانحنـــت	قبـــل أن أبلـــغ حـــد الأربعـــينْ
تـــلك حالـــى : فاذا قالـت رحيـــل	ماعســى حـل بـه قـولـوا الجنـــونْ
وإذا قـــالـــت أيشـفـــى ويــــزول	مابــه قـــولـــوا ستشفيـه المنـون (١)

والفكرة القائلة بأن الموت مخلص أو شاف ترجع إلى الفلسفة اليونانية ورائدها سقراط فهو قد قابل حكم الإعدام هاشا باشا غير هياب ولا وجل مما يدل على إيمانه بأن هناك حياة أخرى تتخلص فيها النفس من سجن الجسد وقضبانه المادية وقال لاثنين من اتباعه وهما . سيحاس ، وشيبيس حين سألاه فى اليوم الذى كان ينتظر نفاذ الحكم فيه أن يفسر لهما سلوكه عندما رفض الفرار من سجنه بعد أن هيئت له جميع أسبابه .

فقال سقراط " نعم إنى أعترف أنه لولا اعتقادى أنى سوف أذهب أولا صوب آلهة أخرى حليمة ورحيمة ثم بعد ذلك نحو رجال ماتوا هم خير من رجال هذه الحياة الدنيا . لكان من الخطأ الفاحش أن لا تثور نفس ضد الموت ، وحينئذ فلا وجود لنفس الأسباب التى تدعونى إلى الثورة فى هذه الظروف ، ولكنى على العكس من ذلك كبير الأمل فى أن هناك شيئا من وراء الموت . (٢)

(١) جبران : البدائع والطرائف : بالأمس : ص ١١٠

(٢) د / محمود قاسم دراسات فى النفس والعقل ص ٢٩ - ٣٠ .

وأحيانا يهرب جبران من نفسه إلى عالمه المنشود الذى يرمز له بالليل ويقول :

" عندما ملت نفسى البشر ، وتعبت أجفانى من النظرإلى وجه النهار سرت إلى تلك الحقول حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة . هنالك وقفت أمام كائن أقتم مرتعش . سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية ". (١)

واهتم نعيمه نتيجة لتأملاته الطويلة فى الحياة والطبيعة بالروح قبل الجسد وبالخالد قبل الفانى ، وبالجوهر الأزلى قبل العرض الترابى . وبذات الإنسان التى لا تموت قبل ذاته الفانية . فوجه إلى هذه الناحية كل عنايته وركز فيها خلاصة أدبه وخلاصة عقيدته وإيمانه المطلق .

وموقف نعيمه موقف ميتافيزيقى بعيد عن الواقع بمعنى أنه لم يواجه نفسه وحقيقتها العارية ولم يضع ذاته على طاولة : التشريح . ليفند عيوبها ، كما فعل جبران فى بعض المواقف وعنده أن النفس لا تتعدد وإنما هى نفس واحدة يلتقى الكل فى دائرتها وذلك نابع من إيمانه بوحدة الوجود ومن هذا المنطلق تتكون آراء نعيمه فى النفس ويبدأ رحلته لمعرفة أسرارها قائلا : ليس هناك أنا وأنت وهو . فأنا كل إنسان وكل إنسان هو أنا فإذا أحببت إنسانا أحببت نفسى وإذا أسأت إلى إنسان أسأت إلى نفسى . (٢)

ونتيجة لإحساسه بأنه غيره ، وغيره هو . ولا فاصل بينهما يصف من يؤمنون باستقلال النفوس وحتمية الفواصل بأنهم واهمون وعقيدتهم وهم خطير ويقيم دليلا على ذلك يقتطعه من جذور الحياة فيقول " إن الوهم الذى تتفرع منه كل أوهام الإنسان هو اعتقاده أن له ذاتا منفصلة عن كل ذات وحياة مستقلة عن كل حياة وإذا سأل الإنسان نفسه . من أنا ؟ لما تمكن من إقامة حد بينه وبين شىء . أو لستم ترون أنكم إذا شربتم قطرة من الماء فكأنكم شربتم البحار كلها ؟ لأن لكل قطرة فى كل بحر صلة بالقطرة التى تشربون .(٣)

وفى الحقيقة أن فكرة فناء النفس الذاتية فى الوجود الكلى من أصل هندى ولعل مثلها الأول فى الفلسفة الإسلامية أبو يزيد البسطامى . الصوفى الفارسى قد تلقاها عن شيخه أبى على السندى .

---

(١) محمد عبد المجيدفى عالم الأدب ص ٣٩ .

(٢) م . نعيمه : زاد المعاد ص ٥٣ .

(٣) السابق ص ٦٣ .

ومن بعض أقواله " غبت عن الله ثلاثين سنة ، وكانت غيبتى عنه ذكرى إياه فلما خنست عنه وجدته فى كل حال حتى كأنه أنا " .

ويقول : ثم تنقلت من إله إلى إله حتى نادوا منى فى " أنت أنا " وهذه كما ترى ليست البوذية . وإنما هى حلولية " الفيدنتا " (١)

ونعيمه حين يترجم الفلسفات الشرقية القديمة ويحيلها إلى شعور نابض بالحياة فهو بذلك يبحث عن خلاصه النفسى ويجد فى الانصراف عن العالم المرئى فى محاولة لاستبطان ذاته والاستماع إلى ما يساورها من أشجان .

يقول من قصيدته " لوتدرك الأشواك (٢) مؤكدا توحد نفسه وتفردها بأنغامها :

يا مرسل الألحان من عوده سحرا يهيج الصب حتى الجنون
إما رأيت الرأس منى انحنى والعين غابت خلف ستر الجفون

فلا تقل ذى حال ولهان

لا لست بالولهان ياصاحبى فالقلب منى جامد كالجليد
لكننى مصغ لنفسى ففى نفسى أوتار وفيها نشيد

فاضرب ودعنى بين ألحانى

ومثلما صنع نعيمه لنفسه عالما ذاتيا غير العالم المرئى اختار « نسيب » أن ينأى بنفسه عن عالم الواقع . وصنع لنفسه عالما ذاتيا مبتعدا عن الناس ويختلف هروب نسيب عن هروب نعيمه – ويشبه إلى حد كبير هروب جبران فابتعاد نسيب عن عالم الناس كان عزوفا عن هذا العالم المتبذل ريبة منه فى أخلاقه وعاداته . ولقد تجسدت هذه العزلة عن الناس أمام غيبة قواه النفسية " وتمثل . النفس والجسم والقلب والعقل " قوى متصارعة زاد فى صراعها مزاجه المرتبط بالكآبة والتشاؤم فكان تصويره للصراع بين قوى نفسه المتعددة أشبه بتصوير عراك بين مجموعة من البشر واتخذ خطابه لنفسه أو لقلبه أسلوب الزجر والتعنيف كما فى أسلوب المتصوفة المسلمين وزجرهم للنفس الأمارة بالسوء . (٣) وهذا الموقف من النفس عند نسيب عريضه مخالف لموقف جبران الذى أعطى لنفسه قيمتها وجعلها معلما وواعظا وشعلة مضيئة

(١) أ رنيكلسون : الصوفية فى الإسلام ص ٢٣
(٢) م . نعيمه همس الجفون ص ٣٠ .
(٣) د . أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٣٠٨ .

تغذى فكره وروحه .

ويرى .. نعيمه أنها مصدر المعرفة لكل مافى الوجود .. أما نسيب عريضة فنحن نحس أن النفس راجفة ترتعد أمام هذا الاستحثاث الصارم :

لـــــاذا وقفـــــت بخـــوف وحيره ؟
أيا نفـــس عـــند الطـريق العسيرة
ألا امـــشى .. فـــان الحيـاة قصيرة

وحاول رشيد أيوب أن يهرب من واقعه فكان هربه رومانسيا بعيدا عن التفلسف فهو قد شاد من الأحلام قصوره المبتغاة ورأى فيها خلاصه المنشود يقول من قصيدته : جزيرة النسيان :

ورحـــت فـــى الحلـــم قـصـــرى — فـــوق النجـــوم مُـشَيَّـــدْ
والمـــرء لـــولا الأمـانـــــى — تـــمـــوت فيـــه وتـــولـــد
لـــا رأيـــت علـيـــها — إلا الـحـزيـــن المنكَّـــدْ (١)

وويقول من قصيدة " قصرى " :

قصـــرى بنـــاه الوحى رحب المجـال — فـــى القبـــة الزرقـــاء منـذ الوجـــود
فأرقصـــن فيـــه يابنـــات الخيـــال — ياحبـذا منكـــن هـــز القـــدود
وامرحـــن فـــى ساحـات ذاك الجمـــال — والبســـن مـــن تـلك الـدرارى عقـــود
تلـــوح فـــى وهـــم الليالـــى الطـــوال — علامـــة للنفـس فـــى زهـــدها (٢)

وربما رمز إلى نفسه " بهند " وخاطبها قائلا :

يا هنـد قـد فســـد الزمــــا — ن وراج قـــــول المـرجـــــف
فهلـــم نذهـــب فـــى الظـــلا — م الـــى الجبـــال ونختفـــى

هـــل تذهبـــين

(١) أغانى الدرويش ص ٣٠ .
(٢) السابق ص ٨ .

وهنـــــــــاك نســـــــــرح مثلمـــــــــا　　الاطـــيار تســـرح فـــــى الـــــفضا

مـــــتوكلين علــــــى المقـــــــــا　　در صابــــريـــــن علـــــى القضــــا

كــــــالزاهـــــــدين(١)

وكان رشيد أعمق من سائر رفاقه إحساسا بأنه هارب وأكثرهم حديثا عن اللذة التى يجد لها فى عزلته وهربه ، وأكثرهم إلحاحا على المعانى المتصلة بهذه العزلة وذلك الهرب ، فهو الدرويش المغترب الذى يرعى النجم ويخفق قلبه للبرق ويبكى لصوت الناى ، وهو صاحب القصر الخيالى البعيد الذى سينقذه من همومه ، والخمر دائما حاضرة مهيأة فى دنياه وجزيرة النسيان فردوسه الجميل لا يغيب عنها إلا إذا اختفى فى ذكريات الطفولة وربوع الوطن . أو فى جبال نائية أو ألقى عصاه عند خيمة الناطور (٢)

ورشيد أيوب لا يلوم النفس على هذا الهروب إلى عالم الأحلام والتسلى به ولكنه يعدها رشيدة ، ولائمه على سهده ونواحه وهو الضال عن الحقيقة :

فـــان رأيـــت الدمـــع منـــى يسيـــــل　　فـــذا بشـــرع الحب عـــين الصـــلاح

أو قلـــت قصـــــرى ماعليــــه دليــــل　　أقصـــــر وخـــــل النفـــس فى رشـدهـا

وقد يتردد بعضهم بين الهروب بنفسه عن العالم المادى ، وبين الاقبال عليه ومحاولة تجميله ، مثل أبى ماضى الذى يهدهد نفسه ويسير بها فى طريق خال من الدموع والكآبة . ويمنيها بالحياة فهى نفس اجتماعية . يقترب بها من المرحلة الثالثة فى البحوث النفسية وهى " اليوتيليترياتزم " أى المذهب النفعى أو البراجماتزم أى المذهب العملى الذى رفع لواءه فى " أميركا " وليم جميز . وجون ديوى . لكن جبران يبحث عن ماهيتها فهى نفس فلسفية ، ونعيمه ونسيب يعنفانها فهى عندهم مرتبطة بالشيطان ولذلك عداها سجنا للروح . وتكاد النفس عندهما تراد ف الجسد .

---

(١) رشيد أيوب : هى الدنيا ص ٤٣

(٢) الشعر العربى فى المهجر ص ٢٣٠ د / إحسان عباس ومحمد يوسف نجم .

يقول أبو ماضى مخاطبا نفسه :

يـانفـس هـذا مـنزل الأحـباب ... فـانسى عـذابك فـى الـنوى وعـذابى
ولتمسـح الـبشرى دمـوعك مثلما ... يمـحو الصـباح نـدى عـن الاعـشاب

وقد يبدو الموقف غريبا من أبى ماضى فالتفاؤل يكون غالبا فى عهد الشباب ويتطور الأمر إلى النهاية المأساوية عندما يحس المرء بدنو الأجل . فالموت النهاية المسيطرة دائما . لكن أبا ماضى يدور فى حلقة لا تعرف لها بداية ولا نهاية لكن قطر دائرته مغلف بالتفاؤل . وقد قال هذه الأبيات فى ديوانه الأخير " تبر وتراب " ويتابع تفاؤله ويقارن بين ماضيه وحاضره فيقول من قصيدته " الرأى الصواب " (١)

قـد كنت مثل الطائر المحبـوس فـى ... قفـص ، ومثـل النجم خلف ضبـاب
يمـتـد فـى جنـح الظـلام تأوهـى ... ويطـول فـى أذن الزمـان عتابـى
وأهـز أقلامـى فترشـح حـدة ... وأسـى وينـدى بالدمـوع كتابـى
حتـى لقيتكـم فبـت كأننـى ... لمسرتـى استرجعـت عصـر شبابـى

ويعلن أبو ماضى ثورته على الهروب ويدعو إلى إصلاح العالم والتعاطف مع المعذبين ويثور على حياة الغاب " برغم أن جبران طالما حنَّ إليها ، فالغاب يتخذه الشاعر رمزا للسيطرة والقوة فيقول :

قـد ترقـى الخلـق لكـن لم تـزل ... شرعـه الغابـة شـرع الأقويـاء (٢)

والقفر الذى تخيل الشاعر قديما أنه يعيش فيه وأنشأ قصيدته "فى القفر" وقال :

خلـت أنـى فى القفـر أصبحت وحدى ... فإذا النـاس كلهـم فـى ثيابـى

نرى الشاعر يثور على القفر أيضا ويشارك الناس آلامهم بنفس كريمة سمحاء يقول :

(١) تبر وتراب : أبو ماضى ص ١٠٦
(٢) السابق ص ٩١ .

ليس التعبد عزلة وتنسكا	في الدير أو في القفر أو في الغاب
لكنه ضبط الهوى في عالم	فيه الغواية جمة الأسباب

وينادى بإعطاء النفس حقها من الحياة والبعد بها عن العزلة كذلك يحب النفوس المعطاء التى لا تبخل بقدراتها وماملكت يداها على الغير فيقول فى أسلوب يجمع بين الكناية والاستعارة والتشبيه الضمنى . وكانت هذه طريقة أبى ماضى فى تصويره خواطره وتوصيل أفكاره يقول :

كن وردة طيبها حتى لسارقها	لا دمنة خبثها حتى لساقيها
ان كانت النفس لاتبدو محاسنها	فى اليسر صار غناها من مخازيها
السجن للماء يؤذيه ويفسده	والسجن للنفس يؤذيها ويضنيها
فما تعكر إلا وهو منحبس	والنفس كالماء تحكيه وتحكيها [1]

– ٢ –

طبيعة النفس وماهيتها :

وبهر المهجريون بأفكار الفلاسفة فى موضوع النفس وحقيقتها فترجموا هذه الأفكار شعرا . واستطاعوا أن ينتصروا على جفاف الفكر الفلسفى المجرد بأنفاسهم الشعرية الحارة . فبحثوا عن حقيقة النفس وطبيعتها . وهذه مرحلة " الأيديالزم " أو طور البحث المثالى الذى بدأه وأعلى بناءه أفلاطون .

فجبران كما قلت سابقا : عقيدته الأساسية وحدانية الوجود . وبدافع من هذه العقيدة اعتد بذاته وبنفسه أو تصور أنها تنطوى على الوجود كله . فإذا ما أضنى الإنسان التفكير فى الأشياء من حوله ، وإذا ما هربت حقيقته من كل المسميات التى تجود بها تجربته فى الحياة فما عليه لكى يستريح إلا أن يسلم بأن الوجود صورة منه بل إنه هو الوجود بعينه . [2]

ويتطور موقف جبران من الاعتداد بذاته إلى أن يراها مصدر كل معرفة فى الوجود وفي

---

(١) السابق ص ٦١

(٢) د أنس داود / التجديد فى شعر المهجر ص ١٩١ .

مقالة له بعنوان " النفس " يقول :

النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الهشيم وتنمو بالأنواء وتنير أوجه الآلهة ،النفس كالزهرة تضم أوراقها أمام الظلمة ، ولا تعطى أنفاسها لخيالات الليل . (١)

وهو فى قصيدته " الجبار الرئبال " يعطى لنفسه أنها تتقمص ظل القدر والحب والموت المريع ، ثم المجد ثم السر الذى يتهاوى بين روح وبدن . ثم فى النهاية تعلن النفس عن ذاتها هى فقط ولا غيرها الكامنة فى الطيف الهائل . يقول بعد الحوار الذى دار بينه وبين ذلك الطيف .

قـــال محجوبـــا انـــا أنـــت فـــلا تسألـــين الأرض عـــــنى والسمـــــــــا
فـــاذا ماشئـــت ان تـــعـرفـنـــــى فــــارقب المـــرآة صـــبحا ومـــسا (٢)

وهو فى هذه القصيدة يمزج عقله بعاطفته وتسيطر عليه النزعة العقلية فى تفكيره فهو يصنف أولا ذلك الطيف . وكأنه يمهد لنا حتى تهيىء أنفسنا للحوار القادم ويجادل الطيف حين يسأله عن حقيقته .. ثم يقيم الحجة عليه فى تسلسل منطقى حتى عجز الطيف عن مجادلته.. فاختفى عنه وقال "أنا أنت ".

والنفس عنده معلم كبير ومصدر للمعرفة الكونية كما وضحت ، وهو يجعل منها واعظا يعلمه مالا يعلم الناس ، ويبين به ما يخفى على الناس . يقول فى مقالته " وعظتنى نفسى " .

وعظتنى نفسى فعلمتنى حب ما يمقته الناس . ومصافاة مايبغضونه وأبانت لى أن الحب ليس بميزة فى المحب بل فى المحبوب .

وعظتنى نفسى فعلمتنى أن أرى الجمال المحبوب بالشكل واللون والبشرة .وأن أحدق متبصرا بما يعده الناس شفاعة حتى يبدو لى حسنا .

وعظتنى نفسى: فعلمتنى الإصغاء إلى الأصوات التى لا تولدها الألسنة ولا تضج بها الحناجر .

وعظتنى نفسى: فعلمتنى أن أشرب مما لا يعصر ولا يسكب بكؤوس لا ترفع بالأيدى ولا تلمس بالشفاه. (٣)

---

(١) محمد عبد المجيد : فى عالم الأدب
(٢) جبران : البدائع والطراف ص ١٠٧
(٣) [illegible] مقالة النفس (٢٤ ـ ٢٧)

ويستمر جبران فى عرضه الشعرى المشبوب المقدر لقيمة نفسه وكيف أنها حولته من الالتصاق بالأرض إلى اختراق الحجب ، ومن القناعة بالعرض إلى التنقيب عن الجوهر المكنون فى أصداف الحقيقة ، فقد علمته أن فى الهنيهة الحاضرة كل الزمن بكل ما فى الزمن مما يرجى وينجز ويحقق ، وعلمته أن مكانا حل فيه هو كل مكان ، وأن فسحة شغلها هى كل المسافات ونفسه إذا كانت علي هذه الشاكلة فالخلود مصيرها .

وهذه النفس التى ينشدها جبران لها صلة بالنفس التى أجلها الفلاسفة وهى المزودة بالحدس . وهو كما يقول الغزالى مفتاح أكثر العلوم .

ويقول عنه ابن سينا " هو ضرب من النبوه ، أو قوة قدسية ، وهى أعلى مراتب القوى الإنسانية .

وهذه المرتبة القدسية هى كمال النفس الخاص لأنها تصبح به عالما عقليا موازيا للعالم الموجود . مشاهدة لما هو الحسن المطلق ، والخير المطلق ، والجمال الحق وكلما ازداد الناظر فى المسائل استبصارا ازداد للسعادة استعدادا فكأن الإنسان لا يتبرأ من هذا العالم وعلائقه إلا إذا أكد العلاقة مع ذلك العالم . فصار له شوق إلى ماهناك ، وعشق لما هناك . يصده عن الالتفات . (١) إلى ما خلفه .

وفى مقالته " نفسى مثقلة بأثمارها " يوضح هدفه فى إعطائه للنفس قيمة كبرى ويعتمد فى تجسيم فكرته على الاستفهام الذى يوحى بأشواقه الحرى للعطاء . ثم التمنى والوصف ، كل هذا يغلفه إحساس عميق مرتكز على محبة الوجود بأسره .

وكثيرا ما يخص جبران النفس بالمقالات المنفردة العديدة والقصائد أيضا وقصيدته " يانفس " تؤكد معتقده فى خلود النفس ... وقضية خلود النفس وحدوثها اختلف فيها الفلاسفة فهى عند أفلاطون قديمة وهى قد وجدت قبل وجود الجسد وهى شقيقة المثل هبطت على كره إلى العالم المحسوس . واتصلت بالجسد فهى إذن صورة من صور الملأ الأعلى .

ويرى ابن سينا وأرسطو والفارابى أنها حادثة وليست قديمة والنفس عند ابن سينا صورة الجسد . وقال :

---

(١) جميل صليبا : من أفلاطون الى ابن سينا ص ١١٩

انمـــا النفـــس كالزجاجـــة والعلـــــم ســـراج وحكمـــة اللـــه زيـــت
فـــإذا أشـــرقـت فإنـــك حـــي وإذا أظلمـــت فـــإنـــك ميـــت

وجبران يندمج فى الطبيعة ليأخذ منها القياس المنطقى حتى يقيم الدليل على دعواه فيقول :

يا نـفـــس إن قـــال الجـهـــول الـــروح كالجســـم تـــزول

ومـــا يـــزول لا يعـــود

قـــولـــى لـــه ان الزهـــور تمضـــى ولكـــنَّ البـــذورْ

تبقـــى وذاكنـــه الخلـــود

ويقع جبران فى عيب الاستطراد النثرى والمقابلة المنطقية التى تنأى بشعره أحيانا عن الايحاء المكثف فهو عندما يقول " الروح كالجسم تزول " يأسره شكل القصيدة فيضطر الى أن يحكى ما هو معروف فيقول : وما يزول لايعود .

وجبران فى فهمه لطبيعة النفس لا يحدد لها طبيعة فلسفية كما هو الشأن عند فلاسفة الإغريق والإسلام والمسيحية ولكنه يخلط أحيانا بين النفس والروح وهما فى الغالب عنده بمعنى واحد .

* *

ويشتاق نعيمه إلى معرفة نفسه . ويتساءل عن طبيعتها وما هيتها وفى ديوانه " همس الجفون " قصيدة طويلة عنوانها " من أنت يانفس (١) تبلغ خمسة وثلاثين بيتا .. وهى تنهج نهجا تعبيريا متميزا . وهو أسلوب الشرط والجواب .

يصف فى الشرط مظاهر الطبيعة كالبحر والرعد والبرق والريح والفجر والشمس والبلبل

(١) أنظر القصيدة كاملة بديوان همس الجفون من ١٦ - ٢١ .

الصداح . ثم يفسر فى الجواب مدى تاثير الطبيعة فى النفس ويحتار وتبدو هذه الحيرة فى تساؤلاته التى تغلفها الدهشة لأن النفس تلتحم التحام العاشق بكل مظهر من المظاهر السابقة .

فعندما يراها تناجى البحر فى أحواله كلها باكيا أو طاغيا أو ثائرا يحسبها عنصرا من عناصره فيقول لها " هل من الأمواج جئت " ؟

وعندما يراها تخطف من البرق لظاه . ومن الرعد صداه يحسبها من عنصر النار فيقول لها "

هـــل مـــن البـــرق انفصـلت "
أم مـــع الــــرعد انحـــدرت

وحينما تعرض عنه وتصغى للرياح يحسبها من عنصر الأثير فيسألها فى حيرة شديدة " هل من الريح ولدت ؟

وحينما يسمعها تبتهل إلى الفجر وتخر أمامه ساجدة .يحسبها منبثقة من النور فيسألها " هل من الفجر انبثقت ؟

وحينما يرى سهادها وهى ترقب مضجع الشمس من بعيد ينادى فى لهفة وغيره " هل من الشمس هبطت " ؟ .

وحينما تتلظى النفس شوقا وحزنا ، والهوى بعيد عنها . يخاطبها فى أسى وحب فأخبرينى ، هل غنا البلبل فى الليل بعيد

ذكـــر ماضيـــك إليـــك
هـــل مـــن الألحـــان أنت ؟

والواقـع أن نعيمـه وهو يعرض هذه المشاهد إنما يعرض أمامنا أشواقه إلى معرفة نفسه ، وقـد اتبـع أسلوب التجريد المشهور فى البلاغة العربية ، وكان فى عرضه لمشاعره أكثر تقديرا لنفسه وامتلاكا لناصية فنه وتحكما فى مشاعره وإمتاعا للعاطفة من أبى ماضى فى " طلاسمه ".

لأنه بعد هذا الحوار الشائق الممتع وضع الحل الحاسم اقضيته . وبعدما تفتحت معه

قلوبنا ، ونشطت عقولنا ، وحلقت أخيلتنا ، وتعبت أحاسيسنا وتاهت توقعاتنا ، جمع الأضواء التى تخيلناها مبعثرة فإذا شعاع مركز حوي كل الألوان ومنه تنطلق النفس هو نور الإله .

أيه نفسـي أنت لحـن فى قدْ رنّ صداه
وقعـــتك يدفنـــان خفـــى لا أراه
أنت ريح ونسيم ، أنت موج ، أنت بحـر
أنت برق ، أنت رعد ، أنت ليل ، أنت فجر
أنـــت فيـــض مـــن إلـــه ! (١)

وتتوفر لدى نعيمه القدرة الفنية على تطويع الموضوعات الفلسفية للشعور الفنى فلا نكاد نحس بثقل معانيه أو جفاف أفكاره التى يصبها فى قالب شعرى فالفكر والعاطفة يتعانقان فى أفقه الفنى ، والقلب والعقل يمتزجان بخياله الفسيح وحين يرى نعيمه أن النفس فيض الهى فهو يجدد صدى ماقاله الغزالى متبعا خط ابن سينا والفارابى فى مسألة طبيعة النفس . وكذلك تلمح خيوطا دقيقة من فلسفة سقراط الذى يعتقد أن فى النفس عنصرا إليها ويراها أفلاطون صورة من صور الملا الأعلى .

ويمكن أن يكون نعيمه قد تأثر بالفلسفة المسيحية وهى تأثرت بالفلسفة الاسلامية لأن " المسيحين فى غرب أوروبا وقفوا أولا على آراء الفارابى والغزالى وابن سينا وتأثروا بها ، ثم جاءتهم شروح الفيلسوف القرطبى لأرسطو وكتبه الخاصة فظهر أثرها فى تفكيرهم .

ويمكن القول بأن هناك مرحلتين لتأثير الفلسفة الإسلامية فى الفلسفة المسيحية وهناك طبقتين من أتباع هذه الفلسفة فى أوروبا . ومن الطبقة الأولى " ألبرت الأكبر " .

الذى تتلمذ على الفارابى وابن سينا وأخذ عنهما كثيرا من الآراء كنظرية الفيض وما تستتبعه من القول بوجود عقل فعال تفيض منه المعانى على النفوس الإنسانية .

ومن الطبقة الثانية " توماس الاكوينى " الذي أخذ عن الفيلسوفين سابقى الذكر وعن الغزالى إلى حد كبير جدا آثار أبى الوليد بن رشد . (٢)

---

(١) همس الجفون : ميخائيل نعيمة .
(٢) أنظر كتاب : فى النفس والعقل د / محمود قاسم ص ١١٩ – ١٢٠ .

والنفس عند الغزالى جوهر أو ذات روحية تفيض من واهب الصور " ولست أتحرى الدقة فى إثبات تأثر نعيمة بهذا أو ذاك . ولن يتيسر ذلك أن أردت .

وإنما قصدت إلى التنويه بالأصول الفلسفية التى يستقى منها نعيمه أفكاره ويصورها فى براعة فنية تحيلها إلى شىء أشبه بالجديد وبخاصة فى عالم الشعر .

وامتدادا لهذه النظرة تتدمج النفس البشرية فى الطبيعة حتى تكونا فى النهاية مخلوقا واحدا هو الطبيعة البشرية يقول .

" الطبيعة جسد واحد يحيا بروح واحدة . وإنا ما سمعناها يوما تقول :

هذا لى . وهذا ليس لى بل كل ما فيها لها وهى لكل ما فيها فلا مالك ولا مملوك "(١) وهو يلتقى مع جبران فى هذا المفهوم ويبالغ جبران ويرى أن العالم يندمج فى نفسه ويرى نعيمه أن الحواس تخدعنا حين تعطينا قتامة الحياة وبرودتها . تخلخل العالم ونهايته . ولكن الحقيقة ليست فى جانب الحواس . فطريق المعرفة الصحيحة كما هو عند جبران النفس " يقول ميخائيل نعيمة من قصيدته الطريق

نحن يابنى عسكر قد تاه ققفر سحيق
نرغب العود ولا نذكر من أين الطريق
فانتشرنا فى جهات القفر نستجلى الأثر
نسأل الشمس عن الدرب ونستفتى الحجر
وسنبقى نفحص الآثار من هذا وذاك
ريثما ندرك أن الدرب فينا لا هناك (٢)

---

(١) م . نعيمة : زاد المعاد ص ٩٢
(٢) م . نعيمة : همس الجفون ص ٤٦

ويتأثر نسيب عريضه بأفلاطون فى تقسيمه للنفس إلى ثلاث نفوس تقوم كل منها بذاتها بحيث تكون إحداها وسيلة للاتصال بالعالم الحسى . وأخرى للاتصال بعالم العقل والثالثة كرباط بين هذين الوجهين وبرغم اقترابه من أفلاطون ودورانه فى فلكه نرى أنه اقترب فى نظرته إلى العلاقة بين الروح والجسد من " عينية ابن سينا " أو بالأحرى قل إنه اغترف من هذه العينية وتشرب آراءه منها ولكن نراه قد عاد إلى أفلاطون فى تصويره للصراع بين قوى النفس حيث بدت عنده كما كانت تبدو عند أفلاطون منقسمة انقساما واضحا بينما يرى ابن سينا أن النفس جوهــر بسيــط وأن وجــوده فـــى البدن لا يشوه طبيعته فيظل واحدا على الرغم من تعدد وظائفه " (١)

ونلاحظ أن نسيبا خلط بين مفهوم النفس والعقل والقلب . والجسد مع أن الفلاسفة فرقوا بين هذه القوى .

فالغزالى يرى أن النفس جوهر أو ذات روحية تفيض من واهب الصور ويرى أن العقل يستخدم فى الدلالة على أحد معان ثلاثة .

فقد يطلق ويراد به العقل الأول وهو أول المخلوقات تبعا لما جاءت به نظرية الفيض أما المعنى الثانى فملخصه :

أن العقل يطلق ويراد به النفس الإنسانية بمعنى أن جوهر النفس عقل وتفكير وأنها من عالم العقل .

والمعنى الثالث : يستخدم فيه لفظ العقل للدلالة على إحدى صفات النفس وهى الإدراك الذى يقابل الإحساس .

ويخلط ابن رشيد بين الروح والنفس فيراها بمعنى واحد ويعد الكلام فى أمر النفس هو الكلام فى أمر الروح .

ويبين الفارابى العلاقة بين الجسم والنفس قائلا :

" إن لك منك غطاء فضلا عن لباسك من البدن . فاجتهد أن ترفع الحجاب وتتجرد . وحينئذ تلحق ، فلا تسأل عما تباشره . فإن ألمت فويل لك وإن سلمت فطوبى لك . وأنت فى بدنك

---

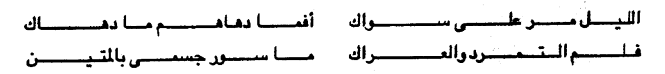
(١) د / محمود قاسم / فى النفس والعقل ص ٧٩ .

كأنك لست فى بدنك . (١)

ويبدو أن نسيبا لم يتح له وإن شئت فقل لم يجهد نفسه فى الاطلاع على المذاهب الفلسفية وإنما صاغ أفكار المتصوفين المتواردة فى البيئات الثقافية شعرا أكثر من التساؤلات التى تعطى لانفعالاته أبعادا فنية قيمة .

وفى كتاب الميزان الجديد " يخصص د / مندور دراسة مستقلة لقصيدة يانفس" لنسيب عريضة ، وقد أولاها عنايته بالشرح وحازت إعجابه لأنها كما قال " تحرك عدة مسائل هامة .. وهذه المسائل كثيرة كما حددها الناقد ولكن لا يهمنى سوى ما يتعلق بالتأمل بسبب ما يمت إليه بصلة ويرى د / مندور أن الجسم سجن للنفس عند نسيب عريضه ويقول إنها فكرة إغريقية قديمة .. (٢) ومن المعروف أن من نادى بهذه الفكرة أفلاطون الذى يرى أن النفس قد قضى عليها أن تهبط إلى العالم الحسى وعليها أن تتطهر حتى تصعد مرة أخرى إلى عالمها الأول والصعود إنما يتيسر لها عن طريق المعرفة الحقة فإذا هى عرفت حقيقتها أخذت تتحرر عن البدن وتصعد شيئا فشيئا حتى مشارف العالم الذى هبطت منه .

يقول نسيب :


الليـــل مـــر علـــى ســـواك	أفمـــا دهـاهـــم مـا دهـــاك
فلـــم الـتـمـــرد والعـــراك	مـــا ســور جسمـــى بالمتيـــن

ومن طبيعة النفس عند نسيب الشك والاضطراب . ولذلك يستحثها أن ترجع إلى صوابها وتبدل شكها باليقين :

يانـفـس مـالـك فـــى اضـــطراب	كـفـريســـة بـيـن الـذئـــاب
هـــلا رجعـت الـــى الصـــواب	وبـدلـــت ريبـــك باليقـــين

ومن الملاحظ أن د / مندورفى عرضه للقصيدة لم يُعْنَ بفكرة الشاعر الكلية وفلسفته الخاصة . وتأثراته وتأملاته الروحية ، وإنما عُنِىَ بما قدم للقصيدة بالموسيقى وأثرها فى ابراز الصدق الشعورى ، وعُنى ببيان عمق الصور عند المهجريين عامة وبساطتها من خلال قراءته

(١) السابق ص ١١٣ .

(٢) د / مندور الميزان الجديد ص ٧٦ .

المستقلة للقصيدة و د / مندور لم يبعد بعرضه للقصيدة عن منهجه النقدى الخاص . منهج التذوق وتأمل النصوص فقط .

ونسيب يؤمن مثل جبران ونعيمه بخلود النفس وفناء الجسد . وهم كما أوضحت سابقا يلتقون مع أفلاطون فى نظريته فى النفس .

ولذلك تظل النفس عنده مقيدة فى سجن الهيكل البشرى المادى إلى أن يبلى ، وايليا أبى ماضى يختلف عنهم فهو يرى أن الجسم والروح متحدان يقول نسيب :

يانفس أنت لك الخلود ومصير جسمى للحود
سيعيث عيشك فيه دود فعلام لا تترفقين (١)

ومن قصيدة ابن سينا التى تلاقى نسيب معه فيها :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فخرقها لم يرقع
فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

* *

ويتنوع نتاج الشاعر رياض المعلوف شعرا ونثرا . بالعربية وغيرها ومن نتاجه الشعرى الدواوين الآتية " زورق الغياب ، غمائم الخريف ، الأوتار المتقطعة ، خيالات " .

وله بالفرنسية الدواوين الآتية : التلاوين ، غيوم ، حبات رمال والفراشات البيضاء ومن نتاجه النثرى " صور قروية ، ريفيات .

وبعد استقرائى لأغلب نتاجه لم أعثر على قصيدة خاصة بالنفس " وإنما تتسرب نفسه فى أغوار قصائده كما تتشبع الرمال بالمياه فى باطن الأرض .

ومعنى ذلك أنه لم يعالج النفس وهى جزء خارجى عنه ولم يعدها موضوعا مستقلا وإنما تجسمت نفسيته فى وجدانه ففاص بالمشاعر الكاشفة عن حقيقة هذه النفس وقد لاحظت أن

---

(١) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة .

نفسية رياض المعلوف من النوع الانبساطى فهى من النفوس التى تميل إلى الانطلاق والمتعة . وتعى حقيقة هامة وهى أنها مهما تفلسفت فلن تصل إلى شىء . وبذلك أراح نفسه من أول الطريق .

فالحقيقة كلما عرفنا عنها شيئا غابت أشياء ، وكأنها أفق غائم لانصل إلى نهايته .

وقد جسد الشاعر المعنى السابق فى الأبيات التالية ضمن رسالة طويلة بعث بها إلى :

جميـعنــا نتـفلسـف ــــ والـلــه أدرى وأعـــرفْ !!
طـلاسـم الكـون سـر ــــ مـن حلـه ؟ وتلـطـفْ !!
يـافيلسـوفـى مهـلا ــــ سـر الدنـا ليـس يعُـرْفْ
حـلـلـت سـرا بسـر ــــ إلـى متـى تتـفلسـفْ ؟ (١)

وقد توجهت إليه بالسؤال التالى :

ماحقيقة النفس الإنساية ؟ وما موقفكم من طبيعتها وقواها والصراع داخلها ؟

وكانت الإجابة فى رسالتين :

أما فى الأولى فقال : النفس الإنسانية أو البشرية هى القوة التى لاتقهر غالبا وتكمن فيها صراعات الحياة – وتتلاقى فيها كل قوى وتيارات الأعماق الباطنية وأغوارها .. حين تتفاعل وتتصارع وتتصادم فى داخلنا فينجم عنها الخير والشر . (٢)

وأما فى الثانية : فيبدو أكثر عمقا وتحليلا وواقعية حيث تمتزج فى آرائه حكمة الفيلسوف بموضوعية العالم برؤية الشاعر المتجهة إلى جمال الكون وإسعاد الإنسان .

ويقول فى هذه الرسالة : النفس البشرية هى كنه الحياة السماوية وجوهرها كما الجسم هو كنه الحياة الترابية ! .. وبهذين التوأمين تنسجم الحياة وتجتمع ثم تفترق . ولا شك أن النفس بروحانيتها هى أسمى من الجسد وماديته .

ويكفى النفس شموخا أنها خالدة . لا تموت ولا تفنى .

---

(١) من رسالة أرسلها إلى الشاعر فى ١٩ / ٢ / ١٩٧٨ وهى من الرباعيات التى يحتويها ديوانه : أشواك وبراعم تحت الطبع .
(٢) من رسالة أرسلها إلى الشاعر فى ١٣ / ١٢ / ١٩٧٧ .

ومن الفلاسفة من يعتقد أنها تتقمص شخصا آخرغير الذى خلعته وتركته للتراب كما تخلع الحسناء ثوبها .. لترتدى غيره للدلال والإغراء .

وكما قال الشاعر :

حيـــاة ثـــم بعـــث ثـــم نشـــر   حـــديث خـــرافـــه يـــا أم عمـــرو

ومنهم من كانت نفوسهم كبيرة بعظائمهم ! وطموحاتهم .

ومنهم من كانت نفوسهم وضيعة بهم وبصغائرهم !! ولله فى خلقه شؤون ! .. لذلك قيل :

وإذا كـــانت النفـــوس كبـــارا   تعبـــت فـــى مـــرادها الأجســـام

وقال الشاعر فى قناعة النفس .

والنـفـــس راغبـــة إذا رغبتـهـــا   وإذا تـــرد إلـــى قليـــل تقنـــع

وقول آخر ونعم ما قال :

لنـا نفوس لنيـل المجـد ظـامئـة   ولـو تسامـت أسلناهـا علـى الأسـل
لا ينـزل المجـد إلا فـى منازلنـا   كالنـوم ليـس لـه مـأوى سـوى المقـل

ومن الناس من تكبر نفسه به وبعظمته . ومنهم من تصغر نفسه به ويخمول ذكره تلك هى نسمة الحياة أول ما نتنسمها دامعى العين فى المهد .

وآخر ما نودعه بالغصة والمرارة والدموع .. هنيهة اللحد .

– ٣ –

الصراع بين قوى النفس المختلفة

وكما بحث المهجريون فى طبيعة النفس وهربوا بها إلى عوالم مثالية . لأنهم لم يتصالحوا مع الواقع المعاش فيه . رأيناهم يحسون بالصراع داخل نفوسهم فالجسم سجن لها ، وهى عدو القلب اللدود . والعقل والقلب يتصارعان داخلها ، وهى تتوق إلى الملأ الأعلى للتخلص من هيكل الطين .

وقد عانى جبران من هذا الصراع الخفى بين قوى النفس المختلفة ووقف معذبا فى المسافة بين رغبات جسده الأرضية ، وتحليقات روحه السماوية واعتقاده الأساسى أن الزمان والمكان حالة روحية ، وأن الجسد امتداد للروح أو أن الجسد والروح شىء واحد . فنحن لا نستطيع أن نفصل بين الزهرة وبذرتها فالجسد والروح فى تفاعل دائم وإن الفكر الإنسانى هو الذى يسعى إلى وضع الحواجز والتقنينات يقول من قصيدته " سكوتى إنشاد " .

نظـــرت إلى جسمـــى بمـــرآة خاطــرى فألفيتــه روحـــا يـقـلصـــــه الفكـــــرُ

فبـــى مـــن برانـــى والـــذى مد فسحـــتى وبـــى المـــوت والمثـــوى وبى البعث والنشر

فلـــو لـــم أكـــن حيـــا لما كنـت مائتـا ولولا مـــرام النفـــس مارامنـــــى القـــبر

ولما سألـــت النفـــس ما الدهـــر فاعـــــل

بحشـــد أمانينـــــا . أجابـت أنا الدهـــــر (١)

وهو فى هذا التخيل للجسد واعتقاد أنه الروح أو النفس فى حالات النشاط الروحى المتقد مع أرسطو فاعتقاده أن " الإنسان لديه جوهر واحد كالتمثال تماما والجسد مادته والنفس صورته ، وفيه تتحد المادة والصورة اتحادا جوهريا وكما أنه لا يمكن فصل هذا التمثال عن الحجر أو الرخام إلا بتحطيم التمثال نفسه كذلك لا يمكن فصل النفس عن البدن إلا بالقضاء على هذا الأخير " وهذا على عكس ما لدى كل من سقراط وأفلاطون " . (٢)

وتبعهما فى معتقدهما بوجـــود النفس أولا وتبعية الجسم له ابن سينا وابن رشد والفارابى .

لكن قد ينتاب جبران صراع بين روحه وجسمه وكثيرا ما يكون فيخاطب نفسه ويواجهها بالحقيقة المرة القاسية يقول لنفسه .

أنت تسيرين نحو الأبد مسرعة . وهذا الجسد يخطو نحو الفناء ببطء فلا أنت تتمهلين ولا هو يسرع ، وهذا يانفسى منتهى التعاسة ، أنت ترتقين نحو العلا بجاذب السماء وهذا الجسد إلى تحت بجاذبية الأرض فلا أنت تعزينه ، ولا هو يهنئك وهذه هى البغضاء (٣) وهو يعاتب نفسه

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ٩٢ .

(٢) د / محمود قاسم:فى النفس والعق " ص ٦٨ .

(٣) محمد عبد المجيد:في عالم الأدب ص ٣٦ .

فى أحوالها التى تنأى بها عن السمو فيقول :

شجبت نفسى سبع مرات :

المرة الأولـــــى : لما حاولت الحصول على الرفعة عن طريق الضعة .

المرة الثانيـــة : لما عرجت أمام المقعدين .

المرة الثالثـــة : لما خيرت بين الصعب والهين فاختارت الهين .

والمرة الرابعـــة : لما أخطأت فتعزت بخطإ غيرها .

والمرة الخامسة : لما تجلدت عن ضعف وعزت جلدها الى القوة .

والمرة السادسة : لما لمت أذيالها عن أوحال الحياة .

والمرة السابعة : لما وقفت مرتلة أمام الله وحسبت الترتيل فضيلة فيها .

وهو فى أحيان أخرى يتخذ من نفسه صديقا يشاركه جميع أطوار حياته . يقول : لى من نفسى صديق يعزينى إذا ما اشتدت خطوب الأيام ويؤاسينى عندما تدلهم مصائب الحياة .

ومن لم يكن صديقا لنفسه كان عدو الناس .. ومن لا يرى مؤنسا من ذاته مات قانطا لأن الحياة ستبقى من داخل الإنسان وإن ينجو مما يحيط به .(١)

وقد يتبادر إلى الذهن أن جبران متناقض في موقفه مع نفسه فهو تارة يفصلها عن الجسد وتارة يتخيل الجسد روحا ، وتارة أخرى يعنفها وطورا يصادقها .

كل هذه التحولات فى موقفه مع النفس ان دلت فى ظاهرها على تناقض فهى فى حقيقة الأمر لا تعرف التناقض لأن النفس لها معنيان كما قال الغزالى :

أما الأول : فهو الذى يعبر عن الصفات الحيوانية الشهوانية المذمومة – مثال ذلك أن النفس تستخدم فى هذا المعنى حين تقول ، أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك .

وهو نفس المعنى الذى قصد اليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال " أعدى عدوك نفسك التى بين جبينك " .

(١) فى عالم الرؤيا ص ٣٧ .

أما المعنى الثانى : فهو ما تعارف عليه كل من سقراط وأفلاطون وأبى نصر وابن سينا فتطلق النفس فى هذه الحال، ويراد بها الدلالة على حقيقة الإنسان فإن نفس كل شيء حقيقته.

وهى فى رأيه الجوهر الذى يصلح أن يكون محلا للمعقولات وهو من عالم الملكوت وأعتقد أن جبران حين أنب نفسه كان يقصد النفس التى تحمل الصفات المذمومة كما هو واضح فى المعنى الأول . وحين صادقها كان يصادق النفس الجوهرية السامية التى قصدها الغزالى فى المعنى الثانى .

وفى نفس نعيمه يدور صراع رهيب بين المتناقضات المشتملة عليها .. بين الخير والشر ، بين الأرض والسماء . بين النور والظلام . وفي قصيدته " الخير والشر " (١) نلمح هذه الثنائية التى حاول تحطيمها من قبل فى قصيدته " حبل التمنى " (٢) ... فالأمانى تدل على تجدد الرغبة فى شيء بعد شيء . فإذا انقضت هذه الرغبة بلغ الإنسان مرحلة الهدوء المطمئن ، أو السعادة فى رأى أفلوطين . وقد عبر نعيمه عن هذه الفكرة ، دون أن يرينا أنه يقحم الفلسفة على بناء قصيدته وموضوعها " (٣)

وأرانـــى مازلـــت عبـــد الأمانــــــى	أتمنـــى لوكنـــت فـــى غـــير حالـــى
غـير أنـــى لابـــد أبلـــغ يومـــا	فيـــه أمـــسى حـــرا عديـم التمنـــى

وتستيقظ الثنائية التى تمنى زوالها قبل ذلك فى قصيدته " الخير والشر(٤) " لتجيء مشكلة قديمة وهى تدرو حول مصدر الشر وكيف يمكن أن يكون الله مصدر الخير والشر معا مع أنه خير كله .

وانتهى نعيمه فى قصيدته إلى أن الخير أخو الشر ولابد من وجودهما معا . فالشيطان يناجى الملاك .

أليـــس أنـــا تـــوأمـــان استـــوى	ســـر البقـــا فينـــا وســـر الهـــلاك
ألـــم نصـــغ مـــن جوهـــر واحـــد	ان ينســـى النـــاس أتنســى أخـــاك

(١) م : نعيمه : همس الجفون ص ٤٦ .
(٢) السابق ص ٢٢ .
(٣) د / حسان عباس ومحمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ٥٣ .
(٤) كتب الشاعر قصيدته حبل التمنى سنه ١٩١٩ . وقصيدته الخير والشر سنه ١٩٢٢ .

فأجابه الملاك بعدما عانقه :

وقـــال أى بـــل ألــف أى يا أخـــــى ... مـــن نارك الحــرى أتانــى النعيـــم
وحلـــق الاثنـــان جنبـــا الــــى ... جنـــب وضاعـــا بيْـــن وشْى السديـــم

وهذا المعتقد يذكرنا بفلسفة جلال الدين الرومى التى ترى أن الشر ضرورى لوجود الخير فالأشياء تبين بأضدادها ، يقول :

العدم والنقص حيثما كانا مرايا جمال الكون
أيـــن تبدو قـــدرة جـــابر العظـــام
إلا فـــى مـــريض رقد محطوم الســـاق ؟
كيـــف يظهـــر الكيميـــائى براعتـــه
إن لم تمـــح البوتقة بعض خسيس المعادن ؟ (١)

* *

وإذا كان نعيمه قد انتهى فى قصيدته السابقة إلى حل يرضى به التمرد على هذا التناقض واقتنع بأن هذا الازدواج مازال ماثلا فى كيانه وهو ضرورى للنفس البشرية شاء أم أبى . فالصراع مازال مستمرا ونراه فى قصيدته " العراك " (٢) تشتعل المعارك الطاحنة داخل نفسه . فتمنياته لم تجد . وتسليمه بواقع الثنائية لم يسكن الرياح الغاضبة .

فالشيطان والملاك كل منهما يدعى حقه فى ملكية القلب . وهو ساكن لا يتحرك وهذه المرحلة من الصراع هى المرحلة الثالثة فى تفكير نعيمه .

فالأولى تتمثل فى القلق .. والرؤية الغائمة .

والثانية تتمثل فى الجيشان العاطفى .

والثالثة تتمثل فى الصراع النفسى الحاد . يقول بعد وصف للمعركة الدائرة بين الشيطان والملاك : وإلى اليوم أرانى فى شكوك وارتباك .

لســت أدرى أرجيـــم فـــى فؤادى أم ملاك .... ؟

---

(١) راجع : الصوفية فى الإسلام ص ٩٦ - ٩٧ .
(٢) م . نعيمة : همس الجفون ص ٩٦ - وكتب هذه القصيدة سنه ١٩٢٣ .

وتنشأ معركة أخرى بين الجسد والروح فى قصيدته " أفاق القلب " (١) وهذه المعركة نشأت قبل ذلك بين الشيطان والملاك في نفسه وهى تعطى للقلب قيمته التى ظن نعيمه فترة ما أنها مفقودة . ولجأ إلى الفكر . ويسأم قيود الفكر ويستيقظ شعوره فيكتب هذه القصيدة . وهى ثورة على مقننات الفكر وأسواره وحكاية العمر المسجون فى دائرة الفكر ، وحوار رائع مع القلب اتحدت فيها ذات الشاعر مع شعوره مع موضوعه وهذه سمة فنية تفرد بها نعيمه وتتصل هذه التجربة بتجربته فى قصيدته " التائه " (٢) وقد كتبها فى العام نفسه .

والمعركة تجسدها التجربة العنيفة التى خاضها نعيمه . وأحس أن الجسد بثقله الأرضى قد ضغط على الروح فأحالها ركاما وفتاتا ، فالحب عنده رباط روحى وشعاع من التجاذب الروحانى . بعيد عن رغبات الجسد . الذى أشعل فيه النار ، وهذه الشعلة أحيته وأماتته وسقته من جمرها ندى . فهل هى شعلة الاله أم شعلة الردى .

هكذا وقع نعيمه فى هذا العذاب والصراع الرهيب.

ونشأ هذا الصراع فى نفسه نتيجة لنشأته الدينية وتربيته فى البيئة الشرقية المسيحية والإسلامية بما تحمل من موروثات عقائدية تنمى فى الإنسان الإحساس بقدسية العلاقة بين آدم وحواء.لكن هذا الصراع يتطور عند نعيمه إلى مايشبه الاستسلام إلى رغبات الجسد وأهوائه " والعزوف عن عالم المثالية التى لا وجود لها فى طبيعة البشر حيث نراه يخاطب قلبه بعدما عاد اليه قائلا .

ودمِّـــــــــرْ كــــــــل أســــــــوارى	وفَـضِّـــــــح كــــــــل أســـــــــرارى
وان تعــثـــــــــر فـــــــلا تنـــــــــدم	وان تـــأمـــــــر فــــــلا ترحـــــــــم

والقلب الذى قصده نعيمه هنا يختلف عليه الباحثون . نتيجة لظروف نعيمه الخاصة فبعضهم يرى أن القلب الذى يقصده نعيمه " هو القوة المستمدة من الإيمان وحرارته وهو الخضوع للشعور لا للقياسات . وهو القلب الذى وجده بسكال يحوي من العقول أكثر مما يحوى العقل نفسه . (٣)

---

(١) م . نعيمة : همس الجفون ص ٥٥ " كتب الشاعر هذه القصيدة سنه ١٩٢٢ .
(٢) م . نعيمة : همس الجفون ص ٥٢ كتب الشاعر هذه القصيدة سنه ١٩٢٢
(٣) أنظر الشعر العربى فى المهجر : احسان عباس ومحمد يوسف نجم ص ٥٨ .

وانس داود يرى أن القلب هنا يتسع لأكثر من القوة المستمدة من الإيمان وحرارته إلى قوة مستمدة من تجربة الجسد وحرارته . (١)

وفى رأيى أن تفسير د / أنس داود أقرب إلى واقع الشاعر لأن تصوير الصراع هنا كما يقول الباحثان الآخران على أنه صراع بين المعرفة بالعقل والمعرفة بالقلب فحسب هو عزل للتجربة الحية التى يستقى منها كل شاعر عناصر الصراع والحيوية فى شعره .

وقد كانت حياة "نعيمه" فى تلك الاونة تخوض تجربة حب جسدى بين الاستمتاع والمعاناة وقد اتسعت التجربة الوجدانية لديه إلى أن تعد الجسد أحد أدواتها فى التعرف على الحياة يقول :

أقـــلبى احكـــم ولا تـــرهـــــب   فمالـــى منـــك مـــن مهـــرب
فانـــت اليـــوم سلطـــانى   وأنـــت اليـــوم ربـــانـــى
أدرنـــى كيفمـــا تـــرغـــب

وفى نهاية هذا الطريق الطويل من الصراع . يرى نعيمه أن الجسد مكمل لتجربة الإنسان فى الحياة ، وليس اصطداما مع عالم المثل أو الروح وقد أتم سلسلة المصالحات التى عقدها بين كل المتناقضات فى الحياة داخل النفس الإنسانية وخارجها .

فالذات الإنسانية وجدت فى عالم هى بعض منه وتكاملت بالمتناقضات فالخير والشر والروح والجسد والنور والظلام والنهار والليل ، والمد والجزر ، والحياة والموت جميعا ثنائيات متكاملة يتكامل بها عالم النفس الإنسانية من ناحية ، ويتكامل بها الوجود من ناحية أخرى .

ووقع نسيب فى صراع مع نفسه وقواها الأخرى واحتدمت المعركة عنده بين النفس والجسم والقلب والعقل والروح . فكل قوه لها رغبتها وتطلعاتها ، والرغبات تصطدم وتتناثر شظايا هذا التصادم لترتد فى وجه الشاعر مرة أخرى فتسيل دماء نفسه وتسقط مشاعره فى وسط الساحة شهيدة نشدان الحقيقة المجهولة .

وحين نريد أن نتفهم طبيعة هذا الصراع نلاحظ أن نسيبا متهم نفسه دائما فهو يناصبها العداء - لكنه برغم ذلك لا يطيق فراقها يقول :

(١) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ١٠٦ .

يانفـس رفـقـا ومهـلا ... فأنـت ظعـني ورحلـي
طرحـت كـل رجالـي ... الاك مـا زلـت حملـي (١)

وفى ذلك التناقض يكمن سر شقاء نسيب فهو ينتصر للجسد مع إيمانه بأن النفس فيض إلهى .

ونستطيع أن نعثر على مفتاح كآبته وتشاؤمه فهو يذكرنا فى موقفه مع نفسه بقول المتنبى :

ومـن نكـد الدنيـا على الحـر أن يرى ... عـدوًا لـه مـا من صداقتـه بـد

أما عن موقف النفس من القلب .. فهى تحاول أن تستهدى به ولكنها تضل فى النهاية فتضطر الى ترك القلب والتضحية به فى سبيل وصولها إلى غايتها حتى لو نزف دما .

ونسيب هنا متعاطف مع القلب كاره للنفس التى حرمته من عواطفه ووجدانياته يقول :

فـالـقلـب يدفعهـا إلـى ... حيـث الهـلاك لهـا معـد (٢)

وحين تغدر النفس بالقلب يقول مؤنبا نفسه .

ضحيـت قلبـى للـوصـول ... وهـرعـت تبـغـين المثـول
فـاذا دعيـت إلـى الدخـول ... فبـأى عـين تنـظريـنْ

وهو يتهمها كذلك بأنها ظلمت القلب وجعلته كالطفل يبسط له يديه وغذته مر الفطام . وجعلت منه شيخا وهو غلام غرير حتى صار القلب كحفار القبور يشكو للنفس والنفس تشتمه حتى صار أعمى تطعنه الشجون وجراحه فياضة بالدماء .

حتـى إذا اقتـرب المـراد ... تطـلـى رؤاه بـالسـواد
فـيـعـود أعمـى لا يقـاد ... إلا بـعـكـاز الـحـنـيـن

(١) نسيب عريضه الأرواح الحائرة ص ١٧٨ .
(٢) السابق ص ١١٧ .

ويقول د / مندور :

وهذه حقائق نفسية صادقة برغم ما حولها من ضباب الشعراء وفى طرق أدائها بساطة جميلة وخاصة فى " عكاز الحنين متكئا عليه يتحسس سبيله " .

ويرثى الشاعر قلبه أمام نفسه ويصوره بالذبابة التى تموت فى بيت العنكبوت وهى ترقص على نغم السكوت من الألم ولم ينقذها طنينها وقلبه كذلك مخنوق فى شرك الرجاء وما يظنه شدوا ليس كذلك بل رثاء .

فكــذاك فـــى شـــرك الـرجـــاء قـلـبـــى يلـــذ له الغـنــــــاء
ماذاك شـــدوا بـــل رثـــاء يـبـكـــى بــه الأمـــل الدفـيـــن

ويعنف نفسه ويذكرها بالمواجهة الأخيرة حينما تقف أمام منصة القضاء ودماء قلبه على قميصها شهادة أكيدة تدل على ثبوت التهمة .

يانـفـــس إن حُـــمُ القـضـــاء ورجـعــت أنــت الـــى الســمــاء
وعلـــى قميصـــك مـن دمـــا قلبـــى فـمـــاذا تصنعيـــن

* *

وأما عن موقف النفس من العقل فلا يختلف كثيرا عن موقفها من القلب عند نسيب فالنفس بعد مافقدت الأمل فى الاهتداء بالقلب حاولت الاهتداء بالعقل ولكنها ضلت فى النهاية .

والعـقـــل يقـذفـهـــا إلـــى شـــط الســلـــو ولا تـــود (١)

وهو يحترم العقل . ويتهم النفس مع الرفق بها والاشفاق عليها .

يا عـقـــل هـــل مـــن رجـــوع الـــى الحـمـــى والتقيـــة ؟

ولكن لا يسمع جوابا .. ولكنه يسمع نشيج نفسه وبكاءها الحار فيهدهدها وهو محاط بشباكها لا يستطيع الفرار منها .

يانـفـــس تبكـــين مـهـــلا عــــلام تـبـكـــى البـنـيـــه
صونـــى دموعـــك صونـــى فـانـهـــا مـــن عـيـونـــى
رحمـــاك لا تتركينـــى فأنـــت وحـــدك حسبـــى (٢)

(١) نصيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ١١٧ .
(٢) السابق ص ١٧٨ .

ثم يلمح الشاعر بعد ذلك فوق أوج الذرا بارقا قد سرى، فيما وراء الحدود تلك نار الخلود

وبهذا تستهدى النفس بالنفس بعد أن فقدت الاستهزاء بالقلب والعقل وهذه نهاية غامضة لعل الشاعر يشير بها إلى أن النفس جوهر سام من عالم آخر غير هذا العالم . فلا سبيل للوصول إلى عالمها الأسمى عن طريق وسائل هذا العالم الفانى "القلب والعقل" بل سبيل الوصول هو ترك هذا العالم بكل سبله ووسائله ومعايشة العالم الاخر بلا وسائط فالمعرفة الحقة للنفس لاتتم إلا بالوصول نفسه والقلب والعقل هنا هما طريقا المعرفة المتقابلان فى هذه الحيـاة .

القلب الذى يعتمد على وسائله غير المحددة فى الاستشفاف والشعور والعقل الذى يلتزم بمنطق محدد وقواعد واضحة . (١)

وأما عن موقف النفس من الجسد فان نسيبا يوضحه على النحو التالى :

١ - الجسم سجن للنفس :

ولذلك لا مهادنة معها وهو يتعاطف مع الجسد يقول :

الليـــل مـــر علـــى ســـــواك	أفمـــا دهـــاهـــم ما دهـــــاك
فـلــم التـمـــرد والـعـــــراك	ماســــور جسمـــى بالمتيـــــن

٢ - الجسم فان والنفس خالدة :

وهو فى هذا يلتقى مع جبران ونعيمه .. وفكرة أفلاطون القائلة بخلود النفس وهو مع ذلك يناصر الجسد ويكره النفس مع ايمانه بأنها من نبع الهى . وقد ذكرت من شعره سابقا مايتفق مع هذه الحقيقة .. وربما ترجع مناصرة نسيب للجسد فى عراكه مع النفس الى أن الجسد ضعيف وأن عمره قصير فهى نظرة عطف وشفقه منه على جسده .

٣ - ان النفس تحل بالجسم كارهة له :

لأنها كانت قبل البدن بعهد طويل تتمتع بكل ما تتمتع به العناصر الروحية المجردة ، ومع ذلك فنسيب يصور هزال الجسد وثقل الحمل الذى ناء به تحت وطأة النفس .

(١) د / أنس داود :التجديد فى شعر المهجر ص ٢١٩ .

يانفـــس هل لك فـــــى الفصــــــالْ — فالجســــم أعيــاه الوصـــــــالْ
حملتـــــه ثقــــل الجبــــــال — ورذلتــــــــه لا تحفلــــــــين

* *

عطــــش وجـــــوع واشتيـــــاقْ — أســــف وحـــزن واحـــــتراقْ
ياويــــح عيشـــى هــل تطــاقْ — نزعـــــات نفـــــس لا تلـــــين

* *

أما عن موقف النفس من الروح : فالشاعر لم يوضح هذا الموقف وقد يكون ذلك راجعا كما أرى الى أن الشاعر يستعمل كلمة الروح مرادفة للنفس فى كثير من الأحيان فالنفس عنده تعنى الروح كما نجد هذه الظاهرة عند جبران أيضا وأعتقد أن هذا الخلط أو المزج بين معنيهما راجع الى المفهوم القديم للنفس فأغلب الفلاسفة يعطون للنفس مفهوما قدسيا يجعلها مرادفة للروح وبخاصة عند أفلاطون وابن رشد وابن سينا .

وقد فرق الغزالى بين النفس والروح فالنفس لديه هو ذلك الجوهر الذى يجمع بين عالمين هما عالم العقل أى العالم الالهى وعالم الحس أى العالم المادى .

أما الروح : فقد يطلق معناها على المعنى السابق نفسه . وقد يراد به ذلك البخار اللطيف الذى ينبع من القلب ليصعد فى العروق إلى المخ ثم يهبط منه مرة أخرى بواسطة العروق فينتشر فى جميع أنحاء الجسم ويكون سببا فى حياتها وحركتها . (١)

يقول من قصيدة يرثى بها أخاه :

هيهـــات مـاضـــم الضــــر — يـــح ســـوى قـليـــل لايعـــــدُ
لـــم يطـــوجـــو هـــرك الثــــرى — فالـــروح لا يطـويــــــه لحـــــدُ
قـــد ضـــم قبـــرك مايحـــد — وان نـــفســـك لاتـــحـــــــدُ (٢)

وفى قصيدة أخرى يتلفت الفقيد بعد أن استقرت روحه فى عليائها إلى الدنيا ويتساءل متعجبا .

وهــل كنـــت أسكـــن تــلك الطلـــولا ؟

وفــى ذلــك السجـــن سخـــرت روحــى — لجسمــــى وكابـــدت عيشـــا ذليـــلا (٣)

---

(١) د / محمود قاسم / فى النفس والعقل ص ١٠١ .
(٢) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ١١٨ .
(٣) السابق ص ١٢٢ .

وأخيرا نرى أن نسيب عريضه بإشراكه النفس فى القوى الإنسانية المتصارعة اقترب من المتصوفة أو دخل على التحقيق فى دائرة الفلسفة الميتافيزيقية ومذهب القائلين بالطبيعتين : الأرضية والسماوية .

من هذه الثنائية نشأ الزهد المانوى والمسيحى . كما نشأ عند المسلمين فى ثنائية الحياة " الدنيا والآخرة "

وحول الصراع بين الطبيعتين قامت فلسفات أخلاقية متعددة وحيث أمن الناس باحتقار الجسد وجد الزهد الذى مهد لحياة تصوفية عريضه فى الشرق والغرب . (١)

ويحس نسيب بثراء عالم النفس الداخلى وعمقه وهو الأجدر بالمتابعة والتملى وذلك ناشىء من وجدانه الصوفى ، حتى أنه استأثرت بإعجابه قصيدة للشاعر يتوتشف تتضمن هذه الدعوى فترجمها نسيب شعرا موزونا ومن أبياتها التى تقترب من نفسية نسيب

عــش داخـل النفـس والزمـها كصومعـة	واتقـن حياتـك فيهـا شأن مـن نجبـا
ففـي فـؤادك كـون لسـت تعرفـه	يهـون إدراكـه لو كنت مطلبـا(٢)

وبداخل النفس عاش نسيب .. وفى هذا الكون المجهول أطال التأمل . . فكان شاعر الفكر الدقيق الحائر فى أسرار الكون ومغالطات الحياة . (٣)

* *

ولم يخلد رشيد أيوب إلى الراحة النفسية كما ادعى أحد الباحثين حين قال :

" ولقد أبعدته هذه الراحة النفسية عن عالمه النفسى وعن عالم الناس معا " (٤)

ولكنه كان يحس أن نفسه فى صراع دائم معه . هو يريد أن يعايش الناس ، ويعترض على حياتها حيث البكاء والعويل ويأمرها أن تنشد أعذب الأشعار وأطربها يقول من

---

(١) د / إحسان عباس محمد يوسف نجم الشعر العربى فى المهجر ص ٦٥ .
(٢) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ٢٤ .
(٣) السابق ص ١٣ .
(٤) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر .

قصيدته " العراك " :

أيمـــر كـــل العـــمـــر بالهـــمـــس ... أفمـــا كفـــى نفسى صـدى الأمـــس ؟
فتبيــت فـــى أحــلامــهـــا شبـــحا ... ينســـل مـــن رمســـى الـى رمـــس
واذا سعـــت للرزق فـــى غـــدها ... فكأنهـــا تـغـد وكمـــا تمســـى
يانفســـى ان العيـــش نغصـــه ... قلـــم بكـــى حظـــى علـــى الطرس (١)

وقد تأثر رشيد بجبران لما كانت لجبران من شهرة قائمة على اتجاه مثالى رومانطيقى أو إن شئت فقل على مذهب جديد ينظر إلى الفرد المتأمل الروحانى نظرة إكبار وتقديس فتأثر رشيد بهذه الدعوة واستراح اليها ، ووافقت هوى عنده ، لأنها كشفت عن حقيقته الرومانطيقية (٢)

ويريد رشيد الالتحام بالناس ويرى أن طريقته فى الحياة مع نفسه تبعده عنهم فيقول :

فالنـــاس يبتعـــدون عـــن رجـــل ... يشكـــو إليـــهم حالـــة البـــؤس
هاتـــى مـــن الأشعـــار أطربهـــا ... وتجاهلـــى ما فيـــك مـــن يـــأس

وثورة منه على نفسه وأحلامه يهتف بنداء التغيير .

عودى عن الأحلام فى عالم الأمس وامشى مع الأيام . والخمر فى الكأس ويقع الشاعر فى وهم العالم الجديد يقول :

ناديـــت دمعـــى كـــف عـــن جفنـــى ... جـــرت الريـــاح بمـــا اشتهـــت سفنـــى
ان التـــى قلـــب الزمـــان لـــها ... ظهـــر المجـــن الآن فـــى أمـــن

ويلج عالمه الجديد عبقر ويقول :

ودخلـــت عبقـــر وهـــى لـــى وطـــن ... منهـــا حملـــت بدائـــع الفـــن
وأتيـــت بالاشـــعـــار صافيـــة ... كالكوثـــر السلســـال فـــى عـــدن

وهنا يواجه الشاعر نفسه التى خيبت ظنه وتقهقرت به إلى عالم الأحلام مرة أخرى وهذا يذكرنا بأسطورة . سيزيف والصخرة الصمّاء .. فكلما أزاح الصخرة ارتدت إليه حاملة فشله الذريع .. يقول :

(١) رشيد أيوب : هى الدنيا .
(٢) أنظر الشعر العربى فى المهجر ص ٢٣٠ .

وظننـــت أنـــى عـــدت منتـــصـــرا　　فـــاذا بنـفســى خيبــت ظنـــى
عـــادت الـــى الأحـــلام　　والـهـمـس فـــى أذنـــى
ومـشـــت مـــع الأيـــام　　والدمـــع فـــى جفنـــى

وارتد الشاعر مرة أخرى إلى أحلامه ، ولم تجد ثورته ولا تمرده على نفسه فهى المتحكمة فى مصيره ومستقره ومبدئه ومعاده .

وساقه هذا الشعور بتحكم نفسه فيه إلى حالة تشبه اللامبالاة وغيبة عن الوعى فهرب إلى الخمر لتشعشع من خلال سكرها العميق أحلامه الوريقة يقول :

يانفـــس قـــد قـل عندى زيـت مصباحـــى　　قومـــى اشربى من كميت الراح وارتاحـــى
دنيـــا تســـاوى بهـــا النشوان والصاحـى　　لا خير فـى عيشهـا لـولا أمـانيهـــا

وهو لم يستطع أن يواجه الحياة بصلابة الفيلسوف حيث " فقد لذة الحياة ومرح الشباب والأمل فى نفسه إلا بقايا من الأمانى الحائرة التى تراوده كومضات الذبالة تلمع ثـم تخبو فتموت . (١)

ولذلك لم يفهم نفسه ولا طبيعتها ولا الغرض الذى من أجله وجد ، وعبر عن هذه الحقيقة فى قصيدته .. ولى ما عرفناه .. وهى ترجمة ذاتية لنفسه حيث يبث مظاهر الكون أسرار نفسه فى صورة مباشرة .

إذا مـا جـــنــــه لـيــــــل　　تــرامـــت فـيـــــه نجـــواه
فـيـــرعى النجـــم إذ يبـــدو　　كـــأن الـنـجـــم مـــغـنـــاه
تـــراه إن ســـــرى بـــــرق　　تـــمـنـــــاه مطـــايـــــاه
وإن اصغـــى لصـــوت النـــا　　ى أشـجـــــاه وأبـكـــــاه
إذا اعطـيتــــه شيئـــا　　أبـــت جـــدواك كـــفـــاه
وفـــى الدنـيـــا لأهليهـــا　　حـــطـــام ماتمنـــــاه (٢)

(١) د / خفاجى – قصة الأدب المهجرى جـ٢ ط ٢ ص ٣٤٠ .
(٢) رشيد أيوب – أغانى الدرويش ص ٢٩ .

وملامحه باهته لا يدرى كنهها هل الحب دليله ؟ أم الشكوى نصيبه ؟ أم الزهد قسمته ؟ أم الجنون والغيبة عن الوعى ؟ يقول :

ألا ياساكنى الدنيا ... تعالوا استنطقوا فاهُ (١)
سلوه ربما المسكين ... من سوء الحظ أقصاهُ
فقالوا انه صب ... وفرط الحب أضناه
وقالوا شاعر يشكو ... فما تجديه شكواه
وقالوا زاهد لما ... رأوه عاف دنياه
ومنهم قال درويش ... غريب ضاع مأواه
سألناه بلا جدوى ... وولى ماعرفناه

وعن الصراع النفسى يقول رياض المعلوف .. وراء النفس ماوراءها من أحلام وكبت جنسى ، وعقدة أوديب . ومركبات نقص وهى العقل الباطن الذى يسير العقل الواعى والجسم معا . ويحكم على تصرفات المرء من البواطن إلى الظواهر .

فالعالم النفسانى " فرويد " يعزو كل شىء إلى الرغبة الجنسية .. بينما تلميذه "أدلر" يخالفه الرأى . ويعتقد أن الإنسان عنده رغبة الطموح إلى الإنطلاق والاندفاع والرقى فى الحياة . ومن ذلك تتكون الشخصية البشرية وتتبلور بها أفكارنا وأحلامنا وعللنا الجسدية والنفسية .

والمرء مفطور على البحث عن الارتقاء والتفوق .. لذلك قيل : هذا رجل عنده جنون العظمة . والحقيقة أن الناس جميعهم من مجانين العظمة ! وبعضهم يقول : إن العبقرية وليدة مركبات النقص والله أعلم .

أما التحليل النفسى فهو مبنى على أسرار هذه الرغبة الجنسية أو الارتقائية المكبوتة منذ الطفولة .

وأطباء النفس يشفون اليوم النفوس المعقدة ، ويحلون عقدها . ويشفون بذلك أمراض الجسم المتأثر بها نفسانيا .. وعرفت أحد علماء النفس الأوروبيين . فأخبرنى أنه تقدم إليه فى عيادته أحد عازفى البيانو العالميين وأعلمه أنه يعزف كل قطع الموسيقيين الشهيرين إلا إحدى المعزوفات الكلاسيكية . فيصعب عليه هذه وحدها عزفها بإتقان فلازم هذا الموسيقى الطبيب النفسى مدة قصيرة من الزمن بعدها أخذ الموسيقار يعزف تلك القطعة بمهارة ما بعدها مهارة !

---

(١) فى كلمة " تعالوا " خطأ لغوى لأن صحتها " تعالَوا " بفتح اللام . والشاعر الجيد هو الذى لايضطره الوزن الشعرى إلى الوقوع فى مثل هذا الخطأ أو غيره .

حتى أنه دعا طبيبه هذا – إلى حفلة عزف فيها المقطوعة تلك . فهنأه عليها معجبا . والغريب فى الأمر أن العالم النفسانى هذا لم يكن موسيقيا إطلاقا .. ولم يكن يعرف شيئا عن تلك القطعة الموسيقية .. لكن بتأثيره الفكرى والنفسى عليه .. وضع فيه الثقة النفسية التى تغلبت على فشله بالنجاح . [1] (زحلة ١٩٠ ك٢ " يناير " ١٩٧٨ رياض المعلوف .)

كلمة أخيرة :

بعد هذا التنقيب فى نفوس المهجريين أركز علي الحقائق الآتية :

أولا : أنهم لم يبحثوا فى النفس باعتبارها حقلا للعقد ومركبات النقص والأمراض وهى النفس التى وجه إليها علماء النفس كل جهودهم ، وعالجوا أمراضها وعقدها . وإنما بحثوا فى النفس بمعناها الفلسفى كما هى عند أفلاطون وابن سينا ، والغزالى ، وتوماس الأكوينى .

ثانيا : ابتعدوا فى بحثهم فى النفس عن مرحلة " البراجماتزم " أى المذهب العملى الذى رفع لواءه فى أمريكا وليم جيمز وجون ديوى . وهولا يعنى بمعرفة حقيقة الشىء ولا الإلمام بوظائفه وإنما عنى بمعرفة طرائق الانتفاع به . وظلوا في مرحلة الأيديالزم " ومرحلة " الريالزم " والأولى تعنى بالبحث المثالى ، والثانية تعنى بالبحث الواقعى ما عدا أبى ماضى الذى ألمح إلى شىء من ذلك فى خلاله قصائده .

ثالثا : كان هروبهم النفسى ضعفا بشريا . أملته عليهم ظروفهم القاسية ، والإحساس الرومانتيكى الذى سيطر على مشاعرهم نتيجة لتأثير الرومانتيكية الأوروبية فى نفوسهم .

رابعا : عنف بعضهم نفسه بصورة قاسية فكان أشبه بالمتصوفين ، وبعضهم مناها بالخلود ورفعها الى درجة التقديس مثل جبران ، وعدها البعض شعلة ربانية وفيضا إلهياً مثل نعيمه .

خامسا : آمن أغلبهم بالثنائية إيمانا فرضته عليهم طبيعة النفس . وتمنوا زوال هذه الثنائية ولكن لم يتحقق لهم ذلك ، وحاولوا تحطيمها بالهروب إلى الغاب أو بعدم التمنى أو

---

(١) من رسالة بعث بها الشاعر إلى فى ١٩ من يناير سنه ١٩٧٨ .

بزوال المتناقضات . ولكن لم يتيسر لهم ذلك .

سادسا : نظر بعضهم إلى النفس نظرة تحليلية واقعية نأت بها عن مفهومها الفلسفى القديم مثل رياض المعلوف .

سابعا : خلط أغلبهم بين معانى النفس والقلب والروح . وآمن البعض بانفصال النفس عن الجسد والاخرون باتحادها معه ومنهم من آمن بأن الجسد سجن للنفس وأحيانا تأثروا بفكرة ابن سينا عن العلاقة بين النفس والجسد فى فلسفته أو فى قصيدته المشهورة فى النفس .

الفصل الرابع

الحـــــب

« بين الرؤية الذاتية والرؤية الكونية »

تمهيـــــــد :

فى تصدير الأستاذ عزيز أباظه لكتاب " الشعر العربى فى المهجر يقول ضمن ماقال فى هذا التصدير ، والغريب أنك لاتكاد تلمس خفقات القلب بين ومضات الفكر ولاخلجات العاطفة بين صيحات العقل . فالحب عند شعراء المهجر يكاد يكون ثانوى القيمة فى عناصر الحياة ، لامعنى عميقا فى أغوار الإنسانية وربما كان تعليل ذلك أن التوغل فى شؤون الحياة المادية ، بعد طغيان ، فهجرة حال دون التهاب حاسة الشعراء بمعانى الحب وانصهار عواطفهم فى حرارة الوجد وانشغالهم بذلك الجانب الإنسانى حتى أن إلياس فرحات يروى لمسة وجدانية عامة فيقول:

إذا مالغـــات الشفـــاه اختلفـــن	فمـــا للقلـــوب ســـوى واحـــده
خفـــوق يخـــر لديـــه البيـــان	وتعنـــو المـــعانى لـــه ساجده (١)

ويدافع الأستاذ : چورچ صيدح " ويرد على هذا الاتهام : فيقول : الحب هو المادة فى الأدب المهجرى ، حب لجميع مجالى الجمال . لا لجمال المرأة فحسب حب عميق فى خلايا أرواحهم . يتغذى بالقيم المعنوية . لابوليمة الشهوات حب إنسانى . لايقتصر على حب الأم والأب والصديق والدار والأهل والوطن بل يبدأ بهذه وينتهى بحب الكون بأجمعه والبشرية بأسرها . وغزلهم . يتغلغل إلى مطاوى النفس بعد أن يمر بظواهر الأشياء . ويصدف عن جسم الحبيبة ليصور ما بخاطرها من ميول وما لنظرتها من معان .

ولعل فى رد الأستاذ چورچ صيدح مايفتح أمامنا مفهوم الحب عند المهجريين حيث يمثل الطاقة التى تشع بإلهامهم فى كل مجالات الحياه والوجود .

---

(١) أنظر مقدمة : الشعر العربى فى المهجر لمحمد عبد الغنى حسن ص ١٧ .

والحب عندهم لايتقوقع داخل مفهومه المحدود . حب المرأة فقط " الحب الخاص " وإنما يتعدى ذلك النطاق إلى دائرة العام الرحيب حيث يلتحم بالوجود التحاما كاملا ، وبقضايا الإنسان ووجدانه .. والطبيعة وسحرها الخلاب حيث يمتزج الإحساس الصادق بأنفاس الطبيعة الحارة المتدفقة فالحب عندهم يتخذ اتجاهين :

أ - الحب العام :

وهو الحب الذى يشمل الإنسانية كلها . ويبارك التقدم البشرى - ويأسى لما يصيب الإنسان من خير وشر ويسعى جاهدا إلى الخير والحق والجمال .

ب - الحب الخاص :

وهو الحب الذى يخص المرأة ويبعث الرجل على التغنى بمحاسنها وتذوق ألوان السعادة فى وصالها وألوان الأسى فى الحرمان منها .

وهناك أنواع أخرى من الحب . لا نستطيع أن نتجاهلها . فبصماتها غائرة فى وجدان الأدب المهجرى مثل .

حب الوطن ، حب الطبيعة ، حب الكون .

والحب العام سأتعرض لدراسته بالتفصيل لأنه يتصل بالتأمل فى أكثر من جهة وباقى الاتجاهات الأخرى سأوضح منها فى إيجاز مايمت إلى العمق الفكرى ومايدخل فى دائرة الحب المهجرى الذى يتسع ليشمل الوجود كله .

أ - الحب العام :

بعد تأمل أشعار المهجريين وكتاباتهم وبخاصة مايتصل منها بالرؤية الشمولية للحب حيث لاينحصر فى التعبير عن الرغبة الحسية فقط أو يكتفى بالنواح والبكاء على الأطلال ، أو يصف الشوق المضنى إلى الحبيبة التى هجرت وصدت .

وإنما يتعدى كل ذلك ليعلن عن رؤية هؤلاء الأدباء للحياة من خلال الحب الذى طبعوا به حياتهم ، وجعلوه " أكسير " تصرفاتهم .

بعد هذا التأمل وجدت أن الحب عندهم يدول حول المعانى الآتية :

الفناء فى المحبوب والاتحاد به مما يضفى على الحب عندهم الطابع الصوفى حيث لايعبرون عنه فى لغة مباشرة ولكن يلجئون إلى الرمز كما عبر نعيمه وجبران .. واتخذوا الحب وسيلة لكشف النفس وطريقا إلى الله سبحانه وتعالى .

فجبران يرى أن الحب غنوة حلوة تغاديه وتراوحه فى كل زمان مكان . وتريه سحر الطبيعة وجمال السكينة وعمق الأسرار . وهو بذلك يطبع الحب بالطابع الصوفى الذى يتحد بالمحبوب ويفنى فيه . يقول " سأتخذ الحب سميرا وأسمعه منشدا وأشربه خمرا " وألبسه ثوبا ، عند الفجر سينبهنى الحب من رقادى ويسير أمامى إلى البرية البعيدة ، وعند الظهيرة سيقودنى إلى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس ، وفى المساء سيوقفنى أمام الغروب ويسمعنى نغمة وداع الطبيعة للنور ويرينى أشباح السكينة سابحة فى الفضاء ، وفى الليل سيعانقنى فأنام حالما بالعوالم العلوية حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء . (١)

وقد أراد جبران أن يعبر عن مصاحبة الحب له فى جميع أطوار حياته فلجأ إلى الرمز الزمانى الذى يجعل من دورة اليوم رمزا لكل دورات الحياة .

فرمز للطفولة بالفجر ، ورمز للشبيبة بالظهر ، ورمز للشيخوخة ومشيب الأحلام فى عينيه بالغروب ، ورمز للفناء بالليل . وتلك الرموز وإن كانت تقليدية لكنها أعطت لتعبيره نفسا شعريا قريبا من لغة الأحلام والرؤى .

وهو فى قصته الأجنحة المتكسرة يعبر عن فلسفته فى الجمال وسر التجاذب الروحى بين الرجل والمرأة فيقول : عرفت أن للجمال لغة سماوية تترفع عن الأصوات والمقاطع التى تحدثها الشفاه والألسنة ، لغة خالدة تضم إليها جميع أنغام البشر وتجعلها شعورا صامتا مثلما تجتذب البحيرة الهادئه أغانى السواقى إلى أعماقها تجعلها سكوتا أبديا . الجمال الحقيقى هو أشعة تنبعث من قدس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لونا وعطراً " (٢)

وميخائيل نعيمه لايكاد يختلف فى مفهومه للحب العام عن جبران فالحب عنده طريق لوحدانية الوجود يقول " ألا وسعوا أبواب روحكم كيلا يظل أحد خارجا لاتبغضوا أحدا من الناس . إنما الأرض كلها تحيافيكم . وإنما السماوات وأجنادها حية فيكم "

---

(١) محمد محمد عبد المجيد : فى عالم الرؤيا ص ٥٧ .

(٢) جبران : الأجنحه المتكسرة ص ١٣٠ .

وللحب عند إيليا أبى ماضى مفهوم يتسامى فى الشفافية حتى يصل إلى درجة التصوف . ودواوينه حافلة بهذا اللون من الحب الذى يمثل تيارا متجددا فى حياة الشاعر يلون الحياة فى وجهه بالخضرة المثمرة فيقبل على الناس ، ويجابه كل الصعاب .

فالحب عنده نور يكشف حقيقة النفس ، ويهدى الإنسان إلى الله : يقول

قـــال قـــوم إن المحـــبة اثـــم ... ويـــح بعـــض النفـــوس ما أغبـــاها
أن نفســـا لـــم يشـــرق الحـــب فيها ... هـــى نفـــس لـــم تـــدر ما معناها
خـوفـونـــى جهنمـــا ولظـــاها ... أى شـــىء جهنـــم ولظـــاهـــا ؟
ليـــس عنـــد الاله نـــار لـــذى حب ... ونـــار الإنســـان لا أخشـــاها
أنـــا بالحـــب قـــد وصلـــت إلـــى ... نفســـى وبالحـــب قـــد عرفت اللـــه (١)

وحين يعبر أبوماضى عن الحب " بالإشراق فى النفس . فإننا نلمح قيمتين فى التعبير .

قيمة بلاغية .. تتمثل فى هذه الصوره التى رسمها للحب وكأنه الضوء الذى يأخذ إلى الطريق الصحيح وينقذنا من دياجير الحياة . وقيمة نفسية .. لأن الذى لايحب لايعرف نفسه ولايعرف الله . أليس فى ذلك إعلاء لايستهان به من قدر الحب ؟ .

وقد افتقد .. عزيز أباظة هذه النزعة فى شعر أبى ماضى فقال ...

وإيليا أبو ماضى حين يتحدث عن الحب لا يزجى عاطفة ذاتية وإنما يزجى حقيقـــة عـامة . (٢)

وإذا كان أبو ماضى فى القصيدة السابقة يتحدث عن الحب العام فهو إنما يتخذ الحب قضية شمولية يدافع عنها . وفى ذلك وعى واقتدار كاملين بدور الحب فى حياة الشعوب وأيهما أجدى . هذا الذى يركع تحت أقدام أنثاه ويجردها من ثيابها ويصف مفاتنها ولاينال شيئا فيذبح قلبه بسكين غدرها أو إعراضها . أم ذلك الذى يؤمن بالحب سلما لارتقاء البشرية ، ودافعا لايمان الإنسان بقدراته الخارقة . وكرامته المصونة وعلاقته الاجتماعية السامية .

وذلك لايمنع من أن تكون لأبى ماضى وجدانياته الخاصة ، وخفقاته الحالمة بنبض الحب

---

(١) أبو ماضى الخمائل ص ٢٢

(٢) محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى فى المهجر ص ١٦ .

وحرارة العاطفة . (١)

ويلتقى مفهوم الحب عند « ندره حداد » فى كثير من معانيه بمفهومه عند أبى ماضى فهو " يتفرع إلى روافد صافية أعظمها الحب الإنسانى الذى يربط قلب الشاعر بكل مافى الوجود برباط من المودة الصادقة التى تحب الخير لكل مافى الوجود (٢) فالحب هو القوة الدافعة يقــول .

الحــــب هــــذا كهـــرباء الـــوجود   بـــل هـــو فيــــه القـــوة الدافعه

وربما جهل الشاعر بحقيقة الكهرباء ومفهوم القوة الدافعة وهما مصطلحان علميان أقحمهما فى التعبير الأدبى . وذلك غير ممنوع إذا لم يكن هناك اضطراب وفساد للمعنى لكننا نرى الشاعر يعبر عن الحب بأنه كهرباء الوجود . ومن البديهى أن الكهرباء هى القوة الدافعة أو المحركة .

فلماذا يأتى بلفظه " بل " وهى للإضراب . ويقحم الضمير المنفصل بلا داع - ثم يأتى بالقوة الدافعة ؟ ومعنى هذا أن هناك مغايرة بين الشطرتين .

والقروى يتفق مع الشماليين فى رؤيته الشمولية لمفهوم الحب العام .

فالحب عنده دليل على فضائل النفس وهو يقودها إلى الالتحام بالكون وعناقه يقول من قصيدته " تسبيحة الحب " (٣)

سأجــــرف بعضكــــم بالحــــب جرفـــــا   وأنســـــف غيظكــــم بالحلــــم نسفـــــا
وأنهلكـــــم رحيــــق الصفـــــح صرفـــــا   وأطفــــىء فيكــــم ماليـــــس يُطْفـــــا

وأشفــــــى منكــــم ماليــــس يشفـى

إذا فكـــرت فــــى معنــــى الوجــــــود   وفــــزت بلمـــــح أنـــــوار الخلــــود
رثيــــــت لكــــل منتقـــــم حقــــود   يعــــذب نفســـــه وأنــــا وعــــودى

نــــروح ونغتـــــدى شــــدوا وعـــزفا

(١) أنظر فى يوان تذكار الماضى القصائد الآتية : الرجل والمرأة ص ٤٠ ذكرى وعبرة ص ٧٣ ، مصرع حبيبين ص ٧٦ ، لقاء وفراق ص ١١٢ بنت الفرقة ص ١٢٥ ، وفى ديوان : تبر وتراب : هدية العيد ص ١١٤ ، روحى فداك ص ١٢٨ .
(٢) عيسى الناعورى : ادب المهجر ص ٤١٨ .
(٣) ديوان القروى ص ٧٧٣ جـ ٢

والقصيدة تتخذ هذا الشكل المخمس .. وهى تبلغ خمسا وعشرين خماسية .. تدور كلها حول الحب ونبذ البغضاء . ويحلق الشاعر ويثب فى غير ترتيب لأفكاره وإنما يثب كعصفور من فنن لآخر فى حديقة الحب .

ويلتقط تنظيراته وتشبيهاته من الطبيعة النباتية أو الحية وقد ساعدت موسيقى القصيدة على إعطائها قيمة انفعالية محببة فى اللحظات الشعرية يقول :

غرســـت الحـــب فـــى قلبــى صغيـرا وأطلـــقت الســـــلام بــــه غــديـــرا
أأرجــــع اذ غـــــدا روضانضيــــرا فأجعلـــــه ببغضكـــــم سعيـــــرا

وأقطـــف منـــه جمـــر الحــزن قطفا

ويعيب الشاعر تكراره لكثير من معانيه فى قصيدة واحدة . وتعبيراته الخطابية المباشرة التى تقلل من قيمة التجربة هنا وذلك حين يقول :

لمـــاذا تخلقـــون الـــزور عنــــى ومـــاهــــذا التجـــنب والتجنـــى
أكــــل جريمتـــى فـــى الحـب أنى إذا أنشـــــدت ســـــر القـــوم منى

وألهـــب مـــــن حماستـــه الأكفـا

فمثل هذه المعانى بعيدة عن الأجواء الشعرية الحالمة وأجدر بها أن تكون حديث معاتبة أو تشف بين النساء أو شكوى لبعضهن من بعض .

-٢-

الحب يهذب النفس البشرية وينزع منها الكراهية وينمى فيها العواطف النبيلة الصادقة وهو طريق للأخوة الإنسانية وارتقاء سلم المجد .

فجبران فى كتاب النبى يجيب على " الميترا " حين قالت له . حدثنا عن الحب فقال فى صوت عميق . إن الحب إذا يكلل هاماتكم ليتخذ منكم القربان والغذاء . وهو اذ يشد من عودكم ليشذب منكم الأفنان والأغصان ، وكما يحلق بالغا هاماتكم ويداعب أرق غصونكم فتهتزمن النشوة فى رحاب الشمس ! كذلك يهبط إلى جذوركم فيهز أعماقها وهى متشبثة بباطن الأرض" . و يواصل جبران حديثه عن الحب ودوره فى تهذيب الطبيعة البشرية والتسامى بها إلى درجة

الصفاء الروحى حتى تصبح خبزا مقدسا فى مأدبة الله العلوية يقول : " ويضمكم إلى أحضانه كحزمة القمح ، وتحت عجلات النورج " يدرسكم ويعريكم وبالغربال يذروكم ، ومن القشور يحرركم ، وبين رحى الطاحونة يطحنكم طحن الدقيق ويعجنكم حتى تلين له قناتكم . ثم يسلمكم إلى ناره المقدسة حتى تصبحوا خبزا مقدسا فى مأدبة الله العلوية . كل هذا يفعله الحب بكم كى تعرفوا أسرار قلوبكم ، وبهذه المعرفة تصبحون قطعة من قلب الحياة . (١)

وجبران بهذا الأسلوب الذى يمكن أن أطلق عليه " الأسلوب الشعبى فهو رغم تحليقه فى آفاق البيان نراه يشتق صوره الأدبية من الحياة الشعبية فصورة الحصاد لاتفارق وجدان أى ريفى . والألفاظ التى ذكرها جبران هنا مثل حزمة القمح ، عجلات النورج ، يدرسكم ، يعريكم ، الغربال ، يذروكم يعجنكم ، يطحنكم ، الخبز .

هذه الألفاظ تعطى لأدب جبران قيمة خاصة فهو قد استطاع أن يوظفها فى أداء غرضه الفلسفى فى الحب . وهى قدرة جديرة بالتقدير .

وندرة حداد يؤمن بأن الحب ينمى فينا العواطف النبيلة الصادقة . يقول مازجا الحب بالطبيعة البشرية والطيور التى تعطف على أولادها :

مـــن علـــم الطيـــر علـــى ضعفهـــا	أن تبنـــى الأعشـــاش فـــوق الغصـون
تحرسهـــا الآمـــات مـن عطفهـــا	كأنـــها الأجـــفان حـــول العيـون
مـــن أسهـــر الأم علـــى طفلهـــا	صابـــرة تشقـــى ولاتضجـــر
حاملـــة ماليـــس مـــن حملهـــا	وأتعـــب الأحـــمال مايسهـــر

ويجيب الشاعر على هذه الأسئلة محددا الدافع الحقيقى لهذا العطف وهو الحب الفطرى الذى يسرى فى النفوس دون أن تدرى . يقول :

أخـــى ماحـــرك هـــذى النفـــوس	فـــى الخلـــق مـــن نـــاس ومـــن طير
إلا الـــذى يجـــرى كخمـــر الكـؤوس	فـــى كـــل نفـــس دون أن تـــدرى

* *

دعـــوه بالحـــب وكـــم عاشـــق	أوصلـــه الحـــب إلـــى مـــا أراد
ذا نعمـــة مـــن نعـــم الخالـــق	لـــولاه كـــان الخلـــق بعض الجماد

(١) جبران : النبى ص ١٢ .

ولذلك فالحب رفيق الإنسان فى معبده وحقله وكل أطوار حياته يقول :

مـــا الحـــب ياصـــاح ســوى نفحــة	قدسيـــة بـــين الـــورى تسطـــع
يرفعـــه الكـــاهن فـــى كـأســـه	والقـــوم فـــى معبدهـــم خشـــع
يحصـــده الـــزارع أن أخصـــبت	فـــى الموســـم الأرض التـى تزرع

والحب طريق للأخوة الإنسانية وارتقاء سلم المجد .

ويتشابه « ندرة حداد » مع نعيمه إلى حد كبير فى نظرته إلى الحب الإنسانى الخالص الذى يسمو فوق كل شىء يقول من قصيدته " سر معى " :

يا أخـــى الساعـــى لنيـــل المجـــد	خفـــف عنـــك جمحـــك
ســرمعـــى فـــى الأرض نفســى	المـــال والجـــاه وطمحـــك
أنـــا راض بالعصـــايا	أيهـــا الحامـــل رمحـــك
وســأنسى جـــرح قلبـــى	كلمـــا شاهـــدت جرحـــك

والشاعر فى القصيدة السابقة يحمل روحا كبيرة تفيض بالخير والحب وتتدفق بالعطاء السخى دون مقابل . لكن هذا الموقف لا يؤدى دوره إذا كان ضعفا واستسلاما . وإلا فما جدوى قوله :

أنـــا راض بالعصـــايا	أيهـــا الحامـــل رمحـــك

فهل هذه دعوة للقنوط ؟ لا أعتقد لأن الشاعر لم تؤثر عنه فلسفة حياتية خاصة اللهم إلا إحساسه بالفقر الشديد وارتباطه بالمال ارتباطا عكسيا فهو يذم المال لأنه لم يعثر عليه . ويوصى ابنه بعد ذلك أن يحرص على جمعه .

وهو فى حنين دائم للطفولة هروبا من الواقع الأليم الذى يفاجئه كل يوم بالجديد القاسى.

* *

وهو أحيانا يتسامى فى حبه إلى درجة الألم . والرثاء لحالة الضعفاء بل - ومشاركتهم فيما حل بهم .

والقلب الذى لا يعرف الحب ، وبالعكس . فالشاعر الذى يحث إخوانه فى الإنسانية . ويريد لهم الخير والسعادة لابد أن تتفتت نفسه ألما لمصابهم وأحزانهم يقول حداد :

لاتفـــــرح النفـــــس الكريمــة أن رأت أختا حزينة
فابكــــــى مــــــع الباكى ومدى للضعيف يد المعونة

* *

وللدكتورين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم رأى فى ندرة حداد وهو أن سر تأثيره فى موقفه الشعرى وليس فى قدرته التعبيرية أو صوره الشعرية أو آفاقه الفنية يقولان :

ويعتمد ندرة على الموقف الشعرى ، خاضعا فى ذلك لطبيعته الرومانطيقية وأكثر مواقفه قرانات مزدوجة ، أحد طرفيها الشاعر نفسه مثال ذلك الشاعر وورقة الخريف ، الشاعر والزهرة ، الشاعر والجبل ، الشاعر والربيع . وفى هذه القرانات نسمعه يقول للزهرة : أنت سترجعين ، أما أنا ويقول للجبل : أنت مصدر الوجود ، ولاعقل لك ، أما نحن ويقول للربيع .. أنت خالد أما صباى .

وفى كل موقف من هذ المواقف الشعرية ، تجده ينقل الحقيقة مرتين ، ولايترك فرصة إدراك العلاقة المتضمنة فى وقفته أمام هذه المظاهر بل هو يشرحها ويفسرها وكان يكفيه أن يتحدث عن الجبل ، ليشعر القارىء أنه يتحدث عن نفسه ، أو يتحدث عن عودة الزهرة متحسرا ، موحيا للقارىء أنه عاجز عن أن يعود كما تعود الزهرة .

ومع كل ذلك فإن أكثر التأثير الذى يحدثه شعر هذا الشاعر ، معتمد على هذه المواقف الشعرية نفسها .

... والحب لايعرف الكراهية حتى لمن يتباهون بالقيم الخسيسة (١) عند نعيمة ويكاد ينفرد نعيمه بهذه الظاهرة تأثرا منه بالمسيحية ومبدأ التسامح . وشعار المسحيين " مالقيصر لقيصر وما لله لله " يقول " :

(١) م . نعيمه : زاد المعاد ص ٦٨ .

لاتبغضوا الشرير وابغضوا الشر لأنكم إن أبغضتموه أصبحتم أشرارا مثله . أما إذا أبغضتم الشر فقد تقتلونه وتهتدون إلى الخير .

إن أحببتم كل مافي الكون إلا دودة واحدة فإنكم مابرحتم تكرهون ذواتكم بقدر كرهكم لتلك الدودة .

وهذه النزعة المتسامية فوق الكراهية التى تصل إلى درجة مباركة اللاعنين نادى بها نعيمه بعد عودته من المهجر تأثرا منه بالإنجيل وعبارته القائلة .

أحبوا مبغضيكم وباركوا لاعنيكم

وقد ترجم نعيمة الفقرة السابقة شعرا فقال من قصيدته " أنشودة .

قـــدمت حبـــي لمبغضيـــا	لقـــاء ما قـــد جنـــوا عليا
فكـــان حظـــي	مـــن مبغضيـــا
أن عـــاد حبـــي	بغضـــا إلـيـــا (١)

ولاشك أن هذا الحب حب سلبى ذابل لأحد يحس به ولايستمع إليه فالشر لابد أن يبتر ، والنار لابد أن تخمد ، وحينما تمتهن كرامة الإنسان فيتحول الحب إلى شحنات متدفقة من الغضب حبا فى البقاء على مقومات حياته ولبنات كرامته . وذلك هو الحب الإيجابى البناء الذى لايتجمد فى نزعات سلبية .

ولكن نعيمه يؤكد معتقده السابق . ويصور نفسه فى موقف الدفاع عن النفس . والصورة هنا بدائية . فالشاعر يعلو متن جواده . وسلاحه السهم . ويروشه على الأعادى ولكن يموت الجواد تحته . ويرتد السهم إلى فؤاده . وبذلك يدعونا الشاعر إلى المحبة الدائمة التى لاتعرف أعداء يقول :

علـــوت يومـــا	مـــتن جـــوادى
ورشـــت سهمـــي	علـــي الأعـــادى
فخـــر ميتـــا	تحتـــي جـــوادى
وارتـــد سهمـــي	إلـــي فـــؤادى

(١) م . نعيمة : خمس الجفون ص ٦٦ .

والحب عند أبى ماضى يوقظ الشعور ويضىء الكون ويجمل الحياة ويوحد الإنسانية يقول .

أحـــبب فيغـــدو الكـــوخ قصـــرا نيرا	وابغـــض فيمســـى القصر سجنا مظلما
والكـــاس لـــولا الخمـــر غيـر زجاجة	والمـــرء لـــولا الحـــب الا أعظمـا
لـــو تعشـــق البيـــداء أصبـــح رملها	زهـــرا وصـــارسرابهـا الخداع مـا(١)
لاح الجمـــال لـــذى نهـــى فأحبـه	ورآه ذو جـــهل فظـــن ورجمـــا

واعتمادا لشاعر على المطابقة والتضاد هنا بهذه الصورة يذكرنا بمذهب البديع فى الشعر العربى فى أزهى عصوره . ولكن الشاعر هنا لم يترك الألفاظ توحى بل أفرغ كل مافى جعبته فنراه يستطرد ويجعل البيت كله مقابله على هذه الصورة .

أحبب وأبغض ، فيغدو . فيمسى ، الكوخ ، القصر ، قصرا سجنا ، نيرا ، مظلما وتكثر هذه الظاهرة فى شعر إيليا أبى وبخاصة فى قصيدته " الطين " ولكن وعى الشاعر وصدق شعوره يجعل صوره غير متنافرة .

وفى قصيدة ، أنفس العشاق " (٢) يقول أبو ماضى إن جهنم الحقيقة ليست هى التى أخبر عنها الهداة المعلمون .

" لكنمـــا أن لاتحـــب جهنـــم ثم يخاطب صاحبه
ياصاحبـــى أن الخـــواء هـــو العـذاب الأعظم
القـــلب الا بالمحـــبة منـــزل متـــــــردم
هـــى للجـــراحـــة مرهـــم ، هى للسعادة سلم
هـــى فـــى النجـــوم تألق . هـــى فى الحياة ترنم
هـــى أنفـــس العشـــاق فى عمق الدجى تتبسم

وفى قصيدته " تلك السنون " يؤكد قيمة الحب فى وحدة الإنسانية فيقول :

مـــن كـــان يحلـــم بالسمـــاء فإننـى	فـــى قـــلب انســـان وجـــدت سمائـــى
ليـــس الجمـــال هـــو الجمـــال بذاتـه	الحســـن يوجـــد حـــين يوجـد رائـى

---

(١) لايخفى مافى هذه القافية من قلق واضطراب : فالكلمة أصلها " ماء " .

- ٣ -

"الحب اكسير الحياة " :

وقد آمن المهجريون بأن الحب قانون حياتهم وغذاؤهم وشرابهم وعطاؤه لايحد وهو يجفف ينابيع الألم ، وينشر السلام فى الأرض وهذا التصور للحب يبدو فى نتاج نعيمه وجبران وأبى ماضى أكثر من غيرهم فالحب عند جبران هو ابن التفاهم الروحى يقول :

" ما أجهل الناس الذين يتوهمون أن المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . إن المحبة الحقيقية هى ابنة التفاهم الروحى وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة ، فلا يتم بعام ولا بجيل كامل . (١)

والحب يجفف ينابيع الآلم وينشر السلام فى الأرض عند نعيمه .. وفى كتاب زاد المعاد يكتب مقالتين إحداهما بعنوان " ينابيع الألم " (٢) ٦١ - ٦٩ " والأخرى بعنوان سلام الله وسلام الناس .١٠٩ - ١١٩ " (٣)

ويرى أن القضاء على الألم لايكون إلا باعتناق الحب مبدءا فى الحياة فيقول فى مقالته " ينابيع الألم " إنكم إن شئتم الخلاص من الألم فعليكم أن تحبوا ذواتكم غير أنكم إن أنصفتم الناس كلهم وظلمتم طفلا واحدا فلكم فى ظلمكم هذا ينبوع ألم . لأنكم لم تظلموا إلا أنفسكم ولن تتخلصوا من ظلمكم حتى تنصفوا .

أما متى اقتبلتم الحياة كلها مثلما تقتبل البحار أنهارها والأرض أثمارها فحينئذ :

(إذا ذبحتم لتأكلوا كانت ذبيحتكم قربانا تقدمه نفسكم لنفسكم

وإذا مازرعتم لتحصدوا كان ماتزرعون وماتحصدون خلوا من الشوك والزوان

وإذا هتفتم ، ياأخى " عاد هتافكم إليكم من فم كل إنسان

وإذا ناديتم الحياة بصوت واحد أجابتكم كل أصوات الحياة

---

(١) جبران : الأجنحه المنكسرة ص ٢٢ .
(٢) م . نعيمه : زاد المعاد ص ٦٩ .
(٣) السابق ص ١١٤ .

وحينئذ كانت الأرض أرضكم والسماء سماءكم)

وفى المقالة الثانية يوضح أن المحبة هى طريق السلام . فيقول عنه إنه " اتزان وائتلاف فى النفس ، هو شقيق المحبة ، بل هو المحبة . وهو روح كل روح ، وحياة كل حياة والقدرة التى بها يتماسك كل مافى الكون من محسوس وغير محسوس فلا يفلت منها شىء ولايهلك معها شىء .

تقولون لى : وهذا السلام أين نفتش عنه .

ألا فتشوا عنه فى قلوبكم ، أما فى غير القلب فعبثا تفتشون . هناك فى ذلك العالم المتناهى بحجمه اللامتناهى بقوته . فى تلك الرمانة المرصوفة بكل أصناف النزعات والشهوات . هناك اعقدوا مؤتمراتكم للسلم . (١)

ثم يدعو الكاتب الناس إلى المحبة والسلام . وهو فى تعبيره الفنى غالبا مايستعمل فعل الأمر الذى يشبه الالتماس أو الدعاء . ثم يلجأ إلى الحوار والقياس المنطقى وإعطاء المقدمات ثم البراهين ثم النتيجة .

ويعبر عن رأيه فى السلام قائلا .

تعالوا نشد مدينة للسلام

تعالوا نشدها من قلوبنا فى قلوبنا ، ولنطوقها بسور منيع من الإيمان بجمال الحياة وعدلها وكمالها . ولنجعل الفكر النير حارسا لها والخيال المبدع علما يخفق فوق أبراجها ، ولنخط بأحرف من نور على كل باب من أبوابها هذه الكلمات الثلاث :

سـلامكـم فـى قلوبكـم (٢)

وفى قصيدة . فتش لقلبك " يجرد الشاعر من نفسه شخصا أخر وكأنه صوته الداخلى المعذب والليل يمر ثقيلا وهو مرتجف العظام والفجر يميل عنه إلى سواه . لأنه فقد المسير فى الليل ، وتغذى من القلب عند الفجر . ويخوض ميدان الكفاح نهارا حتى يخر من ألم الجراح ولايجد من يؤاسيه . وفى قفار الحياة الواسعة يجول ويفقد سبيله لأن قلبه فقد الدليل .. ثم

---

(١) السابق ص ١١٤ .

(٢)م . نعيمه : زاد المعاد ص ١١٩ .

يناديه فى النهاية :

أسفـــــى عليــــك فـــــلا الذهـــــاب
سـهـــــل لـــديـــك ولا الإيـــــاب
ستظـــــل تخبـــــط فـــى ضبـــاب
حتـــــى ينيـــــر لـــك الطـــــريق
قلـــــب يكـــــون لقلبــك الواهـــى رفيق

فالحب هنا يمثل الخلاص من عذاب الحيرة . وقد أعطى الشاعر صورة بليغة لهذه الحيرة . وتردد الأسلوب بين الخبر والإنشاء هو صدى مافى النفس من تذبذب - واضطراب .

وترويع الظلام ، وارتجاف العظام ، والهم الارتباك ، والأنين والسقوط من ألم الجراح والتجول فى القفار ، والتستر بالغبار ، وفقد السبيل إلى الديار ، كل الصفات السابقة تعطينا تشخيصا دقيقا لذلك الإنسان الذى اشتقه نعيمه من نفسه ليضفى على قصيدته بعداً إنسانياً شاملا . وهو يصور الشقاء الإنسانى فى غياب الحب والعنصر القصصى يسود القصيدة برغم قصرها .. واتخاذ القالب الزمانى المتمثل فى الدورة اليومية ليلا ونهاراً لصب المشاعر وسيلة فنية يكررها نعيمه كثيرا وكذلك جبران وهى على ماأعتقد رمز لمراحل حياة الإنسان

* *

والحب هو " أكسير " الحياة عند جبران .. وقد عبر عن هذه الحقيقة فى كتاباته المتعددة ففى كتابه " رمل وزبد " يقول إن الحب يبدل الأشياء كلها .

يقول لى منزلى : لاتهجرنى فها هنا يقيم ماضيك .

ويقول لى الطريق : هلم فامض فى إثرى فإنى لك المستقبل .

وأقول لهما معا : منزلى والطريق أنا لا ماضى لى ولامستقبل .

وإذا ماأقمت هنا ففى إقامتى رحيل . وإذا مارحلت ففى رحيلى إقامة .

الحب والموت وحدهما يبد لان الأشياء كلها . (١)

(١) م . نعيمة : همس الجفون ص ٩٤ .

(٢) جبران - رمل وزبد ص ١٨ .

والحب عنده كلمة خطتها يد من نور على صفحة من نور (١) .

ولايرتبط الحب عنده بالشكوى والنواح ، ولكنه نشوة ومتعة روحية " يقولون إن البلبل يخز صدره بشوكة حين يغنى أغنية الحب . وكذلك نحن جميعا نفعل . هل من سبيل آخر للغناء . (٢) ويعتمد جبران فى خواطره وأمثاله على الأسلوب الموحى المركز الذى يحمل تجربة شعورية مكثفه وهو فى مفهومه السابق للحب يتبع خطه الثائر . وأدواته الفنية هنا التنظير .. والاستفهام الذى يوحى بالحدة الانفعالية فكأنه ينتزع قلبه مع صيحته " هل من سبيل آخر للغناء "

* *

والحب عنده عطاء لايحد وفقده خسارة كبيرة لايعوضها المال ولا الجاه حتى لو كان الأب ملكا .

وهذا المفهوم للحب عند جبران يفسر لنا مأساة فوزى المعلوف حيث لم يستطع المال أن ينسيه أطياف حبه ، ولا استطاع أن يضمد جراحه الفائرة والغائرة فى روحه اليائسة .

وفى حديقة النبى : يصورجبران نظرته للحب عندما يقف المصطفى وحده على قبر أمه يخاطب أطياف روحه وأحبابه المتفرقين عنه : يقول لهم :

أنظروا إلى إبنة الملك التى تزينت بكل ما تملك " وفى سكون الليل نشدت ابنة الملك العظيم الحب فى الحديقة غير أنها لم تجد فى ملك أبيها الواسع جميعا من خفق قلبــه بحبهــا . (٣) .

ويقول معبرا عن بساطة الحب مجسداً بعض صوره المختلفة . ليتها كانت ابنة فلاح ترعى غنم أبيها فى النهار . وتسترق الخطا صوب الوادى فى السماء ، حيث الحبيب فى انتظارها .

وليتها كانت عجوزا تجلس فى الشمس تذكر من شاركه الشباب . (٤)

---

(١) جبران السابق ص ٢٢ .
(٢) جبران السابق ص ١٩ .
(٣) جبران : حديقة النبى ص ٩٦ – ٩٧ .
(٤) السابق ص ٩٧

وعن كيفية الحب وطبيعة الخوض فى بحاره المتلاطمة : يقول جبران فى كتاب النبى .
فإذا أحببت ولم يكن مفر من أن تساورك رغبات فلتكن هذه رغباتك .

أن تذوب حتى تصبح كالغدير المنساب يشدو الليل بألحانه ، وأن تحس الألم النابع من فيض حنان كبير .

وأن تدرك بنفسك الحب فتتقبل طعناته .

وأن ينزف دمك راغبا مبتهجا .

وأن تنهض مع الفجر بقلب يطير لتستقبل شاكرا يوم حب جديد .

وأن تغفو وقت الظهيرة مسترجعا نشوة الحب .

وأن تعود إلى مأواك عند الغروب مقدرا للجميل .

ثم تخلد إلى النوم وقلبك يسبح بمن تهوى وشفتاك تتغنيان بالحمد والثناء (١)

* * *

.... وعند أبى ماضى الحب نور خالد متجدد لايفنى بفناء الأجساد : يقول من قصيدته " الدمعة الخرساء ..

فالحـــب نـــور خـــالد متجـــدد :	لا ينطـــوى إلا ليسطـــع نـــــور
وبنـــو الهـــوى أحلامهـــم ورؤاهـــم	لأعـــين ومراشـــــف وبخـــــور

وفى القصيدة السابقة يعلن أبو ماضى عقيدته فى تناسخ الأرواح والحب كان دافعه إلى ذلك لأنه يخاف من الموت على الحب . فتوهم أنه سيبعث مع حبيبته فى صورة وردة – تضوع بالشذى أو طائر يغنى أعذب الألحان . والشاعر يخاطب زوجته " دوروثى " .

ويفصح عن هذا الشعور المبهم بعد سنوات طويلة . فى ديوانه تبر وتراب الذى طبع بعد موته ففى قصيدته " لو " (٢) يخاف من الموت فى حضور الحب وقد مرت هذه اللحظة الخائفة بقلب الشاعر فوزى المعلوف .

---

(١) جبران : النبى ص ١٥ .

(٢) أبو ماضى : تبر وتراب ص ١٣١ .

والقصيدة تعين اسم المحبوبة وهى " هند " وقد يكون الاسم رمزا شعريا اعتاد عليه الشعراء العرب . ويخاطبها الشاعر متأملا جمالها وخائفا من شبح الموت :

فيـــك وفـــى الـــوردة ســر الصبــا	وفـــى الصبـــا ســـر الهوى والجمال
فـــان تريـــنى واجمـــا باهتـــا	حيالهـــا أخشـــى عليهـــا الـــزوال
فإننـــى شاهـــدت طيـــف الردى	ينســـل كالســـارق بـــين الظلال

ولاح لـــى فـــى الـــورق النـــامى
منطـــرحا فـــى الأرض قـــدامى
أشبـــاح أمالـــى و أحلامـــى
أحـــلام مـــن ؟ أحـــلام مضناك

والحب بوابة ندلف منها إلى الحرية والسماحة الدينية :

يقول جبران وهو يعشق الحرية ويضحى فى سبيلها " المحبة هى الحرية الوحيدة فى هذا العالم لأنها ترفع النفس إلى مقام سام لاتتبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولاتسوده نواميس الطبيعة وأحكامها . (١)

وقاده هذا المفهوم للحب إلى التمرد على التقاليد الاجتماعية البالية وكان نتاج هذا التمرد قصة " الأجنحة المتكسرة ، وخليل الكافر ، ومرتا البانيه ، ووردة الهانى " . كذلك أداه إلى التسامى بعقيدته والرقى بها إلى أفق التسامح ونبذ العصبيات الدينية . حيث يقول :

" أحبك ياأخى ساجدا فى جامعك ، وراكعا فى هيكلك ، ومصليا فى كنيستك . أنت رفيقى على طريق الحياة المستترة وراء الغيوم "

والحب لايعرف الأغراض ولا الأهواء

وفى قصيدة المواكب نتعرف على هذه الظاهرة حيث يتراءى لنا جبران شاعرا مثاليا يتمتع بنفس مترفعة عن الدنايا والأغراض . وهى تحب لذات الحب : يقول :

والحـــب فـــى النـــاس أشكال وأكثرها	كالعشـــب فـــى الحقـــل لازهـــر ولاثمـــر
الحـــب إن قـــادت الأجســـام موكبـه	إلـــى فـــراش مـــن اللـــذات ينتـحر

ونلمح هنا رفض جبران لما تواضع الناس عليه من قيم فى الحب جعلته حقلا مجدبا لا عطاء منه يرجى ، ولادورا فى إسعاد حياة الناس . وكعادته اتخذ الطبيعة وسيلة فنية ، واعتمد

(١) جبران : الأجنحة المتكسرة ص ١٣ .

التشبيه والتجسيم لإثارة الاحساس المتلقى فالحب كالعشب وهو ينتحر إن مسته اللذة وحينما نتعمق هذه المفاهيم نعثر على مزاج جبران الأفلاطونى وثقافته النفسية وتعمق الحب فى نفوسهم حتى اعتقدوا أنه قدر لايستطيع الإنسان الخلاص منه حتى لو أراد .. وهذه الظاهرة تبدو فى حياة أبى ماضى بصورة واضحة وقصيدته " فى القفر " (١) ترجمة لذلك الإحساس . فقد مرت به لحظات من السأم وملت نفسه الناس ، وضجر من قيم الحياة الزائفة ، ومعادنها المغشوشة " وعملاتها ذات الوجهين المتناقضين . الوجه والقناع ولايرى إلا القناع فاختلطت عليه القيم وغامت فى عينيه حقائق الأشياء ولكنه فى النهاية يعود ويرتبط ببشريته وبأرضه وبحياته فالناس كلهم ساكنون فى ثيابه وقلبه . ويختم هذه القصيدة بهذا البيت الجامع .

خلـــــت أنـــى فى القفــر أصبحت وحــدى

فـــإذا النـــاس كلهـــم فـــى ثيابـــى

وقد صدر ميخائيل نعيمة مقدمته للجداول بهذا البيت وعلق عليه قائلا لقد قرأت لأبى ماضى كثيرا من طيب الشعر وجميله غير أنى لست أذكر أنى قرأت له أصدق من هذا البيت .

أو لست تسمع عند قراءته قلوب الإنسانية نابضة فى قلبك ، تشهد أمواج أفكاره متلاطمة فى بحر فكرك ؟ .

أو لست تراك رفيقا لكل وحيد فى وحدته ؟ ولكل غريب فى غربته ؟ وشريكا لكل أثيم فى إثمه .. ولكل عالم فى علمه ؟ (٢)

ورافقه هذاالشعور الإنسانى العام طيلة حياته . وفى ديوانه تبر وتراب : – قصيدتان الشاعر والكأس ، وقصيدة الشاعر .

وفى الأولى يصور الشاعر وهو يملك الكون فى يديه لكنه:

صامـــت مثـــل كتبـــه وكدنيـــــا بــــلا أنـــــام

وكل مغريات الحياة أمامه :

لـــم تـــزل كأســــه لــــديـــه وفـــى كـأســـه مـــــدام
ولــــه تضحـــك البـــروق ويبكـــى الحيـــا السجـــام
ولــــه ترتعـــى الكواكـــب فـــى مســـرح الظــــلام
ولــــه تلبــــس الربـــى بـــرد النـــور والغمـــــام

(١) أبو ماضى : الجداول ص ٤٨

(٢) الجداول : مقدمة نعيمه ص ٣ .

ولـــــه يعبـــــق الشـــــذى	ولـــــه تعصـــــر المـــــدام
ولـــــه يلمـــــع النـــــدى	ولـــــه يسجـــــع الحمـــــام
ولـــــه الغـــــادة المليحـــــة	والفـــــارس الهمـــــام

وكل المغريات السابقة لا تجلب السعادة له !! فما سر شقائه الكبير ؟

يجيب الشاعر معلنا قيمة الحب فى تجميل الحياة وامتدادها البهيج .فسبب شقاء الشاعرهو هروب الحب منه وموت الهيام فى قلبه مما جعل الكون قبرا كله رمام .

بقـــــى الحســـــن إنمـــــا	مـــــات فـــــى الشـــــاعر الهيـــــام
فـــــإذا الكـــــون عنـــــده	جـــــدث كلـــــه رمـــــام

ومعجم الشاعر هنا لم يتغير . فالطبيعة الأرضية ، والطبيعة الفضائية وما تطوى كل منهما من مفردات مازالت تقتحم خيال الشاعر أو يهجم عليها خياله ليعبر عن مواقفه المختلفة لكن روح أبى ماضى المتفائلة تختفى ظلالها هنا .

وأعتقد أن الشاعر أحس بشبح الموت ينسل كالسارق بين الظلال كما عبر فى قصيدته " لو " وتجمدت حرارة العاطفة فى قلبه فهرب منه إحساسه الشبابى المتوهج وشعر ببرودة الفناء تسرى فى كيانه : فصور ذلك الواقع فى هذه القصيدة على هذا النحو القاتم البليغ .

ونعثر على تفسير للإحساس السابق فى قصيدته " الشاعر " التى يهديها إلى روح خليل مطران وهو يقدر الشاعرتقديرا يرفعه إلى مرتبة القداسة ويبالغ فى هذا إلى درجة التطرف والمغالاة المذمومة فيقول :

أى وربـــى لـــو مضـــى الشاعر عنا لبقينا
ولعشنـــا بعـــده فـــى غصص لاينتهينـــا
ولأمـــسى اللـــه مثل الناس مغموما حزينا

ولذلك نراه حزينا لإحساسه وهو الشاعر بخطوات الموت تدب على قلبه وهو يعتقد أن وظيفة الشاعر أبدية أزلية خلق مع الإنسان ، وعاش معه فى كل العصور ، يقينا يصرع الشك ، وأمنا يهدم الخوف ، وحبا يميت البغض وأملا يحرق اليأس ، وحياة لاتعرف الموت ، فى قلبه تتلاقى الأزمنة ، وتتلاشى المسافات . لتنطلق من جديد مؤكدة ذاتها وقدرتها على تجميل وجه

الحياة الشاحب .

– ٤ –

"وآمن بعضهم بأن الحب قوة تصون صاحبها وتحمى حقوقه ، وإلا كان ضعفا وجبنا" ، وهذه الظاهرة يخالف فيها القروى بل ويثور على مضمون الحب عند نعيمه – الذى يدعو إلى حب المبغضين ومباركة اللاعنين .

وكذلك يخالف جبران فى موقفه من الحب العام حيث يدعونا إلى حب الكون كله بما فيه من متناقضات ونقائص بدافع من إيمانه بوحدة الوجود .

وإن كان القروى فى تسبيحة الحب " يدعو أعداءه إلى السلام ويعلن أنه ليس مبغضا لهم . ولكنه لم يعلن مباركتهم والاستسلام لهم .

يقول :

عـــدوك ياعـــدوى مــــن تـــوارى	بصـــدرك موقـــدا بحشـــاك نـــارا
فـــان تطلـــب مــــن الأعـداء ثارا	فـــآخ النـــاس وانتحـــر انتحارا

فأعـــداهم بشـــوبك قد تخفى (١)

والثورة على الحب النعيمى مما تميز به أدب المهجر الجنوبى فقد كانوا .. وبخاصة القروى وفرحات من أشد أعداء هذا اللون من ألوان الحب الذى يدعوهم فى النهاية إلى إلقاء أسلحتهم فى معركة النضال العربى وتقبيل أيدى الغربيين . (٢)

ويرى القروى أن الدين الذى يعلم الناس أن يحبوا أعداءهم هو الذى يغرس فى نفوسهم معانى الذل والخنوع فيجعلهم يتقاعسون فى الجهاد فيقول :

" أحبـــو بعضكـــم بعضـــا " وعظنـــا	بهـــا ذنـــب فمـــا نجـــت قطيعـــا
فيـــاحمـــلا وديعـــا لـــم يخلـــف	سوانـــا فـــى الـــورى حمـــلا وديعا
غضبـــت لـــذات طـــوق حـــين بيعت	ولـــم تغضـــب لشعـــبك حـين بيعا (٣)

(١) ديوان القروى ص ٧٩٦ .

(٢) د / أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٢٨٥ .

(٣) ديوان القروى .

فهو يؤمن بأن المحبة وحدها لاتكفى فى النضال من أجل الحرية لأنها إذا كانت من الضعيف للقوى . فهى ضعف وجبن وتملق ، والقوى لايؤمن بها ولا يأبه لها ولذلك لايمكن للحب والإنسانية أن يحررا عنقا من نير أو يخلصا معصما من قيد .

- ٥ -

ويتخذ الحب لونا آخر عند القروى يمكن أن أصفه بالتفرد " فهو يختلف عن الصبغة العامة التى صبغت الثوب المهجرى المطرز بالحب ، ويخالف هذا اللون - منهجهم العام حتى عقيدتهم واتجاهاتهم وبنائهم الفكرى . فقد اصطبغ الحب عنده بالعصبية أحيانا . وكان الدافع إلى ذلك غيرته على وطنه وقومه .

وذلك أنه أعرض عن حب صديقته الإنجليزية ، لا لشىء إلا لأن قومها أذاقوا قومه الذل والهوان . إنه يخاطبها فى جفاء تمليه العصبية وحب يمليه القلب .

ولو لم تكونى فرنجية ... لكنت سعادى قبل سعاد
ولكننى عربى المنى ... عربى الهوى عربى الفؤاد
لعمرك يا " مود " لولا بنوك ... لما ميز الحب بين العباد
فلا تقربى شاعرا زاهدا ... وكم هام بالحب فى كل واد
فإنى حرام على هواك ... وفى وطنى صيحة للجهاد (١)

الحب الخاص : " الرؤية الذاتية الوجدانية "

يتهم كثير من النقاد شعراء المهجر بجفاف الطبع والبعد عن الحب الخاص ومنهم " صلاح لبكى " فى كتابه لبنان الشاعر " يقول : إن جمال المرأة ظل غائبا عن شعر المهجر إذا استثنينا جبران .. وإن دواوين المهجر قد خلت من الغزل .

ومن هؤلاء أيضا الشاعر عزيز أباظة . يقول : إن الحب عندهم يكاد يكون ثانوى القيمة فى عناصر الحياة . لامعنى عميقا فى أغوار الإنسانية . (٢)

وهناك نقاد يرفضون الرأى السابق ويؤكدون إحساس المهجريين بالمرأة والتعلق بها ومنهم

---

(١) السابق :
(٢) محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى فى المهجر ص ٢٥ .

د / حسن جاد الذى يتساءل فى غرابة قائلا .

هل نستطيع أن نجرد أدباء المهجر كبشر من الشعور الغريزى بالمرأة ونبرئهم وهم شعراء من الإحساس بجمالها . والهيام بها والصبوة إليه ؟ قد أحبوا المرأة بحكم الغريزة . وأحبوها بحبهم للجمال ، وأحبوها بحبهم للإنسانية ، ومظاهر الطبيعة والوجود . وأحبوها أولا وأخرا بحبهم للحب ذاته وتقديسهم له . (١)

ويقول : د / أنس داود إن شعراء المهجر اعتنوا بحب المرأة وازدهرت قصائدهم فيه بل وطبع أقدارهم . فقد قضى الشاعر فوزى المعلوف شهيد حب وثار جبران على المجتمع وتقاليده ، والدين ورجاله من خلال دفاعه عن حبه الأول . وغنى كافة شعراء المهجر للمرأة أعذب الغناء . (٢) ولاشك أن الحق مع القائلين بإسهام المهجريين فى الحب وحب المرأة بالذات " بأدبهم " شعرا ونثراً .

وهنا أدلى بشهادة الشاعر رياض المعلوف فى هذه القضية فهى دليلى ثم تأتى بعد النصوص التى تركها هؤلاء الأدباء .

قال الشاعر رياض المعلوف حينما وجهت إليه السؤال التالى :

ماراْيكم فى الحب وشموله لقضايا الحياة كلها . أو انحصاره فى دائرة الرغبة فقط ؟ وماهو السر المختبىء خلف " شعلة العذاب الذى أبحر مع بساط الريح خارج الغلاف الأرضى سابحا فى الملكوت مع روح فوزى الأثيرية ؟

قال :

" الحب هو قصة الحياة كلها .. ولاحياة بلا حب ! ومسكين ألف مرة من لايحب ومن لايعرف الحب ! رغم متاعبه . ومصاعبه .. ومغامراته .. وخيبة الأمل فيه .. أحيانا . ومما لاشك فيه أن الرغبة .. هى الدافع الذى يدفعنا إلى الهيام والوله ! والحافز إلى التلاقى والتلاشى الذاتى .. فى ذات من نحب !!

وشعله العذاب عند أخى فوزى هى شعلة الحب السماوية المتصلة بالله والروح المجنحة

(١) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ٢٢٩ .

(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٢٨٩ .

التى حملته على بساط الريح من الأرض إلى الأثير يسبح فيه بين الغيوم والنجوم . (١)

ولنا أن نتساءل : أى نوع من الحب هذا الذى احتضنه شعراء المهجر وأدباؤه ؟ أهو الحب العذرى الخالص . الذى يتغنى بجمال المحبوبة بعيداً عن كل لذة جسدية . وارتقاء بالحواس إلى درجة التفانى والتقديس لذات المحبوبة ؟ أم هوالحب الذى نشتم منه رائحة الجسد . وتتلوى حروفه مع أجساد الفاتنات وتتفجر الرغبة فى نفوس أصحابه على نحو ماكان عليه بعض الشعراء العرب القدامى أمثال امرىء القيس وأبى نواس .

ومما لاشك فيه أن الحب عند شعراء المهجر كان يدور فى فلكى هذين النوعين ولكن الحب المتسامى الذى يبصر فى المرأة جوانب الإنسانية ومساواتها له فى الوضع الاجتماعى فى المرحلة الثقافية وفى الإحساس بالمسؤولية ذلك النوع من الحب كان هو السائد فى أدب المهجر . ولم يفتقد أيضا هذا الأدب الهيام بالمرأة والتعلق بها . ووصف مفاتنها . والخبرة بطبائعها . ودلالها وصدها ، وإقبالها . وتمنعها وتلطفها ، وحيائها ، وتحايلها .. وكل أحوالها .

وفى مقدمة هؤلاء الشعراء الشاعر رياض المعلوف .. وقد اعترف لى بهذا فى رسالة شخصية قال " إنه لم يذق أى شاعر شرقى أو غربى مما ذقته من لواعج الحب والمماطلة .. واللقاء .. والملاطفات .

فلا قيس بن الملوح ولا عمر بن أبى ربيعة .. ولا الشاب الظريف ذاقوا ماذقته وما حملته وما عرفته من هنيهات سعادة ووصال وإغضاء أحيانا وابتعاد .. وعذاب لذيذ فى انتصار محبوبة لفها الحسن ببهائه واغرائه . (٢)

وقد أرسل إلى القصيدة التاليه . وكأنما فى شعرها قمر .

إلى حسناء وضعت وردة فى خصلة شعرها

---

(١) من رسالة بعث بها الشاعر إلى في ١٣ / ١٢ / ١٩٧٧ م .

(٢) من رسالة بعث بها الشاعر إلى فى ١٧ من فبراير سنة ١٩٧٩ م .

وامتعتـــى بالصـــــدر والعنـــــق	وبـــوردة فـــى شعرهـــا اللبــق
وكــــأن وردتهـــا بخصلتهـــا	قطفـــت مـــن الغيمـــات فى الأفق
وكأنمـــا فـــى شعرهـــا قمــر	أنـــواره تفتـــر فـــى الغســق
وفـــم كـــأن الفجـــر لونـــهُ	أو أنــــه مصبـــوغ بالشفـــق
راحـــت تحدثنــــى وتغمزنـــــى	وأنـــــا أمـــوت بغمـــزة الحدق
وأجبتهـــا وكتمـــت عاطفتـــى	فـــى الصـــدر طــى القلب فى العمق
فوصفـــت أجمـــل مـــارأى بصرى	واللــــه أعلـــم . ما اختفى أو مابقى (١)

* *

ودواوين الشاعر مفعمة بالقصائد العذاب التى توحيها إليه حواء . ففى ديوان " زورق الغياب " أنظر هذه القصائد .

- أقبلها " ٧ " النهد الأهوج " ٨ " إلى راقصة شرقية " ٩ " . الدن السكران " ١٤ " الغصن المثمر " ١٦ " الشفاه السمر " ١٨ " أواه منه " ١٩ " ، أنت لى " ٢١ " نهر هو القمر المشع " ٢٣ " ياساحر الأجفان " ٢٥ " ، النعيم الأسود " ٣١ " تنظرنى " ٤٣ " على ضلوعى " ٤٥ " ، ذكرتك " ٤٧ " يامطلع الصباح فى ليلنا " ٥٤ " يامسكر العندليب " ٦ " رعشة البرعم " ٦٣ " الغرفة الزهراء " ٦٦ " ياساحر الأرواح " ٧٠ " شراع الحب " ٧٧ " جراح الحب " ٨٢ " ، مررت على الرياض " ٨٦ " عللينى " ٩٠ "

وديوانه " غمائم الخريف " حافل أيضا بأمثال القصائد السابقة التى توضح مدى - سيطرة نزعة الحب على " رياض المعلوف حتى يكاد يقصر ثلثى انتاجه على ذلك الفن القديم الجديد لغة القلب وهمس الشفاه ، وحوار الأعين وصوت الأجيال فى كل آن ومكان .

وقد لاحظت أن الشاعر يكرر ألفاظا معينة فى شعره تنم عن إحساسه المفتن بحواء ومجالستها . والتمتع بأطايبها . مثل الكأس ، الخمر ، الشفاه ، السكر ، الصحو ، الكروم ، الدوالى ، الخدود ، الثغور ، القبل ، وتكون الألفاظ السابقة معظم اللبنات التى يبنى منها رياض المعلوف قصائده الموشاة بنبض القلب وإغراء الحسن :

---

(١) تفضل الشاعر بإرسال هذه القصيدة إلى فى ١٧ / ٢ ٧٩ ضمن الرسالة السابقة .

واستفسرت منه عن هذه الظاهرة فأجاب في شاعرية متدفقة :

وهل يستوحى الشاعر شعره إلا من دمعة مفرحة ، وقبلة شفة سمراء كتمر الصحراء ، متأججة بنار المحبة . (١)

أليس فيما سبق مايؤكد قول من يقول إن المهجريين أحسوا بالمرأة بدافع من غريزتهم كبشر وإنسانيتهم كشعراء يتعمقون الحياة وينقبون عن أسرارها .

ولم يكن رياض المعلوف وحده هو فارس هذا الميدان .. فشقيقه شفيق المعلوف " فى ستائر الهودج . من خيرة الشعراء الذين ناجوا المرأة ودغدغوا أحاسيسها ، وفى ملحمة " الأحلام " وفى ديوانه " لكل زهره عبير ، ونداء المجاديف يتضح هذا المفهوم جيداً .

وإلياس فرحات يستهويه الجمال الحسي البعيد عن حرقة الهوى ولوعة الحرمان والقصائد الآتيه تفصح عن الحقيقة السابقة .

خصلة الشعر ، الراهبة ، غصة ، تعالى ، السكرة الخالدة ،

* *

وجورج صيدح من الشعراء الذين تغلب عليهم النظرة الحسية للمرأة والاستمتاع بكل مافيها من جمال أنثوى صارخ ، وموضوعات قصائده يغلب عليها الطابع الحسى أمثال هذه القصائد .

الصبوح والغبوق ، فى حدائق دمشق ، إلى جارتى ، على الشرفة ، سائقة السيارة ، ليلة البحيرة ، على الهاتف ، سأراك ، اللقاء الأخير ، .

والقروى . يعترف فى مقدمة ديوانه بخضوعه لإغراء المرأة ويقول إنها المنافس الوحيد لله فى القلوب ويعترف فى صراحة قائلا .

ولو لم يستجب فيما بعد مزاجي النارى إلى إغراء المرأة وهى أقوى منافس لله فى قلوب الأتقياء . لما كانت لى عنده خطيئة . (٢)

---

(١) من رسالة بعث بها الشاعر إلى فى ١٧ / ٢ / ١٩٧٩ م .

(٢) القروى : مقدمة الديوان ص ٢٠ .

ويقول بعد حكاية حبه العذرى الأول " توالت خلال ذلك وبعده قصص الحب المغرى تنقل في الأمكنة . وتنقل فى الهوى ، أحببت وبكيت كثيرا ، وأحببت وأبكيت أكثر . [1] وفى ديوانه نلمح هذه القصائد فى الجزء الأول .

حب مجهول / ١٢٦ ، الدعارة ، والهوى العذرى ، ١٣٠ ، لوترين / ٢٠١ ، بين الصداقة والحب / ٢٦١ وفى الجزء الثانى يخصص الشاعر جزءا كبيرا من الديوان - بعنوان " زوايا الشباب " ٦٩٥ - ٧٩٣ كله يضوع بالكلمات الكوثرية التى يشنف بها سمع حواء . ويحفل بالصور الشعرية التى يرسمها لحواء ويلقى بقلبه فى بهجة ألوانها وندى ظلالها . أو يحرقه فى جمر دلالها . ولهيب إغرائها . وهو فى كل حالاته سعيد لأن الحب قسمته من الحياة .

وحب المرأة لا يقف عند حدود الحس كما أوضحت سابقا . وإنما قد يكون حب المرأة بدفاع من التعرف على طبيعتها ، وقد يكون حبا روحيا خالصا هو الحب المثالى الأفلاطونى ، وقد يفلسف هذا الحب ليشمل القيم الإنسانية الكبرى والمعانى الخالدة .

وللشاعر رياض المعلوف ملحمة شعرية أو قصه شعرية أسماها " ليليت " وجعل شعارها " قبل أن يخلق الشيطان خلقت المرأة " .

وسأقف عندها قليلا لأنها تعالج نفسية المرأة بعمق مما يدخلها فى موضوع التأمل ويمكن أن أسميه " التأمل الإجتماعى " .

" ليليت : ملحمة شعرية للشاعر رياض المعلوف " :

عرض وتحليل :

الملحمة تتكون من تسعة أناشيد وكل نشيد يتكون من (١٤) أربعة عشر بيتا . وتصل فى مجموعها إلى ١٢٦ مائة وستة وعشرين بيتا .

واتبع الشاعر إيقاعا واحدا فى جميع الأناشيد . فالنشيد يتكون من مقطعين والمقطع الأول يتكون من ثلاثة أبيات من مجزوء الرمل . والثانى يتكون من أحد عشر بيتا ينهج فيه الشاعر موسيقى جديدة وهى غالبا من بحر المجتث فوزنه الأصلى مستفعلن + فاعلاتن . مستفعلن + فاعلاتن .

---

(١) السابق ص ٢٥ .

ويجوز أن يتصرف فى فاعلاتن فتجىء . فالات أو فعلاتن .. وعلى هذا الأساس يكون بحر المجتث هو أقرب الأوزان إلى إيقاع المقطع الثانى من كل نشيد .

وتعتمد الملحمة على حقيقة تشبه الأسطوره وهى تقول : جاء فى صحف بغداد أن أحد رجال البعثة الأثرية التى تبحث عن الآثار فى مدينة " أور " الكلدانية وفق إلى أكتشاف آثار تعود إلى ماقبل التاريخ وتشير إلى زواج آدم من ليليت - قبل حواء ثم تركه الأولى وزواجه من الثانية .

وليليت . عندما رأت آدم تحول عنها إلى حواء دبت نار الغيرة فى قلبها فلبست جلد أفعى وحملت على أن تطعم آدم التفاحة المحرمة التى كانت سببا فى إخراجه من الجنة . (١)

وهى بذلك تبنى على مغالطة تاريخية حسب الحقائق الدينية ولذلك أعدها من باب الأسطورة .

وهى من هذه الوجهة تلج بنا فى عالم الأسطورة المغلفة ببعض الحقائق التاريخية التى تلمس الحس الإنسانى العام ، فهى تعالج مأساة الوجدان فى النشأة الأولى منذ القدم .

ومن خلال منظور خاص ورؤية رومانسية يوضح الشاعر رأيه فى المرأة ، والقضاء والقدر ، والحب الذى تضفى عليه حواء روعة الحس ومتعة اللذة وهو فطرة غريزية فى الإنسان .

وآدم فى نظر الشاعر مظلوم وما فعله حين أكل التفاحة لم يكن خطيئة وإنما كان فطرة أودعها الله فيه فلماذا يعاقبه ؟ وهذه قضية كثر الجدال فيها . والتسليم أفضل برهان .

وفى النشيد الأول " ١٠٠ - ١٠١ "

يخلق الله الكون بأبعاده الثلاث . البعد الزمانى والبعد المكانى والبعد الوجودى المتمثل في البشر وغيرهم من بقية الكائنات

خلـــق اللــــه الزمــــان والبـــرايا والمكــــان
لفظـــة مــن شفــــه اللــــه تعالــــى كـــن فكــــان
يــــرث الكـــون ومافـــى الكوْن مــن إنــــس وجـــان

(١) رياض المعلوف : زورق الغياب ص ٩٩ .

وفى بؤرة الوجود يقف آدم متمتعا بكل مافيه . لكنه يشعر بالحرمان لأن السر غائب عنه ، ومع حيرته وتشوقه للمعرفة . تخلق من ضلعه " ليليت " فيشعر بالأمان معها .

لـــــم يخشيـــــا الأقـــــدار والمـــــوت والنقمـــــة
وبدون مـــــا أكـــــدار تقاسمـــــا اللقمـــــة

وفى النشيد الثانى " ١٠٢ - ١٠٣ "

ماإن يهنأ آدم حتى يحوم الشقاء حواليه . ويكتشف أن ليليت لاتحبه ويبين الشاعر طبيعتها المتحولة والتى انعكست آثارها على نفسية آدم . فهى متقنة الدهاء وتصلى آدم العداء ، تسيء به الظن لاشك أن هذه الصفات تغلب على طبيعة النساء فى بعض الأحيان .

وما يملك آدم شيئا إلا أن يستصرخ السماء ويشكو لها حزنه

وســـــار فـــى العـــــراء كمـــرتـــد ردنــــــه
فهـــــام فـــى الفضـــــاء لـــم يعـــرف الهـدنــــه
تكـــــره النســـــاء وفـــــارق الجنـــــه

وفى النشيد الثالث ١٠٥ - ١٠٦ :

تدخل امرأة أخرى فى حياة آدم وهى فى هذه الظروف التى مر بها آدم كما تقول الأسطورة التى استمد منها " رياض المعلوف " وحيه . ضرورة مؤكدة تحبذ وجودها طبيعة الرجل التى تدفع بنفسها فى ساحة الانتقام من حواء ، وليس هناك انتقام من المرأة أبشع من الزواج بغيرها أو حب غيرها . ساعتها تشعر المرأة كما يوضح علم النفس بفقد الثقة والفشل فى السيطرة على قلب الرجل مما يدمى إحساسها ويلون نظرتها للحياة بلون غائم رمادى .

هـــذه حـــواء أغرتهـــا مـــن العـــين بنظـــره
قبلهـــا لـــم يفقـــه الوجـد ولـــم تسكـــره خمـــره
فسبتـــه وسبـــاهـــا سرهـــا هـــذا وســـره

وتحاول ليليت إغراء آدم مره أخرى ليقع فى شراكها . لكنه لم يعد فارغ القلب فإذا بها

تتحول إلى شعلة انتقام .

فـــــى صـــــدرها الحســـــد   يـــــؤج كالجمـــــره
وجسمـــــه اتقـــــد   وهاجـــــت النظـــــره
ضمخـــــت الجســـــد   ففـــــاح كالـــــزهـــــره
وحسنهـــــا المعـــــد   لـــــه ومـــــا غـــــرّه

ويبرز " رياض المعلوف " حقيقة هامة تدل على خبرته بعالم المرأة وطبيعتها وهذه الحقيقة تبرز فى شكوى ليليت المتكررة والكثيرة لكل من تقابله " وفقدانها التجلد ، واهتزاز الفكرة عندها . وبخاصة فى أمثال هذه المواقف التى تصدم العواطف وتجرح المشاعر . وتطعن المرأة فى أنوثتها .

وفى النشيد الرابع ١٠٧ - ١٠٨ :

يلتقى أدم بحواء . ويصور الشاعر هذا اللقاء بطريقه العصر أو قل بخبرة العاشق فاللقاء تم خلسة ، وذلك حتى لا تعلم ليليت فتفسد عليه خلوته العذبة ، واختياره لكلمة " خلسة " يوحى بهذا الجو العاطفى الذى يحذر العيون .

ويندفع خيال الشاعر الخصب ليجسد الواقع ويتبادل أدم مع حواء الكأس وهذه صورة حديثة ويتم ذلك عادة بين العروسين أو العاشقين . ولعل هذه الصورة التقطها حس الشاعر الفنى من بيئته التى عايشها بالرغم من أنها لاتتفق مع نبوة أدم وعصمته إذا احتكمنا للموقف الدينى فى هذه القضية .

فالتقـــى أدم مـــع حـــواء فى الجنة خلســه
شـــرب الـــكأس التى أعطته كى تشرب كأسه
خلقـــت عالمنـــا هذا وأهل الكون جلســه

والكأس فى علم النفس رمز قديم للمرأة . فإذا وفق الفارس فى الحصول عليه عاد الخصب إلى الأرض . وإذا لم يوفق ظلت جدباء .

وتذكر أساطير القرون الوسطى أن الكأس المقدسة هى التى استخدمها المسيح فى العشاء الأخير ، ويقال إن هذه الكأس قد اختفت حيث لم يكن المكلفون بحراستها أطهارا . ومن ثم يحمل رمز الكأس إشارة إلى المرأة من جهه وإشارة إلى الإيمان من جهة أخرى .

وبغير المرأة أى بغير الحب لايمكن إلا أن تظل الأرض خرابا . (١)

* *

ومن العقل الباطن لآدم تصدر هذه النفثات المحمومة التى يناجى بها ربه فهو ينعم مع حواء نعيما لايشبع جوعه ولا يرضى طموحه . فالسر فى حرمانه من الأكل من الشجرة مايزال غائبا عنه ، وكأن الرحمة والظلم مقترنان ببعضهما فيصدر هذا النداء .

يامبـــــدع الأكـــــوان والنـــــور والظلمـــــه
وحـــــارم الإنســــان تفاحـــــه الحكمـــــه ؟
تشـــــابه الضـــــدان الظلــــم والرحمـــــه
تـــــفاحة الحرمــــان شهيــــة الطعمـــــه
فالحــــب كالإيمـــان مقـــــدس الحرمـــــه

ونلمح الصراع الخفى والإحساس الثورى فى النشيد السابق . وانعكس ذلك على أسلوب الشاعر فكان نداؤه كأنه انذار ، والمقابلة بين الألفاظ . كالنور الظلمة . وتشابههما يعبر عن اختلاط القيم فى نفس الكائن البشرى منذ النشأة الأولى .

وفى النشيد الخامس ١١٠ - ١١١ :

يبدأ الصراع بين ليليت وحواء ، وآدم هو الضحية ليليت تريد أن تهلكه ، وحواء تريد أن تنعم معه ، ومرة أخرى يؤكد " رياض " خبرته بطبيعة المرأة فهى لاترعى عهد الود ، وهى تلبس للغدر جلد أفعى ، وتتسلل إلى آدم فى فردوسه . وتغريه بالأكل من الشجرة ، ويأكل التفاحة المموهة بالخداع . شهية اللون . فواحة العطر ويتعرى آدم من كل شىء ، وتنجح المكيدة وتحدث المواجهة بينه وبين ربه ، ويطرد من الجنة .

(١) أنظر التفسير النفسى للأدب للدكتور عز الدين اسماعيل ص ١١٦ .

وراح فـــى البستـــانْ بجـــوس أنواحـــــهْ
وجسمــــــه العريـــــان يـــريـــــد إصــــلاحــه
فاتخـــــذ الأردان مـــــن تينـــــة الواحـــــه
وواجـــــه الرحمـــــان لـــــم يَقْـــو إفصاحـــه
مزعـــــزع الإيمـــــان يسيـــــر فـــى الســـاحه
صـــــاح بـــــه الديـــــان منعـــــتك الراحـــــه

والصورة التى صور بها الشاعر آدم . صورة هروب وضياع فالجسم عريان . والإيمان مزعزع ، والثياب من ورق التين . واختيار ورقة التين ترمز إلى الغريزة الجنيسة المتأصلة في الطبيعة البشرية . وعدم القدرة على الكلام أو الدفاع عن النفس كل هذه ملامح لصورة الضياع التى ظهر فيها آدم . إلا أننى أحس بالاضطراب الشعوري فى كلمة " واجه " فهى لاتتناسب الموقف الشعرى . فالموقف يوحى بالضياع والذل . وهو ضعف مافى ذلك شك فكيف يواجه آدم ربه وفى المواجهة قوة لاتتناسب مع أبعاد الموقف ، ولايملكها آدم .

وفى النشيد السادس ١١٢ – ١١٣ :

ينتهى فردوس آدم ويهبط إلى الأرض للكد والشقاء والمعاناة والصراع ويتونى " رياض " الدفاع عن آدم يبرئه من الخطيئة ويمثل دفاع الشاعر صوت آدم الخفى المنساب فى أغوار نفسه ، ودفاعه يتمثل فى عدة حائق تدورحول معنى واحد وهو أن كل مانرغبه يجب أن لا نحرم منه ، طالما فى نفوسنا توق إليه ، وإلا فلماذا عوقب آدم على أكله من الشجرة ؟

مـــاقيمـــــة الأثمـــــارْ إن لــــم تذقهــــا النـــاس
وطلعـــــة الأقمـــــار إن عافهـــــا الجـــــلاس

ويثور رياض على من يفرض الحصار على حواسنا التى تتذوق الجمال فتحب وتعشق ويصل به الحد فى ثورته إلى رميه بالكفر مدعى الأقداس ويدعو إلى معانقة الحياة لتأكيد حقيقة الحب الحاضرة . لأن الموت يقضى على كل مافى الحياة من جمال .

ماعـــــد فـــــى الأشـــرار العاشـــــق الحســــاسْ
فـــى الحـــب هـــل من عـــار فـــى الحـــب هـــل مـــن يـــاسْ ؟
أتحـــجـــب الأنظـــــار وتخنـــــق الأنفـــــاسْ ؟
فســـائـــل الحفـــــار كـــــم زج فـــى الأرمـــاسْ
فـــــأنت كالكفـــــار يامدعـــــى الأقـــــداسْ

وفى النشيد السابع ١١٤ - ١١٥ :

يواصل " رياض " دفاعه عن آدم . ولكن الدفاع يتحول إلى التماس العفو عنه والاعتراف بأنه أخطأ ، لكن الله سبحانه فوق الكل يقدر ويعفو .

يا إلهـــى آدم أخطـــأ هـــل توليــه عطفكْ
أنــت فــوق النـــاس هل تثنى عن المجرم طرفكْ
مـــذنب يطـــلب عفـــوا فامنح المذنب عفـوكْ

والموقف الشعرى هنا موقف تضرع وطلب . وليس اعتراضا وتمردا ولذلك هدأ النفس الثائر . ورأينا النداء المستجدى فى قوله ياإلهى والتصريح بالذنب فى قوله " أخطأ " وقد يكون الاقرار من حيثيات العفو .

والاستفهام هنا فيه تذلل وخضوع واعتراف بمشيئة الله وقدرته ولكني أشعر أن كلمة " مجرم " نابية عن الجو العام ثقيلة الوقع على السمع .

ويكشف رياض عن نفسية آدم هذه اللحظة ويصورها نفسا يائسه محطمة وتكاد تصل إلى درجة اللا مبالاة ، واغتنام الفرص الآتيه والغياب عن الماضى ، والتلاشى فى الحاضر ، وتجاهل المستقبل ، فكل القيم هباء والكأس هى الواقع الهارب من ساحة المواجهة ، والموت هو الأمل الأقصى الذى يتجاهله الجميع .

مـــاتنفـــع الآيـــــات ... مـــاتنفـــع السمعــــة
والنـــاس كالحيـــــات ... بالـــــؤم واللسعـــــه
تعـــد فـــى الأمـــوات ... لـــو كـــنت فـــى الرفعـــه
ياشاكـــى اللـــوعـــات ... وطـــالـــب الشفعـــه
أتطلـــب الأفـــــلات ... مـــن هـــذه الوقعـــه
تســـاوت الضحكـــات ... فـــى العيـــش والدمعـــه
مـــن عـــاش حتمـــات ... فخـــفف اللـــوعـــه

والصوت الثانى من هذا النشيد المتمثل فى الأبيات السابقة على الرغم من ضعف تعابيره وقربها من العامية الشائعة . فكلمات " اللسعة ، السمعة ، الوقعة ، العيش كلها كلمات

دارجة ولكن الأبيات فى مجملها تشتمل على مضمون فلسفى ربما تردد قبل ذلك ولكن ليس بهذه البساطة المؤثرة أليست فلسفة المعرى تتلخص فى هذا البيت ؟

تســـــاوت الضحكـــــــات فـــــى العيـــــش والدمعـــــه

وهل هناك أجدى فى العزاء ، وعدم التعلق المميت بكوارث الحياة وأفراحها من هذا المعنى الشائع الذى صاغه الشاعر فى سرعة مذهلة .

مـــن عـــــاش حتمامـــــــات فخــــفف اللوعــــــــــه

وفيه أصداء لفلسفة الخيام التى شاعت وأصبحت ظاهرة عامة فى بعض المجتمعات ويصوغ الشاعر هذه الفلسفة كعادته صياغة مباشرة بسيطة .

فســـــاعة اللـــــــذات نـــــــادرة الرجعـــــــه

وفى النشيد الثامن " ١١٧ - ١١٨ "

يرتد الشاعر مرة أخرى إلى محاولة تبرئة موقف آدم فيقول :

ايـــه ربـــى : أبدعـــت يمنـــاك هاتيك البدع
نـــال منهـــا آدم ماكـــان عنـــه ممتنـع
عبثـــا تمنعــــه الاثمـــار أثمار المتع

وكلمة " عبثا " لاتتناسب مع مخاطبة الله سبحانه ، والموقف النفسى لايسمح بها لأن الدفاع يحاول استمالة قلب القاضى إلى جانب المتهم بكل مايملك من وسائل تأثيرية . ومثل اللفظ السابق فيه اتهام لمن فى يده البراءة والإدانة . والحقيقة أن الله . لم يخلق شيئا عبثا إطلاقا .. والعقيدة السليمة تؤمن أن كل شىء وجد لحكمة عميقة يعلم الله سرها وفحواها .

وبرغم هذا يتوب الله على آدم استجابة لندائه الداخلى الصادق ، الذى ناجى به ربه .

وتقمص الشاعر روح آدم الطهور الصافيه . وعبر عما يجول بداخل آدم من شغف بالتوبة .

فـاستـغفـــــر الرحمـــــــان لـعـلــــــه يــرحــــــم
إن طلـــــب العـــرفـــان ماخلقـــــه أجـــــرم

ولاينسى الشاعر عقيدته المسيحية فى اعتقادها بأننا " أبناء آدم " نكفر عن خطيئته الأولى وما كان صلب المسيح إلا تكفيراً عن هذه الخطيئة . وهذا المعتقد لاتقره عقيدة الإسلام . قال الخالق جل شأنه " وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم " .

يقول الشاعر:

ونحـــــن حتـــــى الآن مـــــن أجلــــه نظلــــم
وكــــان فــــى الحـرمــــان مــــن قبــــل كالمعــــدم
يسيــــر كالعميــــان لســــانه أبكــــم
ماقيمــــة الإنســــان إن كــــان لايفهــــم ؟

ولا أدرى مفهوم الظلم الذى يقصده الشاعر . ومن أدراه بالحقيقة حتى يحكم بالظلم عليها ؟ لذلك لاأستسيغ مضمون البيت الأول . وكلمة " نظلم " لاقيمه لها فى مخاطبة الله .

وفى النشيد التاسع " ١١٩ - ١٢٠ "

تعود الفرحة لآدم بعد أن غفر الله له خطيئته وتعود له حواء .. وليهنأ بالحب . ويصور " رياض المعلوف " اللقاء بين آدم وحواء بعد هذا الصراع الطويل والخروج من الجنة ، والعودة إليها كما تخيل ، ومن المحتمل أنه قصد بالفردوس كوكب الأرض الذى هبط فيه آدم من فردوسه الأول . واللقاء فى هذه المرة - كما يصفه الشاعر وصفا دقيقا - وهو لديه قدرة بارعة على وصف المواقف وتصوير الشخصيات حتى لتحسها مرئية مجسدة أمامك . ويعنى برسم أبعاد هذه الشخصيات ، ورصد حركاتها وتفسير خلجاتها - يختلف عن اللقاء الأول . فهنا يلتقيان علنا .. وهناك خلسة وهنا يسكران من خمر الشفاة ورحيق القبل ولا يكتفيان بتبادل الكأسين كما حدث هناك وهنا تتعدد الجلسات وتسترجع رؤى الحب وذكرياته ، وهناك جلسة واحدة ولكن الشاعر فى النهاية يعثر على سر الشقاء الإنسانى .

فآدم برغم مافيه من نعيم مكبل بالقيود . . يتجول داخل الأسوار ، يضحك خلف القضبان . ويبرز الشاعر " مأساة الإنسان الواقع بين عالمين متناقضين النار والنور فى عينيه الكأس والدعاء على شفتيه ، الخير والشر فى نفسه ، هو فى الجنة ولا يملك مفتاحها ، وهو

بذلك يقر بالثنائية التى عذبت الإنسان كثيراً ويلتقى مع أبى ماضى فى حكايته الأزلية " ومع نعميه فى " حبل التمنى " و " العراك " و " يابحر " ومع جبران فى قصة " الشيطان " و " المواكب " .

وبذلك يعلن عن الصراع الدائر فى نفس الإنسان منذ البدء .

ويقف " رياض مع فطرة الإنسان وميوله الطبيعية التى تهوى ممارسة ماترغب ولاتعترف بدائرة الأوامر والنواهى بل عليها أن تنهل من كل ماتتوق إليه رغباتها يقول :

أعطيته الجنه ... سلبته المفتاح
فامنح بلا منه ... ياواهب الأرواح
أهديته دنه ... ليشرب الأقداح
وهبته أذنه ... ليسمع الصباح
أعطيته سنه ... لينهش التفاح
منحته جفنة ... لينظر الألواح
جازيته اللعنه ... والكد والأتراح
ماخالف السنة ... ماكان بالسفاح
حرمته الهدنه ... حرمته الأفراح

* *

والقصة كما أوضحت تشعل فتيل الصراع الأبدى بين الخير والشر ، بين المرغوب والممنوع بين الانحصار داخل الدائرة والقفز خارجها .

وتفجر مأساة الوجدان منذ النشأة الأولى . وتعالج العلاقه بين الرجل والمرأة وما يكتنفها من غموض ، ومايعتريها من تغيرات . وهى قضية قديمة جديدة لانهائية ، والحب الذى تضفى عليه حواء روعة الحس ومتعة اللذة هو الشريان الذى يهب هذه العلاقة الحياة .

وهى بهذا تقف إلى جانب المطولات الشعرية فى أدب المهجر لتؤكد قيمة هذا الأدب فى إثراء الوجدان الإنسانى وتنشيط العقل و مؤازرته للقلب فى كثير من القضايا الكونية والإنسانية

* *

كلمة أخيرة :

وأحب أن أضيف أن شعراء المهجر وأدبائه حينما عالجوا فن الحب لم يكونوا تقليديين فى نظرتهم إليه " العام والخاص " بمعنى أنهم لم يقفوا عند حدود المعانى التى طرقها قبلهم خيال الشعراء فى سيرته الفنية من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث . ولم يحصروا أنفسهم فى دائرة الصور الجزئية وإنما هم بدأوا من حيث انتهى غيرهم .

إنهم تساموا فى نظرتهم إلى حد التأمل العميق للمحبوب ، ونأوا بأنفسهم عن القشور والطلاء . وغاصوا إلى الأعماق بحثا عن الجواهر المكنونة . فمثلهم لاتكفيهم الأصداف ولايقنعون بها ، ومن هنا كان الصدق فى فنهم فهم فى تصويرهم لنفسية الحبيبة كثيراً ماكانوا يربطون بينها وبين الطبيعة أو الكون أو الوطن . مثل إيليا أبى ماضى فى " قصيدته " المساء " وتعالى ، والدمعة الخرساء فهو يناجى حبيبته من خلال الطبيعة ويلقى بها فى مشاهد الجمال الكونى . ويستبطن ذاتها ، ويحيل تفكيرها إلى صوت مسموع . ويخاف عليها المساء الذى اتخذه رمزا للفناء . . وشفيق معلوف يشتق حبيبته من الطبيعة ويسخرها لها . فالأزاهر أترابها والزنبق نظيرها فى الحسن ، والعشب وسادتها ، وثغرها والبرعم سواء يسميها " طفلة الحقل".

والقروى أحب الكون كله من خلال حبه لحواء ويراها معنى متجسدا لمظاهر الطبيعة كلها فى قصيدته " عناق الوجود "

ورشيد أيوب وغيره من الشعراء يربط بين حنينه لحبيبته والحنين إلى الوطن وذكريات الصبا " والأهل ، والأتراب . وكل القيم التى ترسبت فى أعماقه وتنمو كل يوم وتشده جذورها إلى منبعه الأول .

قد تكون الظواهر السابقة فى نظرتهم للأشياء سببا فى عدم وضوح نظرتهم للكثيرين الذين تعودوا أن يروا المنظر من أول مره ، ولايجهدون أنفسهم فى كشف الزوايا الخفية والأسرار القابعة وراء الظاهر المكشوف .

الفصل الخامس

الطبيعة وأثرها فى تشكيل التجربة التاملية

تمهيد : الطبيعة عند العرب :

سحرت الطبيعة شعراء العربية من قديم الزمان وراعتهم مشاهدها وبهرتهم مظاهرها فحلق خيالهم فى أجوائها وانطلق بين جداولها ومروجها ، وجنح فوق رباها وخمائلها . مأخوذا بما أودعه الله فيها من جمال رائع وفتنة آسرة وحسن فياض ولكن كثيرا منهم كان يقف على ألوانها الزاهية ومفاتنها الحسية فلا يعدو أن يصف الألوان والزراكش ما قد يجد مثله فى ألوان الحلى وأصباغ الطنافس ، ونقوش الجدران وكأنه ينظر إلى دمية جامدة . صامتة ليس فيها حس ولا حياة . فإحساسه بها لا يتجاوز حدود الآذان والعيون والأنوف يشبه اللون باللون والطعم بالطعم ، والرائحة بالرائحة ، ونظرته تقوده إلى مظاهرها المختلفة يؤلف بين أشتات الحس بفكره وخياله (١).

وفى العصر الجاهلى نعثر على الكثير من ذلك . ويكفى مثال واحد وهو الشاعر "المرقش الأكبر" فهو يعطينا دليلا توضيحيا على طريقة تناولهم للطبيعة وتصويرهم لها حين قال :

الـــــــدار قفـــــــر والرســــوم كمـــا	رقـــش فـــى ظهـر الأديـــم قلـــم

فلم يزد على أن اجتلب صورة مادية تطابق بالحس المنظر الذى أراد أن يصوره .

والشاعر العربى لم يعزل الإنسان عن الطبيعة بل وضعه أمامها .. ولكن على نحو من الفصل بين وجودين بحيث تظن العلاقة بينهما علاقة تقابل على نحو ما صور الشاعر الجاهلى "الأعشى" حبيبته " والطبيعة فى قوله :

ما روضــــة من رياض الحـزن معشبـــة	خضـــراء جـــاد عليهـا مسبـــل هطـــــل
يضاحـك الشمـس منهـا كوكـب شـــرق	مـــؤزر بعميـــم النـبـــت مكتـهـــــل
يومـــا بأطيـب منهـــا نشـــر رائحـــة	ولا بأحســــن منهـــا إذ دنـــا الأصـــل

وهذا النوع من الشعور الوصفى للطبيعة . إنما يعطينا أقرب ضروب الشعر الطبيعى تناولا ، وأيسرها أداء ، وأدناها إلى العضوية فهو لذلك كله أقلها حظا من الثراء فلا فرق بينه وبين آلة التصوير" (٢)

(١) د / حسن جاد : الشعر العربى فى المهجر ص ٢٣٥ .
(٢) د / حسين نصار : الطبيعة والشاعر العربى ص ١٥

وهناك ألوان أخرى من ألوان الوصف للطبيعة .. ومنها ما يلتقى مع اللون الأول ويبقى له ما ينفرد به عنه حيث " وقف الشاعر منهم أمام المنظر الطبيعى مشدوها ما ملكت عليه النشوة أقطار نفسه واستبد الإعجاب بوجدانه ولكنه لم يفقد صلته بالمنظر الطبيعى أمامه بل احتفظ بوعيه الكامل به . فالصورة المرئية عنده لا زالت تحتفظ بالأهمية التى كانت لها عند الشاعر .

وهذا الضرب من شعر الطبيعة نجد له لونين : لون يصف النبات وبخاصة الزهر ولون يصف السماء وما تشتمل عليه : وقد أكثر عبد الله بن المعتز من هذا الشعر الوصفى " ويحس قارىء هذا الشعر أنه أمام لوحة من الزخرفة الإسلامية .الأرابسك " تتألف من مجموعة من الرسوم الصغيرة المتشابهة لا يستطيع أن يميز عمل رسام من عمل رسام آخر لأن الواحد منهم يتخذ الوحدة التى صنعها السابق عليه . ثم يدخلها فى زخرفته الخاصة التى لا تكاد تختلف عن الزخرفة القديمة . (١)

وهناك لون آخر من الشعر الذى يصف الطبيعة . يعنى فيه الشاعر بالصورة التى تكونها مخيلته أكثر من عنايته بالصورة المرئية – ويحاول أن يمنحها مالم يمنحها الشاعر السابق يمنحها قدرا من الحياة أو بعض خصائص الأحياء .

مثل قول أحد الشعراء :

ومهد الينا فستقا غير مطبق	به زاد احسانا على كل محسن
كأن انفتاقا منه دل على الذى	به من كمين فى حشاه مضمن
ظماء من الأطيار حامت ففتحت	مناقيرها ثم استعانت بألسن

فقد احتفظ الشاعر بصورة الفستق المفتق وأتى لها بما يشبهها ولكنه حين اختار الشبيه طائرا صغيرا والتقط من أعضائه منقاره وسط الضوء على لسانه البادى من شفتى المنقار اللذين باعد بينهما الظمأ . حين فعل ذلك أكسب صورته الجديدة حياة وعنوبة ومودة .

* *

وهناك لون رابع : يتحد فيه الشاعر بالطبيعة ويخلع عليها مشاعره تاره ، ويتوهم منها مشاعر يتحملها أونة أخرى . ويتأثر بها حتى تغلب عليه . وتصير مشاعره أيضا وخير مثال لهذا اللون قصيدة ابن الرومى التى مطلعها :

---
(١) السابق ص ٢٥ .

بكـــيت فلـــم تتـــرك لعينيـــك مدمعـا زمانـــا طـــوى شـرخ الشباب فودعـــا (١)

فقد وصف فيها صيد الطير ووصف أدوات الصيد وأشفق على الطير الصريع وربط الشاعر بين مظاهر الطبيعة كلها فما أصاب الطير لحق بالشمس حتى صرعت معفرة على التراب وما شاع بين الناس من حسرة وبكاء لم يترك حتى الزهر فأبكاه .

ولا شك أن النظرة السابقة للطبيعة موشاة بالتأمل ، وانفعال صادق مع الطبيعة وامتزاج بها . يبطل دعاوى الذين يزعمون أن الشعر العربى كان جافا فقيرا فى وصفه للطبيعة ، والوصف عند المتنبى وابن خفاجه وذى الرمة له قيمته الفنية التى تؤكد الحقيقة السابقة .

واللون الخامس يعيش الشاعر فى الطبيعة التى يراها ويكثر التأمل فيها ويستنبطها فيدرك أنها ذات دلالة خلقية أو فكرية .. معينة .. فيستخرجها ويعنى بها ويغترف منها . والشاعر فى هذا الضرب أدى به تأمله إلى صورة فكرية تكشف عن شخصية الشاعر وتوجه حيـــاته وتفكيـــره " (٢)

ويقول د / حسين نصار ، وغريب أن نجد عند الهذيليين مالا نجد عند غيرهم من القبائل العربية من أمثلة هذا اللون من الشعر . فقد ألف الشاعر الهذلى أن يلجأ إلى الطبيعة فى الرثاء يستمد منها العزاء لأنه رآها تعانى معاناته .

وقصيدة أبى ذؤيب الهذلى التى يرثى فيها أبناءه تجمع كل ما يمكن أن يقال فى هذا الاتجاه .

واللون السادس : يتعدى فيه الشاعر كل ما سبق من التجسيد والتشخيص وخلع صفات الأحياء على الجمادات ويصور الطبيعة من خلال الرمز حيث يتوارى الشاعر خلف الطبيعة ليبث همومه وأحزانه ، أو غزله وأشواقه .

فالصورة التى نقرأها .. صورة أحد مناظر الطبيعة فى سماته البارزة والخفية وفى جوهرها صورة وجدانية رسمها الشاعر من مخزون مشاعره فهى صورة رمزية .

والمثال الواضح لهذا اللون من الشعر الرمزى : قول حميد بن ثور الهلالى يصف شجرة

---

(١) أنظر القصيدة : بديوان إبن الرومى ص ١٦٨ .

(٢) د / حسين نصار الطبيعة والشاعر العربى ص ٤٠ .

وهو يقصد حبيبته " أم عمرو " وذلك لأنه يروى أن الخليفة عمر بن الخطاب حرم الغزل بالنساء فاضطر الشاعر أن يتغزل بشجرة . فقد وقعت عيناه على هذه الشجرة وبهره جمالها فأخذت الصور تتعاقب أمام بصره فلا يميز ما كان منها للشجرة . وما كان للمرأة فقد تحولتا إلى جميل واحد فقال .

فياطيب رياها ويابرد ظلها　　اذا حان من حامى النهار ودوق
وهل أنا ان عللت نفسى بسرحة　　من السرح مسدود على طريق
حمى ظلها شكس الخليقة خائف　　عليها غرام الطائفين شفيق
فلا الظل منها بالضحى تستطيعه　　ولا الفىء منها بالعشىّ تذوق
وياوجد مشتاق أصيب فؤاده　　أخى شهوات بالعناق نسيق
بأكثر من وجدى على ظل سرحة　　من السرح اذ أضحى على رفيق
أبى الله الا أن سرحة مالك　　على كل أفنان العضاه تذوق

وفى العصر الأندلسى ظلت الطبيعة مصدر متعة فحسب ولم تغد مثار تأمل واستغراق فى مظاهرها على النحو الصوفى الذى يعطينا الإنسان من خلال الطبيعة والكون من خلال الإنسان.

وكان شعراء الأندلس يمزجون وصف الطبيعة بالمدح وكثيرا ما يكون هذا حين يحدث الوصف بحضرة الممدوح أو حين يكون الموصوف مما يتصل به . وكثيرا ما كان الحاجب يحث على هذا الوصف فى مجلس من مجالسه أو روضة من رياضه . (١)

وبعد هذا العرض لموقف الشعر العربى من الطبيعة أستطيع أن أقول إن الشعر العربى لم يخل من النظرة التأملية للطبيعة . مزج فيها الطبيعة بالحب والفكر وشخصها وخلع عليها صفات الأحياء على نحو يقترب من رؤية الشعر المهجرى .

وليس من الإنصاف أن نقول كما قال أحد الباحثين أو كما يقول كثيرون منهم " إن الطبيعة عند الشاعر العربى لم تعد مثار تأمل واستغراق فى مظاهرها .

وتأمل الطبيعة والاستغراق فى شهودها على نحو صوفى هو الذى يعطينا الانسان من خلال الطبيعة والكون من خلال الإنسان وهو مالم نعهده فى الشعر العربى القديم على طول

(١) د / أحمد هيكل فى الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ٢٨٣ .

أماده وضخامة ديوانه ..... فى صورته العامة

وهناك حقيقة نفسية هامة أرى أن أنوه بها هنا لكى لا نصب اتهاماتنا على الشعر العربى وهى أن هناك ثلاث مراحل للعلاقة بين الأشياء . تتمثل فى :

أ – الإشراف ب – الاشتراك جـ – الفناء الوجدانى

وهى تتدرج تدرجا زمنيا على مستوى الفرد والجماعة . وغالبا ما يحكم هذا التدرج العصر نفسه وبخاصة فى التقاليد الأدبية التى تحكم أو تتحكم فى كل جيل فنحن نعرف أن من مقومات الأديب منتجا كان ناقدا أن يقوى خياله ويتسع مداه بحيث يمكنه من أن يضع نفسه موضع من يصف الأشخاص أو ينتقل بخياله إلى المنظر الذى يصور ، أو ينقل المنظر إليه ، وبذلك يستطيع أن يصف أو يصور وكأن نفسه اتصلت بما يصف أو بما يصور ولذلك ثلاث مراتب :

الأولى : مرتبة الإشراف . وفيها يتخيل الأديب نفسه مشرفا فقط ومطلعا على ما يحدث : وهذه أقل درجات التخيل ويتبعها وجدان مناسب لها فى القوة .

والثانية : مرتبة الاشتراك أو الاندماج وهى أعلى منزلة من الأولى من حيث التخيل والوجدان ، وفيها يتخيل الشاعر مثلا أنه يشارك من يتحدث عنه مشاركة فعلية فى أعماله ووجدانه .

والثالثة : مرتبة الاتحاد أو الفناء الوجدانى . وهو أعلى مراتب امتداد الخيال والوجدان وفيها لا يتخيل المتخيل أنه مشرف على العمل أو مشترك فى الحادث ولكنه ينسى وجوده ، ويلغى كيانه الخاص ، ويتخيل أنه هو الفاعل نفسه (١) . فتطور العصر . وتطور الوجدان كان رهنا لتطور الخيال . وبخاصة فى مجال الأدب وتقول إحدى الكاتبات الإنجليزيات هناك ساعات من الزمن أتخيل فيها نفسى وقد خلعت لباسها ولبست لباسا آخر . أو أتجرد من نفسى وأسكن نباتا أو أشعر أنى الحشيش النابت على سطح الأرض ، أو أنى غصن متدل من شجرة أو سحابة تسبح فى الفضاء ، أو أنى طائر يجرى ويطير ويعوم ، وينشر جناحيه فى أشعة الشمس ، أو أنى أرقد تحت أوراق

(١) حامد عبد القادر : دراسات فى علم النفس الأدبى ص ٦٢ – ٦٣ .

الشجر " أو أزحف على الأرض كما تزحف السحالى .

أليست الكلمات السابقة هى نفسها الكلمات التى عبر بها القروى عن شعوره تجاه الطبيعة فمصدرها واحد وإن لم يلتق الأديبان ، وهو الفناء الوجدانى فى مشاهد الطبيعة ومجاليها يقول : القروى " وقد يتجسم شعورى بصلة القربى بينى وبين هذه الأكوان فأنعطف على الشجرة أعانقها ، والصخرة أضمها ، والزهرة أناغيها ، والمرجة أتقلب عليها وأمد ذراعى إلى السماء أحييها وأبعث إلى الشمس بقبلاتى على أطراف بنانى (١)

واعتمد المهجريون فى تصويرهم للطبيعة والالتحام بها والفناء فيها على وسائل فنية كثيرة وعلى طرائق تعبيرية منها :

أ - التصوير الأسطورى :

وديوان " أحلام الراعى " لإلياس فرحات ، وملحمة " عبقر " لشفيق معلوف من أكبر الظواهر التى تؤكد ذلك .

ب - القصة الشعرية " الواقعية والرمزية " ومنها :

الدوحة الساقطة للقروى . والراهبة لإلياس فرحات . والعليقة لأبى ماضى . والناسكة له أيضا . وكذلك الغدير الطموح .

جـ - القصة النثرية ومنها :

البنفسجة الطموح لجبران ، والصنوبرات الثلاث لشفيق معلوف .

د - المقالة القصيرة :

وكتاب صور قروية ، وريفيات نموذج واضح لذلك .

هـ - الكتاب الكامل :

الذى يتضمن فلسفة الأديب ونظرته فى العلاقة بين الطبيعة والإنسان وخير نموذج لذلك كتاب حديقةالنبى لجبران .

---

(١) القروى : مقدمة ديوانه جـ١ ص ٢٤ .

وفى المضمون " انطلق الشعراء والأدباء المهجريون مع الطبيعة واندمجوا فيها اندماجا كليا . واتخذت الطبيعة عندهم الروافد الآتية ، حيث صبت فى نفوسهم وملأتهم بنشوة الحياة والتأمل .

أولا - الطبيعة مصدر لوحدة الوجود :

والإحساس بوحدة الوجود يشيع عند الأدباء والشعراء المهجريين حيث تمثلوه فى كل ما رأوه فالإنسان يندمج فى الطبيعة ويفكر من خلالها . وتكشف مشاهدها عن أفراحه وأتراحه ، ثم هى تحيا من خلاله وتشارك الإنسان . وتكلمه وتملى عليه ، وتحضنه وتدب فيه حتى ليحار الشاعر من وهن الحدود الرهيفة التى بينه وبين نفسه وبين مظاهر الطبيعة .

ونعيمه فى قصيدته " من أنت يانفسى " (١) يصور لنا هذا الموقف من الطبيعة حيث يلتحم مع نفسه بمظاهرها التحاما كاملا ، فيخاطب نفسه حين يراها عاشقة للموج مترصدة البرق ، مصغية للرعد ، هامسة للريح ذائبة فى ضياء الفجر ، غارقة فى سحر الألحان :

هــل مــن الأمــواج جئــت ؟
هــل مــن البــرق انفصلــت ؟
أم مــع الرعــد انحــدرت ؟
هــل مــن الــريح ولــدت ؟
هــل مــن الفجــر انبثقــت ؟
هــل مــن الشمــس هبطــت ؟
هــل مــن الالحــان أنــت ؟

ثم فى النهاية يصور عقيدته " وحدانية الوجود " من خلال الطبيعة ويقول لنفسه .

إيه نفسى ! أنت لحــن فى قد رنّ صــداه
وقعتــك يدفنــان خفــى لا أراه
أنــت ريــح . ونسيــم . أنــت موج أنت بــحر
أنــت برق . أنت رعد . أنت ليــل ، أنت فــجر
أنــت فيــض مــن الــه

(١) م . نعيمة همس الجفون ص ١٦ - ٢١ .

وجبران يشتق من مظاهر الطبيعة مظاهر مختلفة كلها تدعى أن الوجود يكمن فيها . فالغاب يدعى أن العزم له ، والصخر يدعى أنه الرمز إلى يوم الحساب والريح تفصل بين السديم والسماء ، والنهر يروى ظمأ الأرض ، والطود يقول إننى خالد إلى الأبد والفكر يقول ليس فى عالم غيرى من ملك .

والبحر يعلق فى نفسه على كل هذه الادعاءات معلنا أنه بؤرة الوجود فيقول العزم لى ، والرمز لى ، والريح لى ، والنهر لى ، والطود لى ، والكل لى (١) " وإيليا أبى ماضى " فى الطلاسم وهو يناجى البحر يوظف الطبيعة فى توضيح إيمانه بهذا المعتقد الذى يلتقى فيه مع جبران ونعيمه فيقول :

ترسـل السحب فتسقى أرضنا والشجـــرا
قـد أكلنـــاك وقلنـا قـد أكلنـا الثمـــرا
قد شربنـــاك وقلنـا قد شربنـا المطـرا (٢)

* *

ثانيا : كانت الطبيعة ينبوع إلهام عند الشعراء والأدباء المهجريين .

والقروى فى قصيدته " الأمى " يجعل من الطبيعة كتابا مفتوحا يقرأه الناس فهى مصدر للمعرفة ومصباح يضىء الطريق . ويدير الشاعر حوارا بين أمى ومثقف من " خريجى الجامعات " وهو جاهل بسحر الطبيعة ولا يعى شيئا من مفاتنها والطبيعة عنده ديوان شعر الأبدية يقول :

جلـس الفلاح فـى خيمتــه ذات عشيـــة
وأجـال الطـرف فى ديوان شعـر الأبـــدية
جـدول يجـرى كـذوب المـاس ما بين يديّـه
والندى والعشب والزهـر توشـى ضفتيّـــه
ونجـوم الليل يوقدن سراجـــا فسراجـــا
يتغامـــزن ويضحكـن ويرقصـن ابتهاجـــا
فدنـــا منه فتـــى خريج احـدى الجامعـات
غافـلا لـم يعـر الشاعر والشعر التفـــات

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ١٠٤ .
(٢) إيليا أبو ماضى : الجداول ص ١٠٨ .

قـال يا فـلاح قل لى هل تعلمت الهجـــاء
قـال ياليت وعينـــاه تـــرودان السمـــاء
قـال يامسكـين أفنيت بداء الجهل عمـرك
لـــو تعلمت لخلدت مع الأعـلام ذكـــرك

* *

ومضـــى المبـــدع يجلـــو فنـــه نظمـــا ونثـــرا
ومضـــى الأستـــاذ يهـــذى ومضـــى الأمـــى يقـــرا(١)

وبرغم أن القصيدة ، هدفها مباشر لا ترقى إلى المستوى الفنى لشعر المهجر فى الطبيعة ومضمونها وإن كان يرفع من قدر الطبيعة لكنه لا يواكب تيار التقدم العلمى فالعلم هو سر الحركة الدائمة فى الكون . وكيف للأمى أن يكون مبدعا وله فن يجلوه والفن نظم ونثر . لاشك أن هذا يتعارض مع أميته ، ويمكن أن تكون لديه أحاسيس وجدانية ثرة محلقة ولكنه لا يستطيع أن يعبر عنها .

وفى مذكرات الأرقش " يقول نعيمه على لسان الأرقش " أنا والنجوم " تلميذ وأستاذ . فيها رأيت مجد الله ، ومنها عرفت عظمتى كصورة الله ومثاله وحقارتى كتراب .

أنا والنجوم عالمان لا متناهيان . والعالمان يؤلفان عالما واحدا لا متناهيا هو الأرقش ذلك الإنسان الصغير المجهول الذى له وجه كرقعة من الخشب نخرها السوس أما الناس فلا يفهمون أن من ينظر إلى النجوم يجب أن ينظر إليها بخشوع وصمت . (٢)

وأبو ماضى فى قصيدته كم تشتكى " يرسم لوحه للطبيعة الفاتنة التى تنزع التشاؤم من قلب الإنسان يقول :

انظـر فمـا زالـت تطل مـن الثـرى ... صـور تكـاد لحسنـهـا تتكلـم
مابـين أشجـار كـأن غصـونـهـا ... أنا تصـفـق تـارة وتسـلـم
وعيـون مـاء دافقـات فـى الثـرى ... تشفـى السقـيم كأنما هى زمـزم
صـور وآيـات تفيـض بشاشـة ... حتـى كأن اللـه فيهـا يبسـم
فامـش بعقـلك فوقهـا متفهمـا ... إن الملاحـة ملـك مـن يتفهـم (٣)

(١) القروى : ديوانه جـ٢ ص ٨٥٤ .
(٢) م . نعيمه مذكرات الأرقش ص ٢٢ .
(٣) أبو ماضى الجداول ص ١١٩ .

ثالثا : الطبيعة رمز للتعبير عن توق الإنسان للحرية :

واتخذ المهجريون من الطبيعة أداة لتصوير أزمــة نفوسهـــم وتشوقها للحــرية فأجــروا على لسانها مشاعرهم ونفسوا عن رغباتهم المكبوتة واحسوا من خلالها بمشكلات المجتمع " وقصيدة" البلبل الساكت " (١) للقروى التى كتبها قبل أن يهاجر تعبر عن هذه الظاهرة حيث كان يعانى من عذاب القيود التى فرضها الاستعمار التركى على المناضلين من أبناء العروبة فى سوريا ولبنان وفسلطين وهى قصة ليلة مطيرة وبلبل حائر يطلب مأوى . وفى كل لمحة من هذه القصيدة نجد عذاب القروى النفسى ونجد غوائل المستعمرين وعواصف الحكم التركى تطارد أصحاب الكلمة ، وتكتم أفواه الأحرار ، والبلبل الساكت هنا هو القروى نفسه في فترة من حياته ذاق فيها الهوان. والقصيدة تتكون من سبع مقاطع . يصور المقطع الأول حيرة البلبل وتوهانه فى مسائه المدلهم ، والغيوم حواليه تحجب كل شىء ، وفى الثانى صورة فوتوغرافية لمأساة البلبل ثم أمله فى الإنسان يقول :

نبذته رياضه فتعلل بحمانا عن الرياض وأمل

أن يكون الإنسان أهون شراً

وفى الثانى والثالث : يصور الشاعر رجوع البلبل ووجله فى أول الأمر . ثم عناية الشاعر به وعطفه عليه ويقول :

بلبل الروض هاك دفئا وقوتا بلبل الروض لاتخف أن تموتا

بلبل الروض ماخلقت صموتا بلبل الروض قد أطلت السكوتا

عد فغرد لا تخش ياطير شرا

وفى المقطع الرابع والخامس والسادس : يبين بهجة الشاعر مع البلبل بالحرية . والحب الذى يجمع بينهما .

يا كريما عاملته بالكرامة صن عهود الرشيد وارع ذمامه

هدأ الطبع رافقتك السلامة حبذا لو رغبت معنا الإقامة

إنما الحر لايقيد حرا

---

(١) القروى ديوانه جـ ١ ص ٦٦ .

رابعا : الطبيعة وحدة لاتتجزأ فدستورها وينبوعها واحد مهما تعددت الروافد

وكانت الطبيعة عند المهجريين بمثابة المرائى المتعددة للشيء الواحد بينها من الوشائج وصلات القربى مابين الأسرة الواحدة. فتقدست الشوكة كما تقدست الزهرة ، وبورك الخريف والذبول ، كما بورك الربيع والازدهار ، وعشقت هدأة الليل كما عشقت جلوة الضحى ، ونعمت روح الشاعر بالنسمة الوادعة كما صفقت للعاصفة الراعدة .

وفضلا عن إحساسهم بوحدة الطبيعة أحسوا بوحدة الموجودات ، فالإنسان أخ للأشجار والأنهار أيضا وابن من أبناء الطبيعة التى تحنو عليه فى أمومة رءوم . ويحس حين يستلم إلى ذراعيها المرحبتين وصدرها الرحيب أنه يولد من جديد ، وتعود إليه طفولته الروحية وبراءته النفسية. (١)

وبدافع الإحساس بالاتحاد التام بينهم وبين الطبيعة يصور " أمين الريحانى " الطبيعة بالأم الرءوم بين يديها ينثر أفراحه ويبث أشجانه ، وفى عينيها يسافر إلى غده ويقرأ المجهول ويستنطقها بمكنون صوره وخبايا ضميره ، وفى مقطوعة " معبد الوادى " ايه أمى الطبيعة " جئت أجدد معك آمال الحياة وسرورها. جئت أجدد عهدى وأمانى عهدى مع كلا الحقول وزهورها . وقفت على ضريح الشتاء فشاهدت هناك مشهدا جليلا . شاهدت ربة الربيع تقبل جبين أبيها فيثور الأقحوان تحت شفتيها رأيتها تكتب بدموعها سفر الخلود فيردد العصفور في الجلمود . أرانى هنا فى بيتى بل فى بيت الله " .

ونعيمه فى كتابه " زاد المعاد " يخصص للطبيعة مقاله عنوانها " دستور الطبيعة " يقول " لو فكرتم بأن الطبيعة ما كانت كما هى لو لم يكن أقل مافيها كما هو : وبأن العناصر الأربعة لاتجهد ذاتها فى تكوين زنبقة أكثر مما تجهد ذاتها في تكوين شوكة . وأن القوة المبدعة لو كانت تؤثر البلبل على الغراب لما خلقت يوما غرابا . (٢)

وفى مذكرات الأرقش يحارب نعيمه فكرة سيادة الإنسان على الطبيعة لأن الطبيعة فى معتقده مرآة الإنسان يقول :

---

(١) أنس داود : الطبيعة فى شعر المهجر ص ٣٤ .
(٢) م . نعيمة زاد المعاد ص ٩٨ .

" وما الطبيعة فى الواقع سوى مرآة الإنسان . فألغازها ، وأسرارها ، وخيرها وشرها وجمالها ليست سوى انعكاسات ألغازه وأسراره وخيره وشره وجماله وقباحته كما يكون الانسان تكون الطبيعة من حوله ..... فمفتاح الطبيعة ليس فى الطبيعة عينها بل فى الإنسان نفسه وذلك المفتاح هو المعرفة .

من شاء أن يعرف الطبيعة فليعرف نفسه أولا – ومن شاء أن يكون سيد الطبيعة فليكن سيد نفسه . (١)

* *

خامسا : الطبيعة واحة لأفراح الروح وطلاقة النفس وبهجة الطفولة :

تتمثل هذه الظاهرة فى قصيدة " صدى الأجراس " حيث يرقص الشاعر على نغمات الطبيعة الساحرة . فالشمس إشراقها عيد وهو يفر إلى الغاب بينما غيره يسير إلى القداس ثم يغنى فى سعادة دائمة .

أغصـــان الغـــاب تلاعبنـــــا
وهـــوام الغـــاب يداعبنـــــا
وصخـــور الـــوادى تدعونـــــا
وصـــــدى الأجـــراس يعاتبنـــــا

فالغاب هنا ملجأ الشاعر الهارب من زيف الطقوس الدينية ، وهو لايعبأ بعتاب الأجراس وهنا الاندماج الكامل فى الطبيعة . فالأغصان تلاعب الشاعر فهم أطفال بشرية . وحتى الهوام تداعب ويضفى عليها الشاعر ظلا خفيفا .. هذه الصور لم يتكلفها الشاعر ولكنها تتفجر من اللاوعي لأنه يشعر أنه لايفترق عنها . ويبلغ الفناء أقصى مداه حين يتخذ الشاعر من أفراد عائلة الطبيعة رعايا لمملكته . كرسيه كتف النهر . وحارساه العوسج والزهر وهل يخفى الدلال الذى يحسه الشاعر وهو يتارجح فوق كتف النهر ؟ وهل هناك عز أعظم من الحرية ؟ يقول الشاعر :

فجلســـت علـــى كتـــف النـــهـــر ... مابـــين العوســـــج والـــزهـــــر
العالـــم مملكـتـــى ... وأنـــــــا ... سلطـــــان العالـــم والدهـــــر

(١) [illegible] الأقش، ص ٨٠ .

وبهذا تنمحى الحدود بين الشاعر والطبيعة ، بين الذات والكون ، وتعبر القصيدة عن تعرى الذات الإنسانية أمام الطبيعة . وهو فى هذه اللحظات الراقصة مع الطبيعة تتكشف أعماقه عن دخائلها وتبوح ذاته بما يرهقها فينتفض الشك وأنصاره ، وآلام العيش وأوزاره ، ليعيد تشكيل الطبيعة فى عينيه من جديد يقول :

قلبا تتقطع أوتاره
وشبابا يجمعها أبدا أبدا
ويعقدها عقدا عقدا
وعليها يعزف ألحانا
لاتطرب فى الدنيا أحدا

وجبران يلتقى مع نعيمه فى هذه النظرة فى قصيدته " المواكب " وأغنية الليل يقول :

فتعالى يا ابنة الحقل ، نزور	كرمة العشاق
علنا نطفى بذياك العصير	حرقة الأشواق

**

اسمعى البلبل مابين الحقول	يسكب الالحان
فى فضاء نفخت فيه التلول	نسمة الريحان (١)

ونسيب عريضه يرى الطبيعة كذلك مجالا للتعرى فيقول :

يا غاب جئناك للتعرى	أنا ونفسى ولا حرام
فليذع الغصن ما يراه	منا اذا أحسن الكلام (٢)

سادسا : الطبيعة كتاب مفتوح نتعلم منه المبادىء والمثل :

واتخذ المهجريون من الطبيعة معلما مثاليا يعلمهم مبادىء الإيثار والإخاء والحب ،

(١) جبران البدائع والطرائف ص ١٠٣ .
(٢) نصيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ٨٢ .

والعدالة ، والمساواة .

فنسيب عريضه يرى فيها قدوة للإيثار والوفاء وعدم الأنانية . فالبحر لا يعرف الأنانية والضحى يعلمنا الوفاء ، والشمس تعلمنا العطاء والسنا ويطلب منا أن نتعلم منهم هذه المثل فيقول :

كـــن مثـل بحر زاخـــر مرجــــــع	للسحـــب ماتسكبـــه الأنـــهــــر
كـــن كالضحـــى يذهــب فـــى دورة	تذكــــره الآمــــاد والأعصـــــر
كــــن مثــــل شمــس منحــت نورهــا	لكـــل مخلـــــوق ولا تشكـــــر (١)

وفيليب لطف الله ، وهو من شعراء المهجر الجنوبي ورئيس جامعة القلم بسان باولو يقول:

مـــن نبـــع صنـــين من أفواه كوثـــره	قد استـقيـتُ رحيـق الشعـــر والكلـــم
ومـــن علاه أتانـــى الوحـــى منهمــــرا	كالغيـــث يهطـــل كالآيـــات والحكــــم
الجـــو صـــاف ولاغيـــم يكـــــدره	والشمـــس تنشر خيط الحب فـــى الأكـم
والمـــــاء أغنيــــة الينبـــوع تسمعنـــا	لحنا فريدا وهمـــس الحـــب فى النغــم
والنـــاس تمـــرح فى حقـــل وفى عمـــل	والعيـــش يحلو لراعى العنـــز والغنـــم(٢)

ويبدو الشاعر أكثر تأثيرا فى النفس من نسيب عريضه . فنسيب شغلته الخطابية المباشرة فجاء أسلوبه وعظا جافا . وعادة ما تأنف النفس من أسلوب الأمر أيا كان هدفه لكن فيليب من خلال وصفه للطبيعة أعطانا ما يريد قوله فقدرنا وقدر الطبيعة وقدر فنه فمن القطعة السابقة نجنى المعانى العذاب التى تسمو بالنفس وهى : -

حب الوطن فى البيت الأول ، والعطاء بلا حدود فى البيت الثاني ، والصفاء النفسى والحب الذى يشمل الكون بأسره فى البيت الثالث ، والترفيه عن النفس فى البيت الرابع واحترام قيمة العمل والعمال والقناعة فى البيت السادس .

ألا ترى أن الشاعر عرض أمامنا اللوحة لنقرأ بدون معلم ولا واعظ . بأسلوب فيه جزالة الشعر العربى القديم . وثراء الوجدان الفنى الحديث . ولعل فيليب لم ينل حظه من الدراسة لكن

(١) السابق ص ١٧٣ .
(٢) مجلة الأديب – يناير أكتوبر ١٩٧٧ مقال :فيليب لطف الله شاعرا وإنسانا وحيد الدين بهاء الدين ص٣٢.

أفاقه الفنية غنية بالغناء العميق البعيد الذى يهمس ولايصرخ ، يلمح ولايصرح . يقترب إليك فى رفق لترى نفسك محاطا بعالمه الفنى الأخاذ وفى وصفه للشتاء .. يتخذه رمزا مزدوجا للحياة والموت فهو وان قضى على الثمر وأسقط الأوراق همزة الوصل بين الماضى والآتى . حيث تكمل دورة الحياة فيقول :

جـــاء الشتــاء فـــلا زهـــر ولاثمـــر	وفـــى عواصفـــه الآيـــات والعبـــر
يقضـى على باسقـات الروض ان هـرمت	وفـــى البريـــة يقضـى حكمه القـــدر
يمضـى القـديم ويبـقـى بعـده خلـفـا	يجـدد النشىء فيـه الكـون والبشـــر
فمـا الحيـاة سـوى آت ومرتحـــل	والليـل مهمـا دجـا فى قلبـه سحـر(١)

وإيليا أبو ماضي . في عديد من قصائده يتلقى من الطبيعة معتقده ومثله الروحية والاجتماعية وهو يعبر عن هذا بصدق عفوى قائلا :

وشاهـدت كيف النـهـر يبـذل مـاءه	فلا يبتغـى شكرا ، ولا يدعـى فضـــلا
وكيـف يزيـن الطـل وردا وعوسجـا	وكيـف يروى العـارض الوعـر والسهـــلا
وكيـف تغـذى الأرض الأم نبتهـا	وأقبحـه شكـلا كأحسنـه شكـــلا
فأصبـح رأيـى فـى الحيـاة كرأيهـا	وأصبحت لـى ديـن سـوى مذهبى قبـلا
وإن لـم أكـن كالروض والنجـم والحيـا	فحسبـى اعتقـادى أن خطتهـا المثلى (٢)

وانطلاقا من مفهومه هذا للطبيعة يحاول قتل نزعة الغرور فى نفس الإنسان فى قصيدته " الشاعر والسلطان الجائر " وذلك من خلال مشاهد الطبيعة ومرائيها ويقيم حجته مستندا إلى قوانين الطبيعة .

ويسند هذه المهمة إلى الشاعر ليوحى بوظيفة الشعر والشاعر فى الاستشهاد من أجل إعلاء قيمة الكلمة وإرساء مبادىء الحق والعدل والمساواة ، ومن فى نظر الفن الصادق والضمير اليقظ غير الشاعر جدير بهذه المهمة ؟

يقول الشاعر للسلطان الجائر :

---

(١) السابق ص ٣٥ .

(٢) انظر نص القصيدة كاملا بديوان : الخمائل من ٧٩ – ٨٦

ولقـد نقلـت لنملــة ماتـدعــى | فتعجبت ممـا حكيت كثيــرا
قالــت صديقـك مايكون ؟ اقشعمـا | أم أرقمـا ؟ أم ضيغمـا هيصـورا
أيحـوك مثـل العنكبـوت بيوتـه | حوكـا ويبنـى كالنسـور وكـورا
هــل يملأ الأغـوار تبـرا كالضحـى | ويـرد كالغيـث المـوات نضيـرا
أيلــف كالليـل الأباطـح والربـى | والمنـزل المعمـور والمهجـورا
فأجبتهـا كـلا : فقالـت سمـه | فى غيـر خـوف كائنـا مغـرورا (١)

وتسرى هذه الروح فى قصيدة " الطين " فهى صوت الشاعر الثرى بالحكمة المندى بسحر الطبيعة ينطلق فى تموجات غاضبة لتبتلع نزعة الغرور التى طافت بخيال الطين المغرور " واختيار كلمه " الطين " لايدل على التحقير بمقدار ما يدل على المساواة فالناس مخلوقون من الطين الكريم وليس الطين الحقير " ويبدو أن الشاعر فى غمرة انفعاله نسى أن الناس كلهم من الطين . كلكم لآدم وآدم من تراب " حديث شريف " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين " قرآن كريم " .

* *

ومن قصيدته " الجدول الطروب " (٢) يأخذ من الجدول درسا فى بذل العطاء بدون ضجيج فالصمت دليل الإخلاص فى العمل . يقول عن الجدول .

ولقد سمعت الطير تدعـوه الحبيب الأكبـرا
فوقفت أرمقه وأسـأل حائـرا مستفسـرا
ماحبب الأطيـار والأشجـار فيه يأتــرى ؟
أحصاه ؟ ان البحر يحوى فى حشاه جوهرا
أم مـاؤه ؟ انـى رأيـت السيل منـه أغـزرا
أو طهره ؟ انى وجـدت الطـل منـه أطهـرا
ما السر فى هذى ولافى كونه يسقـى الثرى
بل كونه يسدى الجميل ويستحى أن يظهـرا

(١) أبو ماضى الخمائل : ص ١٤ .
(٢) أنظر القصيدة وهى غير منشورة بدواوين إيليا أبى ماضى فى كتاب . إيليا أبو ماضى دراسات عنه وعن أشعاره المجهوله ص ٢٦٦ " جورج ديمترى سليم .

وهذه قيمة اجتماعية سامية ، تغرس الحب فى النفوس ، وتصل مابين القلوب ، وتذكرنا بقصيدة " الحجر الصغير " فى أهمية الفرد مهما قل شأنه ، لكن الحجر الصغير كان تناسيه سببا فى الهلاك لكنما الجدول الطروب يعطى بلا حدود وهو صامت ، وفى كلمة الطروب ، إيحاء بالتفاؤل الذى انتهجه أبو ماضى فى حياته .

وكما يتعلم أبو ماضى من الطبيعة المبادىء التى ينشر بها الخير بين الناس يتعلم منها كيفية الدفاع عن النفس الذى يصل الى حد الهجاء ، وهذه نزعة جديدة نراها فى شعر أبى ماضى ، فهو فى قصيدته " النابح العاوى "(١) يخاطب فى عنف من استغل حلمه وحاول إيذاءه وظن أن ذلك الحلم ضعف منه ، يخاطب ذلك الإنسان بأسلوب لم تعهده فى معجم أبى ماضى يقول:

يا أيهـــا النابـح العـــاوى بلاسـبـب	أمـــا لنفســك نوودٌ فينهـــاهـــا
نحـــن النجـــوم التــى تهــدى أشعتهـــا	من ضل بل نحـن أسماهـــا وأسنـــاها
لكننـــا نعتـــدى ان ثـــاره ثائرنـــا	نياز كانتقـــى الدنيـــا شظاياهـــا
هل يزعـــج الشهـــب نباح بـــلا ذنـــب	وهل يعـــوق فـــى الأفلاك مسراهـــا
اذا سكتنـــا فان الليـــث يأنـــف مـــن	قتل البعوضـــة مهمـــا طـال قرناهـــا
اذا نظرنـــا الـــى الجعـــلان سارحـــة	ولـــم نطأهـــا فاناقـــد حقـرناهـــا
وفـى الحدائـــق ذات الزهـــر مشغلـــة	عن رؤيـــة الجعـــل يمشى فى زواياهـــا

وعلق أحد القراء على هذه القصيدة التى لم يشأ أبو ماضى أن يكتب اسمه ساعة نشرها فقال : " على أنى أقدر أن أقول إن القصيدة التى ظهرت فى " المرآة " منذ عهد قريب بلا توقيع سيكون حظها من الخلود كبيرا لما فيها من السلاسة والرقة ، وأداء المعنى المبتكر بلا تكلف ولا تعسف " (٢)

ولم يقصر أبو ماضى دروسه من الطبيعة على اللحظات السعيدة المشرقة بل وظفها فى الرثاء واتكأ على مظاهرها وقاموسها ليثرى بها مشاعره فى لحظات الوداع : ففى توديع أمين الريحانى نراه يخاطبه فى محبة وأسى قائلا :

---

(١) السابق ص ٢٦١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٩ .

يا قاصد البلد البعيد ترفقا   مادام هذا الدهر لا يترفق
ان كان بعض الود يخلقه النوى   وبيته فودادنا لايخلق
فإذا رأيت البحر يعلو موجه   فاعلم بان دموعنا تتدفق
واذا رأيت النجم ينظر ساهيا   فاعلم بأنافي النجوم نحدق
واذا سمعت الطير تهتف في الضحى   فاعلم بأن قلوبنا تتشوق (١)

سابعا : الطبيعة تثرى الفكر ويناقش الإنسان من خلالها قضايا الحياة والكون:

واتخذ المهجريون من الطبيعة مجالا لطرح الشكوك ومناقشة الإشكالات الحياتية والكونية " وهو فرق جوهرى بينهم وبين الرومانتيكيين الأوروبيين " إذ أن هؤلاء لم يكونوا يندمجون فى الطبيعة ليفكروا . ليستخلصوا الحجج أو يحلوا مشكلات " كلا " ولكن ليحلموا ويستسلموا لمشاعرهم(٢)

أما شعر المهجر فيحفل بالموقفين معا . موقف الاستسلام للأحلام عبْر مشاهد الطبيعة وموقف التفكير من خلالها . فى مشكلات الحياة والكون .(٣)

وديوان أحلام الراعى لإلياس فرحات ، وعبقر لشفيق معلوف ، وطلاسم أبى ماضى ، والأوتار المتقطعة لرياض معلوف ، وكثير من قصائد همس الجفون ومقالات جبران وخواطره ، ورباعيات القروى ، كلها نماذج تؤكد هذه الظاهرة حيث نراهم يأخذون البحر – تارة رمزا للثنائية التى يعيشها الكون وتدمى النفس البشرية وتارة أخرى يتخذه أبو ماضى رمزا أو دليلا على الفناء فالمالك من حوله فنيت وجبران يتخذه رمزا لنشأة الوجود وبقائه .

ومن خلال الدودة يفتش نعيمه عن نفسه الحائرة .. ويقدم أبو ماضى فى كثير من قصائده إيمانه بعقيدة التقمص والتناسخ فيقول : من قصيدته " الناسكة" بعد أن يلتقط الحب ويأكل السنبل فى ساعة الغروب .

ماالحب يا هذا ولا السنبل   ماتاكل النار وما تأكل
وانما أسلافك الأصفياء. (٤)

---

(١) السابق ص ٢٤٢ .
(٢) د / محمد غنيمى هلال . الرومانتيكية ص ١٤٠ .
(٣) د / أنس داود : الطبيعة فى شعر المهجر ص ٤٦ .
(٤) أبو ماضى : الجداول ص ٧٩ .

والشاعر رياض المعلوف يقول عن الطبيعة مجيبا عن سؤال وجهته إليه : الطبيعة هى هبة الله التى أنعم بها على بنى البشر .. لوجه الله !!

وهى أحن عليك من الأم التى ولدتك للأوصاب !

أجل إذا اتخذناها من الناحية الإنسانية فلكل مخلوق بشرى طبيعته الخاصة ومزاجه لذلك قيل غلب الطبع التطبع ! وهى جذوره العميقة التي يتطبع بها .. وطبيعة الأشياء هى طابعها الذى تتسم به !!

ومن لطائف طبيعة الكون الأزاهير والأشجار والأثمار والأطيار .. والأنهار والجبال والوهاد ، والليل والنهار، والأقمار والنجوم والغيوم ! والمناظر الخلابة والألوان الزاهية التى تأنس بها العين ، وينتعش بها القلب ! (١)

ويتخذ رياض المعلوف من فصل الخريف وحيا للتعبير عن فلسفته فى الموت فيقول من قصيدته " غمائم الخريف" (٢)

وريقـــات تبللهـــا الـــدمـــوع	فأيـن الصيـف بـل أيـن الربيـــع ؟
يبعثــرها الهــواء علـــى الروابـــى	ولا يخشـــى أتبقـــى أم تضيـــع ؟
وتصرعـهــا الريـــاح وكـــم تبـــدى	بكـــل وريقـــة يـــوم صريـــع ؟

ومن خلال الطبيعة وعرض مشاهدها عبر الشاعر عن إيمانه بالله . فيقول من قصيدته " لبنان علمنى القريض " :(٣)

فهنـــا الجـــداول دمـــدمـــت	وهنـــاك سجـــعـــة طائـــر
والنـــور يضحـــك ثـــم يعـــ	ـبس فـــوق ظـــل عابـــر
صـــور تمـــر علـــى العيـــو	ن وتستبـــد بنـــا ظـــرى
فكأنـــهـــا مـــعـــزوفـــة	عزفـــت بأنمـــل ماهـــر
أو تـــلـــك لـــوحـــات مـــن الفـــن الجـــميـــل البـــاهـــر	
مـــن ريشـــة اللـــه العظيـــ	ـم الـــعـــبـــقـــرى النـــادر

(١) من رسالة خاصة إلى بعث بها الشاعر فى ١٩ من يناير سنه ١٩٧٨ م .
(٢) رياض معلوف : غمائم الخريف : ص ٩ .
(٣) السابق ص ٣٥ .

ثامنا : الطبيعة سرقت الأضواء من المدينة وجذبت قلوب الشعراء إليها :

وذلك لما فى المدينة من مواصفات اجتماعية يسمها التكلف وترسم حدودها المنافع والأغراض الشخصية . فضلا عن وجودها سدا أمام انطلاقات الخيال وانفساحات التأمل ..
وأبو ماضى فى قصيدته " فى القفر " (١) يقول فى بدايتها مقررا هذه الحقيقة :

سئمت نفسىَ الحياة مع النا س وملت حتى من الأحباب
وتمشت فيها الملالة حتى ضجرت من طعامهم والشراب

ويهزأ بقيم المدينة الزائفة . ويهتك براقعها القبيحة ويصفها قائلا :

صغرت حكمة الشيوخ لديها واستخفت بكل ما للشباب

ويتخذ من أشخاص الطبيعة رفاقا له فى رحلة حياته المضنية :

وإيك الليل راهبى وشموعى الشهب والأرض كلها محرابى
وصلاتى الذى تقول السواقى وغنائى صوت الصبا فى الغاب

ولكنه فى النهاية يحس أن المدينة تشده بأغلالها ، ومثلما مل الحياة فى المدينة مل صمت الغاب الموحش :

انما نفسى التى ملت العمـ ران ملت فى الغاب صمت الغاب
خلت أنى فى القفر أصبحت وحدى فاذا الناس كلهم فى ثيابى

وهذا الشعور نفسه يتسرب إلى الياس فرحات فيقول من قصيدته " ياأنجمة الليل " موضحا فى مباشرة نثرية أسباب بعده عن المدينة وحنينه إلى الغاب :

أحن الى الغاب حيث الشرور هنالك ميزاتها خامده
أحن الى حيث لا يجلس الغدر قرب الوفا مائده
أحن الى حيث لا المنكرات تعيش ولا الأعين الحاسده (٢)

وتجسم ذلك الشعور نفسه عند القروى فى قصيدته " الربيع الأخير " (٣) وجبران يصور فى مواكبه قيم المدينة الزائفة ويجد الحياة المثلى فى الغاب ففيه المساواة والعدل والحب والحرية

---

(١) أبو ماضى الجداول ص ٣٢ .
(٢) ديوان فرحات ص ١٦ .
(٣) ديوان القروى ص ٨٥٢ .

، لكنه فى النهاية يقول والمدينة تضغط عليه :

العيش فى الغاب والأيام لو نظمت ... فى قبضتى لغدت فى الغاب تنتشر
لكن هو الدهر فى نفسى له ارب ... فكلما رمت غابا راح يعتذر
وللمقادير سبل لا تغيرها ... والناس فى عجزهم عن قصدهم قصروا

ويقول " شفيق معلوف " على لسان حبيبته " التى أخذت تبحث عنه فى الحقول :

سلمت للريح شعرى ... وللفراشات كتفى
من فرط سيرى أدمى ... رجلى طول التحفى
دربى اليك طويل ... قطعته بالتخفى (١)

وهو يصفها فيشتق لها من الحقل كل مايدخل عليها السعادة ويصفها فى رقة صادقة :

أزاهر الضفة أترابها ... عذراء كالزنبق فى طهرها
قد مهدت متكالينا ... من عشب الحقل ومن شعرها
لو الندى رش أزاهيره ... ما ميز البرعم من ثغرها
نامت وقد حامت عليها المنى ... واستسلمت هانئة للرؤى
وانطبقت شباك أهدابها ... تصون فى أجفانها اللؤلؤا (٢)

والمهجريون فى أغلبهم يحنون إلى الحياة فى أكناف الطبيعة بالقرب من مشاهدها الحبيبة حياة فطرية بسيطة تحيا من خلالها فضائل النفس وتتمجد المثل العليا وتتخلص من شوائب المدينة وما تقترفه فى حق الإنسان روحيا واجتماعيا من آثام " وفى هذا هجاء للحضارة وهجاء للمجتمع نجد مشابهه عند كثير من الرومانتيكيين الأوروبيين منذ أن ابتدأها روسو دعوة حارة إلى نبذ قيود المدينة والعودة إلى الحياة الصادقة الحرة فى ظلال الطبيعة . (٣) ولكن هذا النفور من المدينة وهجاء المجتمع الحضارى لم يعم مشاعر هؤلاء الأدباء عن التعاطف مع الإنسان ومآسيه والتصاقه بهم فهم قد عرفوا للإنسان قدره - وأشعارهم الإنسانية ومقالاتهم الاجتماعية وقصصهم ذات الطابع الاجتماعى تظل شاهدة على صدق الحقيقة السابقة .

(١) شفيق معلوف : ستائر الهودج ص ٩٩ .
(٢) السابق ص ١١٣ - ١١٤ .
(٣) د / محمد غنيمى هلال : الرومانتيكية ص ٩٢ .

الطبيعة الحية : إيقاع جديد فى التجربة التأملية

للطبيعة الحية دور لا يستهان به فى شعر الطبيعة وأدبها فى المهجر فلم يقف تجاوبهم الشعورى وتعاطفهم الروحى واحساسهم العميق عند الزهر الناضر والأرج الضائع والجماد الناطق . وتبرج الطبيعة فى الربيع ، وتجهمها فى الخريف والشتاء ، بل عاشو كذلك بقلوبهم ومشاعرهم مع طيورها وحشراتها وحيواناتها . عاطفة بعاطفة واحساساً بإحساس ، فهم مع الفراشة الهائمة والنحلة الحائمة ، والدودة الواهنة، والنسر الشامخ ، والحمامة الوديعة ، فى تعاطف ومودة ، وألفة وامتزاج . (١)

فقد تغنى " أبو ماضى " بالبلبل " الفيلسوف المجنح . (٢) وأجرى على لسانه أروع الشعر وأصدقه وقال له : طوباك أنك لا تفكر فى غد : بدء الكآبة أن تفكر فى غد وأثارت أشجانه الفراشة المحتضرة . (٣) فهو يبكى معها ، ويتألم لها بعد أن ولى الربيع ومضى الصيف وأجذب حقلها المرع . ويخاطب رياح الخريف العاتية التى تعصف بالفراشة الرقيقة ويرى فى ذلك بغيا وعدوانا ويتوعدها بعقاب الله لها فيقول :

فيارياح الخريف العاتيات كفى ... عصفا فقد كثرت فى الأرض قتلاك
كيف اعتذارك ان قال الإله غدا ... هل الفراشة كانت من ضحاياك؟
يانغمة تتلاشى كلما بعدت ... ان غبت عن مسمعى ما غاب مغناك
ماأقدر الله أن يحييك ثانية ... مع الربيع كما من قبل سواك

ويبث أبو ماضى كذلك عظاته من خلال . الكنار الصامت .(٤) والضفادع والنجوم فيقول على لسان الضفادع التى يرمز بها إلى الشعوب المقهورة :

نحن لو لم نقهر الشهب التى ... هاجمتنا لأذاقتنا الحتوم
وأقامت بعدنا فى أرضنا* ... فى نعيم لم نجده فى الغيوم
أيها التاريخ سجل إننا ... أمة قد غلبت حتى النجوم

* *

(١) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ص ٢٥٣ .
(٢) أبو ماضى الخمائل : ص ٣٣ .
(٣) السابق ص ٤٠ .
(٤) أبو ماضى الجداول ص ١٥ .

ورأينا أبا ماضى يطرق بابا جديدا فى الطبيعة الحية هو وأسعد رستم ونسيب عريضه فهم يصفون كلابهم ويرثونهم فى أسلوب ساخر فكه ممتزج بالتأمل . وهذا الاتجاه مجهول فى أدب المهجر وقد نوّه به " جورج ديمترى سليم فى كتابه " أبو ماضى دراسات عنه وعن أشعاره المجهولة (ص ١٥١ - ١٥٩) " .

فنسيب عريضه " يرثى كلبته المسماه " ففى " ويصفها فى حنو ورفق قائلا .

عضها الدهر بعد ماعفت النا ... س وقامت بحفظ حق الحجاب
رحمة اللحم والعظام عليها ... وصلاة الصحون والأكواب
فارقتها وطالما لحستها ... وكستها غلالة من لعاب
فى زوايا العينين منها بريق ... غامض مثل شعلة فى الضباب

ثم يقول :

يا " ففى " قد حرمت قبرا ولكن ... ستعودين مثلنا للتراب
وثرى الناس ليس أفضل جنسا ... من تراب الكلاب عند السحاب
فسقتك الدموع منى وروت ... ك عيون السحاب بالتسكاب

ويصف كلبه فى قصيدته " حكاية " وقد سماه " غرا " فيقول ولا يخلو وصفه من دعابة طريفة ، وفلسفة عابرة :

ترعرع الكلب " غر " ... فصار أعظم شرا
يعوى اذا الناس ناموا ... فيسمع الناس نكرا
وينبح البدر ليلا ... وينبح الشمس ظهرا
وكلما مر سار ... أو هبت الريح هرا
ويتبع الضيف حتى ... اذا استقر استقرا

ويترك العظم ملقى ... ويسرق الخبز جهرا
فروع النشء حتى ... ما تطلب الدار ذعرا
وتفُر الطير حتى ... ما تألف الطير وكرا
فاقبل الحى يشكو ... فقلت ياقوم صبرا
لو كنت أكسب أجرا ... أو كنت أحرز فخرا
خنقت بالحبل " نمرا " ... لكن للكلب " عمرا "

ويصف أسعد رستم :

مشهدا أبصر فيه مركبات تجرها جياد تجاري المركبات قائلا .

فأبصر انثى بينهن وكلبها ... بجانبها يهنا وينعم بالا
تقبله طورا وطورا تضمه ... إليها بشوق يمنة وشمالا

* *

ففكر هذا في تعاسة حاله ... وأدرك أن الكلب أحسن حالا
فعاد على أعتابه وهو لاعن ... زمانا غدت فيه الكلاب رجالا

وله قصيدتان في هذا الموضوع هما " هو يسبح وهي تنبح ، وذنوب وأذناب " والأولى ترمز إلى السفلة من الناس والحاقدين الذين لاهم لهم إلا إيذاء الغير حنقا وغيظا والثانية : تصف نكران الجميل وعدم الوفاء . ويقول الشاعر مجسما وفاء الكلاب "

أرى أن هز ذيول الكلاب ... لأصدق من هز أيدي البشر

وفي قصيدة " بعنوان " مشهد صيد " (١) يصف شفيق معلوف كلبه وهو يتهيأ لصيد فريسته وفي وصفه دقه بالغة : وتصوير صادق حتى كأنك تشهد المنظر ولا تقرؤه أو تسمعه

تشمم كلب الصيد طيرا فأبرزت ... نواجذه نصلا وأظفاره مدى
وساف خبايا العشب سما بمخطم ... تنسم خلف العشب ريحابها اهتدى
كأن له عينا على أنفه ترى ... خلال مهب الريح صيدا تلبدا
نضى ذنبا صلب القناة مصوبا ... وشال برجل عاقفا بعد هايدا
وحملق لم يطرف بعينيه طارف ... يلوك شجى في حلقه متر ددا
ومال باحدى مقلتيه يهيب بي ... كعبد يمني بالغنيمة سيدا

والياس فرحات " يرى في النحلة رمزا للسعادة بينما هو يذوق الحرمان . لأن جناحها العجيب سر سعادتها فهي تجمع العسل من الحقل بامتصاصها الأزهار ولا رقيب أو عاذل . وهو محروم من زهرته البشرية الواحدة فيقول موضحا العلاقة ما بينه وبينها هي مثلي تعشق

(١) شفيق معلوف : لكل زهرة عبير ص ٤٦ - ٤٩ .

الورد النضير انما ليس عليها رقباء

زهـرتـي فـي الـروض يابنت القفيـر فـاقـت الأزهـار حسـنـا ورواء
انهـم قـد حرمـو فيهـا فـكـاد ناظـري يحـرم أنـوار الصبـاح
وهـي لـي واحـدة دون ازديـاد ولـك الحقـل بمـا فيـه مبـاح (١)

"ومحبوب الشرتوني" يحزن على حمامته الضائعة التي افتقدها بعد شقائه من مرضه ويراها تجسيما لمعاني الوفاء والطهارة حيث يبصر فيها رسول السماء ويرى فيها الشاعر المطل من العالم الأوسع فيقول : -

أنابـك خطـب فـلـم تـرجـعـي أم الطيـر تنبـو عـن المـرتـع
هـو الـفـجـر عـوّدني أن أراك هنـاك علـى الحـائـط الأرفـع
لقد كـنـت ذاك الأنـيـس الأحـب اذا مـا طفـرت مـن المخـدع
فكنـت أرى فيـك رمـزا الوفـاء ورمـز الطهـارة فـي المنـزع
وأبـصـر فيـك رسـول السمـاء يحـدث عـن قـدرة المبـدع
كـأنـك فـي أوجـاعهـا شاعـر أطـل علـى العالـم الأوسـع
إذا كنـت فـي قيـد هـذي الحيـاة تعالـي إلـي وعيشـي معـي

وللقروي قصيدة "بعنوان الحمامة الشفيعة" (٢) ويرمز بها للوصال بين الأحبة ، والعصفور تحدث عنه "رياض المعلوف" في كتابه "صور قروية" في ثلاث مقالات هي "العصفور الدوري" العصفور الشويكي ، الكناري" . (٣)

كما استخلصت من استقرائي لقصائد رياض المعلوف في العصفور بأنه يربطه بالحب دائما فهو يذكره بحبيبته وهو يهجره ، وهو تارة أعمى وقصائده التالية تمثل هذا الاتجاه رقصة العصفور / ١٥ ، بالله يا عصفور ذكرنا ، الحسناء والبلبل .

وتحدث عنه القروي في عديد من قصائده في ديوانه . مثل قصيدة "البلبل الساكت / ٦٦ وقصيدة "طيور البحر" / ٢٤٣ ، والعصفور / ٢٩٣ .

---

(١) ديوان فرحات ص ٥٢ .
(٢) ديوان القروي جـ١ ص ٢١٧ .
(٣) درياض المعلوف : صورة قروية من ص ٦٩ - ٧٣ .

وفى قصيدة " العصفور " يربط بين غربة العصفور وغربته عن وطنه فيقول :

هـــل أنــت ياعصفــور مثلــى غريــب   هـــل لك مثلـــى إخـوة فـــى الوطـــن
هـــل أنــت مثلــى هاجـس بالحبيــب   مـــن ذا الـــذى تهـــواه ياطيـر مـــن ؟

* *

كأنمـــا أنـــت بـصـــدر القفـــص   مصفـــق الجـانـــح لا تستـــريح
طيـــر ذبـيـح فى ضلوعــى رقـــص   ومـــا انتهــى بعـد عذاب الذبيـــح (١)

* *

وقصيدة " بين البقر والبشر " للقروى من القصائد العميقة التى قارن فيها الشاعر بين حياة البقر الهادئة المنعمة برغم مافيها من قسوة الطبيعة وبين حياة البشر الملأى بالمصائب المتمثلة فى انتهاك العرض ، والفقر ، والحسد ، وفقد الإحساس والذل وقد نوه " ميخائيل نعيمه بهذه القصيدة فى كتاب " الغربال " واعتبرها من عيون القصائد عند القروى . وذلك لما فيها من وعى تام وإحساس مرهف لما يجرى حوله من أحداث وخبرة بالنفس البشرية ، والعلاقات الممزقة بين البشر .

يقول القروى :

طـوبـــاك سارحـــه فـــى القفر طوبـــاك   إن كنـــت أحســد مخلـــوقـــا فإيـــاك

* *

الـزهـــر مثلـك فـــى الآفـــاق تنتشـــر   تغشـــى مـــروج العـــلا والليـــل معتكـــر
تالله كـــم يتمنـــى عيشـــك البشـــر   مـــاذا تخافيـــن فـــى البيـــداء يابقـــر
ان كنـــت تخشـــين مـــن أنيـاب فتـــاك   طوبـــاك فالجلـد غير العرض طوبـــاك (٢)

* *

ويدمى القيد مشاعر " رشيد أيوب " ويرسف فى أغلال القهر الاجتماعى فيصور شموخ النسر . وانطلاقه فى ملكه الضخم ، طليقا كالنسيم ويقابل بين حريته وبين قيوده هو فيقول :

هـــات حـدثنـــا بآيـــات الطيـــور   أيـهـــــا الـســلـطـــــــان
وبمـــا قـــد كـــان فـــى ماضى العصــور   مـــــن عـظـيـــم الشـــــأن

* *

---

(١) ديوان القروى جـ١ : ص ٢٩٣ .
(٢) ديوان القروى ص ٢٨٧ .

ملــك الأطيـــار بلغـــت المنـــــى	فــــى حمــــى مــأمـــــــون
فكـــلانـــا طائـــــر لكــــن أنــــا	طــــائـــــــر مسجـــــــــون
مـالــه عـــن مذهــب النـــاس غنـــى	قــلـبــــــــــه مــحـــــــزون

* *

والياس فرحات " فى قصيدته " احتجاج السعادين على داروين " يهجو المجتمع الإنسانى هجاءا مرا . ويفضل مجتمع القرود عليه . لما يتمتع به عالم القرود من بحبوحة المساواة والعدالة ، وعدم اتخاذه من الملل والنحل سبيلا للتمزق والفرقة والحروب .

ويعقب على هذه القصيدة د / أنس داود قائلا . وواضح أن ما يهدف إليه الشاعر هو أن ينبه المجتمع الإنسانى إلى علله وأدوائه . ويبحث عن العلاج فهذا الهجاء اللاذع للإنسانية لم يكن مبعثه إلا الحب والرغبة فى الوصول إلى عالم أمثل . (١) وهو بهذا يحاول الرد على الأستاذ / عيسى الناعورى الذى قال عن القصيدة وعنوان هذه القصيدة يدل على فكرتها ففيها تهكم بنظرية النشوء والارتقاء الداروينية التى تقول إن الإنسان منحدر من سلالة القرود. (٢)

وأرى أن الشاعرعمد إلى إظهار الاتجاهين ، تفنيد مزاعم داروين والرد عليه وهجاء المجتمع الإنسانى حتى يتنبه إلى أمراضه فيداويها من خلال أصوات القرود التى تتهكم على الإنسان وتظهر محاسن أبنا جنسها (القرود) .. فعلى لسان أحد أفراد عائلتهم تأتى هذه الأوصاف .

يكفــى السعاديـــن فخــرا أنهـا عـرفـت	معنـــى السعـــادة عـفـــوا دون تلقيـــن
وأنهـــا تجهــل الكـــذب الـــذى أخـــذت	منــه الحكـومـات أركـان الـدواويـــن
لا تعــرف الديـــــن فــــى غير الاخاء ولا	تجنـــى علـــى الخلــق بـاسم الله والديـــن
الغــاب تجمعهـــا مــــن كـــل طـائـفـة	تحيـــا الصعاليـــك فيهـــا كالأساطيـن (٣)

.... وهناك الإحساس بالطبيعة الريفية ووصف مفاتنها ومظاهرها وذكرياتها . وما يرتبط بها من هوى وقيم ، والشاعران الرائدان فى هذا المجال هما الشاعر " رياض المعلوف " والشاعر فؤاد الخشن " .. وبرغم أن الشاعر القروى سمى بهذا الاسم أو أطلق عليه هذا اللقب

(١) د / أنس داود : الطبيعة فى شعر المهجر ص ٦١ .
(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ١٨٢ .
(٣) ديوان فرحات ص ٩٤ .

لأن معجمه غالبا ما يشتقه من معجم قريته لكنه لم يول القرية اهتمامه الوجدانى قدر ما أولاها رياض المعلوف وفؤاد الخشن .

فرياض فى كتابيه " صور قروية ، وريفيات " يضع القرية بين يدى القارىء عارية مفصلة واضحة .. وذلك اتجاه جديد فى أدب المهجر وقد تحدثت عن ذلك تفصيليا في الباب الثانى من هذه الدراسة فى " مبحث " النزعة الاجتماعية فى أدب رياض المعلوف . [١]

وقد أجابنى عن سؤال وجهته إليه بخصوص هذا الاتجاه وكان السؤال هو ما المعانى الإنسانية والتجارب التى علمتك إياها طبيعة بلادك ؟.

فقال :

إنه رغم أسفارى حول الشرق والغرب وإقامتى فى المدن العظيمة كنيويورك والريوده جانيرو والبرازيل ، وباريس عدت بعد هجرتى إلى بلدتى الجبلية زحلة " فوجدتها أعظم من كل هذه العواصم على ضيق رقعتها وبساطة العيش فيها فوصفت معالمها ومنتزهاتها ووديها الساحر .

والقناعة كنز لا يفنى ... أليس كذلك يا أخى صابر ؟ [٢]

* *

وأما الشاعر " فؤاد الخشن " فيقول عنه " جورج صيدح " قيثارة الريف فى المهاجر الأمريكية . والناى الريفى الذى عزف للصبايا الحسان . حاملات الجرار والسلال وتغزل فى صحراء الشويفات وتحرق شوقا لغابة الزيتون " [٣] .

والشاعر فى ديوانه " سنابل حزيران " يخصص جزءا لمعزوفاته الريفية يتحدث فيه عن ذكرياته الريفية ، وعن الأصداء القديمة التى تأتيه من الريف ، وعن العزال الصغير فى الشويفات وعن صوت الشجرة . وقصيدته " ذكريات ريفية . تعد من المطولات المهجرية التى لم تأخذ حقها من الدراسة . وهى من الشعر المنغم الذى يعتمد على التفعيلة ولا يفقد الوزن الشعرى المحبب ويذكرنا بمقطوعات نسيب عريضه وشفيق معلوف وهو يتجه إلى الطبيعة قائلا :

(١) يرجع ذلك إن شئت : الباب الثانى : الفصل الأول .
(٢) من رسالة خاصة بعث بها الشاعر إلى فى ١ من يوليه سنه ١٩٧٩ م .
(٣) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ص ٦٩٧ .

صور الماضى تحوم .'. فوق هدبى
ان فى هذى الرسوم .'. بعض قلبى

احفظيها
نمقيها
لونيها
واعرضيها
ياسواقى

ويكرر " كلمة " أرنى " تسع مرات ويناجى وجه السواقى أن يريه طفولته ومشاهد نيسان والأغنام والقبو العتيق والبدر الموء تلق والليالى المنغمة بالعود . وتكرار كلمة أرنى يومىء إلى انفعاله الشديد ولهفته إلى زمان الصفاء ومكان الجمال .. ويكرر كلمة " أين " تسع عشرة مرة ليشركنا معه فى تشوقه " فنحس بجمرات الحب المتقدة فى قلبه لوطنه فى الريف " الشويفات " وليس هناك عاطفة أقوى وأخلص من هذه العاطفة الباحثة فى اللاشعور عن الذكريات الندية المعطرة ببراءة الريف العذب . إنه صوت طاهر فريد غنى للريف فى عمق ، ونايه من أصدق النايات المهجرية (١) .

(١) أنظر ديوان سنابل حزيران من ٧٩ - ٨٦ " فؤاد الخشن " .



الفصل السادس

فلسفة الموت وآفاق التجربة التأملية

تمهيد :

الموت : هو النهاية التى تؤرق الملايين ، وتجعل لون الحياة باهتا فى عيون الكثيرين . وتمثل النجاة من شرور العالم الدنيوى فى نظر طوائف أخرى الموت : هذا اللغز المحير ، لا ندرى ما سببه ؟ وفى أى وقت يحل بنا ؟ وكما نختلف عليه رفضا وإيجابا . قبولا وإعراضا . اختلف القدماء عليه . فلاسفة وعلماء وأدباء .. وفى مقدمة هؤلاء " سقراط " .

وكان سقراط ، يعتقد أن الفيلسوف الحق هو الذى لا يشغله عن التفكير فى الموت شاغل. إذ الموت هو السبيل إلى تحرير الفكر ، وإن تستطيع النفس أن تدرك أى شىء على حقيقته إلا إذا قطعت كل وشيجة تربطها بالجسم لأنه يعوقها عن المعرفة الحقة ، فليس البدن بحال ما هو الذى يوقفها على معانى العدل والخير والجمال وحينئذ فمتى عجز المرء عن إدراك هذه المعانى بالإبصار أو اللمس أو الذوق أو الشم فلابد من حس آخر غير تلك الحواس التى لا قوام لها إلا بالبدن .

فإذا كان من المستحيل فى الواقع أن تدرك أى شىء على حقيقته مادامت متصلة بالبدن فإنه يجب أحد أمرين : فإما ألا تستطيع الوصول بحال ما إلى تحصيل المعرفة وإما أن تصل إلى ذلك بعد الموت لأن النفس تصبح مستقلة وقائمة بذاتها . فى هذه اللحظة لا قبلها .

ثم يقول سقراط " وإذا كان الأمر هكذا فليس للفيلسوف إلا أن يأخذ العدة لهذه الرحلة . بأن يطهر النفس ويجعلها تحيا بعزلة عن البدن ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولكن النفس لاتتحرر تماما من البدن إلا بالموت فانه هو الذى يفك عقالها ويحررها من اسرها وخضوعها للبدن ونزواته . والفلاسفة هم الذين يتوقون إلى خلاص نفوسهم من قيودها .

ولكن ليس معنى هذا أن سقراط يحبذ الانتحار كوسيلة للخلاص . فإنه يقول إننا ملك للالهة . فلا يحق لنا أن ننتحر ، وإنما يجب علينا أن ننتظر القضاء دون هلع أو فزع فإن الخوف من الموت لا يليق بالفيلسوف . بل هو مدعاه إلى السخرية منه . وذلك لأن الرجل الذى يحنق حينما تدنو ساعة الموت رجل لا يحب الحكمة . لكنه يحب جسده وماله . (١)

(١) د / محمود قاسم : فى النفس والعقل ص ٣٠ – ٣١ .

وكما أثار الموت الفلاسفة قديما وكذلك الأدباء فى القديم والحديث أثار أدباء المهجر الذين نحو فى مواقفهم منحى تأمليا فلسفيا متأثرين بأقوال الفلاسفة والحركة الأدبية فى أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث سادت نزعة الهروب من الحياة وفى مقدمة هؤلاء " بودلير " ١٨٢١ – ١٨٦٧ " الذى يقول " العالم ممل وصغير . اليوم وأمس وغدا " وفى ديوانه " أزهار الشر قصيدة بعنوان الرحلة " وهى دليل أكيد على ذلك " انها تجرب كل محاولات الخلاص لكى تصمم فى النهاية على الموت . أما ما يجلبه الموت فهو شىء لا ندريه فالمهم هو السفر فى حد ذاته ، وأما الشاطىء المجهول فلا أهمية له " (١) .

واختلف أدباء المهجر فى الموقف من الموت . هل هو بداية الخلود ؟ أم أنه ينشل الإنسان من صـراع عـالمه المادى ، ويخلصه من قيوده أم أنه يحرم الإنسان من سعادته الأبدية فى حياته ، وتهب رياحه الخريفية على شجرة الحياة فتقلع جذورها وتطيح بما عليها من أوراق وغصون وثمار .

وهل الموت موت الروح والجسد أم موت الجسد فقط ؟ وهل هناك بعث يؤمنون به ؟ أم هم ماديون؟

ذلك ماسأحاول توضيحه إن شاء الله .

.... فنسيب عريضه :

يرى أن الموت خير من قيود الأغلال والجمود فى مكان محدد والاختباء فى الثلوج يقول:

فـقـم بنـا يـاسمـيـر نـفـسـى ... نقفوا الأمـانـى الـى الكـمـال
قـم واتـرك الجسـم حيـث يبلـى ... فـالمـوت خيـر مـن الجمـود

والموت عنده هو النهاية الحتمية للحياة . مهما حاول المفكرون والفلاسفة فلا داعى للتزاحم والضجيج والتكالب على تفاهات الحياة .

ويهرب الشاعر من حقيقة الحياة المرة إلى السكر ويغيب فى عالم الرؤى يقول فى قصيدته " رباعيات :

شـربـت كأسـى أمـام نفسـى ... وقـلـت يانـفـسـى ما المـرام
حيـاة شـك ومـوت شـك ... فلـنـغـمـر الشـك بالمـدام

(١) د / عبد الغفار مكاوى . ثورة الشعر الحديث ص ٨٦ .

لا يـــأس لـيـــس الــحـيـــاة الا — مــرحـلـــة بـدؤهـــا خـتـــام

ويقول لطبيبه : ويعبر بذلك عن عقيدته فى الموت بصورة فنية .

فقلـت ياصـاح جـف زيتـى — فـبـاطـــلا تـجـبـر الـســـراج

إذا خبـا النـــور فـــى الـــدرارى — فمـــا تـــرى ينـفـــع الزجـــاج ؟

جفاف الزيت هنا رمز فنى للانتهاء . ولا جدوى من محاولة استرجاع الحياة فنور النفس قد هرب من الجسم . فعاد الجسم كزجاج المصباح هل تراه يضىء ويبين الشاعر سر المأساة وأنه ربما يموت الإنسان حيا إذا مات قلبه فالناس يمشون وقبورهم فى داخلهم . والدمع دمع البكاء والألم .

يمشـون والـرمـس فـى حشاهـم — والـــدم يـجـــرى مـــن الـنـــدوب

ماميتـهـم يعظـمـون قـــدرا — بـــل ديـــة المـيـــت فى الجيـــوب (١)

وبذل الشاعر كل شىء فى سبيل التعرف إلى شىء واحد . ترى ماهو ؟ لم يعرف حتى ما هو ذلك الشىء . وعاد حائرا فى آفاق اللاشىء يجهل حتى مصيره المحتوم .

* *

ومنهم من كان يتمنى الموت هروبا من الحياة التى تضج من حوله . وأفسد زمامه كل طريق مثل " قيصر سليم الخورى " الذى يقول :

لـــم أدْن مـــن سبـب أمـد لـه يــدى — متنــــاولا إلا وأبـعـــده القـضـــا

يـا مـانعى اللـذات جُدْ بـالـذهـــا — وامنـــع فـــؤادى مـــرة أن ينبضـــا

مـــاذا أرجـــى أن ألاقـــى فـــى غـــد — غيـــر الـــذى لاقيتـــه فيمـــا مضـــى

تبـالعيـــش لا تـــرى نفســى بـــه — لـــولا خطـــوط الشيب شيبا أبيضـــا

... ومنهم من كان يخاف الموت حرصا على بهجة الحياة ، ورغبة فى التزود من مفاتنها مثل زكى قنصل الذى يقارن بين نفسه وبين الدوحة التى تساقطت أغصانها ولا شك أنها نظرة تحن للحياة وتكره الموت يقول :

---

(١) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ٨٣ - ٨٦ .

أكذا ستسلبنا الشباب يد الليالى الجائره
وتبعثر الأيام آمال الشباب الزاهره
وتعيث فى أحلامه الغر الفواتن ساحره
أكذا ستحرمنا النضارة والأمانى الساحره

* * *

ومنهم من كان يرى الموت محررا من القيود والأسر فى قفص الدنيا الضيق ولا شك أن هذا الموقف يتمشى مع موقف فوزى من الحياة الرافض لها دائما يقول :

ما وليد الآلام غير أسير ... والردى وحده يحرر أسره
ضاقت الأرض فى الحياة عليه ... وكفته فى الموت أضيق حفره

ويقول مؤكدا نظرته هذه إلى الموت . فهو المعتق وهو الموثق :

والآن ياموت إلى اقترب ... ياحبذا بالموثق المعتق
معتق نفسى من قيود الأسى ... موثق جسمى فى المدى الضيق

وتغير إحساس فوزى فجأة حينما تلوح له أطياف الحب . فيرجو الموت أن يقف بل يأمر الموت أن يشفق على قلبه :

الحب ؟ قف ياموت واشفق على ... قلبى ودعه لحظة يخفق
لى بغية . قبل الردى ليتها ... تمت فلم آسف ولم أفرق
وتلك أن المح محبوبتى ... فنحن بعد اليوم لن نلتقى

وفى غياب الحب يصل كره " فوزى " للحياة إلى مرحلة يحبذ فيها الانتحار بل ويدعو إليه وقصيدة المنتحر بطاقة دعوة إلى ذلك يقول :

كبرى ياقبور جاءك ضيف ... هو غير الأحياء فى أطواره
كم توارى القبور حيا وكم يمـ ... ـشى على الأرض ميت لم تواره
يذهب الناس مرغمين الى القبـ ... ـر وقد جاءه بملء اختياره
شاعر لا يرى الحياة سوى ليـ ... ـل بهيم والموت من أسحاره (١)

---
(١) أنظر كتاب فوزى المعلوف : شاعر البعد والوجد .

وفى هذه القصيدة يتوسل الشاعر الوزن الخفيف وهو وزنه المأثور " فى بساط الريح وشعلة العذاب وكثير من قصائده " يشحنه بالنغم المأساوى الحالك السواد وتراه يعزف على قيثارته كل وحشة . أما المعانى الظاهرة التى يسوقها فيه فترد موشحة بجلباب القنوط ، يحتضنها النغم . ويبعثها على إيقاع جنائزى يضاعف من وقعها .

ويبدو أن المعاناة العدمية هى معاناة خالقة فى شعر فوزى ، أبصر بها الحياة ليلا والموت صبحا .

وتمثيل الموت بهيكل رهيب ، يقوم الهول على خدمته والصلاة فيه وهى مما لا يتيسر إلا للفكر المبدع .

والموت عند " رشيد أيوب " نهاية كل شىء ونسيان كل شىء . وهو فى الوقت نفسه بداية لرفع الحجاب الذى قنع الحقيقة بألف قناع . وهو يجهل مصيره بعد الموت :

دنــت المنيــة وانقـضـــى عمـــــرى ونسيــت ما قــد كـــان مـــن أمـــــرى
مـــــاذا إذا رفـــع الحجــاب غـــدا ألقـــى وقـــد أصبحـت فـــى القبـــــر

وعند نعمه الحاج :تتبدل القيم ويبلغ قمة التشاؤم والفلسفة حين يعيش الميلاد موتا والموت ميلادا . وهو يلتقى فى هذه النظرة مع فوزى المعلوف الذى أبصر الحياة ليلا ، والموت صبحا يقول متبرما بالحياة :

لـــو كـــــــان أمـــرى فى يـــــــدى لـــــوددت أن لـــــــم أولـــــــــد
فـــولادتـــــى بـــــدء الـمـمـــــــا ت ويـــــوم مـــوتـــى مـــــــــولـدى

والموت كان قضية شفيق معلوف الأساسية التى من أجلها رفض الحياة وهو فى مطلع حياته وعلى دعائمها بنى فلسفته فيها .

وهو ينقم على الحياة بدافع من نقمته على الموت ولكنه فى الوقت نفسه يتحرق شوقا للخلود ، وهو يتمنى الموت مكفنا بأنوار القمر .

وفى ملحمته " الأحلام " يخصص حلما بعنوان " قبر الشاعر " . يتحدث فيه عن هدوئه " بعد العاصفة " ثم يسترجع ذكريات الفردوس . ثم يتأمل فى وجوده ويرى نفسه قطرة ذائبة فى محيط الكون وذلك فى نشيد بعنوان " أشباح وصخور " وبين دخان النار يلقى بهمومه ويتحدث عن الموت فيقول :

هـو المـوت أو رثـيـه جـدودى ... فـلا زمنـى مقـلـقـا مرقـدى
يـدب بمنسمه فـيـطـيـر ... شعـاع الأضـالـع والأكبـد
ويغتـال نفسـا فيخفـق منـهـا ... أمـانـى تقضـى بلا موعـد

والحياة والموت عند الشاعر متوازيان ولكن الموت يقضى بحقيقته المفجعة على بهجة الحياة فالطبيعة نفسها يود الشاعر إشراكها فى مأتم الحياة يقول فى نشيده " أنشـودة النزع ".

ألا لـيـت أنـواره كـفـنـت ... بـقـايـاى مـن شبحـى العـابـر
لأدفـن بـيـن زهـور الريـاض ... علـى ضفـة النـهـر الـزاخـر
يجـدد ربـى فـى كـل عـام ... نـضـارة مدفنـى الـزاهـر

وكانت هذه النظرة المتشائمة أحيانا ، والمبالغة فى بشاعة الموت أحيانا أخرى فى بداية عهد الشاعر بالحياة والتعامل معها ، فقد كتب " مطولته " الأحلام سنة ١٩٢٣ ولكن بعد مرور الأعوام . واختمار تجارب الشاعر . وتنامى طاقاته الشعرية والفكرية رأيناه فى كتابه " ستائر الهودج " يناجى زوجته التى رحلت مناجاة تشبه أن تكون صوتا روحانيا صافيا . وفى ذلك الصوت نغمة عذبه ترى أن الإنسان يعتق بالموت من قيود المادة . ويقطف النجوم والأسرار . وتتغير المتع الحسية إلى متع روحية وما أشهى حديثه لزوجته وهى فى العالم الآخر .

جـفـنـاك تـلاقيـا لغيـر فـراق
صـرت أقـرب الـى تقطيـف النجـوم منـك
يـوم كـنـت عـلـى الأرض
ذكراك متعة لروحى ، وهى ترافقنى فـى يقظتـى
ما أشوقنى الى رؤيتك فى الحلم ولكننى منذ فارقتنى
فـارقـتـنى أحـلامـى (١)

* *

ويرى "جبران" أن الموت شفاء من جنون الحياة والأفكار. يقول من قصيدته " بالأمس ":

---

(١) شفيق المعلوف : ستائر الهودج ص ١٤٣ .

تلك حالي . فإذا قالت رحيل   ما عسى حل به ؟ قولوا : الجنون
وإذا قالت أيشفى ويزول   مابه ؟ قولوا ستشفيه المنون

وهو ينظر للموت بعقل المفكر . فهو لا يتمناه مثل فوزى المعلوف ، ولا يخشاه مثل غيره من الشعراء وغيرهم .

ولكنه يقف منه تبعا لنوعية الناس . فالموت نهاية للمثقل بأوزار المادة أما الذى تشبع بنسائم الروح وخفت عناصره فالموت انعتاق له . وبدء لقصته الخالدة فى العالم الأبدى يقول فى "مواكبه"

والموت فى الأرض لابن الأرض خاتمة   وللأثيرى فهو البدء والظفر

ويقول :

فالموت كالبحر ، من خفت عناصره   يجتازه وأخو الأثقال ينحدر

ويفر جبران إلى الغابات حيث عالمه المثالى الذى تتلاشى فيه المسافات وتتداعى فيه الخيالات والرؤى . فهناك يفقد الموت طعمه ولونه

ليس فى الغابات موت   لا ولا فيها القبوز
فإذا نيسان ولى   لم يمت معه الشرور
ان هول الموت وهم   ينثنى طىّ الصدور

ويرد ذكر الموت كثيرا فى كتابات جبران . ومعتقده فى الموت لا ينفصل عن معتقده فى خلود النفس . وإيمانه بالغاب وجها صادقا للحياة وفى كتاب النبى " تقول له " الميترا "

نود أن تحدثنا الآن عن الموت .. فقال لها .. إنكم تريدون أن تعرفوا أسرار الموت ولكن كيف تجدونها إن لم تسعوا اليها فى قلب الحياة .

وهل موت الإنسان ، سوى تحرير النفس من مده وجزره المتواصل ، لكى يستطيع أن ينهض من سجنه ويحلق فى الفضاء ساعيا إلى خالقه من غير قيد ولا تعويق ؟ (١)

والرؤية المأساوية للحياة واعتبار الموت هو المخلص من الواقع " الكابوس " والسجن

---
(١) جبران : النبى ص ٩١ – ٩٢ .

الخانق " هو موقف الرومانسيين " دائما . فالموت وسيلتهم الوحيدة للعثور على الجديد وماهو هذا الجديد ؟ هو شيء غير محدد هو الضد الأجوف الفارغ للواقع الموحش وعلى قمة هذه المثالية . يتربع الموت . المملوء بالعدم والفراغ .

أليست أقوال الشعراء والأدباء السابقة تقترب من قول بودلير .

يامـوت ! أيها الملاح العجـوز آن الأوان فارفع المرسـاة !
مللنـا المقـام هنـا ، يامـوت فـعجـل بالـرواح
إن يكـن قـد ادلهـم سـواد البحـر والسمـاء
فإن قلوبنـا التـي تعرفهـا يفيض منها الضيـاء (١)

* *

وجورج صيدح " يفتح ذراعيه للموت . ويقف مرحبا بمقدمه بل ويدعو الناس إلى لقائه ... ولكن نلمح أن موقفه من الموت لا يبنيه على أساس فكرى معين أو فلسفة لها أبعادها ودلالاتها المحددة . ولكنه يدعو إلى نبذ العيش والترحيب بالمنون على طريقة الوعظ فى أسلوب خطابى يقول :

أيهـا الواجـف مـن طيـف الممـات	ينشـد الغبطـة فـى طـول البقـاء
ليـس لـولا المـوت فـى الكون حيـاة	فتـوجـه صامتـا نحـو السكـون
ان فـى طـول البقـا طـول الشقـا	فانبـذ العيـش ورحـب بالمنـون

وإيليا أبو ماضى ينظر للموت من خلال رؤية اجتماعية فهو الذى ينادى بالمساواة فى قصائده الطين ، الحجر الصغير " نراه يعد الموت ميدانا للمساواة بين البشر ومن خلال قصته الشعرية " الشاعر والسلطان الجائر يوضح هذا الرأى فى تجربة شعرية موفقة ، فبعد الحوار بين الشاعر والملك حيث دحض الشاعر افتراءات الملك وادعاءاته التى افتخر فيها بالرياض الغن ، والبحر العميق ، والجيش الجرار ، والقصر والغابات والناس حتى ادعى أنه إله هذا الكون . وبيّن له الشاعر سخرية هذه المظاهر الكونية من الملك .

ويصدر الملك حكمه بالإعدام على الشاعر . ويموت الملك بعد ذلك ويلتقى الوجهان وجه الحق ووجه الطغيان . ويبرز الشاعر حينئذ موقفه من الموت .

---

(١) د / عبد الغفار مكاوى ثورة الشعر الحديث ص ٧٦ .

فـى حـومـة المـوت وظـل البلـى ... قـد التقـى السلطـان والشـاعـر
هـذا بـلا مجـد وهـذا بـلا ... ذل فـلا بـاغ ولا ثـائـر
عانقـت الأسمـال تلك الحلـى ... واصطحـب المقهـور والقاهـر (١)

والموت حين يكون ميدان المساواة فهو لا يفرق بين أحد ، إنه عصف بالجميع إنه عاصفة .. ذهبت بمن صلحوا ومن فسدوا . ومضت بمن تعسوا ومن سعدوا :

وبمـن أذاب الحـب مهجتـه ... وبمـن تاكـل قلبـه الحسـد
وطـوت ملـوكا مالهم عـدد ... فكأنهـم فـى الأرض ماوجـدوا (٢)

وتتسرب إلى نفس إيليا " رهبة الموت " وربما الشك فى حقيقته يقول من قصيدته الدمعة الخرساء . وفيها يخاطب زوجته " دوروثى " شريكة حياته . يقول :

أكـذا نمـوت وتنقضـى أحلامنـا ... فـى لحظـة وإلـى التـراب نصيـر
وتمـوج ديـدان الثـرى فى أكبـد ... كانـت تمـوج بهـا المنى وتمـور (٣)

ولكنه فى المرحلة الأخيرة من حياته يقر بهذه الحقيقة إقرارا لا شك فيه ولا خوف وديوانه " تبر وتراب " يمثل المرحلة الخامسة فى نتاجه الفنى .

وفى قصيدته " موكب التراب " نعثر على هذه الحقيقة . حين يخاطب الريح الشديدة التى أثارت الغبار وعقدته فى الفضاء كالسرادق .

مـن أيـن جئـت ؟ وكيـف عجت ببابـى ؟ ... يا مـوكـب الأجيـال والأحـقـاب
أمـن القبـور ؟ فكيـف من حلوا بهـا ... أهنـاك ذو ألـم وذو تطـراب ؟
ولهـم صبـابـات لنـا ؟ أم غـربوا ... فـى بلقـع مافيـه غيـر خـراب ؟

ثم يتخيل أنه رأى فى هذه الريح المتكاثفة . الشبيبة والكهولة ، والأحلام . والشاربين بكل كأس ، والظامئين ، والمدافعين والمستسلمين ، والغواة والمبتدعين ، والحسان والدميمات ،

---

(١) أبو ماضى : الخمائل ص ٩٠ .
(٢) السابق ص ١٠ .
(٣) السابق ص ١١ .

والعاشقين ، والعبيد والملوك .

يقول عن هؤلاء جميعا :

أبـــوا جميعــــا فـــى طـريق واحـــد الخاســـر المسبـــىّ مثــل السابـــى

ثم يسخر من نفسه الحريصة على عهد الصبا قائلا :

فضحكت من حرصـى على ملك الصبـــا وعجبـت كيـف مضـى عليـه شبابـــى

ويقر بالحقيقة فى طمأنينة غريبة عنها تلك اللهفة القديمة والرهبة من الموت وأوهام التناسخ . وتقمص الزهر والغدير وتخيل العودة بصورة أخرى كما كان يمنى زوجته فى قصيدته " الدمعة الخرساء " ويقول فى " موكب التراب مخاطبا الريح " :

ووقعـــت أنـــت علـــى تـــراب ضاحـــك لمـــا وقعـــت علـــى فــــى جلبابـــى
وكـــذاك أشـــواق التـــراب مآلهـــا ولئـــن تقـــادم عهدهـــا لتـــراب (١)

لكننا نحس بنبرة الحزن الخفية تغلف الكلمات . فقوله " التراب الضاحك " يشبه رقصة المذبوح ، إنه عرف الحقيقة ولم يعد هناك دور للمقاومة وإلا كانت جنونا !! والقافية المكسورة توحى بهذه النبرة الحزينة المفعمة بالأسى ، وألف المد ثم الباء فى القافية يومىء إلى طول المعاناة الدفينة . ألسنا نشعر هناعندما ننشد هذا الشعر إنشادا سليما بأن أنفاسنا تكاد تنقطع فالألف الممدودة تمثل صحوة الموت والباء المكسورة تمثل رقدة الموت الأخيرة . وهذه المعانى تتجسد فى البيت الأخير :

وكـــذاك أشـــواق التـــراب مآلهـــا ولئـــن تـقـــادم عهدهـــا لتـــراب

والأستاذ " جورج ديمترى سليم " . قام بإحصاء كمى " لمادة " موت " وش ك ك " للوقوف على موقف أبى ماضى من اليقين بالموت أو الشك فيه . وانتهى إلى ما انتهيت إليه سابقا وأثبت هنا ما توصل إليه بطريقته . فطريقة التحليل الإحصائى الكمى " هذه فى الدراسات الأدبية اتجاه علمى حديث يهدف إلى دعم هذه الدراسات باستخلاص الحقائق من النصوص الأدبية موضوعيا ، وقياسها رقميا .

(١) أبو ماضى : تبر وتراب ص ٢٤ – ٢٨ .

وبعد أن قسم مراحل تفكير أبى ماضى إلى خمس مراحل حسب ظهور دواوينه

(١) تذكار الماضى	(٢) الجزء الثانى	(٣) الجداول	(٤) الخمائل	(٥) تبر وتراب
١٩١١	١٩١٩	١٩٢٧	١٩٤٠	١٩٥٧

ووصل إلى النتائج التالية :

(أ) تكررت كلمة " شكوك " خمس مرات فى دواوين أبى ماضى الخمسة المعروفة منها ثلاث فى ديوان " الخمائل " وهذه كلها فى قصيدة " الدمعة الخرساء " .

(ب) يتأرجح الشك عند الشاعر صعودا وهبوطا على التوالى فهو أشد فى المرحلتين ٢ ، ٤، منه فى المرحلتين ١ ،٣ ثم انه أشد فى المرحلة ٢ منه فى المرحلة ٤

(جـ) ينعدم الشك كلية فى المرحلة الأخيرة ، ثم يقول : فإذا قارنا كميا " الشك عند أبى ماضى ب " الموت " عنده وجدنا أن فكرة الشك ترتبط ارتباطا وثيقا بفكرة الموت بل هى صورة حقيقية لها . وأثبت :

أ - أن فكرة الموت لازمت الشاعر طول حياته .

ب - أنها تسلطت عليه أكثر فى المرحلتين ٢ ، ٤ منها فى المراحل ١ ، ٣ ، ٥ .

جـ - أنها فى المرحلة ٢ أشد منها فى المرحلة (٤) .

د - أنها فى المرحلة الأخيرة تقف منفردة لا يقابلها " شك " (١) .

والعديد من قصائده يفسر النتائج السابقة .. فالموت أمامه يتخيله فى ظواهر كثيرة فبهجة الطبيعة يقتلها شبح الفأس ونشوة الكأس تفنيها حطمة الكأس .

ويلتقى مع فوزى المعلوف فى تحبيذه الانتحار لأن هذه نفسه وهو حر فيها وذلك معتقد لا يقيم الحياة على أساس سوى . فالانتحار هروب من مواجهة الحياة وضعف أمام المسئوليات الجسام .

وديوانه الجداول يمثل المرحلة الثالثة من مراحل تفكيره . وفيه الطلاسم ملحمة الشك

(١) چورج ديمترى سليم : أبو ماضى : دراسات عنه وأشعاره المجهولة ٢٨ - ٢٩ .

الكبرى . والشك لا يرتبط بالألفاظ دائما كما حاول الباحث السابق . بل ربما تأتي قصيدة خالية من كلمة " شك وكلها شكوك في شكوك " وتبدو هذه الظاهرة حينما يتحدث أبو ماضي عن فلسفة الموت في تساؤلات متلاحقة تعبر عن حيرته الشديدة يقول :

إن يـك المـوت قصـاصـا   أي ذنـب للطـهـارة
وإذا كـان ثـوابـا   أي فـضـل للـدعـارة
وإذا كـان ومـا فـيـ   ـه جـزاء وخـسـارة
فلـم الأسمـاء إثـم وصـلاح   لسـت أدري

ويشغله مابعد الموت ويتساءل كيف يبعث ؟ وهل يعرف بعد الموت ذاته ؟ " وكيف يمكن أن يدرك السر وقد فقد رشده ؟ مع أنه لم يعرفه وهو في حالة الإدراك أن عقله ينفي ذلك . (١)

ويقول :

إن أكـن أبعث بعد المـوت جثمـانـا وعقـلا
أترى أبعث بعضا ؟ أم ترى أبعـث كـلا ؟
أترى أبعث طفلا ؟ أم ترى أبعث كهـلا ؟
ثم هل أعرف بعد الموت ذاتي ؟ لست أدري

* *

ياصديقـي لا تعللنـي بتمزيـق الستـور
بعـدما مأقضـي فعقلي لا يبالي بالقشـور
إن أكن في حالة الإدراك لا أدري مصيـري
كيف أدري بعد ماأفقد رشدي ؟ لست أدري(٢)

وهو قبل ذلك في ربيع ١٩٢٣ . أقر بجهله هذا بصورة مباشرة في مقالته التي كتبها إثر وفاة أخته الوحيدة " جني " بعد ولادتها الأولى فقال :

أنا لاأعرف مابعد الموت ، وربما كان ليس لي أن أعرف . ذلك سر خفي ذلك هو اللغز الأكبر . ولكني أعرف أن في العالم فكرتين ساريتين يعول عليهما الناس . وفي كلتيهما تعزية

---

(١) د / حسن جاد : الأدب العربي في المهجر ص ٢١٥ .

(٢) أبو ماضي : الجداول ص ١٠٩ .

للروح الكئيبة مثل روحى .

الأولى : فكرة المؤمنين بالبعث والمعاد ، القائلين ان بعد هذه الحياة حياة أخرى ، أبهى وأجمل ، وأسمى وأكمل ، وأن الموت هو الجسر الذى يعبر عليه الناس إلى تلك الحياة .

والفكرة الثانية : هى فكرة الفلاسفة الذين يثبتون لإخوانهم البشر أن الإنسان مادة ، وأن المادة لاتفنى ، وأن مايكون اليوم لا يكون غدا ، هو كائن موجود ولكن فى شكل غير شكله الأول .

ويخاطب أخته قائلا : فأنا على الاعتقاد الأول ، أغبطك لأنك عبرت ذلك الجسر إلى الحياة التى لا حزن فيها ولا غم ، وسأظل أسقى شجرة الأمل فى نفسى إلى أن تنطلق من قفصها الترابى ، فتلتقى روحى وروحك ، حيث لا تحذران الفراق .

وأنا على اعتقاد القائلين بتحول المادة وخلودها ، وسأظل مؤمنا بوجودك إيمانى بوجودى ، ولا أرى فى التحول بأسا عليك . فأنت لا تصيرين إلا إلى حسن جميل لانك كنت وما تحبين إلا الحسن الجميل ، ومافيك إلا الجميل الحسن "(١)

وفى مراثيه تبدو عقيدته المؤمنة بالبعث فى المرحلة الأخيرة من حياته كما كانت فى المرحلة الأولى . والقصائد فى ديوان تبر وتراب وهى :

الشاعر (١٦٩-١٧٣) فى رثاء خليل مطران
مازال فى الأرض حيا (١٧٤-١٧٧) فى رثاء أمين الريحانى
ياقائد القوم (١٧٨-١٨١) فى رثاء د/ رزق حداد
ليتهم عرفوه " ١٨٢-١٨٨ " فى رثاء يعقوب روفائيل صاحب مجلسه الاخلاق
سكت الشادى وبح الوتر (١٨٩-١٩٣) فى رثاء ندرة حداد
لم يهدم الموت إلا هيكل الطين "١٩٤-١٩٧" فى رثاء نسيب عريضه .

" ريح الردى " ولم يحدد الشاعر من رثاه فى هذه القصيدة . ومع إيمانى بأن الرثاء تؤثر فى أفكاره المجاملات تأثيرا يضر بالفكرة نفسها فى أغلب المواقف . إلا أننى لاحظت أن الخط

---

(١) جورج ديمترى سليم : أبو ماضى دراسات عنه وأشعاره المجهولة .

الفكرى لأبى ماضى فى هذه القصائد هو إيمانه بالبعث واعتقاده بأن الموت حق . وأن الميت يكون بجوار الله الخالق المبدع . يقول :

إن الـــذى قـــد كان معكـم قـــد مضـــى ـــــن موضـــــع أدنـــى لأرفـــع موضـــع
مـــن عـــالـــم متكلـــف متصنـــــع تشقـــى نفـــوس فيـــه لـــم تتصنـــع
لـــلعـالـــم الأسمـــى الطهـــــور ومن مجاورة الأنـام الى جوار المبـدع (١)

ويقول فى رثاء حداد وقد مات فى مأتم عرس :

شاعـــر أعجـــب معنـــى صاغـــه للبـــرايـــــا .. موتـــه المبتكـــــــر
يارفيقـــى ما بلغـــت المنتهـــــى ليســـت الحـــد الأخيـــر الحفـــــر
كـلنـــا منتـظـــر ساعتــــــه والمصيـــر الحـــق مانـنتظـــــر (٢)

ومنهم من كان ينظر للموت فى خشية ورهبة يرونه ضروريا ومنقذا من مأسى الحياة ومن هؤلاء الأدباء الشاعر رياض المعلوف .

والموت قليل الأصداء فى أشعاره فقلما نعثر على هذه المادة " م و ت " اللهم إلا فى ديوانه " الأوتار المتقطعة " واعتقد أن الشاعر قابل الحياة بهذا التشاؤم المفرط نتيجة لظروف آنية . وهو بعد ذلك مقبل على الحياة ، فرح بها ، ودواوينه زورق الغياب : خيالات . غمائم الخريف " شاهد إثبات على ذلك " .

وقد حدثنى برأيه فى الموت . وهل هو النهاية أم المعبر ؟ فى رسالة قال فيها الموت لا غرو أنه شىء مخيف ، ! ولكننا نراه أحيانا ضروريا ومنقذا لمأسى الحياة ورحم الله أخى فوزى المعلوف القائل :

مـــن يمـــت ألـــف مـــرة كـــل يـــوم وهـــو حـــى يستهـــون المـوت مـــرة

وإذا لابد من الموت فلماذا نخشاه ؟ ونجبن تجاهه .

ألم يقل الشاعر ؟ وإذا لم يكن من الموت بد " فمن العجز أن تموت جبانا أما الموت وفلسفته فأى فلسفة تصلح فيه ؟

---

(١) أبو ماضى : تبر وتراب ص ١٨٨ .
(٢) السابق .

هذا الذى يحصد الأرواح بمنجله الدامى ! .. ومهما تفلسف الفلاسفة . فانهم ماتوا ويموتون دون أن يسبروا غور سره وبه نهاية الحياة لا أكثر ولا أقل . والله أعلم بما وراء اللانهاية ، ونهايتها المفجعة .. المروعة ومن الناس من يعد الموت معبرا إلى حياة جديدة فبالله من عاد إلينا من عالم الموت ليخبرنا عن هذه الحياة التى هى ماوراء الموت .

ونحن نتغلب على الموت بآثارنا التى تدل علينا ونخلد . وفيما يلى هذان البيتان من الشعر لأخى فوزى وهى ماقبل الموت والخلود .

إيـه يامـوت لـن تـمس خلـودى فاقـض ماشئـت لست وحدك تقضـى

فـأنـا خالـد بشعـرى علـى رغـم زمـان عن قيمـة الشعـر يغضـى

" رياض المعلوف – زحلة لبنان ١٢/١٣/١٩٧٧م "

* * *

ومن أدباء المهجر من كان ينظر إلى الموت على أنه ولادة جديدة . وذلك إيمانا بهم بعقيدة التناسخ : وفى مقدمة هؤلاء . ميخائيل نعيمه .

وقد تحدث كثيرا عن معتقده هذه فى قصصه ، وأشعاره ، ومقالاته .

ففى قصة " لقاء " يؤكد هذه العقيدة الهندية القديمة (تناسخ الأرواح) " التى تؤمن بأن الأرواح لا تخرج من الأرض بل تظل تنتقل على مدار الزمان من جسم إلى جسم ساعية فى كل ولادة جديدة إلى تحقيق مايمكن من الكمال الإنسانى .

وهذه العقيدة الشرقية القديمة ليست فى الحقيقة سوى رمز لحب البقاء الذى تطمح إليه الإنسانية ، فليس من السهل أن يتصور الإنسان أنه بالموت يفنى ويتلاشى ولذلك جاءت الكتب تمنيه بحياة أخرى خالدة لاموت فيها .

أما عقيدة التناسخ فتمنيه بأنه لا يموت بموت جسده بل يعود إلى الظهور فى جسد آخر ليحقق فى حياته الجديدة مافات تحقيقه فى حياته السابقة . (١)

وفى كتاب " مذكرات الأرقش " يتحدث عن الموت فى حوار شائق بين الأرقش والموت

---

(١) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ١٥٧ .

وذلك بعد أن جاءت للأرقش رسالة من سنحاريب يقول له فيها " اكتب وصيتك " وتأخذ ما يقرب من سبع صفحات من ٢٥ – ٥٨ .

ويرى نعيمه فى هذه القصة أن الموت طريق الاكتمال ، والأرواح لاتموت ، والحوار الآتى يوضح هذا المعتقد .

الأرقـش : وماهو شغلك أيها الموت ؟

المــوت : أن أكمل الناقصين ؟

الأرقش : وإذا اكتمل الكل ؟

المـوت : مات الموت ، ولكن الكل لن يكتملوا دفعة واحدة .

ثم يقول له :

أما الأجساد فلابد من موتها لأنها فى حاجة إلى الغذاء ، وما كان فى حاجة إلى الغذاء كان لامندوحة له عن أن يتغذى بغيره ، ويتغذى غيره به ، ولولا الموت لضاقت الأرض والسماء بما تنسلان ، وأما الأرواح فغذاؤها الأرواح وهى لاحجم لها ولا قياس ، فلا الأرض تضيق بها ولا السماء . (١) والموت حينئذ ليس إلا جسرا يصل مابين حياتين :

" فالموت ليس إلا محطة من محطات عمر يمتد من الأزل إلى الأبد ، وعن عقيدة التناسخ يفصح نعيمه حين يخاطب الأرقش نفسه .

" وستشحذ غفوة الموت قابليتك على الاستمتاع بالوجود فتستفيق منها وبك نهم جديد إلى حياة جديدة مثلما تستفيق من غفوة ليلتك وبك اشتياق الى النهار الآتى (٢) .

وفى كتاب " زاد المعاد " يتطور هذا المعتقد حين يتخيل نعيمه أن الأجساد تتحول إلى أجساد أخرى أو تتحول إلى نبات وطير وحيوان ، وهو هنا ينفى عن الأجساد الموت المفهوم .

وقبل ذلك فى قصة الأرقش قال إن الأجساد لاتموت ، وقد كتب نعيمه " مذكرات الأرقش سنة ١٩١٧ .

---

(١) م . نعيمة مذكرات الأرقش ص ٥٣ ، ٥٥ .

(٢) السابق ص ٩٣ .

ولم ينشرها إلا سنة ١٩٤٩ .(١) وكتب مقالة الموت والحياة سنة ١٩٣٤ يقول نعيمه :

إنها لا أحجية أن تميت نبات الأرض وطيرها وحيوانها . لتحولها لحماً في جسدك ودماً وعظماً ، وأن تدعو موتها حياة .

وعندما تحول الأرض جسدك نباتاً وطيراً وحيواناً أن تدعو ذلك موتاً (٢) وفي مقالته " الانتحار " ينفى الموت وإنما هي حياة متغيرة ، والصخرة رمز لهذا الملك الذى يطوف بحياة الناس . فهى تمل حياتها الرتيبة . وإذا تغوص فى البحر ولا تموت ولكن ينبثق منها اللؤلؤ وبرغم ثراء هذه الحياة ملتها الصخرة . فانحسر الماء عنها ونبتت من بين ذراتها الأشجار وعادت أنضر من ذى قبل .. ولكنها ملت هذه الحياة أيضاً وحنت إلى الماء ثانية .

وما إن أتمت الصخرة الصلبة كلامها حتى هبط عليها من الفضاء الأعلى نيزك كبير فطحنها طحناً . مبدداً ذراتها فى الهواء ، ولما استقر المقام التفت إلى ما حواليه وقال " وطن جديد " وعمر جديد ، الا سبحانها حياة لاتطرحنى بيد الا لتتلقفنى بالأخرى " (٣)

وربما يرمز نعيمه إلى أن الإنسان سيظل فى حيرته الكونية وهو مرتبط بالهيكل المادى ولن ينعتق إلا إذا صار كائناً روحياً خالصاً . ولن يصل إلى هذه المستوى إلا بعد مراحل كثيرة من التحولات والتغيرات ويوضح نعيمه فى مقالته . بتفكير وبدون تفكير . (٤)

أن الذاكرة لاتموت . وذلك فى الحوار الذى يدور بين شخصيتين على طرفى نقيض : الأولى يمثلها : بوفريد " وهومفكر . يحلل الأمور بعمق والثانية يمثلها بوسعيد ، وهو سطحى لايتمعن فى أى شىء .

وبوفريد يقول " لبوسعيد " تمسك بالبهجة واحفرها فى ذاكرتك . فيقول :

بوسعيد ، وما نفعى من حفرها فى ذاكرتى . مادمت سأغدو وذاكرتى ، فى النهاية . طعاماً للدود ؟ .

بوفريد " الذاكرة لا تأكلها أى آكله . لا الدود ولا النار ، ولا التراب ولا أى قوة فى الأرض

---

(١) السابق ص ١٣٦ - ١٣٧ .
(٢) زاد المعاد ص ٨٨ .
(٣) م . نعيمه المراحل : ص ١٧٢ .
(٤) م . نعيمه : هوامش : ١٣١ - ١٤٠ .

أو فى السماء .

ويفسر نعيمه معتقده هذا فى كتابه " اليوم الأخير " حين يؤكد أن ما يلحق الإنسان من شقاء دنيوى هو عقاب له عن الآثام التى ارتكبها فى " حيوات سابقة " ويقول : لعل الذى راقنى من هذه الفكرة فى الدرجة الأولى ، هو أنها تقضى على رهبة الموت فتجعل منه خادما أمينا للحياة لاخصما لدودا لها ، ثم أنها تردها إلى " العدل " و " الحق " و" الحياة معناها " فما يصيبنى من لذة وألم هو حصاد ما أزرعه فى هذه الحياة ، وما زرعته فى حيوات سابقات من بذور صالحة أو صالحات (١).

وإذا كانت عقيدة " التناسخ " هى محور تفكير نعيمه وجبران ومن حذا حذوهما من المهجريين فلهم رأيهم الخاص ، وفلسفتهم المستقلة .

أما أن تفضل هذه الفلسفة على الفلسفة الإسلامية التى تقول بفناء الأجساد وانتظار الروح مقترنة بالجسد مرة أخرى فى العالم الآخر ، وبما فيه من بعث وثواب وعقاب ، وجنة ونار كما وضح القرآن الكريم ، فذلك مالا أقبله .

وبخاصة من ناقد مثل الأستاذ " الناعورى " حينما يفضل فى جرأة عقيدة التناسخ ويقول مرددا الكلام الذى احتج به نعيمه فى كتابه اليوم الأخير . يقول : وفى يقينى أن هذه العقيدة الساذجة أوقع فى النفس مما سواها ، لأن الإنسان يفضل أن يظل فى الوجود يرى ويسمع ويشم ، ويذوق ويمشى على أن تعيش روحه خالدة فى عالم آخر غير الأرض (٢) .

فهل ينكر " الناعورى " مشاهد الجنة والنار فى القرآن الكريم ؟ وهل غاب عن وعيه ووجدانه الصافى ، وعقليته المتفتحه ، تصوير القرآن ليوم البعث وبراهينه القوية فى كيفية إحياء الناس ؟

وهل نسى أو تناسى أو أنساه حب التفلسف التقليدى منهج الإسلام " الوسط " وأن الفلسفة القرآنية المستمدة من النبع الإلهى ، تسمو فوق فلسفة الماديين الذين يتنكرون للروح بل وتهزأ بهم .

وتنأى بنفسها أيضا عن عقيدة الهنود " الساذجة التى تحتقر الجسد ورغائبه المشروعة

(١) م . نعيمه : اليوم الأخير ص ١٠٦ .

(٢) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ١٥٧ .

إنها والحق أقول لا تنكر على الجسد متطلباته الضرورية التى بها يفيد ذاته والناس ولا يضرها ويضر الناس .

وهى لا تهيض جناح الروح . بل تمدها بالوسائل والمرغبات . وتمهد لها الآفاق لتصل مابين الأرض والسماء . وتجعلها فى قران أبدى مؤمن بقدرة الله المبدعة الخلاقة .

الفصل السابع

الحياة وإيقاعات التأمل المتداخلة

تمهيد :

الحياة هي المسرح الذي نمثل عليه جميعا مشاهد العمر ، والمشاهدون - لهذه المسرحية التي يسمونها - العمر - الحياة - يختلفون في حكمهم عليها وموقفهم منها .

فمنهم من ينظر إليها بعين حالمة . لايرى إلا مفاتنها ولا يسمع إلا أنغامها الشجية ولا يلمس إلا نعومتها السندسية ، ولا يحلم إلا برؤاها الفضية .

ومنهم من يغمض عينه عن نورها الوهاج ويشعر بظلامها الكئيب ولا ترى عينه إلا مشاهدها المأساوية والدرامية ، ولا تأسره سوى الكآبة .

ومنهم من لايأبه بها ، بل يتركها تسير كيفما تشاء قانعا راضيا بما قدر له ليس في كيانه ذرة من تمرد أو رفض . ولا يشعر لها بطعم معين سوى القنوع والاستسلام لجهامتها المفزعة .

ومنهم من ينظر إليها بعين ناقدة تخفي وراءها عقلا متمردا وقلبا ثائرا واعيا بمشكلاتها متوثبا إلى غد أفضل لاينوح عن ضعف ولا يفرح عن سذاجة ، لكن إذا ناح فمن أجل أن تشرق ضحكته وإذا فرح فمن أجل تجف دمعته إنه المتأمل لحياته والراصد لكل مافيها من مظاهر وقيم سلوكية واجتماعية .

* *

وحين أدرس موقف أدباء المهجر من الحياة . سأحاول إظهار مواقفهم من خلال هذه[٨٨]. النوافذ الأربع .. التفاؤل ، التشاؤم ، الاستسلام ، الرفض و التغيير وكذلك سأوضح نظرتهم إليها من حيث أنها خير كلها أو شر كلها أو مزيج من الإثنين

والتأمل هو التيار الذي يسري في كيان هذه المواقف ليجمعها تحت مظلة واحدة هي " التأمل في الحياة .

ولا ريب في أننا إذا أردنا أن نقسم مواقف الشعراء والأدباء المهجريين ستقابلنا صعوبة

كبيرة . وربما نتعثر فى الطريق . ولماذا ؟ .

لأن المهجريين كانت حياتهم مزيجا من التفاؤل والتشاؤم والاستسلام والتمرد والثورة . بحيث يصعب أن نفصلها عن بعضها . فهى كالشرنقة متكاثفة الخيوط عسيرة الانفصال .

وذلك لأن أدب المهجريين فى موقفهم من الحياة : يدور بين التفاؤل - والتشاؤم واليأس والأمل ، والرضا والسخط ، والضحك والبكاء ، إنه صراع بين الفكر والعاطفة . والعقل والقلب . فقد كانوا بين شد وجذب ، تتصارع أفكارهم وتتوزع مشاعرهم نوازع الشك واليقين . ولكن الألم المتشائم هو الأصل والقاعدة . وتفاؤلهم جاء ممزوجا بتشاؤمهم الأصيل . والمحزن أنه تفاؤل يحتضنه الأسى . ويلفه الألم الحزين . فهو ومضات تلوح من خلال الظلام . (١) ولكن د / مصطفى هدارة لايكاد يعثر على الجانب المضيء عندهم فيقول :

أما الجانب الإنسانى الآخر . الجانب الباسم الذى يفوح منه عبق الورود ويتندى بقرور البشر ، فنحن لانكاد نعثر عليه فى شعر المهجر . ونطلبه فلا نكاد نميزه (٢)

وأقول : أن هناك أدباء غلبت عليهم النظرة التفاؤلية للحياة بجانب نظرتهم التشاؤمية وهناك من يحتلون الجهة المضادة . حيث غلبت عليهم النظرة التشاؤمية والتفاؤل لديهم شعاع نحيل لاتكاد تلمسه الأعين وسط سحائب الألم القائم وهناك من أدلى بدلوه فى محيط الإصلاح الاجتماعى ، وبخاصة وهم يعبرون متكئين على فن القصه والأسطورة والملحمة والمقالة والخواطر الذاتية .

وهم فى اتجاههم هذا نراهم متأملين فى الحياة تأملا إيجابيا يدفعهم إلى إصلاحها والثورة على مواضعاتها الآسنة ومسلماتها الجامدة .

ومن أوائل أدباء المهجر الذين قاوموا دوافع الألم . وجدفوا ضد التيار - واندفعوا اندفاعا مبدعا إلى منابع التفاؤل " إيليا أبو ماضى " بينما تأرجح جبران - ونعيمه بين الشاطئين ، التفاؤل والتشاؤم . ومنوا نفسيهما بالخلود حتى يعوضا ما لحقا بهما من ألم فى الحياة .

ومن الذين غرقوا إلى أذنيهم فى التشاؤم " نسيب عريضة . وفوزى المعلوف وشفيق

(١) د / حسن جاد .. الأدب العربى فى المهجر ص ٢١٦ .
(٢) د / محمد مصطفى هداره : التجديد فى شعر المهجر ص ١١٤ .

المعلوف ، والياس فرحات . والأخير لون التشاؤم بالسخرية فجاء تشاؤمه ضربا من التمرد .

ومنهم من أقبل على الحياة فى شوق ونهم . وكان له دور اصلاحى . زكى قنصل والياس قنصل ورياض المعلوف .

والشاعر رياض المعلوف يقول ردا على سؤال وجهته إليه عن رأيه فى الحياة ونصيبها من أدبه " عشت حياتى على أكمل وجه . واستمتعت بها ما استطعت . وشربت كأس حلوها ومرها حتى الثمالة ! .. وكل ما كتبته .. ونظمته من شعر عشته حقا . حتى كدت أن أسكن أبيات شعرى ! وولجت الحياة حتى جزت صميمها وخبرت خيرها وشرها . وذلك تمثل فى أدبى وشعرى بوضوح وصدق ، وخير ماقاله الشاعر فى الحياة .

وان الحيـــــاه علـــــى خبثهـــــا لتحـــوى كثيـــرا من الطيبـــات (١)

وفى موقف المهجريين من الحياة تبدو الاتجاهات الآتية :

— ١ —

الحس الاجتماعى الواعى :

ويتمثل هذا الاتجاه فى نتاج أبى ماضى وفى قصص : ميخائيل نعيمة وجبران وشعر ونثر رياض المعلوف " (٢) وفى أشعار زكى قنصل وإلياس قنصل . وكذلك فى ثورة شفيق معلوف على المفاسد والمظالم التى تسود المجتمع البشرى . وفى كره فوزى المعلوف للعبودية التى تسيطر على الانسان وتجعله عبداً لمطامعة وأهوائه

... فايليا أبو ماضى ذاق حلاوة الحياة ومرارتها فغنى للألم كما غنى للذة ، وحفل شعره بتمجيد الحياة ، وتفقد مواطن البهجة فيها ، والنعى على المتشائمين والعابسين . كما حفل باليأس واحتقار كل لذة فى الحياة والإحساس بعبثية الوجود مادام كل شىء ينتهى إلى الفناء .

ومزاجه متراوح بين التفاؤل والتشاؤم . وقد تراوح بين الإقبال على الحياة والنفور منها ، وأراد فى كلا الحالين أن يفلسف موقفه منها . فيعطى مبررات للتشاؤم ومبـــررات للتفاؤل ، مما يدل على أنها نوبات مزاجية حادة كانت تعتريه نتيجة لظروف نفسيـــة معقـــدة . فقصيدته

(١) من رسالة بعث بها الشاعر إلى فى ١٣ / ١٢ / ١٩٧٧ م

(٢) فى الباب الثانى : الفصل الثانى : تكلمت عن الاتجاه الإجتماعى وهو متصل بهذا الفصل .

" المســـاء " التى يرمز بها إلى الفناء ومحاولة التغلب عليه . يخاطب فيها أمه " سلمى أبو ماضى " ومقالاته الحزينة كانت من وحى أخته " جنى " التى ماتت بعد عام من زواجها .

وقصيدته " الدمعة الخرساء " من وحى زوجته التى جزعت من شبح الموت فخاطبها فى هذه القصيدة خطاب الحبيب الفيلسوف الذى يحب إلى درجة الفناء فى المحبوب .

ولم يكن تشاؤمه أو تفاؤله نتيجة موقف فكرى صلب يمتد بجذوره فى أعماق البراهين العقلية الثابتة . وعذره أنه أقبل على الحياة بقلب الشاعر أولا : وعقل الفيلسوف ثانيا : وكان لايستطيع غير ذلك . ولو أنه حاول لفشل وخسرنا شاعريته الخصبة الفياضة بالرؤى المحببة .

والحس الإجتماعى المبكر فى ديوانه " تذكار الماضى " يتجلى بوضوح فهو يتحدث عن المرأة وعاداتها وطبيعتها . يصف وقوفها أمام المرآة . وتلهفها على " المودة " ويصورها مظلومة مساقة إلى رجل طاعن فى السن لاتحبه . (١) ويصورها وهى تلعب بعقل الرجل ويصف لحظة الضعف التى تمر بالرجل أمام المرأة فيقول :

يحـــارب الرجـــل الدنيـــا فيخضعها	ويفـــزغ الدهـــر مذعـــورا إذا غضبـــا
يرنـــو فتضطـــرب الأســـاد خائفـــة	فـــان رنـــت ذات حسن ظل مضطربا
فـــان تشـــأ أودعـــت احشـــاءه بردا	وان تشـــأ أودعـــت احشـــاءه لهبـــا
يشقـــى لتصبـــح ذات الحلـــى ناعمـة	ويحمـــل الهـــم عنهـــا راضيا طربا
فما الـــذى نفحتـــه الغانيـــات بـه	ســـوى العـــذاب الذى فى عينه عذبا (٢)

وهو يهاجم عباد الذهب ويبالغ فى تكالبهم على الدينار فيقول ساخرا :

إذا رأوا صـــورة الدينـــار بـــارزة	خـــروا سجـــودا إلـــى الأذقان كلهم
قد أقسمـــوا أنهـــم لايشركـــون به	بئس الإله وبئس القـــوم والقـــسم (٣)

ويصور الصراع بين الإنسان والدنيا فيقول :

---

(١) انظر ديوان : تذكار الماضى : القصائد التالية : المرأة والمرآة ، المودة ، شكوى فتاة ، الرجل والمرأة ، ذكرى وعبرة .

(٢) أبو ماضى : تذكار الماضى : ص ٤١ – ٤٢ .

(٣) السابق ص ٤٤ " الصحيح " الأذقان وليس الأذهان "

المــرء فـــى غفــــلاته وسبــــاته | والدهـــر كالرئبـــال فى وثباتــــه
يسعـــى ولايـــدرى إلـــى حيث الردى | وكـــذا الفـــراش يحـوم حول مماته
يلقـــى الضراغـــم غيـــر مكترث بهـــا | فـــإذا سطـــت ضـــربت على سطواته
مـــاقاتـــل البطـــل النجيـــد غضنفر | إن الغضنفـــر من عصـــى شهـــواته (١)

وهو لايظل غائبا عن أحداث الأمة ولكنه يشعر بآلامها وآمالها . فلا يترك مناسبة وطنيه إلا ويشترك فيها . ويرثى الأعلام من الرجال . مثل الإمام محمد عبده فيقول فى صدق وسماحة .

وضعـــوك فـــى بطـــن التراب وماعهدت | البحـــر قبـــلك فى الصفائح يذخـــر

ثم يقول له :

إنـــى لأعجـــب كيـــف يعلـــوك الثرى | أنـــى ثـــوى تحـــت الرغـــام النيـــر
أمسيـــت مستتـــرا بـــــه لكنمـــا | أثـــار جـــودك فـــوقه لاتستـــر
مـــرض النـــدى كما مرضت وكاد أن | يقضـــى مـــن اليأس الملم المعسر (٢)

ويرثى فقيد الوطنيه " مصطفى كامل " ويتحدث عن مصر والنيل والدستور العثمانى مما يؤكد أن الشاعر كان مندمجا فى المجتمع ولكن بطريقة مباشرة فتعابيره مازالت تستمد مفرداتها من المعجم التقليدى المعروف . فالآساد تخاف من نظرة الرجل وهو يضطرب من نظرة الحسناء .

والدهر كالرئبال ، والفراش يحوم حول مماته ، يلقى الضراغم ، البطل النجيد غضنفر ، كل الأساليب السابقة من ذاكرة الشاعر وليست من إبداعه ، ونلاحظ أنها اختفت تماما فى المراحل التالية وظهرت شخصيته الفنية المستقلة وتشبيه العالم بالبحر ، والقمر الثاوى تحت التراب أو الرغام كما قال الشاعر ، أسلوب يعتمد على التقابل وهى ظاهرة لازمت أبا ماضى مع تطور ملحوظ فى إيجاد علاقات جديدة بين الألفاظ .

وينمو الحس الاجتماعى عند أبى ماضى " فتراه يهاجم دعاة الطبقية والمتعالين على

---

(١) السابق ص ٤٦ .
(٢) السابق ص ١٥٣ .

أفراد الشعب ولذلك لايعتد بالكبرياء ويهاجم معتنقيه فى قصيدته " الطين " (١) وكعادته نراه يذهب للتأمل ويتخذ من الطبيعة أداة يقيم بها الدليل المبنى على المعادلات التناقضية لإبطال نزعة المتكبر ويخاطبه بحقيقة وجوده قائلا .

نسى الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيها وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى .. وحوى المال كيسه فتمرد
يا أخى لاتمل بوجهك عنى .. ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
لست أدرى من أين جئت ولا ما .. كنت أو ما أكون ياصاح فى غد
أفتدرى إذن فخبر وإلا .. فلماذا تظن أنك أوحد

وهى " رد على الأغنياء الذين لم يبق للفقيرفى ملكوت الله شىء معهم . إنها دعوة إلى الحب والسلام والإخاء والإنسانية والتعاون بين الناس . (٢)

وهو يؤمن بالمساواة في كل شيء . وهذه نزعة واقعية اشتراكية لمسها أبو ماضى لمسا خفيفا موحيا . لأن الكل سواء أمام القانون الكونى والطبيعة دليله المقنع يقول :

أنت مثلى يبش وجهك للنعمى وفى حالة المصيبة يكمد
النجوم التى تراها أراها حين تخفى وعندما تتوقد
لست أدنى على غناك إليها وأنا مع خصاصتى لست أبعد

وكان نداؤه بالمساواة إيمانا بقيم الإنسان وقيمته مهما صغر شأنه وقل حجمه فالإنسانية عنده هيكل لايتم بناؤه إلا بتكاليف العوامل كلها فأصغر الأحجار لايقل أهمية عن أكبرها . فلكل دوره فى إقامة البناء .

وعلى شدة اتصال المهجريين بالحياة وخوضهم غمارها رأينا أن زكى قنصل قد تميز بميزة جعلته فريدا فى بابه بين المهجريين فى علاقته بالحياة . إنه لم يفلسفها ولم يتأملها ولم يرفضها ولكن نظر إليها هو وأخوه الياس بمنظار اجتماعى متعاطف مع الطبقات الفقيرة الكادحة ويحكى الأستاذ عيسى الناعورى أنه ذكر فى إحدى رسائله إليه فى ١٧ / ٣ / ١٩٥٣

---

(١) أبو ماضى : الجداول ص ٣٩ .
(٢) د / خفاجى : دراسات فى الأدب المعاصر ص ١١٣ .

أن لديه مجموعة شعرية بعنوان " على قارعة الطريق " . وقفها على هذه الفئة المنسية من أصحاب المهن الوضيعة . (١)

وهذه القصـــائد تدور حول أصحاب الحرف مثل : البناء العامل - بياع الجرائد ، الفلاح ، الخيـاط ، الشرطى ، ماسح الأحذية ، بائعة الزهر ، المعلمة ، العتال .

وغيرهم ممن يخوضون شقاء الحياة ليكسبوا السعادة والنعمة للآخرين " (٢)

وقد أحس الشاعر بآلام هذه الفئة الكادحة من البشر . فحاول أن يصور حياتها فى شعره - ويغنى أحلامها ويعبر عما تزخر به نفوسها من طيبة وحب للحياة . (٣)

والسؤال الآن :

هل وفق زكى فى رسالته ؟ وإلى أى حد كان هذا التوفيق ؟

يقول د / أنس داود " هو شاعر يرى الحياة قسمة عادلة بين الفقراء والأغنياء على الأولين " الفقراء " أن يرضوا بما قسم لهم . بل أن يسعدوا به ، لأنهم تجنبوا فى حياتهم وساوس الأغنياء وقلقهم على ثرواتهم بل عليهم أن يحرصوا على هذا الفقر ومافيه من مزايا . ولاشك أن مثل هذه النظرة متخلفة كل التخلف عن عصرنا وأن شاعرنا قد ضل الطريق . بينما كان يريد أن يتلمس الطريق للتعبير عن نواياه الإنسانية الطيبة نحو الفئة الكادحة التى تريق أنهار العرق صباح مساء فى شرف وكبرياء .

وأرى أن هذا الحكم يفتقر إلى الأسانيد الصحيحة ، والدلالات الموضوعية فإن صدقت بعض جوانبه فلا تصدق أكثرها . فالناقد يرميه بأنه يرتدى " شملة " هؤلاء الوعاظ الذين يتقنون فى تحبيب القبيح للناس وترغيبهم فى الفقر . وذلك غير صحيح فى كل حالات الشاعر .

فهو يهاجم زمانه للظلم الذى غلفه ويقول " للمنضد "

لاتـــرج خيــــرا مـــــن زمـــانك إنـــه ... ذئب يجيـــــش الشـــرفــى أنيــــابه
أمـــــن المستبـــــد القــــوى حيـــاله ... وتعـــــرض الحمـــــل الوديـــــع لنابه

(١) عيسى الناعورى أدب المهجر ص ٦٠٣ .
(٢) السابق ص ٦٠٥ .
(٣) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٢٧٥ .

وفى قصيدته " البناء " :

ينفى التهمة التى وجهت إليه ويتراءى لنا شاعرا تقدميا عصريا حضاريا اشتراكيا إنسانيا يمور وجدانه بثورة الرفض حين يقول عن البناء .

يبنـــى القصـــور وكوخـــة خـــرب	ســـاءت حيـــاة كلهـــا تعـــب
الشـــوك يزخـــر فـــى مسالكهـــا	والريـــح ماتنفـــك تضطـــرب
لايـــزد هـــى فـــى ليلـه قبـــس	إلا تـــوالت طمســـه النـــوب

ويثور الشاعر ويناقش من خلال ثورته القضاء والقدر والمساواة والأرزاق وقضيه توزيع الثروات . وفى النهاية يعود إلى روحه المسالمة أيضا يعزى البناء ويواسيه ويقول فى حيرة .

فعـــلام تشتـــاق " الريـــال " يـــد	ويـــد تراكـــم حولهـــا الذهـــب ؟
وعـــلام يغـــرب حـــق مجتهـــد	ليفـــوز باللـــذات مغتصـــب ؟

وشاعر يحس هذا الإحساس لانتهمه بالتأخر الفكرى والرجعية فى مشاعره فإن كان التوفيق خانه فى صياغة بعض قصائده وطريقة معالجة بعض أفكاره فقد وفق فى كثيرمنها .

وأخوه " إلياس قنصل " قريب من روحه المتجاوبة مع طبقات الشعب . وقد ألف ديوانا بعنوان " رباعيات قنصل " وهى خطرات قصار تتوارد عفو الخاطر وتوحى بها وقائع الحياة اليومية . واستثارات العاطفة الشاعرة والموحيات المختلفة . (١)

والشاعر فى طريق الحياة لايستسلم مثل أخيه زكى فى بعض المواقف ولكنه يتسلح بالإصرار وقوة الإرادة ، ويرحب بدموع الغضب ويرفض دمع الضعيف ويدعونا أن نتخذ من اليأس دافعا للرجاء :

عـــذرتك إن أذريـــت دمعـــك غاضبـــا	وان تـــذره ضعفـــا فمـــوتك أستـــر
فســـرت عراكـــا مانطـــوت صفحاته	ومـــازال فيـــه للمـــآثر أسطـــر
ورب انـــدحـــار لاينـــالك عـــاره	إذا شمـــت مـــن أسبـــابه كيـــف تثأر

ويرفض الضعف البشرى بكل وسيلة ويؤمن بقوة النفس لأن العصر لايفهم سوى لغة

---

(١) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٥٩٤ .

القوة .

إن كــان ضــوء الحــق نـدرك وحده	فجلــيل جهــدك حســرة وهبــاء
كــف القــوى لصفعــة وتحيــة	أمــا الضعيــف فكفــه استعطاء

هذه هى روح زكى قنصل وأخوه وموقفهما من الحياة .

ربما تكون روحهما الشعرية غيرمحلقة ، وموقفهما غير عميق ، وحيرتهما ليست غائرة فى شعورهما .

ولكن هذا لاينفى أن لنظرتهما أثرها الفعال فى توجيه نفوسنا ، وشحذ هممنا ، وتشذيب عواطفنا .

وقد يبدو إلياس أكثر إرادة من زكى ، وأمضى منه عزيمة . ولكن زكى تغلب عليه رقة الوجدان ومشاعره الجريحة التي تتجاوب مع هموم الإنسان وهو يشق طريق الحياة فى إرهاق وكفاح وعرق وجهد ، وغيره يقطف الورد والأشواك تدمى راحتيه. وهو لايمل من السير فى طريقه المرسوم فى مخيلته .

وفى قصيدة بعنوانً طاب نفسا " (١) يصف زكى قنصل الأديب ، موضحا علاقته بالكون وعلاقة الناس به ، وموقفه من مغريات الحياة ، وهو يضع أمامنا نفسه مكشوفة فى صدق وأمانة : يقول :

لاتلمــه إن شكــا مــن دهــره	فهــو بيــن النــاس منبــوذ غريب
رحــب الكــون ولكــن لــم يسـع	بعــض مافــى صــدره الكون الرحيب
يتحــداه غــراب ناعــب	ويجافيــه بعيــد وقــريب
ذهــب الأرض تــراب عنــده	كيــف يغــرى بالتــراب العندليب
خلصــت مــن حســد نظــرته	وتعــالت يــده عمــا يــريب
طــاب نفســا ولســانا .. فإذا	سألــوا عنــه فقــل هذا الأديب

ويترجم مسعود سماحه " أحاسيس زكى قنصل تجاه الأديب إلى واقع عملى حيث يصف

(١) مجلة الأديب البيروتية : عدد أبريل ١٩٧٨ ص ٢٥ .

المشقات التى لقيها فى غربته وهو يكافح فى سبيل الحياة الكريمة يقول فى قصيدته " كم وكم " (١)

كـــم طـــويت القفـــار مشيـــا وحملى	فـــوق ظهـــرى يكـــاد يقسم ظهرى
كـــم قـــرعت الأبـــواب غيـــر مبال	بكـــلال وقرفصـــل وحـــر
كـــم توغلـــت فـــى البـــرارى وقلبى	سابـــح مثـــل زورق فـــى نهـر
كـــم ولجـــت الغـــابات والليـــل داج	ووميـــض البـــروق شمـسى وبدرى
كـــم تعرضـــت للعواصـــف حتـــى	خلـــت أن الثلـــوج فـــى القفر قبرى
كـــم توسـدت صخـــرة وذراعـــى	تحـــت رأســـى وخنجـرى فوق صدرى

- ٢ -

وحاول بعضهم أن يصور النقائص التى جبل عليها الإنسان وأن يبين المفاسد والمظالم التى تسود المجتمع البشرى حتى يتعرف عليها المجتمع ويعرف أنها سبب فى دماره فينقض عليها ويحاربها ولايتركها تؤثر فى سلوك المجتمع .

ويعالج الشاعر شفيق معلوف هذه الظاهرة التى رفض فيها الحياة وزيفها فى " الحلم الثالث " من مطولة الأحلام وفى مطولته عبقر بصورة إيجابية ترفض الظلام من أجل أن تبعث النور وتنشد الموت لتتجدد الحياة .

والشاعر في حلمه الثالث يصحو على وجود نفوس . وبشرية يحكمها الظفر والغاب فيبكى حبه ويبكى آلامه وينشد الفناء له وللوجود ، تتم فى نهاية الحلم يقظة الشاعر على ظله يهزأ بجنونه ، وفى هذه النهاية يضع الشاعر بداية جديدة للحياة ، الحياة الواعية التى تجرف فى طريقها أفكار المتشائمين التى عمت وطمت وراحت تلتمس الأسانيد فقوة اليقظة الإنسانية هى بداية الطريق الحقيقى للحياة والتقدم (٢) " يقول شفيق في نشيده " الظل الهازىء " :

فتـــلك الخيـــالات أحـــلام نفســـى	تغـــور مـــع الليـــل خـــلف الحزون
أزودهـــا قطـــرة مـــن دمـــوعى	وأتبعهـــا أنـــه مـــن أنينـــى
لقـــد كـــنت قـــرب البحيرة غفـــلان	أخبـــط فـــى لجـــة مـــن شجونى

(١) د / نظمى عبد البديع محمد : أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب ص ٢١٩ .
(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٤٣٩ .

فلامسنى أنمل الشمس يوقظ نفسى إلى أن فتحت عيونى
فأبصرت ظلى أمامى فى الماء يبسم مستهزءا بجنونـى(٢)

والشاعر بهذه النهاية يسير فى طريق المناضلين فى الحياة والسائرين تحت أشعة الشمس فكل موجود له ظل على الأرض يستطيع أن يسخـر من التشاؤم ويتمرد على سبيلة العدم . (٢)

وفى ملحمة " عبقر " يناقش شفيق أدق القضايا المعاصرة مناقشة إيجابية يلونها التشاؤم الذى ساد فى شعره مثل أخيه فوزى ، وذلك من خلال الأساطير العربية القديمة وهذه القضايا كلها تأمل فى الحياة وفحص لأسرارها . ومن فيها من البشر وعاداتهم وتقاليدهم وعيوبهم . وتتمثل هذه القضايا فى :

الإنسان شرير بطبعه :

ويتخيل شفيق عرافة الجن وهى ترغى وتزبد عندما رأت الإنسان . وهو فى ذلك يلتقى مع فوزى المعلوف وهو يعرض اعتراضات الطيور والنجوم والأرواح على وجود الإنسان بينها فى ملحمته " على بساط الريح " وتصرخ العرافة وهى تستعيذ بالشيطان من شر الإنسان . ويخاف على الثعبان من غدره فسم الثعبان قد انتقل إلى قلب الإنسان . وذلك يعطينا تفسيرا لما كان يشعر به الشاعر من سموم الأفكار التى يعتنقها الإنسان .

ويحـــــك يا إنســـــــان ألـــــق عصـــــا سحـــــرك
ذعـــــرت فينـــــا الجـــــان فعـــــذنا بالشيطـــــان
مـــــن شـــــرك
وددت ياغـــــادر لـــــو أننـــــى أطلـــــقت ثعبـــــانى لايـــــنثنى
عنـــــك فيـــــرديك ولكننـــــى أخشـــــى علـــــى الثعبـــــان من غـــــدرك
فـــــى نابـــــه الســـــم كـــــان وصـــــارفـــــى صـــــدرك
فليـــــس هـــــذا الصـــــل بالأفعوان بـــــل أنـــــت يا إنســـــان
فارجـــــع إلـــــى وكـــــرك (٣)

(١) شفيق معلوف : الأحلام ص ٤٩ .
(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ٤٣٩ .
(٣) شفيق معلوف : عبقر ص ١٤٢ .

النقائص التى جبل عليها الإنسان :

وناقش شفيق هذه النقائص والعيوب بأسلوب رمزى أتكأ على الأسطورة فى النشيد الخامس " حيث يذهبإلى وادى " سجين " وتقول الأساطير إنه مقام إبليس وجنوده فى جهنم . فيلتقى بأبناء إبليس الخمسة وهم بثر وداسم ، وأعور وزلنبور ومسوط .

ويرى وجه الحياة الكاذب ولذلك يجعل من مسوط " إبليس الكذب " زعيم اخوته أبناء ابليس ماجالوا بميدان .

إلا إذا ماركـــب مســـــوط قدامهــــم يرفــــع بنـــد الكـــذب

ويكره شفيق الحرب . ويختار " بثر " شيطان الحروب " حيث يجعل الناس وقودها

داس بقـــــايا البنـــــود وطـــــاف بالأمـــــوات
فانتـــــزع القيـــــود مـــــن أرجـــــل العبـــــدان
ولفهـــــا تيجـــــان علـــــى رؤوس الفـــــزاة

ويرفض شفيق كل نقيصة فى الإنسان ويعلن هذا حين يصف " داسم " ابليس – الشهوة الذى كسا بالخبث والرياء نقائص الناس .

فانـــدســـت الكبـــرياء تحـــت حجـــاب الحســـد
وتحـــت ستـــر الإبـــاء غلفـــل وجـــه الغضـــب

وتزكم روحه رائحة الشهوة الجسدية ويرفضها وجدانه فيقول فى أسلوب ساخر على لسان " أعور " إبليس الشهوة " حامى ذمار الخنا والعهر وفى اختيار شفيق لأسم " الشيطان " أعوروتخصيصه لهذه الوظيفة توفيق كبير حيث أن الشهوة هى الجانب المادى فى الإنسان . والسمو هو الجانب الروحى والإنسان بشهوته كأنه بعين واحدة ينظر للحياة . وهو فى ذلك متأثر بمواصفات" المسيخ " الذى ورد فى الكتب العربية القديمة .. يقول أعور

شـــرارتى فـــى العيـــونْ حـــريقـــة الـــــدمْ
وليعـــلم العاشقـــون أن اصطفـــانى الجنـــون
فـــى لـــذة غائمـــة

مـــاهـــــــو إلا مــــــــــران يهيــــــــئ الأجفـــــــــــان
للنـــــــــــومة الدائمــــــــــــه

ويعرض لقضية المال وتأثيره فى النفوس . ويرى أن " شيطان المال " زلنبور " كفاه ميزان ورأسه مكيال " .

وهو يرى أن المادة تتغلب على الروح . وذلك هو سر الشعور فى الحياة يقول :

فكفـــة جوفـــــاء مملــــــوءة	مـــن ذهـــب وكفـــة خاليـــة
شـــدت بهـــا الأرواح نحـــو العـــلا	فربحـــت بالذهـــب الثانيـــة

* *

والحياة عند أبى ماضى لاتقدر بالادعاءات ، ولا تقاس بالسنوات . وهو يتأمل المسيرة الزمانية للإنسان . وينعى على الذين يتفاخرون بكبر سنهم وأن التقدم فى السن وحده يجعلهم حكماء الزمان قائلا من قصيدته " ليس السر فى السنوات . (١)

قـــل للـــذى أحصـــى السنـين مفاخرا	ياصـــاح ليـــس السر فـــى السنوات
لكنـــه فـــى المـــرء كـيف يعيشهـا	فـــى يقظـــة أم فـــى عميـــق سبات
خيـــر مــــن الفـــلوات لاحـــد لها	روض أغـــن يقـــاس بالخطـــوات
تحصـــى عـــلى أهـــل الحياة دقائق	والدهـــر لايحصـــى علـــى الأموات

و على هذا الأساس يقيم أبو ماضى علاقاته مع الناس ، والقاعدة عنده قيمة المرء مايحسنه .

والحياة عند الشاعر لوحة تهدد نضارتها الحرب . وتتربص بها الأسلحة الفتاكة فالعلم فى رأيه لايجيء إلا إذا نشر الرخاء والسلام فى العالم . والغاب كان حنينا قديما ومنقذا للشاعر من زيف المدينة . لكنه الآن بعد أن تقدمت بالشاعر الأيام وبهتت ملامح الرومانتيكية عنده .. عالج الواقع واتخذ الغاب رمزا للسيطرة ، والسماءُ كانت أقصى أمانيه الحالمة هربا من سجن المادة وانعتاقا من الأسر لكنه الآن يتمنى أن تعيش الأرض فى سلام . فالسماء عنده قرب الأصدقاء يقول من قصيدته " عطش الأرواح (٢) .

---

(١) أبو ماضى تبر وتراب ص ١٠٨ .

(٢) أبو ماضى : تبر وتراب ص ٨٩ .

ان صحـــونا فأحـــاديث الوغـــى — فى الحمــى الأهــل والأرض العــراء
وإذا نمنـــا تـــراءت فـــى الكـــرى — صـــور الهـــول وأشبـــاح الفنـــاء
فهـــى فـــى الأوراق حبـــر هـــائج — وعلـــى الراديـــو " فحيـح الكهرباء

* *

قـــد ترقـــى الخلـــق لكـــن لـــم تزل — شـــرعة الغـــابة شـــرع الأقـــوياء

* *

أنـــا لا أشتـــاق كاســـات الطلـــى — لا ولا أطلـــب مجـــدا أو ثـــراء
إنمـــا شـــوقى إلـــى دنيـــا رضـا — وإلـــى عصـــر ســـلام وإخـــاء
لاتعدنـــى بالسمـــا ياصاحبـــى — السمـــا عنـــدى قـــرب الأصدقـــاء
وأرانـــى الآن فـــى أكنـــافهم — فأنـــا الآن كأنـــى فـــى السماء

ونلاحظ أن الشاعر أضاف إلى معجمه الشعرى ألفاظا وتراكيب جديدة لم نعثر عليها قبل ذلك مثل " راديو " شرعة الغابة " فحيح الكهرباء " حبر هائج . ولا يخفى ماوراء التعبيرين الأخيرين من إيحاء بمقت الحرب وكره الصحافة التى لاشاغل لها سوى الكتابة عن الحرب وازدراء صوت " الراديو " الذى يشبه صوت الأفعى لأنه صوت الخراب والدمار .

* *

والشاعر يدلى برأية فى الحياة . ويؤكد أنه الرأى الصواب . ويهدهد نفسه ويسير بها فى طريق خال من الدموع والكآبة قائلا لها فى قصيدته الرأى الصواب . (١)

يانفـــس هـــذا منـــزل الأحبـــاب — فانســـى عـــذابك فى النـــوى وعذابى
ولتمســـح البشـــرى دموعـــك مثلمـــا — يمحـــو الصبـــاح نـــدى عن الأعشاب
واسترجعى عهـــد البشـــاشة والرضـــا — فالدهـــر عـــاد تضـــاحكا وتصابى

ويتحول الشاعر عن نهجه القديم الغارق فى التأمل الميتافيزيقى والتفكير المجرد المنفصل عن واقع المجتمع ليعلن خطة الجديد فى رغبته التى تتمنى إصلاح العالم ، والتعبد ليس لبس الخرق والجوع الجسدى . أو العزلة والتنسك فى الدير والقفر والغاب ، هلى هى رجعة من أبى ماضى ؟ أم أن ذلك قدره الذى حاول أن يهرب منه ؟ هل هو الرجوع إلى الناس حين تمنى البعد عنهم يوم صرخ ممزقا .

خلت أنى فى القفر أصبحت وحدى فإذا الناس كلهم فى ثيابى ؟ أعتقد أن الواقع القديم

(١) أبو ماضى : تبر وتراب ص ١٠٦ – ١٠٧ .

كان قدرا مفروضا . والواقع الجديد قدر مرغوب يسعى إليه !!!

وقد يبدو غريبا هذا الموقف من أبى ماضى .

فالتفاؤل يكون غالبا فى أول العهد بالحياة ، ويتطور الأمر إلى النهاية المأساوية فالموت هو النهاية المسيطرة دائما والمفزعة كذلك .

لكن أبا ماضى يدور دورة دائرية لانعرف لها بداية ولانهاية . وقطر دائرته مغلف بالتفاؤل . والباطن مازال مبطنا بالسر .

يقول :

ليس التعبد أن تبيت على الطوى	وتروح فى خرق من الأثواب
لكنه إنقاذ نفس معذب	من ربقة الآلام والأوصاب
ليس التعبد عزلة وتنسكا	فى الدير أو فى القفر أو فى الغاب
لكنه ضبط الهوى فى عالم	فيه الغواية جمة الأسباب
وحبائل الشيطان فى جنباته	والمال فيه أعظم الأرباب

إنها ثورة ودعوة إلى التضامن والانضباط وانعتاق من أسر الغاب . وخوض التجربة بكل عنف وصدق ، مع السيطرة على المقومات التى ارتكز عليها في حياته المتمثلة فى الإخاء والتسامح والتعاون .

-٣-

الشك فى طبيعة الحياة :

ووقف بعض المهجريين من الحياة موقف المرتاب وقادتهم هذه الريبة إلى التشاؤم فى الحياة والإحساس بالعبودية ومن هؤلاء . فوزى المعلوف وشفيق المعلوف .

فقد وقف هذان الشقيقان من الحياة موقف المتشكك فى طبيعتها الذى يراها شرا دائما وقادهما هذا الشعور بالشر فى الطبيعة الإنسانية إلى العزلة الفنية المتمثلة فى أسلوبهما الجزل الرصين مما أبعد هما عن نبض الشعب البسيط اللهم إلا فى خطرات شعرية وقصائد لشفيق مثل قصيدة الراعى . وساعى البريد . (١) ووضعهما الاجتماعى .

فأسرة المعلوف " من أكبر الأسر الأدبية التى هاجرت إلى أمريكا فحالفها الحظ وواتاها الغنى والثراء . (٢)

(١) انظر ديوان : لكل زهرة عبير ص ٢٠ - ٣٦ لشفيق معلوف .

(٢) د / حسن جاد : الأدب العربى فى المهجر ص ٤٩٠ .

وتظهر سمات موقفهما الحياتى في مطولتى فوزى المعلوف على بساط الريح ، وشعلة العذاب " ومطولتى " شفيق " عبقر والأحلام .

ففوزى يكره العبودية فى الحياة . وإحساسه هذا هو الذى دفعه للهجرة يقول

قسمـــا بأهلـــى لـــم أفـــارق عن رضـــا   أهلـــى وهـــم ذخـــرى وركـــن عمـــادى

لكـــن أنفـــت مـــن الحيـــاة بموطنـــى   عبـــدا وكـــنت بـــه مـــن الأسياد

" وكان يعيش بجسمه فى دنيا الناس ، غريبا سجينا يتطلع إلى الانعتاق ويتململ شوقا إلى روحه المحلقة فى السماء " (١)

ويبدو فوزى متأثرا بأبى العلاء فى تشاؤمه . والواقع أنه لم يتأثر به وحده ولكن أغلب المهجريين تأثروا بفلسفته وهذا سر موجة التشاؤم التى غمرت أرواحهم وأغرقت نفوسهم . ويقارن " الناعورى بين موقفى فوزى والمعرى قائلا "

" فلقد انطوى المعرى على نفسه يتأمل الدنيا من خلال عماه ، فبدا له أن شرها يطغى على خيرها ، فعافها وهام بحربها ، وأطال فوزى التأمل فيها ببصره وبصيرته معا فلم ينتج له تأمله إلا كرهها ، ومقتها . فضم قلمه إلى قلم شيخ المعرة فى محاربة الحياة والناس . (٢)

أليس غريبا أن يرحب الشاعر الشاب . ذو الجاه والثراء والحسب بالعذاب ؟ - وأليس أكثر غرابة أن يسمى ملحمته " شعلة العذاب ؟ ويختمها بقوله .

مرحبـــا بالعـــذاب يلتهـــم العيـــش   التهـــاما وينهـــش القلـــب نهشـــا

مشبعـــا نهمـــة إلـــى الـــدم حـــرى   ناقعـــا غلـــة إلـــى الدمع عطشى

وحينما نختلف ونستغرب من موقف فوزى . لانحاسبه على صواب آرائه أو خطئها ولكن نحاسبه على نوعية شعوره . هل صدق مع نفسه . ونقل لنا بأمانة حقيقة هذا الشعور ؟ أم زيف شعوره وافتعل مايقوله : هذا هو مايجب أن نختلف عليه وأن نناقشه .

ولاشك أن فوزى كان شعره مرآة لأعماقه ، وانعكاسا صادقا لأحاسيسه وماذنبه إن كانت هذه المشاعر سلبية أم إيجابية ؟ إنه ليس مفكرا ولا فيلسوفا ولكنه شاعراً أولا وأخيرا .

ولعلنا حين نقرأ له البيتين التاليين نشعر بمدى ماكان يعانيه :

وقفـــت أجـــيل الطرف فيمـــا يحوطنى   فلـــم أر حـــولى مايـــبش لـــه ثغـــرى

فـــــلا تعجبـــوا إن كنت فى الرسم عابثا   فمـــا الذنـــب ذنبـــى إنما الذنب للدهر

---

(١) السابق ص ٤٩٨ .

(٢) [illegible] الأدب العربي في المهجر ص ٢٧٨ .

وإذا كانت هناك ظروف أقحمت فوزى فى موجة التشاؤم . وجعلت حياته دمعة سخينة وسيمفونية حزينة ترجع إلى صدمته العاطفية وإلى تأمله الطويل في الحياة وإلى حنقه على العالم الظالم .

فلست أدرى سببا يجعل شفيق المعلوف محصورا بين ضفتى التشاؤم - تدفعه موجات الحياة فلا يصل إلى الشاطىء . لا هو عاد . ولا هو وصل !!! فما " عرف شاعرنا حياة المشقات فى دار الاغتراب إلا بشعوره مع زملائه وتضامنه روحيا معهم فاختلفت سيرته المحفوفة بطوالع السعد عن سيرتهم المحبوكه بالمآسى .

أما ما يستغرب منه فهو مشاركته للشعراء المقهورين كالقروى وفرحات وعريضه فى النقمة على البشر وفى التذمر من أحكام القضاء . (١)

وإننا لم نعرف سببا لتشاؤم شفيق وهو ولد وعلى أعطافه رداء النعمة ، أيكون اتخذ من الشكوى تعويذة للنعمة من عيون الحاسدين ؟

أم هــى طبيعة فى الشعراء المعاليف ؟ تساوى فيها الأخوان الثلاثة فوزى وشفيق ورياض . (٢)

وإذا كان " چورج صيدح قد عجز عن توضيح بواعث التشاؤم عند شفيق المعلوف فإن الناعورى يرجع هذا التشاؤم في الأحلام إلى عدم نضج الشاعر واصطدامه بواقع الحياة المرير القاسى وهو الذى حاصر نفسه ومشاعره بالمثل العليا التى تلقنها فى الكتب وسمعها فى عظات المربين فى البيت والمدرسة والكنيسة " وكان خياله غنيا بها ولكن الحياة تصدمه دائما بحقائقها المرة القاسية وتثبت له بكل برهان أكيد أن المثل العليا أوهام في أخيلة الأطفال وسطور على صفحات الكتب . (٣) ولكنى أحس أن الناعورى لم ينصف الشاعر فهذا التحليل السريع لتقويم نظرته للحياة التى وصفها بأنها " غضبة غلام يعتقد " أن فى استطاعته تبديل الكون وتغيير نواميس الحياة حسب إرادته وطبقا لمبادئه ومثله العليا " (٤) .

فشفيق يختلف عن أخيه فوزى في حقيقة موقفه وإن كان اتجاههما واحدا فبينما نرى فوزى لايستند إلى فكرة ذات معان محددة فى نقمته على الوجود وإنما بدافع من صدمته

---

(١) صيدح : أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .
(٢) السابق ص ٤٢٥ .
(٣) عيسى الناعورى : أدب المهجر ص ٥١٨ .
(٤) السابق ص ٥١٩ .

العاطفية يندفع كالسيل يصب جام غضبه على الحياة والأحياء ويفقد الإيمان بها .

نرى شفيق المعلوف يتسم بطابع خاص فى شعره ويلتزم بموقف معين من قضية الوجود والحياة .

أما ذلك الطابع " فهو الحزن العميق والتشاؤم الشامل ففى كل لفته منة إلى مظاهر الحياة كان الأسى يعتصر قلبه ، والدموع تندى عينيه " (١) .

أما موقفه من قضية الوجود والحياة وسر تشاؤمه وحزنه فهو " فناء الحياة والأحياء وكان الحزن مقدمة للنتيجة الحتمية وهى الموت ، فكأنه يرثى الوجود لما يلقاه من مصير بعد ذلك الهلاك والعدم .

* *

وكان التشاؤم طابع نسيب عريضه . وعن سر هذا التشاؤم يقول د / خفاجى " إنه عانى مع زملائه من قسوة الغربتين المادية والروحية ؟ ولعل الغربة الثانية كانت الأقسى على قلب نسيب . فلا عجب أن تسمع للأسى فى شعره أنغاما شجية ، وأن تبصر فيه كل ألوان الحيرة . والوحدة والوحشة والحنين ، ثم لاعجب فى أن يطرح الشاعر على ذلك وشاحا من الصوفية العميقة الصافية .. كالتى تطالعها على الأخص فى منظومته البديعة " على طريق إرم " . (٢)

وهو معلق بين عالمين . عالم الذكرى . وعالم الشوق إلى الغد ، ولكنه لايعرف كيف يتخلص من أغلال أمسه ؟ كيف يشق طريق مستقبله ؟ فإنه أفاض وأبدع فى وصف طريق الحياة وما يرافق سالكيه من تحرق على معالم تركوها خلفهم ، وحنين إلى معالم تلوح لهم من بعيد وتتمنع عليهم .

والحزن مبدأ الشاعر فى حياته . وهو مقتنع به . ولاشك أن الحزن لذات الحزن هروب من الحياة ومنهج غريب الطعم شاذ الوجه .

يقول :

---

(١) د / أنس داود . التجديد فى شعر المهجر ص ٤٣٢ .

(٢) د / محمد عبد المنعم خفاجى : قصة الأدب المهجرى جـ ٢ ط ١ ص ٣٥٦ .

علقــت عــودي علــى صفصافة اليـاس ورحــت فــي وحـدتي أبكي على الناس
كـــأن فـــي داخلـــي قبـرا بوحشته دفنـــت كـــل بشاشاتـــي وإيناســـي

ويعطينا مفتاحا لسرداب أحزانه ونعرف أن الفقر كان سر شقائه . فهو يقول عن أبنائه.

خيـــر لهـــم وأدهم من موتهـــم سغبـــا أو أن يبيحـــوا ميـــاه الوجـــه للحاسي

فالفقر هو المحور الذى تدورحوله نفسه المتشائمة والمنظار الذى يرى به الحياة وكان لوفاة أخيه فى نهاية الحرب العالمية الأولى أثر فى نفسيته . ولاعجب أن تؤثر وفاة هذا الشقيق فى نسيب فتحول استغراقه فى التفكير إلى حالة من الشك وتشغل عقله فى مسائل . مثل :

أليـــس المـــات غـــروبا يليه شـــروق أليـــس الحيـــاة أصيلا ؟
أم المـــوت خاتمـــة لايليهـــا أبتـــداء ولا تستعيـــد الفصولا ؟[1]

والعجب أن نسيبا حينما ييأس يقنع بيأس ولايثور عليه . يقول :

ما أروع الزهرة السوداء قد سقيت بدمعة القلب تحميها يد اليأس

مـــا أروع الزهـــرة السوداء قد سقيت بدمعـــة القلـــب تحميهـــا يـــد الياس
يـــا يـــأس صنهـــا فإنى قد قنعت بها ولســـت أبدلهـــا بالـــورد والآس[2]

واليأس تسرب إلى عالم نسيب حين فشل القلب فى قيادة حياته وفشل بعده العقل بعد صراع دام بينه وبين القلب . وقتل العقل بكثرة الشكوك . وأصبح قائده في حياته نفسه . واقترب بذلك من حياة المتصوفين . وبدأ صراعا من نوع جديد مع نفسه فهو يعتبرها أمارة بالسوء وهو يعنفها وينتصر للجسد ويقول لها .

أقلى النزاعـــا . وكفـــى الصـــراعا فقد كـاد جسمـــي أن يتداعـــى

ويقول لها :

فهـــلا تأدبت . لأنـــك زائرة في الحياة ، وبعد أن يستسلم ويتضعضع جسده يقـول

الجســـم عـــن عجـــز خضـــع والـــروح مـــازالت تثـــور

ويشعر بأن شمس الحياة تدنو للمغيب فيستحثها طمعا فى شمس الخلود .حيث يتفجع

---

(١) د . نادرة جميل السراج :نسيب عريضه : الشاعر الكاتب الصحفى ص ٧٢ .
(٢) نسيب عريضه الأرواح الحائره . ص ١٣٨ – ١٣٩ .

فى قصيدته « أمام الغروب » على الحياة . ويتهيب الرحلة ، ويستنجد الدليل ليقول له : إلى أين تفضى الطريق ، ويتمنى لو تتمهل به الحياة قليلا لانه لم يرو غليله منها .

وعند نسيب « كان التمسك بالجسد والقلب استمساكا بعروة الحياة وحرصا عليها وتشبثا بها » (١)

– ٤ –

النظرة الإنسانية والتعاطف مع المشاهد المأساوية فى الحياة :

ويعبر عن هذه العاطفة الإنسانية الشمولية نسيب عريضه قائلا .

وإذا شئـــت ان تســـير وحيــــــدا ... وإذا مـــا اعترتــك مـــنى ملالــــه

فامض لكن مـــنى ستسمـــع صوتـــى ... صارخـــا يـــا أخـــى يـــؤدى الرسالـــه

وسيأتيـــك أيـــن كنـــت صـدى حـبـى ... فتـــدرى جمـــاله وجلالـــــــه(٢)

وكلمة يا أخى تعبر عن شمولية الحب عنده ، وعموم نظرته للحياة ، وهو يشرك معه اخوانه فى لحظات السعادة . أما فى لحظات الأسى فينأى بنفسه عنهم حتى لايؤذى شعورهم ويسرق السعادة من قلوبهم : يقول .

إعطـنى فـــى الرخـــاء خـــلا يقضـــى ... زمـــن اللهـــو والمســـرات عنـــدى

وإذا مـــا مضـــى الرخـــاء فدعـــنى ... لقـــراع الخطـــوب فـــى العيش وحدى(٣)

وهذه نغمة جديدة يبدل بها نسيب المفهوم الشائع وهو أن الصديق يعرف وقت الشدة وأن أخاك من واساك . وعند ندرة حداد نعثر على هذا المعنى الشعرى أيضا .

والعاطفة الإنسانية دفعت شفيق معلوف إلى إثارة « مشكلة البغايا فى ملحمة « عبقر » .

وبمناقشة شفيق لهذه المشكلة يسبق زمنه بكثير – حيث ينظر نظرة عصرية متقدمة

---

(١) د / إحسان عباس : ومحمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ٦٩ .
(٢) نسيب عريضة : الأرواح الحائرة ص ١٤٨ .
(٣) السابق ص ٢٧ .

ويذكرنا بنسيب عريضة فى انقسام الذات الانسانيه عنده الى روح وجسد وفى تقديره لرغبات الجسد برغم أنه يكرهها .

ويرى الشاعر فى النشيد التاسع « ثورة البغايا » أن الساقطات لسن بغايا وإنما ضحايا ظروف اجتماعية أملاها المجتمع الحديث وتركيبته المعقدة ، وهى نظرية إن صدقت فى بعضها فهى لا تصلح مبررا لكل انحراف .

فلا شك أن الظروف الاجتماعية تسحق إباء الكثيرين ولكن يمكن للإنسان أن يرتاد طريقا شريفا مهما كان صعبا .

وهذا الرأى يلتقى مع أبى ماضى فى أسطورتة الأزلية ، حيث يبين متناقضات الحياة على شاشة الفكر لينتهى إلى أن كل إنسان لابد أن يقنع بما قدر له والفارق أن شفيق هنا ثائر رافض متعاطف مع الجسد .

وأبو ماضى قانع مستسلم يريد تحطيم الثنائية .

وشفيق يرى أن الله الذى خلق الجمال وخلق الميل والهوى فى هؤلاء البغايا كيف يحاسبهم بعد ذلك ؟

فمـــــن لنــــــا بطاعـــــة اللـــــه
وهو الذى فى وسط العاصفـة زج بنـا بالأضلـع الراجفـة
والجســـــد المستسلـــم الواهـــــى

* *

منـــذ خلـــع اللـــه علينـــا المقـــل
زودنـــا بنظـــرة ضائعـــة وشهـــوة ملحـــة جائعـة
وبشـــرة هفـــافـــة للقبـــل

والقضية هنا لا تسندها البراهين القوية .. إذا سلمنا بمشاعر شفيق واستجبنا لنداء البغايا . أصبحت الحياة فوضى ، والتناسل فوضى ، والمجتمعات فوضى . ولقد نظمت الأديان وبخاصة الدين الإسلامى العلاقات بين الذكر والأنثى فشرعت الزواج حفظا للعرض وبنيانا للأسرة واستمرارا للحياة – فأيهما أجدى ؟ النظام أم الفوضى؛ وينوب أبو ماضى فى مشاهد الوجود وهذه المشاهد تدعوه إلى نسيان الزمن الغاضب واللحظة الخانقة ووصل ما بينه وبين

الناس ، وربط قلوبهم بقلبه .، وقصيدته كم تشتكى « وابسمى » وفلسفة الحياة ، وتعالى، يحارب فى القصائد السابقة « التشاؤم » وهو ذائب فى مشاهد الطبيعة من حوله .

وفى قصيدته « كم تشتكى » [1] يخاطب صديقه ، أو يجرد من نفسه شخصا آخر وهو أسلوب درج عليه الشعراء العرب رغبة فى التشويق أو شدة التأثير .

وفى القصيدة تغلب عليه النزعة العقلية فهو يأتى بأسباب الشكوى التى تدعو إلى التشاؤم ثم يحاول تفنيدها وإبطال أسبابها . وأعطى للقصيدة وحدة عضوية وموضوعية .

فإذا ما شكا الفقير وقال إننى لاأملك شيئا قال له :

كـم تشتكى وتقـول إنـك معـدم ... والأرض ملكـك والسمـا والأنجـم

هشت لك الدنيـا فمـالك واجمـا ... وتبسمـت فعـلام لا تتبسـم

وإذا ما رأى الشيخ العجوز يتحسر على عطر شبابه يقول إن الزمان لا يشيب :

انظـر فمازالـت تطـل مـن الـثرى ... صـور تكـاد لحسنهـا تتكلـم

صـور وآيـات تفيـض بشاشـة ... حـتى كـأن الله فيهـا يبسـم

واختيار كلمه الثرى لتكون مطلع الصور التى تفيض بالبشساشة فيضا ما له حد وبسمة الله تكاد تنطلق من هذا الفيض . فيه إيحاء بأن مصدر القتامة والفناء المتمثل فى التراب هو نفسه منبع الحسن وسر الجمال إذا كانت السماء مرآة الجمال . فالأرض نبع الحسن والسرور .

ويوحى هذا القران بين الأرض والسماء بإيمان الشاعر بالروح والجسد فالروح من عناصر السماء . والجسد من ثدى الأرض يتغذى . والاثنان جناحا الكون – وبدا الحياة .

واتجه شفيق معلوف إلى التعاطف مع المشاهد المأساوية فى الحياة : بدافع من نظرته الإنسانية .

وقد أرهف إحساسه لكل ما فى الحياة من أسرار الليل وما فى نهار الناس من مظالم فى هذا الوجود . لما فى النهار من مآس وظلم بشرى فإن الطبيعة إن أسفرت لتسفر عن هيكل

(١) أبو ماضى : الجداول ١٨٥ .

مفزع وفى لوحته « يقظه الضوارى » من مطولته « الأحلام » يقول : إن الحياة للأقوى ودنيا الناس تسودها شريعة الغاب :

لقد صاح ديك الصباح فأيقظ	نهم الثعالب فى غابها
وأنشدت الطير إنشادها	فأقبل صياد أسرابها
ونبه صك المناجل بين	الحقول مطامع أربابها
تعالى حفيف الغصون فحرك	فى الكوخ أفؤس حطابها
وراعى النعاج أستعد : وماخلت	راعيها غير قصابها (١)

— ٥ —

الصراع بين الخير والشر :

ونما هذا الصراع فى وجدان أبى ماضى بعد المرحلة الثانية من حياته واشتد فى ديوانه « الخمائل والجداول » ويظل هذا الصراع يمور فى وجدانه حتى أنه لم يدرك لهذه الثنائية فى النفس والحياة غاية تقنع . وكان الصراع بين القلب والعقل . والقلب والعقل عند أبى ماضى . يمثلان دورين من أدوار الحياة الفردية فى الأول يستسلم الإنسان لأوامر عواطفه ، وفى الثانى يخضع لإرشادات عقله وهما دور الشعور القوى والعاطفة الحادة فى الشباب . ثم ما يليه بعد ذلك من اتجاه نحو الفكر واعتماد عليه ، بحكم النضج فى السن . (٢)

والدور الأول تمثل فى قصائد كثيرة وكذلك الثانى . وجمعتهما قصيدة : بين مد وجزر . (٣)

يقول فى مطلع القصيدة :

سيرت فى فجر الحياة سفينتى	واخترت قلبى أن يكون إمامى

(١) شفيق معلوف : الأحلام ص ٣٤ .
(٢) د / إحسان عباس : محمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ٦٠ .
(٣) أبو ماضى الخمائل ص ١١٩ .

ويحتج العقل عليه ساخطا متهكما :

أسلمتـــنى للقلـــب وهـــو مضــــلل ... فــأضــرنــــى وأضــرك استسـلامـــى

يا صاحبى أطلقـنى مــن سجــن الــرؤى ... أنــا تائــه . أنــا جائـــع . أنــا ظامـــى

وينتهى ذلك الصراع إلى الحيرة الكبرى وموقف اللا مبالاة فمن مظاهر الحياة وأسرارها . فهو يعلن أنه لا يدرى كنه ذاته ولاشيئا عن ماضيها ولا من أين جاءت ولا إلى أين ستصير ؟

ثم يعود إلى القلب مرة أخرى . وتعود اليه طمأنينته فى ديوانه : تبر وتراب فلم يعد يلقى بالتساؤلات الكثيرة وإنما وقف على ما استطاع أن يعرفه من أسرار الحياة وتيقن أنه غير قادر على إدراك ما ليس فى مستطاعه .

ونتيجه لهذا الإحساس اعتقد أن كل ما فى الحياة من قيم مثالية ينشدها ليس لها وجود خارجى بل تكمن فى ذاته .

وقصيدة العنقاء« خير نموذج لهذه النظرة . وهى تشبه فى وزنها وأسلوبها وقافيتها وبعض مضمونها عينية « ابن سينا »وربما يكون اختياره للفظ العنقاء تأثرا منه بفريد الدين العطار فى مطولته منطق الطير « فالسيمرغ فيها »ومعناه ثلاثون طائرا . وهو رمز الحقيقة الكبرى عند الفرس يرادف فى اللغة العربية كلمة « العنقاء » لا أجزم بذلك وربما يكون من باب توارد الإلهامات الشعرية وأبو ماضى فى بحثه عن السعادة الحقة التى تحبب الإنسان في الحياة يوضح المتاعب التي خاضها في بحثه الدائب عن نبض السعادة المتدفق فقطع الرحلة التى قطعها فى طلاسمه. ففتش جيب الفجر عنها والدجى ، ومد للكواكب أصبعه وسائل عنها البحر فضحكت أمواجه من صوته ساخرة منه ، وفتش عنها فى القصور والقفار لكن من فى القصور حائرون ومن فى القفر لا يعون . ونصحوه بأن يتلمس طريق الوصول فهى لا تأتى إلا للزهاد التواقين فخدع بنصيحتهم . ووأد افراحه ، وحطم أقداحه وإذا به فى النهاية لا يعثر علي شيء ويكتشف أنه يدنو لمصرعه وتذكرنا هذه القصيدة بالبلاد المحجوبة لجبران . وعلى طريق اليم التسيب عريضه.

ويمكن أن نستنتج من هذا الموقف رفض أبى ماضى سبيل الزهد فى الحياة وإقباله على مباهج الحياة ومظاهرها الفاتنة .

فوأد أفراحه . وتحطيم أقداحه ، وتطليق مناه ، وتعففه عن زاده ولما يشبع بعد كانت هذه كلها من أسباب دنوه لمصرعه وهو لا يدرى !!

ويقول : مؤكدا هذه النتيجة :

مـــا كـــان أجهـــل نصحـــى وأضلـــنى لمـــا أطعـتهـــم ولـــــم أتمتّـــــع

ويفر إلى الأحلام والرؤى متوهما أن السعادة تكمن فى عالمهم الغامض ثم يستيقظ على السراب وهو يقول . ثم انتبهت فلم أجد فى مخدعى ... إلا ضلالى والفراش ومخدعى .

ويبحث عنها الشاعر فى تعاقب الفصول والظواهر الجوية كالرعد والبرق ، ولكن يذهب الربيع ويأتى الشتاء وهى لم تكن فى هذا ولا ذاك ، وليست فى البروق فأين هى ؟

يئست إرادة الشاعر وكلت همته وإذا به فى النهاية يجدها بين حنايا نفسه تحترق

شوقا إلى المجهول . ودموعه ترجمان عنها ومعبر عن حنينها إلى جوهر الحياة المثلى :

حـــتى إذا نشـــر القنـــوط ضبابـــه	فوقـــى وغيبـــنى وغيـــب موضعـــى
وتقطعت أمـــراس آمالـــى بهـــــا	وهـــى الـــتى مـــن قبـل لـم تتقطـــع
عصر الأسى روحـــى فسالـــت أدمعـــا	فلمحتهـــا ولمستهـــا فـــى أدمعـــى
وعلمـــت حـــين العلـــم لا يجـدى الفـــتى	أن الـــتى ضيعتهـــا كانـــت معـــى (١)

ويدور صراع حاد بداخل أبى ماضى :

وينتهى فى بعض مواقفه إلى نهاية مفجعة هى هزيمة الإنسان فى الحياة . وهى النتيجة الحتمية لغروره وطيشه وفى هذه النظرة نعثر على بذور التشاؤم الخفية التى يحاول أبو ماضى إخفاء أوراقها وغصونها ، وبذلك نعرف اللون الذى اصطبغت به أعماق أبى ماضى . ونقف على سر النظرة المكتئبة التى حاول انزال الستائر الكثيفة عليها .

ففى قصيدته « المجنون »(٢) يعبر عن يأس الإنسان من الاهتداء إلى الحقيقة ويتكلم عن حقيقة الإنسان وغروره وأمانيه وأوهامه وطيشه واندفاعه ثم إحباطه ، واكتشافه للحقيقة المرة ،

---

(١) أبو ماضى الجداول ص ١٥ .
(٢) السابق ص ٨٤ .

الفناء والعدم .

والقصيدة . قصة شعرية فيها ثلاثة أشخاص : الشاعر وصاحبه ، والمجنون .

أو مسرحية من فصل واحد فيها ممثل واحد ومشاهدان ، وخشبة المسرح « الحياة » فالمجنون يعبر عن يأس الإنسان من الاهتداء إلى الحقيقة .

عرفــــت فــــى النهـــــار كــــل مقبـــــل ومدبـــــر ومـــــا عرفــــت حالـــــــــى
واستـــــترت عــــنى السهـــول والربـــــى تحـــت الدجـــى والبحـــر ذو الأهــــوال

لكنـمـــــا لـــــم تستتـــــــر آمالـــــى
عنـــــــى ولا نقصـــــــى ولا كمالـــــــى

ويبدو حوار بين الشاعر وصاحبه . ويسمعان ادعاءات المجنون .. فماذا ادعى ؟

فصـــــاح الصـــــوت مــــا أرجــــــوه فــــى نفســـى ومـــــــا أحـــــــذر
فــــمهمـــا رحــــب الأفــــــق فنفســــى الأفـــــق الأكــــــبر

ويدعى أن العالم كله فى قبضته « اليمنى » وأن أشكال المنى وصور اليقين والضلال فى كفه اليسرى . ويكتشف الشاعر فى النهاية الحقيقة المفجعة لهذه الادعاءات وهى الكذب والنفاق والرياء فيقول :

فســـــرت والفجـــر دليلــــى باحثـــــا فــــى الغـــاب والسفــــوح والتـــــلال
فلـــم أجـــد غــــير صريـــع هامـــــد منطـــــرح فـــى جانــــب الشـــــلال

لا شـــــيء فــــى قبضتــــه الشمـــــال
وليــــــس فـــــى اليمنى سوى صلصال

ونلمح تأثر أبى ماضى بقصة فرعون التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم . ويمكن أن نجد كثيرا من أمثال هذه الشرائح النفسية التى تمثل نماذج بشرية عامه تتكرر فى كل زمان ومكان .

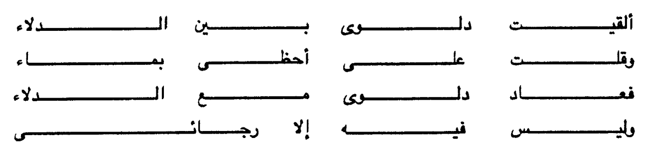
ويتسرب هذا الصراع إلى نفس نسيب عريضه . فيهمس إلى روحه ويطلب منها أن تغادر جسده وتعود إلى مسكنها العلوى ويشرح لها الأسباب :

الناس من هم ؟ جسوم ضاعت بهن النفوس
إن يرقدوا فنعيم رقادهم في البؤوس
واحسرتا ! أنا منهم ما دام جسمي اللبوس
ناموا ونفسي يقظى تهذي بذكر الشموس
ترجو انتهاء اعتقالي لكي نقض الخيام (١)

* *

ويدور الصراع بنفس ميخائيل نعيمة نتيجة لاصطدامه بواقع الحياة فيكتب قصيدته « أنشوده » (٢) ليعبر بها عن الصراع الاجتماعي الذى خاضه . والقصيدة تحكى فى صيغة فنية مركزة موحية حكاية هذا الصراع الذى خاضه الشاعر فى معترك الحياة .

فرحلته تبدأ مع الناس ودلوه ما هو الا طموحه وجهده المبذول وعقله وسلاحه الذى يواجه الحياة به ، وبعد أن يجرب يعود فى النهاية صفر اليدين إلا من الرجاء .



ألقيت دلوى بين الدلاء
وقلت علّى أحظى بماء
فعاد دلوى مع الدلاء
وليس فيه إلا رجائى

إذا لن يقف فى نهاية الطريق . وليبدأ تجربة أخرى موازية ومقابلة للتجربة السابقة ويلجأ إلى الطبيعة بعد اليوم الطويل تاركا الصراع من أجل أن يتسلى قلبه مع القلوب ولكنه رأى أن هذا الاتجاه فى الحياة لا يجدى فقلبه عاد يشكو ثقل الكروب فقد جرب العمل وفشل ثم جرب العاطفة وفشل . فليلجأ إلى العقل . وليفكر وليتأمل وربما تكون هذه التجربة هى تجربة الحياة الصادقة الواعية . وبصره فى هذه التجربة وسيلة الوصول ، ولكنه يفشل أيضا لأنه لم يشاهد سوى الغيوم .

(١) د / نادرة جميل السراج : نسيب عريضه ص ٩١ .
(٢) نعيمة : همس الجفون ص ٦٥ .

أرسلت طرفي بين النجوم
وقلت على أنسى همومي
فطاف طرفي بين النجوم
ولم يشاهد سوى غمومي

ومرة أخرى يلجأ إلى الطبيعة والنغم لعله يصل إلى ايقاع الحياة الصحيح المؤثر . ولكنه يكتشف أن أنغامه غريبة حتى على نفسه لدرجة أنه تخيلها جنونا .

ويستمر جو الصراع .. وماذا يفعل وهو الذى قدم جهده الحسى وقلبه وعقله وسمعه وبصره وفى النهاية لا يعزف إلا الجنون . وبرغم ذلك لم ييأس الشاعر وعطاؤه مستمر . ومازال الحب الإنسانى فى قلبه فليقدمه ! ولكنه أيضا يرتد بغضا إليه وهنا لابد أن يقاوم ويثأر لكرامته فيصوب سهامه . ولكن السهم يرتد إليه ويموت تحته جواده وهذا يؤكد معتقد نعيمه فى الوحدة الإنسانيه فعندما تحب إنسانا فكأنك أحببت الوجود كله ، وعندما تبغض إنسانا فكأنك أبغضت الوجود كله .

ويحتمى الشاعر بالله . وينادى « ربى خفف عذابى » فلا يجاب وانما يسمع الصدى يردد من الأرض ساخرا ربى خفف عذابى .. ويلجأ الشاعر إلى الروح لتخفف صراعه .

وبهذا يؤكد نعيمه أن سعادته فى روحه ومشقته من ذاته وموقفه هذا يشبه موقف أبى ماضى فى قصيدته العنقاء حين قال .

وعلمت حين العلم لايجدى الفتى أن التى ضيعتها كانت معى

ويقول نعيمه :

لما أتتنى بالأمس روحى
تشكو جروحا فوق الجروح
همست سرا فى روح روحى

* *

يـــــــاروح	غنـــــى	ولا تنــــــــوحى
فالعمــــــــر	لحــــــن	إذ تسمعينــــــــه
تعـــــــين	منـــــه	ما تنشدينــــــــه
والعيـــــــش	حقـــــل	تستثمرينـــــــه
يعطيــــــــك	ممــــــا	تستودعينــــــــه

– ٦ –

آراء وحكم فى مسيرة الحياة

وللمهجريين أبيات تجرى مجرى الحكم والأمثال . ومما يزيدها قيمة فنية أنها ناشئة عن تجربة شعرية ، وليست حكما جافة منظومة بوحى من التقليد المتكلف والشعور المفتعل وهذه بعض النماذج الشعرية التى فاضت بها قرائحم .

يقول القروى فى النهى عن اليأس .

لا تبطـــــرن ولا تمـــــت جزعـــــا لا الخـــــير مكتمـــــل ولا الشــــــــر
ضـوء النهـــــار تشوبـــــه سحـــــب وتلـــــوح فى جنـــح الدجى الزهـــــــر

* *

ويقول عن المساواة فى الموت :

دع مـن قضـى وادخـرّ دمعا لمرتهـــــن فانـــه ذاهـــب فـــى اثـر من ذهبـــــا
ولا تقـــل ذاك مملـــوك وذا مـــــلك فالرجـل والرأس فـى حكم التراب هبـــــا
والموت ما عف عـن عبـــد وعـــن مـلك كالنهـر يجـترف الأقـذار والذهبـــــا

* *

.... ومن حكم أبى ماضى الصائبة وآرائه فى الحياة :

يقول :

فكم شقيت في ذى الحياة فضائل ... وكم نعمت فى ذى الحياة عيوب
وكم شيم حسناء عاشت كأنها ... مساوىء يخشى شرها وذنوب

وقوله :

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به ... فإنه أحمق بالحرص ينتحر

وقوله :

أنا بالحب قد وصلت إلى نفسى ... وبالحب قد عرفت الله

وقوله :

علمتنى الحياة فى القفر أنى ... أينما كنت ساكن فى التراب
وسأبقى مادمت فى قفص ... الصلصال عبد المنى أسير الرغاب
خلت أنى فى القفر أصبحت وحدى ... فإذا الناس كلهم فى ثيابى

وقوله :

أنا من ضميرى ساكن فى معقل ... أنا من خلالى سائر فى موكب
فإذا رآنى ذو الغباوة دونه ... فكما يرى فى الماء ظل الكوكب

ومن أقوال نعيمه وآرائه :-

قوله :

نتمنى وفى التمنى شقاء ... ونناجى ياليت كانوا وكنا
ونصلى فى سرنا للأمانى ... والأمانى فى الجهر يضحكن منا

وقوله :

ذمك الأيام لا ينفعك ... فهى لا أذن لها تسمعك
عدلها فى أنها لا ترى ... حال مغلوب ولا غالب
عندها سيان يا صاحبى ... نغمة الهازج والنادب

وقوله :

لعمرك يا أختاه ما في حياتنا ... مراتب قدر أو تفاوت أثمان
مظاهرها في الكون تبدو لناظر ... كثيرة أشكال عديدة ألوان
وأقنومها باق من البدء واحد ... تجلت بشهب أم تجلت بديدان

ويقول رياض معلوف :

ما غير بابك يا الهي يطرق ... ولكل فضل أنت أنت الأسبق
وكسا جمالك كل شيء غبطة ... وبنورك السامي الملا يتألق

ويقول

ان ثغرى سلا التبسم لكن ... عند موتي تجددت بسماتي

ويقول : فوزى المعلوف :

ايه يا موت لن تمس خلودى ... فاقض ما شئت لست وحدك تقضى
فانا خالد بشعرى على رغم ... زمان عن قيمه الشعر يغضى

ويقول جبران :

سكوتى انشاد وجوعى تخمة ... وفى عطشى ماء ، وفى صحوتى سكر
وفى لوعتى عرس ، وفى غربتى لقا ... وفى باطنى كشف وفى مظهرى ستر

ويقول أيضا

والحق للعزم والأرواح ان قويت ... سادت وان ضعفت حلت بها الغير
ففى العرينة ريح ليس يقربها ... بنو الثعالب غاب الأسد أو حضروا
وفى الزرازير جبن وهى طائره ... وفى البزاة شموخ وهى تحتضر

ويقول نسيب عريضه

كن مثل بحر زاخر مرجع ... للحب ما تسكبه الأنهر
كن مثل شمس منحت نورها ... لكل مخلوق ولا تشكر

ويقول : رشيد أيوب .

أبنت الربيع الى الملتقى   فلا أمن الا بحضن التراب
ولا تسألى السر فى ذى الحياة   ففى الأبدية فصل الخطاب

ويقول زكى قنصل

كيف السبيل الى السلام ولم تزل   عقلية الانسان فى نقصان
ركب الفضاء وكاد يرقى للسها   وعيونه فى ملعب الثيران

ويقول الياس فرحات :

أغرب خلف الرزق وهو مشرق   وأقسم لو شرقت كان يغرب

ويقول شكر الله الجر

ان أمر البعث سر   كائن خلف الوجود
ووجود المرء غصن   جذعه تحت اللحود

ويقول : حسنى غراب :

أتنهانى عن المعروف خوفا   على مال تبدده العطايا
وحولى من ضحايا البؤس ناس   تنوب لفرط شقوتهم حشايا
أكنت تلح فى عذلى ولومى   لو انك بعض هاتيك الضحايا

ويقول محجوب الخورى الشرتونى :

انا فوق من كدس النضا   ر وان خسرت وان كسب (١)
إن التفاوت بالعلو   م هو التفاوت بالرتب

ويقول صيدح :

إنما الشعر انطلاق للذرى   واندفاق نحو أغوار وبيد
إنه البحر الذى أمواجه   تتعالى حرة ضمن الحدود

---

(١) خفف الشاعر الدال فى " كدس " لضرورة الوزن وهو خطأ لايجوز الوقوع فيه .

ويقول : توفيق برير فى « قلب الأم »

ألا إن قلــــب الأم ينبـــوع رحمـــــــة يلــين له الجملـود والليـــل ينجلـــى
وهل غير قلب قلـب الأم يعطيـك شاكـــرا ويزجـــى عطايـــاه بـــروح التوســـل

ويقول ابو الفضل الوليد :

أأرضـــى لنفســـى أن تكـــون ذليلــــة وقد حسدتهـا فى سمـــاء العـــلا الزهـــر
وأشرق نـــور الحـــق بـــين جوانحـــى كأنـى إذا أسريـــت يصحبـــنى الفجـــر

تم بحمد الله وتوفيقه

(الخاتمة)

فى نهاية المطاف ، وبعد هذه السياحة الشائقة فى الأدب المهجرى ، والبحث فى نفوس المهجريين . أشكر الله سبحانه وتعالى على أن يسَّر لى كل ما قابلت من صعوبات إنه نعم المولى ونعم النصير .

وأود أن أركز على الحقائق التالية « التى تمثل نتائج البحث » :-

أ - التأمل روح الأدب المهجرى ، واستطاع المهجريون أن يعمقوا أفكارهم ، ويفسلفوا مشاعرهم . بما أضفوه على نتاجهم من هذه الروح المحلقة التى أكسبته قيمة فنية خصبة عالية .

ب - لم تدرس النزعة التأملية دراسة مستقلة من قبل . ومن هنا تأخذ هذه الدراسة مكانها بين الدراسات الجديدة التى تكشف عن ثراء لغتنا وتمكنها من احتواء كل المضامين الفنية فى يسر وبعد عن التكلف والإغراب البعيد عن الصدق الفنى .

ج - تعرضت لدراسة التأمل دراسة فنية ، ووضحت أهم سمات التجربة التأملية واسترشدت بآراء النقاد الغربيين مثل روستريفور هاملتون ، وماثيو أرنولد وسدنى وكذلك آراء النقاد العرب المحدثين ومنهم عباس محمود العقاد وميخائيل نعيمه لأنهما يمثلان تيارى التجديد فى الشعر الحديث ، وتطور مفهوم الأدب ووظيفته وتصويره للنفس أصدق تصوير .

د - بينت بواعث التأمل عند المهجريين على ضوء نظريات علم النفس الحديث واستنادا إلى الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية التى أحاطت بأدباء المهجر وتوصلت إلى أن البواعث تتمثل فى التكوين النفسى الذى هيأهم لخوض تجاربهم ثم غربتهم وتوقهم إلى الانعتاق من القيود المادية والنفسية وكذلك طبيعتهم الشرقية الهادئة الميالة إلى معرفة الأسرار والولع بما وراء الطبيعة ، وكانت روحهم الدينية التى حملوها معهم من الشرق من أقوى البواعث على ترسيخ طبيعة التأمل فى نفوسهم ، والظروف الاجتماعية التى أحيطوا بها جعلتهم ينظرون للحياة نظرة حائرة تبحث عن تفسير لهذا التناقض الذى يبدو لهم وهم عاجزون عن إزاحة الستار عن غموضه ، وهم لم يتأملوا عن سذاجة وإنما كان لهم رصيدهم من الثقافة التى

أعطت لتأملاتهم عمقا ورحابة فقد تأثروا بفكر الشرق وفلسفة المتصوفين . ولم تغب عن أذهانهم روح أبى العلاء ولا أفكار ابن سينا . ولا سبحات ابن الفارض ولا فلسفة الخيام .

وكان لثقافتهم وإطلاعهم على الآداب الشرقيه القديمة كآداب الفرس والهنود أثر لا ينكر فى اتجاههم إلى تأمل عالمهم الداخلى والخارجى .

هـ – بحثت عن بذور التأمل فى مسيرة الأدب العربى العريقة ووجدت أن أدبنا العربى لم يخل من ظاهرة التأمل فى عصوره المتعاقبة وكان التيار التأملى ضعيفا فى فترات منه أحيانا حيث لم يحظ باهتمام النقاد القدامى . وربما يرجع هذا إلى العداء التقليدى الذى كان شائعا بين الفلسفة والشعر ، وعدم اهتمام النقاد بتحليل الشعر الصوفى والوقوف على مقوماته الفنية .

ح – بينت الطرق التعبيرية الفنيه التى لجأ اليها المهجريون فى تأملهم الشعرى فالقصة الشعـــرية بما تتسم به من نضج فنى . وبناء متماسك كانت إحدى وسائلهم التعبيرية .

وكذلك كان للمطولات الشعرية التى تشبه الملاحم أو الأساطير دور فى إبراز تأملاتهم والرمز الفنى للتعبير عن المضمون كان من الوسائل التي عبروا من خلالها أيضا عن أفكارهم ومما ميز الرمز عندهم أنه كان واضحا لا غموض فيه .

والحوار الشعرى أضفى على القصيدة فى الشعر المهجرى الطابع المسرحى والقصصى وجعل إيقاعها أكثر تأثيرا فى النفس ، وكان من وسائلهم فى التعبير عن تأملاتهم .

ط – كانت التجربة الشعرية عندهم وليدة الظروف التى دفعتهم إلى المعاناة إلى درجة الاحتراق أو الاستغراق فى مصدر الانفعال ، واتسمت أفكارهم بالعمق وربما التطرف والمغالاة أحيانا والألفاظ عندهم تخفى وراءها دلالات كثيرة وتوحى بعواطف ومعان متعددة غزيرة برغم سهولتها .

والصورة مبتكرة ملائمة للجو النفسى للتجربة . تنمو نموا عضويا حتى تصبح القصيدة كما وضحت فى تحليلى لبعض القصائد . بناء متماسكا . متناسقا معبرا

عن نفسية الأديب وشخصيته .

ى – تأثر المهجريون بالتراث العربى والإنسانى عامة وبالاداب الأجنبية وأثروا فيها كما جاء فى ديوان « المشرقيات لفيكتور هوجو » الذى اتبع فيه التنويع الموسيقى الذى استحدثه المهجريون فى قصائدهم ومطولاتهم .

ق – نوهت بالتطور الذى حدث فى مواقف بعض الأدباء من قضايا التأمل ومظاهره مع بيان التطور الذى حدث فى أسلوب التأمل نفسه ، فقد تحول عند بعضهم من التأمل « الميتافيزيقى » إلى التأمل العلمى بأسلوب يجمع بين شفافية الحس الأدبى وحقائق العلم الحديث .

وكذلك حاولت البحث عن جذور القضية التى أردت توضيح موقفهم منها – والوقوف على أبعادها التاريخية والعلمية كلما أمكن ذلك . كذلك قمت بمقارنة آراء بعض أدباء المهجر وأشعارهم بآراء وأشعار أدباء أوروبا الذين عاصروا ازدهار الرومانسية فى القرن التاسع عشر .

وكذلك مقارنة اشعارهم بأشعار المتصوفين الذين استمدوا منهم بعض أفكارهم فى موضوع النفس ، والوجود وما يتصل بهما من قضايا وآراء .

ل – كان التسامح الدينى طابعا مميزا لهم . وبعضهم هاجم رجال الدين المسيحى فى قصصه وأشعاره وبعضهم أنشد القصائد فى مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام « محمد رسول الله » واعتقدوا بأن الله موجود فى كل الوجود وبعضهم أثرت فيه فكرة التثليث فى الدين المسيحى ومنهم من نادى بأن الأدب غايته الاتحاد بالله . ولا غاية له سوى ذلك ، ومما أخذته على بعضهم التهاون فى استعمال الألفاظ التى لا تليق فى مخاطبة الإله ، أو إطلاق بعض الأوصاف على المسميات العادية وفيها ما يسىء إلى الشعور الدينى الغيور .

م – لم ينصب التأمل فى الوجود عندهم على أصل الكون ؟ وكيف وجد ؟ مثلما تعرض الفلاسفة لهذه القضية واختلفوا حولها وردوا أصل العالم إلى الماء أو النار أو الهواء أو العدد أو الذرة أو إلى الوجود نفسه ، وإنما تأملوا مظاهر الوجود الكونى وحقيقة الوجود الإنسانى وبحثوا عن حقيقة سعادة الإنسان وأدهشهم تناقض القيم التى

تحوطه من كل جانب وأمنوا بوحدة الوجود ومنهم من اعتقد فى ألوهية الإنسان .

ن – ابتعدوا فى بحثهم فى النفس عن مرحلة « البراجماتزم » أى المذهب العملى الذى رفع لواءه فى أمريكا وليم جيمز وجون ديوى وظلوا فى مرحلة « الأيديالزم ومرحلة الريالزم » والأولى تعنى بالبحث المثالى والثانية بالبحث الواقعى .

فقد بحثوا فى النفس بمعناها الفلسفى كما هى عند أفلاطون وابن سينا والغزالى وتوماس الاكوينى وقد خلط أغلبهم بين النفس والقلب والروح والعقل وأمن البعض بانفصال النفس عن الجسد وأمن بعضهم بالثنائية والآخرون يريدون تحطيمها .

س – اتسع مفهوم الحب عندهم حتى صار منهاج حياتهم . واتخذوا من الطبيعة دستورهم فى الحب ومبادئهم ومثلهم العليا . ومنهم من اتخذ من الطبيعة الحية رمزا للهجاء . ومنهم من تأمل الطبيعة الريفية وعالج مشاكلها .

وتجاوزوا فى تأملهم للطبيعة مرتبة الإشراف والاشتراك أو الاندماج إلى مرتبة الاتحاد أو الفناء الوجدانى واعتمدوا على التصوير الأسطورى والقصة الواقعية والرمزية الشعرية والقصة النثرية والمقالة القصيرة والكتاب الفلسفى الكامل فى موقفهم من الطبيعة واتحادهم بها حتى غالى بعضهم وتوهم أنه يستمد من الطبيعة دينه الذى يعتقده ويؤمن به .

ع – وتناقضوا فى موقفهم من الموت . فقد آمن بعضهم بأن الموت والحياة ممتزجان فلا حياة ولا موت وإنما هناك وجود دائم متجدد واعتقدوا أن ما يصيب الإنسان من مصائب فى حياته هو عقاب له على جرائم ارتكبها فى « حيوات سابقة » وسموا معتقدهم هذا تجدد الشخصية وأكده نعيمه فى روايته « اليوم الاخير » ومنهم من رحب بالموت تبرما بالحياة ومنهم من كرهه تعلقا بها ، ومنهم من أعطاه فلسفة اجتماعية ورآه ميدانا للمساواة .

ومراثيهم كانت متنفسا للتعبير عن قضاياهم الفلسفية التى تعلن عن معتقدهم فى الحياة والموت .

ف – وفى موقفهم من الحياة استخلصت أنهم مقبلون عليها برغم نصوصهم التى تهاجم الوجود والناس أحيانا . وهاجموا وجه الحياة الفاسد ولم يهربوا منها ، وثاروا على

الظلم لكنهم لم يشهروا سلاحا . بل كان جهادهم نواحا ، ومنهم من خاض غمار الحياة وعمل بالتجارة والصحافة . وتاه فى الغابات وحمل على ظهره أمتعته ، ومنهم من فتح المصانع ولاقى ثراء ونجاحا . والشكوى من الحياة نغم قديم جديد لا نهائى ولكن المهجريين تميزوا بالشكوى التى تعمق مفهومنا للحياة وتكشف عن خباياها ، وتبحث عن سر السعادة .

* *

وأخيرا أرجو أن أكون قد حققت ما قصدت إليه من تجلية لقيمة من قيم أدبنا العربى عامة والأدب المهجرى خاصة . وهى ظاهرة التأمل التى تكشف عن أصالة الأديب وجدية أدبه وتنبىء عن آفاقه الإنسانية الرحبة التى تبعد به عن الضحالة والتكلف .

فالأدب ترجمان لأمانى الأمه وأحلامها . يسمو بأفكارها ، ويبث الحياة فى مشاعرها .

وأمل أن يقبل الدارسون على أدبنا العربى بروح جادة تكشف عن كنوزه الثمينة وجواهره الأصيلة . وأن يقفوا على جوانب التأثير والتأثر بين أدبنا العربى والآداب الأخرى العالمية .

وأسأل الله التوفيق والعون ،

عليه نتوكل وبه نستعين .

(د . صابر عبد الدايم)

الزقـــازيق : التـــاسع من مارس ١٩٨١ م

إضافة ختامية : هذا الكتاب كان فى صورته الأولى دراسة أعدت لنيل شهادة العالمية « الدكتوراه » وقد نوقشت هذه الرسالة فى ١٩٨١/٣/٩ وحصل المؤلف على الدكتوراه فى الأدب والنقد مع مرتبة الشرف الأولى . وتكونت لجنة المناقشة من :

أ . د / عبد اللطيف خليف نائب رئيس جامعة الأزهر السابق مشرفاً

أ . د / محمد السعدى فرهود رئيس جامعة الأزهر السابق مناقشاً

وأ . د / طه مصطفى أبو كريشه وكيل كلية اللغة العربية بالقاهرة مناقشا .



(المصادر والمراجع)

المؤلف	الكتاب
(أ)	
١ - أبو العلاء المعرى	لزوم ما يلزم
٢ - أبو بكر محيى الدين بن عربى	(أ) ديوان ابن عربى ج ١ ، ج ٢ المكتب التجارى للطباعة والنشر ليبيا .
	(ب) ترجمان الأشواق
٣ - ابن طباطبا العلوى	عيار الشعر ط مصر
٤ - ابن الرومى	ديوان ابن الرومى ، ط مصر .
٥ - ابن الفارض	ديوان ابن الفارض ، ط مصر .
٦ - د / إحسان عباس ، محمد يوسف نجم	(أ) الشعر العربى فى المهجر، أمريكا الشماليه ١٩٦٧ ط ٢ دار صادر - بيروت - لبنان
	(ب) فن القصة - دار الثقافة بيروت - لبنان ١٩٧٤م .
	(جـ) فن الشعر - دار الثقافة - بيروت - لبنان - ١٩٥٩م .
٧ - احمد بن محمد بن على الفيومى	المصباح المنير المطبعة الأميرية بالقاهرة .
٨ - احمد زكى ابو شادى	من السماء نيويورك ١٩٤٩ م .
٩ - احمد رامى	رباعيات الخيام « ترجمة ونظم » أحمد رامى مكتبة غريب
١٠ - د / أحمد هيكل	الأدب الاندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة - دار المعارف بمصر ١٩٧١ م .

١١ - الآمدى — الموازنه بين الطائيين .

١٢ - أ . ى نيكلسون — الصوفية فى الإسلام .

١٣ - د / أنس داود — (أ) التجديد فى شعر المهجر - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ القاهرة .

(ب) الطبيعة فى شعر المهجر - الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

١٤ - الرازى — مختار الصحاح المطبعة الأميرية ١٩٩٢ .

١٥ - أنيس المقدسى — الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٧م .

١٦ - الياس فرحات — أحلام الراعى - سان باولو - ١٩٥٢ م .

١٧ - أمين الريحانى — الريحانيات .

١٨ - إيليا ابو ماضى — (أ) الجداول - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩م .

(ب) الخمائل - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩ .

(جـ) تبر وتراب - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٧ .

(د) تذكار الماضى - دار العودة بيروت ١٩٧٤ م

١٩ - إيليا حاوى — فوزى المعلوف : شاعر البعد والوجد .

(ث)

٢٠ - ثريا كرم ملحس — القيم الروحية فى الشعر العربى - بيروت لبنان .

(جـ)

٢١ – جبران خليل جبران

الأرواح المتمردة – البدائع والطرائف ، النبى – ترجمة أنطونيوس بشير ، وترجمة د / ثروت عكاشه – حديقة النبى – دار العودة بيروت .

عيسى بن الإنسان – دار المعارف بمصر .

عرائس المورج – مطبعة كرم ومكتبتها ، دمشق
الأجنحة المتكسرة – مطبعة كرم ومكتبتها دمشق
رسائل جبران – المكتبة الأدبية بيروت لبنان .

رمل وزبد – دار المعارف ١٩٧٤ .

دمعة وابتسامة .

٢٢ – جميل صليبا

من أفلاطون إلى ابن سينا دار الأندلس

٢٣ – جورج ديمترى سليم

إيليا أبو ماضى ، دراسات عنه وعن أشعاره المجهولة – دار المعارف بمصر ١٩٧٧ .

٢٤ – جورج صيدح

أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية دار العلم للملايين . بيروت – لبنان

حكاية مغترب – (دار مجلة الشعر بيروت ١٩٦٠) .

٢٥ –جورج غريب

أبو الفضل الوليد « شاعر الحمراء » دار الثقافة بيروت ١٩٧٣ .

أدب الرحلة « تاريخه وأعلامه – دار الثقافة بيروت ١٩٧٢ .

(ح)

٢٦ – حامد عبد القادر

دراسات فى علم النفس الأدبى – القاهرة ١٩٤٩ .

٢٧ - د / حسن جاد — الأدب العربى فى المهجر - دار الطباعة المحمدية ١٩٦٣ .

٢٨ - د / حسين نصار — الطبيعة والشاعر العربى - مكتبة دار نهضة الشرق ١٩٧٣ .

(ر)

٢٩ - د / رشاد رشدى — فن القصة القصيرة - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ .

٣٠ - رشيد أيوب — أغانى الدرويش . دار صادر بيروت ١٩٥٩ .

الأيوبيات - دار صادر بيروت ١٩٥٩ .

هى الدنيا - دار صادر بيروت ١٩٥٩ .

٣١ - رشيد سليم الخورى « القروى » — ديوان القروى الجزء الأول - الجمهورية العربية الليبية - وزارة الدولة ١٩٧١ .

ديوان القروى الجزء الثانى الجمهورية العربية الليبية وزارة الدولة ١٩٧١م .

٣٢ - رياض المعلوف — الأوتار المتقطعة - المطبعة العصرية بمصر ١٩٣٣ .

خيالات - سان باولو . البرازيل ١٩٤٥ .

ريفيات - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٣ .

زورق الغياب - المكتبة العصرية للطباعة والنشر صيدا - بيروت ١٩٥٥ .

صور قروية - دار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٩٦٥ .

غمائم الخريف . مطبعة - مارأفرام ١٩٧٤ - نسخه

أهداها الشاعر إلى

« مجموعة رسائل أرسلها الشاعر إلى وبها مادة أدبية خصبة تفيد دارسى «أدب المهجر»

مجموعة قصائد مخطوطة لم تنشر بعد بعث بها الشاعر إلى.

٣٣ – روبستر ريفور هاملتون | الشعر والتأمل – المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر ١٩٦٣ .

(س)

٣٤ – سامى الكيالى | أمين الريحانى

(ش)

٣٥ – شفيق معلوف | الأحلام – مطبعة أنجليل . بيروت – ١٩٢٦ .

حبات زمرد – مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومى دمشق ١٩٦٦ .

ستائر الهودج – بيروت ١٩٧٥ مطبعة مارأفرام .

شرارة وقصص أخرى – دار الأندلس بيروت ١٩٦٤ .

عبقر – سان باولو . البرازيل ١٩٤٩ .

لكل زهرة عبير – دار الأحد – بيروت ١٩٥١ .

نداء المجاديف – دار الأحد بيروت ١٩٥٢ .

٣٦ – شكر الله الجر | الروافد – ريودى جانيرو ١٩٣٤

(ص)

٣٧ – صالح جودت — بلابل من الشرق – دار المعارف بمصر ١٩٧٢ .

(ط)

٣٨ – د/ طاهر عبد المجيد — الفلسفة الإسلامية : منشورات جامعة السنوسى
عباس العقاد — بالبيضاء ليبيا .

٣٩ – د / طه حسين — مع المتنبى

(ع)

٤٠ – عباس العقاد والمازنى — « الديوان » مطبوعات دار الشعب ط ٣ .

عباس العقاد . — شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ .

٤١ – د / عبد الحكيم بلبع — حركة التجديد الشعرى فى المهجر بين النظرية والتطبيق . مكتبة الشباب ١٩٧٤ .

٤٢ – د / عبد الحى دياب — عباس العقاد ناقدا – الدار القومية للطباعة دار التأليف ١٩٦٩م .

٤٤ – عبد الغفار مكاوى — ثورة الشعر الحديث « الجزء الأول والثانى » الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ .

٤٥ – عبد القاهر الجرجانى — دلائل الإعجاز – مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ط ٦ ١٩٦٠ .

٤٦ – د / عبد الكريم الاشتر — النثر المهجرى معهد الدراسات العربية ١٩٦١م .

٤٧ – د / عبد اللطيف خليف — التيارات الجديدة فى الشعر العربى الحديث فى

مصر ١٩٧٧ .

٤٨ - د / عز الدين اسماعيل — التفسير النفسى للأدب - دار العودة ودار الثقافة بيروت - ١٩٦٣ .

٤٩ - على الجمبلاطى — أبو الفضل الوليد الدار القومية للطباعة والنشر

٥٠ - عيسى الناعورى — أدب المهجر دار المعارف بمصر ١٩٥٩م .

(ف)

٥١ - فؤاد الخشن — سنابل حزيران - دار المعارف بمصر ١٩٧٢ .

٥٢ - فاروق سعد — حى بن يقظان « لابن طفيل » - دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٤ .

٥٣ - د / فاطمه موسى — بين أدبين « دراسات فى الأدب العربى والانجليزى » - مكتبه الأنجلو المصرية ١٩٦٥ .

٥٤ - فوزى المعلوف — شعلة العذاب « مخطوطة أرسلها إلى شقيقه رياض المعلوف .

(م)

٥٥ - مجد الدين الفيروزبادى — القاموس المحيط مطبعة السعادة بمصر .

٥٦ - محجوب الخورى الشرتونى — ديوان الشاعر مطبعـة جريدة السمير بنيويورك ١٩٣٧ .

٥٧ - محمد عبد الغنى حسن — أشعار وشعراء من المهجر - دار الهلال عدد محرم ١٣٩٣ هـ .
الشعر العربى فى المهجر : مكتبة الخانجى ١٩٥٥ .

٥٨ - د / محمد عبد المنعم خفاجى — قصة الأدب المهجرى ج ١ ، ج ٢ - دار الطباعة المحمدية١٩٧٢م.

دراسات فى الأدب العربى المعاصر – دار الطباعه المحمدية ١٩٧٤ م .

٥٩ – د / محمد غنيمى هلال — الرومانتيكية – مطبعة نهضة مصر .

مختارات من الشعر الفارسى – الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ القاهرة.

٦٠ – محمد محمد عبد المجيد — فى عالم الرؤيا « مختارات من مقالات جبران » مطبعة التوفيق الأدبية .

٦١ – محمد محمد زكى الدين — فى عالم الأدب -الكتابة والشعر عند جبران خليل .

٦٢ – محمد مصطفى هداره — التجديد فى شعر المهجر – دار الفكر العربى ١٩٥٧ م .

٦٣ – د / محمد مندور — فى الميزان الجديد ط ١٩٤٤ م .

خليل مطران : دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٥ .

٦٤ – د / محمود الربيعى — فى نقد الشعر – دار المعارف فى مصر ١٩٧٥ .

٦٥ – د / محمود قاسم — فى النفس والعقل – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤ م .

دراسات فى الفلسفة الإسلامية – مكتبة الأنجلو المصرية .

٦٦ – محمود الشريف — ثورة قازان فى معلقة الأرز سان باولو ١٩٤٠ م .

٦٧ – مسعود سماحه — ديوان الشاعر : جزآن – نيويورك ١٩٣٨ م .

٦٨ – د / مصطفى محمود — لغز الحياة .

٦٩ – د / مصطفى ناصف — قراءة ثانية لشعرنا القديم – منشورات الجامعة الليبية كلية الآداب .

٧٠ – د / محمد عبد الرحمن بيصار
القلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب مطبعة مخيمر .

٧١ – ميخائيل نعيمة
أبو بطة مؤسسة نوفل للطباعة والنشر بيروت .

أكابر – دار صادر بيروت .

الآباء والبنون – دار صادر بيروت ط ٦ ١٩٦٧م .

الأوثان : مؤسسة نوفل للطباعة والنشر ١٩٧١م ط ٧ .

البيادر – دار صادر بيروت ط ٢ ١٩٥٠ م .

الغربال دار المعارف بمصر ١٩٤٦ مؤسسة نوفل بيروت .

المراحل – مؤسسة نوفل بيروت ط ٦ ١٩٧١م .

اليوم الأخير – دار صادر بيروت ط ٣ ١٩٦٧م .

جبران – بيروت ١٩٤٣م .

زاد المعاد – دار صادر بيروت ط ٦ ١٩٧٠ م .

صوت العالم – دار صادر بيروت ط ٥ ١٩٦٧م .

فى مهب الريح – دار صادر بيروت ط ٤ ١٩٦٦م .

مرداد – دار صادر بيروت ط ٥ ١٩٦٦م .

مذكرات الأرقش موسسة نوفل بيروت ط ٥ ١٩٧١م.

همس الجفون مؤسسة نوفل بيروت ط ٥

هوامش مؤسسه نوفل بيروت ط ٣ ١٩٧١م .

(ن)

٧٢ – نادرة جميل السراج — ثلاثة رواد من المهجر – دار المعارف بمصر ١٩٧٣ .

شعراء الرابطة القلمية دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

نسيب عريضة الكاتب الشاعر الصفحى دار المعارف بمصر ١٩٧٠م .

٧٣ – ندرة حداد — أوراق الخريف ١٩٤١ .

٧٤ – نسيب عريضة — الأرواح الحائرة نيويورك ١٩٤٦ .

٧٥ – د / نظمى عبد البديع محمد — أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب – دار الفكر العربى ١٩٧٦ .

هذه هى مصادر البحث ومراجعة كما وردت .. وهناك دوريات كثيرة مثل مجلة الثقافة العربية الليبية والثقافة المصرية والأديب اللبنانية وغيرها تطالعنا من آن لآخر بالبحوث والمقالات فى أدب المهجر ، وكذلك كتب التراث العربى ودواوين الشعراء القدامى التى تساعد فى تجلية عوامل التأثير والتأثر وكذلك هناك بعض المترجمات التى أتاحت لى الاطلاع على الأدب الأجنبى وساعدت على تفهم روح الأدب المهجرى ، ولم تثبت هنا لأننى أعدها مراجع عامة ، تساعد فى تكوين الذوق الأدبى والقدرة على تحليل النصوص الأدبية والموازنة والمقارنة بين الأعمال الأدبية

وبالله التوفيق

(المحتوى)

الباب الأول

الباب الثانى



كتب أخرى للمؤلف

أولا : دراسات أدبية ونقدية

الكتاب	النشر
١ – مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر	دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢م
٢ – محمود حسن اسماعيل بين الأصالة والمعاصرة	دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤م
٣ – الأدب الصوفى : اتجاهاته وخصائصه	دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤م
٤ – من القيم الإسلامية فى الأدب العربى	مطابع جامعة الزقازيق ١٩٨٨م
٥ – التجربة الإبداعية فى ضوء النقد الحديث	نشر مكتبة : الخانجى بالقاهرة ١٩٨٩ م
٦ – الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق	دار الأرقم بالزقازيق سنة ١٩٩٠م
٧ – الأدب المقارن	مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٩٩٠م
٨ – موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور	ط٣ مكتبة الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٩٢ م
٩ – فن كتابة البحث الأدبى والمقال بالاشتراك مع د/ محمد داود	مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٩٨٤م
١٠ – « شعراء وتجارب » نحو منهج تكاملى فى النقد التطبيقى	– تحت الطبع
١١ – قصيدة البردة لكعب بن زهير « رؤية نقدية معاصرة	– تحت الطبع
١٢ – الشعر الأموى فى ظل السياسة والعقيدة	– تحت الطبع
١٣ – الحديث النبوى [رؤية فنية جمالية]	– تحت الطبع

ثانياً : دواوين شعرية

الكتاب	النشر
١ – ديوان : نبضات قلبين	مطبعة الموسكى بالقاهرة عام ١٩٦٩

٢ – ديوان « المسافر فى سنبلات الزمن »	مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٩٨٢م
٣ – ديوان « الحلم والسفر والتحول »	سلسلة « مواهب » المركز القومى للفنون والآداب ١٩٨٣ م
	الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٨م
٤ – « المرايا وزهرة النار »	« قيد الطبع » : الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية
٥ – ديوان « العاشق والنهر »	
٦ – ديوان « مدائن الفجر »	قيد الطبع رابطة الأدب الاسلامى العالمية
٧ – « النبوءة » مسرحية شعرية	قيد الطبع

* * *

رقم الإيداع	٩٣/٥٠٨٤
الترقيم الدولى	I.S.B.N 977-02-4102- 4

٣٦ / ٩٢ / ٣

جولدن ستار للطباعة